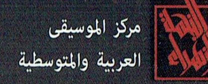
الطرق الصّوفية وروّادها بالبلاد التونسية

تأليف

حسين الحاج يوسف

عبد الوهاب بوزڤرو



مركز الموسيقى العربية والمتوسطية

منشورات سوتيميديا

الطرق الصّوفية وروّادها بالبلاد التونسية

تأليف

حسين الحاج يوسف
عبد الوهاب بوزقرو

الطبعة الأولى: تونس 2023

*** *** ***

وزارة الشؤون الثقافية

مركز الموسيقى العربية والمتوسطية - النجمة الزهراء

العنوان : 8 نهج 2 مارس 1934، 2026، سيدي بوسعيد

الهاتف : +21671740102/+21671728975 **الفاكس :** +21671746490

البريد الالكتروني: info@cmam.tn **الموقع:** www.cmam.tn

*** *** ***

سوتيميديا للنشر والتوزيع

العنوان : ص ب 570 تونس - حشاد 1049 تونس

الهاتف : 00216 36341261 **الجوال :** 00216 25886601 **الفاكس :** 00216 32400756

contact@sotumedias.tn www.facebook.com/sotumedias

** *** ***

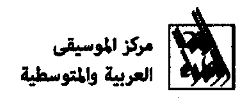
ر.د.م.ك

978-9938-61-072-7

سوتيميديا

الطرق الصّوفية
وروّادها بالبلاد التونسية

لوحة الغلاف : صورة من عرض «هاج الغرام»
تظاهرة «صوفيات» المخصصة للتراث الصوفي التونسي
من 12 إلى 15 أفريل 2023 - النجمة الزهراء



الطرق الصّوفية وروّادها بالبلاد التونسية

تأليف

حسين الحاج يوسف
عبد الوهاب بوزڨرو

سوتيميديا

فهرس الكتاب

التقديم 9

من التصوف إلى الموسيقى 15
السماع والأصوات 21
تفاعلات الطرق الصوفية مع الموسيقى المحلية بتونس 33
جدلية الموسيقى والإنشاد الصوفي 41
التداوي بالموسيقى 61

الطرق الصوفية بتونس حسب التسلسل التاريخي

الجنيد شيخ الصوفية 73
الطريقة القادرية 79
نموذج من وظيفة قادرية خاصّة بمدينة قفصة 99
فرقة الحوامد الصوفية بالمنشية (ولاية قبلي) 105
الطريقة الرفاعية 107
الطريقة المَدْيَنِيَّة (المدنية) 111
تفرّع القادرية 121
الطريقة البوعلية 125
الحزامية فرع عن الطريقة البوعلية 141
الطريقة السنّية (السنانية) 151

الطريقة الشاذلية 155
الطريقة الجزولية 175
الطريقة العيساوية 179
الطريقة الزرّوقية 209
الطريقة السلامية (العروسية) 217
الطريقة الناصرية 245
الطريقة الشابيّة 249
الطريقة الغريانية 255
الطريقة القشّاشية 259
الطريقة العوامرية 263
نموذج من سهرة في ليلة الجمعة بالزاوية 271
زيارة أحزاب العوامرية غير الصفاقسية 281
الطريقة الشطّية بمساكن 283
نموذج من سهرة شطيّة 287
الطريقة العزّوزية 293
الطريقة الطيبية 297
الطريقة التهامية فرع عن الطريقة الطيبية 305
الطريقة العمَّارية 311
ورد ليلة الأحد 315
ورد ليلة الاثنين 316
ورد ليلة الثلاثاء 316
ورد ليلة الإربعاء 316
ورد ليلة الخميس 316
ورد ليلة الجمعة 316
ورد ليلة السبت 316
الطريقة الخلوتية 321
الطريقة الرحمانية 329
الطريقة الحفوظية فرع عن الطريقة الرحمانية 339
صورة من احتفالات حزب الحفوظية 347

الطريقة التيجانية 353
الطريقة الدرقاوية 365
الطريقة المدنية (الدرقاوية) 371
مدنية النساء بالمنستير(مدنية ظافر) 377
الطريقة العلاوية 395
الطريقة المدنية (العلاوية) 401
فرع المدنية: الطريقة الغوثية 413
فرع المدنية: الطريقة الهادفية 419
فرع الهادفية: الطريقة القاسمية 425
طرق تسافر وطرق تهاجر 427
الطريقة الساعدية 429
الطريقة الدّسوقية 431
الطريقة النقشبندية 449
أشباه طرق وعادات 475
وجق دار شعبان الفهري 477
عادة السيدة عائشة المنوبية 489
العادة الحطابية 495
نوبات الأولياء الصالحين من غير أصحاب الطرق 499
أم الزين الجمالية 505
طريقة أولاد الحشّان 511
الطرق الزنجية 513
أحزاب الفكاهة 519
حزب الفليون 521
حزب البلّوط 527
خاتمة 533
قائمة المراجع والمصادر 537

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

التقديم

عندما فاتحني الأستاذ حسين الحاج يوسف في موضوع هذا الكتاب كنت أتصوّر صعوبات جمّة ستعترضنا، ولكنّني لم أكن أتصوّر أنها ستكون بمكان. فقد خيّل إليّ أنّ الكتب والمنشورات حول هذا الموضوع متوفّرة، فقد كنت أرى في ارتيادي للمكتبات عناوين كثيرة لكتب الصوفية، وكنت لا أقرؤها نظرا لاهتمامي بميادين أخرى بعيدة عن التصوّف، فكانت معرفتي به معرفة سطحية كمعرفة عامّة الجمهور.

وسبق لي أن سجّلت ثلاث حصص من برنامج "مؤلف وكتاب" بإذاعة المنستير سنة 1979 مع الشيخ منوّر المدني مقدم الطريقة المدنية بقصيبة المديوني، بمناسبة نشر ديوان والده الشيخ محمّد المدني "أنيس المريد في التّصوّف والتوحيد"، فقدّمنا فيها فكرة حول الممارسات الصوفية وخصوصا المواعيد والحضرات، وأثناء ذلك تعرّفت إلى العديد من ممارسات الصوفية غير المدنية، ولكن بقي الموضوع بالنسبة إليّ مجرّد ظاهرة دينية واجتماعية جديرة بالدّراسة ولكن ليست من أولويات اهتماماتي.

أن أدرس الصوفية من الناحية العقدية لم يكن مما يثير اهتمامي، فإنّ أمثلة كثيرة كانت تنفر مثلي ممّن يدّعي العقلانية والتبصّر أن يدخل في شطحات الصوفية،

ويفهم بدون تحيّز محنة الحلاّج، أمّا أن أخصّص دراسة للصوفية في موضوع الموسيقى، فهذا شيء بالنسبة إليّ، له من الطرافة ما يثير الاهتمام، خصوصا عندما أجد نفسي صحبة أستاذ جامعي في الموسيقى ومحاطا بدكتور في هذا الفنّ هو الدكتور محمد بن الهاشمي زين العابدين. إذن، لم يبق إلاّ أن أخوض المغامرة.

لعلّه من حسن حظّي، أو من حسن حظّ هذا الكتاب، أن كان الأستاذ حسين الحاج يوسف قد سبق أن قام بدراسات ميدانية وسفرات وجولات وتسجيلات مع إذاعة المنستير جابت أنحاء كامل الجمهورية تقريبا، ولم تترك شاردة ولا واردة إلاّ أحصتها. فلمّا عرض عليّ هذا العمل وجدت مشجّعا على المساهمة في تأليف هذا الكتاب، حيث أنني لن أفتقر إلى المادّة من ناحية، ولن أضلّ السبيل مع هذين الاختصاصيين، وسيتلخّص دوري في بعض البحوث الأدبية، وتحقيق بعض التراجم، والتأليف الأدبي، بينما ستكون للأستاذ حسين الناحية الفنية والعلمية، وستكون للدكتور الإحاطة والتصويب والتوجيه.

هكذا بدا العمل سهلا في الوهلة الأولى، لكنّ الصعوبات شرعت تخرج رؤوسها كالأفاعي من أجحارها، الواحدة بعد الأخرى كلّما تقدّمنا خطوة في التأليف، وكلّما قلنا: "ها..قد انتهينا! " يأتي من يقول: " وأنا أيضا جدير بالدّراسة! " و" أنا أيضا جدير أن يُفرد لي فصل! " و"أنا مستقل، ولست فرعا من أصل ! "، ولله درّ الكمبيوتر! لقد صبر هو الآخر على كلّ هذا، وساعدنا مساعدة كبيرة في سرعة تصنيف هذه الأشياء وتنظيمها وتصفيفها، دون أن يجعلنا نملّ أو ننسى شيئا في رحلة التنقيل والتغيير والتبديل والتنقيح والإضافة والتصحيح.

وفي أثناء ذلك كانت تعترضنا صعوبات جوهرية: الأولى: أنه ليس كلّ ما نحتاج إليه في دراستنا يمكن أن نجده في الكتب. ذلك أنّ أغلب هذه الكتب المتوفّرة درست الموضوع من الناحية التاريخية أوالعقائدية أو غير ذلك، ولم نعثر على من تطرّق للموضوع من الناحية الموسيقية، رغم وجود بعض الشذرات النادرة مبثوثة هنا أو هناك، اللّهُمَّ إلاّ ما ذكر في بعض السفاين ولا غُنْيَة فيه ولا شفاء لغليل. فلا بدّ، إذن، من بحوث ميدانية وزيارات على عين المكان وتنقّل من بلدة إلى بلدة، وتصحيح بعض المعلومات من أفواه

أصحابها، بعد أن قدم العهد بالتسجيل الإذاعي والتلفزي، أو بدونه.

الثانية: أنّ ما نجده يفتقر إلى الموضوعية، حيث إنّه لا يطابق الواقع في بعض الأحيان، وإنّما هو تعبير عن انطباع الكاتب أو المؤلّف أكثر منه تصوير للواقع الصحيح.

الثالثة: غياب الموضوعية بين من يروون لك وهم متحمّسون للطريقة فيبالغون أحيانا لدرجات واضحة، وبين من يروون لك وهم من خصومها، فيبالغون أيضا في انتقادها والبحث عن مثالبها.

وهكذا كانت الصعوبة على واجهتين: الواجهة الأولى: الناحية العقدية والدينية؛ والثانية: الناحية الفنية والموسيقية. أمّا الناحية الأولى، فقد أحجمنا عن القول فيها قولا لا نرى أنفسنا أهلا للخوض فيه، وأما الناحية الموسيقية العلمية فإنّ صعوبة أيضا تعترضنا وهي إصدار حكم نزيه، وهذا يبدو صعبا جدّا، لأنّ الهدف الأساسي لدى كلّ الطّرق الصوفية ليس الموسيقى بل تطرية الذهن البشري وتأنيس النفس الإنسانية بالحضور في السبحات الروحية، والموسيقى مساعد على ذلك، فهي وسيلة وليست هدفا، فيُكْتَفَى منها بما يبلّغ الحاجة. لذلك لم تكن لنا أحكام بقدر ماكان لنا محاولة تسجيل وتوثيق للواقع وإبداء ملاحظات لا نريد منها أن تكون أحكاما مطلقة على ذوق يحكمه الإحساس.

لكن الدراسة بيّنت أنّ الطرق الصوفية كانت من أبرز الظواهر التي حافظت على التراث الموسيقي، من ناحية، ومن ناحية أخرى ربّما طعّمت هذه الطرق بألحانها وسبحاتها موسيقى الطرب، فكانت هذه الأخيرة عالة عليها في كثير من الأحيان. ولعلّ ذلك من المستغرب، لكنّه يكوّن حقيقة تاريخية معروفة لدى أرباب الموسيقى بما حفظته هذه الطرق ممّا يسمّونه مالوف الجد وكيف استطاع أهل مالوف الطرب الاستفادة منه لفنّهم.

إنّ الّذي يستحضر أجواء الطرب التي تحدثها وصلات المالوف في النفس وما تليّنه من المشاعر وما تسمو به في عالم بعيد عن الكون المادّي، لا يمكن مقارنتها بما تحمل كلمات هذه الوصلات من معان لا تسمو هذا السموّ الذي نجده في الموسيقى، بينما

المستمع إلى الأناشيد الصوفية من المدائح والبحور دون الصنائع، يجد المناسبة بين هذه الألحان والكلمات التي صيغت لها بل ربّما يرى الألحان عاجزة عن بلوغ المعاني المطلوبة رغم الجهد والبحث الذي بذله المنشد أو الملحّن.

وهنا يعترضنا معترض فيقول: كيف يستقيم عندكم: أنّ الموسيقى ليست هدفا عند الصوفية فيُكتفى منها بما يبلّغ الحاجة، ثمّ تكون هي أرقى من المالوف الذي نعتبره من أرفع ما وصلت إليه موسيقانا ؟

وهو سؤال وجيه، لكنه لا يغيّر من الواقع شيئا، فصحيح أن الطرق الصوفية لا تبحث عن الموسيقى على أنها فنّ مستظرف تحبّ أن تتقدّم فيه شوطا، وإنّما تعتبرها وسيلة من وسائل تخريج النفس البشرية من روتين حياتها العادية والسبح بها في ملكوت الروح حتّى ترتفع عن هذه المقاييس الماديّة؛ وتجتمعَ مخلوقاتُ الله تعالى في صعيد واحد في الشوق والتوق والنزوع إلى الله في مقام يستوي فيه الإنسان بالحيوان والجماد، والمفاضلة بين هذه المخلوقات تكون بالقرب أكثر من حضرة الجليل الخالق العظيم. وحيث إن الموسيقى تمكّن النفس عن طريق الإيقاع والنغم من إحداث مثل هذا السموّ، كان التجاء الصوفية إليها، مثل التجائهم للتأمّل والعزلة والتفكّر الدائم وغير ذلك من الممارسات المعهودة لديهم، وهذا التسامي، وهذا السبح يجعلانهم يكتشفون من جملة ما يكتشفون مجاهل في النغم والإيقاع والموسيقى مما لا يبلغه من يبحث عنها بعينها بصفتها مبحثاً أصليّا من فنّ الموسيقى. وللبرهنة على هذا ما زلتَ تجدُ من بين أصحاب الطرق الصوفية من يخلطون بين الأنغام ولا يكادون يعرفون شيئا عن الموسيقى، وهم مع ذلك يأتون بأشياء على السليقة تثير الاهتمام. أما الطرق التي اهتمّت بالموسيقى فقد بلغت درجات من الرقيّ لا ننكر قيمتها أمام ما يروج من موسيقى في أوساطنا.

إنّ كتابنا هذا ليس إلاّ لبنة نضعها في صرحٍ نأمل أن يتواصل بناؤه مع أبنائنا من طلبة مدارس الموسيقى ومعاهدها ومن غيرهم، خدمة لتراثنا وحضارتنا وبالتالي شخصيتنا التي يجب علينا جميعا أن نعمل على إبرازها وتميّزها كي نساهم المساهمة الفعّالة في التراث الإنساني نحو سعادة الإنسان. ولنا تساجيل لأغلب ماجاء في الكتاب

بالصوت، وفي بعض الحالات بالصوت والصورة معا. وقد تبيّن لنا أنّه بالإمكان إفراد كلّ طريقة بكتاب خاص يجمع ما لها من مدائح ونوبات وبحور وخصائص تميّزها عن أخواتها من الطرق.

وأخيرا يُسعدني وزميلي الأستاذ حسين الحاج يوسف أن نتقدّم بالشكر لكلّ من ساعدنا بأيّ طريقة كانت ولا نريد أن نخصّ أحدا، فالكلّ لهم الفضل في صدور هذا الكتاب.

عبد الوهاب بوزڨرو

* **ملاحظة:** سوف نستعمل الحرف (ڨ) كما ينطق عندنا في تونس وهو نطق القاف البدوية أو النطق الفرنسي (gue) أو الجيم المصرية ولا علاقة له باستعمال آخر.

من التصوف إلى الموسيقى

إن كان من أهمّ قواعد الصوفية توطين النفس على قوّة الإرادة، والسلوك بها إلى ذات الله تعالى بالواسطة التدريجية، ولا يمكن ذلك إلا بتطهير النفس وكبح جماح الغرائز وترويضها على تخطّي مطالبها المادّية في سبيل الوصول إلى مبتغاها، فإن ذلك الوصول لا يمكن أن يكون إلا عن طريق شيخ يريك شخوصها[1]، وسلوك الطريق التي خبرها، وأخذها عن غيره من شيوخه شيخا عن شيخ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وحيث إن سلوك هذه الطريق يستلزم من الطالب تكاليف ونُظما شديدة المؤنة وصعبة التحقيق لا تتأتّى للعموم من النّاس، فإن انتشارها بين العامّة لا يمكن بحال من الأحوال أن يجعلها تحافظ على مسارها الصحيح ولا تنزلق في متاهات الخيالات والأوهام والتخلّي عن الحياة جريا وراء ما تصوّره تلك الخيالات، وهكذا تستحدث لها محدثات غير الطريقة الأصلية، وتدخل فيها شعارات وأنظمة تحيد بها عن مسارها الصحيح، وربّما تصل بها إلى عكس المقصود تماما. فقد أصبحت الطرق الصوفية عموما تقتصر على المظاهر الاحتفالية، فصارت مجرّد لقاءات أنس تُغنّى فيها الألحان المطربة المرقصة وتُقدّم فيها الأناشيد الفنّية الرقيقة وتمجّد فيها أسماء الله لا بالخشوع

1 يقول روجيه أرنلدز في مقال له بالموسوعة (Universalis) الصادرة بفرنسا سنة 1997 بعنوان (المرابطية): "إن الفكرة الأساسية تتمثّل في أنه كي يمكن التوغل في طريق الصوفية (الطريقة) من الضروري أن يكون هناك قائد (شيخ) يجب الخضوع السلبي والكامل له والثقة به ثقة عمياء، فذلك من أساس التعاليم التي تلقّاها هؤلاء الشيوخ، وكذلك ورعهم فهم أحباب الله المقدّسون، وهم ليسوا مجرّد قادة روحيين بل وحماة زمنيين... وهكذا ظهر الترتيب التفاضلي الذي يختلف من مدرسة(صوفية) إلى أخرى، لكننا نجد في القمّة غوثا (نجدة) الذي يتحمّل عن الناس شقاءهم، والقطب الذي تدور حوله إدارة شؤون العالم."

بل بالألحان المضبوطة النغمات على توقيع الآلات الموسيقية المختلفة انطلاقا من الدف المربع البسيط وصولا إلى الآلات الموسيقية الحديثة.

نشأ التصوّف بصفته فكرة زهديّة عن طريق عدّة عوامل تمازجت فيما بينها كان المقصود منها نبذ الدنيا والتعلّق بالروحانيات والماورائيات والبحث عن سعادة الرّوح بعد أن عجز الجسد عن توفيرها في هذه الحياة الدنيا.

يقول أحمد أمين: "... ولأن الناس فقدوا الدّنيا، فتطلعوا إلى الآخرة، ويئسوا من العدالة الاجتماعية في الأرض فأمّلوها في السماء، ولم يجرؤوا أن يثوروا في وجوه الحكّام يطالبونهم بتحقيق العدل، فقنعوا بالسلامة وضعفت عقولهم عن تمييز الحقّ من الباطل وملؤوها بالخرافات والأوهام، ولم تتجرّد طبيعتهم من اللهو فأدخلوه في التّصوّف فكان فيه الغناءُ والموسيقى والرّقص وألعاب البهلوان، وعجزوا عن ربط المسببات بالأسباب فهُرِعوا إلى المتصوّفة يمنحونهم البركة ويستقضون منهم حوائجهم ويقرعون بهم أبواب السماء، فامتلأت البلاد بأرباب الطرق ومشايخ الصوفية ومدّعي الولاية."[1]

تمازج هذه الأسباب فيما بينها أخرج الطرق الصوفية للناس على أنها نوع من التعويض الروحي عن الحرمان المادي والسياسي والاجتماعي، إذ أن ازدهار هذه الطرق تزامن مع فترات القلاقل السياسية التي داهمت الخلافة الإسلامية في أبعد أصقاعها منذ القرن الثاني للهجرة أي القرن الثامن للميلاد.

تعتبر نشأة مجتمع الرباطات، عندما استتبّ أمر المسلمين على الثغور، بداية ظهور فكرة الانقطاع عن الناس قصد المرابطة والحراسة بما يحملان من مقاصد دينية وأمنية، ولكن بمجرّد أن فقدت هذه المؤسسات دورها العسكري أخذت دورا تعليميا جديدا، تعضده الفتوحات الإسلامية ودخول عدّة ثقافات وفلسفات كالهندية والبوذية والزرادشتية والمانوية والبراهمانية والأفلاطونية وغيرها مما كان له تأثير في تطور الحركة الفكرية في البلاد الإسلامية، فكان ذلك ردّة فعل في وجه هذا الغزو الفكري.

مثل هذا التفكير يحيل إلى الدين مباشرة، إذ يؤكد القرآن الكريم: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

1 أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، الجزء 4، ص219.

كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} المدّثر38. فهو يهتمّ بالفرد بصفته كائنا كاملا وليس عنصرا من مجموعة عناصر يذوب فيها ذوبان القطرة في البحر، فالمرء عالم وحده، له واجباته العينية التي لا ينوبه فيها ولا يتحمّل تبعاتها عنه أحد، ومثل هذه الآية: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) الزخرف} تضع عدّة تساؤلات أمام المرء، وتجعله يتّخذ موقفا من كل شيء، ولا ينساق وراء كل ناعق، حتى يشعر بالغربة في ههذا العالم، ويعضده الحديث الشريف:{كُنْ فِي الدّنْيَا كَأَنّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ.}

هذا الإحساس بالغربة عن هذه الدنيا والتشوّق إلى الآخرة يولّد حالة نفسية صادقة في زهدها ومواقفها من كل ما يطرأ على حياتها. ومثل هذا الفكر أبرز أئمة أمثال مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان من المتزهدين الراغبين عن المناصب الحكومية، وأمثال الحسن البصري وأصحابه وتلاميذه من المفكّرين والمتزهدين، وحصول الحركات الفكرية والنزاعات الكلامية والفلسفة الإشراقية التي استولت على القرنين الثاني والثالث للهجرة، إضافة إلى انعزالية الفرد وغربته في خضم الحياة.

وقد وجد التياران (العلوية والخوارج) أرضا طيّبة لدعوتهما السياسية والدينية والصوفية في ربوع المغرب العربي الكبير، فترعرعت فيه أغلب الطرق التي لم تزل جذورها إلى الآن، وقد ضاهت في ذلك ما راج من نفس الطفرة في الشرق العربي والإسلامي. فتنامي الصراع السياسي وما يعقبه من تفتت للمجتمع الاسلامي وبروز مظاهر الترف عند الفئة الحاكمة وحواشيها وظهور ما يسمى فقهاء البلاط كل هذه العناصر السياسية والثقافية والاجتماعية كان لها أثر كبير في رواج الفكر الصوفي كتعبير سلوكي رافض لتلك المظاهر والذي انطلق مع الحسن البصري وإبراهيم بن أدهم وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي والجنيد وغيرهم في كل الأصقاع الإسلامية. وهكذا برزت ثلّة من الناس ترى السلامة في الاعتزال عن الحياة العامّة والاهتمام بالمعاد والآخرة، وتوطين النفس على ذلك، وكانت هذه الثلّة خصوصا من العلماء والمثقفين الذين يشهد لهم العامّة بالفضل.

ثم، إنّ مجتمع الرباطات الزاهد الذي تبلورت معطياته في القرن الخامس للهجرة بتونس، بعد تأليف الحكّام للجيوش النظامية، وتخلّي المرابطين عن دورهم العسكري، خلق حركة تزهّد وتقشّف كانت تريد أن تسمو بالعلم والدين لتعمل على الوقوف أمام

مظاهر الترف المادي واستباحة المحرّمات والتخلّي عن الواجبات الدينية والتعبّدية وأن تكون متنفسا للطبقات المسحوقة من عامّة الناس، حيث يجدون ملاذا روحيا عند المرابطين كما كانوا يجدونه سابقا حمائيا وعسكريا.

ومع قيام دولة الحفصيين، تبلورت الحال وخرج الناس من الرباطات وانزووا بالزوايا لتعلّم القرآن والسنة والفقه وعلوم اللغة وأصول التصوّف. وكان شيوخ ذلك الزمان من الزاهدين والناذرين أعمارهم لخدمة الدين يظهرون بمظهر الزهد في الدنيا، ويترفعون عن التمسح بأعتاب السلاطين وأصحاب الجاه، فاكتسبوا بذلك نوعا من القدسية والاحترام العظيم من تلاميذهم وطلبتهم وكذلك لدى عامّة النّاس. والناس يبرمون بكل من يتحكم في حياتهم المادية، ويندفعون في حب واحترام وبذل الغالي والنفيس لمن يرونه مترفعا عما في أيديهم.

في هذا المجتمع المنكمش عن المساهمة في الحياة العامّة، كان الشيخ المربّي يحدب على طلبته كما يحدب الأب على أبنائه حتّى أصبح يسمّيهم أبناءه الروحيين، وكان يخاف عليهم أن ينحدروا في مزالق الغواية فينحرفوا عن طريق الهدى، فكان يُعمل الفكرة ويتحرّى ما يحصّنهم من الانزلاق في المهاوي، ويدرس حالهم برفق وتبصّر فيرى أنه يجب مراعاة حركية الشباب وميله للغناء وبعض اللهو، ترفيها وترويحا عن النفس حتّى لا يصيبها الكلال، وهكذا سمح لهم ببعض الرقص والغناء في حضرته خوفا من الانزلاق في ما لا تحمد عقباه فيجرهم الشيطان إلى الغواية. قال ابن عربي "السماع كله بطر وما سمع الشيوخ إلاّ في اثنتين لاصلاح أبدانهم لئلا تنهك، ولإخوانهم حتّى يُلقوا إليهم الحقّ في قالب الباطل".[1]

سمح لهم بإنشاد المدائح والأغاني الدينية التي كانت في الأصل بسيطة وتعتمد تنغيما ساذجا لا يمتّ إلى الصناعة الغنائية بصلة[2]، ثم أخذت تتطوّر حتّى وصلت إلى درجة من الإتقان تبزّ أصحاب المهنة من المغنّين والمطربين، كما نجد في وصايا بعض المشايخ الحثّ على انتخاب الأصوات الرخيمة لأداء هذا السماع (أي الغناء) حتّى يكون هو نفسه

---

1 محمد بن يوسف الكافي التونسي، **الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية**، الطبعة الأولى 1354هـ/1935م مطبعة حجازي بالقاهرة. ص121.

2 هو ما وقع انطلاقه من مسجد السبت بالقيروان أيام يحى بن عمر، ومن رباط المنستير (**معالم الإيمان**، ج:2)

مرققا للنفوس وكاسرا لشوكة العناد واللجاج، ومضفيا رَوْحًا من السعادة على المريدين فيلمسون سعادة الحياة الروحية والدينية ويتطبّعون بذلك طباعا، بينما يهزّ بعضهم الوجد لتظهر لهم خوارق كما نقرؤها عن أبي يوسف الدهماني من متصوفة القرن السابع.

وتلتف العامّة المحرومة حول ما تنزع إليه النفوس من احترام للشيخ الديني المتوشح بالورع والخرقة والمترفع عن سفاسف الدنيا وزخرفها، من ناحية، ومن ميل إلى الغناء والمرح من جهة أخرى، فتجد المعادلة الصعبة حلّها في هذه الحضرات الصوفية، فالطريق إلى الله أسهل مما كان يتصوّر الرجل العامّي، إذ يكفي انتظامه في سلك إحدى الطرق، ليحصل على ما يريد: السند المادّي والروحي واليقين بشفاعة الشيخ، والمتعة بالغناء المباح والرقص المتاح، وربّما العيش من ريع الزوايا، فيلتمسون الاندماج بهذه الطرق بكل الوسائل، ويجدون أنفسهم في حماية شيخهم آمنين مطمئنّين، حتّى ترسّخت العقيدة في هذه الطرق، وأصبح الإنتساب إلى الشيخ والطريقة ضرورة مجتمعية وانتشرت مقولة: " إن من لا طريقة له فطريقته شيطانية".

وتمر العصور، وينغمس هؤلاء في تجميل خرجاتهم وتأنيق بزاتهم وتنميق ألحانهم وتنويع ألوانهم وتصحيح مقاماتهم وتدقيق نغماتهم حتّى إذا بلغنا القرن الحادي عشر للهجرة استيسر الناس الانضمام إلى هذه الطرق، ووجه الاهتمام من أرباب الدولة نفسها[1] لتشييد الأضرحة والخلوات والقباب الضخمة، وتنافس الناس في زخرفة هذه الزوايا وتنوعوا في إنشاء وتقليد الألحان، وتميّز بعضهم عن بعضٍ أفكارا وممارساتٍ وأشعارا وأزجالا وآلاتٍ حتّى أصبحت أناشيدهم تراثا موسيقيا قائم الذات له خصوصياته وميزاته وما يباين بينه وبين أنواع الموسيقى الأخرى المتداولة سواء لدى الخاصّة أو العامّة. يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه[2] "التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق": "أمّا طريقة التغنّي في مجالس الصوفية فقد بيّنها الأستاذ التفتازاني في مقال نشره في مجلّة المعرفة عدد يونية (جوان) سنة 1931 وهو يقول: إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر بـ(لا إلهَ إلاّ الله) وتعرف عندهم بالأرضية، ويأخذ

---

1 منهم الوزير مصطفى خزندار الذي شيّد مقاما على جبل التوبة المعروف بجبل الزلاج لأبي الحسن الشاذلي كما جدّد بناء عدّة مقامات أخرى.

2 زكي مبارك، **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، ج.2، طبعة بيروت، ص 221.

"الرسيم" الّذي هو رئيس المجلس في التدرّج بالذّاكرين أثناءها من الراست "الرصد" إلى الدوكة إلى السيكاه إلى الجهركاه (الجركاه) إلى الحجاز ثم الرهاوي فالكردي، فالبياتي فالصبا. وهنا تبدو مقدرة الرّئيس في نقل الذّاكرين من نغمة إلى نغمة، كما تبدو مقدرة المنشدين في متابعتهم للأنغام والإنشاد. والغالب في الإنشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية..." ويقول: " وقد لاحظت أنّ مجالس الصوفية كانت تنقلب إلى مجالس فنية، فهي مجالس تعقد ظاهرا لذكرالله، والغرض منها الغناء، فقد كان في حي الحسين منزل تُقام فيه حضرة كلّ يوم ثلاثاء، وكان ذكر الله في الصورة الشكلية يتولاّه طائفة من العجزة عجزة الدّراويش، أمّا نظام المجلس فيقوم على فنّ الشيخ حسن الحويجي..." ويواصل: "وكنت ألاحظ أن أهل ذلك المنزل يجعلون ليلة الحضرة ليلة قصف، فيجمعون خلاّنهم حول الموائد ويتندّرون بأطايب الأحاديث. وكان المستمعون يقترحون الأدوار على نحو ما كانوا يفعلون في حفلات الطرب والأنس..."[1].

وهكذا برزت الدراسات المختلفة لتحديد ألوان كل طريقة ومميزاتها وما يربطها أو يخالف بها عن غيرها من الطرق الصوفية، وقد تأخذ طريقة شيئا عن أختها دون أن تحيد عن مسارها الأصلي المميّز.

هذا، ورغم اختلاط الطرق بعضها ببعض وأخذها عن بعضها البعض، فإنّ سامعا متمكّنا يستطيع أن يميّز بين الأمداح التي يسمعها فيرجع كل واحدة إلى طريقتها، كما تتميّز المدائح في الألحان بألوان الطريقة المغربية أو المشرقية، واستعمال المقامات الموسيقية المناسبة لكل جهة من جهات العالم الإسلامي. والظاهر أننا في بداية هذا القرن الواحد والعشرين الميلادي الخامس عشر الهجري لا نتمكّن من أن نقول إلاّ أن هذه الألوان الغنائية تمثل تراثا حضاريا أثر في تكويننا من حيث نشعر أو لا نشعر، وأصبح جزءا من شخصيتنا يميّزنا عن بقية شعوب العالم، ويعرّف بنا تعريفا مميزا بين كل الأقطار سواء العربية أو الإسلامية أو العالمية بما يحمله هذا الإنشاد من بصمات تونسية في اللهجة والكلمات وفي لون الموسيقى والمقامات وفي طريقة الأداء المختلفة عن بقية الفرق في الأقطار الأخرى ولو كانت تنتمي إلى نفس الطريقة.

1 المرجع السابق ص 222.

السّماع والأصوات

(السماع) هو الغناء أو الترنّم بالكلام على أنغام معينة وموازين مضبوطة، ولعلّه في مصطلح الصوفية: مجموعة الأذكار والأوراد التي تتلى جماعيا، وعرّفه الغزالي[1] بقوله: "اعلم أنّ السماع هو أوّل الأمر، ويُثمر السماع حالة في القلب تسمّى الوجد[2]، ويثمر الوجد تحريك الأطراف إمّا بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإمّا موزونة فتسمّى التصفيق والرّقص" فهو المصدر من سمع يسمع فسمّي الغناء سماعا من باب تسمية المفعول بمصدره فهو المسموع، والأصوات (جمع صوت) وهي تلك الموسيقى التي يضعها الموسيقيّون فتقاس بالموازين والأبعاد ليرتّب عليها التنغيم في الكلام، ونسميها في وقتنا الحاضر اللحن. وهنا يختلف الوضع بين أقوال يقولها قائلها منغمة في أنغام ساذجة لا تنتمي للعلم والضبط بصلة، كالغناء الّذي يقوله كل الناس ممن ليس لهم دراية بالألحان والموسيقى، أو ما يترنّم به شاعر الملحون من لحن بسيط يضفي بعض الجمال على الكلام الذي يلقيه في الحاضرين أو ما يردّده السِّعْفَة[3] مع الشاعر أو الغنّاي في حفلات الأعراس

---

1 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م، المجلد الثاني، ص268.

2 الوجد حالة تحدث في النفس تجعلها في حالة سكر فتحملها على الرقص والصياح وتمزيق الثياب أحيانا أوهي l'Extase.

3 السِّعْفَة جمع سعيف وهو المردّد الذي يصحب الشاعر فيردّد له الطالع من القصيدة عند بلوغ المكب، أو يلتقف المكب من الشاعر ليصله بالطالع، ويجد الشاعر وقتا للتنفّس فهو كمن أسعفه بهذه الراحة. وقد يُعيد غصنا من الأغصان لإعطاء الفرصة للشاعر كي يتمكّن من باقي أغصان البيت.

البدوية والريفية، رغم أن الغنّاية الآن يجيدون صناعة الألحان، فينشدون في الصالحي مثلا، وبين ما يضعه الملحّنون العارفون بعلوم الأصوات والألحان والموسيقى من ضبط الأبعاد والدرجات والذبذبات إلى غير ذلك من تفاصيل هذا العلم. فما دخل السماع أو الألحان في أذكار الصوفية؟

لا يختلف اثنان في كون ذكر الله مطلوبا شرعا، فقد جعله الله كبيرا في قوله تعالى: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَقِمِ الصَّلاَةَ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) العنكبوت}، فهو يعلم إن كان ما تصنعونه لهوا وعبثا، أو جدّا وذكرا، أو سياحة في ملكوت الرّوح، أو انغماسا في ملذّات الجسد. والله يعلم ما تصنعون بصلاتكم إن كانت نفاقا أو صلاحا، أي ما تسرّون من وراء ما تصنعون سواء بالصلاة أو الذّكر.

{وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ} أكبر من ماذا؟ إذا أرسل اسم التفضيل دون تحديد فهو للإطلاق، فهو يعمّ كل ما يتصف بتلك الصفة، فقولنا:{الله أكبر} أي أنّ الله أكبر من كل شيء ولا شيء يضاهيه أو يشبهه في الكبر، فكبره الغاية التي ليس وراءها غاية. إذن، فذكر الله أكبر من الصلاة نفسها، لأنها بدون الذكر لا فائدة منها، وقد قال سبحانه وتعالى: {..وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي (14) طه} فهو الغاية منها. ومثل هذا المعنى غرّر ببعضهم فرأى أنّ الذكر يغنيه عن الصلاة فعطّلها.

هذا، وإن كانت الصلاة عبادة ظاهرة للعيان، إذ فيها تطهّر ظاهر وحركات مرئية محسوسة فالذكر يمكن أن يكون سرّا لا يعلمه إلاّ الله، ومن ذلك كان أكبر لأنّ الإخلاص فيه أوكد ولا مجال للنفاق فيه.

والذّكر، كما نرى، عمل فردي يقوم به الإنسان خاليا، يستحضر فيه جلال الربوبية ويتنزّه فيه عن ذاته ليشهد المشاهد السنية، ويغرق في أذكاره ليصل إلى الوجد والتجلّي والكشف، فتكون مراقبته لذاته بابا من أبواب التركيز والحضور، ثمّ يستمرّ الحضور حتّى يغيب الفكر عن كلّ شيء سوى المذكور، ثم يغيب الحس تماما في الحضور وهو ما يسمّونه الغياب، ولهم درجات من ذلك تتدرّج بتدرّج الاستغراق في الذّكر والمراقبة.

يقول أحمد أمين متحدثا عن مقامات التصوف: "...ثمّ مقام الرضا والطمأنينة وراحة

النفس والسلام الروحي، ولذلك يستعينون على هذا المقام بالغناء والموسيقى والرقص وتكرار "لاإله إلا الله" أو"الله الله" إلى أن يكلّ لسانه ويشعر أنه إنّما ينطق بقلبه..."[1].

ويظهر أنه عندما تكوّنت الجماعات الصوفية في القرن الثاني عشر للميلاد/ القرن السادس للهجرة[2] ظهرت ملامح الغناء[3] والرقص في هذه الطرق الصوفية، فمن الطبيعي أن يكون الذّكر جماعة أفضل من الذّكر الفردي إن توفّرت شروط مخصوصة، ولعلّ أوكد تلك الشروط خلوص النيّة في غشيان الجماعة، فيكون الملتحق بالجماعة إمّا متّجها إلى ذكرالله وإرادة القرب والتنصّل من متطلبات الجسد الفاني، أو أنه أتى للالتذاذ بالألحان دون اهتمام بأقوال الذكر فلا تعتبر هذه الأقوال عنده إلا محملا يحمل تلك الأنغام التي تصوّر له ما يتوق إليه من لذائذ جسدية قد تكون محرّمة أو تقود إلى الحرام. ولعله لذلك قال الإمام الجنيد: "السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فتركه أولى: الإخوان، والزمان، والمكان"[4].

وبما أنّ الذكر لا يتأتّى جماعة إلاّ جهرا، ولا يصلح هذا الجهر إلا إذا انسجم الذاكرون في أبعاد الأصوات، وإلاّ كانت ضوضاء لا تليق بمجالس العقلاء، كان لزاما ضبط ذلك بموازين ومقاييس وأبعاد الأصوات طولا وقصرا وارتفاعا وانخفاضا، فإذا ما ضبط الكلام على هذا النحو أصبح (سماعا) أي كلاما منغّما. فإذا تنغّم الكلام سرحت

---

1 أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الجزء 4، ص 160.

2 شارل-روبرت آجرون، **الطوائف الإسلامية**، مقال منشور بالموسوعة (أونيفرساليس) المنشورة بفرنسا سنة 1997.

3 يظهر أنّ معالم الغناء ظهرت قبل ذلك بكثير إذ أنّه ظهر في مسجد السبت بالقيروان ونكره يحي بن عمر وهو من رجال القرن الثالث حيث توفّي سنة 289 هـ(**معالم الإيمان** ج2، ص.ص 238-237) وجاكلين الشابي ذكرت قبول السماع والرقص لدى الناس في القرن السادس ولم تجزم بانطلاقهما منه، ونصححه فهو في القرن الثالث من مسجد السبت بالقيروان ومن رباط المنستير.

تؤكّد جاكلين الشابي في مقالها (الصوفية) المنشور بالموسوعة (أونيفرساليس)المنشورة بفرنسا سنة 1997 أن السماع والرقص لم يُقبلا لدى الجميع إلاّ انطلاقا من تكوين الطوائف التي حددت ظهورها بالقرن السادس للهجرة أي الثاني عشر للميلاد.

هو أبو زكريا يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني الأندلسي من أهل جيّان؛ نشأ بقرطبة ورحل منها وعداده في الإفريقيين. سكن القيروان ثم استوطن سوسة آخرا وبها قبره. سمع من سحنون وغيره. قال أبوبكر المالكي: كان يحي بن عمر من أهل الصيام والقيام مجاب الدعوة له براهين وكان مقدّما في الحفظ. توفي في شهر ذي الحجة من سنة 289هـ وهو ابن ستّ وسبعين سنة، ودفن بسوسة.

4 أحمد فريد المزيدي، **الإمام الجنيد سيد الطائفتين**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص283.

النفوس في أجواء التخيّل والأفهام، وتحرّكت من الطلاب الأجسام، فكان الاهتزاز ولو عند من وقرهم الاحترام. قال ابن الرومي:(خفيف)

وَأَرَى أَنَّ مَعْشَرًا سَيَقُولُـو نَ سَخِيفٌ مِنَ الرِّجَالِ لَعُوبُ

أَيْنَ مِنْهُ وَ أَيْـنَ مَـا يَدَّعِيـهِ مِنْ عُلُومٍ لِحَامِلِيهَا قُطُـوبُ

وَلَعَمْرِي! إِنَّ الْحَكِيـمَ وَقُـورٌ وَلَعَمْـرِي! إِنَّ الْكَرِيمَ طَرُوبُ

ومن يحبّ أن تنزل نفسه عن منزلة الحكماء، فلا يبحث عن الزيادة في الوقار؟ ومن لا يعجبه ألاّ يتخلّق بخلق الكرام، فيكون قلبه قاسيا كالحجر، لا يهزّه نغم أو وتر؟ إلا أن يكون كريم الطبع، سخي الدمع، خفيف السمع، فيجمع بين صفتي الحكمة والكرم. وابن الرومي يرى أنه قد جمع الصفتين، فكان ما يرى عليه من طربٍ ليس طيشا ولا مجانة وإنّما هو تلك الرّقّة التي تسمو إلى المعاني الدقيقة والمراتب الرقيقة بالنّيّات، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه}، وهكذا يمكن أن يجتمع بحلقة الذكر على هذا النحو الأصناف الثلاثة طالب الذكر وطالب الموسيقى وطالب اللذّة ولا مميّز لأحد عن الآخر إلاّ الله سبحانه أو ما ينفضح أثناء الوجد من أسرار، عندما ينهتك الإزار، ويكشف ما وراء الستّار.

من هنا برزت إشكالية حرمية السماع وحلّيّته، فإن كان حلالا فإلى أي مدى تمتد هذه الحلّيّة، ومتى يكون حراما فعلاً بدون تردّد. ونجد أنفسنا أمام مشكلة ثانية: إن كان السماع حراما أو حلالا هل يحرم قليله لأن كثيره يجرّ إلى حرام؟ مثله في ذلك مثل الخمر: {ما أسكر كثيره فقليله حرام}. يظهر أنّ المشكلة تعقّدت ولم يقع طرحها حديثا بل هي من القضايا الموروثة، ولم يقع الفصل فيها بصفة مريحة من أحد، إذ كل من يحلّلون يستشهدون بأفعال بعض الصحابة، والحديث الذي ذكروه للرسول صلى الله عليه وسلّم في حلّية السماع مخصوص بالعيد فهل يمكن تعميمه لغير العيد؟ لكننا نقرأ لسفيان بن سعيد الثوري في وصيته لبعض أصحابه: "...الثامنة: من رأيته من المريدين يسمع القصائد ويميل إلى الرهافة لا تَرْجُ خيره. التاسعة: فقير لا تراه عند السماع حاضرالقلب، فاعلمْ أنّه حُرِمَ بركات ذلك لتشويش سرّه وتبديد

همّته. والمراد بهذا السّماع سماع القرآن وكلام القوم حيث لا يشوبه دفّ ولا شبّابة ولا نساء ولا شباب."[1]

هذا وقد أطنب المحلّلون والمحرّمون في الانحياز كلّ إلى رأيه، وكالعادة برزت المواقف التوفيقية فحرّمت ما كان مجونا وداعيا إلى الفجور، وأحلّت ما لم يخرج عن الذكر أو مدح النبيء صلّى الله عليه وسلّم أو مدح الصالحين أو الحماسة، ثم دخلت الاستغاثة، فمنهم من يرى الاستغاثة نوعا من الوثنية والتوجّه لغير الله وهي مخالفة للعقيدة الإسلامية بصريح النص، ومنهم من لا يرى بأسا في ذلك متأوّلا آية أو حديثا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وإذا ذكر الغزالي[2] ما حكي عن ممشاد الدينوري[3] أنّه قال:(رأيت النبيء صلّى الله عليه وسلّم في النوم فقلت: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا. فقال: ما أُنْكِرُ مِنه شيئا، ولكن قل لهم يفتتحون بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن.) وعن ابن جريج أنّه كان يرخّص في السماع فقيل له: أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيّئات لأنّه شبيه باللغو، وقال الله تعالى :{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ (225) البقرة} فقد قال الإمام أبو الحسن الشاذلي: " استأذنني بعض الفقراء في الحضور والسماع، فهممت بذلك فرأيت أستاذي رضي الله عنه وفي يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي يده اليسرى أوراق فيها مرجز[4] وهو يقول لي كالمنتهر: تعدلون عن العلوم الزّكية إلى علوم ذوي الأهواء الرّدية، فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزّون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان، ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان. لئن لم ينته الظالم ليقلبنّ الله أرضه سماء وسماءه أرضا. قال: فأخذني منه حال بوجد وأنا أقول له: نعم! يا أستاذي، إلا أن النّفس أرضيّة، والروح سماوية. فقال لي: نعم! يا علي، إذا كانت الروح

1 محمد الغمري، قواعد الصوفية، تحقيق عبد الحميد حمدان، مكتبة مدبولي 2003، دار الصفوة للطباعة، القاهرة، ص 28.

2 الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م، ج2، ص 270.

3 ممشاد الدينوري متصوّف عاش في القرن الثالث وتوفي سنة تسع وتسعين ومائتين، وهو أحد تلاميذ الجنيد.

4 أي ديوان به أراجيز أي أناشيد في بحر الرجز.

بأمطار العلوم دَارّةً، والنّفس بالأعمال الصالحة ثابتة فقد حصل الخير كله، وإذا كانت النّفس غالبة، والروح مغلوبةٌ فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر وجاء الشّرّ كلّه. فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشّافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما، وقد أصاب الشّرّ من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحقّ أقبلوا عليه:{وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا}[1]".

ويذكر الغزالي[2] رواية عن أبي سعيد الخرّاز[3] قال: "كنت في دمشق، فرأيت في المنام كأنّ النبيء صلّى الله عليه وسلّم جاءني متّكئا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فجاء فوقف عليّ وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدقُّ صدري، فقال: شرّ هذا أكثر من خيره.".

أنت، هنا أمام ثلاثة مواقف، أحدها لم ير بأسا من السماع، وجمّله بافتتاحه بالقرآن الكريم واختتامه به لعلّه يكون محفوظا بين الافتتاح والاختتام، والثاني : يراه من اللغو ومما يتسامح فيه واللغو ليس من الجدّ، وإنّما هو الهزل، لذلك عقب ذكره بتفصيل النيّة، والثالث: كرهه بل نهى عنه نهيا، وجعله من العبث المحطّ بالكرامة وصرّح بكونه لغوا وعبثا، وشرّا.

والخبر الأول، يجرّنا إلى قضيّة عقائدية وأصولية في نفس الوقت، فنحن نعتقد أن كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحي يوحى، فهو لا يتكلّم عن الهوى، وكذلك نعتقد أن من رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام فقد رآه حقّا، لأن الشيطان لا يتمثّل به، فهل ينزل قول الدينوري في مرتبة الأحاديث المباشرة أو المرسلة، حيث إنه روى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مباشرة ولم يذكر السند، وبذلك يكون كلام البقية أقل قيمة منه ويمكن الاعتماد عليه، فحيث إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم ينكر السماع وقد روي أنّه لم ينكره بحياته، وإنّما أمر بالافتتاح بالقرآن والاختتام بالقرآن رجاء أن لا يقع بينهما ما يكره القرآن، فلا دخل للحرمية في السماع إنّما تتدخّل النيات فيما يقحم بين التلاوتين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هل لنا أن نثق

1 عبد الحليم محمود، **قضية التصوف المدرسة الشاذلية**، طبعة دار المعارف بمصر سنة: 1988، ص 117.
2 أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة بيروت، 1402هـ/1982م، ج4، ص 509.
3 أبو سعيد الخراز من أهل بغداد صاحب ذي النون المصري والنباجي والسري السقطي وبشر الحافي وتوفي سنة 277هـ.

بالدينوري، أم أنه لا يتناوله التعديل والتجريح، وهل تُبنى الأديان على رؤى النائمين؟ وإن احتجّ بعضنا برؤيا ممشاد الدينوري فلِمَاذا لا يضع في اعتباره أيضا رؤيا أبي سعيد الخراز؟ غير أنّ ابن جريج نزل بالسماع إلى درجة اللغو، فهو من العبث، ومن المروءة الابتعاد عنه وعدم الاشتغال به، وإضاعة الوقت فيه، فليس من شيم الكرام أصحاب المروءة الاشتغال باللهو حتّى وإن سمحوا لأنفسهم بحضوره في أوقات متفرّقة من باب: {روحوا النفس ساعة بعد ساعة فإنّ النفوس إذا كلّت عميت}. قال الجنيد: "السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه."[1] أي لم يبحث عنه.

ويأتي الخبر الثالث للزجر وبيان سبب ذلك أنه من الهوى: " فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزّون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان، ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعه تمايل الصبيان." فجعل من هذا الرقص والاهتزاز صفة انتقاص حيث عزاها للصبيان، فالشيخ الوقور رغم ما قد يرى عليه من الانبساط لا يهتزّ أو لايتمايل، بل يحافظ على وقاره واحترامه ويملك من نفسه ومن حركاته، كما نفى عمّن يمارسها إرادة الخير واكتساب المغفرة، وإذن، فهو الوجد والتفسخ والتهتّك، فالقضية قد خرجت من الحلال والحرام وأصبحت: هل تليق بمقام صاحب المروءة والفضل، أو هي التهتّك والتعرّي عمّا في النفس من..ومن...ومن....؟ "وقيل لأبي عبد الله القرشي: لِمَ منعتَ السّماع ؟ قال: لما فيه من المقاصد لغير الله"[2]. والظاهر، إذن، أن قضيّة السماع أخذت دورا هامّا في تاريخ الحركة الصوفية، وكلّما ابتعد المريدون عن المعين الأصلي، واهتمّوا بالحضرات والمواعيد، كلّما افتتنوا في زينة أناشيدهم، وغاب عنهم ما الّذي دفع أشياخهم الأوّل إلى ذلك، وإنما نقلوا عنهم المظهر فقط دون التعمّق في أسبابه وغاياته، حتّى أصبح من الممكن أن نجد من يمارس هذه الشطحات والسماع وهو لا يقوم بأقل ما يجب على المريد من صلوات أو تطهير نفس، بل ربّما يقوم بكل ما ينكره الشرع ويمجّه التدّين.

1 أحمد فريد المزيدي، **الإمام الجنيد سيد الطائفتين**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص283.

2 عبد الرحمان الدباغ، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر، الجزء 3، ص216.

ذكر الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري في رسالته فصلا في آخر الكتاب يقرر فيه شروطا على المريد في السماع، ويجعله بالخصوص إما تلقائيا وإلا فهو لا يليق به، يقول: " وأمّا آداب المريد في السماع، فالمريد لا تسلم له الحركة في السماع بالاختيار ألبتة؛ فإن ورد عليه وارد حركة ولم يكن فيه فضل قوّة فبمقدار الغلبة يعذر، فإذا زالت الغلبة يجب عليه القعود والسكون، فإن استدام الحركة مُسْتَحْلِيًا للوجد من غير غلبة وضرورة لم يصحّ، فإن تعوّد ذلك يبقى متخلّفًا لا يُكاشف بشيء من الحقائق، فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه. وفي الجملة إنّ الحركة تأخذ من كل متحرّك وتنقص من حاله، مريدا كان أو شيخًا، إلا أن تكون إشارة من الوقت، أو غلبة تأخذه في التمييز[1]".

ولعلّنا لا نجد وضوحا أكثر مما قاله الشيخ أحمد الرفاعي في البرهان المؤيد: "لا تعملوا بالهوى، لا أقول لكم أنّي أكره السماع لتحققي في مقام سماع القول واتباع أحسنه، ولكن أقول لكم اني أكره السماع للفقراء القاصرين عن هذه المرتبة، لما فيها من البليات الموقعة في أشدّ الخطيئات[2]".

يقول الشيخ أبو العباس أحمد زروق:" ويقال إن الرقص إنما أحدثه أصحاب السامري لما التقوا بالعجل، وما ينسب للنبيء صلى الله عليه وسلم من التواجد عند إنشاد قوله:"لسعت حية الهوى كبدي" باطل، وكذلك الأحاديث التي يستشهدون بها في هذا النوع، وسئل مالك رحمه الله عن جماعة يأكلون كثيرا ويرقصون كثيرا وذُكر له أحوالهم فضحك ثم قال: أمجانين هم؟ ومن قال بجواز السماع فإنما قال ذلك عند توفّر شروطه الثلاثة التي هي وجود الزيادة به في الإيمان والنشاط في العبادة، الثاني السلامة مما ينكره ظاهر الشرع كالاجتماع مع النساء وسماعهن وإسماعهن مما يوجب تحريك الشهوة عندهنّ، وكذلك المُرْدُ من الأحداث، الثالث أن لا يكون مقصودا على غير وضعه من غير رقص ولا صراخ ولا إساءة أدب في الذكر وغيره، مع كون ذلك مرّة في مدّة (أي ليس متواصلا كل ليلة أو ليالي متتالية)، ولا يحضر مقتدًى به إلاّ مخفيّا والله تعالى أعلم. والصواب في هذا الزمان تركه لما فيه من مفاسد، إذ أهله

1 أبو القاسم القشيري، **الرسالة القشيرية**، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1422ه/2001م، ص 433.
2 أحمد الرفاعي، **البرهان المؤيد**، المكتبة الأدبية حلب، سوريا 2001م، ص42.

اتّخذوا دينهم لهوًا ولعبا، نسأل الله العافية.[1]"

ـ قال الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي: "وقال ابن عربي الحاتمي: السماع في هذا الزمان حرام لا يحلّ مطلقا ولا يقول به مسلم قال في شرح المباحث :وقد اتفق مشايخ المتأخّرين من القوم على منع السماع لما حدث فيه من الفساد حتى قال الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى: السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم ولا يُقتَدَى بشيخ يعمل السماع أهـ وقال ابن عربي أيضا: السماع كلّه بَطَرٌ، يُقال بَطْرٌ كَأَشِرٍ إذا شطّ، وكُفْرٌ بالنعمة لا يصلح في هذا الوقت لأنه إنّما يُستعمل للتفكّه والتلذّذ بسماعه لا غير، بخلاف من تقدّم عصرهم من كبار القوم ممن كان يستعمل السماع في مجلسه فذاك كان لأغراض صالحة وهي ما ذكرها المصنف رحمه الله تعالى بقوله: "وما سمع الشيوخ إلا لاثنتين، أي لخصلتين حميدتين إحداهما لإصلاح أبدانهم لئلا تنتهك " بالعبادة وتضعف بالمداومة عليها فيحصل لهم النشاط بالسماع المباح، والثانية قوله : "ولإخوانهم حتّى يُلقوا إليهم الحق في قالِب الباطل" باعتبار أصله"[2].

قال أبونصر عبد الرحمن بن السراج الطوسي: " والمراد فيما ذكرتُ: أن مقصود القوم في السماع الّذي يسمعون من القرآن والقصائد والذّكر وغير ذلك من أنواع الحكم ليس كلّه لحسن النغمة ولطيب اللحن والتنعّم والتلذّذ بذلك، لأنّ الرّقّة والهيجان والوجد كامن فيهم أيضا عند فُقدان الأصوات والنغمات، والسّكونُ والهدوء كامن فيهم عند وُجدان الأصوات والنغمات فعلمنا أنّ المقصود في جميع ما يسمعون ماتصادف قلوبهم من خنس ما في قلوبهم من المواجيد والأذكار، فيقوى الوجد بما تصادفه بمشاكلته"[3]. وأضاف ابن السرّاج الطوسي: " وقوم كرهوا ذلك (أي السماع) للمريدين والقاصدين والتائبين لِعِظَمِ مَا فيهمن الخطر إن استلذّوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحلُّ عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنوا إلى شهواتهم ويتعرّضوا للفتنة في البليّة"[4]وهكذا

1 أحمد زروق، **كتاب مختصر النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1348هـ، ص26.

2 محمد بن يوسف الكافي التونسي، **الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية**، الطبعة الأولى، 1354هـ/1935م، مطبعة حجازي بالقاهرة، ص121.

3 أبونصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، **اللمع في تاريخ التصوف الاسلامي**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007 .ص258

4 المصدر نفسه.

كلّما بعدوا عن مهيع التصوّف الحقيقي انغمسوا في المظهر الاحتفالي والموسيقي، حتّى أصبحنا نجد ملحّنين لهذه الأناشيد، ومَن يضع لها نوتة ويهذّبها لتصلح غناء ويضبط لها أصول الرقصة وإخراجها كورغرافيا لتصير فرجة واحتفالا، أي أنها لم تعد وليدة الطبع والسليقة والشوق أو الوجد، بل عملا مضبوطا مطبوعا، وقد يُنْكَرُ شخصٌ رغم حفظه لعديد القصائد والبحور والسفائن لكونه لا يجيد طبع غنائه على الموازين والمقامات الموسيقية العلمية كما وقع لبعض مشايخ السلامية هذه الأيام.

وهكذا خلصت المواعيد والأناشيد الصوفية مباشرة إلى طرق موسيقية بحتة، كان منشؤها التصوّف، ولكنها بعدت ولم يبق من التصوف فيها سوى الشكل البسيط المتمثل في مدح الرسول أو الأولياء الصالحين والاستغاثة بهم عوض الغزل بالمحبوبة أو التغنّي بالخمرة في غناء المجون ولم لا يُتغنّى بالخليلة والخمرة جهارا ويوضع ذلك تحت غطاء المجاز المرسل أو التورية أو الاستعارة المكنية أو التصريحية.

وأخيرا نجد أنفسنا أمام تراث موسيقي من نوع خاص يختلف عن التراث الذي يذكر الديار والمغاني ومجالس الطرب واللهو أو مواقف الغزل والغرام الإباحية أو شبه الإباحية بشيء لا يبتعد كثيرا في نظامه وتواجده ورقصه وحتّى في كلماته إلاّ بالتوريات والمجازات اللغوية التي عرف واضعوها كيف يجعلونها تحتمل الوجهين ليقع قبولها من الطرفين، فيتواجد ذو الدين على فهم أنها خمرة روحية مجازية مثل ما هو ظاهر في قول ابن الفارض: (الطويل)

شَرِبْنَا عَـلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ

باعتبار أن القرينة اللفظية "من قبل أن يُخلق الكرم" تفيد أن هذه المدامة ليست بنت العنب، كما يتواجد السّكّير باللفظ الصريح بذلك والخفي تحت التورية في مفهوم المتديّن: (مجزوء الرمل)

هَيَّا يَا خَـمَّـارُ هَيَّا وَاسْقِنَا كَأْسَ الْحُمَيَّا

ولا نجد في اللغة معنى للحميا غير سَوْرَة السكر، فيمكن لعاشق الخمر أن لا يفهم إلاّ هذا المعنى الظاهر فيتواجد عليه حبّا في سكره وخمره، ولا يلتفت إلى المعنى الخفيّ

وهو تلك الخمرة الروحية التي تسبّب نشوة الاقتراب أو نشوة السبح في ملكوت الروح، فيحدث ذلك التباسا: (الكامل)

غَنَّى بِهِمْ حَادِي الأَحِبَّةِ فِي الدُّجَى   فَأَطَارَ مِنْهُمْ أَنْفُسًا وَ قُلُوبَا
فَأَرَادَ مَقْطُوعُ الْجَنَاحِ بُثَيْنَةً   وَهُمُو أَرَادُوا الْوَاحِدَ الْمَطْلُوبَا[1].

يقول "ڤويدو مدينة"[2] في كتابه (المنستير أرض من تونس): "إني أذكر عددا وافرا من هؤلاء الأولياء، أذكرهم بحركاتهم وهوسهم. فهذا يسألك سيجارة وقد ينتزعها من فمك إن لم تمنحها له، وآخر يمرّ حذوك ويدفعك، ولا حق لك في أن تفوه بكلمة، ولبعضهم موهبة الغطس في ماء يغلي دون خوف أو وجل مثل عبّاس، ذلك الّذي أراه الآن ببصيرتي، لقد عاش في المنستير ومات مكرّما فكانت له قبّة وزاوية.

إن الدراويش فقراء، لا يسعون إلى طلب الغنى من إشراقاتهم... هؤلاء المحرومون في حياتهم من كلّ مباهج الحياة يجدون بعد الممات كل الاهتمام والكرم الشعبي"[3].

ولعلّ هذه النتيجة التي صوّرها ڤويدو مدينة عندما صوّر حالة بعض المجاذيب في عصره، والّذين كان يُعتقد أنهم أولياء الله، بينما هم لا يتورّعون من الدخول إلى

1 أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، المكتبة الأدبية حلب، سوريا 2001م، ص41.

2 ڤويدو مدينة شاعر منستيري من أصل مالطي ولد بالمنستير في 25 جانفي 1887 أي يوم تأسست بلدية المنستير الذي كان أبوه ڤابريال من أبرز أعضائها وقد كان صناعيا كبيرا خصوصا في صناعة الزيت والتسوق به في الأسواق العالمية، وتحصل على الجائزة العالمية بمعرض نيويورك سنة 1922 . فكانت حياة الشاعر بين أبويه حياة موسرة، وكان له منزل بجانب دار الشاعر عبد الله الزناد بالقراعية أمام جزيرة الميدة، وكان يستلهم البحر والأمواج في أشعاره باللغة الإيطالية، ويكتب باللغة الفرنسية وتوفي شاعرنا في 23 أكتوبر 1970 بتونس. له كتابات عديدة منها (Monastir terre de Tunisie) الصادر لأول مرة سنة 1940، كتبه في الأول بالإيطالية ثم ترجمه بنفسه صحبة الأستاذ: "ي. كرباري" للفرنسية ونشرته دار بوسلامة للنشر في الستينات من القرن العشرين، وترجمه إلى العربية الأستاذ المرحوم محمد صالح مزالي بمعية الأستاذ/الدكتور محمد البدوي تحت عنوان (المنستير أرض من تونس) وصدر عن دار المعارف بسوسة سنة 1999.

3 ذكر ڤويدو مدينة أحدهم وهو(سيدي عباس) في الصفحة 149 من النسخة الفرنسية و135 من النسخة العربية. وقد ذكر لي أحد الشيوخ الذين عاصروا الشيخ عباس وصادف أن عشت معه فترة من آخر عمره وقد كان حارز حمام، روى لي أنه كان يلقى هذا الدرويش كل صباح بالحمام يغتسل ويغسل دراهمه، وفي المساء يفاجئه ببعض الحانات، قال: فقلت له: أتدّعي أنّك ولي الله وأنت لا تتورّع من دخول الحانة وشرب الخمر وهي حرام ؟ قال: فسكب لي كأسا (أوطلبها لي) على المصرف وأمرني بشربها، قال: فلم أتمكّن من رفضها وشربت، وإذا بها مشروب حلو ليس فيه من الخمر شيء لا من رائحتها ولا من سورتها، ولم أذق في حياتي ألذّ وأشهى من ذلك المشروب. وقد عمّر هذا الشيخ راوي الخبر طويلا وتوفي بعد أن تجاوز التسعين من عمره في تسعينات القرن العشرين. ومثل هذا العمل ربما يوعز إلى الملامتية، والله أعلم.

الحانات وشرب الخمر على أعين الناس، رغم أنهم قد يكونون من الملامتية، لكن المظهر يسيء إلى سمعة التصوّف، إذ بذلك يختلط الحابل بالنابل، ولا يمكن تمييز الحق من الباطل وهو التلبيس الذي يقع بسماع الغناء: يقول عبد الرحمن ابن الجوزي: " اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين: أحدهما: أنه يُلهي القلب عن التفكّر في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته. والثاني: أنه يميله إلى اللذّات العاجلة التي تدعو إلى استيقائها من جميع الشهوات الحسّيّة ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجدّدات، ولا سبيل إلى كثرة المتجدّدات من الحِلِّ، فلذلك يحثّ على الزنا. فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذّة الروح والزنا أكبر لذّات النفس، ولهذا جاء في الحديث: "الغناء رقية الزنا""[1] غير أن المصنّف في هذا الباب ذكر عديد الأخبار التي ينقض بعضها البعض، والظاهر أنه لم يستخلص شيئا ثابتا ويميل بمرجحات ومواقف للفقهاء الكبار أصحاب المذاهب إلى كراهته واعتباره من الذنوب.

وهكذا لا نتمكّن من إصدار حكم فقهي لأننا لسنا من أرباب هذا الفنّ، ومن أجل ذلك بنينا دراستنا على الظاهرة الموسيقية فقط، ولم نرد منها تفضيل طريقة على طريقة من حيث التصوّف، وإنّما، إن جرى منّا تفضيل فهو من منظور موسيقيّ علميّ بحت.

1 أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، **تلبيس إبليس**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1422هـ/2002م ص229 وما بعدها.

تفاعلات الطرق الصوفية
مع الموسيقى المحلية بتونس

عندما وصلت أولى التعاليم الصوفية إلى تونس وجدت أرضيّة موسيقية أصيلة ومتطوّرة سواء لدى الأغالبة أوالفاطميين أو غيرهم، فقد قال المالكي[1]: نزل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بسوسة، وفي إحدى الليالي سُمع عزف ولهو، فتحيّر عبّاد القصر(أي قصرالرباط) واجتمعوا من الغد بالمسجد الجامع وتفاوضوا في هذه الإذاية التي لحقتهم من الأمير. وقال أحدهم: قوموا بنا إلى هذا الرجل! فقد أحدث علينا أمورا لا نعرفها ولا نصبر عليها! فإما أن يزيل عنّا هذا الأمر وإلاّ فنحن نخرج وأرض الله واسعة" وخاطبوه فانصاع إلى أمرهم وخرج إلى قصر له. وذكر المالكي أيضا قصّة شبيهة بهذه مع أبي علي الحسن بن نصر السوسي المتوفي سنة 341هـ/952م وأحد الأمراء الفاطميين بقصر طارق بسوسة. من هنا نعرف أن هنالك تقاليد موسيقية سابقة لظهور الحركة الصوفية وربما قبل عباد الرباطات.

يقول الأستاذ محمد الحبيب[2]: والموسيقى التونسية التي نبعت في عهد سحيق من

1 المالكي، **رياض النفوس**، ج.1، ص393. والمالكي هو أبوعبد الله أبو بكر بن عبد الله من جلّة فقهاء المالكية بإفريقية رحل إلى مكة وسمع عنه البخاري ثم عاد إلى القيروان سنة 408 هـ وعاش الهزات العنيفة بين المالكية والشيعة ومن كتبه "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية"، وتوفّي سنة 438هـ/1046م.

2 محمد الحبيب، **تطور الإنتاج الموسيقي خلال القرنين الماضيين**، مقال في كتاب " الإنتاج الموسيقي العربي قديما وحديثا" الصادرعن ملتقى خميس الترنان الملتئم ببنزرت في نوفمبر سنة 1978، طبعة الدار التونسية للنشر.

الموسيقى اللوبية على عهد الحضارة القبصية، واتّسمت باسم الموسيقى البربرية فيما بعد التي احتكّت بموسيقى كريت والهكسوس وتأثّرت بالموسيقى الفينيقية التي انحدرت من كنعان وسامر وبابل وأشور ومصر والكلدان، وعرفت موسيقى البلاد باسم الموسيقى القرطاجنية، ولم تلبث أن دخلت عليها الموسيقى الرومانية (موسيقى الأمّة المتغلّبة) مع الموسيقى اليونانية التي فرضت آدابها وفنونها، ورأينا موسيقى بربرية مهذّبة أخذت من أطايب ما سبق على عهد ملك البربر يوبا الثاني نصير الآداب والفنون بشرشير. هذه الموسيقى التي حظيت بعناية التهذيب والاقتباس لتخرج عن أسوار المدن ومراكز الحضارة. وبقيت موسيقى البادية على بساطتها في سلّم قصير النفس لم يتجاوز الخمسة مقامات تنشد على نفخ الشبّابة وقرع الطبل وعزف القنبري ذي الوترين ؛ والأمم لها أطوار في الازدهار والذبول والقوّة والضعف سنّة الله في خلقه ".

لم يشذّ، إذن، المجتمع التونسي منذ القديم عن غيره من المجتمعات البشرية، فتكوّنت لديه موسيقى ككل الناس، وجاء الإسلام وانتشر في هذه الربوع كما انتشر في ربوع أقاصي آسيا ومجاهل إفريقيا، ولم يكن هذا الفتح استعمارا لاستعباد أهل البلاد وابتزاز خيراتها بعرق أبنائها كما رأينا بعد عصر النهضة الأوروبية، بل كان فتحا للأفكار وتساميا بالروح، فخرجت البشرية من ظلمات الجهل والظلم إلى نور الوحدانية والعدل، وانتشرت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ففصحت ألسن الناس، وتأدّبوا بمبادئ الإسلام، يقول الأستاذ الحبيب: "ومع الجيش الفاتح جاءت أغاني الفرسان المجوّدة والرمل الّذي ابتكره ابن محرز وأهازيج العرب الحماسية، فتقبّلها أهل إفريقية لما فيها من رجولة وما توحيه من نخوة وشهامة، فصادف ذلك قلبا خاليا فتمكّن، لأنها صفات فُطِرَ عليها ابن البلاد وتعشّقها. وما لبث الحال حتى شاعت الأصوات العربية المدنية والمكّيّة والدمشقية والبغدادية بين الشباب والجواري، وترنمت بها أهالي الشمال الإفريقي جميعا وتسابق السراة الأثرياء لاقتناء الجواري المحسنات، وتذوّقت العامّة طرب الأنصار وقريش فأقبلت عليه. وجاء العصر العباسي الذي كمل فيه الغناء كما قال ابن خلدون، وتولّى إمارة إفريقية آل المهلّب، وبالأخص واسطة عقدهم يزيد بن حاتم المهلّبي المتوفّى سنة 155هـ/772م. وتذوّقت الألسن لذّة الآداب العربية وحضارتها وذاعت الفنون." ويواصل الأستاذ محمد الحبيب فيقول: "وذكر القاضي أحمد بن يوسف

التيفاشي الذي ذكر في كتابه المخصص للموسيقى أصواتا مطربة من العصرالأوّل راجت بالقيروان وأقبل عليها أهلها، ولم يأت القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد حتّى تأسّس حيّ للفنّانين، وربط سمّي بربط النبابذة، واكتظّت الستارات بالجواري المختارات، وفتحت دكاكين صنع آلات الطرب وراجت تجارتها.كما فُتحت دكاكين الطلائيين (الحلاقين والمزينين) مزيني الوجوه والشعور، وقصدها الموسيقار الممتاز أستاذ الأجيال مؤنس البغدادي الّذي عاش في العصرين الأغلبي والفاطمي وباشر تعليم الموسيقى في قصور العبّاسية والقيروان، ثم المهدية، أكثر من ثُلُثِ قرن ولحّن الأصوات الحسان وتخرّجت عليه أجيال. وقامت الدولة الصنهاجية بعد الفاطميين ولم تُنقِص من اهتمامها بالموسيقى عمّن سبقها وبالأخص أيّام المعز بن باديس وابنه تميم وحفيده يحى ووزرائهم برامكة إفريقية: الحاجب عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر وأولاده وأبناء أخيه. ودُوّنت أخبار الموسيقى في هذا العصر وكثرت التلاحين الإفريقية والأصوات المُتقنة الصنعة والمجوّدون والمجوّدات، وذاع صيت الكثير من مشاهيرهم كمحمد بن عطية وعتيق وبشارة وواصل وعنيد وأبي الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني الشاعر المهندس وابنه عبد العزيز. وعرف في هذا العصر أو قبله إنشاد الجماعات الموحّد (البوليفونية) في الدّمن[1] والزوايا ووجد فنّ موسيقي صوفي في الأربطة والدمن، وفنّ موسيقي مطرب في القصور والبيوت والحفلات، وفن هلالي في البوادي".

وجد إذن ثلاثة أنواع من الموسيقى في هذا العهد، فنّ بدوى يعتمد على الأشعار العامية والأزجال البدوية على طريقة بني هلال وربما يصاحب بطبل أو شبابة، وفن يعزف بالآلات المتطورة ويلحّن تلحينا للطرب في القصور والبيوت والحفلات، وفنّ ثالث صوفي وجد في الرباطات والزوايا والدّمن. ويظهر أن انطلاقة هذا الفنّ في تونس كانت من مسجد السبت في القيروان وهومعروف ويقع في الجهة الغربية من مقام الصاحب أبي زمعة البلوي. وهو مسجد بناه أبومحمد الأنصاري الزاهد وكان من المقيمين بالدمنة في أوّل القرن الثالث. وكان من عادة ملوك بني الأغلب زيارة الدمنة في رمضان والأعياد لمواساة مرضاها والتصدّق على الفقراء، وكان زيادة الله الأول يزور

1 الدمن جمع دِمْنة وهي المستشفى أو الحارة الخاصّة بمعالجة المجذومين وإقامتهم حتّى لا يختلطوا بالناس خوف العدوى. وتعني الكلمة في الأصل الطّلل وما تبقّى من الآثار.

أبا محمد الأنصاري ويتبرك به. وظهرت في مسجد السبت هذا جماعة بعد وفاة الإمام سحنون يجتمعون في كلّ يوم سبت ويتناشدون فيه الأذكار والأشعار بالطريقة الصوفية[1] فيذكرون فيها أهوال يوم القيامة وحالات الأولياء، ويركّبون عليها ألحانا حزينة حتّى إذا سمعها المتعبّدون ارتاحوا إليها وعملت فيهم ما تعمل المواعظ. كان الإنشاد في مسجد السبت **عملا** مثيرا سماعه بالنغم والتطريب، وكان يحي بن عمر دفين سوسة المتوفى سنة 289 هـ/901م يعتبر ذلك بدعة في الدين ويُنكره أيّما إنكار، مثلما كان الإمام سحنون يكره التطريب والتنغيم وينكره، ويرى الشيخ يحي بن عمر أن يُهدم المسجد أنفع من بقاء هذه البدعة، وتصدّى له الصوفية وآذوه وشاغبوه في حلقات دروسه. ورد في معالم الإيمان[2]: " وكان مسجد السبت هذا يحضره الزّهّاد والعبّاد، يقرأ فيه القارئ آية من كتاب الله عزّ وجلّ، وبعض حكايات الصالحين، وتُنشَد فيه الأشعار، وهو الّذي يسمّى عندنا اليوم بـ**الرقائق**. فكأن يحي بن عمر رأى أنّ هذا بِدعة لم تكن في الزّمن الأوّل، فألّف تأليفا في وجوب عدم حضوره، فكان لا يحضره وينهى عن حضوره وكان المشيخة في زمانه على خلافه، وتابعه على قوله أبو الحسن ابن القابسي رحمه الله تعالى، وكان يقول: ياقوم، هذا القرآن يُتلى، والأحاديث النبويّة ولا متّعِظ، ويسمعُ بيتًا من شعرٍ فيبكي، هذاعجب !وتبعه تلميذه أبو عمران الفاسي رحمه الله تعالى على ذلك. هكذا سمعته من شيخنا أبي الفضل أبي القاسم بن أحمد البرزلي حفظه الله تعالى. قال المالكي: ويُقال: إنهم كانوا يخرجون منه يوم السبت فيبقى عليهم أثره إلى السبت الثاني، {قلت}[3] فما سُمي بمسجد السبت إلاّ لعمل الرقائق فيه كل سبت خاصّة، وهو الّذي يُسمّى عندنا اليوم بمسجد العربي، سمّي به لأنّه كان يقوم به واسمه محمد وهو خارج القيروان بقرب تربة الشيخ أبي زمعة صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"

ويظهر أن العبيديين قد أهملوا الحصون والرباطات وجرّدوها من السلاح فتمحض

---

1 ذكره حسن حسني عبدالوهاب في كتابه((الإمام المازري) ص80. وذكر أن ذلك وقع خلال القرون الثالث والرابع والخامس، وأحال إلى(**معالم الإيمان**) للدباغ في الجزء 2 ص73، والجزء 3 ص27.

2 الدبّاغ، **معالم الإيمان**، نشر مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس سنة 1968، ج 2، ص238.

3 الضمير يعود على ابن ناجي وهو أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفّى سنة 839 هـ وهو الذي أكمل (كتاب معالم الإيمان) على صاحبه أبي يوسف عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ المولود سنة 605 هـ والمتوفّى سنة 609 هـ.

المرابطون للعبادة والذكر وممارسة ما يرد عليهم من فنون المعرفة بالله، ولعلّ المعارك التي نشبت بين أهل السنّة وأهل الشيعة زادت في غربة هؤلاء المرابطين، وبذلك تحوّل رباط المنستير إلى أوّل زاوية بعد مسجد السبت فقامت فيه حلقات الذكر الجماعي مع الضرب على الصدور حتّى الإغماء[1]. ويظهر أن أرضية الطرقية أخذت في التبلور في ظل النزاعات الصنهاجية مع الطوائف المعادية لها، وحيث مثل ذلك التناحر مصدر غم للمسلمين مع الهجمات المتتالية للنورمان، كان الملاذ في الرباطات والزوايا، فما سطعت شمس الحفصيين حتّى أصبحت الطرقية ظاهرة واضحة المعالم.

ويواصل الأستاذ محمد الحبيب فيقول: " وتأسست الدولة الحفصية بتونس سنة 626 هـ /932م فسارت على نفس المنهج ببعض تقشّف، ونشطت الرباطات: فكان رباط مرسى الجراح ورباط تونس ورباطات السواحل ورباطات الدواخل كلها مشغولة بالتلاوة والأذكار مع حراسة الثغور. وظهر المربّي الشيخ محمد الظريف المتوفى سنة 787هـ دفين جبل المنار صاحب البديعية المشهورة التي ضمّنها ناعورة الطبوع الرائجة في عصره، والقاضي أحمد التيفاشي صاحب الموسوعة الموسيقية وأبو عبد الله محمد بن عميرة الذائع الصيت، والأمير محمد ابن الحسن آخر الملوك الحفصيين المخلوع سنة 932 هـ. وأثناء مدّة الحفصيين وفد على تونس جمع من الأندلس ونشروا موشّحاتهم وأزجالهم وأدبهم وشعرهم. "

ومما ذكر ابن أبي دينار في شأن الحسن والد الأمير محمد:" وسمعت من الحاكي أنه قال: دخل عليه (أي الحسن والد الأمير محمد آخر الملوك المأخوذ سنة 980 هـوهو بزاوية الجديدي) أولاد الشيخ عرفة (الشابّي) صاحب القيروان في بعض الأيام، وأتوه ببربط وهو عود الملهاة وقالوا له: نريد أن تُسمعنا من غنائك بالعود، وألزموه ذلك استخفافا به، فأخذه وجسّه بيده، وقد كبُر عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله، فأنشدهم البيت الشهير بين الناس: (الطويل)

وَكُنّاَ أُسُودًا وَالـــرِّجَالُ تَهَابُنا   أَتَانَا زَمَانٌ فِيهِ نَخْشَى الأَرَانِبَا

وألقى العود من يده وجهش بالبكاء في وجوههم، فخرجوا من بين يديه لا يدري أحد

---

1 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، نشر مكتبة النجاح تونس 1965م.ص 166.

أين يضع قدمه، فسبحان المعزّ وسبحان المذل.[1] "

وسقطت قرطبة في القرن الثامن وخرج أهلها لاجئين فتلقّتهم تلمسان وآوتهم فجلبوا لها من جملة ما جلبوا أغانيهم، وتوسع هؤلاء الأندلسيّون في بقية المدن كندرومة ووهران، وبجاية التي سبقت بنشر تلاحين عبد العزيز بن أمية بن أبي الصلت الداني. ووصلوا إلى تونس واستقبلتهم جزيرة الوطن القبلي وغيرها من البلاد التونسية كالكاف وزغوان وسليمان وقلعة الأندلس وتونس وتستور، فنشروا فيها صناعاتهم ولهجتهم مثل استعمال النون في ضمير المتكلم المفرد (أنا نْحب، أحنا نحبّوا)، وكذلك فنونهم وموسيقاهم. وهكذا تأسست نوادي الفنانين التي عرفت بديار الطابع في عديد المدن المغاربية من ليبيا إلى المغرب الأقصى، وظهر في تونس الزجل الحضري والموشّح والزجل الهلالي المهذب المعروف بالفوندو والغناء الزنداني. وأصبح التميّز واضحا بين غناء الولائم والأفراح المعدّ للتطريب من نوع الربوخ وغناء البوادي، وبين المدائح والأذكار وأناشيد التهجّد في الأسحار بالجوامع والزوايا.

في هذا العصر الحفصي وفد على تونس أعلام كبار من الأدباء والفنانين وأئمة اللغة والعلوم والتصوف، وتواصل ذلك إلى العهد التركي وسقوط غرناطة عندما قدم إلى تونس وفود غفيرة من الأندلسيين (المورسكيين) أيام عثمان داي صاحب الميزان وذلك في حدود 1016هـ فأسسوا مدنهم المعروفة بالجزيرة (الوطن القبلي) وغيرها ونشروا صناعاتهم وآدابهم وأغانيهم.

يقول الأستاذ الحبيب: "وظهر العالم الصوفي إمام جامع الزيتونة ووكيل أوقافه أبو الغيث القشّاش جدّ البكريّين المتوفّى سنة1037 هـ بمدائحه العذبة وابتهالاته وحلقات ذكره كل يوم سبت والموسيقار الصوفي مصطفى البابلي المتوفى سنة1110 هـ والفنان أحمد بن حمودة السنان صاحب (حلية العروس) المتوفى سنة 1144 ه وكثير من المرتلين للقرآن المجيد. وتواردت على تونس الجوقات التركية بفنانيها وآلات طربها، وعرف القانون بتونس من العهد التركي والآلات النحاسية لموسيقى الجيش[2]. واهتمّ الناس بالموسيقى

---

1 ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة الأولى، مطبعة الدولة التونسية سنة 1286هـص 158

2 وكانت هذه الموسيقى تدق بالطبول والزمر للخان وتسمى(النوبة) وكان القانون جاريا في آل عثمان أن يقوم السلطان على قدميه عند دقّ (النوبة). انظر المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار، ص 170.

وآلاتها واستلطفوا ما ورد عليهم من الألحان والأطباع والآلات حتّى أصبح بعضها مضرب الأمثال، قال المفتي محمد بن عمر سعادة المنستيري[1] المتوفى سنة 1171هـ/ 1757م من تقريظ لشرح التسهيل لعلي باشا[من البحر السريع]:

تُخْجِلُ بَدْرَ التَّمِّ فِي طَلْعَتِهْ   وَتَسْلِبُ النَّاسِكَ فِي بُرْدَتِهْ

نَتَائِجُ أَنْتَجَ عِشْقِي بِهَا   لِلَّهْوِ مَيْلاً وَ إِلَى صَبْوَتِهْ

وَرَدَّ مِنِّي عُنْفُوَانُ الصِّبَا   بَعْدَ تَنَاسِيهِ، إِلَى جِدَّتِهْ

طَرِبْتُ مِنْ حُسْنِ حَدِيثٍ لَهَا   مَا أَطْرَبَ الْقَانُونُ فِي رَنَّتِهْ

وفي هذا العصر ظهر الأمير محمد بن مراد باي المتوفّى سنة 1086هـ وهو من أصل إيطالي كبقية المراديين، وكان شديد العناية بالموسيقى مزج بينها وبين الموسيقى الإيطالية بتطعيم حاذق وتلاه رمضان باي المرادي الّذي انقطع لها بسبب كفّ بصره مع رفيقيه في المحنة مزهود ومصطفى ابن عبد النبي[2]، وجلبت له أمّه الإيطالية الأرغنون من إيطاليا وأوّل من عزف عليه مزهود رفيقه، وثلاثتهم قتلهم مراد بوبالة صبرا سنة 1110 هـ " كانت، إذن، الأرضية الموسيقية التي ترعرع فيها الإنشاد الصوفي بتونس خصبة، وكانت تتمثل في هذا التمازج العجيب الذي جعل لها طابعا مميّزا، لذلك وجدت بعض الطرق تجاوبا مع المجتمع التونسي بينما توقفت طرق أخرى، أو وجد بعضها صعوبة في التمركز بهذه الربوع. وتفاعلت الأنواع الثلاثة من الموسيقى: موسيقى الطرب وموسيقى البوادي

---

1 هو الشيخ محمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر بن قاسم المنستيري شهرسعادة، ولد سنة 1088هـ وتوفّي سنة 1171 هـ أي عمّر83 سنة، تفقه على الشيخ محمد زيتونة المنستيري والشيخ الحجيج والشيخ الغماري وسعيد الشريف والشيخ الحجوز، ورحل إلى مصر فاستكمل علومه لدى الشيخ إبراهيم الفيومي والشيخ الطولوني وغيرهما وأجازوه، دخل الآستانة واجتمع بأعلامها واستفاد منهم الكثير ؛ ثم رجع إلى تونس وتصدر للتدريس وأفاد واستفاد . ثم تولّى قضاء الجماعة بتونس سنة 1157 هـ وتقلّب في عدّة وظائف (انظر ترجمته مفصلة في كتاب (**المنستير عبر العصور**) لعبد الله الزناد، مطبعة لابراس، تونس، سنة 1987م).

2 مزهود من أصحاب رمضان باي بن مرادبن حمودة باشا وهو مغنّ : ذكره أحمد بن أبي الضياف في **اتحاف أهل الزمان** بين صفحة 69 - 73، قال في ص: 73: "وأتى (يعنى مراد الثالث أبوبالة) بمزهود مغنّي عمّه ومصطفى بن عبد النبي وغيرهما من خواصّ عمّه، فألقى عليهم من العذاب ما لا تحتمله القوى الحيوانية، وأتاهم برأس عمه - صاحبهم رمضان باي- وأمرهم بتلقّفه بينهم تلقّف الكرة، وبلعنه وشتمه بكل قبيح، ثمّ أمرهم أن يُغنُّوا لرأسه، كما كانوا يُغنون له في حياته، وهو في أثناء ذلك يقطع من لحومهم القطعة بعد القطعة، يُباشر ذلك بيده، أيّامًا . ثمّ سمل أعينهم بالنّار كماوقع له، ثمّ فقأ أعينهم بعد ذلك . ثمّ أثقلهم بالأغلال إلى آخر يوم من رمضان، فقطع رؤوسهم، وأرسلها مع جماعة من خدّامه إلى دورهم، وأمرهم أن يأخذوا من أهليهم مَالاً ذا بالٍ على وجه البشارة وطافوا برؤوسهم في الأسواق يطلبون البشارة من أهلها . "

وموسيقى الجدّ الصوفية وأخذ بعضها من بعض، كما تفاعلت الطرق الصوفية نفسها وأخذ بعضها من بعض.

جدلية الموسيقى والإنشاد الصوفي

في إحدى الجولات الميدانية، تمّ اللقاء مع السيد البشير الذيب أحد شيوخ العيساوية بالكاف، فسأله حسين الحاج يوسف عن كيفية عملهم في النوبة، فأجابه بما يفيد أنه ليس لهم نوبات فذلك يجده في المالوف، أمّا هم فلهم مدحات. ومن هذا الجواب نستشفّ موقف بعض منشدي الطرق الصوفية من الطرق الموسيقية المنتشرة في البلاد. وقد يكون هذا الموقف حادّا في بعض الفترات وقد يكون ليّنا في فترات أخرى، ولكننا نلاحظ تلاقحا ولو عفويا بين المجالين، فإننا نجد العوامرية مثلا لا يرون أيّ حرج في تسمية أناشيدهم بالنوبات كنوبة المغراوي ونوبة العروسي، وهنالك في طرق أخرى من يسمّي النوبات بأسماء الأولياء: نوبة أم الزين مثلا. وهكذا فإن الظاهر من هذا الاحتجاج: أنّه وقع خلط لدى بعضهم بين المجالين، فأنف هذا الشيخ من إلحاقه بالمطربين أو أرباب المجون حسب رأيه وترفّع بأنّه لا يهبط إلى معاني المالوف وذكر المغاني والليالي، بل إن ما لديه مدحات للرسول صلّى الله عليه وسلّم ويجب على سامعيه ألاّ يخلطوا بين الاثنين. ومن هنا نرى أنّ هذا الإنشاد الصوفي الّذي استعمل آلات الطرب من نقر ونفخ واستعمال النحاس ولو في الصنوج فقط، والعزف والغناء على الطبوع المتداولة في المالوف والغناء التراثي والتقليدي، جعله يتشابه مع غناء

الطرب في ليالي القصف، فأكّد الشيخ بحرارة على أنّ فنّه يخالف ذلك وإن أطرب، لأنّه ينشد أمداحا للرسول صلى الله عليه وسلّم وأولياء الله تعالى، ولا يتغزّل بليلى وبهند، أويتلمّظ لخمرة مزهرة في كأس بلّورية. وهكذا نرى أن سبب هذا الاحتجاج هو اشتراك الطرق الصوفية وطرق الغناء والطرب في الطبوع والنوبات والمقامات الموسيقية، فما هو الطبع والمقام والنوبة، وما هو حظ الإنشاد الصوفي من كلّ ذلك؟

1. الطبع:

بادئ ذي بدء يمكن أن ننطلق من نظرية راجت في العهود القديمة والوسطى، وهي نظرية التمازج بين الطباع البشرية وطبوع الموسيقى، حيث تبناها الكثيرون من الفلاسفة اليونانيين والعرب، كما نجد ذلك في الطرق الصوفية ونخصّ بالذكر تصريحات الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر صاحب الطريقة السلامية[1].

والأصل في تسمية "الطبع" كما أوردنا، هو محاولة ربط الطبوع الموسيقية بالطباع (الأمزجة) البشرية وتسمّى أيضا الأخلاط الأربعة وهي السوداء والبلغم والدّم والصفراء وقد اهتمّوا بهذا الموضوع بصورة مغرقة في الإغراب والمبالغة حتّى ليُخيّل للقارئ أحيانا أنّ الطبوع جاءت لخدمة حالة نفسية معيّنة أوتحرّك شعورا محدّدا[2] إلى أن غدت أغلب مؤلفات هذا الفن تحمل من الأسماء ما ينمّ عن تشبّع مؤلّفيها بوجود علاقة محكمة ومتينة بين الطبوع الموسيقية والطباع البشرية، مثل "كشف القناع عن وجه تأثير الطبوع في الطباع " أو "ديوان الأمداح النبوية وذكر النغمات والطبوع وبيان تعلّقها بالطبائع الأربعة" لأبي العباس بن محمد العربي أحضري. فذكر لكل طبع ما قابله من الموسيقى على هذا النحو: السوداء للذيل، والبلغم للزيدان، والدم للماية، والصفراء للمزموم.

ويبدو أن الربط بين الطبوع والطباع جاء ليعكس أصداء نظرية قديمة ترجع أصولها الأولى إلى عهد فلاسفة اليونان، ثم انتقلت إلى العرب من خلال ما ترجموه عنهم.

1 انظر التصريح في خاتمة كتابنا هذا، وكذلك في باب الطريقة السلامية من هذا الكتاب ص 175.
2 عبد العزيز بن عبد الجليل، الموسيقى الأندلسية والمغربية (فنون الأداء)، سلسلة عالم المعرفة عدد 129. الكويت.

ومن ثمَّ شاعت في كتب فلاسفة الإسلام الأوّلين كالكندي[1] والفارابي[2] وابن سينا[3]، ولم ينحصر رواجها في أوساط محترفي الموسيقى والغناء بل تجاوزهم إلى أوساط المتصوّفة فأصبحت كتبهم حافلة بالحديث عن "المناسبة بين الألحان الموسيقية وبين النفوس[4] ".

يقول الفارابي "..فقد تبيّن أنّ أصناف الألحان ثلاثة : أحدها الألحان الملذّة، والثاني الألحان الانفعالية، والثالث الألحان المخيّلة. والألحان الطبيعية للإنسان ما فعلت في الإنسان أحد هذه إمّا في الجميع وفي جميع الزّمان، وإمّا في الأكثر وأكثر الزّمان، وأكثرها فعلا هي أكثر طبعيّة. والملذّة منها تستعمل للراحات وفي كمال الراحات، والانفعالية تستعمل حيث يقصد بها حدوث الأفعال الكائنة عن انفعال أو حصول الأخلاق التابعة

---

1 أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي "فيلسوف العرب" المتوفّى سنة 252هـ /866م. فيكون قد عاش في عهد المأمون والمعتصم وشهد حركة الانطلاق الفكري..واهتم بالفلسفة(حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص360.) له رسالة عنوانها (رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الأشخاص العالية وتشابه التأليف).

2 أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ المعروف بالفارابي نسبة إلى فاراب وُلد نحو 257هـ/870م (من أب فارسي وأم تركية)...اشتغل بالقضاء في بلدته قبل أن ينكبّ على دراسة الفلسفة...وصرّح بأنه يجيد سبعين لسانا...وذلك ظاهر في مؤلفاته لا سيما (كتاب الموسيقى الكبير).غادر فاراب قاصدا بغداد...لما تجاوز الأربعين من عمره وتتلمذ على أبي بشر متّى المتوفى سنة 328هـ/939م ..وكان لا يزيد تلميذه إلا بعشر سنين.درس الفارابي في بغداد المنطق ثم توجه إلى حرّان حيث تابع دراسته على يوحنّا بن حيلان، وكان ذلك في خلافة المقتدر الذي رقي العرش سنة 295هـ/907م ..وكان يدرس النحو على أبي بكر بن السرّاج لقاء دروس في المنطق كان يلقيها عليه....وفي سنة 330هـ/941م انتقل إلى دمشق؛ ثم اتصل بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب فضمّه إلى علماء بلاطه واصطحبه في حملته على دمشق حيث توفّي الفارابي سنة 339هـ/950م. وله من العمر ثمانون عاما. (حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص373.)

3 الشيخ الرئيس أبوالحسن علي بن سينا "كان مولده سنة 370هـ/980م وكان والده من بلخ حلّ بُخارى وتعاطى فيها الصّرافة وقد تردد إلى قرية قريبة من بخارى تدعى أفشنة فتزوّج فيها من امرأة أنجبت له ولدين كان أبو علي بكرهما..وظل مكبّا على دراسته يخوض في الرياضيات والطبيعيات والمنطق وعلوم ما بعد الطبيعة ويأخذ فن الطب عن أستاذ مسيحي اسمه عيسى بن يحي. ولم يتجاوز السادسة عشرة حين طار له صيت واسع في الطبّ...واستهوته الفلسفة إذذاك فخصّها بسنتين كاملتين من سني تحصيله..في السابعة عشرة من عمره أصيب نوح بن منصور سلطان بخارى بمرض عضال أعجز الأطباء فعالجه ابن سينا وشفاه، فقرّبه إليه وفتح له أبواب خزانة كتبه...وما إن بلغ ابن سينا الحادية والعشرين حتّى بدأ حياة الإنتاج ...غادر ابن سينا (جرجان) وراح يضرب في الأرض حتّى بلغ همذان وشفى أميرها شمس الدولة من مرض عضال فاستوزره...طلب إليه تلميذه الجوزجاني أن يضع كتابا شاملا في فلسفة أرسطو، فكتب قسم الطبيعيات من كتاب الشفاء (في الحكمة)، وتابع تأليف القانون (في الطب) وكان قد أتم الجزء الأوّل منه في جرجان....كانت حياة ابن سينا صاخبة حافلة بالعمل والتأليف، وحافلة باللهو والاستمتاع والسهر والجهد، فأصابه داء القولنج ولم يقوَ على معالجته فتوفّ به ودفن في همذان سنة 428هـ/1037م. وله من العمر ثمانية وخمسون عاما." (حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص441.) وهو الّذي ركّز مبدأ التداوي بالموسيقى الذي وقع إحياؤه أخيرا في أغلب بلدان العالم.

4 فصل ابن الخطيب، بعنوان: روضة التعريف بالحب الشريف، من تحقيق الكتاني، الدار البيضاء، الجزء الأول ص 378 - 390.

لانفعال ما، والمخيّلات تستعمل حيث الأقاويل الشعرية وأنحاء من الخطبية، ومنافعها تابعة لمنافع الأقاويل الشعرية[1] "

وجاء كذلك في رسائل إخوان الصفا مثل قولهم: "..فإذا أُلِّفَت النغمات في الألحان المشاكلة لها واستعملت تلك الألحان في أوقات الليل والنهار المضادّة طبيعتها طبيعة الأمراض الغالبة والعلل العارضة سكّنتها وكسرت حدّتها وخفّفت على المريض آلامه لأن الأشياء المتشاكلة في الطباع إذا كثُرت واجتمعت قَوِيَتْ أفعالها وظهرت تأثيراتها وغلبت أضدادها. كما عرف النّاس مثل ذلك في الحروب والخصومات، وقد تبيّن بما ذكرنا من حكمة الحكماء الموسيقيين المستعملين لها في المارستانات[2] في الأوقات المضادّة لطبيعة الأمراض والأعراض والأعلال."

ونظّم القاضي الشيخ عبد الواحد الونشريسي المتوفّى بفاس سنة 955هـ/1584م ذلك في قصيدة نوردها للفائدة: (من بحر الطويل)

طَبَائِعُ[ـنَـا] فِي عَالَمِ الْكَـوْنِ أَرْبَـعُ   فَفِي مِثْلِهَـا اضْرِبْ لِلطُّبُوعِ مُجَـمِّلاَ

فَأَوَّلُهَـا السَّـوْدَاءُ وَ الأَرْضُ طَبْعُهَـا   وَبِالْـبَرْدِ ثُمَّ الْيُبْسِ قَدْ خَصَّهَا الْمَلاَ

وَبَلْغَمُ طَـبْـعُ الْمَـاءِ رَطْبٌ وَ بَـارِدٌ   وَ طَبْعُ الْهَـوَا وَالْحَرِّ لِلـدَّمِ قَدْ تَـلاَ

وَصَفْـرَاءُ طَبْـعُ النَّـارِ يَحْـرِقُ حَـرُّهُ   لِمَا فِيهِ مِنْ يُبْسٍ بِتَـدْبِيرِ ذِي الْعُلاَ

فَنَغْمَةُ صَـوْتِ الذَّيْـلِ ثُـمَّ فُـرُوعِهِ   يُحَـرِّكُ لِلسَّـوْدَاءِ، خُـذْهَـا مُـرَتِّلاَ

عِـرَاقٌ وَ رَمْـلُ الذَّيْـلِ فَاصْغِ لِلَحْنِهِ   وَرَصْدٌ لَهُ فَارْصُدْهُ إِنْ كُنْـتَ ذَا ابْتِلاَ

وَلِلْبَلْـغَمِ الزَّيْـدَانُ ثُمَّ اصْـبَهَـانُهُ   حِجَازٌ زَوْرَكَنْـدٌ[فَخُـذْهُ] كَمَا انْجَلاَ

وَعُشَّاقُهُ [قَدْ][3] فَـاقَ وَاخْتَصَّ بِالْغِنَا   فَهُنَّ فُـرُوعٌ خَمْـسَةٌ بَـعْـدُ بِالْـوَلاَ

---

1 أبو نصر الفارابي، الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة محمد أحمد الحنفي، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص 67.

2 المارستانات (جمع مارستان) وهي كلمة فارسية الأصل تطلق على المستشفى، ثم خصصها الاستعمال لمستشفى الأمراض العقلية.

3 ما بين [..] إضافة من عندنا لإقامة الوزن حيث نقلنا عن الدكتور صالح المهدي من كتابه **الموسيقى العربية تاريخها وأدبها** الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر وديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، ص 165.

وَمَـايَةُ حُسْنٍ حُرِّكَتْ لِذَوِي الدِّمَـا   بِرَصْـدٍ وَ ذَيْلٍ وَالْحُسَيْـنِ الَّذِي حَلاَ

وَصَفْـرَاءُ لِلْمَـزْمُومِ فَانْسِبْ فُرُوعَهُ   غَرِيـبُ الْحُسَيْـنِ لِلطُّـبُوعِ مُكَمِّلاَ

وَزَادَ لَـهُ طَبْـعًـا غَـرِيـبٌ مُحَـرَّرٌ   وَ أَصْــلٌ بِلاَ فَرْعٍ، فَـلاَ تَكُ مُهْمِلاَ

وَصَــلِّ وَ سَلِّـمْ فِي ابْتِـدَائِـكَ أَوَّلاً   وَخَتْمًـا عَلَى مَنْ لِلْخَـلاَئِقِ أُرْسِــلاَ

ويبدو أنّه بعد ظهور النظرية، وبعيدا عن إرادة الطرب للتسلية، كان الرهبان وبعض الفلاسفة يستعملون الغناء للتأثير في النفوس في اتجاه معيّن فيستعملون طريقة لإثارة الحمية وحماس الجنود تختلف عن محاولة إيقاظ الشعور الديني في الصلوات، وكذلك كانت القينة تتخيّر الأصوات لقضاء شأن سيّدها، فلا تغنيه ألوانا شاجية في أوقات شجونه وأوجاعه، ولذلك نجد لهذه النظرية مبرراتها، بل ربّما وجها من وجوه الحقيقة.

وتأثّر علم النفس الحديث نفسه بهذه الأصول في الأخلاط الأربعة فجعل من طباع الناس الطبع السوداوي (Mélancolique)، والطبع اللمفاوي (البلغمي Lymphatique) والطبع الدموي (Sanguin) والطبع الصفرواي (Colérique) وغير ذلك من تفصيلات الطباع الثمانية الكبرى التي يُرجع علماء النفس مختلف الطباع الإنسانية إليها . ولعلّ هذا الباب هو الّذي ولجه الدكتور سليّم عمار الطبيب النفساني الشهير ليصف بعض الأغاني تُسمع في وقت معيّن لبعض مرضاه، كما نصح البعض منهم بحضور حفلات العوامرية بسيدي عامر مثلا، وترك شهادة منه بالزاوية ما زالوا يحتفظون بها إلى الآن. ويقول حبيب حسان تومة في سياق تأثير المقام الموسيقي في السامع: "لقد أجْرَيْتُ أخيرا دراسة لبعض الموسيقيين العرب العصريين كشفت أن هؤلاء تخالجهم مختلف المشاعر والأحاسيس عند سماعهم للمقام. فمقام الراست مثلا يولّد فيهم إحساسا بالفخر والقوّة والصحّة الذهنية والفحولة، أمّا مقام البياتي فهو ترجمان لقوّة الفرح والأنوثة، ومقام السيكاه يزرع فيهم مشاعر الحبّ، أمّا مقام الحجاز فهو يجعلك تفكّر في الصحراء وعالمها الرحب، أما مقام الصبا فيشعرك بالحزن وألم الفراق[1]."

1 TOUMA(Habib Hassan),La Musique arabe,ed Buchet/Chastel,Paris 1977 p 57.

2. المقام:

واستبدل أهل شمال إفريقيا كلمة "طبع" بكلمة "مقام" في ما يروج من كلامهم فرأينا من الصالح أيضا أن نعرّف بمصطلح "مقام" في الموسيقى العربية، ولعلّها قيست على معنى الكلمة الأصلي في اللغة العربية وهو موضع الأقدام، ثمّ تحوّلت الكلمة "مقام" في أغلب البلاد العربية والإسلامية فصارت تستعمل للدلالة على مجموع السلالم الموسيقية التي وُضعت لكلّ منها أبعاد مخصوصة بين مختلف درجاتها لتحدث التأثير المطلوب.

ويُطلق في الجزيرة العربية اسم "الصوت" على المقام الموسيقي، وهذا هو التعبير القديم الوارد في كتب التراث. أما في المغرب العربي من طرابلس إلى الأندلس فالكلمة المستعملة هي "الطبع" بما في ذلك الإنشاد الصوفي، فيُقال مثلا "طبع المزموم" على هذا المقام.

وتختلف الطبوع حتّى في البلاد المغاربية من بلد إلى بلد فمن الطبوع المغربية مثلا ما يوافق الطبوع التونسية مثل رصد الذيل والرصد والسيكاه ومجنب الذيل والحجاز المشرقي باسم الحجاز وهو الإصبعين، والذيل. ومنها ما يتّفق في النغم ويختلف في الاسم مثل رمل الماية (الحسين) وانقلاب الرمل (حسين نيرز) وحمدان (جهركاه) واصبهان (العراق) والاستهلال وهو داخل في رصد الذيل، وعراق العرب (السيكاه التونسية) ومزموم (جهاركاه مصور على درجة النوا) المشرقي الصغير (محير) والمشرقي (النوى) والعُشّاق (الإصبهان).

3- النوبة:

أمّا كلمة "النوبة" فيرجع استعمالها إلى العهود الأولى للنهضة الموسيقية العربية بالمشرق ومن هناك انتقلت إلى المغرب مع الفاتحين ومن تلاهم من الموسيقيين الّذين نزحوا إلى بلاد الأندلس. ويظهر أن هذه الكلمة قد تقلّبت في الإطلاق على عدّة معان، كعادة المصطلحات العلمية والفنّية، قبل أن يستقرّ بها الفكر البشري على معنى قار.

ففي طورها الأول كانت تطلق على دور المغنّي أو مجموعته في برنامج النشاط المقرر لسهرة أو مهرجان أو مجلس أنس عند أمير أو غير ذلك ممّا يقع فيه التناوب بين مختلف الأشخاص أو الفرق، مثلما ذكر الأصفهاني في الأغاني.

وفي الطور الثاني أصبحت كلمة "النوبة" تدل على جزء أومقطع من الصّوت الذي يرادف معناه الأغنية الموسيقية حسب الاستعمال الشرقي، فهي بهذا المعنى تناسب مفهوم الحركة الموسيقية باعتبارها جزءا من المعزوفة الموسيقية السنفونية. أمّا في الطور الثالث فقد أصبحت تدلّ على انتاج موسيقي كامل له مقوّماته اللحنية والإيقاعية.

ويحزّر أن "النوبة" أصبح لها مفهوم علمي بعد تحوّل زرياب[1] المتوفّى سنة 243هـ/857م من بغداد عاصمة الخلافة العباسية إلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية، فدخلت كلمة (النوبة) معجم المصطلحات الموسيقية العربيّة، وتدرّج ضبط أطرها حتّى أصبحت

---

1 هو أبو الحسن علي بن نافع، مولى المهدي العباسي [مختلف في تاريخ وفاته منهم من يراها سنة 230هـ/845م]نابغة الموسيقى في زمانه، أخذ الغناء عن إسحاق الموصلي. وله ذاكرة عجيبة فحفظ أكثر من ألف أنشودة بألحانها؛ كان شاعرا مطبوعا، عالما ببعض الفنون من الطبيعي وغيره، عارفا بأحوال الملوك، وسير الخلفاء ونوادر العلماء؛ اجتمعت فيه صفات النّدماء؛ وكان حسن الصوت، وهو الّذي جعل العود في خمسة أوتار وكانت أوتاره أربعة فأضاف إليها الوتر الأوسط الأحمر، وغنّى به أمام الرشيد بحضرة أستاذه إسحاق، فأعجب به الرشيد وأكرمه غاية الإكرام، فركب أستاذه منه الغيرة وطلب منه مغادرة بغداد فخرج منها هاربا، وفي طريقه إلى الأندلس مرّ بمدينة القيروان، وذهب إلى بني الأغلب ودخل على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فاحتقره وعاب عليه لونه الأسود فغنّاه بأبيات عنترة الفوارس:

فَإِنْ تَــكُ أُمِّي غُــرَابِيَّةً ... مِنَ ابْنَاءِ حَــامٍ بِهَا عِبْتَنِي
فَإِنِّي لَطِيفٌ بِبِيضِ الظُّبَا ... وَسُمْرِالْعَــوَالِي إِذَا جِئْتَنِي
وَلَــوْلاَ فِرَارُكَ يَوْمَ الْوَغَى ... لَقُدْتُكَ فِي الْحَرْبِ أَوْ قُدْتَنِي

فغضب زيادة الله وأمر بصفع قفاه وإخراجه قائلا له: إن وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيّام ضربت عُنقك. فجاز إلى الأندلس، ووفد على أميرها عبد الرحمن الثاني بن الحكم الأموي فبالغ في إكرامه وأغدق عليه نعمًا لا تُحصى وجعل له في كلّ شهر مائتي دينار واستغنى به عمّن سواه من الندماء والمغنّين. وقد انتفعت الأندلس من مواهب هذا الفنان العبقري كثيرا. وجعل مضراب العود من قوادم النسر بعد أن كان يُتّخذ من الخشب، وأدخل في الغناء مقامات جديدة ووضع له قاعدة جديدة. ونزيد على ذلك أنّه وضع قواعد لتعليم الغناء للمبتدئين. فلقد كانت العادة قبل مجيء زرياب أن يُكرر اللحن حتّى يُتم التلميذ أخذه بتمامه. فوضع زرياب قاعدة قسم فيها العمل إلى ثلاثة أقسام:1) يتعلّم التلميذ ميزان الشعر، ويقرأ الأشعار وهوينقر على الدّفّ ليدلّه على تفاصيل الميزان الغنائيّ فيعرف مواضع الحركات والسكون.2) يأخذ التلميذ اللحن مبسّطا ساذجا مجرّدا من كلّ زخرف. 3) يتعلّم التّلميذ الزخرفة وتنميق الضروب وما يتبعها، وبذلك يُجيد التلميذ اللحن بل قد يدخل فيه بعض التحسينات؛ وكان زرياب قد وضع الأسس لأوّل معهد موسيقى ظهر في البلاد العربية. وكذلك، وضع زرياب قواعد فحص الأصوات، فكان يُجلس التلميذ على مقعد عالٍ ويطلب إليه أن يصيح بكل ما في صدره قائلاً "آه" ممدودة على درجات السلّم الموسيقي. ومن هذه التجربة يعرف درجة صوت التلميذ ودرجة حسنه. وهنالك شيئان جوهريان نقلهما زرياب من المشرق هما: 1) طريقة تطبيق الإيقاع الغنائي على الإيقاع الشعري.2) طريقة الغناء على أصول النوبة الغنائية، ونعتقد أنّ هاتين الطريقتين هما اللّتان أوحتا إلى الشعراء والمغنّين الّذين أتوا بعد زرياب، باختراع الموشّحات. (راجع في ذلك، منجد دار الشروق، والأعلام للزركلي ص: 703، والموشحات الأندلسية "لفؤاد رجائي، المقال المنشور في المجلّة العربية العدد الثالث 1396 - 1397 المملكة العربية السعودية).

خاضعة للتعريفات والتقنينات العلمية كتعريف أحمد التيفاشي القفصي[1] في القرن السابع الهجري، إذ ورد فيه: إنها تقوم من نشيد واستهلال وعمل ومحرك وموشحة وزجل، وجميعها يتصرف في كل بحر من البحور أي أدوار الأغاني العربية[2]. يقول التيفاشي: " كان غناء أهل الأندلس في القديم إما بطريقة النصارى، وإما بطريقة حُداة العرب، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن قامت الدّولة الأموية، وكانت مدّة الحكم الرَّبَضِي فَوَفَدَ عليه من المشرق ومن إفريقية التونسية من يُحسن صنعة التلاحين المدنية، وأخذ الناس عنهم، إلى أن وَفَدَ الإمام المقدّم في هذا الشأن علي بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحاق الموصلي على الأمير عبدالرحمن الأوسط، فجاء بما لم تعهده الأسماع، واتخذ السلطان طريقته ونُسِيَ غيرها، إلى أن جاء ابن باجة (Avenpace) الإمام الأعظم، فاعتكف مدّة سنين مع جوارٍ مُحَسِّناتٍ، فهذّب الاستهلال والعمل، ومزج غناء النصارى بغناء المشرق، واخترع الأجدلا بالأندلس، وقد مال إليها طبع أهلها ورفضوا ما سواها، ثم جاء بعده ابن جُودي وابن الحمّارة وغيرهما فزادوا ألحانه تهذيبا، واخترعوا ما قدروا عليه من الألحان المطربة، وكان خاتمة هذه الصناعة أبو الحسن بن الخاسر

1 أورد له حسن حسني عبد الوهاب ترجمة ضافية في كتابه "ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الثاني، الناشر مكتبة المنار تونس، 1966، ص448 " قال: " هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج القيسي شرف الدين، وينتسب إلى (تيفاش) الكائنة الآن بشمال عمالة قسنطينة من القطر الجزائري، ومولده بقفصة من مدائن البلاد التونسية سنة 580هـ/1184م. وقرأ بمسقط رأسه حيث استقر أجداده وآباؤه من زمان بعيد....وكان والده يوسف قاضيا بمسكيانة، وانتقل أحمد في صغره إلى العاصمة تونس وقرأ بجامع الزيتونة...ثم سافر إلى الديار المصرية ودرس بها، وتفنّن على موفّق الدين عبد اللطيف البغدادي الطبيب الطائر الصيت، وتحوّل إلى دمشق وقرأ على تاج الدين الكندي؛ ثم رجع إلى بلاده مملوء الوطاب، فولاّه أبو زكريّاء الأكبر أول ملوك بني حفص خطة القضاء ببلده قفصة، وبعد حين ترك الوظيفة وقصد المشرق... فدخل العراق وبلاد فارس، ثم عاد إلى مصر واستقرّ نهائيّا بالقاهرة في حدود سنة 630 هـ واختلط بالطبقة العالية من الرؤساء وأعيان العلماء والأدباء... ومن أصدقائه في مصر:جلال الدين مكرم ابن منظور الإفريقي والد مصنِّفِ "لسان العرب"... وتوفّي شرف الدين التيفاشي بعده بمدّة....وألف التيفاشي مصنفات عديدة لم يصل إلينا منها إلا النزر القليل وفي مقدمتها "فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب"...و"الشفاء "في الطب... وآخر للموسيقى والرقص عند الشعوب المعروفة في وقته وأسماه: "متعة الأسماع في علم السماع".و"أزهار الأفكار في جواهر الأحجار"؛ وتوفّي بالقاهرة سنة 651هـ/1253م ودفن بمقبرة باب النصر". وهو معاصر لصفي الدين الأرموي ونصر الدين الطوسي. هذا وقد اعتنى المستشرقون بكتب التيفاشي الموسوعية من قديم فنشره الهولاندي راو(S.F.Rau) مع ترجمة إلى اللاطينية في مدينة أترخت بهولاندة سنة 1818م وله ترجمة في مكتبة ليبسيخ بألمانيا. والتيفاشي هو السابق بين علماء العربية إلى وضع موسوعة ضخمة يبلغ عدد أجزائها أربعين كتابا، فسبق بذلك أصحاب المعلمات مثل علي بن سعيد الغرناطي، والنُّويري وابن فضل الله العمري وصلاح الدين الصفدي والقلقشاندي وغيرهم.

2 الدكتورصالح المهدي، الموسيقى العربية تاريخها وأدبها، ص 95.

المرسي، فإنّه أدرك فيها علما وعملا ما لم يدركه أحد، وله في الموسيقى كتاب كبير في جملة أسفار، وكل تلحين سُمع بالأندلس والمغرب في شعر متأخّر فهو من صنعته...إلخ"[1].

وعُرّفت النوبة في كتاب "جامع الألحان" لعبد القادر بن غيبي المتوفّى سنة 1435 م بأنها إحدى الصّور الفنّية الغنائية التي كانت في عهده واسعة الانتشار.

وعرّفها "دون فردناندو بلدراما مرتينيت" المستشرق الإسباني بأنها قطعة موسيقية كاملة مؤلّفة من عدّة ألحان ونغمات، وهي بذلك تبدو كأنّها مجموعة من الأغاني المستقلّة عن بعضها البعض رغم كونها كلها تتعلّق بموضوع واحد، فضُمّت إلى بعضها ووصلت إلينا مجهولة المؤلّف، مثلما نجد ذلك في الكنائس والكاتدرائيات نتيجة جهود وأجيال متعاقبة[2].

أمّا سميحة الخولي فتقول: "إن النوبة الأندلسية تقابل في مفهومها الوصلة المعروفة في الشّرق، وهي تمثّل نظاما خاصّا في تتابع المقطوعات الغنائية والموسيقية أصبح تقليدا يتوارثه أبناء المغرب العربي باحترام عظيم[3]."

ويقول صالح المهدي في السّفر الثالث من التراث الموسيقي التونسي ضمن نوبة الذيل: "إنّ النوبة في اللغة هي النيابة، وقد استعملت دلالة على الدورة المعيّنة بحيث تقول: "جاءت نوبتك" لمن جاء دوره."

ويرى المستشرق السكتلندي "هنري جورج فارمير[4]" أن النوبة هي أعلى صورة فنّية للموسيقى العربية وتشكّل أهمّ طبقة في التأليف، وهي موسيقى مجالس، ويعلل ذلك

1 حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، مكتبة المنار تونس 1966، القسم الثاني، ص 453.

2 عن محاضرة المستشرق المذكور ألقاها بتطوان سنة 1955 تحت عنوان كنّاش الحايك.

3 عن مجلة عالم الفكر، المجلد 6، العدد 1، أفريل وماي 1975، الكويت، ص 20.

4 هنري جورج فارمر مستشرق انقليزي ولد سنة 1882 في مدينة برّ (Birr)(بارسن تاون) من أعمال إيرلندا، انصرف في مقتبل حياته إلى صناعة الموسيقى ثم دخل جامعة ڤلاسڤو، وبقي بها تلميذا (1919 - 1921) فاتجه نحو الموسيقى العربية اتجاه دراسة على أيدي المستشرقين، وأتقن العربية والفارسية وأصبح عضوا في الجمعية الملكية الآسيوية (Royal Asiatic Society) وهي جمعية علمية (1930 - 1933) ورأس الوفد الإنقليزي إلى مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1932، وعيّن أستاذا محاضرا في الموسيقى في جامعة ڤلاسڤو سنة 1934 .وصنّف عدّة كتب في الموسيقى العربية، منها "تاريخ الموسيقى العربية، تعريب جرجيس فتح الله المحامي من منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان."

بإمكانية قيامهم بالحفلات في نوبات معينة من اليوم أو بكونهم يتناوبون في العزف. ولسنا نعارضه في ذلك خصوصا إذا ما استحضرنا مجالس الطرب بقصور غرناطة والحمراء وإشبيلية وغيرها.

وفي عصرنا الحالي لا تستعمل هذه الكلمة إلا في بلدان المغرب العربي كاصطلاح فنّي على نوع معيّن من الطرب يرجع أصله إلى التراث الأندلسي، وهي في جميع تلك البلدان عبارة عن مجموعة من القطع الغنائية والموسيقية ملحّنة على مقام (طبع) واحد وعلى أوزان مختلفة لا يتجاوز عددها الخمسة[1].

ترتيب النوبة الأندلسية في المغرب الأقصى :

توجد بالمغرب الأقصى إحدى عشرة نوبة، كلّ واحدة بها قسم آلي وقسم غنائي:

القسم الآلي: ويتكوّن من مقدمات تحتضن ثلاثة أصناف من الموسيقى الآلية:

1)- المشالية:

وهي افتتاح يتم خلاله تحقيق الانسجام بين الآلات في عزف النوبة، وهي موسيقى مرتجلة، ثمّ وقع ضبطها في نوعين: مشالية كبرى ومشالية صغرى من تقنين محمد الفاسي.

2)- البُغْية:

وهي معزوفة آلية تستهل بها النوبة وتتألّف من فواصل النوبة التي تقدّم لها. ولكل نوبة بغيتها تحدد خصائصها المقامية وطبيعة تركيب ألحانها.

3)- التوشية:

وهي معزوفة آلية موقعة يسير إيقاعها في الغالب وفق ميزان البسيط .

وتلعب التوشية دورها في التعريف بالنوبة، وتتألّف من ثلاث تواشي: تواشي النوبات وتواشي الموازين وتواشي الصنعات[2].

---

1 عثمان الكعاك، الشيخ أحمد الوافي، نشر المعهد الرشيدي 1982. تحقيق صالح المهدي ص 50 الهامش.
2 عبد العزيز بن عبد الجليل، الموسيقى الأندلسية (فنون الأداء)، سلسلة عالم المعرفة العدد 129محرم 1409/ أيلول1988.

القسم الغنائي:

ويكوّن من خمسة أوزان بين الواحد والواحد مصرف، وهي: البسيط، قائم ونصف، البطايحي، القدّام، الدرج.

ويمكن الإتيان بأكثر من قطعة واحدة في كل وزن على أن يقع الإسراع في آخر كل قطعة استعدادا للتي تليها ويسمّى حينئذ المصرف.

ترتيب النوبة الأندلسية بالجزائر:

يحتوي رصيد النوبات في الجزائر على اثنتي عشرة نوبة كاملة وأربع نوبات ناقصة وسبع نوبات تُعرف بـ(النقلابات).

القسم الآلي : ويتكوّن من أربعة أجزاء: مشالية وتواشي ثلاث: توشية، وتوشية الانصراف وتوشية الكمال، نوردها بالترتيب في أماكنها:

1)- المشالية:

وتسمى أيضا تقعيدة أو مستخبر الصنعة، وهي عبارة عن معزوفة بدون إيقاع ينبّه بها المستمع إلى الطبع الذي سيُغنّى، ويراقب فيها العازفون آلاتهم. وقديما كان يُعزف قبلها فاصل موسيقي غنائي (صوتي) بدون إيقاع يسمّى (الدائرة) يقع فيه ترديد كلمة (يا لالنّي) بإيقاع حر تؤديها المجموعة قصد تهيئة أصواتها للغناء مركّزة على أهم خاصيات الطبع. واضمحلّت الآن هذه الطريقة ولم يبق منها إلا اثنتان (نوبة الذيل ونوبة الغريب).

2)- التوشية: وهي فاصل موسيقي على الآلة موزون بميزان البسيط أو بشراف.

القسم الغنائي: ويتكوّن: من المصدّر، ثم البطايحية، ثم الأدراج، ثمّ تعزف الفرقة:

3)- توشية الانصراف: وهي عبارة عن فاصل آلي يتوسّط النوبة، إيقاعه من نوع الأعرج 8/5 . ويرجع بعده إلى غناء الانصراف، ثمّ المخلص. وأخيرا تأتي:

4)- توشية الكمال: وهي قطعة آلية تختم بها النوبة. لم يبق منها حاليا سوى مثال

واحد بتلمسان، وهي توشية الكمال من نوبة الحسين[1].

ملاحظة: في القسم الغنائي للنوبة الجزائرية توجد معزوفة إيقاعية تسمّى كرسي تقابل الفارغة في النوبة التونسية وتسبق المصدّرات والبطايحية والأدراج والانصرافات.

ترتيب النوبة في ليبيا: وتتركب النوبة في ليبيا من مصدّر أوّل ومصدّر ثان، ومركز أول ومركز ثان، وبرول أول وبرول ثان، وخفيف وختم. وهي كلها وزن واحد يتغيّر اسمه كلما تغيّرت سرعته.

ملاحظة: تبنّت فرق العيساوية بليبيا النوبات الأندلسية وغنّت بها مالوف الجد، ولم يبق من المالوف لديهم إلاّ هذه الإيقاعات المذكورة آنفا.

النوبة التونسية: تنقسم النوبة التونسية إلى قسمين اثنين قسم آلي وقسم غنائي:

القسم الآلي: ويتكوّن: من استفتاح و(مصدّر وطوق وسلسلة) وتوشية.

1)-الاستفتاح: على إيقاع 4/2، وهو معزوفة موسيقية يعزفها كافّة أفراد الفرقة المصاحبة، وكانت في القديم عبارة عن هيكل موسيقي يرتجل عليه أحد العازفين ويتبعه بقية أفراد الفرقة، واضمحلّت هذه الطريقة ولم يبق سوى ما ضُبِط عند تأسيس الجمعية الرشيدية سنة 1934م.[2]

2)- المصدّر: يتركّب من ثلاثة أوزان تسير من البطء إلى السرعة وهي: المصدّر على إيقاع 4/6 ثم الطوق على إيقاع 4/3 ثم السلسة على إيقاع 8/3.

القسم الغنائي: وينطلق بعزف قطعة موسيقية تسمّى دخول الأبيات، وهي ذات إيقاعين وهما: البرول على إيقاع 4/2، والبطايحي على إيقاع 4/4. إثرها يشرع شيخ المنشدين في ارتجال غناء لبيتين من البحر الطويل في الغالب، ثمّ تأتي الفارغة وهي

---

1 جلول للس والحفناوي أمقران، الموشحات والأزجال الجزائرية، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، الجزء الأول.

2 الجمعية الرشيدية هي جمعية موسيقية تأسّست سنة 1934 م وأخذت اسم محمد الرشيد بن حسين بن علي باي ثالث أمراء البيت الحسيني من ملوك تونس، مولود في1710م وتوفي 1759، وإليه يرجع الفضل في ترتيب نوبات المالوف التونسية على غرار الفاصل الموسيقي التركي، حيث ألّف الفواصل الموسيقية التي تقع بين أجزاء النوبة ووضع المصدّرات والتوشيات.وأتمّ أميره محمد الأصرم تقنين الموسيقى التراثية وتنظيمها وضبطها بعده.

معزوفة موسيقية تسمّى دخول البطايحية على إيقاع 4/2، وهي شبيهة في تركيبها بدخول الأبيات، يأتي بعد ذلك مباشرة دورالمجموعة الصوتية في غناء بطايحي أو أكثر، وتُعزف فارغة البطايحي بين البطايحي والآخر.

3)- التوشية: جرت العادة بأن تكون توشية النوبة خارجة عن مقامها وتابعة لمقام النوبة الموالية في الترتيب إشارة للجمهور إلى نوبة الحفل القادم.

عند الانتهاء، إذن، من غناء البطايحية تعزف الفرقة التوشية وهي معزوفة موسيقية تبدأ على وزن البرول إيقاع 4/2، ثمّ يرتجل أحد العازفين المهرة جملا موسيقية على نفس الوزن، ثمّ تعود الفرقة وتدخل بعد ذلك في الجزء المؤلّف على وزن البطايحي إيقاع 4/4. وعند الانتهاء منه يرتجل عازف العود استخبارا يتجوّل به في عدة طبوع ويخرج منها أحيانا إلى السواكت وهي موسيقى بعض الأغاني الشعبية، ويرتجل أحد الأصوات الحسنة أحياناً أبياتاً من الشعر الفصيح.

البراول: (جمع برول) ثمّ تعود الفرقة إلى عناصر النوبة لتغنّيَ البراول، وهي مجموعة من الموشحات أو الأزجال الأندلسية على وزن البرول المعروف بسرعته فيتم غناء برول أو أكثر.

الأدراج: (جمع: درج) بعد الانتهاء من غناء البراول، تدخل الفرقة الموسيقية في عزف لازمة الدرج، يأتي بعدها غناء درج أو أكثر على إيقاع 4/6.

الخفايف: (جمع خفيف) عند الانتهاء، تعزف الفرقة الموسيقية لازمة الخفايف (فارغة الخفيف) يعقبها غناء أحد الخفائف أو أكثر على إيقاع 4/6.

الأختام: وأخيرا تغنّي المجموعة ختما أو أكثر على إيقاع 8/6، والختم يقابله الخلاص أو المخلص في الجزائر والقدام في المملكة المغربية، وكلماته تتناول في الغالب توحيد الله سبحانه وتعالى.

ترتيب النوبات في المالوف التونسي: وتترتّب النوبات التونسية ترتيبا بطريقة مخصوصة يلتزم الموسيقيّون فيها تقديم نوبة الذيل أوّلا (1) وفي اليوم الموالي يأتي دور نوبة العراق (2) وفي الذي يليه نوبة السيكاه (3) ثم الحسين (4) فالرصد (5) فرمل

المَاية (6) ثم النوى(7) فالأصبعين(8) فراست الذيل(9) ثم الرمل (10) فالإصبهان (11) ثم المزموم (12) وأخيرا نوبة المَاية (13). وقد جُمع ترتيب هذه النوبات في زجل تابع لنوبة النوى (دخول براول) فيما يلي نظمه:

يْجُـــرِّ الرْبَابْ رْهَاوِي   بِالذِّيـلْ قَلْبِي كَــاوِي

أَمَّا الْعْرَاقِ يْـــسَاوِي   سِيكَه مْعَ الحَسِيـــنِي

الرَّصْدُ ورَمْــلِ الْمَايَة   أَمَّا النَّـــوَى فِي غَــايَة

الإِصْـبْعِـــينِ دْوَايَــا   رَاسْتِ الذَّيــلْ يْحْيِينِي

الرَّمْــــلْ حِينِ تْنَغَّمْ   عَ الأَصْبْــهَانْ يِسَلَّمْ

مَزْمُــــومْ بِيـهْ نْتَمِّمْ   مَايَه فِي الْفَصْـــلِينِ

واخترعوا لكل نوبة أبياتا للتعريف بها:

فلنوبة الذيل [توشيح الرجز]

مِلْ فِي الْهَوَى مَيْلاً   فِي ظِـلِّهِ الْمَمْـدُودْ

أَمَــا تَـرَى اللَّيْـلَ   لِـوَاؤُهُ مَعْـقُـــودْ

قُمْ جَـرِّدِ الذَّيْــلَ   عَلَى اسْتِمَاعِ الْعُودْ

ونوبة العراق [البحر الطويل]

أَلاَ بِعِــرَاقِ الْعُرْبِ يَا خَيْرَ مُنْشِدٍ   بِحَقِّ الْهَوَى كُنْ لِي مُجِيبًا وَمُنْشِدَا

فَدَيْتُكَ عَلِّلْنِي، أُرِيـحُ مِنَ الْهَوَى   وَأَنِّسْ غَرِيبًــا لَمْ تَـزَلْ لَهُ مُرْشِـدَا

ونوبة السيكاه [البحر الطويل]

إِذَا مَـا شَـدَا شَـــادٍ بِسِيكَةَ لَحْنَهُ   تَحِـنُّ لَـــهُ أَرْوَاحُ كُـــلِّ مُهَذَّبِ

فَنَغْمَتُهُ الحَسْنَـــاءُ تُنْعِشُ مَنْ شَدَا   بِذِكْرِ النَّبِي الْهَادِي الحَبِيبِ الْمُقَرَّبِ

ونوبة الحسين [البحر الطويل]

أَيَا مَنْ حَكَى دَاوُودَ صَوْتًا وَيُوسُفَا جَمَالاً ولُقْمَانَ الحَكِيمَ بِحِكْمَتِهْ

سَلَبْتَ الحَشَايَا بِالحُسَيْنِ وَزِدْتَنِي بِتَرْجِيعِهِ شَوْقًا إِلَى حُسْنِ نَغْمَتِهْ

ونوبة الرصد [البحر الطويل]

أَيَا مُطْرِبًا بِالرَّصْدِ يَا مَنْ لَهُ صَبَا فُؤَادِي وَفِي قَلْبِي نَوًى قَدْ تَرَنَّمَا

فَدَيْتُكَ إِذْ أَطْرَبْتَنِي بِنِغَامِهِ وَ خَلَّفْتَنِي صَبًّا كَئِيبًا مُتَيَّمَا

ونوبة رمل الماية [البحر الطويل]

أَلاَ غَنِّنِي يَا مُنْشِدِي رَمْلَ مَايَةٍ وَأَطْرِبْ عُقُولَ الجَالِسِينَ ذَوِي الْفَضْلِ

وَدَعْ عَنْكَ شُرْبَ الرَّاحِ وَاصْغ لِلَحْنِهِ فَنَغْمَتُهُ تَحْكِي السُّلاَفَةَ فِي الْعَقْلِ

ونوبة النوى [البحر الطويل]

إِذَا سَعِدَتْ أَحْبَابُنَا وَشَقِينَا صَبَرْنَا عَلَى حُكْمِ الْهَوَى وَرَضِينَا

وَإِنْ جَيَّشَ الأَحْبَابُ جَيْشًا مِنَ النَّوَى بَنَيْنَا مِنَ الصَّبْرِ الجَمِيلِ حُصُونَا

ونوبة الأصبعين (وهو في الجزائر: الزيدان، وفي المغرب: الحجازالكبير) [من البحر الوافر]

أَلاَ رَجِّعْ بِزَيْدَانٍ إِذَامَا سَمِعْتَ، أَصَاحِ! أَصْوَاتَ الحِسَانِ

وَدِرْ صِرْفَ الْمُدَامَةِ وَاسْقِنِيهَا فَيُمْنَا مَا لَهُ فِي الحُسْنِ ثَانِي

ومن [البحر الخفيف]

اِسْقِنِي خَمْرَةَ الدِّنَانِ فَإِنِّي فِي هَوَاهَا فَنِيتُ..ضَاعَ شَبَابِي

وَانْشِدَنْ بِالحِجَازِ يَا صَاحِ جَهْرًا فَغَرَامُهُ قَدْ أَطَالَ عَذَابِي

نوبة راست الذيل [من البحر الطويل]

إِذَا كُنْتَ ذَا عِشْقٍ وَوَجْدٍ وَ رِقَّةٍ عَلَيْكَ بِرَصْدِ الذَّيْلِ كُنْ بِهِ مُنْشِدَا

فَنَغْمَـــتُهُ تُحْيِي النُّفُوسَ وَتَشْتَـفِي الصُّدُورَ وَتُصْفِي الْقُلُـوبَ مِنَ الصَّدَا

ونوبة الإصبهان [من البحر الطويل]

أَيَا مَنْ إِذَا مَـا رَنَّ هِمْتُ صَـــبَابَةً وَهَيَّجَ وَجْدِي وَاشْتِـيَاقِي وَلَوْعَتِي

لَقَدْ هُلْتَنِي بِالأَصْبَـهَانِ الَّذِي بِـــهِ شَدَتْ حُـورُعِينٍ فِي الْجِنَانِ وَرَنَّتِ

ونوبة المزموم [من البحر الطويل]

أَيَا مُنْشِدِي الْمَزْمُومَ لاَ خَانَكَ الدَّهْرُ وَلاَ حَـامَ مَا تَحْمِيهِ عُسْرٌ وَلاَ ضَيْرُ

وَلاَ زِلْـــتَ فِي عِـزٍّ عَظِيـمٍ وَرِفْعَـــةٍ يَعُمُّهَـا التَّـأْيِيدُ وَالْفَتْحُ وَالنَّصْرُ

ونوبة الماية [من البحر الطويل]

إِذَا اصْفَرَّ قُرْصُ الشَّمْسِ حِينَ فِرَاقِهَا فَكُنْ مُنْشِدًا لِلْمَايَةِ يَا أَخَا الْعُرْبِ

وَبَـــادِرْ بِـإِحْسَـاءِ الْكُـؤُوسِ وَنَزِّهَنْ عُيُونَكَ فِي ثَوْبِ الأَصِيـلِ الْمُذهّبِ

الفرق بين النوبة الأندلسية والموشحات الأندلسية: إننا عندما نتحدّث في المغرب العربي عن الموسيقى الأندلسية، إنّما نعني النوبات الأندلسية التي تتضمّن وحدة الطبع مع الموازين الخاصّة لكلّ بلد، ولا نُدخل الموشّحات في المفهوم المحلّي لهذا اللون من الموسيقى، أمّا الموشّحات الموسيقية الحديثة التي نظّمها بعض الملحّنين في المشرق والمغرب نعتقد أنّها صنعت ولا تزال تُصنع على منوال ما يسمّى بالموشحات الأندلسية المنتشرة في المشرق العربي. وهناك الكثير من رجال الموسيقى الأندلسية في المغرب العربي رفضوا هذا السؤال من أساسه في ندوة مكناس المغربية التي انعقدت في 23 ديسمبر 1977، وذلك لأنهم يُنكرون أن يمتّ الموشّح الشرقي إلى الموسيقى الأندلسية بأي صلة، ويعتبرون تسميته ذاتها خطأ إن لم تكن تحاملا على هذه الموسيقى، وحجّتهم في هذا خلوّ الموشّح الشرقي من الخصائص اللحنية والإيقاعية التي تحدد طبوع وموازين النوبات الأندلسية.

وقد فقد مالوف تونس أيضا الكثير من الخصائص اللحنية والإيقاعية للموسيقى الأندلسية منذ أن تسرّبت إليه بعض التغييرات تحت تأثير الموسيقى التركية، ومع ذلك فليس لأحد أن يُنكر صلته بالموسيقى الأندلسية الأصيلة. يقول الدكتورصالح المهدي:

"المالوف ليس بأندلسي خالص ولكنه لون من الموسيقى الأندلسية جلبه اللاجئون الأندلسيّون معهم خاصّة في هجرتهم الكبرى في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد، فانتشر في الحواضر التونسية، فتلقاه التونسيّون بالحفظ والتّهذيب والتّغيير، وألّفوا ولحّنوا على غراره، ولو تعمّق الباحثون في أصول فنّ المالوف لأدركوا أنّه يكاد يُصبح تونسيًّا خالصا بما أدخل عليه الفنّانون التونسيّون من تغييرات وتجديد في كلماته وألحانه."

تأثر الموسيقى الصوفية بالنوبات أو المالوف: عندما قدمت الألحان الأندلسية إلى تونس، سرت سريان الدم في شرايين الطبقات الشعبية بفضل أوزانها وقرب لغتها من اللهجة الدّارجة، فعلقت بالنفوس، والتصقت بالأذهان، فحُفظت كلماتها، وترددت ألحانها في البيوت والأسواق ومحلاّت الصناعة، ولم يقف انسيابها عند ذلك الحدّ، بل عمدت إلى الطرق الصوفية فصارت ألحانها تنشد في محافل الذّكر والمناسبات الدينية، ويُترنّم بأنغامها الشعبية بُغية التواجد، وقد وُضعت على إيقاعها كلمات موزونة في مدائح الأولياء والصالحين، وبهذه الطريقة غزا المالوف الطرق الصوفية كالعيساوية والقادرية والعوامرية والعزّوزية والعروسية، وغيرها من الطرق التي نشطت في القرون الميلادية السابع والثامن والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومازال بعضها ناشطا إلى الآن.

ويبدأ عمل هذه الفرق كما نعرف بقراءة فاتحة الكتاب، ثم يتلون تلاوات خاصّة بهم، ثمّ بعد الذّكر والتوسّل ينتقلون إلى أشعار صوفية كأشعار ابن الفارض والبوصيري وابن مرزوق، ويأخذون في إنشاد بعض الشيء من نوبات المالوف موقّعة بالنغّرات والرق والدربوكة والبندير لضبط الإيقاع، ثمّ يأتي الإنشاد الخاصّ.

تأثر الموسيقى الصوفية بالتراث الشعبي: بالإضافة إلى ما ذكرنا من تأثّر الطرق الصوفية بالنوبات الأندلسية، نلاحظ أنّ هذه الطرق، لما لها من احتكاك وثيق بالجماهير فتُؤثّر فيها وتتأثّر بها، فإن هذا التأثر يسري إلى الموسيقى، ولذلك نجد الرقائق والصنائع في الطرق الصوفية، كما نلاحظ أنّ الكثير من المدائح ملحّن على نمط الأغاني الفولكلورية (التراثية). والأغنية التراثية لا تعتمد في ألحانها على الطالع ثم البيت وإنمّا هي إعادة اللحن الواحد من البداية إلى النهاية، فهو من نوع (الميلوديا) (Mélodie) يعاد لحن البيت

الواحد في كامل الأغنية ولا تكون لها خرجة في آخرها ما عدا ما نلاحظه من تسارع الوزن. وتلحّن المدحات في هذا القالب الفولكلوري بالخصوص في النوبات التي تتغنّى بالأولياء والصالحين.

والفولكلور كما صدر تعريفه في وثيقة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) الصادر عن اجتماع لجنة الخبراء الحكوميين الثانية المختصّة بصون الفولكلور، المنعقد في دار اليونسكو للفترة 14 - 18 يناير/كانون الثاني 1985: هو: "الفولكلور (بالمعنى الواسع للثقافة التقليدية والشعبية) هو إبداع نابع من جماعة، وقائم على التقاليد تعبر عنه جماعة أو أفراد معترف بأنّهم يصوّرون تطلّعات المجتمع، وذلك بوصفه تعبيرا عن الذّاتيّة الثقافية والاجتماعية لذلك المجتمع وتتناقل معاييره وقيمه شفهيّا أوعن طريق المحاكاة أو بغير ذلك من الطرق. وتضمّ أشكاله فيما تضمّ، اللغة والأدب والموسيقى والرقص والألعاب والأساطير والطقوس والعادات والحرف والعمارة وغير ذلك من الفنون[1]."

الفولكلور هو مجموعة التقاليد والأساطير والأغاني والممارسات الشعبية لبلد ما، هذا ما نجده في القاموس. وأول من اخترع هذا الإسم (الفولكلور) هوالألماني "يوهان جوتفريد فون هردر" (1744 - 1804م) عندما استعمل اصطلاح (فولكسليد) وهي كلمة ألمانية مركبة من كلمة (فولكس) الشعب وكلمة (ليد) أغنية، حين قام بدراسة الأغنية الشعبية بوطنه. ثم أصبحت الكلمة (فولكلور) على يد الباحث الإنقليزي "وليام جون تومز" الذي استعمل هذا الاصطلاح سنة 1846م وهو مركب من كلمة (فولك) وهي نفسها كلمة (فولكس) الألمانية وتعني الشعب، أمّا كلمة (لور) الإنقليزية فهي متعددة المعاني: علم، حكمة، معرفة تقليدية، معرفة مكتسبة عن طريق الدرس أوالخبرة، ومعتقد تقليدي، مجموعة من المعارف والتقاليد إلخ[2]...

وهكذا نفهم دخول النمط الشعبي في الإنشاد الصوفي، ذلك أنّ شيخ الطريقة

---

1 مقال بعنوان (اليونسكو وصون الفولكلور) صادر بمجلة الموسيقى العربية (جامعة الدول العربية) وهي مجلة تعنى بالموسيقى العدد 5 أكتوبر/تشرين الأول 1985، ص 62.

2 طارق حسون فريد، التراث الموسيقي والموروث الموسيقي، مجلّة المأثورات الشعبية السنة الأولى العدد الرابع أكتوبر1986 عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي: الدوحة - قطر، ص49.

ومريديه ومحبيه يسعون لإكتساب حبّ الناس وميل العامّة والخاصّة إلى طرقهم رجاء إدخالهم في ملكوتهم ومسّهم بالرحمات المتوفرة في طريقتهم، ولذلك تجدهم يجتهدون في استعمال كلّ ما يمكّنهم من تحقيق هذا الهدف، فهم يستعملون كل ما تعلقت به قلوب الناس وميولهم ومن بين ذلك الموسيقى نفسها ونوباتها وفنونها من تراثها وموروثها ومحدثها، باعتبار ما للموسيقى من تأثير على النفس وبذلك يمكن إشباع الأذن بالذكر والمدائح عوض الخلاعة والمجون. وقد نجحوا في ذلك بقدر ما. وسنجد في أثناء دراستنا للموسيقى الطرقية الكثير مما ذكرناه من نوبات وترتيب الأوزان والطبوع ما يجعلنا نعتقد أن الطرق الصوفية تمثّل فعلا مالوف الجدّ في مقابل مالوف الطرب. ولا نعجب إن رأينا ابتكارات موسيقية لدى الصوفيين مما وعوه أو فعلوه.

اتخذت سهرة الإنشاد في تونس نظاما يشبه في هيكله نظام النوبة فقد ذكر لطفي المرايحي في كتابه "الإنشاد الديني في العالم الإسلامي"[1] أن هنالك ترتيبا مخصوصا فيقسمها إلى ثلاثة أجزاء، فالجزء الأول للفاتحة والمولدية وتعطيرة، والجزء الثاني سلامية فينشد سلسلة الفزوع وبحر وشطحة وختم ثم عروبيات في مدح الأولياء، ولجزء الثالث يفسح فيه المجال للقطع أو ما يسمى الصنايع وتنتهي السهرة بتصليات وكانت فرقة محمود عزيز تحافظ على هذا النسق.

1 لطفي المرايحي، الإنشاد الديني في العالم الإسلامي، طبع أضواء للإشهار ص145.

التداوي بالموسيقى

بعد أن فقدت جلّ الطرق الصوفية فيضها الديني العقائدي ولم يبق فيها إلاّ هذا التراث الموسيقي، لا يمكننا إلاّ أن نتساءل، ما هو الشيء الّذي ما زال يجلب فئات عديدة من النّاس إلى هذه الطرق؟ وما الّذي بقي منها حتّى يبلغ هذه الأهميّة الكبيرة التي تجذب الناس إليها؟ لماذا نرى العديد ممن بلغوا درجات من الثقافة العالية، والمعرفة العلمية العصرية يذهبون إلى الحضرات الصوفية، ويشاركون فيها بالإنشاد والرقص وقد يبذلون عليها وفيها بسخاء لا يُظهرون نظيرا له في مواقف حياتية أخرى؟ بل ما هي العلاقة بين فلان وبين نوبته التي يتأثّر بها دون النوبات الأخرى؟ ولماذا نرى بعض الشيوخ الّذين أثقلتهم السنون، يخفّون بعد فترة من الاستماع وينطلقون في رقص عنيف لا يقوى عليه غير الشباب؟ هل يجرّنا ذلك إلى ما قاله سابقا إخوان الصفا، وماتحاول بعض التجارب الطبية فيما يسمى (التداوي بالموسيقى:Musicothérapie) ؟

والتداوي بالموسيقى ليس شيئا غريبا عن الحضارة التونسية، وكان الأطباء يعرفون قيمة الموسيقى في تهدئة الأعصاب أو إثارتها، ومن أجل ذلك قامت الأميرة عزيزة عثمانة بتوقيف ريع كبير للإنفاق على مطربين كانوا يعزفون بمارستانها، فقد ذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتابه "ورقات"[1]: " فمن أوقاف الأميرة عزيزة عثمانة على هذه الدار [دار

---

1 حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، الناشر مكتبة المنار، تونس، 1966، القسم الثاني، ص 239.

الدراويش وهي المارستان الذي أحدثته بحومة العزّافين بتونس العاصمة] ريع معتبر يعرف بـ"حبس العود والرباب" رتّبته رحمها الله لجراية مطربين ماهرين بالآلات المشار إليها [وأهمها الأرڤنو Organo] يقومون صباح كلّ يوم بدارالدراويش بعزف نوبة من الموسيقى المألوفة مدّة ساعتين، ترويضا لأولئك المصابين وتهدية لأعصابهم المضطربة. ولا يخفى أن الطبّ العصري أثبت أنّ من أنجع الطرق لمعالجة المصابين بأعصابهم هي الألحان الموسيقية وما الفضل إلاّ للمتقدّم."

يمكننا أن نستخلص، بعد هذه الدراسة، أنّ الجاذب الرئيسي المؤثّر على النّاس هو الإيقاع في كامل هذه الطرق، وقد حاول القدامى الحفاظ على هذه الخاصّية فلم يكن الاهتمام بالمحمل الذي ينقل هذا الإيقاع، وكان في المالوف مثلا كلام بسيط، كما لم يكن الكلام في الطرق الصوفية كلاما موزونا على الطريقة العروضية أو حتى الموازين الشعرية في الأدب الشعبي، رغم معانيه العميقة ومراميه البعيدة في بعض الأحيان، وإنّما الكلمات تحمل ذكرى الألحان والإيقاعات عندما يحفظها الجيل الصاعد عن الجيل الّذي قبله، وهكذا كان لا مناص من الرواية الشفوية، والأخذ عن الشيخ وتصحيح الأخذ عنه.

وتتداخل الروايات، فينسج الراوي على منوال شيخه الأبيات التي نسيها، أويخترع أبياتا تتماشى مع الحال على نفس المنوال، فإن كان علم العروض محملا قليل الجدوى في الحفاظ على الألحان، قبل اختراع النوتة، رغم أنّه كان طريقة ذكيّة جدّا في الحفاظ على الإيقاع لما ينسج على منواله، إلاّ أنّ دوائر الإيقاع الموسيقي المعزوفة على الآلات يمكن توارثها أبًا عن جدّ كتوارث النوبات والطبوع، وعن طريقها توارث نفس التأثير في النفس، ذلك أن الإيقاع في آخر الأمر هو روح الأشياء كما صرّح به الشاعر الإفريقي الكبير "ليوبولد سيدار سنڤور"، فقال في معرض حديثه عن الصورة :

Mais l'image n'exprime pas la réalité essentielle, la sous-réalité; elle ne parle pas à notre imagination et à notre coeur, elle ne provoque pas l'émotion (qui est l'accession à un état supérieur de connaissance... Elle est connaissance intégrale, car le sujet ému et l'objet émouvant sont unis dans une synthèse indissoluble.) l'ébranlement de notre être, si elle n'est pas rythmée. Le rythme est consubstantiel

à l'image...La vérité poétique s'identifie, ici, à la vérité scientifique, pour qui l'être de l'être est énergie, c'est à dire rythme. Comme je le disais, le rythme, c'est l'architecture de l'être, le dynamisme interne qui lui donne forme, le système d'ondes qu'il émet à l'adresse des autres, l'expression pure de la force vitale. Le rythme, c'est le choc vibratoire, la force qui, à travers les sens, vous saisit à la racine de l'être[1].

" فالصورة الشعرية لا تعبّر عن حقيقة الواقع الأدنى، فهي لا تخاطب خيالنا ولا قلوبنا ولا تحرّك إحساسنا (الّذي هو الدّخول في وضع أرقى من المعرفة ... إنّه المعرفة الأصيلة، لأن الشخص المتأثّر والشيء المؤثّر اتحدا في تركيبة لا تقبل التفكيك) ولا تزعزع كياننا إن لم تكن موزونة، فالإيقاع توأم الصورة فلا تولد إلا معه وهنا تتّحد الحقيقة الشعرية بالحقيقة العلمية التي تعتبر أن كيان الوجود هو الطاقة، أي الإيقاع. وكما سبق أن قلت فإنّ الإيقاع هو معمار الوجود والفعّالية الداخلية التي تعطيه شكلا، ونظام الذبذبات التي يرسلها للآخرين هي التعبير الصافي لقوة الحياة، فالإيقاع هو تلك الرّجّة المتواترة، تلك القوّة التي تأخذك عن طريق الحواسّ إلى جذور الوجود."

وهكذا نتأكّد أن دنيانا هي دنيا الإيقاع، وأن الصورة لا يمكن أن توجد إلا مع الإيقاع ولا يمكن أن تبرز للوجود بدونه. وأنتم تلاحظون جيّدا كيف نتفاعل مع رقصات الصينيين والهنود مثلا ونحن لا نفهم كلامهم، في الحال أننا قد لا نتفاعل مع كلمات أغنية عربية لأنها بلهجة غير لهجتنا أو لم نتعوّد عليها.

وفي آخر الأمر لسنا نفهم كيف تستقيم الموسيقى بدون ذلك الضابط الإيقاعي الذي يسمو بالوجدان والروح إلى أعلى درجات الجذب والسمو والانسلاخ عن المادّة حتّى لكأن الإيقاع أصبح مخدّرا للأعصاب فتصبح طيّعة في كفّ الروح وتنسجم الأشياء مع بعضها البعض، وينهار سلّم المفاضلات ليبرز التكامل والتناغم الوجودي تعبيرا عن الانتماء لهذا الكون والانصهار فيه والتوق إلى غايته الأخيرة والانجذاب الكلّي إلى الغاية الكلية للوجود. وتلك لعمري حالة الخمرة في شطحات الصوفية ؛ فليست الصور الشعرية أو الكلمات هي التي فعلت فعل السحر فيهم، بقدر ما سحرهم إيقاع

1 Michel HUET, *Afrique Africaine*,Suisse, p.10.

البندير، ودقّ الدفوف، أو الإيقاع الباطني فارتحل بهم إلى هذه العوالم التي تسمو على مقاييس المفاضلات المادّيّة في الحياة العادية، لذلك ليس من العجيب أن نجد في بعض الطرق من يداوي الصرعى وبعض الأمراض العصبية والنفسية بالرقص والإيقاع، بل ربّما لا نعجب من شيخ فان قد أثقلته السنون وضعفت حركته، كيف يتجاوز ضعفه ذاك وتأتيه قوّة من حيث لا ندري، فإذا به يخفّ طربا ويقوم للرقص كأنّه شابّ في ريعان شبابه.

يقول محمد العياشي في كتابه " نظرية إيقاع الشعر العربي ": "ولعلّ من أعظم مزايا الإيقاع وفضائله ماله من الأثر في معالجة الأمراض وتسكين الأوجاع وتصحيح الأبدان ومعالجتها بالشفاء لتتمتّع بالعافية وتنعم بلذّة الحياة. واعلم أنّي لا أبالغ إذا قلت هذا، وسيحين الوقت الّذي يعترف فيه العلم رسميا بما للإيقاع من التأثير والمفعول في ميدان التطبيب والتمريض، ومعالجة الأمراض بالإيقاع أمر قديم عريق في القدم عمدت إليه الشعوب البدائيّة وأحرزت فيه نتائج باهرة هي التي أقرته دعامة من أقوى دعائم الطّبّ. وما تزال بعض الأقوام تعمل به إلى اليوم كالشامان المقيمين في بعض مناطق سيبيريا والّذين هم قوم من السحرة يعالجون الأمراض بالإيقاع ويحقّقون في ذلك من النتائج ما يبعث على التّعجّب والاندهاش ."

ولنا أن نتساءل: لماذا يتدرّج العازفون في الطرق الصوفية من الأوزان الثقيلة إلى الأوزان الخفيفة، ومن الأطراق الباردة إلى الأطراق الساخنة، كما يتدرّج شيخ الإنشاد من مقام إلى آخر في الارتفاع حتّى يصل بالمنشدين إلى طبقة حادّة؟ هذا الارتفاع من الأدنى إلى الأعلى هو الّذي يجرّ العاطفة إلى التسامي والوجد والذّوبان في نشوة الروح، وذلك ما صرّح به الغوث عبد السلام الأسمر حين قال: "عندما أسمعها تأخذني عاطفة جياشة وانفعال عظيم يجبرني على مفارقة الجماعة والذهاب إلى البستان المجاور فأتمشّى لعدّة ساعات في فتنة وجذب صوفي لا يوصف. في السابق كنت فقيها ولم يكن لي أي ميل لهذه الأشعار ولا ما يغذّي روحها ولكن بمجرّد أن بيّن لي شيخي الدوكالي مزاياها حتى وجدت نفسي في حالة فوق عادية وعرفت جمال النشوة وأصبح ميلي للطار ولأشعار الدينوري بلا حدود ...".

وفعلا فإن العديد من القبائل الإفريقية تتعامل مع الأمر بكلّ هذه الأريحية مع ما يضفيه الرقص من عوالم سحرية تحرّك كوامن النفس وتستجلي بواطن الكيان وتستخرج مدّخرات القوّة والطاقة الكامنة فيه لتتفاعل مع الحدث وتُؤثّر في الحاضر، وينصهر الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله في اللحظة. إنّه نوع من التعامل مع اللاّوعي أو ما وراء الوعي في النفس الإنسانية. فما هو السرّ في الإيقاع ؟.

إن هذا الإيقاع النفسي وتأثيره على المشاعر الإنسانية هو حقيقة الشعر وحقيقة التعبير، لأن الإنسان لا يخلو من أن يكون ذا موقف أمام الصور التي تتراءى له أو الواقع الذي يعيشه، وهذا الموقف انفعاليّ في الأصل، ولكي تصل هذه الصور إلى أغوار الإنسان وتتجاوز مجرّد وعيه يجب أن تتخذ شكل الإشعار العصبي، أي شكل الذبذبة الكهربية، وكل ذبذبة إيقاع، فتتخذ هذه الانفعالات ألوانا ما وصفها "سنغور" بالإيقاع لأنها في الواقع تتركب من الكلمات التي هي أصوات، ولهذه الأصوات جرس يقع من النفس موقع القبول أو النفور، وكذلك للمعاني جرس يقع بنفس الطريقة من النفس الإنسانية، فهي نوع من رقص النحل الراقي أو الذي بلغ درجة كبيرة من التجريد. هذا الإيقاع الذي هو في علم الأصوات ذبذبة يقع من الحواس موقعا سحريا يقودها إلى أعماق النفس الإنسانية، وتلك المجاهل هي منهل الشاعر.

وعندما نصل إلى التحليل المادّي نجد أنّ الإيقاع هو وحدات زمنية مختلفة الأطول والامتداد تتكرر بنفس الطريقة فتحدث انسجاما، يقع من الأذن موقع القبول، فيحرّك الجسم للرّقص ويسرّح الخيال من ربقة المنطق والواقع إلى دنيا الخيال والأحلام، ويدخل المرء بها مرحلة الجذب، فينطلق أوّلا بالبهت ونوع من الذّهول ثم يرتقي إلى الانفعال وتوتّر الأعصاب ثم التشنّج والتأهّب إلى الانسجام مع الوحدة الوزنية بالاهتزاز الرفيق، ثم يدخل الإنسان في حال الانتشاء مما يجعله قابلا للأشياء بنوع من السموّ والتسامح والانسجام مع مكوّنات الموقع، ثم ينتقل إلى الغيبوبة الذهنية والاندماج الكامل في مختلف مكوّنات الكون، فينصهر انصهارا في المسيرة الوجودية بعد أن كان يراقبها بالعقل كمن يراقبها من وراء ستار سميك من الزجاج.

هذه الخمرة تبرز كوامن الطاقات المخزونة في الجسم لوقت الحاجة، لذلك فإن المصاب بانكماش العضلات أو تقلص الأعصاب عندما يُشلّ عن الحركة مثلا، يتمّ

تهييج الكوامن بواسطة الإيقاع فيسرى تيّار ذلك في الأعضاء المرتخية أو العضلات المنكمشة فيطلقها فيقوم ذلك الأشلّ وينطلق كأنه صحيح معافى. ويلاحظ ذلك في طريقة العوامرية مثلا، أو في الطرق الزنجية كبنقة سيدي سعد. أو أن يصيب الإنسان انقباض نفسي وكبت للعواطف وتقليص لإمكانيات التنفيس فيطفو على الكيان حالة مرضية، فإذا حضر بعض هذه الحضرات ينطلق ذلك الانقباض إلى الانشراح، ومن هنا كانت الكلمة التي يرددها البوعلية: (كيف يدوخ يتسرّح) أي عندما يغيب عن الوجود يذهب همّه وينشرح، ويقع التنفيس عن ذلك الكبت ويقع التعبير عن العواطف المكتومة كما رأينا في (التجانية) وغيرها، ولعلّ نفس الشيء يقع مع الشيوخ، فتبرز الطاقات المخزونة في الجسم وينجلي ذلك الكابوس النفسي والاجتماعي الذي تحدثه مظاهر الشيخوخة، فتنكمش نفس الشيخ وينقطع عن عادات الشباب مختارا تحت تأثير الوطأة الاجتماعية وخوفا من اتهامه بالتصابي، وعدم الاعتراف بسنّه، فالظاهر أن للشيخوخة عوارض نفسية واجتماعية أكثر منها مظاهر فيزيزلوجية بحتة، ولو استطاع الشيخ تجاوز الكبت الاجتماعي والنفسي، لتمكّن من تجاوز الكثير من العجز البدني.

يورد راجي عنايت في كتابه (معجزات العلاج)[1] متحدثا عن الشامان "كان الشامان في أساسه عرّافا، تكشف له بصيرته التشخيص السليم للمرضى، ومتنبئا يرى المراحل القادمة لعلاج المرض أي كان ينظر إلى عمله باعتباره من إنجازات شخص يتمتع بما نسميه التنبؤ بالمستقبل، أو الشفافية. كانت هذه المواهب تأتيه في بعض الأحيان عفويا، ومن تلقاء نفسها. وفي أحيان أخرى، كان يحتاج إلى التركيز حتى يصل إلى حالة الغيبوبة أو التجلّي، حيث يستطيع أن يرى ويسمع الإجابات عن أسئلته. وكان أيضا يسعى في بعض الأحيان إلى دفع المريض هو الآخر إلى حالة التجلّي هذه حتى يطلق غرائزه من عقالها. وكان الشامان يحقق هذه الأهداف بالموسيقى والرقص والعقاقير، التي تأخذ المرضى خارج نفوسهم.

كان الأثر يختلف من شخص لآخر، إلا أن النمط العام كان دائما واحدا، التشنج وفقدان التحكم في الأعصاب، ثم حدوث الانفصال عن الجسد، والتحدث بأصوات

---

1 راجي عنايت، **معجزات العلاج**، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1413هـ/1993م، ص28/ 29

غير الأصوات الطبيعية ثم السقوط في غيبوبة، يصبح كل من الجسم والعقل بعدها في حالة تجدد ونشاط."

أورد محمد العياشي في كتابه" نظرية إيقاع الشعر العربي " بالصفحة 107 مقالا صدر بإحدى الصحف: "قد يستبعد الإنسان إمكانية شفاء الشلل بواسطة الأنغام الموسيقية إذا ما سمع بهذا الخبر الغريب، ولكنّ هذا الأمر جدّيٌّ والعلاج بالموسيقى هو علاج جديد تمّ تطبيقه في ألمانيا الإتحادية للمرّة الأولى في العالم، إذ أنّه لم يسبق للأطبّاء أن استخدموا الموسيقى في معالجة الأمراض عدا الأمراض العقلية فقط، حتّى الآن يوجد في هامبرغ أخصّائيٌّ في الأمراض العصبية هو البروفسّور "بيرند" الّذي يقول بأنّه من الممكن معالجة كلّ خلل عضويّ بواسطة الموسيقى إذا كان هذا الخلل صادرا عن الجهاز العصبي. وقد تمكّن فعلا من تأهيل المصابين بالشلل الجزئي بمعالجتهم بالأنغام الموسيقية المرحة ذات الإيقاع السريع ..." وأورد أمثلة لمصابين تمّت معالجتهم وشفاؤهم بهذه الطريقة.

أمّا الدكتور أحمد مبارك من أندونيسيا فيقول: "من خصائص أعمال أصحاب الطرق الصوفية السعي في مصالح الناس، وخاصّة خدمتهم في علاج النفس، ومن بينهم شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية في أندونيسيا اكتشف كيفية العلاج النفسي باستعمال طريقة الذكر في علاج مدمني الأدوية الممنوعة، وهذا العمل قرّب شيوخ الصوفية من رجال الحكومة لأن كثيرا من هؤلاء رجال أغنياء مدمنون لهذه الأدوية الممنوعة، وللطريقة النقشبندية عيادات لعلاج مدمني المخدّرات سمّيت بعيادات (الإنابة) منتشرة في مدن أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وفي مدينة (مكين) شيخ من الطريقة النقشبندية طوّر كيفية علاج النفس باستعمال طريق الأوراد، وله عيادة تسمّى عيادة (التوكّل)"

ولعل من تأثيرات العقيدة في الحضرة، أو التأثير الفعلي للإيقاع الموسيقي أن تنفعل معه الطبيعة المادية في الانسان، فمما تميزت به الطريقة العامرية مثلا هذا الاستطباب، فقد روى لنا السيد "عليّة المقدّم" وكان حاضرا بين عدد من المنشدين: أن امرأة مشلولة مقعدة جيء بها على كرسي متحرك وحضرت في الحضرة فبدأت بتحريك أصابعها ثم تحركت قليلا وساعدها بعض الحاضرين ثم أمسكت بسارية ووقفت على رجليها

وأخذت ترقص وترقص حتّى عوفيت، وانفطر أهلها بالبكاء فرحا بشفائها، فكأنما حركت الإيقاعات ما كان كامنا في جسدها. وقد كان بتونس مارستان للسيدة عزيزة عثمانة حبّست عليه جرايات للمغنّين يعزفون لمرضى الأعصاب فيهدؤون. هذا وقد تحدّث الدكتور المرحوم سليم عمّار طبيب الأعصاب والأمراض النفسية عن هذه الطريقة في بعض مداخلاته التلفزية، وكان رحمه الله يصف بعض الأغاني لمرضاه، ومنهم من يرسله لزاوية "سيدي عامر المزوغي". يقول في شهادة أرسلها إلى مقام الولي الصالح سيدي عامر بتاريخ 14 سبتمبر 1982 ما يلي : "إني الموقّع أسفله الدكتور سليم عمّار أشهد أني انتقلت إلى زاوية سيدي عامر عدّة مرّات في مواسم ليالي الجمعة وقد شاهدت هناك كيفية علاج بعض المرضى المصابين بعلل نفسية وعصبية تكون شديدة الوطأة أحيانا بالرغم من مصدرها النفسي البسيط وشاهدت النّتيجة الحسنة التي تحصل في مثل هذه الحالات بفضل الطريقة التقليدية المستعملة والتي تركز على النجاعة ومهارة المعالجين الّذين يبدون خبرة مدهشة في هذا المجال وأخصّ منهم السادة منجي المقدّم وأحمد بو عزّة اللذين امتازا بحكمتهما في تعاطي التبرّك. ويتسنّى لنا بعد هذه الملاحظات أنّه يصبح من الفائدة أن يزور الأطباء النفسيّون بصفة منتظمة هذه الحفلات ويربطوا الصلة بالمعالجين التقليديين هناك بانسجام مع عيادات الأمراض النفسية التي أسهر عليها بالمستشفى الجهوي بسوسة ..."

إذن، ما زالت هذه الطرق تؤدّي دورا في المجتمع الّذي تأصّلت فيه بقطع النظر عن تقدّمه المادّي في درب الحضارة أو تخلّفه عن ذلك الركب، فالواقع أنّ هذه المظاهر الثقافية هي عنوان حضارة ما، وما زالت تعبّر عن رأي اجتماعي وفلسفة حياة طالما أثرت على الحياة التونسية وطبعتها بطابع متميّز كان له تأثيره في تاريخ الأحداث لا يمكن إغفالها في الدراسات الأنثروبولوجية الذي يحاول العديد من علمائنا إخضاع مجتمعنا العري الإسلامي لها، في إطار البحث عن وسائل النهوض الثقافي والاجتماعي وحتّى العقدي والديني لما كان لهذه الطرق من التأثير الواضح في حياة الناس وطرق تفكيرهم. وإذا أدخلت على بعض هذه الطرق طوارئ من ضبط علمي أو صنائع مستحدثة، فإنّ ما بقي من التراث ما زال يؤثّر تأثيره المعهود منذ حياة الآباء والأجداد، ويمكن استغلاله وتطويره لحياتنا المعاصرة وتهذيب ما يجب تهذيبه، بالإضافة إلى ما أمكن توظيفه في

التنشيط السياحي كمنتوج ثقافي من تنظيم الملابس والرقصات والكورغرافيا التي أبرزت أخيرا جماعة "الحضرة" بقيادة سمير العقربي الذي أخذ شذرات من أغلب الطرق ونظمها تنظيما كورغرافيا وتوزيعا موسيقيا وأدخل فيها العديد من الآلات غير التقليدية، وفي ذلك كلّه نوع من التأصيل للميزات التونسية عن بقية الشعوب رغم انتشار وسائل الإعلام وتقارب البلدان وتأثر الثقافات الواضح ببعضها البعض.



الطرق الصوفية بتونس
حسب التسلسل التاريخي



الجنيد شيخ الصوفية

يقول الصادق الرزقي في كتابه (الأغاني التونسية) في معرض حديثه عن الطريقة "الخلوتية": "هي طريقة تربية وسلوك وزهد وتقشف وعزلة واعتكاف وتجرّد من متاع الدنيا وتصوّف بحت، أحدثها العارف بالله الإمام الجنيد المتوفى سنة 298 ه رضي الله تعالى عنه[1]. " ويظهر أن هذا الاسم "الخلوتية" هو نسبة إلى محمد الخلواتي الفارسي[2] الذي تنسب إليه هذه الطريقة، وأن اسم "أبي القاسم الجنيد" لم يذكر فيها إلا لأنه هو أوّل من أحدث طريقة صوفية بالشكل المعروف وهو حلقة من حلقات سلسلة الاعتماد[3] التي اعتمدتها الطريقة "الخلوتية" حتّى أصبحت تعزى إليه. وإلاّ فطريقة الجنيد ليست الخلوتية التي خلفتها الرحمانية فيما بعد.

---

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 107.

2 كوبولاني وديبون، الطوائف الدينية الإسلامية: *les confréries religieuses musulmanes ,Algérie :189*، ص369 - 375.

3 تنطلق سلسلة الخلوتية من الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي لقّن عليا بن أبي طالب كرّم الله وجهه الذي لقّن الحسن البصري الذي لقن الحبيب العجمي الذي لقن داود الطائي الذي لقن معروفا الكرخي الذي لقن السري السقطي الذي لقن أبا القاسم الجنيد مؤسس المدرسة الصوفية التي تفرعت عنها الطوائف الصوفية الأخرى، وهو الذي لقن ممشاد الدينوري الذي لقن محمد الدينوري الذي لقن القاضي وجيه الدين الذي لقن عمر البكري الذي لقن أبا نجيب السهروردي الذي لقّن رئيس الصوفية الأبهري الذي لقن محمدا النجشي الذي لقن شهاب الدين الشيرازي الذي لقن جلال الدين التبريزي الذي لقّن إبراهيم الكيلاني الذي لقن محمدا الخلوتي الذي تنسب إليه الطريقة " الخلوتية" (المرجع السابق).

الشيخ المؤسس: رغم وجود التيار الصوفي منذ فترة قبل الجنيد بل منذ عهد الصحابة كأبي ذر الغفاري، مرورا بإبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية ومعروف الكرخي وبشر الحافي والحارث المحاسبي الأستاذ الكبير والفقيه الحكيم والزاهد الورع مؤسس التحليل النفسي بطريقة المحاسبة، والسريّ السقطي خال الجنيد نفسه وأستاذه الّذي أخذ عنه أصول التصوّف، فإنه يمكن أن نقول بكل ارتياح أن مؤسس الطريقة الصوفية الأولى هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزّاز، الصوفي الزاهد العالم بالدين، ولعلّ بروزه هو في إرجاع كلّ عمل صوفي إلى مستند من قرآن أو سنّة. ولد ونشأ ببغداد وتوفّي بها سنة (297 هـ- 910 م)، أصل أبيه من نهاوند وكان يعرف بالزجّاج القواريري نسبة لعمل القوارير[1].

وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز (الحرير). [تفقّه على أبي ثور والشافعي وقيل أنّه كان على مذهب سفيان الثوري][2] وتلقّى العلوم الصوفيّة عن خاله السريّ السقطي[3] [والحارث المحاسبي[4]. ومن أصحابه أبو العباس ابن سُريج الفقيه الشافعي].

ويعدّ الجنيد سيد الطريقة الصوفية، فقد حجّ ثلاثين حجّة ماشيا. وأتباعه ومريدوه لا حصر لهم وهم منتشرون في جميع أنحاء العالم. قال أحد معاصريه: "مارأت عيناي

---

1 خير الدين الزركلي، الأعلام، المطبعة العربية بمصر، 1347هـ /1928م.

2 ماوضع بين معقفين[..] هو إضافة من(الحقيقية التاريخية للتصوّف الإسلامي) لمحمد البهلي النيال، طبعة تونس1965.

3 هو: أبو الحسن سَرِيّ بن المغلس السَّقَطي ولد ببغداد وتوفي بها سنة (251 هـ-865م) من كبار الصوفية وهو أستاذ الجنيد وخاله. [كان تاجرا ببغداد فوقع حريق في السوق ونجا حانوته فحمد الله، ثم ندم أن أراد لنفسه خيرا من الناس فطفق يستغفر لأكثر من ثلاثين سنة] وهو أوّل من تكلّم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية وكان إمام البغداديين وشيخهم في زمانه، من كلامه:" من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز". من أقواله: إن " المحبّين" يفوقون في النعيم تبّاع موسى وعيسى ومحمد صلّى الله عليه وسلّم. وقد لامه ابن حنبل على تلك الأقوال. [كان كثيرا ما ينشد:

إِذَامَاشَكَوْتُ الْحُبَّ قَالَتْ: كَذَبْتَنِي ... فَمَا لِي أَرَى الأَعْضَـاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا

فَلاَ حُبَّ حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْحَشَا ... وَتَـذْهَلَ حَتَّى مَا تُجِيبُ الْمُنَـادِيَـا

(انظر: منجد دار الشروق، بيروت. وما بين [..] عن محمد النيال، الحقيقة التاريخية).

4 الحارث بن أسد المحاسبي من البصرة جمع علم الظاهر والباطن واشتهر بالمحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه كثيرا. تعفف عن أخذ ميراثه من أبيه لأن أباه كان يقول بالقدر رغم شدّةحاجته إلى المال. وقدطلب من أبيه تطليق أمّه كراهة لمذهب القدرية. ألّف عدّة كتب : منها كتاب "الوصايا" ومنها كتاب "رعاية حقوق الله"؛ وكان الجنيد من بعض تلاميذه. توفّي سنة 243 هـ/857 م.(محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي.ص 62، وعن ترجمته في كتابه الوصايا).

مثله: الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. "وهو أوّل من تكلّم في علم التوحيد ببغداد. قال ابن الأثير في وصفه: "إمام الدنيا في زمانه" وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوّف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنّة، ولكونه مصونا من العقائد الذميمة محميّ الأساس من شُبَه الغلاة، سالما من كل ما يوجب اعتراض الشرع.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي[1] أنّ الجنيد كان ينكر على الحلاج شطحاته وكان ممن يبغضونه، فنبهه الحلاج إلى شطحات أبي يزيد البسطامي، فأخذ الجنيد يؤوّل شطحات أبي يزيد، ولكنه اضطر إلى قول: "إنّ أبا يزيد - رحمه الله- مع عِظَم حاله وعُلُوّ شأنه لم يخرج من حال البداية، ولم أسمع منه كلمة تدلّ على الكمال والنهاية."

وهكذا نعتقد أن مشكلة الشطحات الصوفية قد بدأت تظهر عند إبراهيم ابن أدهم ورابعة العدوية، ثم أخذت في التبلور مع الحلاج وأبي يزيد البسطامي وأبي بكر الشبلي المعاصرين للجنيد وأن انتقادات الجنيد وغيره للشطحات ربما كانت تقيّة لمّا رأوا مصير الحلاج، وليس مُآخذة فعلية، ولكننا نبرئ أبا القاسم عن مثل هذا الخداع فإن ما أقره الشيخ من رجوع للكتاب والسنة يرفع عنه هذا المأخذ.

أخبارالطريقة: يقول الصادق الرزقي (في الأغاني التونسية): "...وهذه الطريقة (ويقصد"الخلوتية") أوّل طريقة ظهرت في الإسلام، لذلك عدّوا الجنيد أوّل مبتكر للطرق وشارع لها. وأفراد هذه الطريقة بإقليمنا (تونس) قليلون جدّا حتّى أنّ عددهم لا يكاد يُذكر، أمّا مبدؤها فهو موجود في عدّة طرق من حيث الأعمال التعبّدية والأوراد وشروط التلمذة وتربية النفس إلى غير ذلك مما حضّ عليه علماء الباطن، ولا توجد بقطرنا زوايا مستقلّة بهذه الطريقة ولا جماعة مخصوصة."

ونضيف أنّ طريقة الجنيد كانت تدرّس في الفقه عند دراسة متن ابن عاشر وشروح ميارة (الدر الثمين) حيث يقول ابن عاشر في (المرشد المعين):

---

1 عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، سلسلة دراسات إسلامية، نشر وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت، توزيع دار القلم بيروت لبنان، ص 39و40.

يَقُولُ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَاشِرْ مُبْتَدِئًا بِاسْمِ الإِلَهِ الْقَادِرْ

صَلَّى وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَالْمُقْتَدِي

وَبَعْدُ فَالْعَوْنُ مِنَ اللهِ المجِيدْ فِي نَظْمِ أَبْيَاتٍ لِلأُمِّي تُفِيدْ

فِي عَقْدِ الأَشْعَرِي وَفِقْهِ مَالِكْ وَفِي طَرِيقَةِالجُنَيْدِ السَّالِكْ

فكانت الطريقة تتميما لعقائد الأشعري وفقه مالك. وقد جعلوا الدين على ثلاثة أركان: عقيدة وشريعة وطريقة، فالعقيدة على مذهب الأشعري وتشمل ما يعتقده الإنسان من أفكار أو حقائق، والفقه على مذهب مالك بن أنس وهو مجموعة القوانين والتراتيب من واجبات ومحظورات، والطريقة هي التصوّف على طريقة الجنيد، وليس الطريقة "الخلوتية" كما يعرف لدى أرباب الطرق، والطريقة هي مسلك يسلكه الإنسان ليصل به إلى الغاية المنشودة من كل هذا الاعتقاد والالتزام بالضوابط من أفعال وتروك، ولم نجد من يقول بأنها غير الزهد ونبذ ملذّات الدنيا في سبيل الرقي بالنفس الإنسانية إلى الروحانية الصرفة مرورا بمراحل يعرفها أهل التصوّف. وهناك من يجعل له هذه الأركان: الإيمان والإسلام والإحسان، ولكن المشهور ما ذكرناه.

من كلامه: قال الجنيد: "طريقنا مضبوط بالكتاب والسنّة من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقتدى به." ومن كلامه أيضا: " الطرق مسدودة على الخلق، إلاّ من اقتفى أثر الرسول صلّى الله عليه وسلّم واتّبع سنّته ولزم طريقته فإن طُرق الخيرات كلّها مفتوحة عليه."

وسئل الجنيد :"ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون ولا يتحرّكون، بخلاف ما إذا سمعوا الرباعيات؟ قال: لأن القرآن كلّه أحكامٌ ومواعِظ، كُلِّفوا بالعمل بها، ومن كُلِّفَ بشيءٍ لا يطرب به، ولا كذلك الرباعيات، فإنها كلام جنسهم، ومما عملته أيديهم، بخلاف القرآن، فإنه صدر عن حقّ فلا مجانسة بينها وبينه."[1]

ويظهر أن التصوّف الطرقي ابتدأ من هنا بعد أن كان تصوّفا نظريًّا وعلميا لم ينزل

1 أحمد فريد المزيدي، الإمام الجنيد سيد الطائفتين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولة 2006، ص285.

إلى مستوى الجمهور. ونفهم من التصوّف العلمي ما اهتدى إليه عالم بعد تبحّره في الفقه والأصول ولمس الحقائق العلمية والربانية بنور العلماء. ونفهم من التصوّف الطرقي هو أخذ العهد عن شيخ واتباع أوراده وأحزابه حتّى يأتي الفتح الرباني، سواء بالسلوك أو بالجذب. هذا وقد تقلّص التصوّف العلمي في القرون الأخيرة ولعلّ ذلك ابتداء من القرنين السادس والسابع للهجرة ليترك المجال للتصوّف الطرقي كي يزدهر ويعمّ كامل العالم الإسلامي.

وذكرنا هذه الطريقة لأنّها هي البداية التي عنها تفرّعت الطرق وتولّدت.

الطريقة القادرية

نسبة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني البغدادي

الشيخ المؤسس: هي طريقة صوفية أحدثها الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني الصّدّيقي ابن أبي صالح موسى جنكي دوست بن الإمام عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض [أبوه الحسن بن الحسن بن علي وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي كرم الله وجهه] ابن الحسن المثنى [أي الثاني] ابن الحسن السبط[ابن البنت] ابن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وأمّه فاطمة بنت عبد الله الصومعي. ولد بقرية "بُشتير" من إقليم "جيلان"[1](وراء طبرستان) سنة 470 أو 471 هـ/حوالي 1077م.

يروى عنه أنه كان لا يلقم ثدي أمه نهارا في رمضان، فإذا آن المغرب نهل ما يشاء. وهذه من كراماته التي ظهرت مبكّرة، كما ينسب لعديد الأولياء كرامات مثل هذه منها ما نسبوه للقطب إبراهيم الدسوقي وسيأتي الحديث عنه في بابه. ويظهر أن الشيخ عبد القادر تيتّم من جهة أبيه إذ أنه تربّى وترعرع في رعاية جدّه لأمّه عبد الله الصومعي وكان إمام المسجد. فتلقّى علوم القرآن والحديث والسيرة ببلده ثم ارتحل إلى بغداد وعمره ثماني عشرة سنة للاستزادة من العلم، فزودته أمّه ببعض دنانير كان تركها

1 جيلان إقليم في إيران جنوبي بحر قزوين وقاعدته (رشت)، تعرف مناطقه الجبلية باسم (الديلم) وهو مناطق مستنقعات.

والده. وفي الطريق هاجم قافلته قطاع طرق استولوا على كلّ ما في القافلة، ولكن عبد القادر استطاع أن ينجو بصدقه، فقد صرّح لهم أن معه دنانير لكنهم لم يعثروا عليها، فلمّا أعيتهم الحيلة وأظهرها لهم تاب زعيمهم على يديه وأمرهم أن يرجعوا كلّ ماغصبوه إلى أصحابه، بل ربّما صحبوه إلى غايته لحراسته من أشباههم[1].

وفي بغداد أخذ علم الفقه بفروعه وأصوله مذهبا وخلافا عن أبي الوفاء بن عقيل وأبي الخطاب الكلوداني وأبي الحسن بن يعلى الفرّاء وأبي سعد المخرّمي، وأخذ الحديث عن أبي غالب الباقلاني وأبي سعيد بن خنيش وأبي الغنائم الرّسّي وأبي بكر التمّار وأبي محمد السرّاج وغيرهم، ودرس الأدب على يد أبي زكريا التبريزي، وتلقّى علم الكلام، ولكنه عزف عنه وعن مباحثه، وتعلّم التصوّف على يد أستاذيه حمّاد الدبّاس وأبي سعد المخرّمي، وبرع في أساليب الوعظ واشتهر وامتلأت حلقته بآلاف المستمعين وبدا نجمه يظهر في عاصمة الثقافة والعلم.

وكان يأكل من عمل يده ككل هؤلاء المميّزين من العبّاد والصالحين ولا يحلو له خفض العيش، ولا ما ينهال به الناس على أمثاله من الهدايا والتقربات. وفُتِحَ له بفتح العارفين في بغداد بعد أن مرّ بسنين في العزلة في الفيافي والتقشف الذي هوسمة الزاهدين، ومرّ بحال الملامتية[2] ثم بمرحلة الجذب، ثم واقعة أستاذه الدباس. ولما فُتح عليه تصدّر للتدريس والفتوى ببغداد سنة 528 هـ، وأصبح واعظا بعدّة أماكن بها، فازداد مريدوه حتّى أصبحوا جموعا لا عداد لها، وكان يوصي بالمحبة للغريب وبالتقشف. له من الأثار: "الفتح الرباني والفيض الرحماني" في التصوّف و"الغُنية لطالبي طريق الحق". وتوفّى ببغداد سنة 561هـ/1166م[3]. ومن ألقاب الشيخ عبد القادر: باز الله الأشهب، والقطب

1 تروى نفس القصة عن أبي يزيد البسطامي الصوفي (انظر، طه عبد الرؤوف سعد، 300 قصة وقصة من قصص الصالحين والصالحات، مكتبة الصفا، القاهرة، 1420هـ/2000م، ص46.

2 الملامتية هم قوم أنحوا على أنفسهم باللائمة؛ والأصل عندهم ترك التزيّن للناس وإرضائهم سواء في الأخلاق أو الأفعال ولا يكترثون بمدح الناس وذمّهم بل يسترون حقائقهم [وأوّل من تكلّم في أصولهم أبوصالح حمدون القصار المتوفّى سنة 271 هـ/884م ويقول:هم قوم أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم فالخلق يلومونهم على ظواهرهم وهم يلومون أنفسهم على مايعرفونه من بواطن أنفسهم. وبذلك على حدّ قوله: أكرمهم الله بكشف الأسرار والإطّلاع على المغيّبات (الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي لمحمد النيال.ص: 127)] (الملامتية وهم قوم طابت نفوسهم مع الله فلم يودّوا أن يطّلع أحد على أعمالهم، فإذا رأى أحدهم أنّ أحدا اعتقد فيه خرّب، أي ارتكب ما يذمّ به ظاهره من فعل وقول ..(عن أحمد خلف الله، إبراهيم الدسوقي، ص95.)

3 يوسف زيدان، **عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى1991م.

الربّاني، والهيكل الصمداني، ومصباح أهل الحقيقة، وسلطان الصالحين، وراعي الحمراء، وبو دربالة، ولد أم الخير، ومصباح الظلام، وبوعلام، وفارس بغداد، إلخ...

ومما يُنسب له من أشعار: أشعار بها شطحات عجيبة لا تقلّ عجبا عن قول الحلاّج الّذي مات من أجله: مثلما يقول في تائيته التي مبدؤها [من البحرالطويل]:

نَظَرْتُ بِعَيْنِ الْفِكْرِ فِي حَانِ حَضْرَتِي   حَبِيبًا تَجَلَّى لِلْقُلُوبِ فَحَنَّتِ

سَقَانِي بِكَأْسٍ مِنْ مُدَامَةِ حُبِّهِ   فَكَانَ مِنَ السَّاقِي خُمَارِي وَسَكْرَتِي

حتّى يقول: ضَرِيحِيَ بَيْتُ اللهِ مَنْ جَاءَ زَارَهُ   يُهَرْوِلُ لَهُ يَحْظَى بِعِزٍّ وَ رِفْعَةِ[1]

أيُعقل أن يكون ضريح الشيخ بيتا من بيوت الله في الحال أنّ هناك من منع الصلاة في المدافن؟ إذن، فهو يقول: لا تزوروا ضريحي لأن بيت الله أوالمسجد أولى فالّذي يهرول للمسجد يحظى بالعزّ والرفعة، فذاك ضريحي لأنّي دفنت نفسي في بيت الله، أما قبر جسدي فلا أهمّيّة له. وقوله:

وَأَمْرِيَ أَمْرُ اللهِ إِنْ قُلْتُ كُنْ يَكُنْ   وَكُلٌّ بِأَمْرِاللهِ، فَاحْكُمْ بِقُدْرَتِي

يظهر فيه نوع من الغلوّ أو الغرور وعقيدة وحدة الوجود أو الحلول، هذا هو الظاهر من النص، ويجب أن يؤوّل على: إنّك أيها المريد، إن أردت أن تتبع أمري فلا أمر لي فإنّ الأمر لله ولا أتجرّؤ أن آمرك بغير ما أمر الله فأمري هو أن تأتمر بأمر الله. فلا يمكن أن يكون أمره مثل أمر الله (كن فيكون) في الحال أنّ الله سبحانه وتعالى يقول : {لَيسَ لَكَ منَ الأَمر شَيء} وأي قدرة له، والواجب عليه أن يتبرّأ من حوله وقدرته؟ وكذلك القولِ في القصيدة التي مطلعها [من البحر الوافر]:

سَقَانِي الْحُبُّ كَاسَاتِ الْوِصَالِ   فَقُلْتُ لِخَمْرَتِي: نَحْوِي تَعَالِي[2]

فما أبعد ما تقرأ في هاتين القصيدتين عمّا تقرؤه في القصيدة المنظومة في أسماء الله الحسنى التي مطلعها [من البحر الطويل]:

---

1 الحاج إسماعيل سعيد القادري، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، طبعة المكتبة الشعبية بيروت- لبنان، ص48.

2 الحاج إسماعيل سعيد القادري، الفيوضات الربانية، ص50.

شَرَعْتُ بِتَوْحِيدِ الإِلَهِ مُبَسْمِلاَ سَأَخْتِمُ بِالذِّكْرِالحَمِيدِ مُجَمِّلاَ
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لاَرَبَّ غَيْرُهُ تَنَزَّهَ عَنْ حَصْرِ الْعُقُولِ تَكَمُّلاَ
وَأَرْسَلَ فِينَا أَحْمَدَ الحَقَّ قَيِّدَا نَبِيًّا بِهِ قَامَ الْوُجُودُ وَقَدْ خَلاَ

إلى أن يقول:

وَقَابِلْ رَجَائِي بِالرِّضَا عَنْكَ وَاكْفِنِي صُرُوفَ زَمَانٍ صِرْتُ فِيهَا مُحَوَّلاَ
أَغِثْ وَاشْفِنِي مِنْ دَاءِ نَفْسِيَ وَاهْدِنِي إِلَى الخَيْرِ وَاصْلِحْ مَا بِعَقْلِي تَخَلَّلاَ
أَنَا الْقَادِرِيُّ الحَسَنِيُّ عَبْدٌ لِقَادِرٍ دُعِيتُ بِمُحْيِي الدِّينِ فِي دَوْحَةِ الْعُلاَ
وَصَلِّ عَلَى جَدِّي الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ بِأَحْلَى سَلاَمٍ فِي الْوُجُودِ وَأَكْمَلاَ
مَعَ الآلِ وَالأَصْحَابِ جَمْعًا مُؤَيَّدًا وَبَعْدُ فَحَمْدُ اللهِ خَتْمًا وَ أَوَّلاَ[1]

ففيها يظهر الإسلام والتسليم وتوحيد الخالق والخضوع له والتذلّل له والاستعانة به دون سواه، ورغم نظام القصيدة الّذي ظهر نموذجه في عصور متأخّرة قليلا عمّا نعهده في عصر الشيخ، فإنّنا لا نجد ما يضير أن تنسب للشيخ عبد القادر العارف بالله الّذي لا نشكّ في صحّة عقيدته، ولا نجد من يمنعنا من القول بانتحال بعض المريدين لهذه الأشعار فينسبها لشيخه عن خبث أو حسن نيّة.

ونرى إن صحّ لأحدهم قول غريب، على سامعه أن يبحث له عن تأويل صالح كما فعل الشيخ عبد القادر نفسه. فقد أورد الدكتور عبد الرحمن بدوي: "سُئِل (عبد القادر الكيلاني) عن قول أبي يزيد[البسطامي]: خُضْتُ بحرًا وقف الأنبياء بساحله- ما معناه؟ أجاب: إن صحّ عنه فمعناه: وقفوا بساحله ليُعَبِّرُوا فيه من رأوا فيه أهلية العبور، ويمنعوا من ليس فيه أهلية له، وليدركوا من أشرف على الغرق، كما يتأخّر الأفضل ليشفع في دخول الجنّة ويدخل المفضول[2]".

1 المصدر السابق ص: 52.
2 عبد الرحمن بدوي، **شطحات الصوفية**، سلسلة دراسات إسلامية، نشر وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت، توزيع دار القلم بيروت لبنان، ص 31.

أخبار الطريقة: أخذ الجيلاني الطريقة عن شيخه حمّاد بن مسلم بن ددُّوه الدَّبّاس الرّحبي المتوفّى سنة 525 هـ وتنسب له عدّة كرامات، فقد رأى الدّباس أنه اصطاد بازيا ففتح بابه فرأى عبد القادر الّذي كان طلب من الله أن يسهّل له من يكشف له أحوالا طرقته وأشكلت عليه، فحدس الدباس أنه هو البازي، وسأله ماذا طلب؟ فلمّا سكت عبد القادر أغلق الدباس في وجهه الباب بعنف، وأحس عبد القادر بأن ذلك الشيخ هو مطلوبه، فرجع إليه واسترضاه وصاحبه وأخذ عنه، وكشف الأستاذ لتلميذه ما أشكل عليه، وعلّمه ممّا عنده.

أما من ألبسه الخرقة فهو أستاذه أبو سعد المخرّمي المتوفّى سنة 513هـ بعد أن سمع قرقرة بطن عبد القادر تتضوّر من الجوع - وقد بقي أيّاما لا يأكل - وعبد القادر لا يهتمّ لذلك، فدعاه أن يأتيه إلى مدرسته، فأطعمه وأحسن إليه وأدخله في الطريقة وألبسه الخرقة، وتولّى عبد القادر أمر المدرسة المخرّمية سنة 521 ووسّعها سنة 528 حتّى أصبحت تنسب إليه[1].

وأوّل من قام بإلباس الخرقة للمريدين هو أبو بكر دَلَف بن جحدر الشبلي المتوفّى سنة 320هـ وهو معاصر لأبي القاسم الجنيد، وانتشر هذا الإجراء من بعد. أمّا قبله فلم يكن معروفا كعلامة على دخول الطريق[2].

ويقول الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة 1143 هـ: " تلقّى السيد عبد القادر خرقة العلم الإلهي والتحقيق من الشيخ الصالح أبي سعد المبارك بن علي المخرّمي البغدادي وهو تلقّى عن شيخ الإسلام أبي الحسن علي بن محمد الهكّاري عن الشيخ أبي الفرج الطرسوسي عن أبي الفضل التميمي عن أبي بكر الشبلي المذكور آنفا عن أبي القاسم الجنيد عن سريّ السّقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن النبيء صلّى الله عليه وسلّم[3]".

وقولنا (الخرقة) لا يدلّ بالضرورة على إلباس تلك المرقعة، بل هي عند البعض قطعة

1 يوسف زيدان: عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب.
2 المصدر السابق.
3 يوسف زيدان: عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، ص:62.

نسيج تستعمل عمامة في بعض الحالات كما عند أصحاب الطريقة البدوية السطوحية. وإنّما هي شهادة ببلوغ مرتبة في التصوّف، وليست الخرقة إلا رمزا لها، أو أنها تقليد لقيادة الجماعة كالوشاح الذي يتناقلها أرباب المناصب في عصرنا عند تقليدهم إياها.

وانتشرت الطريقة القادرية من بغداد فعمّت العالم الإسلامي كلّه تقريبا بدون استثناء، وكلّ الطرق الموجودة بعدها متفرعة عنها بما في ذلك التي تأسست في العراق ذاته.

والطريقة القادرية طريقة تسبيح وأوراد وأحزاب لها رصيد هائل من التآليف التي ألّفها الأتباع زيادة عمّا تركه الشيخ عبد القادر نفسه أو ما انتحل باسمه. فقد دوّنوا أحزابه وأذكاره، وأضافوا إليها الكثير مما نجد خبره حتّى في بلادنا. وانتشرت هذه الطريقة بالبلاد التونسية بمنزل بوزلفة على يد الشيخ "أبي الحسن علي ابن عمر المنزلي الشايب" دفين مدينة الفحص بجهة زغوان [في أول القرن الثاني عشر للهجرة، فقد تلقى القادرية في الحجاز من الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، ورجع إلى تونس فظهر صلاحه واعتقده الأمير حمودة باشا الحسيني المتولّي من سنة 1196 هـ/ 1781م إلى 1229هـ/1813م، وتوفّي الشيخ علي الشايب في بلده المنزل (منزل بوزلفة) بالطاعون بعد أن شرع في بناء الزاوية فأتمّها الأمير حمودة باشا، وانتصب فيها للمشيخة تلميذه الأكبر محمد المعروف (بالإمام المنزلي) فكانت زاوية المنزل هي أوّل زاوية قادرية بتونس وصدَر فيها أمر من الأمير برعايتها وحصانتها حتّى أنّ الأعوان لايتعقّبون مطلوبا دخلها. وتوفّي شيخها الإمام المنزلي سنة 1248هـ/1832م][1]. قال الإمام المنزلي وهو الشيخ محمد بن مصطفى المنزلي القاضي المالكي بالجهة في قبّة شيخه [من وزن بورجيلة][2]:

قُبَّة جْدِيدَة الـنُّورْ يِشْرَقْ فِيـهَـا — سِيدِي ابْنُ أُمِّ الخِيْر نَابْ عْلِيهَـا

نَـــابِ النَّـــــايِــــبْ[3] — فِيهَا مِنِ الْبُنْيَانْ شَيْءَ عْجَـايِبْ

مَدْفُونْ فِيهَا الشِّيخْ بَابَا الشَّايِبْ — هُوَ الَّذِي جَـابِ الطَّرِيقَة لِيــهَا

---

1 ما بين [..] من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، لمحمد البهلي النيال ص 322.

2 القصيدة الكاملة بالسفينة القادرية، طبعة مكتبة المناربتونس، ص271.

3 (ناب النايب) في الدارجة التونسية أي تيسر الحال، الذي ينوب أي ييسر هو الله فهو النايب أي الميسر. و(جاب): جلب وأتى بالشيء.

*** ***

خَضْــــــرَا تِشْــــرَقْ ـيرِالْعَفْــوْ فِيهَــا بْمَــاهْ يِدْفَقْ

يِبْرِي الْكَلَبْ وْكُلْ مَرْضْ يِشْفَقْ وَالنَّفْــسِ الْمُتْــمَرِّضَة يِبْرِيــــهَا

*** ***

خَضْـــــــــــرَا هِيَ خْضُورِتْهَا فِي الشَّمْسْ عَمْلِتْ ضَيَّة

يُقْصُدْهَــا أَهْلِ الصَّفَا والنِّيَّة حَتَّى بَـــايْ افْـرِيقِــيَة يَـاتِــيهَا

*** ***

خَضْــــــرَا زِيــنَــة تْجَلِّي عْلَى الـزِّيَّـارْ كُـــلِّ غْبِـينَة

مَنْ زَارْهَا مِدْيَـانْ يْخَلُصْ دِينَه أَسْرَارْ مُحِي الدِّيــنْ مَنْ يْحَصِيــهَا

*** ***

خَـضْـــــرَا صَـمَّـــة مُـولاَهَــا نِدْهَةِ جْمِيــعِ الأُمَّـــة

مُولَى الْهِمَّة وِالثَّـنَـا وِالْحُـرْمَة عَبْدِ الْقَـــادِرْ تِرْعْـتُه يْحَـمِيـهَـــا

*** ***

مِــــــلاَّ قُــبَّـــة خَضْرَا زْمُـرْدِيَّــة تْجَلِّي الْكُـــرْبَة

مُـولاَهَا شِيخِ الْوَفَا بُو عَــذْبَة شِيـخِ الْمَشَـايِخْ شُهْرْتُـه تِكْفِـيهَا

*** ***

نُـــــورْهَــا يِتْــلاَلاَ مُـــولاَهَــا سُلْطَـانْ كُلِّ عْمَـالَة

عَبْدِ الْقَـادِرْ فَارِسِ الْخَــيَّالَة رَاكِـبِ الْحَمْـرَا مَـا لَهَـا بِشْبِيـــهَة

*** ***

خَـضْـــــــرَا شُـهْــرَة خْضُورِتْهَا فِي الشَّمْسْ عَمْلِتْ بُهْرَة

كْسَـاهَـا الرَّحْمَانْ سِرّ ووَهْـرَة أَهْلِ الْخِيرِ الْكُـــلْ لاَذُوا بِيـهَــا

فِيــــهَا صْنَــــــا جَــق ِالمْذَهَّبْ تِسْبِي عْقَل الْعَــاشَقْ

فِيــهَا رِيحَة طَيِّبَــة لِلنَّــــاشِقْ وِ النَّفْسِ الْمِتْــــمَرِّضَة تِبْرِيهَــا

*** ***

شَـــــــادِ اثْنَـــــاهَــــا قُبَّة طْوِيلَــة فِي السِّمَا مَا اعْــلاَهَــا

نَــايِبْ عَلَى زِيَّارْهَــا مُــولاَهَا عَبْدِ الْقَادِرْ بَرْكْــتُه تَحْــمِيهَــا

*** ***

شْـــذَاهَـــــا سَــــارِي عَنْبَــرْ وَمِسْك وزِيدْ عُودِ قْــمَارِي

وِالشِّيشْمَة تِنْبَعْ بْمَــاهَا جَارِي تْسْقِي الِقْلُوبِ الْعَاطْــشَة تِـرْوِيهَا

*** ***

عَبْــــــدِ الْقَــــــــادِرْ مُولَى الشُّهْرَة وِالْعَـــلاَمِ الظَّاهِرْ

سُلْطَانِ السَّـــادَاتْ وِالاَكَابِرْ وِجْمِيعِ الصُّـــلاَّحْ يُحْـكُمْ فِيــهَا

*** ***

رَبِّ أَسْــعَــــــــــــدْ وِاغْفِرْ ذْنُــوبِ الْمِنْــزْلِي مُحَمَّدْ

مَــا دَامْ فِي نَظْمِ الْمَدِيحْ مْجَدِّدْ اِغْفِرْ رَبِّي سَـيِّـتَه وِامْـحِـيـهَـــا

*** ***

يَــــا وَحْـــــــــــدَانِي أُلْطُفْ بِينَـا يَـا عَظِــيمِ الشَّـانِ

وِالآل وِالاَصْحَابِ والاِخْــوَانِ وِجْمَاعِتْنَــا كُلَّـهَا عَافِــــــيهَا

*** ***

تَــم نَــظَــــــــامِي بالْفِينِ صْلاَةْ عَ الْمُصْطْفَى وِسْلاَمِي

نُطْلُبْ عَلَى رَبِّي يْكُونِ خْتَامِي عْلَى كِلْمَةِ التَّوْحِــدْ نِنْطَــقْ بِيــهَا

ويمتد تأثير هذه الزاوية في كامل الشمال الشرقي بالبلاد التونسية إلى طرابلس، ويتفرع عنها زاوية بجربة وزاوية بصفاقس، وأخرى بقابس ولعلها التي أسسها الشيخ الحاج أحمد ابن الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي. ثم تفرعت عنها أيضا زاوية كبيرة بالكاف كان مقدمها ومؤسسها الشيخ الميزوني أو المازوني [المغربي المتوفى سنة 1296هـ/1878م][1] وقد ورثه فيها ابنه بالتّبني قدّور، وتشعّ هذه الزاوية على كامل الشمال الغربي التونسي وتصل إلى قسنطينة وأجزاء من ولاية الجزائر، وزاوية الكاف هذه من أغنى الزوايا القادرية بتونس، كان بها جيش كبير من الطلبة يتلون القرآن ويتعلّمون العلوم الدينية والتصوّف، ويتوقف بها سنويا آلاف الحجاج، سواء للاستراحة والتزود أو لزيارة المقام، ومن هذه الزاوية يجيز الشيخ قدّور الميزوني من استأهل ليكون مقدَّما لزاوية فرعية أو بعض فقراء الطائفة القادرية، فيكلفه بشؤون الإخوان في كل الحالات الشخصية والاجتماعية والدينية وبالسهر على مصالحهم الروحية والزمنية بكل الوسائل الممكنة والمتوفرة، كما يطلب من الإخوان احترامه وطاعته فيما يأمر به.

وأمّا الزاوية القادرية بنهج الديوان بتونس فقد أسسها شيخ الطريقة القادرية الحاج محمد المازوني المغربي المذكور أعلاه وهو دفين الزاوية القادرية بالكاف، وتمّ بناء زاوية نهج الديوان سنة 1266هـ وأوقف على رعايتها ورعاية شعائرها عدّة أوقاف منها موقوفات السادة: محمد بن مصطفى بيرم، وحمدة بطيخ، والشيخ محمد بن شعبان شيخ مشايخ الطريقة القادرية بالبلاد التونسية توفي سنة 1337هـ وبقيت المشيخة في ذرّيته[2].

ثم نجد زاوية نفطة التي أسسها الشيخ أبو بكر بن أحمد الشريف تلميذ الإمام المنزلي وقد وسعها الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي ويصل إشعاعها إلى أقصى الجنوب التونسي والجزائري إلى غدامس والغاط وعين صالح وتوات وتيديكالت، ويعترف بها الطوارق ولهم هم أنفسهم أتباع لها: منهم شيخ العابدين الّذي ذرع بلاد الملثمين (الطوارق) طولا وعرضا وكان من دعاة القادرية المتحمسين وجرت على يديه الكثير من الكرامات.

ويرتبط قادرية نفطة بالسلسلة الروحية للشيخ علي بن عمّار المنزلي الشايب دفين

1 الإضافة بين [..] من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد البهلي النيال ص: 322.
2 الصادق الرزقـي، الأغاني التونسية، هامش ص.87.

مدينة الفحص بجهة زغوان وهو الذي كان داعية متحمسا لمذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذلك المؤسس للفروع التونسية حيث إنه هو الّذي جلب الطريقة من بغداد، وهذه هي السلسلة كما يلي: محمد الكبير عن إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي عن أبي بكر بن أحمد الشريف عن محمد الإمام المنزلي عن علي بن عمّار المنزلي الشايب عن محمد بن عبد الكريم عن محمد الطاهر عن الوكيل المكّي عن محمّد الصدّيق عن محمد القاسم عن عبد الفتاح عن غريب الله عن داود البغدادي عن عبد القادر الجيلاني.

ولمّا توفّي الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي ورثه أبناؤه التسعة فكان أكبرهم محمد الكبير شيخ الزاوية الأم بنفطة واعتمد (كلّف) أخويه الهاشمي ومحمد الطيّب بلقب (نائب) في الجنوب الجزائري، فأسّس الهاشمي زاوية عميش بالواد ووثّق الصلة مع السودان الغربي، وأما الطيب فاهتم بزاوية الرويسات قرب ورقلة واتسع إشعاعه إلى غرداية والأغواط بالجزائر، وذهب محمد الأزهر بزاوية القصور بجهة الكاف، والحسين إلى جهة الغمار، وأخوهم علي إلى تبسّة، ومحمد بو الايمان بسهان شعبة الواد، والحاج أحمد بقابس، وذهب محمد العربي على رأس زاوية قفصة وهو والد أبي القاسم الذي ألّف قصائد كثيرة منها: [ياَ ذِرْوَةِ الْمَعَالِي يَا أَباَ الْخِيرْ] وهي من تلحين شيخ الطريقة القادرية حاليا محمد الزيتوني الضرير.

وهكذا نرى أن الطريقة انتشرت في كامل التراب التونسي، وفاضت على خارجه من جهة الصحراء وحتى بالتراب الجزائري، وربما استقل بعض الزوايا عن الأم إذ نجد، بدون أي ارتباط بهذه الزوايا الكبيرة الثلاث منزل بوزلفة والكاف ونفطة، عدّة زوايا بالحاضرة وبباجة كزاوية سيدي ميلاد وهو داعية قادري.

وفي الجملة، لا تكاد توجد بالبلاد التونسية مدينة يحيط بها سور، ليس بها على الأقل زاوية قادرية، علاوة على ما هو موجود بالقرى بكامل أرجاء البلاد، فيجتمع أتباع الطريقة بالزاوية أو المقام لتلاوة أذكارهم. وتعرف الزوايا القادرية بقبابها الكبيرة وأعلامها المرتفعة جدّا تنشر عليها رايات حمراء في المواسم والأعياد وحتى في الجمع، وهذه الرايات تكون غير مكتوبة أو مكتوبة في وسطها باللون الأبيض عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتارة تحتوي زواياها الأربع على أسماء الخلفاء الراشدين ومن

الوجه الآخر صورة سيف ذي ذؤابتين.

أما داخل الزاوية فكأنه مسجد مؤثث بالمعلقات المكتوبة بالخط الثلثي وبالمفروشات والثريات والمباخر والشمعدانات والألوية وهي الصناجق أي الأعلام ذات الأشكال والألوان المتعددة، وربما وضعوا تابوتا أخضر كأن تحته قبر صاحب الزاوية وهو فارغ. وفي إحدى الغرف أو الأركان تجد أشباه الحراب والأمشاك أي قرب الماء ومحامل الألوية والثريات والمباخر، وغرفة تسمّى (بيت السماط) يحفظون بها ما يرد من النذور طعاما أو زيتا أو شمعا أو غير ذلك، وغرفة أخرى يسمونها (بيت الحرير) وهي التي يرتبون فيها الصناجق بأعمدتها ومحاملها وبقية الأثاث[1].

أصول الطريقة: ترتكز القادرية[2] على الورد والحزب والحضرة فالورد كما صاغه الإمام الشيخ بنفسه يتركب على هذا النحو:

الورد الكبير:

1 - ذكر الحضرة.

2 - تلاوة المعقبات بعد الصلوات المفروضة وهي 100 مرة " أستغفر الله العظيم " 100 مرة "سبحان الله" 100 مرة "اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه" و500 مرّة " لاإله إلا الله". وقد يختص الخاصّة بهذا الورد الكبير، أما العامّة فلهم:

الورد الصغير: ويكتفى فيه بذكر " لاإله إلا الله" 165 مرّة.

ونقل محمد البهلي النيال (ورد) الجلالة للشيخ عبد القادر الجيلاني : هو أن تقرأ اسم الجلالة (الله) 166 مرّة، وبعد القراءة تقسم عليها بهذا القسم وهو: "بسم الله الرحمان الرحيم اللّهُمَّ إنّي أسألك بالألف القائم الّذي ليس قبله سابق، وباللامين اللتين طمست بهما الأسرار وجعلتهما بين العقل والروح وأخذت عليهما العهد الواثق، وبالهاء المحيطة بالعوالم الجوامد والمتحركة والصوامت والنواطق...."[3]

ويختلف ورد زاوية نفطة عن ورد بغداد بصيغة أطول وواجبات أوكد.

1 من فم الشيخ محمد الزيتوني والنص يطابق ما جاء بالأغاني التونسية للصادق الرزقي، ص109.
2 نقل عن كوبولاني، **الطوائف الدينية الإسلامية**، الكل بالفرنسية، ص 295 - 296.
3 محمد البهلي النيال، **الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي**، ص 104.

ورد نفطة: وهو كما يلي: عندما يقام الذكر بالحضرة يبدأ المقدم الذكر:

" بسم الله الرحمن الرحيم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم "[1]. وينطلق الإخوان (هكذا يسمى القادرية الأتباع) فيقولون: 100 مرة " بسم الله الرحمن الرحيم" ثم الفاتحة، ثم يقول المقدم: " فاعلم أنّه لاإله إلا الله" ويردد الإخوان: 100 مرة "لاإله إلا الله" ثم 100 " الله" ثم " أشهد أن لاإله إلا الله وأنّ محمّدا رسول الله" ثم 100 مرّة "أستغفر الله العظيم الّذي لا إله إلاهو الحي القيوم وأتوب إليه" ثم 3 مرات " لا إله إلا الله" وينتهي الذكر بدعاء مخصوص بالظرف الّذي يعيشونه. وعند نهاية الذكر تقع قراءة المعقّبات، فإن كان الذكر جماعيا فإن المقدّم يقرأ جانبا من كتاب "الغنية" للإمام عبد القادر أو جانبا من "السفينة" أو جانبا من"الفيض الرباني" للإمام عبد القادر أيضا ولا يفسّر المقدّم من ذلك شيئا بل يكتفي باختيار الفقرات المناسبة لحال الإخوان[2]. "

الحزب: وهو متكوّن من عدّة أدعية قرآنية، وقد تكون من مأثورات الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ودعاء قنوت الصلاة: " اللّهُمَّ إنّا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكّل عليك ونخنع لك ونخلع ونترك من يكفرك. اللّهُمَّ إيّاك نعبد ولك نصلّي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجدّ إن عذابك بالكافرين ملحق[3] ".

ونضرب لذلك مثلا بحزب الحمد كما أورده النيال:

" بسم الله الرحمان الرحيم: **الحمد لله ربّ العالمين** حمدا يفوق ويعلو ويفضل حمد الحامدين رب الأوّلين والآخرين، حمدا يكون له رضى ولنا حفظا وذخرا عند ربّ العالمين، **الرحمان الرحيم** الّذي دحا الأقاليم واختار موسى الكليم وأحيي العظام وهي رميم وسمّى نفسه الرحمان الرحيم فهما اسمان كريمان عظيمان جليلان رحيمان شريفان شفاء لكل سقيم ودواء لكلّ عليل وغِنًى لكل عديم. **مالك يوم الدّين**، ليس له في الملك منازع ولا قرين ولا نظير ولاشريك ولا وزير ولا معين بل كنت قبل وجود العالمين أجمعين إحاطتنا من جميع الشياطين وسطوة السلاطين وعوننا على الأقربين والأبعدين ووجهتنا إلى الأجناس المختلفين. **إيّاك نعبد** الله بالإقدار ونعترف بالذنوب

1 القرآن الكريم. الآية 30 من سورة النمل.

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، (من ترجمتنا).

3 نقل دعاء القنوت عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، الذي أثبت بالعربية، ص 295 - 296.

والعجز والتقصير ونخجل من الذّنوب ونستغفرك من جميع الذنوب والآثام ونشهد ألاّ إله إلاّ أنت وحدك لاشريك لك ونشهد أنّ محمّدا عبدك ورسولك ونبيك وصفيّك صلّى الله عليه وسلّم[1]."

وللطريقة ثلاثة عشر اسما (من أسماء الله الحسنى) وجدت مكتوبة من تأليف الشيخ عبد القادر نفسه في كتابه (الطريق إلى الله) سبعة منها أصول وستّة فروع، فالسبعة التي هي الأصول الأنفس السبعة، وكل اسم من السبعة له عدد وله توجّه يُتلى بعد العدد، فالاسم الأول (لا إله إلا الله) النفس الأمارة، والثاني(الله) النفس اللوّامة، والثالث (هُو) النفس الملهمة، والرابع (حيّ) النفس المطمئنّة، والخامس (واحد) النفس الراضية، والسادس (عزيز) النفس المرضية، والسابع (ودود) النفس الكاملة... أما..أسماء الفروع وهي حق، قهار، قيوم، وهّاب، مهيمن، باسط (ويوصي بعدها فيقول) :هذه الثلاثة عشر اسما وفيها اسم الله الأعظم والله بكلّ شيء عليم، فعليك يا أخي بالكتم والحظر والإيداع في محلّه وملازمة التّقوى والإخلاص تفوز بالمطالب العلية إن شاء الله تعالى[2].

وللطريقة أوراد يومية، وأوراد لكلّ صلاة، ووظيفة تقرأ كلّ صباح ومساء ثلاث مرات: "بسم الله الرحمان الرحيم. اللَّهُمَّ صحًّا صحًّا وَحًّا بَحًّا حم لاَ يُنْصَرُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ كهيعص. حمعسق لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزَفُونَ يَارَبُّ يَارَبُّ وَلاَحَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. "

أما وظائف أتباع القادرية على ما ذكره الصادق الرزقي[3] فتنقسم إلى:

شيخ الزاوية: وهو الرئيس الذي يعطي العهد بالطريقة لمن يريد الدخول فيها ويقبل النذور ويولي كل واحد في وظيفته.

شيخ الحزب: يوليه شيخ الزاوية ويرأس حلقة الحزب والأذكار التي تُتلى في المواسم والجمع وغيرها من الاحتفالات، فيفتح بالمريدين القراءة ويختم بهم ويدعو إن تغيّب

1 محمد البهلي النيال، **الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي**، ص 105.
2 الحاج إسماعيل سعيد القادري، **الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية**، ص.ص 14 - 18.
3 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 110 -112.

الشيخ الكبير، ويحافظ على ترتيب الحلقة.

شيخ الحضرة: الحضرة هي ذكر الله بصفة مكررة عقب الحزب، وشيخ الحضرة هو الذي يرتّب حلقتها في الوقوف صفوفا (وهم الراقصون أو الشطّاحة هكذا يسمّون في فرق أخرى) ويفتح ويختم بهم ذكر الله ويُطوّل ويُقصّر ويخفّف، حسبما يقتضيه الظرف ويُنشد أثناء الذكر أو يأذن لمن ينشد، وتختص الحضرة بأناشيد تؤدّى بصوت واحد خفيف أو ثقيل بالتهويد (بالنطق من الصدر) أو الترخيم (بالنطق بتحنان واستعمال الأنف) أو الترجيع (هو في الأصل تكرار ما قيل بصوت يميل إلى الهبوط) فتنشد بشكل مرقص مطرب. وبالخصوص عند النشيد الخفيف ويرون أنّ ذلك يعين في الاستمرار في الذكر.

شيخ العمل: هو شيخ الششتري[1] أي الإنشاد ويجيزه شيخ الزاوية أو شيخ الطريقة

---

1 هي نسبة إلى (ششتر[قرية من عمل وادي آش قرب غرناطة من الشرق]) بالأندلس بلد الشيخ أبي الحسن علي النميري الششتري [اللوشي الأندلسي]الصوفي ولد بها سنة 610 هـ 1213 م [أخذ الطريقة عن محي الدين بن سراقة الشاطبي من أصحاب السهروردي صاحب عوارف المعارف ثم] تتلمذ عن الشيخ ابن سبعين الأنصاري المتوفى سنة 675هـ 1276 م(1) [اجتمع به في بجاية سنة 648هـ، وتأثر بفلسفته]، وهو الذي عرف بأزجاله وتواشيحه في التصوّف وتكوين الحلقات من أتباعه الفقراء وينسبون إليه الخمرة (من خميرة ششترية) يقول مشيرا إلى الوحدة: أَرَى طَـالِبًا مِنَّا الزِّيَـادَةَ الْحُسْنَى بِفِكْرٍ رَمَى سَهْـمًا فَعَـدَّى بِهِ عُدْنَا

وَذَوَّقَ لِلْحَـــلاَّجِ طَعْمَ اتِّحَــادِهِ   فَقَالَ : أَنَا مَنْ لاَ يُحِيـطُ بِهِ مَعْنى
فَقِيلَ : لَهُ ارْجِعْ عَنْ مَقَالِكَ .قَالَ: لاَ!   شَرِبْتُ مُـدَامًا كُلُّ مَنْ ذَاقَـهَا غَنى
فَمَنْ كَانَ يَبْغِي السَّيْرَ لِلْجَانِبِ الَّذِي   تَقَدَّسَ فَلْـــيَأْتِ لِيَأْخُذَهُ عَنَّـا

[ويظهر أن الششتري قد استكمل صوفية الوحدة مع شيخه ابن سبعين قبل أن يفارقه ويذهب إلى الشرق. فقد تخلّف الششتري بتونس] جاء إلى تونس من الأندلس قبل شيخه ابن سبعين واستوطن بقابس واجتمع به أبو إسحاق الورقاني وعبد الله الصنهاجي وهما من كبار الصوفية بها]، ثم ارتحل إلى الشرق حيث توفي سنة 668 هـ 1268م. وله ديوان شعر طبع بالإسكندرية سنة 1960 بتحقيق الدكتور سامي النشّار. هذا وقد أطلق اسم الششتري على الطار (الدف الذي به صنوج صغيرة). (الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص: 110ا لهامش، ومابين[..]عن محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي). والششتري كان وزيرا وابن أمير فلمّا أراد الدخول في طريق القوم خرج عن دنياه وطاف بالأسواق طواف المجاذيب (انظر التصوف الإسلامي لزكي مبارك ص 124 بالهامش نقلا عن شرح ابن عجيبة). (وفي الحقيقة التاريخية لمحمد البهلي النيال ص:388: كان الششتري من كبار العلماء..لمّا دخل طرابلس..عرضوا عليه خطة القضاء فرفضها وتلهّى بأناشيده وأزجاله في الشوارع والطرقات فاستحمقوه ونسبوه إلى الجنون فذهب إلى السوق وأنشد: رَضِيَ الْمُتَيَّمُ فِي الْهَوَى بِجُنُونِهِ خَلُّـوهُ يُفْـنِي عُمْرَهُ بِفُنُونِـهِ

لاَ تَعْذِلُــوهُ فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَـذْلُكُمْ   لَيْسَ السُّلُوُّ عَنِ الْهَـوَى مِنْ دِينِهِ

ومن موشّحاته قوله:

سَـــــافِرْ وَلاَ تَجْـزَعْ وارْكَـــنْ إِلَيْ   وَمُتْ وَعِشْ وَاسْمَعْ كَيْ تَبْـقَى حَيْ
شَيْخُكْ يُرِيكْ قَطْعًا كَيْفَ السُّلُوكْ   فَاثْبُتْ عَسَى جَمْعًا يَنْفِي الشُّكُوكْ
وَقُـلْ لِمَنْ يَـرَى سِـرَّ الْمُلُوكْ   يَفُكُّ لَكْ رَمْـــزَكْ شَيْئًا فَـشَيْ

أبو محمد عبدالحق بن سبعين المرسي الأندلسي (612 - 669هـ/1215 - 1270م) يلقب بقطب الدين وينسب إلى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كان من كبار الصوفية، وممن يقول بوحدة الوجود، له علم وحكمة وبلاغة..كان جميلا ملوكي البزّة عزيز النفس قليل التصنع. وكان عالما بالفلسفة اليونانية...سكن بجاية [شرقي الجزائرالعاصمة]، وأقام بتونس مدّة طويلة ومنها رحل إلى الحجاز وكانت له حظوة ومنزلة عند شريف مكّة

ويكون عارفا بالطبوع والنغمات وأسمائها، وهو الّذي يختار من بين الفقراء أولئك الّذين لهم صوت رخيم أو إمكانيات صوتية معينة أو حفظ ليكوّن بهم جماعة العمل أو الششتارة، وهو الّذي يعين لكل واحد منهم مكانه فلا يحيد عنه أبدا وهو الذي يرأس العازفين بطاره أو نغاراته ويقود الششتارة (المنشدين) في نوبات الغناء.

باش شاوش: ومعه عدّة شوّاش مهمتهم السعي بين الأفراد والإعداد للحفلات أو الخرجات والإعلام لبقية الإخوان.

باش سقّا: المكلّف بسقاية الناس داخل الزاوية أو خارجها ومعه السقاؤون.

باش علاّم: يتقدّم حاملي الأعلام (السناجقية).

طريقة العمل: من المعلوم أن أوّل من أدخل الموسيقى والرقص الإيقاعي في الحضرة القادرية هو شمس الدين بن الشيخ عبد القادر الجيلاني ثالث أبناء الشيخ وثالث خلفائه في رئاسة الطريقة والآلتين الدف والناي لتعميق التأثير العصبي الذي يتعالى مع تلاوة الذكر فتعضد هذه الأصوات المنسجمة الحركات الحيوية لأعلى الجسد[1].

في الزاوية (الميعاد): عند الشروع في العمل والجماعة جلوس سواء بالزاوية أو بالمحل الذي يعملون فيه، يختار[2] شيخ العمل من الفقراء من يراه قادرا على العمل أكثر فيضعه في مكان مخصوص في الحلقة لا ينتقل عنه، وشيخ العمل هو الّذي يباشر نقر الطار أو ضرب النغارات أو يكلّف أحدا من تلاميذه، ويسمّى الّذي على يمينه كاهية الشيخ أو نائبه والّذي على يساره هو المنشد الذي يترنم بالقصائد في الراحات التي تتخلل

في الأوان الذي دخل فيه التتار بغداد سنة 656هـ .وهو الّذي حمل شريف مكّة على مبايعة المستنصر الحفصي أميرتونس بالخلافة الإسلامية، وتوفّي بمكّة سنة 669 هـ كان ملازما للبيت الحرام ومستلزما الاعتمار ويحجّ مع الحجاج كلّ عام. (عن محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص382).

تَبْقَى فَرِيـدَ عَصْرَكْ فِي الْحَيِّ حَـــيْ

1 أبو محمد عبدالحق بن سبعين المرسي الأندلسي (612 - 669هـ/1215 - 1270م) يلقب بقطب الدين وينسب إلى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كان من كبار الصوفية، وممن يقول بوحدة الوجود، له علم وحكمة وبلاغة.. كان جميلا ملوكي البزّة عزيز النفس قليل التصنع. وكان عالما بالفلسفة اليونانية...سكن بجاية [شرقي الجزائرالعاصمة]، وأقام بتونس مدّة طويلة ومنها رحل إلى الحجاز وكانت له حظوة ومنزلة عند شريف مكّة في الأوان الذي دخل فيه التتار بغداد سنة 656هـ وهو الّذي حمل شريف مكّة على مبايعة المستنصر الحفصي أميرتونس بالخلافة الإسلامية، وتوفّي بمكّة سنة 669 هـ كان ملازما للبيت الحرام ومستلزما الاعتمار ويحجّ مع الحجاج كلّ عام. (عن محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص382).

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 110.

المدحات. فإذا تمّ لهم هذا النظام ينطلق شيخ الحزب في القراءة وتلاوة الحزب. ويظهر من المقارنة بالطرق الأخرى أنه يأتي بعدها الإنشاد والحضرة، فيندفع شيخ العمل في المديح وقد يساعده الكاهية أو بعض الأفراد فيتلقفون منه بعض الصوت ويتممون غصن المدحة ويردّدون طالعها مثال ذلك: ينشد الشيخ البيت التالي:

يَا شَيخِي يَا عَبْدِ الْقَادِرْ　　أَنْتَ سُلْطَانِ الأَكَابِرْ

يَا مُولَى الْبُرْهَانِ الْحَاضِرْ　　أَعْطِينِي عِيشَة هَنِيَّة

وإذا بالجماعة يتلقفونه فيقولون معه (أعطيني عيشة هنيّة) ثم يأتون بالطالع (الردة) :

يَاأا شَيْخِي اِعْطِفْ عَلَيَّ　　يَا مُولَى الرُّتْبَة الْعَلِيَّة

وعندما ينتهي كل ذلك، يقوم شاوش السماط وبيده قفة مملوءة أرغفة صغيرة فيوزعها على الحاضرين سواء كانوا من مريدي الزاوية أو المتفرجين، ثم يعيد الكرّة عليهم فيأخذ من كل واحد قطعة صغيرة يرجعها إلى القفة ويسلمها إلى الباش شاوش، فيعشّق الباش شاوش: "الْعَاشَقْ فِي النّبِي صَلِّيوْا عْلِيه، يَا مَاذَا تِرْبَحْ وِتْنَالْ يَا عَبْدْ تْصَلِّي عْلَى رْسُولْ الله - قَلْبِكْ عَامِرْ يَا اللِّي تْصَلِّي عْلَى النّبِي.. يَاسُلْطَانِ الصَّالِحِينْ يَا بَابَا عَبْدِ الْقَادِرْ.. سِرِّكْ حَاضِرْ يَا وِلْد امِّ الخِيْر يَا بَابَا مُحِي الدِّينْ يَا جَيْلاَنِي" ثم يشرع في الدلالة على ما في القفة فيقول: " تِرْبَحْ وْتِسْعِدْ يَا اللِّي تْخَلَّطْ خْمِيرْتِكْ مْعَ خْمِيرةِ الشِّيخْ سِيدِي عَبْدِ الْقَادِرْ" ويقترح ثمنا، وتستمر المزايدة إلى أن تقف على أحدهم، فيشتري الخميرة أي يتسلّم

القفّة بما فيها، ثم تقرأ الفاتحة بعد الدعاء له بالخير، وفي يوم "الميعاد" الموالي يأتي المشتري المذكور بالعدد المعين من الأرغفة[1].

الخرجات: ولا تخرج الجماعة القادرية بموكبها الرسمي إلا لأمر مهمّ، [والمهم عندي ليس بالضرورة كالمهم عندهم] كزيارة ضريح أحد الأولياء أو وليمة ختان أو إيصال عريس إلى بيته أو تشييع حاج أو استقباله أو ختمة، وذلك عندما يصدر شيخ الزاوية الإذن للباش شاوش بالاستعداد، فينبه هذا الأخير بواسطة شواشه على جميع

1 نقل عن الصادق الرزقي، الأغاني التونسية.

الفقراء (المريدين) للحضور بالزاوية، فيتهيؤ الجميع من لباس وتعطيل الشغل، ويقع تفقّد الآلات من نغّارات وطيران ودفوف، ويتفقّد الحرير: من صناجق وأعلام وكذلك آلة السّقاء. ويخرج فقراء الزاوية بالمدايح والأعلام والحراب والطاسات من زاويتهم ويعودون إليها بعد كل عمل وهم في حالة حسنة من اللباس والنظام. أما لباسهم في الخرجة فهو المحصور أي المجرّد عن لبس الجبّة والبرنس. وعليهم أكسية غالية الثمن متركبة من شاشية حمراء وكشطة (عمامة) مطروزة بالحرير وصدرية وفرملة وغليلة كرمسود في الصيف أو ملف رصاصي شتاء، وسروال روَى أكحل أو رمادي داكن. وعلى أكتافهم كبابط (معاطف) قصيرة بطربوش وأيدي (أكمام) تصل إلى المحزم ويكون لها شرابات من الحرير المفتول فتلا محكما وفي أوساطهم الشمالي (أحزمة) من الحرير الملوّن أو مناطق الجلد المطروزة بالذهب، وربما عصبوا على الكبابط تقارط (مناديل) الحرير الملوّنة[1].

ترتيب الخروج: يتقدّم الخرجة باش علاّم واقفا وسط مقدّمة صفين من العلاّمة (السناجقية) يمينا وشمالا تاركين بينهما مسافة بين المترين والثلاثة ويبعد الواحد عن الآخر بنفس المقدار، وقد حملوا (السناجق) في أوساطهم على محاملها المعلّقة في رقابهم. وخلفهم على بعد مترين الباش سقّا راكبا فرسا مزدانة اللجام والحرج بالرياحين والزهور وحمل عليه مِشْكا (قربة) كبيرا مملوءا ماء، وخلف الباش سقّا السّقّائون وأكثرهم من الشبّان المراهقين قد لبسوا أحذية خفيفة حمراء، وشدّوا المحارم الحريرية على الكبابط التي لبسوها، وبيد كل منهم طاسة من نحاس منقوشة نقشا حسنا قد شُدّت بسلاسل رقيقة من نحاس أصفر، وزينت بالنّور والزهور والرياحين وملئت ماء معطّرا، فيجرون بينهم ألعابا من كرّ وفرّ ويجيلون تلك الطاسات على رؤوسهم بخفّة عجيبة بدون أن تراق منها قطرة ماء. ثم يأتي علاّم يحمل شبه لواء صغير معلّقة فيه مبخرة من نحاس كبيرة كالطبق مشدودة لذلك اللواء بسلاسل وعشّاق بيده حقة البخور فيضع البخور من حين إلى آخر ويُعشّق مثلما بيّنّا سابقا. ومن ورائهم بعض الشوّاش يحملون الحراب الملوّنة بالأخضر والأحمر. وخلف هؤلاء كلّهم جماعة العمل ملتفّين صفوفا حول شيخهم وبأيديهم البنادر والطيران والنغّرات، وخلفهم شيخ الطريقة، وعلاّم يحمل على رأس

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 112.

الشيخ علما أخضر، فيشرعون في المديح بصفة ترسّل وهزج قريب من الخفيف، ويسير الموكب إلى المحل المقصود على هذا المنوال[1].

عند الوصول إلى المحل المقصود، يكون الدخول بالعادة[2] وهي أن يدخلوا منشدين[3]:

بِسْمِ اللهِ وَبِاللهْ　　وِبْجَاهِ رَسُولِ اللهْ

بِسْمِ اللهِ ذِي الإِحْسَانْ * مَوْلاَنَا عَظِيمِ الشَّانْ * سَأَلْنَاكَ بِالْعَدْنَانْ * سَيِّدْنَا رَسُولِ اللهْ

ولهم عادة أخرى:

الله الله الله　　الله الله دَايِمْ رَبِّي

عَــوْنِي وَ حَسْبِي　　مَـــالِي سِـوَاهْ

وعند الدخول ينشدون:

قَالَ رَبِّي فَادْخُلُوهَا　　بِسَـــلاَمٍ آمِنِـينَ

يَا إِلَهِـي بِالْمُشَـفَّعْ　　صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمُرَفَّعْ

لاَ تُخَـيِّبْ يَا إِلَهِي　　كُلَّ مَـنْ حَضَرْ وَيِسْمَعْ

أما العمل داخل المحل، فيفتح الشيخ بقراءة الفاتحة، ثم يدخلون في المديح بدون آلات بصفة تدريجية من التأني إلى الحدّة، ثم يندفع الشيخ في المديح ويعاونه كاهيته أو الأفراد بالردّة.

ومن أمداحهم [من وزن اللاحق وهو مخلع البسيط]:

يَـا رَبَّنَا صَـلِّ ثُمَّ سَلِّمْ　　عَلَى رَسُـولٍ حَوَى الْمَفَـاخِرْ

شَوْقِي نَمَا وَالْغَرَامُ زَاهِرْ　　والدمع يجري من عَيْنِي زَاخِرْ[4]

---

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 113.

2 العادة: نغمة يستعملونها أثناء المسير قرب الدخول للمحل المقصود، وهي نوع من الغناء الحاد بأوزان مخصوصة . المرجع السابق.

3 الرواية الآن شفوية من الشيخ محمد الزيتوني شيخ القادرية.

4 وردت في السفينة القادرية بلفظ : شَوْقِي نَمَا وَالْغَـرَامُ وَافِرْ * وَالدَّمْـعُ مِنْ مُقْلَتَيَّ زَاخِرْ وَجَيْشُ صَبْـرِي لَهُ انْهِزَامٌ * وَالطَّرْفُ جُنْحَ اللَّيَالِي سَاهِرْ وَالْقَلْبُ قَدْ صَارَ ذَا احْتِرَاقٍ * بِنَارِ شَوْقٍ لَدَى الضَّمَـائِرْ
لَهُ بِخَيْرِ الْـوَرَى غَـرَامٌ　　عَنْ وَصْـلِهِ لَمْ يَكُنْ بِصَابِرْ

ومن مديح العمل أيضا: [من تلميع الرمل]

يَا ابْنَ أُمِّ الْخَيْرْ صِلْنِي * يَاابْنَ أُمِّ الْخَيْرْ إِنِّــي * شَائِــقٌ بِاللهِ صِلْنِي[1]

ومدحة أخرى للشيخ المنزلي [من تلميع الرجز]:

الله الله رَبُّـنَا * يَا مَنْ لِـعَيْنِي سَـاتِرْ * سُلْطَانُ كُلِّ الأَوْلِيَا * اَلشَّيْخُ عَـبْدُ الْقَـادِرْ

أُدْخُلْ حِمَاهُ لاَ تَخَفْ * إِسْكِرْوَغَنِّ لا ـتَخَفْ * إِن رُمْتَ تَبْلُغِ الشَّرَفْ * بَادِرْ لِعَبْدِ الْقَادِرْ[2]

قادرية قفصة: هي فرقة بإشراف الشيخ عبد الرحمان الفزّاني، لها عدّة مدحات في مدح الشيخ عبد القادر بارتجال في مقام الراست الشرقي على إيقاع المربع التونسي[في البحر الكامل] :

يَــا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْحَبِيـبِ مُحَمَّدٍ   وَالآلِ وَالأَصْحَـــــابِ وَالأَوْلاَدِ

يَــارَاحِلِــــينَ إِلَى مِنَى بِالزَّادِ   هَيَّــجْتُمُو يَـوْمَ الرَّحِيـلِ فُؤَادِي

سِرْتُمْ وَسَارَ دَلِيلُكُمْ يَا وِحْشَتِي   اَلشَّــوْقُ أَقْلَقَـنِي وَصَوْتُ الْحَادِي

أَحْرَقْتُمُو جَفْنِي الْمَنَامَ بِبُعْدِكُمْ   يَا سَاكِـنِينَ الْمُنْحَنَى وَالْوَادِي.إلخ

ثمّ في مقام المزموم على إيقاع السعداوي مدحة (عَدَّالَة يَا عَدَّالَة) للشيخ عبد السلام الأسمر (وهي مدحة تغنيها جميع الطرق). ولها في لهجة العرضاوي على إيقاع المدوّر حوزي :

يَا رَاكِبْ اللِّي رَاحْ هْجَرْنِي   قَاصِدْ بِيتَ الله نْزُورِ الْعِذْنَانِي

ثمْ مدحة أخرى في مقام السعداوي الصحراوي على إيقاع السعداوي :

يَا لَيْتَهُ بِالْـوِصَالِ يَحْظَى   لِكَيْ تُـــرَى عِنْدَهُ الْبَشَـــائِرْ

وهكذاحتّى تمام الأربعين بيتا، ص 180 - 181.

1 في السفينة، ص 215 أتت على نظم التلميع :

يَــا بْنَ أُمِّ الْخَيْــرِ إِنِّي   مُسْتَهَامٌ فَلْتَصِــلْنِي

يَــا بْنَ أُمِّ الْخَيْــرِ إِنِّي   شَائِقٌ، بِاللهِ صِــلْنِي

أَنْتَ قُطْبٌ فِي الْبَرَايَا   أَنْتَ فَخْرٌ وَ مَزَايَــا

زَادَكَ اللهُ الْعَــطَايَــا   دُونَ مَا كَيْلٍ وَوَزْنِ

2 السفينة القادرية، ص 267.

يَابُويَا مَا جَاش عَبْدِ الْقَادِرْ * سُلْطَانْ كُلِّ الاَوْلِيَاء * الشِّيخْ سِرُّه حَاضِرْ

ثم مدحة أخرى في مقام السيكاه تبتدئ بارتجال قصيد (عروبي) :

جَلُّولْ يَـا عِزْ دَهْـرِي   يَازِينْـتِي فِي حْيَـاتِي

هْجَرْتْنِي طُولْ عُـمْرِي   وَالنُّومْ قَلَّلْ هْنَـاتِي

ثم تأتي المدحة في مقام السيكاه على إيقاع دخول براول:

جِسْمِي فْنَى وْقَامْ صَبْرِي   يَـالاَئِمِي شُـوفْ ذَاتِي

جِيـلاَنِي اِعْطَـفْ عَلَيَّ   يَا مُـولَى الرُّتْبَة الْعَلِيّـة

شَيْخِي يَـابَحْـرَ الْكَمَـالِ   أَنْـتَ سُلْطَـانُ الرِّجَالِ

كُنْ مَـعِي فِي كُلِّ حَـالِ   وَاحْمِـنِي مَيْـتًا وَحَيَّـا

يَا شَيْخِي يَاعَبْدَ الْقَـادِرْ   أَنْتَ سُلْطَـانُ الأَكَـابِرْ

كُلَّ مَـا تَـرَانِي نَـافِرْ   يَا مُولَى النَّفْسِ الزَّكِيَّة

ثم مدحة أخرى في مقام السعداوي على إيقاع دخول براول:

حَـيٌّ بَـاقِي   صَلِّ يَا إِلَهِي عَلَى سِيدْ رْقَيَّة

ومدحة في مقام السيكاه وإيقاع دخول براول:

السَّلاَمُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلْ   وَالصَّـلاَةُ عَلَى الْمُرْسَـلْ

نموذج من وظيفة قادرية
خاصّة بمدينة ڤفصة[1]

سبق أن دكرنا أنّ الشيخ محمد العربي بن إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي، بعد وفاة أبيه وتولّي أخيه محمد الكبير أمر الزاوية الأم بنفطة، ذهب فجلس على رأس زاوية ڤفصة، ينشر الطريقة ويعلّم الأتباع. ونذكر هنا نموذجا من الوظائف وهي الوظيفة المعمول بها في زاوية ڤفصة أتباع الشيخ محمد العربي.

1 - الدخول : أمام باب المحل بخمسة أمتار تقريبا، يدخلون بالعادة وتسمّى الدخول والمتداولة وهي مدحة:

(يَا ابْنَ خَيْرِ الأَكْوَانْ * صِلْنِي لله * آه يَا جَيْلاَنِي)[2]

نورُ مَحْبُـوبِي يُشْـرِق * وَيَلُوحُ فِي الْمَشْرِقْ * وَبِهِ الْكَـوْنُ يُشْرِقْ * فِي جَمِيعِ الأَزْمَـانِ

قَدْ بَـدَا نُـورُ الْبَرْقِ * لاَئِحًا نَحْوَ الشَّـرْقِ * هَاجَ فِي قَلْبِي عِشْقِي * وَاعْتَرَتْنِي أَشْجَانِي

قُلْتُ مِنْ فَرْطِ الْحُبِّ * صِلْ فُؤَادِي يَـا حِبِّي * وَاشْفِ بِالْوَصْلِ قَلْـبِي * يَاابْنَ طَهَ الْعَدْنَانِي

1 رواية الشيخ محمد الزيتوني الضرير القفصي. وقع الحديث الميداني مع حسين الحاج يوسف بتاريخ 4 مارس1993.
2 أخذ النص من السفينة القادرية، ص 306.

جُدْ لِي مِنْكَ بِالْوَصْلِ * يَا ابْنَ أَكْرَمِ الرُّسْلِ * يَا مُطَــهَّرَ الأَصْــلِ * يَا شَيْخِي يَاجَيْلاَنِي

ثم بعد الدخول إلى الدار تُقرأ الفاتحة وقوفا، ويجلسون .

2- بعد الجلوس: توضع أمامهم مائدة بالشمع الموقود في القديم، أمّا الآن فأنوار الكهرباء فتُقرأ الفاتحة من جديد، ثم الإخلاص ثلاث مرات (قل هو الله أحد) ثم المعوذتين (قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) ثم الفاتحة، ثم قصيد جماعي ثم تأتي :

القصيدة التائية للشيخ عبد القادر الجيلاني في طبع المزموم [من البحر الطويل]:

صَلاَتِي وَتَسْلِيمِي وَأَزْكَى تَحِيَّتِي عَلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِالْبَرِيَّةِ[1]

شَهِدتُّ بِأَنَّ اللهَ مَـوْلَى الْوِلاَيَةِ وَقَـدْ مَنَّ بِالتَّصْرِيفِ فِي كُلِّ حَالَةِ

ثم القصيدة الميمية في طبع النوى [من البحرالخفيف]:

يَا إِلَهِي عَلَى النَّبِيِّ دُمْ صَلاَتِي وَسَـلاَمِي عَلَى مُرُورِ الـدَّوَامِ

طُفْ بِحَانِي سَبْعًا وَلُذْ بِذِمَامِي وَتَجَرَّدْ لِزَوْرَتِي كُـــلَّ عَـامِ[2]

وللقادرية مدحات في كل الطبوع التونسية.

مدحة: (يَا ذِرْوَةَ الْمَعَالِي يَا أَبَا الْخَيْرْ) من تلحين الشيخ محمد الزيتوني الضرير.

ثمّ مدحة (البَازْ بُلْبُلُ الأَفْرَاحْ) في (السعداوي الصحراوي المعروف لدى أصحاب الموسيقى الشعبية بالجندوبي)، وتتواصل السهرة، وتأتي الخمرة التي لا يقام بها إلاّ لأهل الطريقة الخيوان (الإخوان بالعامية) فلا تقدّم لغيرهم.

3 - أوراد الخمرة: ثلاث قصائد اثنتان من تأليف الشيخ الإمام المنزلي وواحدة من تأليف الشيخ عبد القادر الجيلاني نفسه. فمن كلام المنزلي: القصيدة الأولى في محيّر سيكاه:

ا الله ا الله ا الله صَلُّــوا عَلَى رَسُــولِ الله

أَنَــا نَــادِيتُ الْجَيْلاَنِي مُـولَى الْعِــنَايَة وِالْبُرْهَانْ

1 النص بعد تصحيحه من السفينة، ص155، (حيث ذكر المنشد (جدّي ونسبقي، عوضا عن خيرالبرية) .
2 السفينة القادرية، ص 158.

يَـــا سَيِّدِي لاَ تِنْسَـانِي   اِكْشِفْ هُمُـومِي وِالأَحْزَانْ

يَـــامُولَى السِّرّ النُّورَانِي   يَـــا مُتصَرِّفْ فِي الأَكْـوَانْ

الله الله

أَنَـا سَقَــانِي بِنْ مُوسَى   عِنَـايَتِي سَــاكِنْ بَغْدَادْ[1]

شَرْبَة هَنِيَّـة مَحْـرُوسَة   مِنْ كَيْدِ الأَعْـدَا وِالْحُسَّادْ

يَا شَيْخِي يَا مُولَى النَّغْرَة   إِنْـغِرْ عَلَيْـنَـا يَـا صَدَّادْ

وَاحْمِينَا مِنْ كُـلِّ مْضَرَّة   وَاجْلِي عْلِـينَا ذَا الأَنْكَادْ

يَـا شَيْخِي دَاوِيـنِي نِبْرَى   وَجُـدْ لِي مِنْـكَ بِالأَمْدَادْ

وَكُنْ مْعَ جَمْــعِ الْفُقْرَا   وَاحْضَرْ مَعَانَا فِي الْمِيـعَادْ

واتْجِينَا رَاكِبْ عَ الْحَمْرَا   أَنْـتَ وَ جْمِـيعِ الأَسْيَـادْ

إِلْهِيتِي مِصْبَاحِ الْخَضْرَا   سِيدِي بَـقَى جَدِّ الأَجْدَادْ

أَبِي سَعِيدِ الْقَيْـلُـوِبِي   وَكُلِّ مَنْ يُسْـكُنْ بَغْـدَادْ

وأثناء أدوار الخمرة تقع الإشارة من مقدم الطريقة لإطفاء النور، فيذكرون اسم الجلالة وقوفا، ويقع رقص مفرط يُغَشَّى به على بعض القوم فيفيقونه بقراءة الفاتحة في أذنه أو رشّه بالماء وبعضهم بعزف نوبته (أي مدحته). وهكذا تنتهي السهرة بعد الخمرة بقصيدة القيام في المحيّر عراق [وهي من البحر الكامل ماعدا البيتين الأولين المشوّشي الوزن] بدون آلات يقول المقدم:

أَهْلُ الْبَصَائِرِ * سَادَتِي لاَ مَحَالَهْ * لِعَبْدِالْقَادِرِ * هَلْ رَأَيْتُم مِثَالَهْ؟[2]

---

1 السفينة القادرية، ص 286.

2 السفينة القادرية، ص 231، وهي قطعة بها 15 بيتاوهي:

أَهْـلُ الْبَصَـائِرِ سَـادَتِي * لاَ مَحَالاَ لِعَبْدِ الْقَادِرِ فَهَلْ رَأَيْتُمْ مِثَالاَ * وَهَلْ عَلِمْتُمْ مِنَ الأَكَـابِرِ سَيِّدًا
يُشَـابِهُ الْجِيلاَنِيِّ سِرًّا وَحَـالاَ * مَـا فِي بَهَاهُ مُنَـازِعٌ. كَـلاَّ ..وَلاَ * يَلْقَى الْمُخَالِفُ فِي عُلاَهُ مَقَالاَ
مَازَالَ يَخْتَرِقُ السُّطُورَ وَيَرْتَقِي * حَتَّى رَأَى عَرْشَ الإِلَهِ تَعَـالَى * طَافَتْ بِهِ الأَمْلاَكُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
أَنْوَارُهُ قَدْ أَصْبَحَتْ تَتَـلاَلاَ * عَمَّتْ مَنَاقِبُهُ الأَفَـاقَ وَلَمْ تَـزَلْ * أَنْـوَارُهَا بَيْـنَ الـوَرَى تَتَلاَلاَ
دَانَـتْ لَهُ السَّادَاتُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * مَدُّوا لَهُ أَعْنَـاقَهُمْ إِجْـلاَلاَ * ذَلَّتْ لَـهُ الأَلْبَابُ فِي كُلِّ حَضْـرَةٍ
وَمَلاَ الْقُلُـوبَ مَهَـابَةً وَجَمَـالاَ * وَبِمَدْحِهِ حُلَلُ الْمَجَـالِسِ رُصِّعَتْ * وَ تَلَبَّسَتْ مِنْـهُ سَنًى وَجَمَالا

ويظهرأنّ القصيدة نظمت في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم انتحلت لمدح عبدالقادر الجيلاني.

هَلْ عَـلِمْـتُـمْ مِنَ الأَكَابِرِ سَيِّدًا   يُشَـابِهُ الجِيلاَنِي سِـرًّا وَحَـالَهْ

فَإِذَا بَسَطتُّمْ مَجْـلِـسًا فِي مَدْحِـهِ   قُومُـوا عَلَى أَقْدَامِكُـمْ إِجْلاَلاَ

ويقوم النّاس ويأخذون البنادر ويقولون :

قُولُوا لَهُ يَا مُنْـيَةَ النَّفْسِ هَبْ لَنَا   صِلْ وَبَلِّـغْ مَقَاصِدًا وَآمَالاَ

رُدُّوا سَلاَمِي لِلإِمَامِ الجِيـلاَنِي   مَا سَارَرَكْبٌ إِلَى الحِجَازِ لِحَالَهْ

وهذه الطريقة القادرية كبيرة وموسّعة، ولها الوظيفة، ولها سفينة بها مايقرب من المائة قصيدة وليست كلها جيّدة الأوزان عروضا.

عشية الجمعة: تقرأ الوظيفة بدون آلات وتشتمل على (1) الاستغفار و(2) التسبيح و(3) اسم الجلالة و(4) الصلاة على الرسول ثمّ (5) الأحزاب ومنها حزب الإشراق: أَشْرَقَ نُورُ اللهِ وَظَهَرْ.

يضيف الدكتور صالح المهدي أن القادرية قد ينشدون البردة بالصنائع (وهي أغان صوفية خارجة عن البردة) وكان أبرز شخصية في القادرية الشيخ عثمان شلبي، وكانت مجموعة منشدين ينشدون جانبا من المرزوقية ويغنون آهات من البشارف التونسية قبل الذكر، ولهم باش منشد له دورعند الذكر، فالمجموعة تقول: (هُو، هُو) ويخرج هو بقصيدة. وبصفة عامّة لا تستعمل القادريّة المالوف في إنشادها.

في الجنائز: كل ميّت يخرج بالطريقة التي كان ينتمي إليها ففي قفصة يخرج بالطريقة القادرية على هذا النحو:

لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ   هِيَ أَفْضَـلُ الذِّكْـرِ   لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ   هِيَ أُنْسِي فِي قَبْـرِي

فَتَرَى أُولاَتُ الذَّوْقِ عِنْدَ سَمَاعِهِ * يَتَمَايَلُـونَ مِنَ الْغَـرَامِ ثُـمَالَى * بِحَيَاتِكُمْ يَا سَادَتِي إِنْ كُنْتُمُ
مِمَّنْ حَـوَى شَوْقًا وَنَالَ امْتِثَالاَ * وَإِذَا بَسَطْتُمْ مَجْلِسًا فِي مَدْحِهِ * قُومُوا عَلَى أَقْدَامِكُمْ إِجْلاَلاَ
قُولُوا لَهُ يَا مُنْيَةَ النَّفْسِ هَبْ * وَصْلاً وَبَلِّغْ مَقَاصِدًا وَ أَمَالاَ * فَعَلَيْكَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ تَحِيَّةً
تُسْدِي إِلَيْكَ مَسَرَّةً وَجَمَالاَ * أَهْدِي سَلاَمِي لِلإِمَامِ الْجِيلِي * مَا شَدَّ رَكْبٌ لِلْحِجَازِ رِحَالاَ

لاَ إلهَ إلَّا الله هِيَ مِفْتَـاحُ الجِنَانِ لاَ إلهَ إلَّا الله هِيَ مَـعْـدِنُ السِّرِّ

لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ الْعُـرْوَةُ الْوُثْقَـى لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ الْكَوْكَبُ الدُّرّي

لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ كلْمَةُ الإخْلاَص لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ أَحْسَـنُ الذُّخْرِ

لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ أَمْني في الحَيَـاة لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَا أُفْني عُـمْري

لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ أُنْسي في الدُّنـيَـا لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ نُـورٌفي حَشْري

لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَا أُرْضي رَبّـي لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَـا يُمْـحَى وزْري

لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَـا أُعْطى الْمُنَى لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ عـزّي في دَهْري

لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَـا أُعْـطى الرِّضَا لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَا يَعْـلُو قَدْري

لاَ إلهَ إلَّا الله تَحْميـني يَـوْمَ الجَزَاء لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَا يَـزْكُـو أَمْري

لاَ إلهَ إلَّا الله وَبـهَـا أَلْـقَى رَبّي لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَا يَسْـمُو فَخْري

لاَ إلهَ إلَّا الله هيَ تَرْجَحْ في الميزَانْ لاَ إلهَ إلَّا الله وَبهَا يُشْفَى ضُـرّي

لاَ إلهَ إلَّا الله تْنَجّيني منَ الصّرَاطْ لاَ إلهَ إلَّا الله تْسَكَّنّي أَعْلاَ قَصْري[1]

وهي قصيدة طويلة على هذا النمط وهذه القافية تعد أربعين بيتا.

أما في الحاضرة فيقولون:

يَا أَهْلَ اللهْ * قَلْبِي بْغَاكُمْ * وَنْفُوزْ بِكُمْ إِلَى اللهْ

. في المولد: في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لا يقولون إلا القصائد النبوية.

في الأعياد: في الأعياد يجتمع قادرية بلاد الجريد كلهم ويقصدون نفطة لزيارة مؤسس الطريقة بالجهة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي، وكما يؤدّون زيارة إلى مقام أبي علي النفطي صاحب الطريقة العلوية (البوعلية).

1 السفينة القادرية، نشر مكتبة المنار تونس، بدون تاريخ، ص274.



فرقة الحوامد الصوفية بالمنشية «ولاية قبلي»[1]

في قرية المنشية من معتمدية سوق الأحد التي تقع في الجنوب الغربي للبلاد التونسية وهي نفزاوة القديمة الواقعة بين شط الفجيج وشط الجريد شمال ولاية قبلّي على السفح الشمالي لجبل حلوص، عاش الشيخ حامد الشريف الحشاني في القرن التاسع للهجرة أي الخامس عشر للميلاد حيث أنشأ زاوية الحوامد التي ترجعها إشراق بوتوتة إلى الطريقة القادرية[2] معللة ذلك أن الفرقة تبدأ إنشادها بمدحة من تأليف الشيخ عبد القادر الجيلاني، ونحن إذ وافقناها على إرجاع الفرقة للطريقة القادرية فلسبب آخر وهو استعمال الآلات كما سيأتي في مقالنا "تفرع القادرية".

طريقة العمل: يتميز برنامج العمل في فرقة الحوامد بأن المدائح تصل إلى الثلاث والعشرين متنوعة المواضيع والأغراض من أهالي المنطقة ورغم طولها تؤديهاالفرقة كاملة دون اختصار، في البداية تقوم بعزف يسمونه "النوبة" وهي فقرة إيقاعية متعددة الموازين وهي ضرورية للحضرة، ثم تنطلق الأمداح وتقع استراحة بين المدحة والأخرى، وبالإضافة إلى ذكر الشيخ حامد لا بد من الانتهاء بمدحات أخرى تتناول الأولياء مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني أو سيدي مرزوق التي ترجع إليه قبيلة المرازيـق.

1 إشراق بوتوتة، فرقة الحوامد الصوفية بمنطقة المنشية (ولاية قبلي)، رسالة ختم الدروس الجامعية جامعة سوسة، المعهد العالي للموسيقى، السنة الجامعية 2005 - 2006.
2 المرجع السابق ص 20.

ومن أمثلة أمداحهم ما يبدؤون به سهرتهم (من البحر الخفيف) وهي من كلام الشيخ المنلا[1]:

يَـا إِلَهِي عَلَى النَّبِي دُمْ صَلاَتِي   وَسَـلاَمِي عَـلَى مُرُورِ الدَّوَامِ

طُفْ بِخَانِيَ سَبْعًا وَلُذْ بِذِمَامِي   وَتَجَـرَّدْ لِـزَوْرَتِي كُلَّ عَـامِ

أَنَا سِرُّ الأَسْـرَارِ مِنْ سِرِّ سِرٍّ   كَعْبَةُ رَاحَـتِي وَبَسْطِي مُدَامِ

حتى يقول:

أَنَا عَبْدٌ لِقَادِرٍ طَـابَ وَقْتِي   جَدِّيَ الْمُصْطَفَى شَفِيعُ الأَنَامِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ وقْـتَ   وَعَلَى آلِهِ بِطُـولِ الـدَّوَامِ

ومن هذا القصيد استنتجت الأستاذة إشراق أن الفرقة قادرية.

ومن أمداحهم في شيخهم (في البورجيلة):

سِيدِي حَامِد يَا حَشَّانِي   نْبيك نِنْدَه بَالِكْ تِنْسَانِي

**** ***

سِيدِي حَـامِدْ ياَ بَابَايَا   يَا رُوحِي وعِزِّي وغْلاَيَا

اِفْـزَعْ اتْـعَنَّا اتْـلاَيَا   يَـا مُولَى السِّـرِّ الرَّبَّانِي

1 السفينة القادرية، نشر مكتبة المنار تونس، بدون تاريخ. ص158.

الطريقة الرفاعية

تنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة 578 هـ

الشيخ المؤسس: هو أبو العباس أحمد الكبير بن علي بن يحي بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي الحسيني[1] الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية، قدم أبوه من المغرب وسكن بالبطائح بقرية أمّ عُبيدة فتزوّج بأخت منصور البطائحي الحسيني الزاهد وكان مقرئا إماما، فرزق منها الشيخ أحمد وإخوته. ولد الشيخ أحمد في قرية "حسن" من أعمال "واسط" وهي محاذية لأم عبيدة بالعراق سنة 512هـ/ 1118م، توفي أبوه ببغداد سنة 519هـ فكفله خاله منصور. وبعد حفظ القرآن الكريم، أدخله خاله منصور على الشيخ أبي الفضل الواسطي فتفقّه بالفقه الشافعي وتأدّب في "واسط"، وظل يطلب العلم حتى السابعة والعشرين من عمره فأجازه الشيخ علي الواسطي، وتصوّف فألبسه خاله المنصور الخرقة[2]، وانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير، وحجّ سنة 555هـ فمما يذكر من كراماته ما أورده محمد درويش الحوت البيروتي: قال في معرض الحديث عن رؤية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ومن ذلك ما وقع لسيدنا الرفاعي رضي الله عنه حين زار النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأنشد عند الحجرة

---

1 خيرالدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص51 و52.

2 أحمد بن علي الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، اعتنى به محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2000، ص، 10 - 13.

الشريفة البيتين المشهورين وهما [من البحر البسيط]:

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ رُوحِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا   تُقَبِّلُ الأَرْضَ عَنِّي وَهْيَ نَـائِبَتِي

وَهَذِهِ دَوْلَةُ الأَشْـبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ   فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

فمثُلت له اليد الشريفة وقبّلَها، والخبر مشهور من قِبَل الإمام المذكور[1]. وحضر الواقعة الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حياة بن قيس الحرّاني، والشيخ عديّ بن مسافر الشامي وغيرهم كما نقل عنه أخبار مماثلة من الكرامات، هذا وقد صنّف كثيرون كتبا خاصة به وبطريقته وأتباعه منها كتاب (ربيع العاشقين) لعلي بن جمال الحداد و(ترياق المحبين) لتقي الدين الطوسي و(النفحة المسكية) للفاروق الواسطي و(خلاصة الإكسير) لعلي الواسطي و(العقود الجوهرية) لأحمد عزّت الفاروقي وغيرها.

وفي كتاب (عجائب واسط) لابن المهذب أن عدد خلفاء الرفاعي وخلفائهم بلغ مائة وثمانين ألفا في حال حياته. وجمع بعض كلامه في رسالة سمّيت (رحيق الكوثر) وينسب إليه شعر.

وتوفي يوم الخميس وقت الظهر ثاني عشر جمادى الأولى سنة 578 هـ [1182 - 1183م] ولم يخلّف عقبا، وأما العقب فلأخيه. ودفن بزاويته بـ "أم عبيدة" بالبطائح بمحافظة البصرة بالعراق. وقبره إلى الآن محط رحال سالكي طريقته.

أخبار الطريقة : انتشرت الطريقة[2] في حياة الشيخ وعن طريق أحفاده (أي أحفاد أخيه) بكامل الشرق الأوسط فأسسوا بمصر مثلا "العنانية" أتباع الشيخ عبد الوهاب العناني وبالعراق العربي "القزرونية" أتباع الشيخ عمر بن أبي الفرج القزروني، وبسوريا "الرفاعية-الصيادية" أتباع الشيخ حسن أفندي، ثم اجتمعت كلها تحت لواء الشيخ أبي الهدى المستشار الحميم للسلطان عبد الحميد فقد كان الشيخ أبو الهدى الحلبي الأصل متصرفا في ممتلكات الشرفاء بالولايات ومدير الفرع السوري وقد اشتهر بأعماله التنجيمية وكتبه في الطريقة الرفاعية، ووصل إلى امتيازات سلطانية لدى السلطان

1 محمد درويش الحوت البيروتي، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، صفر سنة 1346 هـ، ص 295.

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص326.

العثماني مثل زميله الشيخ ظافر شيخ المدنية الدرقاوية وسيأتي الحديث عنه، ومن هناك بدأ الشيخ أبوالهدى بالمناداة بالوحدة الإسلامية منذ 1882 م.

غير أن طريقة شطحهم أبعدتهم عن الطبقة المثقّفة، ووجدوا استجابة كبيرة في صفوف العامّة. وشيئا فشيئا انتشرت هذه الطريقة المناوئة للقادرية بالعراق وسوريا وبالجزيرة العربية باليمن والحجاز ومكة والمدينة وبتركيا، ولكنها عندما وصلت إلى إفريقيا الشمالية اختلطت ممارساتها بالطريقة العيساوية فذابت فيها ولم تجد لها امتيازا[1].

أصول الطريقة: ينادي أصحاب الطريقة حسب زعمهم بانسحاق شخصية الفرد وذوبانها عن طريق الممارسات الصوفية الشطحية، فذلك ما قذف الله في قلب أستاذهم. وبصرف النظر عن ذلك، فإن الشيخ أحمد الرفاعي يركز تعاليمه على السلسلة الصوفية كما يلي : أحمد الرفاعي عن أبي الفضل عن علي القاري عن أبي الفضل بن رباح الواسطي عن علام بن تركان عن أبي علي عن أحمد بن محمد الروضباري عن علي العجمي عن أبي بكر الشابّي عن ذول بن جحدر عن أبي القاسم الجنيد إلخ... كما يرفع الشيخ الرفاعي سلسلته الروحية إلى أبي بكرالصدّيق عن طريق الشيخ يحي إلى أنس بن مالك، أما عن شجرة نسبه فهي شجرة الشيخ عبد القادر الجيلاني عن طريق أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد بن يحي الذي هاجر من بغداد إلى البصرة ليقوم بنقابة الشرفاء هناك.

طريقة العمل: لم تعد الطريقة لدى الرفاعية تلك السعادة اللطيفة لدى القادرية بل صارت انتشاء عظيما يثير ممارسات واهتزازات عنيفة تترجم بصيحات وهتافات وانفلات من كل قيد في هياج وتوتر، فالرفاعية ليسوا متخمّرين فقط بل هستيريين عند الذكر (لاإله إلا الله، اللهُ، اللهُ..هو..هو) فيقفون ويشكلون سلسلة بأن يضع كلّ واحد يديه على كتفي الّذي أمامه فيتراكعون في كتلة واحدة إلى الخلف ثم إلى الأمام صائحين (أيارفاعي !، أيا رفاعي !) ويتهالك البعض سكرا وجنونا والبعض يرتمون على الثعابين وعلى النيران المشتعلة والسكاكين والخناجر المحماة التي تعدّ للحلقة الأخيرة فيلحسون ويعضّون بانتشاء عجيب حتى ينصبّ العرق انصبابا وتجحظ العيون من

1 لعل ذلك ما يفسّر ممارسات العيساوية المخالفة ظاهرا لتعاليم (الشيخ بن عيسى نفسه) فتكون من آثار الرفاعية التي هي الأخرى تظهر مخالفة لما اشتهر به الشيخ الرفاعي.

محاجرها وتُزبد الأفواه فيسقطون على الأرض في منظر مثير، وبعد لحظات يذرع الشيخ الغرفة فيفحص هؤلاء المرضى الواحد بعد الآخر فيتفل على جراحاتهم من ريقه ويقرأ بعض الأدعية فيمكنهم من البُرء وهم يؤكّدون أنه بعد يوم لن تجد أثرا لأي جراح[1].

يمتاز، إذن، أتباع الطريقة الرفاعية بالخرقة السوداء والكوفية المزركشة بنسيج غليظ، وهم في عملهم يأكلون الزجاج ويزدردون الحشرات السامة ويتمرغون على الأشواك ويلعبون بالسيوف والحراب[2]، ويشبهون في ذلك العيساوية.

وذكرنا الرفاعية الذين يسمون بالدراويش الصائحة لشبههم بالجباوية (السعدية) أتباع سعد الدين الجباوي المسمون بالدراويش السائحة، وبالعيساوية من ناحية، ولتصوّرنا أن الممارسات العيساوية منقولة عنها بطريقة ما وبالخصوص رقصة الرفاعي، كما أورد كوبولاني وديبون التصـــــريح بذلك في كتابهما، ولسنا بعيدين عن الصواب لو قلنا أن زاوية سيدي شيحة جعلت في الأصل لتبنّي هذه الممارسات من الطريقة العيساوية، بعد تأثرها بها.

وبالجملة فإنه يظهر أن الطريقة الرفاعية كما تمارس في هذه الأيام بسوريا تختلف عن كل ما كنا نقول، غير أن بقايا الإيقاع فيما نسمعه من أناشيدهم يدل دلالة واضحة على رواسب ممّا أوردناه، والله أعلم .

---

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 158.
2 كوبولاني، الطوائف..، ص327.

الطريقة المَدْيَنِيَّة «المدنية»

نسبة إلى الغوث أبي مَدين شعيب بن حسن الأنصاري المدني المتوفّى سنة 594 هـ/1197م. وهي خلاف المدنية الدرقاوية التي سنذكرها فيما بعد، مع العلم أن هذه الأخيرة امتداد للأولى حيث أن الدرقاوية شاذلية وهذه تعدّ امتدادا لتعاليم الشيخ أبي مدين عن طريق تلميذه الشيخ عبد السلام بن مشيش أستاذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي. ويتلاقى نسبه للمدينة المنورة مع الشيخ محمد ابن حمزة المدني صاحب الطريقة المدنية الظافرية التي تفرعت عن الدرقاوية مباشرة من الشيخ العربي الدرقاوي، فالاثنين ينتميان إلى مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من جهة، ومن جهة أخرى كانت المتأخرة امتدادا للأولى وهو من عجيب الموافقات. وسنرى ذلك عند الوصول إلى ذكر الدرقاوية.

الشيخ المؤسس: هو الشيخ شُعيب أبو مدين بن حسن [الأندلسي البجائي] الأنصاري المدني ولد بإشبيلية سنة 520 هـ (1126 - 1127 م) وهناك من أرّخ لهذه الولادة بسنة 510هـ/1116م. [لم يتعلّم من القرآن إلاّ قليلا في صغره... واتّصل بالشيخ أبي يعزى[1] وأخذ عنه الطريق الصوفي. قال أبومدين عن نفسه: (كنت بالأندلس يتيما فجعلني

---

1 هو الشيخ أبو يعزى يلنور بن سليمان المغربي المتوفى سنة 572هـ/1176م.كان أمّيا. أخذ عن أبي شعيب السارية المتوفى سنة 561هـ/1165م . وعن أبي الحسن بن حرزهم عن أبي بكر بن العربي عن الغزالي . وهو من برابرة المغرب وكلامه في الغالب باللغة البربرية وكثيرا ما كان ينقل حديثه بواسطة من يترجمه إلى اللغة العربية ... أخذ عنه التصوف أبومدين شعيب.

إخوتي راعيا لمواشيهم) ثم تخالف معهم ... وعبر البحر إلى طنجة ثم إلى سبتة فكان أجير الصيّادين، ثمّ ذهبَ إلى مراكش ومنها إلى فاس فلازم جامعها وتعلّم الوضوء والصلاة وجلس إلى حلقات الفقهاء والذاكرين. قال: (فلم أثبت على شيء إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي فسألتُ عنه فقيل لي هو أبو الحسن بن حِرْزْهُمْ[1]) فلازمه وأخذ عنه (السنن) لأبي عيسى الترمذي و(الرعاية) للحارث المحاسبي، وقال: "سمعت الناس يتكلّمون عن كرامات أبي يعزي فذهبت إليه في جماعة لزيارته.

فلمّا وصلنا إلى جبل " برجان" ودخلنا على أبي يعزى، أقبل الشيخ على القوم دوني، فلمّا أحضر الطعام منعني من الأكل، وهكذا كان يمنعني من الأكل ثلاثة أيّام. وقد أجهدني الجوع وفقدت بصري ومن الغد استدعاني وقال لي: اقرب يا أندلسي !. فدنوت منه، فمسح بيده على عيني فأبصرت ومسح على صدري وقال: هذا سيكون له شأن عظيم"][2].

ويظهر أن هذا التّصرّف يمثّل امتحانا للمريد حتّى يختبر أستاذه طاقة تحمّله وصبره، فيعطيه على قدر ذلك ما يراه مناسبا له، ورأينا شبه هذا الإمتحان لدى الشيخ الدبّاس لتلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسنجده لدى الشيخ عبد الواحد الدوكالي مع تلميذه عبد السلام الفيتوري، وعند شاه النقشبند لدى أستاذه أمير كُلال.

وأورد محمد البوهلي النيال في كتابه (الحقيقة التاريخية للتصوف ص 104): "واجتمع أبو مدين دفين تلمسان بالشيخ عبد القادر الجيلاني في مكّة، ولبس الخرقة من يديه وأخذ طريقه، [ويقال أنّ أبا مدين قد استقر في تونس عند رجوعه من الحج وكان يجتمع في مسجد سوق السكاجين (مسجد أبي مدين) بالشيوخ: أبي يوسف الدهماني المتوفى سنة 621 هـ[3]، وعبد العزيز المهدوي المتوفّى سنة 621 هـ[4]، وأبي سعيد

---

1 هو الشيخ أبوالحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم الفاسي المتوفّى سنة 559 هـ /1163م.من أهل فاس وانتقل إلى مراكش. أخذ التصوف وعلوم الشريعة عن عمّه أبي محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ؛ وعمه هذا رحل إلى الشرق وانقطع مدّة بالشام ولقي هناك الإمام أبا حامد الغزالي، ثم عاد إلى فاس وتوفّي بها . أما علي مترجمنا فمن شيوخه أبو الفضل النحوي التوزري بفاس وكان والده قد أوصاه به برّا . وكان جريئا وشجاعاء عاش في عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

2 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 204.

3 انظر ترجمته في كتابنا هذا(الطريقة البوعلية) ص86 وما بعدها.

4 هو الشيخ عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي المتوفى سنة 621هـ/1224م، ذكره ونوه به الشيخ محي الدين بن عربي في (الفتوحات المكية) وكان يحضردروسه. ومن تلاميذه الكثيرين أبوسعيد الباجي وهو الذي تولّى غسله

الباجي المتوفى سنة 628 ه[1]، وأبي علي النفطي المتوفى سنة 610 ه[2]، وأبي محمد صالح بن محمد بن عبد الخالق التونسي، والطاهر المزوغي المتوفّى سنة 646ه[3]، وأبي عبد الله محمد الدبّاغ[4] والد صاحب(معالم الإيمان)، والشيخ جراح بن خميس. وفي المعالم أن عبد العزيز المهدوي ومحمد الدبّاغ والدّهماني التحقوا به للزيارة وهو في بجاية.][5].

ويظهر أن التقاء الشيخ عبد القادر الجيلاني بالشيخ أبي مدين شعيب وإعجاب الأول بالثاني أدخل العديد من الباحثين في خطإ: تقول لطيفة الأخضر"وفعلا، فإن هذه الطريقة التي تنسب إلى سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلي أو الجيلاني ببغداد قد دخلت إلى تونس بصفة جدّ مبكرة عن طريق أبي مدين شعيب عند مروره بتونس راجعا إلى بجاية وذلك منذ القرن الثاني عشر ميلاديا[6] ولكن أبا مدين لم يتلقّ

بعد وفاته وصلّى عليه وحده في قبره بمرسى جراح نسبة إلى سيدي جراح بن خميس دفين المرسى وكان أيضا من شيوخ ابن عربي. وكان قبرالشيخ عبدالعزيز بدون قبّة حتّى شيّدها حسين بن علي باي الحسيني. ويروى للشيخ عبد العزيز المهدوي صلاة مباركة على الرسول الأعظم بدايتها: (اللّهُمّ صلّ على لوح رحمانيتك الذي كتبت فيه بقلم رحيميتك:{وَمَاكَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ.} (النيال ص218).

1 هو الشيخ خلف بن يحي التميمي أبوسعيد الباجي نسبة إلى باجة القديمة من أحواز تونس العاصمة (قرب منوبة) كانت له صحبة بالشيخ أبي مروان البوني، واتّصل بأبي مدين شعيب مثل الجماعة. وخرج من باجة إلى الحج سنة603ه ومكث في مكّة ثلاث سنين ومنها انتقل إلى الشام. ورجع إلى تونس سنة 606هكان ملازما لمسجد شريّط بباب البحر (لعله جامع المهراس) ثم اشتهر بين الناس بالصلاح والعبادة، واتصل به أبوالحسن الشادلي ولازم مجلسه وطريقه، وأخذ عنه من المريدين أبويوسف المحمدي وأبو محمد بن عبد السلام بن عيسى القرشي. وكان الشيخ أبو سعيد من تلاميذ الشيخ عبد العزيز المهدوي وله اتصال متين به وبأبي مدين شعيب، وهو الذي تولى تجهيزه ودفنه. توفي شيخنا أبو سعيد سنة 628ه ودفن بجبل المنار حيث كان يتعبد مع أصحابه فبني مقامه وأسست ضاحية كاملة باسمه (سيدي بوسعيد).(انظر النيال: ص224.)

2 انظر في كتابنا هذا(الطريقة البوعلية).

3 هو الشيخ الطاهر المزوغي السافي المتوفى سنة 646 ه/1248م أصله من عرب مزوغة وبلده قصورالساف بالساحل التونسي. انتقل إلى تونس ونشأ فيها ورافق أصحاب أبي مدين مثل محمد الدباغ وأبي سعيد الباجي وعبد العزيز المهدوي والدهماني وله سياحات؛ ورجع إلى قصور الساف في كبره وبقي بها إلى أن توفي. أخذ الطريق عن أبي مدين، وأبو مدين عن أبي يعزى وهو عن أبي الحسن بن حرزهم وهو عن أبي بكر بن العربي وهوعن الغزالي. ومن أحفاده الشيخ أبو الحسن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن علي عبد العزيز بن محمد بن الشيخ الطاهر المزوغي المولود بقصور الساف سنة 776 ه/1374م أستاذ الشيخ علي الكراي أبي بغلة، ومن أحفاده أيضا الشيخ أبو الحسن علي المحجوب المتوفى سنة 953/1550م.

4 هو أبو عبدالله محمد بن علي الأنصاري الدبّاغ المولود حوالي 540 ه/1145م والمتوفى سنة 618 ه/1221م، هو والد الشيخ عبد الرحمان الدبّاغ صاحب كتاب(معالم الإيمان) كان عابدا فاضلا زاهدا من أهل الجد والإجتهاد. وقدسمع من عديد الشيوخ آخرهم أبو مدين شعيب بن موسى الأندلسي مع بقية الأصحاب ودفن بمقبرة باب تونس بالقيروان.

5 محمدالبهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص104 وص 206.

6 لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي دراسة في موقعه من المجتمعومن القضية الوطنية، دار سراس للنشر

طريقته على الشيخ عبد القادر بل على الشيخ أبي يعزى يلنور، وأن التصوف بالمغرب العربي متزامن مع التصوف الطرقي بالشرق، وطريقة أبي مدين تختلف اختلافا كبيرا في كل شيء عن الطريقة القادرية، ثم إن أبا مدين مرّ بتونس قبل رجوعه إلى بجاية التي لم يستقر بها فكانت وفاته بتلمسان. والقادرية لم تظهر بتونس إلا عن طريق الشيخ الشايب والشيخ المنزلي كما ذكرناه آنفا.

ويظهر أن لأبي مدين قبولا لدى السلاطين: قال ابن عربي: " غضب السلطان على جماعة من العلماء خرجوا عليه ووقعوا فيه، فلمّا ظفر بهم أمر بقتلهم، فبلغ الخبر شيخنا أبا مدين رحمه الله وكان مرعي الجانب عند السلطان والخاصّة والعامّة، فأخذ عصاه وخرج، فلمّا جاء دار السلطان أَبْصَرَ الْقَوْمَ على تلك الحالة، فبكى. وأُخْبِرَ السّلطانُ بمكانه فتلقاّه وقال: ما جاءنا بالشيخ في هذا الوقت ؟ فقال: الشفاعة في هؤلاء. فقال السلطان: أوما تعرف يا شيخ إساءتهم؟

فقال: وهل على المحسنين من سبيل؟ وهل الشفاعة إلاّ في أهل الكبائر من المسيئين؟ فاستعبر السلطان وعفا عن الجميع"[1].

نشر أبومدين شعيب مذهبه الروحاني في إشبيلية وقرطبة وبجاية، وتوفّي بتلمسان سنة 594 هـ عن سن تناهز الأربع والسبعين سنة [وقيل خمس وثمانين وهو في طريقه من بجاية إلى مراكش وقد حمل مجلوبا بأمر سلطانها خليفة عبد المؤمن وقد أمر والي بجاية بإكرامه وحمله خير محمل ودفن في تلمسان]. وأقيمت له قبّة في "العبّاد" قرب تلمسان[2]. وله زاوية جليلة بمدينة القدس الشريف ذكرت في كتاب (كنوز القدس)[3].

"سئل ابن سبعين عن الغوث أبي مدين شعيب فقال: شعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة[4]" وقال ابن عربي: " شيخنا أبو مدين الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحقّ في كلّ شيء[5]"

بتونسأفريل 1993، ص44.

1 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب، ص270.

2 ترجمة ملخصة عن كوبولاني، في الطوائف...، ص 443، والصادق الرزقي في (الأغاني التونسية) ص127.وما بين [..]من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد البهلي النيال.

3 كنوزالقدس الشريف، نشر منظمة المدن العربية 1403 هـ/1983م، ص 386.

4 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 385.

5 المرجع السابق، ص 207.

ألّف الشيخ أبومدين عدّة كتب في تعاليم مذهبه. وله عدّة قصائد وموشحات دخلت في نطاق المالوف منها ذلك الموشح الذي أخذ شهرة كبيرة في تونس في مقام الإصبعين وهو :

أَنَا يَا مُدِيرَ الرَّاحْ أَفْـنَانِي الْغَـرَامْ

يَوْمِ نُرَاكْ نِرْتَـاحْ يَا بَـدْرِ التَّـمَامْ

وكذلك قصيدته من البحر الخفيف :

لَسْتُ أَنْسَى الأَحْبَابَ مَا دُمْتُ حَيًّا مُذْ نَأَوْا لِلنَّوَى مَكَــانًا قَـصِيًّا

ومن أقواله رضي الله عنه: "من كان الأخذ أحبَّ إليه من الإعطاء فما يشم للفقر رائحة" أي لا يفهم التصوّف أبدا. ويقول: "كلّ فقير لا يعرف زيادته ونقصه في كلّ نَفَسٍ فليس بفقير" ويقصد المراقبة المستمرّة، ويقول: "نسيان الحق طَرفة عَيْنٍ خِيَانَة" خيانة للعهد الصوفيّ، ولعلّه من الضروري الإطلاع على رأيه في التّصوّف حتّى يفهم على أصله وحقيقته دون تحيّز أو ميل لجانب دون آخر. "فقد ينقل بعض الدقائق الصوفية، كأن يُروى أنّ أبا مدين سئل عن معنى الوصول فأجاب:

"إذا دلّك به عليك، كنت منه وإليه، وإذا أفناك عن الإحساس، كنت في حضرة الإيناس، وإذا كاشفك بحبّه، لم تتلذّذ إلاّ بقربه، وإذا غيّبك عن شهودك، تجلّى لك من وجودك[1]." فبهذا يمكن أن نفهم ردّه عن اعتراض بعض الطلبة عليه في انجذابه الصوفي كما ذكره الشيخ محمد مخلوف[2] (من البحر الطويل):

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الْـوَجْدِ أَهْـلَهُ إِذَا لَمْ تَذُقْ مَعْـنَى شَرَابِ الْهَوَى دَعْنَا

إِذَا اهْتَزَّتِ الأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللِّـقَـا تَرَاقَصَتِ الأَشْبَـاحُ يَا جَـاهِلَ الْمَعْنَى

أَمَا تَنْظُرِ الطَّـيْرَ الْمُقَـفَّصَ يَـا فَـتَى إِذَا ذَكَـرَ الأَوْطَـانَ حَنَّ إِلَى الْمَغْـنَى

فَـفَــرَّجَ بِالتَّغْــرِيدِ مَـا بِفُـؤَادِهِ فَتَضْطَرِبُ الأَعْضَاءُ فِي الْحِسِّ وَالْمَعْنَى

وَيَرْقُصُ فِي الأَقْفَاصِ شَوْقًا إِلَى اللِّقَا فَيَهْــتَزُّ أَرْبَــابُ الْعُقُـولِ إِذَا غَـنَى

1 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب، ص 272.

2 النص كما ورد في مواهب الرحيم للشيخ محمد مخلوف.ص 143. طبعة طرابلس.

كَـذَلِكَ أَرْوَاحُ الْمُـحِبِّينَ يَـا فَتَى تُهَزِّزُهَا الأَشْـوَاقُ لِلْعَـالَمِ الأَسْنى
فَيَا حَادِيَ الْعُشَّاقِ قُمْ وَاحْدُ قَـائِمًا وَزَمِّمْ لَنـاَ بِاسْمِ الْحَبِيـبِ وَرَوِّحْنَـا
وَصُنْ سِرَّنَا فِي سُكْرِنَا عَنْ حَسُـودِنَا وَإِنْ أَنْكَرَتْ عَيناكَ شَيْئًـا فَسَامِحْنَا
فَإِنَّا إِذَا طِبْـنَا وَ طَـابَتْ عُقُـولُنَا وَخَـامَرَنَـا خَمْـرُ الْغَـرَامِ تَهَـتَّكْنَا
فَلم تَلُمِ السَّكْـرَانَ في حَـالِ سُكْرِهِ فَقَدْ رُفِعَ التَّكْلِيـفُ في سُكْرِنَا عَنَّـا

وهو تعبير شاعري يشعر السامع بالحب والوجد والفناء في ذات المحبوب، ولكن البيت الأخير يوهم بما لم نر أحدا من المدنية يتمسّك به وهو سقوط التكاليف الشرعية، وكما ترى فإن هذا الكلام لا يتعدّى المعنى الشعري لهذا البيت، وهو أن يكون سقوط التكليف أي سقوط الوقار ومظهر الإجلال وليس سقوط التكاليف الشرعية من صلاة وعبادة ثابتة بالكتاب والسنّة، وقد يسقط الوقار من شدّة الوجد وهو علامة من علامات كرم النفس: (وَإِنْ أَنْكَرَتْ عَيْنَاكَ شَيْئًا فَسَامِحْنَا) لأن الكريم طروب كما قال ابن الرّومي، وقد يصل بهم الجذب إلى أقوال يُتوهّم منها الحلول كما نلاحظه بيّنا في هذه القطعة من شعر شيخنا أبي مدين والتي ما زال ينشدها أتباع الطريقة المدنية الغوثية بزاوية سوسة[1]. (من بحر الرمل):

أَيُّهَا الْخَاطِبُ مَعْنَى حُسْنِنَا مَهْرُنَا غَالٍ لِمَنْ يَخْطُـبُـنَا
جَسَدٌ مُضْـنَى وَ رُوحٌ لِلْعَنَا وَجُفُـونٌ لاَ تَـذُوقُ الْوَسَـنَا
وَفُـؤَادٌ لَيْـسَ فِيهِ غَيْـرُنَا فَإِذَا مَا شِـئْتَ أَدِّ الثَّـمَنَا
وَافْنَ إِنْ شِئْتَ فَـنَـاءً سَرْمَدًا فَالْـفَـنَا يُدْنِي إِلَى ذَاكَ الْفِنَا
وَاخْلَعِ النَّعْلَيْنِ إِنْ جِئْـتَ إِلَى ذَلِـكَ الْوَادِي فَفِيـهِ قُدْسُنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُنْـخَلِعًا وَأَزِلْ مَـا بَيْنَـنَا مِنْ بَيْنِنَا
فَإِذَا مَاقِيلَ مَنْ تَهْـوَى ؟ فَقُلْ "أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا"[2]

1 الهادي بوكمشة، كتاب الدليل لسالك السبيل، بدون ذكر دار طباعة ولا تاريخ.
2 هو صدر بيت للحلاج وهو: "أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَا"

ولكن هذا الحلول لم نجد منه أثرا في فكر أحبابنا من أتباع هذه الطريقة، ولذلك فهو ليس الحلول الفعلي، وإنّما هو انسحاق رغبات العاشق في هوى المعشوق حتّى كأنّه لا يوجد أو كأنّه امتداد للمعشوق. ويشرح الأمر الشيخ أبو مدين شعيب ذلك في قصيدته اللامية (من البحر الكامل):

اللهَ قُلْ : وَذَرِالْوُجُـــودَ وَمَـا حَوَى   إِنْ كُنْتَ مُرْتَـــادًا بُلُوغَ كَمَالِ

فَالْكُـــــلُّ دُونَ اللهِ إِنْ حَقَّــقْتَهُ   عَدَمٌ، عَلَى التَّفْصِيــلِ وَالإِجْمَالِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالْعَــوَالِـمَ كُلَّـــهَا   لَوْلاَهُ فِي مَحْوٍ وَ فِي اضْمِــحْلاَلِ

مَنْ لاَ وُجُـــــــودَ لِذَاتِهِنْ ذَاتِهِ   فَوُجُودُهُ لَوْلاَهُ عَــيْـــنُ مُحَـالِ

فَالْعَارِفُونَ فَنَـــوْا وَ لَمَّا يَشْهَــدُوا   شَيْئًا سِوَى الْمُتَكَــبِّرِ الْمُتَعَـالِ

وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَــــالِـكًا   فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالاِسْتِـقْبَالِ

فَالْمَحْ بِعَقْلِكَ أَوْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى   شَيْئًا سِـوَى فِعْلٍ مِـنَ الأَفْـعَالِ

وَانْظُرْ إِلَى عُلْوِ الْوُجُـــودِ وَسُـفْلِهِ   نَظَرًا تُؤَيِّـــــدُهُ بِالاِسْــــتِدْلاَلِ

تَجِدِ الْجَمِيـعَ يُشِيرُ نَحْوَ جَـــــلاَلِهِ   بِلِـسَانِ حَـالٍ أَوْ لِـسَانِ مَقَالِ

هُـوَ مُمْسِـكُ الأَشْيَاءِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى   سُفْـلٍ وَمُـبْـدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَـالِ[1]

وقال الشيخ محمد المدني شيخ الطريقة المدنية بقصيبة المديوني ومؤسسها بالقطر التونسي عندما زار قبر الشيخ الغوث أبي مدين سنة 1335 هجرية[2] (1) من بحر الرجز ولكنه لم يترك زحافا لم يستعمله بما في ذلك التكاوس:

أَيَا شُعَيْبُ أَقْــــبِلَـــنِّي فَأَنَـــا   هُوَالْمُسَمَّى عِنْدَكُمْ بِالْمَدَنِي

قَدْ زُرْتُكَ يَا غَوْثُ حَيْثُ زُرْتَنِي   عِنْدَ الْمَنَـامِ وَأَنَـا فِي مَسْكَنِي

هَـذَا الْجَزَاءُ مِنِّيَ حَقِيـــــقَـةً   عَامَلْتُكَ كَمَا كُنْتَ عَامَلْتَنِي

1 أحمد العلاوي بن عليوة، المنح القدسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطريق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ص 30.

2 محمد المدني، أنيس المريد في التصوف والتوحيد، مطبعة الهلال، تونس 2002، ص55.

فَزُرْتَنِي نَوْمًا وَلَكِنْ إِنَّنِي أَتَيْتُكَ يَقَظَةً بِبَدَنِي

إِذْ لُحْتَ لِي طِفْلاً صَغِيرًا حَاكِيًا عِيسَى بِمَهْدٍ صَادِقًا كَلَّمْتَنِي

وَهَذِهِ تَحِيَّةٌ أَهْدَيْتُهَا تَبْقَى تَدُورُ عَنِّيَ فِي الأَلْسُنِ

أخبار الطريقة: انتشرت طريقة الشيخ أبي مدين بالجزائر والمغرب الأقصى وما زالت قبّته التي قرب تلمسان محل احترام وتقدير من تلاميذه ومريديه الّذين يسمّون أنفسهم المدنية، إلاّ أنهم لم ينتظموا في جماعة متميّزة، فهم علماء مشتغلون بنشر علوم أستاذهم الروحي، وليسوا من أولئك الصوفيين الّذين يمارسون تلك الممارسات العجيبة، أو طريقة معينة في حضراتهم أو مواعيدهم.

أصول الطريقة: أتباع هذه المَديَنية "المدنية" على ما يظهر ناس مغرمون بالدراسة وجمع العلم والتزهد ونبذ الدنيا، ولا يعرف لهم عمل أو خرجات كبقية الطرق الصوفية الأخرى وهي التي تفرعت عنها الطريقة الشاذلية وعن هذه عدّة طرق كلّها تستند إلى الشاذلية ومنها أتت المدنيات المعروفة على الساحة الآن كمدنية ظافر ومدنية نساء المنستير والمدنية العلاوية بقصيبة المديوني وتفرعاتها.

طريقة العمل: هي طريقة جذب وزهد وتوكل وتقشف وكسر لشهوات النفس ومذاكرات. وأتباعها كثيرون، ولكل جماعة شيخ كما في الطرق الأخرى. ومنهم من أدخل المديح واستعمل الآلات وهو نادر (على ما أورد الرزقي في الأغاني)[1] ومنهم من لم يستعملها. وغاية أمداحهم هي تشويقات تستعمل نشيدا بألحان لذيذة، فيجتمعون في الزاوية ويقرؤون الوظيفة وهم جلوس وربما تذاكروا المواعظ قبل ذلك ثم يقفون على شكل حلقة ويشرعون في ذكر اسم الله ثم يتدرّجون في التخفيف حتّى يصير الذّكر بالصدر أعني بضمير الغائب " هو" ويكون الباعث على ذلك ما تحدثه أنغام النشيد فيهم من الاهتزازات الروحية مثل:

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، الدار التونسية للنشر؛ جوان 1968، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ص 128.

طالع:

بِحَقِّ اللهْ رِجَـــالَ الله   أَعِيـــنُونَـا بِعَوْنِ الله

بيت:

فَيَا أَبْدَالْ وْيَـا أَقْطَـابْ   وْيَا أَنْجَابْ وْيَا أَحْبَابْ

أَجِيبُوا يَا ذَوِي الأَلْبَابْ   وَ جُودُوا لِي بِعَـوْنِ الله

ومن أناشيدهم:

خُذُوا بِـيدِي وْبِيعُونِي * إِلَى قَـــوْمِ يعِـــــزُّونِي * وَإِنْ مَـا صَحَّتْ الْبِيـعَة * عَسَـى اسْيَادِي يِرُدُّونِي

خُذُوا بِيدِي لِلاَسْـوَاقْ * وْدُورُوا بِيَّـا عْلَى الْعُشَّـاقْ * وْقُولُوا ذَا الصَّبِي مُشْتَاقْ * عَسَـى اسْيَادِي يَرُدُّونِي

خُذُوا بِيدِي لِلاَبْـوَابْ * وْدُورُوا بِيَّا عْلَى الاصْحَابْ * وْقُولُوا ذَا الصَّبِي مُصَابْ * عَسَـى اسْيَادِي يَرُدُّونِي

وقد بلغنا أنّ لهم عملا الآن، وقد لحّن الدكتور صالح المهدي ثلاثة موشحات من تأليف الشيخ أبي مدين شعيب على طريقة جزائرية مغربية، وأنشدها أحمد وهبي في الجزائر، وهي موجودة بإذاعتها.

تفرّع القادرية

يمكننا انطلاقا من أبي مدين شعيب، إن اعتبرنا أن طريقته قادرية على أساس أنه لبس الخرقة من يد السيد الجيلاني، أن نبدأ بمعاينة تفرّع الطريقة الصوفية إلى اتجاهين أساسيين، سوف نجد تباينهما في مستقبل الأيام، كما سنجد اتجاها ثالثا حاول الجمع بين السابقين. وسنصطلح على تسمية الإتجاه الأول بـ "القادرية" والثاني بـ "الشاذلية" والثالث بـ"الجامعة".

والإتجاهان الأوّلان فكريان: الأوّل منهما: يهتمّ بالممارسات التطبيقية والرّياضة الجسدية لبلوغ الهدف الأسمى من التوجّه الصّوفي، فهو يبحث عن تلك الحالة الوجدانية من الانتشاء التي يخرج فيها من المعهود إلى اللامعهود، ومن الحضور الزمني إلى الغياب الذهني، والاندماج في السبح حتّى ينسى نفسه، بينما يهتمّ الثاني بالتأمّل في الذات البشرية وعلاقتها بالله تعالى عن طريق الفكر والإلهام والذكر بالقلب واللسان في طريق الترقّي بالروح إلى المقامات السَّنيةِ، فيبلغ ربما نفس الحالة الوجدانية التي يبلغها الآخر لكن بفكره دون حاجة إلى رياضة جسدية.

هذا الاختلاف من شأنه أن ينتج بمرور الزمن تباينا بين الطريقتين، ومن ثمَّ اختلافا في النتائج واختلافا في الوسائل.

أمّا اتجاه التأمّل فنجده يرعى العلوم الدينية أصولا وفقها وغيرها ويدعو إلى التبصّر فيها ويجعلها ركيزة لعمله حتّى أننا نجد الشاذلية مثلا لا يأخذون العهد إلاّ ممن تتوفّر فيهم شروط من المستوى العلمي كالزرّوقية والجزولية، بينما نجد المهتمّين بالممارسة العملية لا يشترطون ذلك في مريديهم، وقد نجد فيهم الأميين والعارفين أمثال أبي يعزى شيخ أبي مدين، ومن ليس لهم أدنى معرفة بالفقه[1]، فينتج عن ذلك الاهتمام بالمظهر الاحتفالي والإنشاد الموسيقي. بينما يرى الإتجاه الآخر ذلك أمرا يأتي في المرتبة الأخيرة من اهتماماته إذ أنّه لا يأبه بمقام موسيقي ولا نغمة معيّنة، وإن وجد ذلك فعَرَضًا واتّفاقا من أجل طبيعة الذكر الجماعي كي ينسجم على أقلّ ما يمكن ويخرج من دائرة الضوضاء.

ونحن إذ نذكر ذلك في هذا المقام رغم عدم ظهوره ظهورا بيّنا، فلأن بعض تلاميذ أبي مدين شعيب كان لهم سماع ويرغبون فيه أمثال أبي يوسف الدهماني[2] وربّما أبي علي النفطي نفسه بينما أتباعه ممّن يسمّون أنفسهم "مدنية" لا يستعملون الآلات وإن استعملوا الأشعار والأذكار في تواجدهم ومذاكراتهم وخلواتهم واجتماعاتهم.

لم يأخذ أبو مدين استعمال الآلات عن أستاذه أبي يعزى ولا عبد القادر بنفسه ولا علّمه لتلاميذه، ولكنه ربّمالم ينههم عنه فقط، أو أنّه كان لا يرى فيه بأسا، حيث إنّ بعض أشعاره وأزجاله كانت توشّح تواشيح المالوف منها ذلك الموشح الذي أخذ شهرة كبيرة في تونس في مقام الإصبعين وهو:

أَنَاَ يَا مُدِيرَ الرَّاحْ   أَفْنَانِي الْغَــرَامْ
يَوْمِ نْرَاكْ نِرْتَـاحْ   يَا بَــدْرِ التَّمَامْ

وقد يكون لُحّن بعد وفاته. كما لم يكن الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفسه ممن استعمل الآلات في حلقات الذكر، إذ أنه، كما أوردنا سابقا، كان أوّل من أدخل الموسيقى

1 يمكن أن نمثّل لذلك بالسندي الذي كان يجهل الفقه لكنه كان عارفا بطريق الوصول إلى الله، وقد اجتمع بأبي يزيد البسطامي في الحج، فكان البسطامي يعلّم السنديّ مناسك الحج والسندي يعلّم أبا يزيد البسطامي طريق الوصول إلى الله (محمد البوهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي.ص180)

2 ذكر في معالم الإيمان، الجزء 3 ص213:"...إنّ الشيخ أبا عبد الله القرشي (بمصر) كان هجر السماع وحضوره، فلما وصل الشيخ أبو يوسف[الدهماني] رغب إليه في ذلك فأجابه إليه وصنع في منزله سماعا لم يبق مشهور بمصر بالفضل إلا وحضره فلما طاب السماع أخذ الشيخَ أبا يوسف واردُ حال فارتجّ عن الأرض حتى جلس على الهواء وهو مرتفع يطوف في زوايا البيت. قال أبو عبد الله القرطبي: كأنّي أنظر إلى بياض قدميه في الهواء.".

والرقص الإيقاعي في الحضرة القادرية هو شمس الدين ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني ثالث أبنائه وثالث خلفائه في رئاسة الطريقة[1]. لذلك نطلق على كلّ الطرق التي تستعمل آلاتٍ مصاحبةً للإنشاد: "القادرية".

وكنا أوردنا أيضا أنّ أبا مدين شعيب قد اجتمع بالشيخ عبد القادر الجيلاني في مكّة، ولبس الخرقة من يديه، ورجع إلى إفريقية، فاجتمع به في تونس عبد العزيز المهدوي وأبو علي النفطي والطاهر المزوغي وأبو يوسف الدهماني وأخذوا عنه[2].

ونجد في "معالم الإيمان" للدبّاغ: أنّ أبا يوسف الدهماني كان يحضر مجالس السماع[3] وكان يقع له فيها أشياء عجيبة، ولعلّ ذلك من التأثّر بالقادرية حيث إن أبا مدين شعيب لقّنه إيّاها مع أصحابه.

غير أنّ الطريقة "المدنية" لاتستعمل الآلات وإن وجد فيها الرقص الإيقاعي أو ما يسمّونه بالاهتزاز. وتمسّك بهذه الطريقة الشيخ عبد السلام بن مشيش تلميذ الشيخ عبد الرحمان المدني الزيّات، إلا أنه أخذ كثيرا عن أبي مدين شعيب وهو أستاذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي كان لا يحبّ السماع فكيف بالآلات، وورث عنه ذلك الشيخ العربي الدرقاوي، ثمّ الشيخ محمد حسن المدني الذي أخذ عنه ابنه الشيخ ظافر المدني الّذي أخذ عنه الشيخ محمد بوزقرّو الجدّي الذي أخذ عنه نساء المنستيرمن جهة، ومن جهة أخرى الشيخ أبو عزة المهاجي ثم الشيخ محمد بن قدّور ثم الشيخ محمد البوزيدي وتلميذه الشيخ أحمد العلاوي والشيخ محمد المداني القصيبي والشيخ محمد بخوش وإسماعيل الهادفي وأخيرا الشيخ الهادي بوكمشة والشيخين الفتحي السلامي وبلقاسم بلخيري وريثا الإسماعيلية. وحيث إنّ أبرز شيوخ هذا الإتجاه هو الشيخ أبوالحسن الشاذلي أطلقنا على هذه الطريقة "الشاذلية"، فالشاذليون وإن كانوا في الأصل قادرية، إلاّ أنّهم تمكّنوا من تكوين مدرسة كاملة تميّزهم عن بقية الطرق الصوفية المعروفة في كامل العالم الإسلامي وخرج منها الطيبية والدرقاوية والمدنية والدسوقية وغيرها.

وهنا نلاحظ بروز ظاهرتين في الطرق الصوفية، فبينما تعتمد الطرق التي اصطلحنا

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 298 .

2 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 104.

3 الدباغ، معالم الإيمان، ج3 ص 219 .

على تسميتها بالقادرية على الممارسات المادية والرقص المفرط الذي تتحرر عن طريقه الروح من قيود الجسد، نجد الطرق التي اصطلحنا على تسميتها بالشاذلية تعتمد على التأمل والمذاكرة وإن كانت لا تخلو في أعمال الذكر من الاهتزاز الإيقاعي، ولعلّ هذا ما يجعلها لا تزال محافظة على مظهرها المتزهّد وتوهّجها الصوفي إلى يوم النّاس هذا، بينما نجدهالم ترتق الرقيّ الطبيعي في الناحية الموسيقية، بل لم يقع فيها تطوّر يمكن أخذه بعين الاعتبار، ولعلّ ما بدأته منذ أقل من عقد من الزمن الطريقة المدنية بقصيبة المديوني من محاولة للضبط الموسيقي تتمثل في المحافظة على الطبقات الموسيقية والتسلسل النغمي مع احترام الطبوع الموسيقية والمحافظة على الإيقاع الداخلي المصاحب للمدحات، سوف يرقى بهذه الطريقة إلى نوع من الموسيقى الذي لا يمكن التنبّؤ به الآن، على أن تحافظ على الروح الصوفية التي ضحّت بعديد العقود بل والقرون للمحافظة عليها.

بين هذين الاتجاهين برز إتجاه توفيقي نجده واضحا في ممارسات الطريقة العيساوية مثلا، فهي ترتكز بالأساس على التخميرة المعروفة لدى الطوائف الشرقية المنحدرة من القادرية، ويؤلف بين هذه الطوائف وطوائف المغرب العربي عقيدة التوحيد وطريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتباعه، وهكذا وجدت الطريقة العيساوية، ثمّ العروسية والسلامية والقشاشية والعوامرية والشطية طريقتها المميزة، فهي تبتدئ بدون آلات في مدحات تشبه المدنية، ثمّ بدقّ الكف فقط مثلما قد نرى لدى البرهانية الدسوقية، أو تنتقل إلى المجرّد مثلا، كما لدى العيساوية، وبعد ذلك تندفع بآلاتها وممارساتها إلى عمل آخر يختلف اختلافا بيّنًا عمّا ابتدأت به.

وتقدّمت هذه الطرق بموسيقى الجدّ أيّما تقدّم، ولعلّها في صعودها الفنّي انحدرت نوعا ما عن أصلها الصوفي، حتّى وصلنا إلى ما نراه اليوم من هذه الفرق التي بلغت درجات كبيرة في الرقي الموسيقي، واصطبغت بمظاهر فرجوية كخرجات القادرية ورقصات الرفاعي في العيساوية مثلا، أو الممارسات الغريبة التي نراها لدى العوامرية، والبعد نوعا ما عن التعبّد الصوفي والأحزاب والأوراد وما يميّز العمل الصوفي التعبّدي عن المظاهر الاحتفالية والفرجوية.

الطريقة البوعلية

نسبة إلى "أبي علي النفطي" المتوفى سنة 610 للهجرة/1213 للميلاد

الشيخ المؤسس: هو أبو علي حسن النفطي عاش في أواخر القرن السادس [الثاني عشر للميلاد]، كان من أصحاب أبي مدين شعيب الأندلسي، و[كان يلبس القفطان فقال (عنه)أهل بلاده (المصري). وكان من مشاهير الصوفية سكن "سْدادة" من بلاد الجريد بالجنوب التونسي، وقاوم العقيدة الخارجية فيه وفي نفزاوة، فسمّي بأبي علي السنّي حيث كان أكبر داعية لمذهب أهل السنّة، وأوّل من ركّزه في تلك الجهة. وكان من أهل المعرفة والصلاح متحمسا لأهل السنّة. وكان معظم سكان الجريد والجنوب التونسي من الخارجية، فلحماسه في مناهضتهم، كان يعرف عندهم بالسني[1].]

ومما يؤثر أن أصل الشيخ من مكناس[2] قدم من المغرب ونزل بـ"عمدون" وأخذ علم التصوّف عن سيدي "أبي مدين شعيب الغوث"، ثمّ وجّهه شيخه إلى القيروان، وشيخ القيروان وجّهه إلى نفطة لمجاهدة الإباضيين فاستقر بها وحاربهم، ويروى أنهم هُمُ الّذين قتلوه هناك.

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 211.

2 رواية يقدمها الشيخ علي بوقرّة شيخ الطريقة البوعلية بالحاضرة بحضور مجموعته والشيخ العروسي بن خميس التركي شيخ الطريقة السلامية.

ولم ينس التلميذ أستاذه، فكان أبو علي كلّما لقي من سيمرّ بتلمسان يوصيه بإبلاغ شيخه أبي مدين السلام حتّى كان آخر مرّة سنة 594 هـ سنة وفاة الشيخ أبي مدين وكان ذلك مع أبي عبد الله التُّجيبي.

وتوفي أبو علي السنّي النفطي سنة 610 هـ وضريحه معروف بسْدادة قرب نفطة في رباط بنيت عليه قبّة وسط نخيل وماء جار.

لأبي علي رسالة مشهورة بعث بها إلى أبي يعقوب الطُّرّي رأس الخوارج. وطُرّة مدينة كانت في واحة قريبة من نفزاوة بالجنوب التونسي. وألف الحسن بن أحمد البجائي أحد معاصريه مناقبه في مؤلّف خاص[1].

وورد في معالم الإيمان[2]: "وقال الشيخ أبو يوسف [يعقوب الدهماني المتوفّى في غرّة محرّم الحرام سنة 621 هـ][3]- منكرا على أناس - ما يعرفني منهم أحد، إنّما كان يعرفني أخي أبو علي النفطي رحمة الله عليه الّذي أتى عندي مرّة، فأردت إقامته وأراد السّفر، فكان بنفسه يخرج خارج البلد يطلب الرّفقة فلم يجد. فمكثنا قرب خمسة عشر يوما،

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 152 بالهامش.

2 الدباغ، معالم الإيمان، ج3 ص 219.

3 كانت له زاوية بجانب زاوية سيدي الهلالي في آخر (زقيق صالح) للداخل من جهة باب الدرب بحومة البلد بالمنستير، وبالزاوية بئر كانت تستعمل للتداوي وخصوصا للأطفال، فكانوا يزورنها مع الطفل المريض بأيّ داء فيغسّلونه بمائها فيبرأ بزعمهم . هذا مانقلناه عن بعض شيوخ المنستير الّذين يعرفون الزاوية ومارسوا هذه الطريقة في التداوي، كما أخبرونا أن وعدتهم كانت الكسكس بالسمك. والدهماني هوأبو يوسف يعقوب ولد بقرية تسمى المسروقين (وهي سيدي الهاني حاليا بين القيروان وسوسة) ولد سنة 549 هـ، وهو أحدجماعة من أصحاب أبي مدين شعيب وهم أبوعلي النفطي وأبوسعيد الباجي وعبد العزيز المهدوي والطاهر المزوغي السافي ومحمد الدبّاغ والد صاحب المعالم. رحل أبويوسف إلى الشيخ أبي مدين بمدينة بجاية سنة 570 هـ وأخذ عنه كثيرا من آداب التصوّف وسلوك الطريق وأجاز له الإنتصاب إلى المشيخة. ورجع أبو يوسف متوجها إلى الحجّ في سنة 595 هـ وركب البحر مع زوجته وأولاده من المهدية. وبعد ذلك رجع إلى القيروان على طريق قابس. واجتمع بأبي علي النفطي بظاهر مدينة تونس في خباء واحد نحو أربعة أشهر من سنة 599 هـ وصارت العلاقة متينة بينهما. كما اجتمع بأبي محمد عبد العزيز المهدوي . ومماكان يتغنّى به :

وَغَنَّى لِي مُنَى قَلْبِي فَغَنَّيْتُ لِمَا غنى
وَكُنَّا حِينَمَا كَانُوا وَكَانُوا حِينَمَا كُنَّا

وتوفي سنة 621 هـ، ودفن بجوار أبي الحسن القابسي بالقيروان قرب باب تونس. ممن أخذ عليه السيدة مريم أم يحي كانت تجتمع به عندما يتردد الشيخ على أصحابه بجهة المهدية والمثاليث، وهي نازلة بالمنية (قرب جبنيانة) فكانت تهتدي بهديه وتجلس إليه ملتحفة، ولا ترفع كلامها بحضرته ولا تنظر إليه فقيل عنها (أم يحي خير من ألف لحية) راجع النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص223 - 224.كما روى الدبّاغ أن أبا يوسف كان يرابط برباط سقانص المنستير.

فلمّا لم يجد تفطّن وقال لي: سألتك بالله اتركني أمشي. فقلت: وعوّلت؟ قال: نعم! فقلت له: أصلح حوائجك، واخرج خارج البلد تجد الرفقة الساعة تأتي تمشي معها. فخرجنا في الوقت، فإذا بعسكر مقبل إلى جهة سفره، فمشى مع العلامات (الرايات) والخيل آمنا مطمئنّا". فكان بينهما محبّة واحترام وتراسل واتحاد كبير، وقال الشيخ [أبو يوسف الدهماني]: "كنت أتمنّى أن يجمعني الله عزّ وجلّ معه مدّة في موضع، فقدّر أن مكثنا في خباء قرب أربعة أشهر في سنة فتح تونس حتّى فُتحت. وكنّا في تلك المدّة نسأل الله عزّ وجلّ في حقن دماء المسلمين، فلطف الله بالحال وكان كذلك. فلمّا أراد الانصراف قال لي: رأيت فيك أربع خصال من خصال أهل الجنّة: ما رأيتك في هذه المدّة تمتخط ولا تتثاءب ولا تتمطّى ولا تحتلم، فقلت: الحمد لله الّذي أظهر لك نِعَمًا كنتُ غافلاً عن الشكر عليها".

وقالت أمّ عمر زوج الشيخ أبي يوسف [الدهماني]:" لمّا أتى إليه الشيخ أبو علي النفطي أدخله البيت ثمّ قال له: الآن ما مات سيّدي ما دُمتَ حَيًّا[1]. وأمر بغلق الباب، وجعل يقول: أصلِح[2] الباب حصل الرّيم خلف الحجاب !. وقال أبو عليّ لمّا أراد توديعه: ما ثَمَّ فُرقة إنّما نحن واحد، ثمّ عطف عليه وتأوّه وأنشد يقول [من البحر الكامل]:

يَا هِنْدُ! إِنِّي قَدْ وَهَبْتُكِ مُهجَتِي فَنَعِيمُهَا وَ عَذَابُهَا سِــيَّانِ

كُنَّا نَخَافُكُمُ وَنَخْشَى هَجْرَكُمْ أَيَّـامَ فُرْقَــتِنَا وَ نَحْنُ اثْنَانِ

فَـالْيَوْمَ رُوحٌ وَاحِـدٌ لاَ غَيْـرُهُ أَكْرِمْ بِرُوحٍ ضَمَّهَا جَسَدَانِ

و[أرسل أبويعقوب الطرّي برسالة إلى أبي علي النفطي ينكر عليه صوفيته وربّما بدأها بتعريف الحكمة ونحو من ذلك، فردّ الشيخ أبو علي " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِاللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ:

أَمَا آنَ مِنْ صُبْحِ الرَّشَادِ تَنَفُّــسُ وَحَتَّى مَــتَى لَيْلُ الظَّلاَمِ مُعَسْعِسُ

1 الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ص 219: ويعلق في معالم الإيمان بالهامش في هذا الموضع بقوله: " كأنّه نزّل أبا عليٍّ منزلة شيخه، واعتبره بنزوله عنده من شيوخه. وأبو علي هذا هو محيي السنّة في الجريد ودُفن ببلدة نفطة وتوفّي رحمه الله سنة 610 كما في كتاب التّشوّق. " وما بين [..] إضافة من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي للنيال.
2 أصلح الباب: أغلقه باحدى اللهجات التونسية. و(حْصُلْ) : وَقَعَ.

تُرَانِي أَرَى فَجْرَ الْهُدَى مُتَعَرِّضًا وَمَا لِيَ إِصْبَاحٌ وَلاَ أَشْمَطُ حِنْدِسُ

وَمَا حَذَرِي إِلاَّ شُــغُوبُ مُغِيرَةٍ فَيَنْزِعُ لِلـتـتَّرْحَالِ صَبٌّ مُعَرِّسُ

مِن شيبان الأُبُلّة إلى الحبر أبي يعقوب: أمّا بعد، فإنّ كتابك قد ورد مشتملا على ماهية العقل وحقيقته. وقد ألفيتُه وافيًا بمقصدك غيرَ وافٍ بمقصدي، ولَسْتُ مِمَّنْ مُنِعَ عن الدُّرّ بالصَّدَفِ واقتنى علوما لم يُؤمَر بها شرعًا، فاستغرقت فيها همّته حتّى زلّت به قَدمُ الغرور في مهواةٍ من التّلفِ. وكلّ ما تذروه رياح الموت فالهمّة تقتضي تركه. وقد استشهدتَّ بالحديث في النّظر في تغيير الأسباب والترّقي منها إلى مُتسببها، فالأمرُ كما ذكرتَ، لكن ليست أسبابا: هي ظُلُمات ثلاث، بل هي أسباب نورانية يُستدلّ على متنورها بمعرفة النّفس. وهو مقام محمود، هو مقام المقرَّبين الّذين يُمزج من شرابهم الصرف لأصحاب اليمين. فالمقرّب من عرف نفسه موحّدا ربّه. وها هنا نظر لا يسلم إلاّ لمن سلم من رعونات البشرية والحظوظ النّفسانية، ويمكن الارتفاع إلى من عرف ربّه موحّدا لنفسه وقد منّ الله سبحانه بعلوم جليلة ربّانيّة محمّديّة يعضدها الشرع ويشهد لها العقل السّليم الجامع بين الأصل والفرع

كالجمع والافتراق وخرق السبع الطّباق وحقيقة البرزخين وما اشتملت عليه أرحام الأنثيين والتّرقّي من الأين إلى حيثُ لا أين، وكيفية الأرواح والأشباح وسكون الليل وانفلاق الصّباح واختلاف الألسن والأصوات ومنطق كلّ شيء وعجائب الآيات إلى غير ذلك ممّا لم يُلْفَ قطُّ مسطّرًا. وقد اضمحلّ الوجود وبطل دعواه وبرز المكنون على كلّ شيء، كلاّ بل هو الله وأعرب بلسان ناطق فصيح غمزا أو رمزا.(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْتَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا):

بَلْ لَوْ تَــرَانَا وَالأَحِــبَّةُ بَيْـنَــنَا لَرَأَيْتَ غِـزْلاَنًا تَصِيدُ سِبَـاعا

بَلْ لَوْتَرَى تِلْكَ الْبِقَاعَ وَحُسْنَهَا لَظَلَلْتَ بِالْحُسْنِ الْبَدِيعِ مُرَاعا

شَوْقِي طِبَاعٌ وَاصْطِبَــارِيَ كُلْفَةٌ وَ أَرَى التَّكَلُّفَ لاَيُزِيلُ طِـبَاعا

وكثيرا ما يشير إلى كتب حرام الوقوف لمطالعتها والوقوف عليها عقلا وشرعا، ولنا في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسوة حسنة: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّٰهَ، وكفى

بهذا جمعا والحنيفية السمحة قد أشرقَ سِرَاجها وغمر نورُها وقهر سلطانها كل أشوس عاتي القلب ليس له تحقيق أهل الأصول ولا ترقيق أهل الوصول الهمج الرعاع الّذين هم لكل ناعق أتباع قد أوثق الغيُّ عقولهم فهم في ريبهم يتردّدون. آفتي معرفتي، أرى الشرّ من ذوي النّباهة قريب، وكأنّي بسيّدي يقول: شبّ عمرو عن الطوق وما أحوجه في حقيقة الشرع وحالة التّصوّف إلى شيء من الذّوق. وأعلم أنّه لا تظهر حالة حسنة إلاّ بملازمة أصل صحيح، فإن كنت ممّن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وأناب إلى الله بقلب سليم فها أنا أقبّل قدميك فتتبّع لما يوحى إليك، وإلاّ فاطْوِ عَنِّي طومار[1] الهذيان ولا تقعقع لي: يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَال سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. ولما استبان الصبح أَدْرَجَ ضوؤُه بأنواره أنوارَ الكواكب، أشرق في الليل نور بهجته ولاح حتى طفأت المصباح (من بحر البسيط):

مَازِلْتُ أُنْكِرُ أَيَّــامِي وَأَعْرِفُهَا　　مَتَى اسْتَبَانَتْ فَلاَ بِيضٌ وَلاَ سُودُ

وَجَائِلٍ فِي بِحَارِالْكَشْفِ مُخْتَبِطًا　　لاَ الْقُرْبُ قُرْبٌ وَلاَ الإِبْعَادُ تَبْعِيدُ

جعلنا الله وإيّاكم من الموحّدين المتّبعين ولا جعلنا من الملحدين المبتدعين. وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وصحبه].

ولمّا تُوُفّي أبو علي سنة 610 هـ/1213م، قال الشيخ أبو يوسف يعقوب الدهماني: نُوحي! أخلَى الدّيار، وأيتم الصّغار، ولا بدّ أن آخذ بثأر أخي أبي عليّ النفطي ! فذكر أن ابن النخيليّ[2] سقاه السمّ، فكان من ابن النخيلي ما كان قبل موت الشيخ [أبي يوسف] رضي الله عنه.

أخبار الطريقة: هناك من يسمّي هذه الطريقة العلوية، وهناك من يسمّيها العيلاوية وعرفت لدى البعض بالبوعلية، ويرى "ديبون" و"كوبولاني[3]" أن الطريقة فرع من القادرية

1 طومار:صحيفة. ومعنى الكلام: دعني من الهذيان واطوِ هذه الصفحة.
2 يتضح من هذه الرواية أن قاتل أبي علي النفطي هو ابن النخيلي بالطريقة المذكورة.
3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 354.

كما يرى البعض أنها فرع من الطريقة السنوسية[1]، وزاويتها الأم بنفطة، ولها عدّة زوايا منتشرة بالبلاد التونسية بالحاضرة تونس وتوزر وقابس وصفاقس والقيروان والكاف، كما لها عدّة زوايا بالقطر الجزائري، ففي قسنطينة وحدها يعدّ "كوبولاني" و"ديبون" أربع زوايا بستّة مقدّمين وأكثر من ثلاثمائة تابع، كما يوجد فرع أساسي في خنشلة (بين باتنة وتبسّة) كان يديره في عهد كوبولاني المقدم عمّار بوخشم، وتوجد زاوية بعنابة ومِسْكْيَانة وقالمة ووادي الشرف والسافية وبسكرة والواد، الكلّ بالجزائر.

ويقوم شيخ الزاوية العلوية بالجريد بزيارة سنوية لكل الزوايا العلوية الموجودة بالقطر التونسي والقطر الجزائري لجمع (الخميرة) أو (الصرّة) كما يسمّيها البعض، وتتمثل في أموال أو حبوب أو متاع وبضائع أو غنم وحيوانات أو غير ذلك. وطبعا فإن مقدّمي هذه الزوايا يكونون قد جمعوا ذلك من قبل، فتركوا بعضه لزاويتهم وقدّموا الباقي لشيخ الجريد. والشيخ حسب الظاهر يصرف منه على المدرسة والزردات والوافدين على الزاوية.

أصول الطريقة: يقول الصادق الرزقي: "والناس رغما عن اعتقادهم الكامل في علوّ درجة صاحبها وارتفاع مقامه في الصلاح تراهم راغبين عنها غير مقبلين عليها زاهدين في التمسّك بعهدها خصوصا الطبقة العليا والوسطى بالحاضرة، فالمتمسّكون بعهدها الآن أكثرهم من الطبقة السُّفلى ورعاع القوم، أمّا أعمال القائمين بها فلا تخلومن مبالغات وشعوذة واعتقادات ربما كان احتمال صحّتها صعبا على العقل، منها التحدّث مع الجنّ وتسخيرهم للأعمال البشرية، والتحدّث مع الروحانيين، والإخبار بالمغيبات على سبيل الحدس والتخمين[2]". وليس للطريقة أحزاب.

ولعل عدم تمسّك الطبقات العليا والوسطى بالحاضرة أو من حذا حذوهم بهذه الطريقة، هو الذي ترك الدارس يتوقف عند أعمال أتباعها، ونسبتها إلى هذا الشيخ، إذ

1 الطريقة السنوسية هي فرع من الطريقة الخادرية أسسها سنة 1250هـ/1835م الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المجاهري المولود سنة 1206هـ/1791م، بدائرة مستغانم بالجزائر، وبعد طول ترحال وتجوال وتصادم مع السلطة العلمية غادر زاويته بأبي قبيس بمكة المكرمة وقصد الجبل الأخضر بليبيا وأسّس زاوية هناك، ثم انتقل إلى سيوة بالجغبوب وتوفي بها سنة1859م، والطريقة السنوسية قليلة بتونس، ولكنها منتشرة في ليبيا بواحات المنشية والساحل وبغدامس ومازدة ومازرسان ومصراتة.[وآخر ملوك ليبيا (إدريس السنوسي الّذي أطاح بملكه ثورة الفاتح من سبتمبر بقيادة معمر القذافي) ينتمي إليها] كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 544 و219.

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 152، وبالهامش.

أنه رغم صلاحه ومقامه الرفيع لم يتمسك بالانتماء إليه سوى الطبقات الدّنيا، لذلك ليس من الغريب أن تجد في أعمال القائمين بهذه الطريقة ما يتنافى مع السنّة التي كان الشيخ داعية لها.

ويظهر أن الطريقة تأسّست بعد الشيخ أبي علي بقرون، ففي معالم الإيمان للدّباغ تُروى اتصالات وزيارات للشيخ أبي علي مع أبي يوسف يعقوب الدهماني[1]، ورغم حضور الشيخ الدهماني حلقات السماع وصدور ما يجلب الاستغراب منه، لم يرو عن أبي علي شيء من ذلك، ومؤاخذة أبي يعقوب الطُّرّي وإنكاره على أبي عليّ صوفيته حتّى بعث إليه بالرسالة الشهيرة لا يقدح فيما قلنا، فتلاميذ أبي مدين لم نسمع عنهم ولا عن أعقابهم من استعمل آلات في السماع، رغم اشتهاره عند بعضهم، والمهم أن الممارسات الحالية أو المنقولة في (الأغاني) للصادق الرزقي لا يمكن أن تكون من أفعال رجل حارب الخوارج مظهرا للسنّة في أيام الصراع المذهبي بإفريقية، بل نعتقد جازمين أن ذلك ناتج عن تراكمات عصور من الانحطاط والجهل.

وربما سمّيت الطريقة العلوية لكون الانتساب إلى وليّ ما، هو الضامن لبقائها وجلب أتباع لها سواء أسّسها الشيخ أو أُسّست باسمه، وربّما دخلت الممارسات العجيبة رويدا رويدا باسم الترفيه أو الاجتهاد في الطريقة، وعلى كلّ، فإن لها أتباعا ما زالوا إلى الآن يمارسون أعمالا غريبة لا تتماشى مع مذهب الشيخ أبي علي السنّي. ولها اثنتا عشرة زاوية[2]، منها زاوية سيدي بالعظام في نهج الحجامين بالباب الجديد من تونس العاصمة. كما لها زاوية بمدينة صفاقس لها شأن كبير وتقوم بزيارة سنويّة لمقام سيدي عامر المزوغي، وسنذكر ذلك عند الحديث عن الطريقة العوامرية.

ويضارع هذه الطريقة طريقة سيدي عبد الملك السني[3] (السنانية) في "ماونة" بالقطر الجزائري وسيدي المزهود وأحمد ميعاد بنفطة، وأحمد الغوث بتوزر، وسيدي سالم التبّاسي بجهة "طبربة"، وقد كان له أربعة عشر ولدا وزّعهم على كامل البلاد التونسية.

---

1 الدباغ، معالم الإيمان، ج3.
2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 218.
3 عن الشيخ علي بوقرة شيخ الطريقة العلوية بتونس الحاضرة.

والطريقة العلوية[1] هي مجموعة أمداح بها (حضرة) وبها (ثلمود) يقوم به "الحزامية" وهو من اختصاصهم. والكلّ ينسب إلى أبي علي النفطي، والفرقة القائمة بالحضرة أو بالثلمود تسمى (فُقرة سيدي بوعلي)، والاختصاص يسمّى (مهنة)، فيقال: (الطريقة علوية والمهنة الثلمود) أو (الطريقة علوية والمهنة الحضرة).

ويروى لسيدي أبي علي كتاب يضمّ 120 مدحة، والظاهر أنّها منحولة ووضعها الأتباع، وإن كان يقول الشعر هو نفسه، ولكن الفارق واضح بين لغة العصرين.

أما الصادق الرزقي فيقول: "أمّا ترنماتهم وإيقاعاتهم فهي ضرب من الخلط وخبط لا تُفهم أحضرية هي أم بدوية، وربما فهم منها أحيانا ذكر لاإله إلا الله، أو اسم النبيء صلى الله عليه وسلّم، أو اسم شيخهم.

والوظيفة عندهم كلام قصير فيه تصليات وترضيات ودعوات يؤدّون قراءتها بلحن فادح من حيث الاعرابُ، ثم يقرؤون الفاتحة ويشرعون في المديح على قرع الدفوف والقندي بصفة مزعجة [وهو عبارة عن وزن شبيه بالبرول المعروف في المالوف(على غاية من السرعة)]وفي أثناء ذلك يهب واحد أو أكثر صائحا بصفة غريبة فيأتي بحركات كبيرة في الرقص والتمطّط، ثم إذا أتموا النوبة يشرع المتخمّر في التكلّم عن الغيب بلسان الجنّيّة التي في رأسه، ومن الغريب أنّ الجانّ الذّكر لا يسكن برؤوسهم، وربما قلّد كلاما أظهر فيه نفسه صغيرا في السادسة أو السابعة من عمره. وهؤلاء يربون شعورهم حتى تصير طويلة ويعبّرون عنها بالشُّوشة فيسدلونها أثناء الرقص، ويعتقد العامّة أن الراقصين يغيبون عن الإحساس والأمور الدنيوية[2]."

وللطريقة رتب وأشغال، ولا نقصد به الوظيفة مجموعة الأدعية التي تختصّ بها كل طريقة عن غيرها:

1- الشيخ الذي يعطي العهد وله النظر في شؤون الزاوية ويسمّى(شيخ السجّادة). ويجب أن يكون من "الحزامية" وهو الّذي يعطي الأذكار والأوراد وخدمة تسخير الجان وهو الّذي يقود المجموعة بأكملها.

1 بحث ميداني قام به الأستاذ حسين الحاج يوسف في اتصال بجماعة الحزامية في مارس 2001.
2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 153.

2 - شيخ العمل الذي يقود فرقة المدّاحين:

- الردّداة: وهم جماعة المريدين.

- الطبّالة: وهم العازفون على آلات الإيقاع ويقدمهم باش طبّال، الّذين يحفظون القصائد والأطراق ويخدمون الميعاد يوم الجمعة.

- الشطّاحة : وهم الذين يرقصون أثناء المديح.

- العدّادة : وهم الّذين يجمعون الخميرة في العاشوراء بدون طبالة.

- ومنهم الشباشيب : وهم نساء وأطفال يجمعون الأعطيات من الأحواش لأنهم يمكنهم دخول المنازل.

3 - الأتباع والمريدون : يهتمّون ويطوفون بالأحباب ويقفون معهم ويرافقونهم.

4 - الأحباب : هم ضيوف الفرقة الّذين يأتون من خارج نفطة.

5- الزيّار : يكونون من الطلبة الجوّالة[1] وأبناء السبيل يأتون إلى نفطة لقراءة القرآن الكريم فتتكفّل الزاوية بمأكلهم ومشربهم ومسكنهم.

وللطريقة عدّة مواعيد منها:

الميعاد الأسبوعي: كل يوم جمعة (في توزر) وتقع فيه التخميرة على وزن المربع التونسي. وقد تدخل الحضرة امرأة مجذوبة بدون وعي منها، بالرغم من الجوّ الرّجالي.

الخميسية: هي حضرة تقام بمناسبة تداول نوبة ماء الري من سواقي ابن شباط التي يقع تركيبها يوم الخميس بعد العصر، فيتجمّع النّاس قرب مقام الولي الصالح سيدي نُصير أي قبل الوصول إلى مقام الشيخ أبي علي، فيجتمع الناس هناك ويأخذون طريقهم بالذّكر إلى مقام الشيخ أبي علي:

بِاسْمِكْ يَا لَطِيفْ * مِنْ غِيرْ تَكْلِيفْ * وَعْلَيَّة النَّفْطِي

1 الطالب الجوّال هو شاب نذر نفسه لطلب العلم فكلما سمع بشيخ سافر إليه دون التفكير في زاد أو مأوى، فهو يأوي إلى مثل الزاوية العلوية فيجد القبول والغذاء والعلم. وصادفني أن تعرفت على بعضهم في آخر أيامه، فكانوا على حالة عجيبة.

فترد الجماعة:

اللّه اللّه اللّه حَيْ

ثم يتقدّم أربعة أو خمسة من العدّداة (أي المغنين) فيهزّون الشيلة[1] (أي يشرعون في الغناء) :

(فِي هَا الشّيَاحْ * نُوصِلْ شَيْخِي * وِنْزُورِ الْمَقَامْ عَ الأوّلْ مَا كَانْ مُنْكُرْ * خْلاَصْ دِينْ غْلاَ لِي)

هذه الشيلة (المدحة) يعطونها جريدة[2] (بيت أو بيتين) على آخرها، وعندما تنتهي يشرع الوزّانة بالبنادر بضرب سخون[3] في الأطراق الحامية، ويتخدّر الناس فهنالك من يُصرع على (الطّرْق)[4]

الأول وهنالك من يتباطأ فيُعاد له (طَرْق) آخر. وتستمرّ هذه العادة كامل الصيف.

الدورة: ويظهر أنها ليست الجولة التي يقوم بها شيخ الزاوية بالجريد للزوايا البعيدة، بل هي الجولة التي تجمع فيها الصدقات والتبرعات من المحبين للطريقة والمنتمين إليها، وتقع في أوّل الربيع في حدود الزاوية، فيقوم بها العدادة (المنشدون) لحزب سيدي أبي علي، فيجولون على الأحواش (المنازل)، ويجمعون (الخميرة) من قمح وشعير وتمر وسميد، ويبلغونها إلى الحزامية (الّذين لهم الشلمود)، وهم يتكفلون بترتيبها كطحن ما يطحن وخزن ما يخزن إلى يوم عيد الفطر، فيلتقي النّاس بسوق الربع بنفطة حيث يجدون (أهل الشلمود) الّذين يعملون (الأطراق) وصلات الغناء، وعندما يجتمع النّاس ينحدرون إلى منطقة الحزامية في علقمة (حي بنفطة موضع سكنى طائفة الحزامية ومقر زاويتهم)، وعندما يصلون يوزّع على كل تلك الجموع خبزة خبزة من تلك الخميرة للبركة. كما وظّفوا على كل من يتزوج في سنته الأولى رفع أموال أو تمر أو قمح أو سميد للزاوية

1 الشيلة (اسم المرّة من شال يشيل) أي رفع، وهو نوع من التقاف شيء قبل السقوط أو رفع شيء عن الأرض، وهي كذلك النجدة، وهي هنا كما هو مبين غناء مخصوص.

2 الجريدة في الأصل هي سعف النخل حيث له جانب أيسر وأيمن وبيت الشِّعْر ذي المصراعين هو مثل الجريدة . والجريدة في الشعر هي (الدور) أي القطعة المتركبة من أشطار تختم بمكب ترجع قافيته إلى نفس قافية الطالع وهو ما يسمّى أيضا البيت . (انظر محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر 1967، ص 87.). ويقال (تجريدة : أي طائفة من الكلام "تيرادة Tirade".

3 الضرب السخون: الإيقاع السريع والحاد.

4 الطرق (بالقاف البدوية (gu)) هو المدحة الغنائية.

فيتقاسمون الأموال كأجر لهم، ويخزنون الطعام إلى وقت الحاجة لإطعام الزوّار. وكان للزاوية أحباس تنتفع بريعها.

زردة[1] سيدي مزهود بنفطة: وتسمّى (دخلة) سيدي مزهود وتأتيها كل الفرق الصوفية وبالخصوص الفرق العلوية والحزامية وبنقة سيدي مرزوق والسنية (نسبة إلى سيدي عبد الملك السنّي من ماونة قرب عنابة بالجزائر)، والحفوظية (نسبة إلى سيدي عبد الحفيظ بن محمد وهي فرع من الرحمانية)، والتهامية والقوادرية والسلامية، فينحدر الجميع إلى سيدي مزهود وتبدأ الدخلة من سوق الربع بعد صلاة العصر.

في ليلة 27 رمضان: تنزل كل الفرق إلى مقام الشيخ أبي علي للقيام بحزب هناك، فتقع تلاوة البردة والهمزية في مقام سيدي سالم، ثم ينزل القرّاء والمؤدّبون بمقام سيدي أبي علي فيختمون القرآن الكريم، وبعد الختم تنطلق كل فرقة أو طريقة إلى محلّها لإكمال ذكر ليلة القدر بدون آلات، ويبقون هكذا إلى الصباح، ويعيدونها بقية الليالي إلى صباح العيد فيقومون بما أسلفنا ذكره. والآن أصبحت هذه العادة رسمية وتحضرها السلطة.

في الأعياد: كل الطّرق الموجود بكامل الجريد (توزر، دقاش، الحامّة، الوديان، كريز."المحاسن") تقبل على نفطة في عيد الأضحى، فيعملون الدخلة ويلتقون في وسط المدينة، ومنه ينحدرون إلى مقام سيدي أبي علي فيبيتون هناك. وفي السهرة يقام ثلمود وحضرة.

في غرّة أكتوبر من كل سنة تقوم فرق نفطة بزيارة للولي الصالح سيدي بوهلال في مدينة كريز (محاسن) التي تبعد 36 كلم عن نفطة. وهكذا يتبادلون الزيارات.

طريقة العمل: يستعمل البوعلية من الآلات الدفّ (البندير) والقندي [ولعله سمي بذلك تشبيها له بحيوان القنذي المعروف بتلك الجهات] أو القندوة ويسمى في الجريد

---

1 الزردة (كلمة تركية) وهي في الأصل الوليمة، ولكنها اتخذت شكل المهرجان الذي قد يدوم أياما تعرض فيه العروض التجارية كالأسواق والفرجوية كالمهرجانات، ويتلبس بشكل طرقي طقوسي حول أحد الأولياء، ويقع فيه ذبائح وإطعام. ومنه بالجمهورية عدّة زردات منها زردة سيدي المرزوق هذه وزردة سيدي مزهود وزردة سيدي علي بن عون وزردة سيدي علي بن نصر الله وغيرها. وتعتبر الزردات مواسم لقاء اجتماعي وثقافي وتجاري بالنسبة لسكان البادية وسكان الأرياف الجبلية بالخصوص، وقد يضفون عليه نوعا من القداسة، باعتبار انتمائه لأحد الأولياء الصالحين.

(تنفورة) وهو طبل صغير من الفخار كالهرم مجلد من قاعدته التي هي بين 53 و40 صنتيمتر وينقر عليه بعصوين صغيرتين أثناء المديح ويظهر أنّ هاتين العصوين من شجر التين مقوستين يقع تقويسهما منذ طراوة عودهما. وللطريقة أعلام وسناجق كالطرق الأخرى وخرجة شبيهة بخرجة القادرية والعيساوية.

ويشير "كوبولاني" إلى أنّ البوعلية (خدام سيدي بوعلي) يمارسون مثل الرفاعية ما يدهش المتفرج بممارساتهم الهستيرية فيرتمون مثل الرفاعية في اللهب وقد يحرقون أبدانهم بالمشاعل الموقودة[1].

أما وظيفتهم فكما ذكرنها آنفا نقلا عن الصادق الرزقي فهي كلمات قصيرة وتصليات وترضيات على بعض الصحابة، وأدعية يؤدّونها بكثير من اللحن[2]، ثم يقرؤون الفاتحة ويشرعون في المديح على نقر الدفوف والقندي بسرعة البراول، فإذا أتمّوا النّوبة يشرع المتخمّر في الكلام عن الغيب بدعوى أن الجنّية التي في رأسه هي التي تقول.

وهي طريقة ذات ترنيمات وإيقاعات حادّة، وعند انتهاء النوبة يشرع المتخمّرون في التكلّم بالغيب على لسان الجنّية، ويتخمّرون حتّى يظن المتفرج أنهم يغيبون عن الإحساس والأمور الدنيوية.

يقول الشيخ بوڤرة: تكون البداية بترحيبات إيقاعية على وزن البرول، ولهذه الطريقة سبع نوبات وسبع مدحات[3]، وأقرب طريقة لها من حيث العمل الطريقة العيساوية نسبة لسيدي محمد ابن عيسى، والعوامرية نسبة لسيدي عامر المزوغي. وتختصّ الطريقة بالتخميسات الإيقاعية وتسمّى عندهم "المْشَكّل" وهي مستعملة أيضا عند العوامرية. غيرأننا بعد البحث تبيّن لنا أنه إن كان العدد (7) صحيحا مع النوبات فإنه ليس كذلك مع المدحات، كما لاحظنا من خلال التساجيل أن الفرق شاسع في تونس العاصمة بين البوعلية (العلوية) والعيساوية في طريقة العمل، لا من حيث الأوزان ولا من

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 159.
2 اللحن هو الخطأ في اللغة العربية الفصحى نحوا أوصرفا.
3 قام الشيخ علي بوڤرّة بتسجيلها مع فرقته بالمعهد الوطني للموسيقى والرقص سنة 1984 ؛ كما سجّلها في الخمسينات قبل الاستقلال بالإذاعة الوطنية عن طريق الأستاذ المرحوم عبد الحميد بن علجية وقد نقلوها إلى فرنسا.

حيث الآلات. ويقول الشيخ بوقرة: إذا دخل علينا أثناء الإنشاد شطّاح عوامري نغنّي له نوبتين: النوبة الأولى:

(نِمْشِي زَايِرْ مْعَ الزّيَارْ * بَابَا عَامِرْ * إِنْ شَا الله يْكُونِ مْعَانَا)

و النوبة الثانية:

كَـرّايْ وْعَامِرْ   بَاغِي نِمْشِي له

وِنْزُورْ مْقَـامُه   نِبرَى فِي لِيـلَة

ومما تمّ تسجيله بالحاضرة عن الشيخ علي بوقرّة سنة 1984م مجموعة مدحات علوية (بوعلية) فينطلق الجماعة بارتجالات على القندوة كالترحيب، ثم يشرعون في مجموعة الأمداح منها :

1 - اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدْ * الأَمْجَدْ بَابَا بُو فَاطِمَة

2 - لاَحِقْنِي الضِّيمْ

3 - بِاسْـــمِ اللهِ نِبْـدَا * نُنْظُمْ فِي الأَشْعَارْ

عَارِي عْلَى سِيدِي الْغَالِي* بُو عَلِي النَّـــغَّارْ.

4 - يَا رَبِّ يَا اللِّي خْلَقْتِ الأَقْطَابْ.

5 - يَا بُو عَلِي السُّنِّي يَاسُلْطَانِي.

6 - شَيْخِي فِي نَفْطَة نَغَّارْ * بُوعَلِي مَاكِ السُّلْطَانْ !

7 - سُلْطَانْ نَفْطَة.

8 - يَا بُو عَلِي يَا فَارِسِ اللَّجْمِيَّة * مَانِي وْلِيدِكْ مَا تْخَلِّي بِيَّا !

9 - دْخِيلِي بِنْ عَدْنَانِي .

10 - تذكير بأولياء الجريد .

11 - سَمِّيتْ فِي الْكَلاَمْ نْجَدِّدْ .

12- نِبْدَا فِي الْكَلاَمْ نْقَادِي .

13 - صَلِّيوْا عْلِيهْ حَتَّى يَرْضَى .

14 - صَلَّى الله عَلَى الْبَشِيرْ * صَاحِبِ الْوَجْهِ الْمُنِيرْ

15 - يَا الْمَاشِي سَلِّمْ عَلَى نَفْطَة .

16 - يَا عْلَيَّة * نَا نَرْجَاكْ طُلَّ عْلَيَّ * رَانِي وْلِيدِكْ مَا تْخَلِّي بِيَّا !

أمّا النوبات العلوية فهي سبع كما قال الشيخ بوقرّة وهي:

1 - مَوْلَى نَفْطَة الشَّرِيفْ

2 - يَا رَاقْدِ النُّومْ

3 - رَانِي نْنَادِي بِيكْ

4 - طَلِّيتْ مِنْ مَرْقَبْ عَالِي * صِبْتْ رْجَالِي

5 - مَا زالْ بَابَا عْلَيَّة

6 - عْلَيّة مُولَى الْمَقَامِ الزِّينْ

7 - بِالله يَا الْمَاشِي تِرْبَحْ .

ويُختم عمل البوعلية في تونس بقطع (مدحات) في نوع العجمي كعمل أولاد سيدي مرزوق الشوشان: بَابَا عْلَـيَّة صَلُّوا عْلَى مُحَمَّدْ يِشْفَعْ فِيَّا

آه آه يَـــا بَابَا   سْلاَمْ عْلِيكْ يَابَابَا

لاَإِلَهَ إلاَّ الله   والعْمَـــالَة عْلَى الله

ومما يلاحظ في طريقة العمل العلوية بتونس أنّهم يستعملون مقام السعداوي أوالعرضاوي المرصّع كما يقول أهل الجريد السعداوي الصحراوي، ومقام المزموم يطغى عليه الطابع الجزائري (الغربي) بالإضافة إلى مقام المحير عراق والحسين. وكثيرا ما يستعملون إيقاع السعداوي 12 من 8 .

عيلاوية (بوعلية) الكاف : بقيادة الشيخ رشيد بوعلاّق شيخ زاوية العيلاوية بالكاف: في هذه الزاوية يغنّون أغاني علوية (بوعلية) ويسمونها مدحات منها:

1 - في العرضاوي : نِبْدَا بِالْكَلاَمْ

2 - في المحير عراق : الصَّلاَةُ الممجّدة

3 - في الإصبعين : دْخِيلَكْ بن العدناني

4 - في العرضاوي : الله دَايِمْ رَبِّي

5 - في العرضاوي : لاَإِلَهَ إِلاَّ الله وِرْدُ الْمُؤْمِنِين

ويستعملون مع آلاتهم الزكرة مثل قابس.

علوية(بوعلية) القيروان: بقيادة الشيخ عبد الحميد كركود، هؤلاء يُنشدون على غرار العوامرية والعيساوية في الأوزان والنوبات، فيبدؤون بالبطايحي عيساوي أوعوامري ويُنهون العمل بالدرّازي ؛ مثال ذلك: نوبة الأصبعين: (يَا دْخِيلْ بِنْ عَدْنَانِي) وتنتهي بدرازي (مَرْحَبًا بِكُمْ يَازِيَارْ).

مدحة ثانية : تبدأ باستخبار على الزكرة في مقام ولهجة وإيقاع السعداوي :

سِيدِي احْمِدْ مِيعَادْ نَغْرَة يَا مُولَى الزَّاوِيَة

شَيْخِي يَا صـــدَّادْ مُولَى الطُّبُولِ الدَّاوِيَة

عَارِي عْلَى مِيعَادْ

ولها مجموعة من الأبيات في نفس اللحن.

علوية(بوعلية) قابس: من خاصيتهم أنهم يستعملون الزكرة في أمداحهم، وهذا نموذج من سهرة بمقام أبي لبابة الأنصاري سنة2002م :

المدحة الأولى: تنطلق بعروبي في لهجة العرضاوي :

صْلاَةِ النَّبِي طِـــــيبْ فِي طِيبْ صْلاَةِ النَّبِي طِيــبْ صَـــافي

صْلاَةِالنَّبِي كْمَا الْمِسْكْ فِي الْجِيبْ   وْيُظْـهَرْ مَنْ كَـــانْ خَــافِي

و تنطلق الأبيات بدون إيقاع في البيت الأول في مقام العرضاوي :

دَمْعِي سَكِــيبْ   والنّارُ فِي أَكْبَادِي

يَاشَمْسَ الْمَغِيبْ   سَلِّمْ عَلَى الْهَــادِي

ثم ينطلق الإيقاع مع البيت الثاني في المربع التونسي وبدون زكرة.

المدحة الثانية: تكون بالزكرة في لهجة العرضاوي على إيقاع السعداوي، فتنطلق أولا باستخبار على الزكرة، وعند الشروع في المدحة :

يَا الْمَاشِي خُذِ الثَّنِيَّة   وَسَلِّمْ لِي عْلَى بَابَا عْلَيّة

فيؤدّي هذا المذهب (الطالع) بدون إيقاع ولا زكرة، ثم يأتي البيت الثاني فتنطلق معه جميع الآلات وتصبح وصلة كاملة : ففي وزن البورجيلة :

يَا الْمَاشِي خُذِ الطَّـرِيقَة   وَادْخُلْ غَرْضَــــكْ بِالْحَقِيــــقَة

يَا الْمَاشِي خَذِ التَّـابُوتَة   سَلّمْ لِي عْلَى عْلَيَّةْ وْخُوتَه (إخوته)

وبين البيت والبيت يقوم الزكار بارتجالات على آلة الزكرة في المقام الأصلي والمقامات المجاورة له فيبرز مدى تحكّمه في آلته ومدى إلمامه بالمقامات وهي نفس العادة التي نجدها لدى العيساوية والعوامرية ويسمّونها (السروح).

وتنتهي هذه المدحة بخرجة في نفس الإيقاع مع سرعة طفيفة :

هِيه...هِيه...هيه   يَا بَابَا عْلَــيَّة

هِيه...هِيه...هيه   عَجَّلْ بِالْجَيَّة

ويقع أثناء ذلك رقص مفرط ربّما يخرج عن المألوف. وللجماعة العديد من المدحات الأخرى.

الحزامية فرع عن الطريقة البوعلية[1]

يتفرّع عن الطريقة البوعلية عدّة فروع تمثّل وحدة متميّزة، لذلك تظهر في شكل فرق مستقلّة والحال أنّها كلها تنحدر من البوعلية وتنادي بـ"سيدي بوعلي". من هذه الفرق: الطائفة الحزامية التي هي فرع من الطريقة البوعلية نسبة إلى أولاد حزام.

الشيخ المؤسس: أسس هذه الطريقة الفرع الشيخ تارزي بن حزام، وشيخ الزاوية الحزامية هو الشيخ محمد سكندر.

يُقال أن الشيخ أبا علي النفطي حارب الإباضية[2] وركّز السنّة بنفطة ونصره الحزامية وأيّدوه وصاروا من أتباعه، فكأنهم حزامه، أي عندما ينادي الشيخ أبو علي: "يا حزامي!!" كناية عن عزمه على أمر يجيبه هؤلاء، فهم بمثابه حزامه الذي يحزم به الأمر.

---

1 بحث وقع القيام به في عطلة الربيع يوم 24 و25 مارس 2001م على عين المكان.

2 "الإباضية: إحدى الفرق التي تنسب إلى الخوارج.. تنسب إلى صاحبها عبد الله بن إباض ظهرت في مطلع القرن الثاني للهجرة بإفريقية (تونس) في عهد هشام بن عبد الملك الذي التزم بسياسة الشدّة في مطاردة الخوارج والشيعة. وأوّل داعية إباضي قدم فارّا من ملاحقيه إلى إفريقة (تونس) هو سلمة بن سعد.. فاختار الطرق الجبلية البعيدة عن الصحراء وعن السواحل وتمركز بجبال نفوسة ونفزاوة الآهلة بالبربر.. والتف حوله الناس من سكان تلك النواحي نقمة على جور الولاة والحكام العرب، والتفّوا حوله مستجيبين لدعوته حتّى أضحوا يمثّلون قوّة ضاربة، وعلى يدهم تأسست الدولة الرستمية على طريق الشاب الإباضي عبد الرحمان بن رستم بتاهرت بعد انهيار الدولة الإباضية بطرابلس. وكانت أغلب البلاد التونسية في الجنوب والوسط تابعة لهذه الإمامة الإباضية وكان عمال الدولة الرستمية يقيمون أحكام الله في تلك البلاد نيابة عنها، واستمرّت كذلك إلى أن تغلّبت الدولة الشيعية فخربت تاهرت وانقرضت سلطتها. (عبد العزيز المجدوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر.1395 /1975 تونس، ص104).

وخلافا لما يروج بين الناس، يقول الشيخ التابعي[1] إن الحزّامية أصلهم من أحواز قابس وليسوا من نفطة، والحزامية هم أولاد عمر سكندر[2] الذي لا ينتسب بحال إلى الإسكندرية.

والحزامية لم يقدموا مع الشيخ أبي علي السنّي، فهذه الطائفة قدمت إلى نفطة قبله بقرنين. لكنّنا نلاحظ أن الشيخ التابعي يذكر سنة الأخماس (555 للهجرة) وهي السنة التي فتح عبد المؤمن

ابن علي الكومي الموحّدي فيها تونس، وهي ليست الوقعة التي حضرها أبو علي النفطي، وأبو يوسف الدهماني التي ذكرناها آنفا وهي سنة 599 هـ فلا غرابة والحزامية متمركزون بالمكان قبل أبي عليّ أن ينصروه في معركته ضدّ الإباضية وكل الخوارج الّذين كانوا في حرب مع الدولة الصنهاجية بالمهدية: مع المعز بن باديس ثم ابنه تميم بن المعز ثم ولده يحي ثم ولده علي وأخيرا ولده الحسن آخر ملوك الصنهاجيين، ثم جاء عبد المؤمن بن علي سنة الأخماس وقيل قبلها بسنة.

أخبار الطريقة: أتى بطريقة الحزامية سيدي سالم بن علي وسيدي الطاهر ذَهَبْ وهو من الطواهرية، فهذان هما اللذان كوّنا هذه الطريقة وأعطيا بعض عملها اسم (الثلمود) ولها زاويتان قريبتان من بعضهما زاوية منهما كانت مدرسة ويقصدها بالخصوص الطلبة الجوّالة. والزوايا التابعة للحزامية بنفطة هي: زاوية علقمة وهي التي ينشطون بها إلى الآن، وزاوية سيدي إبراهيم وزاوية سيدي المزهود.

أصول الطريقة: يعدّ أولاد حزام أصحاب الترجمة والثلمود والعدّة. وأهل الجريد يفرّقون بين (الحضرة) و(الثلمود) بدقّة فائقة.

فالحضرة: تتكوّن من ستّة إلى ثمانية أنفار وتقدّم فيها أغان وأمداح، فنصف الجماعة يزرعون (أي ينشدون) والبقية يردّدون (ردّادة).

---

1 هو الشيخ التابعي بن صالح بن الحاج عبد الرحمان معيزة من مواليد 1929م، درس بجامع الزيتونة وتحصّل منه على شهادة العالمية، وهو الآن شيخ زاوية سيدي بوعلي السنّي بنفطة وإمام مسجدها وشيخ القرّاء بها.

2 ذكره كوبولاني وجعله شيخ الزاوية الأساسية بنفطة وهي الزاوية المدفون بها الشيخ أبو علي، ومن كلامه يظهر أن الشيخ عامر السكندري معاصر لكوبولاني فنحن إذن في حدود 1890م ولعلّ عامرا هذا أحدُ أبناء الشيخ عمر السكندر، وهذا ربما يذهب بنا إلى القول بحداثة العمل الحزامي.(كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص355.)

والثلمود[1]: يتكوّن من خمسة عشر إلى عشرين نفرا ونجد فيه (العدّداة) الّذين يحملون العدّة: فيغنّون الأطراق، والطبّالة: الذين ينقرون على البنادر والتنقورة، والشُّوّاش: الّذين يهتمّون بالترتيبات، والشطّاحة: الراقصون.

والثلمود هو كلّ مكوّنات السهرة من عدّة وترجمة وأطراق، ويضاف إلى آلاته الزكرة بجانب التنقورة والبنادر. فيكون وصلة غنائية تبتدئ بالعدّة المذكورة أعلاه، ثم الترجمة ثم (الأطراق) الحامية والتخميرة وجلب الجاوي من الكانون أو المبخرة أو أي شيء، وعمل الكوشة (وهي الكانون الكبير المليء بأقباس النار الحامية) فيرقص به أحدهم وتتساقط جماره على الأرض فمنهم من يأكلها ومنهم من يدوسها حافي القدمين، وقد يتعرّى من ثيابه ويمرّر على جسمه العاري جريدة مشتعلة.

فالعدّة: نوع من الغناء وهو مجموعة (أطراق) جمع: (طَرْق) بقاف بدوية "gu" وهي المدحة. وهذه العدّة هي أسلوب في التأليف الموسيقي. فهناك العدّة الرحّالي وتقدّم وقوفا. أمّا عدّة الثلمود فتؤدّى جلوسا وتبتدئ بالصلاة على النبيء وتنتهي كذلك بالصلاة على النبيء.

والترجمة: قد لا تعني هذه الكلمة شيئا مما نفهم من كلمة "الترجمة" وهي نقل كلام من لغة إلى أخرى، وإنما ترجع فقط للاستعمال العامّي للكلمة يترجم عليّ: بمعنى يقول كلاما لا أفهمه أو أقوى من طاقتي، كما يقال أيضا لمن يقول كلاما كثيرا كالمنفجر غيظا. وهكذا يقال: بير يترجم بالماء أي به ماءٌ كثير، والترجمة في الطريقة الحزامية هي حوار بين اثنين بلغات مختلفة كالتركي والعجمي والسرياني (حسب زعمهم أو ادّعائهم)، وتتخلل هذا الحوار مشاهد تمثيلية تمتاز بمشادّة كلامية بلهجة غير مفهومة كأن الممثلين في حالة خصام وينتهي الحوار بالعناق ثم تتلوه مدحة، وتتخللها أبيات تؤدّى بدون إيقاع على نوع العروبي في لهجة السعداوي.

الطرق: وجمعه "أطراق"[2] هو الوصلة الغنائية أو الطريق في الغناء الشعبي أو

1 الثلمود بالثاء الثلاثية، وهي كلمة غريبة نوعا ما، فالتلمود المعروف هو كتاب شريعة اليهود، ومعناه الأصلي(الدراسة) وتسمية هذا العمل الفني بهذا الاسم مما يثير الاستغراب.

2 محمد الطاهر اللطيفي، الشعر الشعبي التونسي، شعر وشعراء، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس 2004، ص54 : "الطَّرق: جمعه "أطراق" هو التغنّي ببيت أو بيتين من الشعر بارتفاع تدريجي للصوت إلى انتهاء مساحته مع انثناءات وتموّجات في النبرات ترتفع وتنخفض لزيادة التطريب بحسب ما يوجد في الساحة من ألحان متداولة، ونحن نجد هذا النوع من الغناء في الذكر الصوفي وفي الأشعار المصاغة على وزن العروبي أو الصالحي وغيره".

الموقف. والطرق الحامي هو السريع الإيقاع مثل الغربي أو الخمّاري فيرقصون عليه من الحزامية جماعة بالكوشة وهو كانون أو مبخرة تعجّ ببخور أو بدونه، فيقومون بما ذكرنا أعلاه.

طريقة العمل: يقال إن الطريقة البوعلية لم تكن فيها آلة (التنفورة) من قبل، ويقال إنّه لحدّ الآن يوجد بعض الشيوخ والعجائز لا يحبّذون هذه الآلة لحدّة صوتها الّذي يمنعهم من سماع المديح والكلام كما ينبغي، ويقولون إن أتباع الطريقة البوعلية قلّدوا طريقة السنّية في القرع على هذه الآلة.

ومن أمداحهم:

مدحة: (موالِي الشَّبَاشِيبْ * اللِّي يَعْرْفُوا خَصْلاَتَه)

مدحة: (عَاشْقَة مَغْرُومَة * سَابْ لْهُمْ حَدْ * فِي سَاكْنِ الْقَرْجُومَة)

مدحة: (يَا سَاكْنِ الْقَرْجُومَة)

مدحة: (وَحْشِكْ جَانِي * بَابَا سُلْطَانِي)

تخميرة: سَمِّيتْ وآمِنْتْ بِالله * وْكُثْرِ الصّلاَ عْلَى نْبِينَا

طَرْق سُلْطَاني (تخميرة): يا عَالِي الأَقْدَارْ

مدحة:

نَادِيت عَ الأجْــوَادْ   يَا احْبَابْ رَبِّي غِيثُوني

سِيدِي احْمِدْ مِيعَادْ   يَاشَيْخْ يَـاضَوَّ عْيُـوني

الثلمود: يبدأ عمل الثلمود بالصلاة على النبي بطرق:

فتقول المجموعة الأولى:

صَــلاَةَ اللهْ عْلِيكْ أَلْفْ مَرَّة   حَبِيـــبِي رَسُـــــــولِ الله

يَا شارِقْ الأَنْوَارْ يَابِنْ عَبْدَالله   صَـــــلَّى اللهْ عْلِيــــــكْ

فتقول المجموعة الثانية:

صَلُّوا عَلَى الْعُــرَابِي الْهَاشْمِي بِنْ حْلِيمَه

فتردّ المجموعة الأولى:

صَــلاَةَ اللهْ عْلِيكْ أَلْفْ مَرَّة حَبِيــبِي رَسُــــــولِ الله

يَا شارِقْ الأَنْوَارْ يَابِنْ عَبْدَالله صَلَّى اللهْ عْلِيــــــــكْ

فيكون الطرق هكذا جرائد جرائد (أي أبياتا أبياتا).

أنموذج من الترجمة: يخرج إثنان إلى الركح أحدهما مقدّم الطريقة نفسه وهو الّذي يسأل والثاني: يمثل دور السرياني أو العجمي أو السوداني، وينطلق المشهد مثلا:

في الفصيح:

سؤال: باش داخل سوق السلطان ؟ (السلطان هو سيدي بوعلي)

جواب: داخل بسم الله، والحمد لله، ونشتكي بتركي بخمرة السلطنة (وأحيانا يضيف)

والله يحب المتوكّلين.

باش تشتكي في ديوان السلطنة ؟

ـــــ اشتكي بخمرة أبي علي السلطان. ادفع سؤال تاخذ جواب ولكل سؤال مقال.

ـــــ أين شباشيب سلطنة ؟

ـــــ هاهم حاضرين في محل الديوان، كل حد يشتكي بما التغط اللسان.

ـــــ باش يرزم طبال الباي؟

ـــــ يروّح بصلاة النبي نقّة نقّة، يدخل بحور عميق، يخلخل عقله

ويرعب جسمه ويفرج على قلب مهموم مغموم بهيلات ليه.

ـــــ زناد يقدح من زناد؟ (الكلام يلقح من السائل والمجيب يجيب على السليقة)

ـــــ اللّهُمَّ عمّر الأشباح بطاعة الله ورسوله إذا وفقت الله.

ـــــ الدور على من؟

ـــــ ندوّر على الكعبة المحمدية نفعنا الله وإياكم ببركاته.

ـــــ كابِس حزام دُكْمَنْ؟ (مشدود جيّدا)

ـــــ عامر بصلاة النبي متوكل على الله.

ـــــ باش تاتي كرارط الباي؟

ـــــ تاتي الذهب كتار كتار، ترفع ڤاصيص مقصوص (أي كل ما يحمل من لغة وكلام) باذن شباشيب بَـيْلاَرْ (أي كل واحد وماذا يقول) خدّام السلطان.

ـــــ تاتي كرارط الباي بعسكر حجدر؟

ـــــ كل حد في هواه. تفضل رواتب على الشبّان تورق ڤرام خِيوَه سْوَى بما التَغَطْ اللسان يجْبَدْ الهوا.

*في نوع المْشَكَّلْ أي غير الفصيح:

ـــــ باش ينال المشتَرَى ؟ (المشترى هو المجذوب)

ـــــ ينال بخدمة وطاعات وبنية واعتقاد في الله ولرجال الله الصالحين (ينال بالذكر والصلاة والعبادة فهذا الذي ينال به ويصل إلى سيدي بوعلي النفطي . وهناك من يقول:) يِمْشِي بْقُبقاب من ذهب. ذهب كتار كتار. يِمشِي خطوة خطوة. كل خطوة بذكر وألف ذكر.

*في نوع العجمي:

ـــــ خِدْمتِكْ مَا يُرِيدَا (ma yourida) ؟

ـــــ بالعمل الصالح يريد ما يحبه.

ـــــ باش طبال رْوَى (roi) ؟

ـــــ طبال الباي بِرْزِق يُهدَى (youhda) (أي يرنّ بنقّة هادئة تدخل مباشرة في العقل)

* في نوع السرياني:

ـــــ باش تسير بخدمتك سيرالّي بيه ؟

ـــــ ينال بِخِدْمِةٌ تسير بَرَاكَات يُكتَسى سرّ بِهِ (أي ينال بها هيلات أبي علي السلطان وأسراره)

ـــــ بِحَقٌّ تَعْتَنِيَانِ بِهِ ؟ (بأي شيء تعتني به)

ـــــ حَقًّا تَعْتني بِأورَادًا وذِكْرًا وهيلاتٌ مُشْتَرَى

*في نوع السوداني:

ـــــ (المقدم يسأل بالسوداني) آي (Aïe) ديواني عجم سوداني سلياني خديمًا لكُمْ بِكُم؟

ـــــ (الرد بالسرياني) أكسننـق ساسيون استداري بما (Axining sasioun Astadari bima) (أنا حاضر في ديوان الهيلات بترتيب).

ـــــ باش يِكْسِنْ صائِينْ طَا صَا يُورِي دَا ؟ (أي بماذا أنت داخل إلى هذا الديوان؟).

ـــــ بِحُقٌّ يُرْتَصَادُرْ نَا فِيدَا (navida) بِهيلات يُرتجا لقَدْرِ الباي (داخل باسم الله والحمد لله).

ومما لا يخفى أن هذا الكلام لا ينتمي إلى أي لغة من اللغات المذكورة. وقد فسّر لنا ذلك مقدم الفرقة السيد الطيب بن محمد بن الطيب جراح من مواليد 8 مارس 1962، ويقول إنه أخذ الطريقة من الّذين سبقوه[1].

وعند انتهاء الترجمة تأتي مجموعة من الأطراق، فتكون البداية بأطراق من نوع الحر، وهي الّتي تتغنّى بالشيخ أبي علي، ثمّ تأتي الأطراق العجمي: السوداني والسرياني وسيدي

1 بحث ميداني على عين المكان قام به حسين الحاج يوسف بتاريخ 26 مارس 2001.

مرزوق، وينوّعون أطراقا أخرى منها التباسي والسناني على حدّ قول المقدم. وتأتي بعد ذلك أطراق عجمي سخون يتخمّرون عليها ويرقصون، وتكون النهاية بِشيلة (اللّه اللّه اللّه) بالبندير، ثمّ يقع دعاء: (اللّهُمَّ اعف عنّا واسترنا إلخ ...) ثمّ يقرؤون فاتحة الكتاب.

ومن أمداحهم:

(1) مولى نفطة الشريف، (2) سيدي علية ياساكن القرجومة، (3) يَا مَاشِي سَلِّمْ عْلَى نفطة، (4) من هو مغروم ياخذ منّي المعاني، (5) الله لاإله إلا الله وافي خصلاته.

وجلّ هذه الأمداح في لهجتي السعداوي والعرضاوي.

أولاد سيدي مرزوق الشوشان: نسبة إلى سيدي مرزوق العجمي دفين نفطة، ويقال إنّه كان في خدمة الشيخ أبي علي إلى حين وفاته، وله زاوية هي مقر فرقة (البنقة) ومقدمها أحمد مادي القطعاعة.

يستعمل أتباعه من الآلات (تنڤورة) وطبلة تنقر بعصا مقوّسة (يقع تقويسها في شجرة تين وهي يانعة فتشتد على ذلك الشكل)، والبنادر وشكشاكة (وهي الشقاشق أي الصنوج التي تمسك في الكف)، وتسمى أطراقهم بالأطراق العجمية، وأكثر إيقاعات هذه الطريقة السطنبالي ومن أمداحها: (بَابَا عْلِيَّه)،

و(بَابَا مَرْزُوق)،

و(بِيبِي يابِيبِي * يَابِيبِي السلام عْلِيكْ)،

و(بَابَا مَرْزُوق * حَدَّرْ لِلسُّوق * جَابْ قْضَيَّه مَغْلُوق)،

أو (بَابَا عْلَيَّة خَلَّصْ وَخِلِي)،

أو (بَابَا مَنْصُورْ * ونْجِيكِ نْزُورْ).

طريقة العمل: هناك من يلحق هذه الطريقة بالطريقة البوعلية، وهناك من يخرجها إلى الطرق الزنجية. وعلى كلّ فإنّه في شهر أوت من كل سنة تقام زردة في نفطة تتجمّع بها كلّ أتباع سيدي مرزوق من كامل الجمهورية، ويقولون أنهم يواصلون هذه الطريقة ويعلمونها لأولادهم.

تفوق مجموعة المدّاحين (المغنين) العشرة أنفار ولهم شاوش يرقص ويجلب الجاوي بطريقة شعوذية، وتسمّى الأغنية عندهم (مدّاحة)، وعندهم الطرق (الحامي) أي الوزن الساخن الخاص بالتخميرة. وكل راقص يتخمّر على (الطّرْق) الخاص به. فتعزف الفرقة (طَرْق) لكلّ متخمّر. ويقولون: (كيف يدوخ يتسرّح) أي عندما يغيب عن الوجود يذهب همّه وينشرح.

بحر عجمي (طَرْق مرزوقي) :

والصَّـلاَةَ عْلَى النّـــبِي   مُحَمّدْ يَا رَسُولَ اللهِ
صَلَّى اللهْ عْلِيكْ وْسَلَّمْ   يَــا خَيْرَ خَلْقِ اللهِ



الطريقة السنّية «السنانية»

نسبة إلى الشيخ عبد الملك السنّي

الشيخ المؤسس: في بحث ميداني أجري مع رئيس الفرقة السنّية بتوزر السيد مبروك بو جناح صرّح لنا: أن الطريقة السنّية تنسب إلى الشيخ عبد الملك بن إبراهيم الأدهم السنّي الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر ميلادي (أي حوالي 1220) أي في الفترة التي ظهر فيها أبوعلي النفطي تقريبا، وأصله من المغرب الأقصى وهو مدفون في (ماونة) قرب مدينة عنابة بالشمال الشرقي الجزائري.

أخبار الطريقة: صرح لنا رئيس الفرقة الباش شاوش الآن في الزاوية الكبيرة بتوزر وهو السيد مبروك بو جناح المولود في 19 ماي 1966م، أنّ أصل الطريقة جزائرية من عنّابة وقد اشتهرت بالجزائر والمغرب وتونس، وبلغت العراق في كربلاء وكردستان العراق واليمن.

وللطريقة عدّة زوايا بالجنوب الغربي التونسي أهمها توزر، وتسمى زاوية سيدي عبد السلام وهو من سلالة الشيخ عبد الملك، وهي الزاوية النشيطة برئاسة السيد مبروك بوجناح، وكذلك زوايا بالمحاسن (كريز) ودقّاش وأولاد ماجد وسدادة حيث يوجد ضريح الشيخ أبي علي النفطي، ويقوم أفرادها سنويا بزيارة لحامّة الجريد وبقيّة الزوايا. ولهم في كلّ عام (زردتان) الأولى بعنّابة والثانية بتبسّة في الوسط الشرقي الجزائري على الحدود التونسية.

ويروى أن أحدا من سلالة الشيخ عبد الملك اسمه سيدي الأخضر ابن سيدي المبروك له عدّة كرامات وكان يزور باستمرار مريدي الطريقة بنفطة، فوقع تأليف مدحات تبرز خصاله وما قام به من أعمال لفائدة الطريقة، وعدّة قصائد تروي دخوله إلى نفطة. وتُلقى هذه القصائد بدار أحمد العلوي وهو من أكابر نفطة.

من هذه المدحات:

جَاء وْمَا جَــانَاشْ يَــاالْمَبْرُوكْ قَالُوا رَوَّحْ بِالزَّادْ مَا اخْبَرْنَاشْ

مْنِينْ جَــانَا الْبَشَّارْ يَــاالْمَبْرُوكْ قَالِ الْمَبْرُوكْ رَاهُو فِي الأنْقَــارْ

خَرْجِتْ نْسَاءوِرْجَالْ حِينِ اللِّي مْشِينَا رَاهُــو رَوَّحْ مَا لْقِيتَاشْ

من أصول الطريقة: لهذه الطريقة ما يناهز السبعين قصيدة، أمّا آلاتها ففي الجزائر: قُصبة وبنادر بدون تنفورة، وفي تونس: بنادرو تنفورة بدون قُصبة.

طريقة العمل: هناك طريقة عمل في الزوايا والمواسم الدينية كالحج والمولد وليلة 27 رمضان وغيرها فينطلقون بـ:

1) قصائد توحيدية: أي قصائد في توحيد الله تعالى والصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومدح الشيخ عبد الملك السنّي، فيقرعون التنفورة والبنادر ويشرعون في المدحة الأولى:

لاَ إِلَــــــهَ إِلاَّ الله وَاحِدْ لاَ شَرِيــكَ لَهْ

صَلُّوا عْلَى رَسُولِ اللهْ عَيْنِ الرَّحْمَة بْنُورِالله

وأخرى من تأليف المختار بن عبد الرحمان:

ا الله ا الله ا الله سُبْحَــانُه دَايِمْ بَـاقِي

صَلُّواعَلَى أَحْمَدْ مُحَمَّدْ سَيِّــدْ أَسْــيَادِي إلخ...

وبها قرابة العشرين بيتا تنتهي كما يلي:

اِغْفِرْ لِي يَا رَحْمَانْ لِيَّ وِ لأُمِّــي وَ أبِـي

اسْــمُه الْمُخْتَـارْ   يِشْعِرْ عْلَى جِمْلِةْ أَسْيَادِي

الحضرة: تنشد الفرقة ثلاث أو أربع مدحات:

1) مدحات: وهي قصائد في تمجيد الله ورسوله ومدح بعض الأولياء مصحوبة بالنقر على البنادر والتنقورة، فيستفتحون بـ :

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيء   زِيدُوا صَلُّوا عَلَى النَّبِيء

2) العدّة: وهي مجموعة مدحات بدون آلات إيقاع، وتقع مثل ما عند الحزامية، وتختلف عنها في الكلمات وفي الألحان.

3) الترجمة: للباش شاوش دور كبير فيها، فهو القادر على الكلام بالفصيح أي المفهوم، وبالتركي أي غير المفهوم ويعرف تفسيره، وهو الّذي يُرقص بقية الشطّاحة، ويقوم بالترجمة على طريقة سؤال وجواب، فالباش شاوش يسأل والآخر يجيب سواء بالفصيح أو التركي الذي يشمل عندهم كل اللغات غير المفهومة.

4) العمّاري: هو الرقص الجدّابي، وهو رقص الجذبة، وهو نوع من الإيقاعات الراقصة جدّا، ونسبتها إلى عمّار يجعلنا نرجعها إلى الطريقة العمّارية، فحسب قول السيد مبروك بوجناح: الطريقة العمّارية هي من السنّية، وهذا الرقص شبيه بما في الطريقة العمّارية رقص بدون غناء.

5) العجمي: نوع من المدحات العجمي المنسوبة إلى أولاد سيدي مرزوق الحرّ. يقال أن سيدي مرزوق الحر عمل مع سيدي عبد الملك السنّي.

والرقص عندهم يُسمّى (الجذب) فيقع فيه رقص مفرط، ويعدّ تعبيرا عن محبّتهم للشيخ. وتؤدّي الفرقة عملها بالبنادر كالثلمود الّذي أدخلوا فيه التنقورة وفي الطريقة عموما.



الطريقة الشاذلية

نسبة إلى سيدي أبي الحسن علي الشاذلي المتوفى سنة 656 هـ /1258م

الشيخ المؤسس: هو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن علي أبي بطالة بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس بن عمار بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وُلد بقرية "غمارة" القريبة من مدينة "سبتة" بالمغرب الأقصى حوالي 593هـ(1196 - 97م)[1]. درس ببلاده العلوم الدينية وسائلَ وغاياتٍ، وبرع فيها براعة كاملة، لكن نفسه تاقت إلى إتمام العلوم الباطنية، وألحّت عليه الرغبة، فسافر إلى بغداد والتقى بعلمائها، وكان قمّتهم في نظره هو أبو الفتح الواسطي، فاجتمع به وأخذ ما عنده، ولكنه لم يجد طِلبته لديه. وذات يوم قال له أحد الأولياء: "إنك تبحث عن القطب بالعراق مع أن القطب ببلادك ارجع لبلادك تجده" وعاد أبوالحسن إلى بلاده "غمارة" وعلم أن القطب الذي كان يسأل عنه يسكن برابطة (أي رباط) في رأس جبل "العلم"، قرب "تطوان" فقصده. ولما بلغ الجبل وجد به عينا فاغتسل وتزيي بزي الفقراء، فإذا بالأستاذ نازل وعليه مرقعته يخاطبه كأنه عن سابق معرفة. هذا الشيخ هو عبد السلام بن مشيش الصوفي الشهير والغوث الرباني وريث الشيخ أبي مدين شعيب

1 محمد مخلوف يجعل هذه الولادة سنة 571 هجرية، شجرة النور الزكية، ص:186.

الأنصاري[1]. وصحب أبو الحسن أستاذه الجليل يغرف من مناهله ويتأدب بروحه، وعندما انتهت مدّة الإقامة المقرّرة قال له الأستاذ: "يا علي! ارتحل إلى إفريقية (تونس)، واسكن بها بلدا تسمى "شاذلة" (وهي المرناقية حاليا)، فإنّ الله يسمّيك "الشّاذلي" وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويُؤتى عليك بها من قِبَل السلطنة، وبعدها تنتقل إلى أرض المشرق وبها ترث القطابة[2]".

ثم سافر أبو الحسن إلى جبل زغوان، وقد وطّن نفسه أن يكون في محيط "شاذلة" لا في المدينة نفسها، وصحبه أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي فعاشا عيشة مجاهدة يقتاتان من نبات الأرض وأعشابها، وبلغ منهما الجهد مبلغا عظيما حتّى رغب صاحبه في النزول إلى القرية والاستطعام بدل الحشائش، وصادف ذلك انتهاء المدّة اللازمة لهذه الرياضة فجاءه الإذن بالسفر إلى تونس، فقصدها واتّصل فيمن اتّصل بهم بالشيخ أبي سعيد الباجي وهو على طريقة أبي مدين شعيب، فلازم مجلسه وطريقه.

والتفّ حول أبي الحسن جماعة من الفضلاء من بينهم أبو العزائم ماضي بن سلطان المسروقي[3] تلميذه وخادمه المتوفّى سنة 718 هـ وقبره بالزلاّج.

واشتهر أبو الحسن وكثر مريدوه، فأثار ذلك حسد القاضي ابن البراء الّذي خاف أن يُغلب على منصبه من هذا الفقيه الشهير ظنّا منه أنّ أبا الحسن طالب دنيا، فانتهز فرصة انتساب الشيخ إلى الشرفاء ودسّ له لدى السلطان أبي زكرياء الحفصي[4]، حتّى جمعه هذا

---

1 بلغ عبد السلام بن مشيش بداية القرن السابع للهجرة وعاش في جبل العلم الذي أصبح فيما بعد جبل مولاي عبدالسلام وهو جبل موجود بالظهرية الممتدّة من تطوان إلى وادي الكوس.[ويظهر أنه اتصل بالشيخ أبي مدين شعيب وأخذ عنه دون أن يكون شيخه الوحيد، ويتوقّع أنه أخذ عنه الطريقة المدنية التي أورثها لتلميذه أبي الحسن الشاذلي] والشيخ عبد السلام من سلالة العائلة المالكة الشرفاء الأدارسة الّذين التجأ بعضهم إلى هذه النواحي عند سقوط دولة الأدارسة وظهور الفاطميين، وبهذا المعنى فهو يمثل القومية البربرية. ووقع اغتياله سنة 625 هـ، على يد أحد دعاة الدجّال أبو الطواجن؛ وأصبح مقامه مزارا لسكان جبالة والجهة الغربية للريف المغربي. ترك الشيخ عبد السلام طريقته لتلميذه الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتباعه من بني عروس الذين ورثوا الشرف الديني دون السلطة الوراثية، فلم يكن لهم تأثير ظاهر على أجوارهم، ولم يكن بينهم وبين السلطان مشاحنات فهم معفون من الضرائب، لذلك فهم في سلام مع كل الأجوار إلاّ مع الأخماس الّذين يعتبرون أنفسهم طلبة سيدي عبد السلام بن مشيش ويمتلكون التقدمة التقليدية على الزاوية. (كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 444).

2 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988، ص 25.

3 المسروقي نسبة إلى "المسروقين" وهي قرية سيدي الهاني حاليا بين سوسة والقيروان.

4 هو أبو زكرياء يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص مؤسس الدولة الحفصية بتونس سنة 626هـ/ 1229م وله عدّة مآثر بها. وتوفي سنة 647 هـ /1249م عن سن 49 سنة.

الأخير بكوكبة من العلماء والفقهاء للمناظرة بقصره، فبزّهم الشّيخ وقهرهم، لكن السلطان أمسكه حبيسا، فطلب أبوالحسن وَضوءًا وقام للصلاة وابتهل، وصادف في تلك اللحظة أن اشتكت محظية الأمير وجعا لم يلبث معها إلاّ لحظات وفارقت الدنيا، فاغتم الأمير غمّا شديدا، وفي اضطراب المصيبة اشتعل حريق بالقصر. وفزع أبو عبد الله محمد اللحياني أخ الملك أبي زكرياء للنجدة، وكان محبّا لأبي الحسن، فلما وجده محبوسًا في القصر لام أخاه على حبسه وتدخّل وخلّصه من محنته، فأمر السلطان بإطلاق سراحه وإرجاعه إلى مكانه مكرّما.

ثم عزم أبو الحسن على الحجّ فأمر أصحابه، بالنقلة إلى المشرق قبل الأوان بمدّة، لأنه نوى المكوث بمصر لفترة، لكن الوشاية من ابن البراء سبقته إلى السلطان، فما وصل إلى الإسكندرية إلا وقد أحيط به وبأصحابه، فبقي فيها أياما حبيس الإسكندرية، حتّى جاءت قبائل رأت فيه شيخا مهيبا فرجت منه أن يشفع لها لدى السلطان في طرح بعض الضرائب. فخرج أبو الحسن رغم العسس من الإسكندرية إلى القاهرة واتّصل بالسلطان، ولكنّ السلطان هزئ به وأعلمه بوشاية ابن البراء، وأنه مطلوب القبض عليه، فأشار بيده إلى السلطان والتفت للخروج فشلّت أعضاء الملك، وهناك فهموا أنه بريء وعلى بركة، فانكبّوا عليه يرجون منه أن يفكّ السلطان مما نزل به ففعل، واستجاب السلطان لشفاعته وطرح تلك الضرائب عن تلك القبائل.

وأتمّ الشيخ حجّه ثم رجع إلى تونس، فازدادت فتنة ابن البراء، وواصل مضايقته حتّى اضطرّ إلى الرجوع إلى مصر.

في هذه الأيام قدم إلى تونس الشاب أبو العباس المرسي[1] واستقر مجاورا لمقام

---

1 وُلد أبوالعباس أحمد المرسي سنة 616 هـ/1219م. بمرسية من بلاد الأندلس. تعلّم القرآن وتفقه في الدين. قال:(كنت وأنا صبي عند المؤدب جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال: الصوفي لا يسوّد بياضا. فقلت: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسوّد الصحائف بسواد الذنوب). ولما بلغ عمل في التجارة مع والده. وفي عام 640 هـ/1242م سافر إلى الحج ومعه أبواه وأخوه، فغرقت المركب في شاطئ بونة (عنابة) تجاه الجزائر ولم ينج إلا المرسي وأخوه محمد، فسافرا إلى تونس واستقرا بها واتجه محمد إلى التجارة، أما أحمد فاتخذ من زاوية الفقيه محرز بن خلف مكانا للتدريس. وسمع بذكر أبي الحسن الشاذلي فقصده ولازمه ورافقه في السفر إلى الحج وإلى الديار المصرية، ولما كان الشيخ أبوالحسن بحميثرة خلا بأبي العباس وأوصاه بأشياء واختصّه بما اختصّه الله به من البركات، وقال لأصحابه: إذا أنا متّ فعليكم بأبي العباس المرسي فإنّه الخليفة من بعدي. ولما قضي جهزه وصلّى عليه ودفنه تلميذه أبو العباس وواصل طريقه إلى الحج متّبعا وصية شيخه. أقام أبو العباس المرسي في الإسكندرية 43 سنة ينشر العلم ويهذّب النفوس بالقدوة الصالحة، وتوفي في 25 ذي القعدة سنة 685 هـ ودفن في الإسكندرية بمقبرة باب البحر.

الشيخ محرز بن خلف، فلمّا سمع بالشيخ أبي الحسن اجتمع به ولازمه إلى آخر عمره وخلفه في طريقته.

وجاء الإذن من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام بالانتقال إلى مصر: "يا علي! انتقل إلى الديار المصرية تُربّي فيها أربعين صديقا[1]." فسافر الشيخ إلى مصر، وسكن بأحد أبراج السور بالإسكندرية أوقفه السلطان عليه وعلى ذرّيته من بعده، وتزوّج هنالك وولد له أولاد منهم شهاب الدين أحمد وأبو الحسن علي ومحمد شرف الدين وبنت هي السيدة زينب وأختها عريفة الخير، وزالت المحن.

ويظهر أنّ أبا الحسن كان على صلة تامة بأصحابه في تونس، ويروى أنه رجع إليهم وسكن دارا داخل باب الجديد ببطحاء الشعرية، وذلك بسبب وفاة أبي زكرياء الحفصي سنة 647 هـ/ 1246 م ومبايعة ابنه المستنصر وعمره لم يتجاوز 22 سنة، فكان الحل والعقد بيد عمّه محمد اللحياني.

إلاّ أنّ ثورة شبّت بين جند المستنصر وأنصار عمّه اللحياني سنة 648هـ/ 1250م. قتل فيها الجند ابن العم ووالده محمد اللحياني الذي خلّص الشيخ الشاذلي من يد ابن البراء والملك أبي زكرياء، فرجع الشيخ أبو الحسن إلى مصر بعد فقد السند.

وزالت المحن بالنسبة إلى أبي الحسن في شخصه، لكن الإسلام ممتحن في بلاده، فقد حمل لويس التاسع ملك فرنسا حملة شعواء على مصر، واحتل دمياط وهو يحاول التوغّل في البلاد، والملك الظاهر بيبرس لا يغمض له جفن وهو يهيء الجيوش، ويستعدّ للمواجهة دفاعا عن حوزة الوطن والدين.

ونادى نداء واجب الجهاد فخرج أبو الحسن، رغم كفاف بصره، لملاقاة العدو في معركة المنصورة، وكانت المعركة الفاصلة الحاسمة، وأنزل الله كتائب نصره، وبشّر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حبيبه أبا الحسن في المنام بانفراج الغمّة وانتصار الأمة.

واستمر الشيخ يدعو إلى الله عزّ وجلّ، وينشر طريقته في الآفاق، إلى أن كان شهر شوّال من سنة 656 هـ [1258م] أخذ في السفر إلى الأراضي المقدّسة للحج، فلمّا كان في"حميثرة" من صحراء "عيذاب" وهي بين "قنا" و"القصير" جمع الشيخ أصحابه في إحدى

---

1 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988، ص 39.

الأمسيات وأوصاهم بأشياء، وأوصاهم بحزب البحر وقال لهم: "حفّظوه لأولادكم فإنّ فيه اسم الله الأعظم"[1]. ثم خلا بأبي العباس المرسي رضي الله عنه وأوصاه بأشياء واختصّه بما خصّه الله به من بركات. ثم وجّه الحديث لأصحابه قائلا: "إذا أنا متّ فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنّه الخليفة من بعدي، وسيكون له بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى"[2]. وبات ليلته ذاكرا متوجها إلى الله فلمّا كان السحر أسلم الروح لخالقها، فلم يورّث الطريقة لأحد أولاده وإنّما ورّثها لصاحبه أبي العباس المرسي لما رآه فيه من أهلية لذلك، فالوراثة في هذه الأمور لا تكون بالنسب، وإنما بالاستعداد الروحي والاجتهاد في السلوك والانضباط لتعاليم الطريقة. رحم الله الجميع برحمته الواسعة.

وقام أبو العباس بتجهيز صاحبه وأستاذه وبعد ذلك أتمّ حجّه ورجع مستوطنا الإسكندرية التي خرج منها. ولعلّه من هنا، كما يقع دائما في كلّ الطرق الصوفية، دخلت سنّة الإجازة والتوصية بالخلافة، ونورد هنا نص إجازة شاذلية كما وردت بلغتها الأصلية ونقلها "كوبولاني" و"ديبون" هكذا[3]:

الحمـــــد لله وحـــــــده   والصلاة والسلام على من سبح في كفه الحجر

إلى حضرة من يقف على خطنا هذا وينظره ويقرأه بلسانه وعين قلبه ويتأمّل في معناه ويحصر مجراه وهو أنّ ولدنا الشافي وقرّة عيننا الكافي سيدي محمد بن سيدي الطاهر أصلا وفصلا أنّنا أذنّاه يعطي طريقتنا الشاذلية بعدما لقّنته الاسم الأعظم، إذنا صريحا للكبير والصغير من الذكر والأنثى حرّا وعبدا. كما أذن لنا شيخنا في ذلك بإذنٍ من الله ورسوله ولو كنت لست أهلا لذلك، فنرجوه يكون عينا من عيوننا وأصلا من أصولنا نسبا واحتسابا، فمن تعلّق به تعلّق بنا ومن واصله واصلنا ومن أخذ عنه أخذ عنّا ومن حارمه فقد حارمنا[4]، ومن وقف في باب طريقتنا ودخل فيها يوما أو يومين فله سعادة الدّارين كما قال إمامنا الشاذلي رضي الله عنه، ويبشّر أيضا بحياة قلبه

1 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، ص 41.
2 المرجع السابق، ص 42.
3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 450.
4 لعل الأصل فيها (حاربنا) فحارم من المشاركة في الحرم ولعله الجوار.

واستِوْطانه[1] في وطنه وهو (عالم قُلْ) لأنها طريقة حيّة تسمع وترا[2] وتتحرّك، وهي الناشية من العوامل الداخلة عليها. والله ما دخلت على صميم أحد إلاّ هزّت عالمه ودكّت وجوده بإبداء موجوده[3] وعتق رقبته من النار بعد فتقه من رتقه والخروج من غفلاته. ومن أراد أن يجرّب فليجرّب، وفي التجريب علم الحقائق[4] ومن بدّل أو غيّر في قوله، المعيارُ أمامه، فالله حسيبه وحسبه وهو وليّ الانتقام، نعم الوَكيل، والسلام منّا بدءا واختتام(ا) على من هو منّا وإلينا في غيبه وشهادته. صحّ من كاتبه وراقمه رقيق جنابه وخادم إخوانه وأحبابه أبي القاسم بن الحاج اسعيد القرفي نسبا الشاذلي طريقة، أخذت الذّكر والاسم وكنت مأذونا فيهما ونمكنه لمن كان أهلا له بحول الله من شيخنا سيدي الحاج محمد بن خليفة وهو عن مشايخه من شيخ إلى شيخ إلى سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى سيدنا جبريل عن سيدنا رب العالمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. عام 1296[هجريا الموافق لـ 1878 - 79م].

وتختم هذه الإجازة بطابع مستدير مكتوب على دائرته بالعربية "سيدي بالقاسم بن الحاج اسعيد الشيخ الطرقة الشدولية"، وبوسطه بالفرنسية (Sidi Belcacem; ben Saïd) وهوالشيخ أبو القاسم بن سعيد بوقشّابية مقدم زاوية "أدوغ" وغاباتها بسفح جبل الشعابة بالجزائر.

ومما يذكر من أخلاق أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنّه كان يأمر بالاعتدال ولا ينتقد زي الفقراء ولكنه لا يتورّع عن لبس اللّيّن من اللّباس ما دام من المحسنين، كما لم يكن يتعمّد أكل الغليظ من الطعام ما دام شاكرا، وكان يركب الفاره من الجياد، ومن كلامه في ذلك: "لا تُسْرِف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، أو تنحلّ أعضاؤك لها، فترجع لمعانقتها، بعد الخروج منها بالهمّة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة [5].

وكان رحمه الله، يحاول إلفات نظر الناس إلى أيام المواسم الروحية وأيام الحفلات

1 هكذا في الأصل دون قلب والصواب (استيطانه).
2 وترا بالمد والأصل بالقصر (وتُرى).
3 طبعا المقصود (موجده) اسم الفاعل وهو الله تعالى، وجريه وراء السجعة جعله يسقط في هذا الخطإ كما أخطأ في (ترا).
4 من هنا ومن غيره يفهم التفكير العلمي والمنهجي للطريقة ولعلّ هذا مما جعلها رائجة أكثر لدى المثقفين.
5 عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية.

الدينية حتى تبقى حيّة في نفوسهم يحيونها بالذكر والعبادة ويحتفلون بها بأنواع الصدقات، فكان يركب فيها وتمشي أكابر الفقراء بين يديه وتنشر الأعلام على رأسه، وتُضرب الكاسات[1] بين يديه، فكان يهزّ النّاس بذلك ويدعوهم إلى الخالق في ذلك الجو البهيج. وكان يقول: "ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنّخالة، ولا برقيقة الصناعة وإنما بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية كما قال تعالى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}[2]. يقول ابن عطاء الله الإسكندري: "وكان الشيخ يكره المريد المتعطّل ويكره أن يسأل تابعُه النّاس وقد كان جوّادا بما يملك، كريما يكره البخل، ويحثّ على طَرْقِ الأسباب[3] " وكان يعمل في الزراعة ويتّخذ لها الوسائل الكافية، ويربّي الثيران للحراثة، فالغني الشاكر لدى الشاذلية خير من الفقير الصابر.

أما في خصوص السّماع فإن أبا الحسن الشاذلي من الّذين لا يرون حضوره على رأي أستاذه عبد السلام بن مشيش وهو عنده من اللهو. قال الإمام أبو الحسن: "استأذنني بعض الفقراء في الحضور والسّماع، فهممت بذلك، فرأيت أستاذي رضي الله عنه، وفي يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي يده اليسرى أوراق فيها مرجز[4] وهو يقول لي كالمنتهر: تعدلون عن العلوم الزّكية إلى علوم ذوي الأهواء الرّدية، فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزّون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان. لئن لم ينته الظالم ليقلبنّ الله أرضه سماء وسماءه أرضا. قال: فأخذني منه حال بوجد وأنا أقول له: نعم ! يا أستاذي، إلاّ أن النفس أرضية، والروح سماوية. فقال لي: نعم ! يا علي، إذا كانت الروح بأمطار العلوم دَارّةً، والنّفس بالأعمال الصالحة ثابتة فقد حصل الخير كله وإذا كانت النفس غالبة، والروح مغلوبةً فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر وجاء الشّرّ كلّه. فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشّافي، فلن تزال بخير ما

1 الكاسات:جمع كوس وهي آلة إيقاع من جنس الطبول.
2 عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ص 45.
3 عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ص 60.
4 المرجز كتاب فيه أرجوزات. أنظر التورية في مرجز (من الرِّجْز) وهو الإثم.

آثرتهما، وقد أصاب الشرّ من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحقّ أقبلوا عليه {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا}[1] ".

قال الإمام البوصيري صاحب البردة المباركة المولود في 608 والمتوفى سنة 695 وهو من تلاميذ أبي العباس المرسي، (من البحر الكامل):

أَمَّا الإِمَامُ الشَّاذُلِـــيُّ طَرِيقُـهُ ... فِي الْفَضْلِ وَاضِحَةٌ لِعَيْنِ الْمُهْتَدِي

فَانْقُلْ وَلَوْ قَـــدَمًا عَلَى آثَــارِهِ ... فَإِذَا فَـــعَلْتَ فَذَاكَ أَخْـذٌ بِالْيَدِ

قُطْبُ الزَّمَـانِ وَغَـــوْثُهُ وَإِمَامُهُ ... عَيْنُ الْوُجُودِ، لِسَانُ سِرِّ الْمُـوجِدِ

سَـادَ الرِّجَالَ فَقَـصَّرَتْ عَنْ شَأْوِهِ ... هِمَمُ الْمَآرِبِ لِلْعُلاَ والسُّـــؤْدَدِ

أَوَ مَـا مَرَرْتَ عَلَى مَكَـانِ ضَرِيحِهِ ... وَشَمَمْتَ رِيحَ النَّدِّ مِنْ تُـرْبٍ نَدِي

وَوَجَدْتَ تَعْظِيمًا بِقَلْبِكَ لَوْ سَرَى ... فِي جَلْمَدٍ سَجَدَ الْوَرَى لِلْجَلْمَـدِ

فَقُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا بَحْرَ النَّدَى ... الطَّـامِي وَبَحْرَ الْعِلْـمِ بَلْ وَالْمَرْشَـدِ[2]

أخبار الطريقة: الطريقة الشاذلية هي في الحقيقة طريقة المتصوّف الشهير أبي القاسم الجنيد، نقلها إلى شمال إفريقيا الصوفي الشهير أبو مدين شعيب الإشبيلي الأندلسي، ونشرها بالمغرب أبرز تلاميذه الشيخ عبد السلام بن مشيش المعاصر للسلطان عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس دولة الموحّدين وأحد أعوانه وتوسّع في نشرها تلميذه ووريثه الروحي أبو الحسن الشاذلي، ويمكن القول بأن الطقوس التي تذكر لهذا المرابط (عبد السلام بن مشيش) تؤلّف الخيط الرابط لوحدة هذه الجماهير المختلفة في جماعة دينية، فالكل يمشي تحت لوائه، ومهما يكن من أمر فإن الشيخ عبد السّلام بن مشيش قد نقل البركة إلى تلميذه الشاذلي وأبنائه أي بني عروس فأصبحوا لا يكوّنون إلا طبقة من الأرستقراطية الدينية بدون سلطة وراثية، وليس لهم تسلّط على القبائل المجاورة لمستقرّهم، فهم في الغالب أثرياء قليلو اللجاج والمزاحمة لانزوائهم ومسالمتهم وهم لا ينساقون وراء أيٍّ من اهتمامات الناس، وبصفتهم شرفاء فهم معفون من عدّة ضرائب.

---

1 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، ص117.

2 المصدر السابق، ص 72.

وزعيم هذه الطريقة الأول هو أبو مدين شعيب الإشبيلي المدني من مشايخ السلوك بالقرن السادس[1].

هذا الانزواء والمسالمة وعدم الانسياق وراء اهتمامات الناس كلّف الطريقة المحافظة على لهجتها المغربية، رغم الازدهار الّذي عرفته بمصر، واتخذها الدكتور زكي مبارك مثلا لتدعيم إحدى أفكاره في كتابة التصوف الإسلامي فقال: " وهنا مثل قريب يمكن الاستئناس به، وهو مثل نأخذه من الصوفية الّذين يعيشون في مصر، فألفاظ الأحمدية غير ألفاظ الشاذلية، وإنّما كان ذلك لأن الأحمدية طال عهدهم بصحبة الفقراء في وادي النيل، أمّا الشاذلية فألفاظهم في الأصل مغربية، ولها خصائص لا يعرفها الأحمديّون[2]."

وكانت الطريقة الشاذلية طريقة علم، فقد كان أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي لا يأخذان العهد إلا على من تبحّر في علوم الشريعة وآلاتها بحيث يقطعُ العلماءَ في مجالس المناظرة[3]. وقد كان أبو الحسن يقول: " لاَ كَبِيرَةَ عِنْدَنَا أكبر من اثنين: حبّ الدُّنيا بالإيثار، والمقام على الجهل بالرضا" لأن حبّ الدنيا أساس كلّ خطيئة، والمقام على الجهل أصل كلّ معصية[4].

واشتهرت الطريقة بالنسبة إلى أبي الحسن الشاذلي ثالث المشايخ، وصحبه أربعون من الأبرار سلكوا طريقه وأفردت مناقبهم بالتصنيف ومنها " درة الأسرار وتحفة الأبرار" لمحمد الحميري ابن الصباغ طبعت بتونس سنة 1304 هـ، وسيدي علي الحطاب هو أوّل من تعرّف على أبي الحسن الشاذلي عند قدومه من المغرب ونزوله بـــ"شاذلة" التي نسب إليها[5]، وبعده اتّصل بشيخه أبي سعيد الباجي تلميذ الشيخ أبي مدين شعيب. يقول الشيخ الشاذلي: " لما دخلت إلى تونس قصدت من فيها من المشائخ ولم أجد فيها من عرّفني بما

1 هو الشيخ أبو مدين شعيب مؤسس المدنية السابق الذكر. عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 443.

2 زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب، طبعة بيروت، ص325.

3 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988، ص 49.

4 نفس المصدر السابق، ص 50.

5 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1988. أورد النيال في الصفحة 230 من كتابه الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي:" قال الشاذلي: ثم أشار عليّ[الشيخ عبد السلام بن مشيش] بالانتقال إلى إفريقية وأسكن بلدا منها تسمّى شاذلة. فانتقلت إليها ودخلت تونس، وبينما كنت في مصلّى العيدين [وهو المصلّى الّذي أحدثه أبو زكريا الحفصي بنهج سيدي الزواوي قرب باب منارة] وجدت بها حطّابا يبيع حملا من الحطب وظهر أنه من شاذلة فحمله إليها".

أنا كنتُ في حيرة منه إلا الشيخ الصالح أبا سعيد الباجي فإنه أخبرني بحالي قبل أن أبديَه، وتكلّم على سرّي فعلمت أنّه وليّ الله ولازمتُه وانتفعت به كثيرا"[1]. وتوفّي الشيخ علي الحطاب سنة 671 هـ ودفن بزاويته المعروفة قرب المرناڨية وهي في المكان المسمّى سابقا "شاذلة". وأوّل من تعرف به في شاذلة أبو محمد عبد الله الحبيبي رفيق الرياضة الأولى وهو المتوفّى سنة 693هـ ودفن قبلة الزلاج، والشيخ أبو حفص الجسوسي الذي كان من علماء الظاهر والباطن. ومن أصحاب الشيخ أبي الحسن أبو عبد الله الغماري المدفون بالقرب من المغارة توفي سنة 663هـ، ومنهم أبو عبد الله محمد الجباس المتوفّى سنة 664 هـ ودفن غربي الزلاج، ومنهم السيدة عائشة المنوبية المتوفاة سنة 665 هـ ودفنت بروضة السيجومي خارج شرف المركاض، ومنهم أبوعبد الله محمد القرافي المتوفى سنة 666هـ والمدفون بشرف المركاض، ومنهم عبد الله الشريف المتوفى سنة 673هـ وقبره قرب باب سيدي عبد الله بسور تونس، ومنهم حسن السيجومي توفي أواخر ربيع الأول سنة 674هـ وقبره مشهور قرب سبخة السيجومي ؛ وأبو الحسن علي القرجاني المتوفى سنة 681هـ ومقبرته خارج المركاض بتونس. ومنهم من هاجر معه إلى مصر وأولهم أبو العباس المرسي، والحاج محمد القرطبي كان يسكن خارج باب الجزيرة وتربة قبره جوفي جبل الزلاج وتوفي سنة 661 هـ، وأبو الحسن البجائي ومنهم من صحبه بمصر منهم الشيخ عبد الله الأسمر، والشرف البوني، وعبد الله اللقاني وعثمان البوريجي، وأمين الدين جبريل. كما تفرّعت عن طريقته عدّة طرق كالجزولية (نسبة إلى الشيخ أبي عبد الله محمد الجزولي) والزروقية (نسبة إلى الشيخ أحمد زروق وهو تلميذ الشيخ الجزولي) واليوسفية (نسبة إلى أبي العباس أحمد بن يوسف في بني راشد من تازة بالمغرب) والغازية (نسبة إلى الشيخ أبي الحسن القاسم الغازي بوادي الذراع بالمغرب) والشيخية (نسبة إلى الشيخ عبد القادر ابن محمد من جماعة البوبكرية الوافدين على تونس في القرن الرابع عشر الميلادي ثم انتقلوا إلى المغرب) والناصرية (نسبة إلى الشيخ محمد بن ناصر الذراعي) والشابية (نسبة إلى الشيخ أحمد بن مخلوف الذراعي الشابّي) والطيّبيّة (نسبة إلى الشيخ الطيب الوزاني) والحنزلية (نسبة إلى الشيخ سعيد بن يوسف الحنزلي في بني مطير بفاس) والزيانية (نسبة إلى الشيخ الحاج محمد بن عبد الرحمان بن بوزيان بين تافيلالت وواحة الفقيق بالمغرب) والكرززية (نسبة إلى الشيخ أحمد بن

1 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، نشر وتوزيع مكتبة النجاح تونس 1965م، ص231.

موسى الحساني مولاي الكرزاز بتوات) والدرقاوية (نسبة إلى الشيخ العربي الدرقاوي) والمدنيّة (نسبة إلى الشيخ محمد حسن بن حمزة المدني) والمُكحالية (رماة البنادق بأقصى الجنوب الجزائري) والسعادية (التي هاجرت من تونس إلى ليبيا) والدسوقية (نسبة إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي) والبيومية (نسبة إلى سيدي علي البيومي) والشرنوبية (نسبة إلى الشيخ أحمد عرب الشرنوب) والبرهانية (نسبة إلى الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني) والسطوحية (المنسوبة إلى السيد أحمد بدوي) وغيرها في مختلف بلاد العالم الإسلامي[1].

وحُفِظَ مذهب المدرسة الأم نَقِيًّا في عدّة زاويا، فبركة أشهر الصوفيين بشمال إفريقيا هي أثمن نِعَم الله التي أنعم بها على دعاة المدرسة الشاذلية [بمصر]، حتّى تفرعت كل تلك الفروع، ثم إنهم تكاثروا في كامل المغرب العربي والشام والحجاز وتركيا وأسسوا زوايا مستقلّة يمكن اعتبارها مدارس حقيقية في الفلسفة والدين حيث تدرّس بها القواعد الأساسية للشاذلية التي يرجع لها الفضل في أصالتهم وتجذّرهم[2].

قال الشيخ محمد المغربي[3] من بحر الكامل:

الشَّـــاذُلِيَّةُ قَـــادِرِيَّـــةُ وَقْتِهِمْ   قد خُصِّصُوا بِحَقَائِقِ الْعِرْفَانِ

يَهْنِيهِمُ مَا قَدْ عَـــــلاَهُمْ مِنَّةً   مِنْ نُورِ مَعْرِفَةٍ وَعِلْمِ بَـــيَانِ

صَرِّحْ بِذِكْرِفَضْلِهِمْ تَحْظَى بِمَا   قَدْ شَاهَدُوا مِنْ فَضْلِهِ بِعِيَانِ

إذن، فالطائفة ليس لها زاوية أمّ ذات ترتيب خاص بأتم معنى الكلمة، فهي مُمثّلة بشيوخ محلّيين دون روابط متينة بينهم، وقد حافظوا على التسمية الشاذلية، ومارسوا طقوسا متفقة مع ما نص عليه الإمام الشيخ أبي الحسن الشاذلي، إلا في بعض الجزئيات والتفاصيل التي يظهر أنها من اجتهادات الخلف.

وبقطع النظر عن المقام الذي شيّده الوزير مصطفى خزندار على جبل التوبة المعروف بجبل الزلاّج لأبي الحسن الشاذلي[4] وبقية البناءات الضخمة التي شيدها تلطيفا

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 454

2 المرجع السابق، ص 445.

3 محمد مخلوف، مواهب الرحيم، طبعة طرابلس، ليبيا، ص74.

4 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، هامش الصفحة 105.

للرأي العام الّذي كان شديد الاعتقاد في أبي الحسن، توجد بتونس ثلاث زوايا بشيوخ مخصوصين يمثّلون محور الحركة الشاذلية، وأهم هذه الزوايا تلك التي كان يديرها الشيخ ابن حسن إمام جامع باب الجزيرة بالحاضرة.

وهناك بعض الزوايا المنتشرة هنا وهناك من نواحي الجمهورية، وبعض المريدين الّذين يفقدون الالتحام والترابط فيما بينهم، ولكن يجمعهم اسم الشاذلية والأوراد والأحزاب.

ولا شك أن هذه الزوايا ليس لها ارتباط واتّصال ببعضها البعض، لما يظهر من استقلال بعضها عن بعض، لكنّ مذهب الشيخ الشاذلي الذي ضبطه العديد من تلاميذه وخصوصا الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري[1] أصبح نموذجا يحتذى ومثالا للجميع. إلا أنه كما أسلفنا أنجبت المدرسة الشاذلية الأمّ عدّة جماعات حقيقية منتشرة في كامل العالم الإسلامي حيث تتمتّع بسمعة عالية واحترام كبير وتحتل مكانة مرموقة لدى الجميع.

أصول الطريقة: يقول"كوبولاني" "أنه لا توجد لدى الشاذلية خلوة ولا خانقاه ولا ممارسات صاخبة ولا شعوذات، فحياة السياحة[2] والتأمل بعميق الإيمان بالتوحيد وتعاليم التصوف أو العلوم الروحانية هي التي تقود المريد ليحيا مع الحقيقة الإلهية. تلك هي تعاليم الشهير أبي القاسم الجنيد التي جلبها إلى شمال إفريقيا الشيخ أبو مدين

1 هو تاج الدين أحمد بن عطاء الله الإسكندري المولود سنة 638 تقريبا والمتوفّى سنة 709هـ/ 1309م، متصوف شاذلي من العلماء، له تصانيف عديدة منها "الحكم العطائية" في التصوف و"تاج العروس" في الوصايا والعظات، و"لطائف المنن في مناقب وأبي الحسن".(خير الدين الزركلي، الأعلام، الجزء الأول ص 161. وله أيضا "التنوير في أسقاط التدبير" و"القصد المجرّد في معرفة الاسم المفرد" و"مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح".

2 السياحة: هي هجرة إلى الله تعالى بالتخلّي عن حظوظ النفس والنزوع إلى الكمالات الثابتة. يقول محي الدين بن عربي في تفسيره للقرآن الكريم: "السائحون: ثم ساحوا إليه بالهجرة عن مقام الفطرة ورؤية الكمالات الثابتة، وتألفهم واعتدادهم، وابتهاجهم بها في مفاوز الصفات، ومنازل السبحات" (محي الدين بن عربي، تفسير القرآن الكريم، دار الأندلس بيروت 1401 هـ/1981م، ص511) ويراهم البيضاوي في تفسيره:"الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام: سياحة أمّتي الصوم شبه بها من حيث أنه يعوق عن الشهوات أو لأنّه رياضة نفسانية يُتوصّل بها إلى الإطّلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد وطلب العلم" (عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل طبع المطبعة العثمانية سنة 1329هـ) ويقول ابن الخطيب في أوضح التفاسير:"السائحون: المجاهدون أو الصائمون، وذلك لأنّ الصائم تصفو روحه وتضعف شهوته وتنجلي قريحته، ويعتدل نظره، ويقلّ هواه، فيكون أقرب شبها بالملائكة، فيسيح في ملكوت الله تعالى، ويتفكّر في خلق السماوات والأرض...أو هم الجائلون بأفكارهم في ملك ربهم وتوحيده" ابن الخطيب، أوضح التفاسير، الطبعة 7، المطبعة المصرية، ص 242.

شعيب الأندلسي التي علمها وروجها أفضل تلاميذه عبد السلام بن مشيش المعاصر للسلطان عبد المؤمن بن علي وانتشرت في بقية إفريقيا والشرق وبالخصوص بالحجاز عن طريق تلميذهما ووريثهما سيدي أبي الحسن الشاذلي"[1].

مذهب المدرسة الصوفية الشاذلية، إذن، معروف بروحانيته المصفّاة والتخلّي عن ذات الشخص لله سبحانه، والصلاة في جميع الأوقات وفي كل الأماكن وفي كل الظروف والحالات كي يعيش المرء في اتّصال دائم بربّه، فتلك هي المتعة والنشوة الخالدة الدائمة، وليست تلك النشوة الناتجة عن التزهّد أو التصوّف بل تلك النشوة التي يضفيها الحب العميق لله، ذلك الحب الّذي يبتعد بالمرء عن العالم ويثير فيه أحاسيس لا يمكن التعبير عنها.

وتستند هذه الطريقة إلى البركة التي أخذها الشيخ بالتسلسل كما أخذ أوراده بالتسلسل:

فالورد : يرويه أبو الحسن الشادلي عن الشيخ عبد السلام بن مشيش عن عبد الرحمان المدني الزيات الحسني عن نُفيع الدين عن فخر الدين عن أبي الحسن علي الدقّاق نور الدين عن أبي الحسن علي الناصري تاج الدين عن شمس الدين عن زين الدين عن إبراهيم أبي اسحاق البصري عن أبي القاسم أحمد المرواني عن سعيد الرباني عن محمد فتح الله السعود عن سيد الغزواني عن الشيخ جابر عن الحسن بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم عن جبريل عليه السلام من الله سبحانه وتعالى.

ولعله من المفيد نقل هذه الإجازة في الورد ترجمة عمّا ذكره"كوبولاني" بالصفحة 447. وتعزى إلى الشيخ الميسوم بن محمد بورقية أصيل الغريب بالجزائر المتوفى سنة 1883 م وبها ذكر للورد مفصلا:

الحـــمـــد لله وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

نسمح لأخينا في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلّم سيدي عبد العزيز، بأن يقرأ ورد طريقة الشاذلية ويعطيه لمن يرغب فيه لذكر مشايخنا والاجتماع بهم، وأن يأخذ

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 443.

بيدهم في حقول الذكر كما ذكر في الحديث الشريف " يجمع الله الناس مع من يحبّون"، أنا نفسي تلقيت الورد من شيخي العارف بالله سيدي عودة بن غلام الله الذي أخذه من شيخه شيخ الشريعة والدين مولاي العربي بن عطية، وهذا أخذه عن قطب رحاها وشمس ضحاها مولاي العربي بن أحمد رضي الله عنه.

ويتمثل الورد في التلاوة صباحا وبعد المغرب: 100 مرة "استغفر الله"، 100 مرّة "اللّٰهُمَّ صلّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم"، 100 مرّة "لاإلٰه إلا الله"، وأن يحضر على الأقل مرة في الأسبوع في الحضرة، وأن يداوم على التوبة وطلب المغفرة من الله والرجوع إليه صباحا مساء.

هذه الأعمال تمثل جزءا من واجبات من يرغبون في البركات الربانية. أما واجبات الّذين يرغبون في حياة التأمل فهي أوسع.

عبد الله الفقير محمد الميسوم

أما تلميذ الشيخ الميسوم الشيخ أحمد بن أحمد فيجعل الورد[1] على النحو التالي: 100 مرة "استغفر الله" و100 مرّة "اللّٰهُمَّ صلّ على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم" و100 مرّة "لاإلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"، فتتلى هذه الأذكار الثلاثمائة إثر صلاة الفجر وإثر صلاة المغرب على أن يذكر باستمرار اسم "الله" وأن يستحضر صورة الأحرف الخمسة المكونة للاسم "الله" أي مراقبته بعين القلب كأنما يراه بعيني الرأس، أن يصوم الخميس والاثنين، وأن يقوم بصلاة الرواتب وهي أربع ركعات قبل الظهر، وأربع قبل العصر، وست بعد المغرب، وثلاث عشرة بالوتر في آخر الليل لمن يستطيع الاستيقاظ، وقبل النوم للذي لا يستطيع. وبعد العشاء والشفع والوتر يقرأ القرآن أو ما تيسر منه، ويتلو بالخصوص سورة الإخلاص في الوتر، كذلك القيام بثمان ركعات من الضحى.

أما البركة: فقد أخذها الشيخ أبو الحسن علي الشاذلي عن أبي عبد الله محمد بن علي بن حوازم عن أبي محمد صالح بن منذر عن الشيخ أبي مدين شعيب بن الحسن الأنصاري عن الشيخ أبي يعزى يلنور عن الشيخ أبي محمد عبد الجليل عن الشيخ أبي

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 449.

محمد بن عبد الله عن أبي سعيد عن الحسن النوري عن أبي القاسم الجنيد عن السري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عن محمد صلّى الله عليه وسلّم عن جبريل عليه السلام من ربّ العزّة سبحانه وتعالى[1].

هذا، ونشكّ في أن هذا الشيخ العالم النحرير اكتفى بما نقل عن أستاذه ولم يكن له هو نفسه تأليفات رغم أنه لم يكن مغرما بالتدوين، فقد نقل ابن عطاء الله في لطائف المنن: "وقدبلغني عنه أنه قيل له: يا سيّدي لِمَ لا تضع كتبا في الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟ فقال رضي الله عنه: كُتُبي أَصحابي[2]"، فنتصوّر أنّه أملى أحزابا أو أذكارا ولكنه لم يقصد بها التدوين، ولكن دوّنها أصحابه وذلك من آثاره طبعا، وهي طريقة عمل بها علماء قبله وبعده منهم الشيخ المرحوم الفاضل ابن عاشور التونسي الذي لم يكتب بل كتب عنه تلاميذه، رغم أن والده الشيخ الطاهر من المؤلفين المبرزين.

ونورد هنا نصّ حزب البحر ليوضح للقارئ سرّ تخصيص الإمام الوصية به مع بقية أدعيته وأوراده وأحزابه منها حزب الفتح وحزب الآيات وحزب البر المعروف بالحزب الكبير وحزب الشيخ أبي الحسن الّذي رواه ابن عطاء الله ولم يضع له اسما:

حزب البحر[3]: بسم الله الرحمن الرحيم. اللّهم يا عليّ، ياعظيم، ياحليم، ياعليم، أنت ربّي، وعلمك حسبي، فنعم الربُّ ربِّي، ونعم الحَسْبُ حَسْبِي، تنصر من تشاء وأنت العزيز الحكيم. نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الظنون والشكوك والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلُوا زلزالا شديدًا وإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا. فَثَبِّتْنَا وانصرنا وسخِّرْ لنا هذا البحرَ كما سخّرتَ البحْرَ لِمُوسَى، وَسَخَّرْتَ النَّارَ لإبراهيمَ، وسخّرت الجبال وَالْحَدِيدَ لداوودَ، وسخّرت الريح والشَّيَاطِين

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 445 -455.

2 تاج الدين أحمد ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.ص6.

3 عبد الحليم محمود، قضية التصوف المدرسة الشاذلية، طبعة دار المعارف بمصر، 1988، ص: وبالهامش :" يقول ابن عطاء الله السكندري عن حزب البحر والحزب الكبير الذي يسميه "وإذا جاءك" إنهما سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما في البدو والحضر، وحزب البحر يُقرأ بعد العصر في التقاليد الشاذلية ."

وَالجِنَّ لسليمانَ، وسخِّرْ لنا كلَّ بحرٍ هو لَكَ فِي الأرضِ والسَّماءِ والمُلْكِ والْمَلَكُوتِ، وَبحْرِ الدُّنْيَا وَبحْرِ الآخِرَة وسَخِّرْ لَنا كُلَّ شَيْءٍ يا من بيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ. كهيعص، كهيعص، كهيعص، أُنصرنا فإنَّك خيرُ النّاصرين، وافْتَحْ لَنَا فَإِنَّكَ خَيْرُ الفاتحين، واغْفِرْ لَنا فإنك خير الغافِرينَ، وارْحَمنَا فإنك خير الراحمين، وارزقنا فإنك خير الرّازقين، واهْدِنَا وَنَجِّنَا من القوم الظّالمين. وهَبْ لنا ريحا طيِّبَةً كما هي في عِلْمِكَ، وانْشُرْ عَلَيْنَا مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِكَ، واحْمِلْنَا بِهَا حَمْلَ الْكَرَامَةِ مَعَ السَّلاَمَةِ وَالْعَافِيَةِ فِي الدِّينِ والدُّنْيَا والآخِرَةِ إنك على كل شيء قَدِيرٌ. اللّهُمَّ يَسِّرْ لَنَا أُمورَنَا مَعَ الرَّاحَةِ لِقُلُوبِنَا وَأَبْدَانِنَا، وَالسَّلاَمَةِ وَالْعَافِيَةِ فِي دُنْيَانَا وَدِينِنَا، وَكُنْ لَنَا صَاحِبًا فِي سَفَرِنَا وَخَلِيفَةً فِي أَهْلِنَا، وَاطْمِسْ عَلَى وُجُوهِ أَعْدَائِنَا وَامْسَخْهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ الْمُضِيَّ وَلاَ الْمَجِيءَ إِلَيْنَا. وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ. يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ. شَاهَتِ الوُجُوهُ، شَاهَتِ الْوُجُوهُ، شَاهَتِ الْوُجُوهُ، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا. طس، حم، عسق. مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ.

حم، حم، حم، حم، حم، حم، حم، حُمَّ الأَمْرُ وَجَاءَ النَّصْرُ فَعَلَيْنَا لاَ يُنْصَرُونَ. (حم، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.) بسم الله بَابُنا، تَبارَكَ حِيطَانُنَا، يس سَقْفُنَا، كهيعص كِفَايَتُنَا. حم، عسق، حِمَايَتُنَا، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهْوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهْوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهْوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، سِتْرُ الْعَرْشِ مَسْبُولٌ عَلَيْنَا، وَعَيْنُ اللهِ نَاظِرَةٌ إِلَيْنَا، بِحَوْلِ اللهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْنَا، وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ. فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمْ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمْ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمْ.

قال الشيخ منوّها بحزب البحر من تأليفه: " لوكان عند أهل بغداد ما أخذها التتر "ومن ذكره ودعائه رضي الله عنه: يَا أَللّه، يانور، يا حق، يا مبين، افتح قلبي بنورك وعلِّمْنِي من علمك، واحفظني بحفظك، وأسمعني منك، وفهّمني عنك، وبصّرني بك، وسبّب لي سببا من فضلك، تغنني به من الفقر، وتعزّني به من الذل، وتصلح لي به الدّنيا والآخرة، وتوصلني به إلى النظر إلى وجهك في جنة الفردوس، إنّك على كلّ شيء قدير، يا نِعْمَ المَوْلَى وَيَا نِعْمَ النَّصِير.

ومن نصائحه رضي الله عنه: "وإن أردت أن يداويك الله من تسعة وتسعين داء أيسرها اللمم، فقل: "لاحول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم". وإن أردت أن تُؤجر بما يصيبك من مصيبة فقل:" إنّا لله وإنا إليه راجعون". وإن أردت أن يذهب همّك ويقضى دينك فقل إذا أصبحت وإذا أمسيت: "اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال". وإن أردت أن تُوَفَّق للخضوع والخشوع، فاترك فضول النظر ". وهي كما ترى نصائح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وحيث لا بدّ أن تنظّم الجماعة على نحو معين، فقد عرف في تونس أن الأتباع كلهم تحت نظر شيخ يعبّر عنه بالشيخ الكبير، وهو شيخ المغارة الشاذلية وله النظر على الزاوية مادّيا وأدبيا، وكان في العهد الحسيني يتولّى هذا الشأن بأمر عَلِيٍّ من الباي كبقية الطرق الأخرى، ويتصرف في الريع الواسع الذي يحصل من الأحباس التي أوقفها أهل الفضل عليها، ويأخذ الفتوحات والنذور ويُولّي من يشاء الانتظام في سلك الطريقة، ويسند الوظائف التالية للأتباع القدامى والأكفاء، وهذه الوظائف كما ذكر في المراجع:

- رئاسة الإنشاد.
- مشيخة تلاوة الأحزاب.
- مشيخة القرآن.
- مشيخة الذكر.
- مشيخة حزب الليل.
- مشيخة المسبعات.
- نقابة المغارة السفلية.
- قيادة المحركين.

طريقة العمل: تنحصر أعمال هذه الطريقة في قراءة الأحزاب والأذكار التي هي من صوغ الشيخ الشاذلي وهي مطبوعة منتشرة انتشارا كبيرا، من ذلك قراءة حزب البحر إثر صلاة العصر.

وفي خلوة الشيخ الشاذلي بالزلاج خارج باب عليوة بحاضرة تونس، يذكر في صبيحة كل سبت علاوة على الأحزاب الاسم بالصدر والضمير أو بالتصريح، وتنقسم جموع هذه الطريقة إلى حزّابة وذكّارة بالنسبة إلى مجموعهم، فالذكّارة يكونون حلقة الذّكر المؤلّفة ويقودهم شيخ الذكر.

ومن خصائص الذّكّارة أنّهم عند العمل يتجرّدون من ثيابهم ويلبسون قميصا يسمّونه " بَدَنْ" من صوف ويتمنطقون بمنطقة من سَعَف النّخيل، وقد يُجرون أناشيد حلوة السماع أثناء ذكر الإسم من شأنها أن تزيد الذّاكر شوقا وطربا وانهماكا في الذّكر[1].

ويذكر الدكتور صالح المهدي أنهم يبدؤون أولا بقراءة جماعية للقرآن الكريم وللأسف بدون مراعاة اللغة، ثمّ يأتي جماعة الحزّابة فيقرؤون حزبا أو اثنين بطريقتهم بدون غناء. وكان شيخهم الشيخ

---

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 126 -127 والهامش.

محمد بن محمود المدرّس بجامع الزيتونة في مقام سيدي بلحسن (أبي الحسن).

أمّا المنشدون فكان هناك باش منشد ممتاز أدركه السيد صالح المهدي وكان مجوّدا ممتازا للقرآن الكريم وهو الشيخ محمد الغليونجي فكان له دور كبير. ويقوم المنشدون بإنشاد المدحات، والمرزوقية هم جماعة يغنّون آهات: منهم الشاذلي خلاص وحميدة عجاج وعلي التريكي (شقيق المرحوم محمد التريكي) وكان مدرّسا بجامع الزيتونة ومعهم الطيب بن نصر الذي كان مزوالا أمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (أي مدير تشريفات يبعد الناس أمامه في الطريق).

يقول السيد محمد الكحلاوي الصحفي أستاذ تاريخ المسرح بالمعهد الأعلى للموسيقى بسوسة: إنّ هنالك مهرجانا باسم " مهرجان سيدي علي الحطّاب " يقام في الأسبوع الأخير من شهر ماي، فيشارك الزوّار من الفرق الصوفية في الأيام الأولى بما لديهم. وفي اليوم الأخير يقع تقديم أمداح "سيدي علي الحطاب" ويختم الكلّ بعمل الشاذلية وقراءة أحزابها. وبعد أسبوع من اختتام المهرجان ينطلق العمل الشاذلي كلّ مساء خميس بعد صلاة العصر حتّى الفجر. ويتوزّع هذا العمل على المقام الشاذلي ومقام سيدي ماضي بن سلطان الذي هو نموذج مصغّر منه بالإضافة إلى العمل الشاذلي الذي يقع طيلة السنة صباح كلّ سبت.

ويتواصل العمل الشاذلي لمدّة أربعة عشر أسبوعا تستغرق كامل فصل الصيف فتقع زيارة كلّ الطرق لمقام " أبي الحسن الشاذلي" بعد صلاة العصر من كلّ يوم خميس ابتداء من الأسبوع الأول بعد انتهاء " مهرجان سيدي علي الحطّاب".



الطريقة الجزولية

تعتبر الفرقة الجزولية فرعا للشاذلية أسسها الشيخ أبو عبد الله محمد الجزولي

الشيخ المؤسس: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن سليمان بن سعيد بن يعلى بن يخلف بن موسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن عبد الله بن قندوز بن عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن حسن بن إسماعيل بن جعفر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثـنّى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وتحصل على لقبه (الجزولي) من مكان ولادته "جزولة" قرية بالسوس الأقصى، ويطلق عليه أيضا (السملالي) نسبة إلى فرع قبيلته "سملالة". غادر مسقط رأسه وهو حديث السنّ إثر معارك دامية، ورحل إلى فاس لمزاولة تعلمه بجامع "الصفارين" حيث ما زالت الغرفة المخصصة له موجودة إلى اليوم. وبفاس التقى بالشيخ أحمد بن زروق مؤسس الطريقة الزرّوقية فكان هذا الأخير أحد تلاميذه.

كان حافظا كثير المناقب، فقيها على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهو صاحب كتاب "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار" الذي يُعتبر الأساس للطريقة الجزولية كتبه بمدينة فاس. ويروى أنه استوحى فكرة كتابه من امرأة اعترضها بفاس تقوم بألعاب سحرية بهرت الناس بقدراتها العجيبة، وسألها فأعلمته أنها استقت فنّها من الرسول صلّى الله عليه وسلّم نفسه، وهكذا جاءته فكرة

تأليف كتابه: "دلائل الخيرات وشوارق الأنوارفي ذكر الصلاة على النبي المختار"[1]، وألّف كتابا آخر في التصوّف، وحزب "سبحان الدائم" المشهور في الطريقة العيساوية.

ولم يتّفق المؤلفون العرب في شأن الأحداث التي طبعت حياة مؤسس الجزولية، وهم أقل اتفاقا حول تاريخ وفاته حيث يضعونها بين 869 ه و875 ه، ففي حين يذكر أبو العباس أحمد بابا التنبكتي[2]: أن الشيخ الجزولي توفّي في 16 ربيع الأول سنة 870 ه أي سنة 1465م، ويؤكد الشيخ زرّوق هذا التاريخ، ونرى أبا العباس الفاسي يرجعه بدون أن يدقّق إلى سنة 870 ه، ونجد أبا العباس أحمد بن محمد القاضي ينص في كتاب "درة الحجال" على أن الشيخ الجزولي توفي في 16 ربيع الأول سنة 875 ه، ويظهر هنا الإتفاق في اليوم دون السنة فكأنه خطأ ناسخ حيث تكتب الأرقام الهندية فتكون الخمسة مشابهة للصفر إن بولغ في تدويره. أما في "البدل المنزّه" لأبي العباس أحمد ابن علي السوسي البوسعيدي فإن هذه الوفاة وقعت بين 870 و875 ه، وهكذا يكون قد جمع التاريخين دون ترجيح أحدهما.

ودُفن الشيخ بـ"أفوغال" بالسوس ثم نُقل جثمانه في قصّة عجيبة إلى مرّاكش حيث أصبح ضريحه مزارة عظيمة[3]. وألّف الشيخ محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي كتابا في مناقبه سمّاه "ممتع الأسماع في التعريف بالشيخ الجزولي وما له من الأتباع".

وللإمام محمد الجزولي عدّة شيوخ وأهمهم شيخان هما محمد بن سليمان والشيخ محمد بن عبد الله الأمغر الصغير السهلي الذي كان يرابط بالرباط المعروف بـ" تيتان الفاتر" بأزمور حيث يقال أن الشيخ محمد الجزولي التقى بمربّيه الأوّل ومرشده إلى الطريقة. وقيل : إنّ ذلك كان بـ"دوكالة" وبعد ذلك أقام الشيخ أربع عشرة سنة في خلوة بـ"أصفى" أو"الصافي" قبل العودة إلى "أفوغال" لنشر دعوته بكل نجاح، حتّى أصبح أتباعه أكثر من اثني عشر ألف تابع بحياته منهم الشيخ أحمد زروق، وأحمد بن عمر

---

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص455.وهذا ما يذكر أيضا عن الشيخ محمد بن عيسى مؤسس العيساوية. راجع الترجمة في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، ص264 عدد 970.

2 أحمد بن أحمد التكروري التنبكتي مؤرخ من أهل المغرب ولد سنة 963 ه/ 1556م وتوفي سنة 1032ه/1623م له عدة كتب منها" نيل الابتهاج بتطريز الديباج"في تراجم أعيان المالكية، وله مختصرات في العربية (الزركلي، الأعلام، ج1ص30).

3 انظر الترجمة في كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص455 -457 ؛ ومحمد مخلوف في مواهب الرحيم وفي شجرة النور الزكية، ص264

الحارثي المكناسي وعبد العزيز التبآع وأبو عبد الله الصغير السهلي وهؤلاء الثلاثة هم شيوخ محمد بن عيسى صاحب الطريقة العيساوية.

وأقلق اجتماع كل هذا الجم الغفير والي المكان فطرد الشيخ منه، قبل الغزو الأوروبي بقليل.

ولم تطل حياة الطريقة بل ذابت في طرق أخرى أهمها العيساوية والطيبية. أمّا سلسلة المشايخ الّذين وصلت عنهم الطريقة إلى الشيخ محمد الجزولي، فقد أخذها هذا الأخير عن شيخه محمد بن الأمغر الصغير عن أبي عثمان سعيد الهرتناني عن عبد الرحمان الرجراجي عن أبي الفضل الهندي عن (أنوس البدوي راعي الإبل) عن أبي العباس أحمد القرافي عن أبي العباس الْمُرسِي عن أبي عبد الله المغربي عن الشيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي. وذكر الشيخ السنوسي في اعتماداته. سلسلة الشيوخ الّذين حافظوا على الجزولية الصرفة وواصلوا اتباعها وهم من الإمام الجزولي إلى أب الأمداد عبد العزيز ابن عبد الهادي الهرصار المدعو "طيبة" إلى أبي البقاء إلى عمّار بن عبد العزيز الخطابي الزرهوني إلى الشيخ المجدوب عبد الرحمان الوكيل إلى أبي المحاسن يوسف بن محمد الفاسي المتوفي سنة (986 هـ 1578م) إلى عبد الرحمان بن محمد الفاسي إلى أبي البركات عبد القادر الفاسي إلى محمد عبد الله الغزّي المدني، إلى الشيخ سيدي السندي إلى أبي العباس العرايشي أحد شيوخ الإمام السنوسي في بداية القرن التاسع عشر ميلادي.

وتطوّرت تعاليم الشيخ الجزولي عند علماء المغرب الأقصى حتّى أصبحت مدرسة فلسفية أكثر منها طائفة دينية ذات قواعد طقوسية. ويُعتبر الإمام محمد الجزولي شيخا في العلوم الروحانية وهو معروف ومبجّل مثل الشيخ الشاذلي نفسه، وبعض تلاميذه من واسعي الإطّلاع طوّروا مذهبه في ثلاث زوايا بفاس حيث يمكن للطبقات المتعلّمة والعقول القادرة على الفهم أن يستمعوا إلى قراءة كتابا ته الخاصّة التي تطرق النظريات والمبادئ الأساسية للعلوم الباطنية[1].

وكان ذكرنا للجزولية لما لها من ارتباط بالطيبية والعيساوية ووجودهما في تونس.

---

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص455 - 457.

الطريقة العيساوية

نسبة إلى سيدي محمد بن عيسى المكناسي
دفين مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى سنة 933 هـ

الشيخ المؤسس[1]: هو الشيخ محمد بن عيسى بن عامر بن عمر بن عمرو بن حريز ابن محروز بن عبد المؤمن بن عيسى أبي السباع بن إبراهيم بن هلال بن محمد بن يوسف بن أبي زيد بن عبد الرحمان بن سلام بن عبد العزيز بن عبد المؤمن أيضا بن زيد بن رحمون بن زكرياء بن محمد بن عبد المجيد بن علي بن عبد الله بن عبد الله أيضا بن أحمد بن إدريس الأصغر باني مدينة فاس بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

. أصله من عرب سوس[2] ومنهم من يقول أنه سملالي، وسملالة قبيلة من جزولة، ومنهم من يقول سباعي من أولاد أبي السباع، وينسب إلى مكناسة الزيتون مسقط رأسه، كما لقّبوه بالسفياني الأصل ثم بالمختاري إذ وُلد ونشأ فيهم سنة 872 هـ-1477 م.

تربّى بين أبوين صالحين تربية حسنة، وارتحل به أبوه إلى مدينة فاس بغية طلب

---

1 نص الترجمة مؤلّف من مختصر الإمام الأمجد للغزال، الطبعة الثانية سنة 1349 هـ بتونس. ومن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 349 - 354.

2 نقول "عرب سوس" أي من الجنس العربي وليس من الجنس البربري السكان الأولين للمنطقة.

العلم وقراءة القرآن، فجدّ الطالب محمد بن عيسى حتّى فتح الله عليه، ثم إن والده رجع إلى قبيلة سفيان.

لما رجع الشيخ محمّد إلى قبيلة سفيان، التقى بأول شيوخه أبي العباس أحمد بن عمر الحارثي المكناسي وكان من أصحاب الإمام القطب محمد بن سليمان الجزولي وأخذ عنه الطريق بالعهد والصحبة، وكان تقيّا ورعا صاحب كرامات، فلازمه الشيخ بن عيسى وأخذ عنه الطريق بالعهد والصحبة وقرأ عليه كتب التصوف وتربّى على يديه بالطريقة الجزولية إلى أن فتح الله عليه بالولاية. وقرب أجل الشيخ الحارثي ولم يكمل له الفتح فأمره بالذهاب إلى صاحب الوقت وهو آنذاك بمراكش وهو الشيخ عبد العزيز التبّاع خليفة الشيخ القطب الجزولي، وتوفي الشيخ الحارثي في حدود العشر الأوائل بعد التسعمائة للهجرة ودفن بزاوية خارج مكناسة الزيتون وقبره مزارة عظيمة بجانب زاوية تلميذه الشيخ محمد بن عيسى.

وتوجّه التلميذ بعد وفاة أستاذه إلى مراكش للالتحاق بالشيخ التبّاع، وكان له خبر عنه، فاستقبله استقبالا حسنا وذكّره بشيخه أحمد الحارثي، وأتمّ له الفتح وجدّد له الأخذ، وهكذا دخل الشيخ ابن عيسى في الطريقة بالعهد، وصاحب أستاذه الجديد نحو الشهر وهو مقيم عنده لا يفارقة ليلا ولا نهارا فلقّنه الذكر وأعطاه مفاتيح الطريقة من أحزاب وأوراد ووظائف، ولقّنه سرّ العهد وأمره بكتمانه والاحتفاظ عليه وقال له: "هو عهد الله لا عهدي ولا يعطى إلا من صدر إلى صدر"، وأذن له بالتصريف والجلوس لتربية المريدين وإرشادهم، فقبل الشيخ محمد بن عيسى ذلك شاكرا لأستاذه، ثم حمد الله وأثنى عليه وطلب من الشيخ التباع أن يأذن له في قراءة "دلائل الخيرات" فأجابه بأن الإذن في ذلك يجب أن يأخذه من كبير تلامذة الشيخ الجزولي وهو محمد بن محمد الصغير السهلي، لأن الإمام الجزولي خصّه به[1] وأمره بالإذن للشيخ بن عيسى في قراءة "دلائل الخيرات" من قبل أن يولد، كما أمر الشيخ التبّاع بإعطائه الخلافة الجزولية.

ثم اصطحب الشيخ بن عيسى شيخه التبّاع في زيارة لقبر الشيخ الجزولي ليلا،

1 تعرضنا سابقا إلى أن أحد مشايخ القطب الجزولي هو الشيخ محمد بن الأمغر الصغير السهلي وهنا نجد أن أحد تلاميذه الّذين وكّلهم وخصّهم بكتابه " دلائل الخيرات " هو أبو عبد الله محمد الصغير السهلي، لذلك ذهبنا إلى أن السهلي الثاني يكون ابن الأول ليستقيم التسلسل المنطقي وهو الصحيح.

فذهبا ورأيا ما بهرهما من روائح المسك العطرة الخارجة من قبر الشيخ، وتقول الرواية أن الشيخ ابن عيسى التقى بالإمام الجزولي في عالم الخيال على ما ذكره الولي الصالح أبو مهدي الفجيجي وهو أحد تلاميذ الشيخ ابن عيسى.

ثم إن الشيخ ابن عيسى استأذن أستاذه في السفر إلى بلده مكناسة الزيتون فأذن له وأمره بملاقاة الشيخ محمد الصغير السهلي وأكّد ذلك. وتُوفّي الشيخ التبّاع سنة 914 هـ ودفن بزاويته داخل مراكش.

وجاز الشيخ ابن عيسى خندق الزيتون قرب وادي اللبن من أحواز مدينة فاس وهي بلد الشيخ السهلي وهو كبير تلاميذ الشيخ الجزولي، ففرح به وسأله عن شيخه التبّاع وأعطاه الطريق وأذن له في قراءة "دلائل الخيرات" له ولأتباعه، وتوفّي الشيخ السهلي سنة 918 هـ وقبره ببلده وقد بنى عليه الشيخ عبد الله الغزواني روضة حافلة.

من هنا يتّضح أن أساتذة الشيخ مَحمد بن عيسى هم الشيخ أبو العباس أحمد بن عمر الحارثي المتوفي حوالي 900 هجرية ونيّف، والقطب عبد العزيز التبّاع المتوفى سنة 914 هـ والشيخ محمد السهلي المتوفي سنة 918 هـ وهم ثلاثتهم أخذوا عن القطب الغوث أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي مؤلف "دلائل الخيرات". وبعد أن ارتوى الشيخ مَحمد بن عيسى من تلك العلوم رجع إلى بلده ومقره مكناسة الزيتون، وجلس للتربية والإرشاد والتفّ حوله المريدون وكثرت كراماته، حتّى أصبح له جيش من المريدين.

ويروي الشيخ عبد الرحمان الفاسي في كتابه "ابتهاج القلوب" أن الشيخ الإمام القطب سيدى مَحمد بن عيسى توفى سنة 933 هـ [1526م] ودفن بروضة زاويته من جهة الغرب خارج باب البراذعيين من مدينة مكناسة الزيتون. وقد أتاه في تلك السنة الولي الصالح أبو محمد عبد الرحمان المحجوب وأخذ عنه الطريق مباشرة بعد أن كان أخذه عن أبي الحسن الصنهاجي وأبي حفص عمر الخطاب وعن أعجوبة الدهر الشيخ أبي الرواين المحجوب تلميذ الشيخ مَحمد بن عيسى الذي تركت له الخلافة. وبمجرد وفاة أبي الرواين انتقلت الخلافة إلى ابن الإمام عيسى المهدي بالإذن الصريح من والده وكان قد أخذ عنه الطريق بالعهد والصحبة والإذن العام.

أخبار الطريقة: هي من الطرق الأكثر انتشارا بغرابة الممارسات التي يقوم بها

أتباعها وقد كانت موضوع العديد من الدراسات، هذا، وإن مرّت حياة الشيخ في رحلاته الطويلة شرقا وغربا، فإنه لما رجع إلى بلده وكان أهلها مبغضين من السلطان، جمعهم حوله وأصلح من شأنهم، فما كان من السلطان إلا أن ينحني أمام إنجازات الشيخ، ويغمره بالتشريفات والثروات ويعفي كل أهل منطقته من السخرة والضرائب.

ويقول كوبولاني أنه بعد اطلاع الشيخ مُحمّد على عدّة طرق صوفية لم يحافظ إلا على الممارسات السعدية[1] على الطريقة الشاذلية التي تعلمها عن أستاذه الشيخ أحمد الحارثي تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، فتعاليم العيساوية، إذن، ترتكز بالأساس على التخميرة المعروفة في الطوائف الشرقية المنحدرة من القادرية، ويؤلف بين هؤلاء ورجال شمال إفريقيا عقيدة التوحيد وطريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتباعه، ونجد أثر ذلك في مخطوطاتهم وكتبهم التي احتفظوا بها في الزوايا والتي ترتب لهم سلسلة الاعتماد الصوفية الأصيلة التي ليست سوى الشاذلية الجزولية عن طريق الشيخ أحمد الحارثي. غير أنه في عيون الجماهير لا يظهر إلا الممارسات الخارجية لأتباع الشيخ مُحمد بن عيسى المنقولة عن خوارق الولي بكل دقّة، تلك الممارسات التي تميّز طائفة العيساوية عن بقية الطوائف.

هذا ما يقوله "كوبولاني"، والراجح عندنا أن الممارسات الرفاعية أو السعدية لم تكن من عادات الشيخ مُحمد ولا من وصاياه، وإنّما دخلت فيما بعد وبالخصوص في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، عند ازدهار الطرق وانتشار البناءات الفخيمة والزوايا العظيمة، سواء بتونس أو ببقية الوطن الإسلامي تحت النفوذ العثماني.

وآلت الرئاسة الروحية للطائفة، بعد أن تُركت لأبي الرَّوَاين المحجوب الخليفة المباشر للشيخ مُحمد بن عيسى، إلى عائلة الولي الشيخ كما ذكر، وبقيت بأيديهم إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر للميلاد بالزاوية الأم بمكناس، وكان شيخ الزمان إذّاك

1 تنسب الطريقة السعدية إلى الشيخ سعد الدين الجباوي المتوفى بحلب سنة 736 هـ/1336م وهي طريقة تشبه الرفاعية، ويروى أن حياة الشيخ سعد كانت سلسلة من الطرائف، فقد كان في البدء زعيم عصابة بغابة حوران يقطع الطريق بين بغداد والبصرة رغم كونه من عائلة الشرفاء وتلاميذ الشيخ أحمد الرفاعي، وذات يوم رأى النبيء صلى الله عليه وسلّم فأمره بالاستغفار والتوبة وأطعمه تمرة، فلمّا أفاق ترك الحرابة وأخذ نفسه بالممارسات التعبّدية الشاقّة وزيارة الأماكن المقدسة ومكث مدّة بمكة ثم رجع إلى دمشق وأسس الطريقة السعدية أو الجباوية التي ترتكز أولا على التلقي المباشر في النوم عن الرسول صلى الله عليه وسلّم وبالسلسلة الواصلة إلى علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عن طريق أبي القاسم الجنيد. (كوبولاني، الطوائف..، ص329).

هو الحاج عبد الكبير وهو رجل مثقف وقد حاول الدفاع عن أصحاب الطريقة يعضده في ذلك مجلس أسسه الشيخ ابن عيسى بنفسه لتربية الأتباع الّذين يصبحون لا يترددون في الاستشهاد في سبيله. ويتكوّن هذا المجلس من تسعة وثلاثين عضوا هم من أبناء هؤلاء المتحمسين الّذين لا تقل بركتهم عن بركة أحفاد الشيخ بالنسب.

وإلى جانب ذلك بقيت زاوية مكناس إلى مطلع القرن العشرين أو بعده بقليل، مقرا لعدد كبير من المتفقدين العامين الذين يقومون بزيارات دورية وغير معلنة إلى الزوايا المبثوثة في مختلف بلاد الإسلام قصد الحفاظ على الانسجام الروحي لطوائفهم وممارسة سلطة زمنية على مقدّميهم بتلك الأصقاع.

وقد يستقلّ بعض أحفاد الشيخ ابن عيسى بسبب بعدهم عن الزاوية الأم بمكناس ولا يحافظون إلا على التعاليم المتصلة بضريح الشيخ، ورغم ذلك فإن الطائفة العيساوية تحافظ دائما على وحدة الإدارة في تلاحم روحي تعضده الأحداث وتطوّره من وجهة نظر سياسيّة إلى وكالة مخابرات لقصر السلطان، وذلك إلى عهد قريب (أي قُبيل الحماية الفرنسية).

وبصرف النظر عن زاوية مكناس، فإن للطائفة عدة خانات بـ"زرهون" بالمغرب حيث يؤثّر بعض جماعاتهم على أهل السودان الغربي (السينغال والنيجر ونيجيريا وما جاورها)، وفي الجزائر انقسمت الطائفة إلى ثلاثة مراكز أحدها بالجزائر العاصمة وآخر بوهران والثالث يضمّ عنّابة وقسنطينة معا، واستطاعت الطائفة الصمود نوعا ما أمام السلامية بإقليم طرابلس، ولكنها ازدهرت في بنغازي بثلاث زوايا، ومرت مرّ الكرام على مصر، لكنها استطاعت الحصول على زاوية بمكة المكرمة كانت إلى نهاية القرن التاسع عشر ميلادي تحت قيادة الشيخ محمد الحفناوي القابسي خوجة باب السلام بالمسجد الحرام[1].

ويظهر أن الطريقة العيساوية تعتمد على الممارسات أكثر منها على التفكير فهي من الطرق المتفرعة عن القادرية، وعن التفكير الشاذلي من حيث التوحيد والأحزاب. وهي طريقة ليس لها حظ كبير في البوادي، أما في المدن بالجمهورية التونسية فإن لها

1 إلى هنا يقف النقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص354 .

ثلاث زوايا بالحاضرة واثنتين بجزيرة جربة وواحدة بصفاقس وأخرى بسوسة وثالثة بقابس ورابعة بالكاف وخامسة ببنزرت وعدّة خانات وزوايا فرعية وأماكن لقاء إذ لا تخلو قرية أو مدينة من جماعة أو جماعات متعددة الزوايا، ففي بلدة الساحلين مثلا نعدّ أكثر من ثمان فرق في هذه الأيام، وقد نقصت حاليا من المدن وبقي بعضها يحاولون تجديد الطريقة مثل جماعة بني خيار. وقد كانت في وقت من الأوقات محلّ اهتمام من رجال الدولة أنفسهم، فقد أسس الوزير مصطفى خزندار وراء جامع صاحب الطابع بالحلفاوين بتونس زاوية باسم الشيخ علي شيحة المتوفى سنة 1271 هـ وأنفق عليها أموالا طائلة وهي من أعظم وأفخر الزوايا من حيث السعة والزخرف والتأثيث.

ودخل في العيساوية شيء من طقوس الطريقة الرفاعية المنسوبة للشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة 578 هـ سواء مباشرة أو عن طريق السعدية الجباوية المتفرعة عن الرفاعية، فهم يأكلون الزجاج ويزدردون الحشرات السامة ويتمرغون على ظلف الهندي (أوراق وجذوع صبار التين الشوكي) ويلعبون بالسيوف والحراب[1].

أصول الطريقة: يقول الشيخ محمد بن عيسى: "طريقتنا تتبع العلم بالعمل، والسنّة تجمعنا والبدعة تفرقنا." ولعلّ هذه الكلمة تفسّر الكثير من تصرّفات العيساوية، فهي تعتمد كطريقة تعبّدية على "حزب سبحان الدايم لا يزول"، وهو حزب ألفه القطب محمد بن سليمان الجزولي وأضاف إليه شيئا التلميذ محمد بن محمد الصغير السهلي وزميله الشيخ أبي العباس أحمد الحارثي وأقرهما الشيخ الجزولي على ذلك، فأخذه الشيخ ابن عيسى فيما أخذ وجعله من أوراده، وهو حزب يحتوي على عقائد التوحيد ثمّ التّوسل بالأولياء الصالحين.

وللشيخ الجزولي والشيخ محمد بن عيسى أحزاب وأذكار أخرى منها "حزب الفلاح" يذكر بعد صلاة المغرب، ومنها "حزب الحمد"، ودعاء يسمّى "الوظيفة الربانية" يقرأ بعد حزب الحمد، ومنها "حزب الإبريز" للشيخ بن عيسى و"الحزب الكبير" وقصائد شعرية كلها في التوسل أيضا. ولكن "حزب سبحان الدايم لا يزول " و"حزب الفلاح" يعتبران من شروط الطريقة والوصية بهما.

---

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، هامش الصفحة 106.

وفي نظام الطريقة بتونس الحاضرة توجد أربع وظائف[1]:

1 - شيخ العمل : وهو القائد للفرقة في أشغالها.

2 - المقدم.

3 - شيخ الحضرة: وله شأن كبير فهو الّذي يُخرج الحَضَّارة (الراقصين) بعد إعدادهم من لباس (البدن)[2] أي ذلك اللّباس الصوفي الأبيض في شبه الكدرون دون بشمار (وهو الحاشية التي تزين أطراف الثوب في الأكمام والجيب أي فتحة الصدر)، فيخرجون تباعا واضعين أيديهم على أكتاف الّذين أمامهم. ويهتم شيخ الحضرة برقصاتهم ويقودهم فيها منسقا حركاتهم مع شيخ العمل.

4 - باش شاوش: وهو المهتم بطلبات وحاجيات الحلقة.

كما هنالك بعض الوظائف الفرعية كباش سقا وباش علاّم.

طريقة العمل: لعلّ أهمّ ما يذكر للعيساوية هو هذا العمل الفنّي الجديد الذي اخترعوه بالإضافة إلى حفظهم للنوبات الأندلسية وهو المجرد:

المجرّد: لعله من أجل العقيدة الشاذلية ومحاولة التوفيق بينها وبين الغناء وقع اختراع المجرد أي المجرد من الآلات لا الإيقاعية ولا النفخية، ولكنه يوزن بالتصفيق (بضرب الأكف) يقدمه العيساوية حسب إيقاع مضبوط على جميع الطبوع التقليدية الموجودة بتونس وهو إيقاع 5 من 8 (فعولن). واشتهر هذا اللون في العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي وخرج من حلقات الذكر إلى بعض المقاهي بالعاصمة كمقهى السبت الذي يقع قرب مقام أبي الحسن الشاذلي بربوة الزلاج، ومقهى نهج السلاح قرب جامع صاحب الطابع بحي الحلفاوين بسيدي شيحة. وفي هذين المكانين صال فنّ المجرّد وجال وبلغ العنان، وتبع في ذلك عدّة مقاهي أخرى داخل البلاد منها على

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 117 - 126.

2 البدن (ويجمع على أبدان) هو ثوب من الصوف أوالكتّان كما ذكر وهو لباس رجالي تونسي أو قيرواني منذ القرن الثالث للهجرة كما ذكر في معالم الإيمان ج2 صفحة 266 في الحديث عن أبي بكر بن هذيل الّذي كان يصنعها مع امرأته، وهو من سكّان القيروان سمع من عيسى بن مسكين ويحي بن عمر أي عاش في القرن الثالث وتوفّي سنة 299 هـ قتله الشيعي.

سبيل المثال بمدينة المنستير مقهى رحيم وسط السوق بالباب الغربي، وكذلك مقهى القبّة بباب الدرب، ومقهى صالح لطيّف.

ويحتوي كلام المجرد على الذكر ومدح النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم وتوحيد الله عزّ وجلّ، والاستغاثة بالأولياء الصالحين، وبالأخصّ ذكر وتمجيد القطب الرباني سيدي محمد بن عيسى المكناسي، ووقف فن المجرّد على طريقة عمل العيساوية، ولم يقع تطويره أو النسج على منواله حتّى يبعد عن التّصوّف ويُصبح فنّا شعبيّا تنفرد به تونس.

وهذه قِطع من المجرّد :

يَا خَــايْ زُرْتَ احْبَـابِي تْلَقَّـاوْنِي بْفَرْحَة وِسْرُورْ

يَاخَــايْ طَـابْ شْـرَابِي مَـا بِينَّا وِالْكَاسْ يْـدُورْ

الْكَاسِ يْدُورِ الْكَاسِيْدُورْ الْخَمْرَة[3] لأَهْلِ الْحَقِيـقَـة

يَــاخَمَّــارْ وْ يَاعَــمَّارْ اِسْقِنَــا خَمْرَة شَـرِيـقَة

يَـاسَـتَّار وْ يَــاجَـــبَّارْ اِجْعَلْنَا مْنَ اهْلِ الْحَقِيقَة

بِاسْمِ الــــدّايِمْ بِاسْمِ الدَّايِمْ * رِبِّي الْعَــالِمْ عَالِمْ الاَسْــــرَارْ * (يَاوَالْدِي)

يِغْـفِرْ ذَنْـبِي يُسْتُرْ عَيْــبِي * هُوَالسَّـــتَّـارْ هُوَ الْجَبّــَـارْ * (يَاوَالْدِي)

هَمَّلْتُـــونِي خَلِّيــــتُونِي * مِثْلِ اللِّي لاَعَنْـدُه لاَابُـو لاَأُمْ * (يَاوَالْدِي)

رَمِيتُونِي وَ لَوَّحْتُـــــونِي * فِي بَحْرْ لاَ نَعْـرَفْ لُه عُــومْ * (يَاوَالْدِي)

فِي هَذِي الدَّارْ فِي هَذِي الدَّارْ * فِي وِسْطِـهَا حُسْـنِ الْحَضْـرَة * (يَاوَالْدِي)

فِي يُومِ الْعِيدْ فِي ثَــانِي الْعِيدْ * الشَّـيْخْ زَارُوهِ الْفُـــــقْرَا * (يَاوَالْدِي)

يَـا بَابَا الْحَـاجْ يَـا بَابَا الْحَاجْ * يَـا شَيْـــخْ دَاوِيــــنِي نِبْرَا * (يَاوَالْدِي)

3 الخمرة هنا لا تعني ولا تمتّ بصلة إلى بنت العنب، وإنّما هي مصدر من (خمر) أي غطّى، وهنا بمعنى غطّى عليه كلّ المحسوسات وبقي في حضرة الروح، لذلك تتغيّر حاله ويظهر عليه ما يشبه السّكر. وبقية التصوير من كأس وسقاية وغير ذلك من مقتضيات مجالس الخمر، ترشيح استعارة لإكمال الصورة المتخيّلة.

عَــارِي عْلَى أَهْــلَ الله حَلاَّلِينْ بِيبَان   أَيْنَ رْجَــــالِ الصُّــوفِيَّة

يــــَا نَــــاسْ مَــــارِيتُـوا   سِيدِي بمْقَامْ فِي مَنَامِي هَبْ عْلَيَّ

وللطريقة العيساوية جوانب إيجابية أخرى منها المحافظة على جانب كبير من التراث الغنائي في ظرف تقهقرت فيه الألحان الأندلسية، وبرزت بعض العادات والتقاليد البالية المجوجة التي التي ولّدت الأفكار المعادية للفنّ وأهله من جرّاء ما لحق الحياة الفنّيّة من ركود وظهور فنّ اليهود الهابط. ولعلّ من بعض ميزات الطريقة العيساوية وكذلك الطريقة العوامرية والبوعلية إيقاع "الدرّازي" حيث يقع فيه ما يسمّى "المشكّل" أو"الشبوك" وهو نوع من التنافس بين دربوكة ودف، يحاول كل عازف أن يُظهر براعته ويطيح بصاحبه فيختل توازن إيقاعه ويخجل بين الناس فيتحمّس العازفان، بينما يمسك بالميزان عازف ثالث على دفّ، ويتحمّس الجمهور ويكون بذلك فرجة رائقة.

ومن مواعيد العيساوية الشهيرة : عشية يوم الجمعة حيث يلتقي الناس بزاوية سيدي الحاري بتونس وكذلك في المساجد بعد صلاة الصبح فيقرؤون "حزب سبحان الدايم لا يزول":"سبحان الدايم لا يزول، سبحان الباقي لا يفنى، سبحان الله مولانا، إله عظيم مالك قدير، واحد قهّار، عليم شهيد، سميع بصير، لطيف خبير، جليل جميل، معنا حاضر..." وينهونه بـ" أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله اللَّهُمَّ أحينا ياألله يا مولانا عليها، وأمتنا يا ألله يا مولانا عليها، وثبتنا يا ألله يا مولانا عليها عند الشدايد والرجوع إليك يا ألله يا مولانا عليها (3 مرات) اللَّهُمَّ آمين يا رب العالمين. الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله، ألف ألفَيْ صلاةٍ وألف ألْفَيْ سلام عليك وعلى أصحابك يا أكرم الخلق عند الله" ورتبوا بعد هذا قراءة المنظومة التائية للشيخ محمد بن عيسى عشية يوم الجمعة ثم يدعون:"يا خالقي، يا رازقي، يا ثقتي، يا أملي، أنت الرجاء، أنت الولي، أنت المجيب لمن دعا، أنت القديم الأزلي، اختم بخير العملِ، عند حضور الأجلِ، بحرمة طه ويس وسورة المزّمّل (ثلاث مرات) بجاه خير الرُّسُلِ، محمد المفضّلِ، وآله وصحبه وجاه كلّ مُرسَلِ" ثم يسكت القراء ويدعون الله سرّا وبعده هذا الدعاء: "اللَّهُمَّ يا دائم الفضل على البرية، ويا باسط اليدين بالرحمة والعطية، ويا صاحب المواهب السنية، صلّ على سيدنا محمد خير البرية، واستجب لنا

في هذه العشية (3مرات)" ثم خواتيم سورة البقرة ثم: "إن الله وملائكته يُصلّون على النبيء يا أيها الذين ءامنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما. اللّهُمَّ صلّ أفضل صلاتك على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون سبحان ربّك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"[1].

مثل هذه الممارسات اليومية تمسك الناس إلى الطريقة وإلى تلك المجالس بصورة عفوية وتلقائية، فيقبلون عليها بخشوع وأريحية كأنها واجب من الواجبات الدينية يأثم من يتركها أو يخرج عنها، أمّا في غير الأذكار والأحزاب بالمساجد أو الزاوية، فإن الطريقة العيساوية تختلف من منطقة إلى أخرى بالجمهورية التونسية فما تجده عند واحدة قد لا تجده عند الأخرى.

وبصفة عامّة يقسم جماعة العمل في العيساوية إلى صفّين يجلسان بوجوه متقابلة ويقف الزدر(الصدر= الحضرة أي الصف) متجها إلى شيخ العمل. وينطلق عمل العيساوية بقراءة الفاتحة، ثم "ورد القدوم" وبعض الأناشيد ثم مدحات عيساوي ثم خمّاري، ثم ختم، ويقف شيخ الزدر متوسطا أفراده ويصففهم صفا أمام حلقة العمل قبالة الشيخ. والأصل أن يكون أفراد الصف حفاة لابسين المحسور أي خلعوا الجبائب والبرانيس فيردّدون ذكر الله بضمير الغائب (هو، هو، هو) بغرغرة وتهدّج متبعين في ذلك ما يصدر من حلقة العمل، ويتراكعون بالتوازي أو بالتخالف حسب ما تقتضيه الأنغام أثناء المديح الذي تقوم به جماعة العمل. وتستعمل حلقة العمل الدفوف والنغارات والطار والزكرة وأحيانا يعوّضون الزكرة بالكرنيطة في مدينة بني خيار، أو القصبة في الشمال الغربي. وعند قرب النهاية يصبح الوقع سريعا ويترنّم جماعة العمل بـ(الخمّاري) الخفيف فيقف بعض أفراد الزدر بإشارة من شيخهم، فيخرجون ويتخمّرون وينزعجون فيقدّم لبعضهم زجاج فيأكله، وقد يأكلون العقارب ويتمرّغون على الزجاج المهشّم وينبطحون على المسامير الحادة فتكسر الصخر العظيمة على صدورهم أو رؤوسهم فلا يصيبهم منها أذى، وقد يلعبون بالحيات وقد يتمرّغون على الأشواك، وقد يأكلون جمرات

---

1 أحمد بن المهدي الغزال، مختصر الإمام الأمجد، الطبعة الثانية سنة 1349 هـ بتونس.

أو يلحسون حديدا ساخنا محمراء، أو يدخلون مخايط في أشداقهم وجباههم وبطونهم. ويتخمر السياف وهو عاري الجسم فيمسك سيفه الحاد بعد إمراره على حبل متين فيقطعه لبيان حدّته، ثم يمرره على أجزاء من جسمه فلا يصاب بخدش وقد يضع حدّه على بطنه ويصعد شاوش أو شوّاش على ظهر السيف فلا ينغرس في بطن السيّاف، وقد يضعه على ودجه فلا يذبح. وقد قال لنا من لعب هذه الألعاب أنها التمارين والتدرّب الكثير ليصل إلى إتقان أعماله، ونفى أن يكون ذلك ببركة أو شيء من الغيب.

طريقة العمل ببني خيار: يكون الدخول دائما بالعادة[1] ثم قراءة الفاتحة ثم مباشرة وصلات مالوف على وقع النغارات والدفوف. ثم تطرح الآلات ويأتي دور "ورد القدوم" وبعده مجموعة من المصدرات مثل: (قصدي أنظر إليك) في مقام العراق أو (محمد يا نبينا) في الحسين ثم تثقيلة أو تثقيلتين مجرّد، والمجرّد و"ورد القدوم" لا تستعمل فيهما الآلات بتاتا إلا ضرب الأكف في المجرّد فقط على إيقاع 5 من 8 وهو إيقاع تفعيلة (فعولن) مثل:

(مَاكِ الشَّيْخِ الْكَامِلْ   وَانَـا بِيــكِ نْنَــادِي)

(سْمِعْنَا عَنْكْ بْزَايِدْ   وَالنَّاسِ تْقُولَ اوْلَادِي)

ويفعلون ذلك لإطراب الناس وإسماعهم شيئا جيّدا تحضيرا لما بعده.

طريقة العمل بالحاضرة: يجلس شيخ العمل في مكانه وسط المنشدين وله كاهيتان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، يليهما باش شاوش من كل جهة. فيكون الدخول دائما بالعادة، وبعد الجلوس تُقرأ الفاتحة ويقع بعدها إنشاد مقطوعات من المالوف، ثم يشير شيخ العمل إشارة إلى أحد المنشدين في طرف الحلقة حيث مكانه الرسمي فيقصّد قصيدة يستحسن أن تكون في طبع الحسين على شكل عروبي، ثم تنشد المجموعة "ورد القدوم"، ثم مصدّر، ثم تثقيلة أو تثقيلتين مجرّد من نفس طبع الحسين. فيكون "ورد القدوم" بدون آلات مأخوذا عن الطريقة الشاذلية، يخرج فيه الحضَّارة فيرقصون، ويتّفق شيخ الحضرة مع شيخ العمل بإشارة في كل تحويلة إيقاعية[2].

1 العادة : نغمة يستعملونها أثناء المسير قرب الدخول للمحل المقصود، وهي نوع من الغناء الحاد بأوزان مخصوصة.
2 نروي هنا نقلا عن الشيخ علي بوقرة شيخ الطريقة العلوية، والشيخ البشير الذيب من الكاف.

ومن إنشاء أبي بكر بن الهادي الشريف التونسي شيخ زاوية سيدي الحاري المتوفّى في أواخر القرن الثالث عشر الهجري هذا البرول المشهورالذي يخدمونه في صنعة الأصبعين وكثيرا ما يستعملونه في تلقّي حاج أو توديعه، ذكره الصادق الرزقي بالصفحة 124 من (الأغاني التونسية) :

ردّة: يَامُحَمَّدْ * بُحُرْمْتِكْ يَا مُحَمَّدْ * يَامُحَمَّدْ * نْزُور لْبَيْتِكْ نِسْعِدْ

بيت: سَيِّدْالأَبْرَارْ * يِكْفِينَا مِنْ هَوْلِ النَّارْ * هُوَ الْمُخْتَارْ * الصَّادِقِ الْوَعْدِ الْمُرَشَّدْ

بيت: هُوَ نُورِ الذَّاتْ * مَنْ أَتَانَا بِالصِّفَاتْ * عِنْدَ الْمَمَاتْ * يَحْضَرْ لِي طَهَ الأَمْجَدْ

آخر بيت : بُوبَكْرِ ضْعِيفْ * يُنْسَبْ لِلْهَادِي الشَّرِيفْ * مَالُه تَصْرِيفْ * ضَاعِتْ أَيَّامُه مُنَكَّدْ

طريقة العمل بسيدي بوسعيد: هي فرقة بقيادة الشيخ عبد الحميد عبّاس: يبدؤون بالفاتحة ثم البسملة في مقام المزموم مثلا، وهي عندهم مصدرات مثل: (يَا مَنْ لَا يَغْلِقْ بَابَهُ عَنْ سَائِلِه) فتبدأ بإيقاع بطيء ثم تسرع وتختم بمدحة: (حِبُّوا النَّبِي زَيْنِ الصِّفَاتْ) في إيقاع أسرع، ثم تأتي مجموعة من المصدرات في نفس الطبع فـ"ورد القدوم" ثم تثقيلات مجرّد ثم المدحات الخاصة بالآلات.

طريقة العمل بقبلي[1]: يبدؤون بالفاتحة ثم النوبة وهي مدحة تسير على طريقة غناء المالوف يتباركون بها ويفتحون بها العرس أو الحفل ويختمون بها. ثم يقرؤون "حزب الفلاح" لسيدي ابن عيسى. ثم تبدأ الفرقة بمدحة: (يَا بِنْ عِيسَى يَا وَلِي مِكْنَاس) ولهم صف من الشوّاش يرقصون، والنساء يرقصن في جناح آخر. والصفّ عندهم يسمى (العزوزي)، ثم يأتي دور (الشوّاقي) وهو يشبه ما نسميه في الساحل (الغربي) وهو رقص بالأمشاك(الإشفى والمخايط) والحديد، ثم بإشارة من مقدّم الحضرة يقوم الغيّاط (الزكّار) باستخبار يشير إلى مدحة (الرفاعي) فيقوم المقدم ويلقي (شركة) طوقا في عنق راقص الرفاعي وهو راقص السيف، فتكون أوّل رقصة، ثم رقصة (النعام) فيرقص صاحبها على الزجاج والحديد ويأكل العقارب، ثم مدحة (بوقبرين) في نغم يشبه الغربي،

1 بحث ميداني قام به حسين الحاج يوسف.

وتختم الرقصة بالحديد. ثم تأتي رقصة (الذيب) فيرقص صاحبها، وهو لايطيق رؤية مدخّن أو منتعل، فإن رأى حذاء ذهب إليه وافتكه من صاحبه وأكله. ثم تأتي رقصة الخرطيفة (الخطاف) فتستفتح بـ(بسم الله ومحمد رسول الله)، ثم رقصة الجمل فيتمرغ راقصها على الشوك ويأكل ظلف الهندي بأشواكه كالجمل، ثم مدحة الختام أي المالوف الذي بدؤوا به.

طريقة العمل بزرمدين: يقول السيد البشير البريفي[1] شيخ الفرقة العيساوية بزرمدين أن العمل يختلف عندهم، فينطلق (الحزب) بعد العصر من الزاوية إلى دار الفرح وكذلك في الرجوع بالعادة، وغالبا ما تستعمل (نوبة الإصبعين) في ذلك، ومن أبياتها:

رَأَيْتُ طَـهَ فِي مَنَـامِي   وَطَلَـبْتُ مِنْهُ الشَّفَـاعَة

الْمُصْطَفَى بَدْرِ التَّمَامِ   صَلُّوا عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَاعَة

هكذا في نغمة الإصبعين على إيقاع مربع تونسي، ويستمرّون إلى أن يصلوا إلى مكان جلوسهم، فيبدؤون عملهم بتلاوة سورة الفاتحة ثم مجرّد:

(نَاسِ الْمَقَـامْ * جِينَـاكُمْ زِيَّارْ * لاَ تْـرُدُّونَا خَـايِبِين

نِمْشُـوا ِللنَّبِي * نِرْحَلْ دَارِ بْدَارْ * أَحْنَا وِاللِّي حَاضِرِين)

ثم تنشد بعض القطع الخفيفة مثل: (انْزَادِ النَّبِي وِفْرِحْنَا بِيهْ صَلَّى الله عْلِيه)

أو: (يَا كَعْبَة يَا بِيتْ رَبِّي)

في انتظار تلاحق المدعوين. فإن اكتمل الجمع تبدأ الأوراد [الأشغال]:

الورد الأول: (في طبع الحسين صبا) :

صَلُّوا عَلَى الْهَادِي   صَلُّـوا عَلَيْهِ شَـوْقَا

عِزِّي وَإِنْـشَـادِي   اَلْمُصْـطَـفَى حَــقَّا

وَغَايَـةُ مُـــرَادِي   مِنْ حَـوْضِهِ نُسْـقى

---

1 كان الحديث مشافهة في بحر السنة 2007 تقريبا.

ثم تحويلة على إيقاع البطايحي:

يَا فَرْحَتِي يَا هَـــنَــايَا   أَنَا بَلَـغْتُ الأَمَـــانِي

بِنْ عِيسَى شَـيْـخ الْعِنَـايَة   سِيدِي مِنْ كَاسُه سَقَانِي

ثم تحويلة ثانية: وصلة مالوف على وزن دخول براول (من البحر المتقارب):

أَتَـانِي زَمَـــانِي بِمَا أَرْتَضِي   فَبِاللهِ يَا دَهْرُ لاَ تَنْقَـضِي

وَيَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ عُودِي لَنَا   لأَنَّ الْحَبِيبَ عَلَيْنَا رَضِي

ثم يختم الورد بمجموعة من البراول في (مقام الحسين):

مَا بِيدُه قَضِيَّة * اَلْعَبْدُ مُسَيْكِنْ * مَالَـهُ اخْتِيَارْ

ثم برول آخر: نَوَّرِ اللَّوْز * فَتَّـحْ * وَجَبَ الْعِشْقُ عَلَيَّ

ثم برول آخر: اِمْلأْ كَاسِي * يَا حِبِّي * وَاسْقِينِي

وِاذَا * شْرِبْتُه يَا رُوحِي * هَنِّيـنِي

ومن المعلوم أن هذه الوصلة تنشد بدون صف (أي بدون راقصين) إذ كل ما وقع كان في انتظار تكامل الجمع صفًا ومدعوين.

الورد الثاني: (في طبع السيكاه): يقوم ثلاثة شوّاش بإعداد الصف (أي جمع الراقصين) الذين يكونون حفاة مرتدين جبايب أو بلايز مدوّرة فيقول أحد الشواش الثلاثة: (الله) ويرد الصف وهم يتراكعون (هو) أو (الدايم) لفترة زمنية قصيرة.

ثم يستخبر الزكّار في طبع السيكاه ويردّد (القصايدي) عروبيا (موالا) مثل:

يَا نَاسْ كِيفَـاشْ نَعْمَلْ   وِاللِّي هْـوِيتُه جْفَـانِي

أو:

نَادِيتْ فِي ظُلْمَةِ اللِّيـلْ   وِالْقَلْبْ هَايِـمْ يِدَادِي

جَلُّولْ يَا فَارْسِ الْخِيـلْ   وَاجِبْ وْلِيدِكْ يْنَادِي[1]

1 من قصيدة للشيخ المنزلي (انظر :السفينة القادرية، ص252)[واجب وليدك ينادي] : أَجِبْ ابْنَكَ الَّذِي يُنَادِيك.

وعندها تنطلق المجموعة في إنشاد:

بِاسْمِ الإلَهْ نِبــــدَا   رَبِّي الْعَمَـالَة عْلِيـهْ

يَا عَاشْـقِين مُحَمَّدْ   زِيدُوا الصَّلاَةَ عْلِيهْ

ويأتي دور الصف الذي يضمّ ما لا يقل عن ثلاثين راقصا أو أكثر ويشارك في طرفيه مجموعة من الأطفال لإعدادهم لحمل المشعل، فينطلق على إيقاع 4 من 8 فيستقيم واقفا في الأوقات القوية (دم) وينحني في الأوقات الضعيفة (تك).

يَا هَلْ تَرَى يَا عُمْرِي   الأَرْكَابْ أَيْنَ رَحْلُوا

قَاصِـدِينِ الْهَــــادِي   شُورِالْحَبِيـبْ وْمَحْلُه

ثم، تحويلة (يتغير فيها الإيقاع) على إيقاع البطايحي 4 من 4 فيبتدئ عمله من الـ(دم) الأولى:

خَلُّونِي بِالله يَا نَاسْ * وَانَا مَا يِشْرِينِي * كَانْ وَلِي مُكْنَاسْ

صَلِّـــيوْا عْلَى مُحَمَّدْ   صَلِّيوا عْلِيهْ وْزِيدُوا

يَامَنْ عَـشَقْ مُحَمَّـدْ   يَـا رَبِّ تـاَخِذْ بِيدُه

ثم يأتي دخول براول سريع فيه ركز بالرجل على الأرض رمزا لسحق الشيطان، فيكون ختما على إيقاع 6 من 8:

سَاكِنْ مُكْنَاسْ [بابا مُحَمَّدْ] * دَاوِي وْلِيدِكْ * مَا فِيهَا بَاسْ

الورد الثالث: (في طبع المحير سيكاه) على نفس ترتيب إيقاعات الورد الثاني ونفس رقصة الصف لكن الزمن يطول هنا ليلتحق إلى حلبة الرقص كل من لم يرقص سابقا فينطلق :

دَاخِلْ لِلْحَـضْرَة   وِالشّمَعْ مَرْكُوزْ

ولا صلة لها بالواجب أي الفرض .وتمام العروبي :

يَاكِيلاَنِي * بِالْهَاشْمِي الْمُخْتَارْ لاَ تِنْسَـانِي * يَا ضَنْـوَةْ أُمِّ الْخِيرْ

يَـارَبّـانِي * يَاصَاحِبِ التَّصْرِيف فِي الدِّيوَانِ * سِيدِي ابْنَ أُمِّ الْخِيرْ

صَاحِـبِ الْبَرْكَة بابا عْلِي عَــزُّوزْ

دَاخِلْ لِلْحَـضْرَة وِالشّمَعْ ضَــاوِي

صَاحِـبِ الْبَرْكَة سِيدِي بُــورَاوِي

دَاخِلْ لِلْحَـضْرة وِالشّمَعْ يِتْــلاَلاَ

صَاحِـبِ الْبَرْكَة سِيــدِي بُودِرْبَالَة

إلخ ... على إيقاع 4 من 8، ثم:

الله الله الله * لا إلــه إلا الله * وْفُقْرِةْ بِنْ عِيسَى * مِتْوَكْلِينَ عْـلَى الله

الله الله الله * لاإله إلا الدَّايِم * وْفَضْلِـكْ يَـا رَبِّي * يَا بَاسِطْ كُلِّ نْعَايِمْ

ثم فزعة (بإيقاع سريع) دخول براول وبضرب الأرجل على الأرض في وزن 4 من4:

هَيَّا يَا مَحْبُــوبِي هَيَّا نَغْنِمُوا سَاعَة هَنِـيَّة

وْنَعْطِي لِلْخَمَّارِ دَلْقِي وَالثِّيَــابِ اللِّي عْلَيَّ[1]

ثم ختم بوزن 6 من 8:

يَا أَهْـلْ سُوسَة * قَـدّرُوا بُورَاوِي * وَاعْـطِـيُوهِ * الْبِيبَان وِالْمِفْـتَاحْ[2]

وِالاَّ يَرْمِيكُمْ * فِي بْحُورْ هْوَاوِي * وِاذَا نْـزُورُه * نِسْـعِـدْ وْنِــرْتَاحْ

ويشترك الصفُّ في الترديد مع حلقة العمل، فيقول الصف (ياالله الله الله) بعد كل غصن تقوله الحلقة: (الحلقة):

يَا دَائِـمَ الْبَقَاء (الصف) : يــــــا الله الله الله

أَغِثْــنَا بِالْوُصُولْ يـــا الله الله الله

يَا دَائِمَ الْبَقَــاء أَغِثْـنَا بِالْــوُصُولْ

1 الدلق هو الجبة قبل أن (توضع لها تفاويفها وعمارتها) تطرّز.
2 أمر بالثقة الكاملة والتسليم الكامل للشيخ، فهو يأمر أهل سوسة بالتسليم للولي الصالح بوراوي.

اِلشَّوْقِ مْعَ اللِّقَـاء   وِمْحَبَّة فِي الرَّسُـولْ

لاَ نَفْسْ وْلاَ هَوَى   يَا مَنْ عَتَبْ يَزُولْ

يَا مَنْ شَـرَبْ رَوَى   مِنْ كَاسِهِمْ يَقُـولْ

سُكَّـانْ فِي الْجَرِيـدْ[1]   يَهْنَى مَـنْ زَارَهُمْ

عَنْ شَمْلِهِمْ بَعِيدْ   صُعْبِتْ دِيَـارُهُمْ

يَا سِيدِي بُوسَعِيدْ * قَرِّب جِوَارَهُـمْ الرَّكْبِ رْحَلْ وَسَارْ * وَارْحَلْـهَا يَا فَهِيمْ

رَحْلُـوا مِنَ الدِّيَارْ   وَانَـا فِيـهَا مُقِيمْ

وَ خَلَّـفُوا الصِّغَارْ   وِالأَهْلِ مْعَ الْحَرِيمْ

عَيَّطتُّ[2] بِالجِهَـارْ   لِمَوْلاَنَا الْكَـرِيمْ

يَا خَالِـقَ الـثِّمَارْ   فِي جَنَّةِ النَّـعِيمْ

أُرْزُقْنَا بِالْـبِـكَارْ   وَخَيْرِ مُسْـتَـدِيمْ

ثم بالدربوكة والصف دون بنادر وزكرة يقف أصحاب الحلقة لترديد مدحة فيردّد الصفّ (لاإله الا الله) في نفس اللحن:

نِبْدَا بِاسْمِ الْوِحْـدَانِي   فِي ذِكْـرِهِ شِـفَـاء

نِمْدَحْ فِي الْعِدْنَـانِي   طَـهَ الْمُصْـطَفَـى

صَلِّ يَا مَنْ هُوَ حَاضِرْ   عَلَى رَفِـيعِ الشَّـانْ

وَلاَ تَكُـنْ بِغَـافِلْ   عَنْ شَيْخِكْ يَا إِنْسَانْ

شَيْخِ الْحَقِيقَة الْكَامَلْ   بِنْ عِيسَى هُوَالسُّلْطَانْ

طالع: اَلْعَارِفِ الـرَّبَّانِي * (لاَ إله إلا الله) * آ مِنْهَاجَ الصَّفَـا

---

1 الجريد منطقة الجنوب الغربي التونسي بلاد الواحات ومنها نفطة وتوزر.

2 ناديت بصوت مرتفع.

نَعْتَـزُّ بِالرِّضْوَانِي * (لاَ إلهَ إلا الله) * فِي عَيْنِ الْمَعْرِفَه

رجوع:

هَذِي هِيَ الطَّرِيـقَة يَـا جَاهِلَ الصَّوَابْ
كُنْ وَاثِقْ بِالْحَقِيقَة وَالسُّنَّـة وَالْكِتَـابْ
تُسْقَى خَمْرَة شَرِيـقَة مِنْ خَمْرَةِ الأَقْطَابْ

طالع: أَنَا بَابَا سْقَـانِي * (لا إلهَ إلا الله) * ظَاهِرٌ وَمَا خَفى
بْحِلِّتُه حَلاَّنِي * (لا إلهَ إلا الله) * وَزِدتُّ مَعْـرِفَه

رجوع:

أَنَـا بِنْ عِيسَى الْغَـرْبِي سَاكِنْ مُكْنَاسِ الأَقْصى
يَـا شَـيْخْ مَـانِي مُغْـبِي فِي كُـلِّ بِـلاَدْ لِي حِصَّة
واقِفِ لأَوْلاَدِي حَرْبِـي وِاللِّي يْعَـرَّضْ لِي نْقُـصَّه
يَا مُـولَى الْقُبَّـة الْخَضْرَة مِنْ بُعْدِ تْـبَـانِ تْنَـادِي
فِي كُـلِّ عْشِيَّة حَضْرَة يِجْتَمْعُـوا فِيـهَا أَوْلاَدِي
تْجَلِّي عْلِيـهُمْ كَـدْرَة يِبْـرَاوْا مِن الأَنْكَـادِ
مُحَمَّدْ مُـولَى الْخَضْرَة مِنْ تُـونِـسِ لْبَغْـدَادِ

ثم يتغيّر الإيقاع فيصير (محواشي):

بِاسْـمِكْ نِبْدَا يَـا عَالِمْ بِحَـالي
كُنْ لِي سَنْدَة لاَ تِقْـطَعْ أَمَالي

طالع: اللهُ رَبِّـي أَنْـتَ الرَّبُّ الأَعلى
اِجْمَعْ لِي شَمْلِي فِي الْكَعْبَةِ السَّامِية

اللهُ رَبِّــــي أَنْتَ الرَّبُّ الْمَعْبُـودْ
وَخُـذْ بِيـدِّي يَامُولَى مُحَلِّ الْجُـودْ

رجوع: يَا لاَيِـمْ الإِخْوَانْ ظَنِّي رَايِكْ مَعْدُومْ
بِنْ عِيسَى سُلْطَانْ طَـاعَتْهُ كُلِّ سْمُومْ
وَانْظُرْ يَا إِنْسَـانْ ذَاكِ السِّرِّ الْمَعْـلُومْ

طالع (الصفّ يتقدم ويتأخر):

بُكْرَة وَمَسَاء * (لاَإِلَهَ إِلاَّ الله) * حِزْبُه يجَلِّي الأَوْكَاسْ
بَابَا بِنْ عِيسَى شَيْخِي بحْرُه لَيْسَ يُـقَاسْ

رجوع : (في نغمة الحمدان):

صَلُّوا يَا حُضَّـارْ عَلَى سَيِّدِ الثَّـقْلَيْنْ
اَلْمُصْطَفَى الْمُخْتَارْ جَدِّ الْحَسَنْ وَالْحُسَيْنْ
وَارْضُواعَلَى الأَخْيَار وَاصْحَـابُه أَجْمَـعِينْ

ورد الخمرة: وبه يُختم عمل الحزب، فينطلق بعروبي:

الله لاَ إِلَــهَ إِلاَّ الله وَاحِدْ وَحْدُه لاَ شْـرِيكْ مْعَاهْ
الله لاَ إِلَــهَ إِلاَّ الله سِيدِي بِنْ عِيسَى عَلَيْهِ سَلاَمُ الله

ثم على إيقاع محواشي:

صَلُّـوا عَلَى الْهَادِي صَلُّوا عَلَيْهِ شَوْقَا
عِـزِّي وْإِنْشَـادِي الْمُصْطَفَى حَقَّـا
وْغَـايَةْ مُـرَادِي مِنْ حَوْضِهِ نُسقى
يَوْمَ يْكُـونُ النَّاسْ فِي شِـدَّةِ الْعَرْقَة

ثم (ورد الخمرة) على إيقاع المربع التونسي ولهجة السعداوي :

خَمَّرْ يَا خَمَّارْ * خَمْرَة شَـاذُلِيَّة * بَابَا بِنْ عِيسَى * يَا مَـا أعَـزُّه عْـلَيَّ

خَمَّرْ يَا خَمَّارْ * يَعْطِيكْ الْعْنَايَة * بَابَا بِنْ عِيسَى * فِي الْحَضْرَة يْكُونِ مْعَايَ

خَمَّرْ يَا خَمَّارْ * خَمْرَةِ الْوِحِيشِي * بَابَا بِنْ عِيسَى * جَـدُّهُ قُـرَيْـشي

خَمَّرْ يَا خَمَّارْ * خَمْرَةِ الصَّبُـوحِ * بَابَا بِنْ عِيسَى * هُوَ عَقْـلِي وْرُوحِي

وهنا ينزل إلى الرقص كل من هو مجذوب على شيء، فيتشكك راقص الهندي بأشواك الظلف الطويلة والحادة حتى يصبح كالقنفذ، وينبطح راقص الزجاج على القوارير المهشمة، وقد يكون هؤلاء من المتفرجين.

في هذه الفترة من السهرة يأتي كل من أراد الدخول في الحزب بقصعة من البسيسة إلى دار الحفل، ويضعها في الحلقة فتقرأ عليها فاتحة الكتاب، ويقوم طفل صغير بيد بريئة فيديرها على الحاضرين، فيأخذ كل واحد منها إصبعا أو إصبعين، وهكذا يصبح صاحبها قد دخل الطريق أو كما يقال: (نزل في حزب سيدي بن عيسى).

ويختم الحفل بتلاوة الفاتحة وينتهي، فيخرج جماعة العمل بالعادة كما دخلوا ويرجعون إلى زاويتهم.

أما في الزواج مثلا (وكذلك في الختان) فيكون الدخول بالعادة: (رأيت طه في منامي)، وصفته: أنه بعد صلاة العشاء يرجع العريس إلى منزله (وزوجته تحت الخباء في انتظاره) فإما أن يرجع من جامع مسجد أو من الزاوية العيساوية فيقف في صفّه وتقرأ الفاتحة، ثم يستخبر الزكّار في المزموم ويدخلون في (ورد المزموم) على طول الطريق بين الدار والزاوية فيكون على إيقاع مربع تونسي 4 من 4 :

يَا إِلَهِي طْلَبْتِكْ يَا غَفُورِ السَّيَّة   يَا شَيْخِي بِنْ عِيسَى إِعْطِـفْ عَلَيَّ

بِاسْمِ اللهِ بْدِيتْ * فِي مَبْدَايَ * ثُمَّ الصَّلاَةُ عْلَى * عُـمْدَتِي وِرْجَايَ

مُحَمَّدِ الْمَبْعُـوثْ يُومِ لْـقَايَ   مِنْ حَرِّ صَهْدِ النَّارْ يِشْـفَعْ فِيَّ

ثم تحويلة بطايحي :

يَامَنْ سِتْرُهُ مَسْــــدُولْ قَدْ رَفَعْتُ إِلَيْكَ رَاسِي
قَاصِدْ بَابِكِ الْمَحْلُــولْ اِرْحَمْ عَبْدِكِ الْعَاصِي
حُبّ النَّبِي زِينِ الصِّفَاتْ حَــازِ الْكَــرَامَة
مِنْ نوُرِهِ الشَّمْسْ أَشْرَقَتْ فِي أَرْضِ رَامَــــــه
وِكْذَلِكْ يِشْفَعْ فِي الْعِبَــادِ يُـومِ الْقِـظـيَامَـــة
صَلُّوا عَلَى بَدْرِ الْبُــدُورِ أَحْمَــــدْ مُحَــــمَّدْ

وينتهي الشغل بنهاية هذا الختم:

هَيَّا يَا مُحْبُــوبِي هَيَّا نِغْنِمُوا سَاعَة هَنِــــيَّة
نَعْطِي لِلْخَمَّارْ دَلْــقِي وَالــثِّــيَــــابِ اللِّي عَلَيَّ
يَا مَكَّة لَوْ كُنْتِ تِرْحَلِي تْجَاوِرِينِي فِي الدَّارْ وْ تِنْزِلِي
يَعُودِالْحَجَّ حْــذَايَ آهِ وِنْنَـــالْ مُــرَادِي
اِلْهَـوَى لِلْعِيــسَــاوِيَّة حُبُّـهَا وَاجِـــبْ عَلَيَّا

ورد النوى : يكون على إيقاع بطايحي:

مِسْكِيْن قَلْبِي بِالْهَوَى مُقَـيَّدْ سَكْرَانْ مِنْ نَشْوةِ الْــغَرَامْ
مَنْ يَعْشَقْ الْمُصْـطَفَى مُحَمَّدْ كِيفْ يَهْنَا فِي الْفَرْشْ وَيَنَامْ
أَنَا الَّذِي سِحْتُ فِي اشْتِــيَاقِي طُولِ اللَّيَالِي عَلَى الــدَّوَامْ
بِاللهِ يَا حَادِي النِّــيَـــاقِ اِحْمِلْنِي لِلْهَـــاشِمِي الرَّسُولْ
اَلْمُصْطَفَى بَــدْرِ التَّـمَــامِ مَا زِلْتُ فِي مَدْحِهِ أَقُــولْ
مَا زِلْــتُ فِي مَدْحِهِ أُجَدِّدْ طُولَ اللَّيَالِي عَلَى الــدَّوَامْ

مَنْ يَعْشَقْ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدْ كِيفْ يَهْنَا فِي الْفَرْشْ وَيَنَامْ

ثم (على وزن دخول براول) مجموعة براول من المالوف الأندلسي:

أَقْبَلَ زَمَانُ الْخِلاَعَة فَاسْتَقْبِلْ أَيَّامَ السُّرُور

أُمُّ الْحَسَنْ فِي الْخِلاَعَة فَازَتْ عَلَى جَمِيعِ الطُّيُور

الدُّنْيَا سَاعَة سَاعَة اِغْنِمْ زَمَانِكْ لاَ يَمُور

اِغْنِمْ زَمَانِكْ بِوَاجِبْ اِزْهَ وَتِهْ مَعَ الْحَبِيب

بِالْكُوِيتْرَة وَ الرَّبَايِبْ وَالطَّارِ وَالنَّقْرِ الْعَجِيب

إِدْرِ يَا مَنْ لَيْسَ يَدْرِي فَالْحُبُّ شَيْءٌ عَظِيم

أَنَا حَبِيبِي فِي صَدْرِي فِي وِسْطِ قَلْبِي مُقِيم

مَوْلاَيَ لَا تَفْضَحْ أَمْرِي مُحْيِي الْعِظَامِ الرَّمِيم

وَاحْيَانِي مِنْ بَعْدَ أَنْ فَنَانِي وَسْقَانِي خَمْرًا عَتِيق

حَتَّى جَمِيعْ مَنْ يَرَانِي يَقُولْ مُسَيْكِنْ عَشِيق

وعلى هذا النظام نجد الحزب في زاوية قنطش والكنايس والمسعدين (عمادتين بمساكن) ولكن بمدحات مختلفة.

طريقة العمل بسوسة: حسب ما تؤدّيه فرقة عيساوية الشباب بقيادة مرشد براهم :

(1)الدخول بالعادة: وعادة ما يكون بنوبة غربي مثال :

يَابِنْ عِيسَى * وَاحْضَرْ يَا سُلْطَانْ * خَبْرِكْ هايَا سِيدِي * شَايِدْ فِي الأَوْطَانْ

(2) الفاتحة، وعمل التشتري، ففي مقام الحسين مثلا والآلات على الركب وهي زكرة وبنادر ودربوكة :

صْلاَةْ نَبِيناَ فَايْدَة فيهـا البركة زايـدة

اَلنَّبِي يَاحَاضِرِينْ اِعْلَمُوا عِلْمَ الْيَقِينْ

أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينْ   أَوْجَبَ الصَّلاَةْ عَلِيهْ

(3) نوبة الاستفتاح: تكون غالبا في الحسين:

بطايحي :   بِكَ نِبْدا * يَا مَنْ لاَتِنْسَانَا * حَيٌّ بَاقِي * رَبِّي مَـوْلاَنَا

تحويلة: مَالِي وَالِي * غَيْرِكْ مَوْجُودْ * فِي لْسَانِي * ذِكْرِكْ مَا احْلاَهْ

يَا مَا اعَـزَّكْ عِنْدَ الْمُرِيدْ   يَامحـمّد زَيْـنِ الْخَاتِمْ

وتنتهي بمجموعة من البراول.

وهذه نوبة المحيّر سيكاه:

مصدّر:

يَـا مُطْـرِبَ الإِخْـوَانْ   اِسْمَعْ مِنِّي ذَا الْمَقَالْ

حَـقِّ الْبَـيَـانْ   شَيْخِي مـَا يِنْسَـانِي

بِنْ عِيسَى فَحْلِ الرِّجَالْ   سِرُّه أَعْـيَـانِي

ظَـاهِـرْ فِي الأَوْطَـانْ   قُطْـبِ الزَّمَـانْ

مَـا يَخْفَى عَنْ حَـالْ   مَدّ الْكَـاسِ اسْقَانِي

مِنْ خَمْرَة تُسْبِي الرِّجَـالْ   طُـولَ الزَّمَـانِ

بِهَـا يَـتا خِـلاَّنِي   فَاحَ السِّر بِاتِّصَـالْ

وَالْحَـقّ بَـان   ثَوْب جْدِيد كْسَـانِي

تحويلة: أنا قَلبي مشتاق للزِّيَارَة   لِمْـدِينِةْ مِكْـنَـاسْ

فِي وِسْطِ الْحَضْرَة * نُشْرُبْ جْهَارَة مِنْ * كْيُوسِ اجْنَـاسْ

نُشْرُبْ شَـرْبَة * يِزْيَانْ حَـالِي * مَا بِينِ الاِخْـوَانْ

نُطْـرُبْ بِيـهَا * وِنْزِيدْ الْغَادِي * فِي وِسْـطِ الدِّيـوَانْ

يَـا بَـابَـا مُحَـمّـد * يَا راس مَـالي * يَا مِكْسِي الْعِرْيَـانْ

يَا ضَنْوَةِ الأَشْرَافْ * يَـا عِـزّ مـالِي * يَا رَاوِي الْعَطْـشَانْ

(درازي، سيكاه):

إذَا نْخَمِّرْ مَـا نُوجِـــدْ رَاحَة * يَابَابَا يَابَابَا

وِيزِيدْ وَجْدِ الْمَحْبُـــوبْ عْلَيَّ * يَابَابَا يَابَابَا

نَـا دَمْعْتِي سَيَّـالَة طَـفَّـاحَة * يَابَابَا يَابَابَا

فُوقِ الْخُـدُودْ مْصَوِّبَة مِذْرِيَّـة * يَابَابَا يَابَابَا

أَهْلِ الْمَحَبَّة يَعْـرِفُوا مَا بِيَّـهْ * يَابَابَا يَابَابَا

لَوْ رِيـتْ مَـا رَايتْ وَانَا نَـايِمْ * يَابَابَا يَابَابَا

رَايتْ فِي الْجَنَّة زوزْ عْـوَالِـمْ * يَابَابَا يَابَابَا

يِتْحَدثوا بِشْـغَايِلْ وِمْعَـانِي * يَابَابَا يَابَابَا

مِنْ وَحْشْهُمْ نَاصَارْ قَلْبِي فَانِي * يَابَابَا يَابَابَا

بروول سريع:

يَا بَابَا حِسِّ الطبُـولِ تْنقْمَرْ * يَابَابَا يَابَابَا

وَالسِّنْكَة زَادِتْ عْلَى مَا بِـيّهْ * يَابَابَا يَابَابَا

قُلْت لِهُمْ عْلاَشْ هَذَا الْعَسْكَرْ * يَابَابَا يَابَابَا

قَـــالُوا لِي زِيَّـارْ بَـابَا رْقَيَّة * يَابَابَا يَابَابَا

كَـانْ انْتُمْ أَوْلاَدْ بَابَا قَـاسِمْ * يَابَابَا يَابَابَا

حَتَّى احْنَا اَوْلاَدْ صَـافِي النّيَـة * يَابَابَا يَابَابَا

ومثل ذلك العمل ما يتمّ بمساكن والمنستير والمهدية وأغلب مدن الساحل.

وينتهي العمل بمدينة المهدية دائما بإيقاع مخصوص يتدرّج من البطيء إلى السّريع ويُسمّى (المطاشية).

طريقة العمل بصفاقس: في ليلة الاثنين من الأسبوع الأول من فصل الشتاء تبدأ الطائفة العيساوية عملها بمدينة صفاقس بعد صلاة العشاء، فتجتمع كامل الفرقة في شكل حلقة مستطيلة لأداء الحزب الكبير ثم المتسبعات (وهي تلاوة سبع مرّات لكل من فاتحة الكتاب والسور الآتية : النّاس والفلق والإخلاص والكافرون وآية الكرسي) ثمّ يقرؤون حديث الشيخ مَحمّد بن عيسى.

وبعد ذلك تنتصب الحضرة العيساوية وتتركب من جماعة الفرقة والمنشدين وجماعة الحضرة (أي الخماري) وتبتدئ أوَّلاً بنوبة الذيل التي تتكوّن من البطايحية ومجموعة من البراول، وعند الانتهاء من هذه النوبة يشرعون في نوبات الخمّاري وهو أن يسلّم الشوّاش للمتخمّرين (السلاح) السيوف والحراب وظلف الهندي وغير ذلك من الممارسات الرفاعية والسعدية العجيبة.

وفي ليلة الاثنين الموالية يكون العمل على نفس الطريقة، وتكون البداية بنوبة العراق حسب الترتيب الفنّي العام للنوبات التقليدية بالمالوف التونسي. وهكذا يكون العمل كل ليلة إثنين مدّة ثلاثة عشر أسبوعا فتكون الفرقة قد استوفت جميع النوبات المذكورة، وتعود من أوّل إلى نهاية الرّبيع حين ينتهي عمل الزاوية بأداء زيارة إلى ضريح وليٍّ خارج مدينة صفاقس مثل سيدي بوعكّازين، أو سيدي أحمد بوعبسة، أو صيد عقارب[1].

طريقة العمل بالكاف: يسمى العمل عندهم (مدحة) وليس النوبة لأن النوبة لا توجد إلا في المالوف عندهم، وذلك لأن جل نوبات المالوف أتت بها طريقة العيساوية إلى تونس. ثم يأتي دور المدحات، فيبدؤون في الاستفتاح بـ"ورد القدوم" والمصدّر والمجرد.

يأتي الاستفتاح في (الذيل) مثلا:

(يَا مُصْطَفَى غَرَامِكْ   قَدْ مَزَّقَ الْكَبَـدْ
الشُّرْبُ مِنْ مُدَامِـكْ   يِبْرِي مِنَ الْكَمَدْ)

1 عن علي الحشيشة، السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس، صفاقس :2000، ص17.

إلى أن يأتي دور البراول فيبدأ بطيئا: (يَا أُهَيْـلَ الحِمَى قَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكُمُو)

وهو من مالوف الجد[1]، ثم تختم ببرول سريع في الذيل أيضا:

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى بَدِيعِ الجَمَالِ وَ بَحْرِ الْـوَفَا

وَصَلِّ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي الصَّادَقْ مُحَمَّدْ عَلَيْهِ السَّلاَمْ

صَلاَةً تَدُومُ وَتَبْلُغْ إِلَيْه بِعَدِّ اللَّيَالِي وَ طُولِ الدَّوَامْ)

وصلة أخرى في طبع المزموم:

(يَا مَنْ سِتْرُهُ مَسْبُـولْ إِلَيْكَ رَفَعْتُ رَاسِي

قَاصِدٌ بَابَكَ الْمَحْلُـولْ اِرْحَم عُبَيْدِكْ عَاصِي)

ثم مجموعة من البراول تنتهي:

(سَلَبَتْ لَيْلَى * مِنِّيَ الْعَقْـلَ * قُلْتُ يَا لَيْلَى * ارْحَمِي الْقَتْلَى)

ورد القدوم عن جماعة باجة: نقل الأستاذ حسين الحاج يوسف[2] عن الشيخ محمد بديرة وعمره 85 سنة برفقة السيد بلقاسم بريك الذي يرد عليه اللازمة وهو آنذاك المسؤول المالي والإداري بمندوبية الثقافة بباجة.

عَظِّمْ عَظِّمْ مَنْ لاَ يَنَـامْ وَاحِدْ فِي مُلْكُه بَـاقِي

لاَ تَجْعَلْ فِينَا يَـا أَللهْ لاَمَحْـرُومْ وَ لاَ شَـاقِي

عَظِّمْ عَظِّمْ مَنْ لاَ يَنَـامْ فِي قَلْبِي زَادْ حْـلاَوَة

يَا مَوْلاَيَ بِنْ عِيسَى الحْبِيبْ يَا سُلْطَانِ الْعِيسَاوَى

عَظِّمْ عَظِّمْ مَنْ لاَيَـنَـامْ فِي قَلْـبِي زَادْ مْحَبَّة

يَا مَوْلاَيَ بِنْ عِيسَى الحْبِيبْ شَيْخِي يَـا عِزِّ الطُّـلْبَة

1 يقسمون المالوف إلى جد وهزل: فمالوف الجد ما اختص بمدحات الصوفية وغيرها، ومالوف الهزل: ما فيه ذكر الخلاعة والمجون والغرام.

2 حديث مباشر أجراه الأستاذ حسين بلحاج يوسف مع الشيخ محمد بديرة بتاريخ 25 نوفمبر 1994 بباجة.

يَــاخُــوتِي مَــا نِيشِي غَــرِيــبْ   أَهْلِي فِي كُلّ اوْطَانِ(ي)
شَــقِّ الصَّحْرَاء وَشَــقِّ الجْرِيدْ   شَقِّ بْلاَدِ السُّــودَانِ(ي)
طَاوَعَــهَــا شَيْــخِي مِنْ بَعِيدْ   جَابْهَا حُرَّة وْ حُــورَانِي

طريقة العمل بتستور من ولاية باجة[1]: يبدأ العمل بتلاوة من القرآن الكريم ثم تأتي قراءة الأحزاب (حزب سبحان الدايم لا يزول، وحزب الفلاح) ثم دلايل الخيرات للشيخ الجزولي ثم ينتقلون إلى المدائح والأذكار والقصائد، فتبدأ الفرقة بمجرّد ألّفه الشيخ عمر الشريف من مشايخ سيدي الحاري بالقلالين بتونس العاصمة والدليل على تأليفه له أنه يذكر اسمه في آخر الأبيات، وهو:

هَيَّــــا نْزُورُو شَيْخْنَــا يَا فقْــرا   شَيْخِي بِنْ عِيسَى اللِّي يْشُوفُه يِبْرَى

فيذكرون عدّة مشايخ من تونس العاصمة ثم من خارجها ... ثم على وزن البرول:

كِيفْ نَعْمِلْ يَا سِيدِي   مِنْ فِرَاق الاَحْبَاب

ثم ورد القدوم: تتخلله تثقيلات مجرّد ومصدرات (قصائد دينية).

وعندما يدخلون الميعاد يبدؤون بـ:

جِينَــاكُمْ زِيَــارْ   يَا أَهْلِ الطَّرِيقَة الزِّينَة

طريقة العمل بمدينة قابس: يبدأ العمل بتلاوة حزب الفلاح ثم الرقايق: أي مجموعة من الأغاني التراثية (صنايع) يذكر فيها كلام عن الشيخ بن عيسى تؤدّى موزونة على إيقاع الدفوف الموضوعة على رُكَب العازفين وتبدأ من البطيء إلى السريع، مصحوبة بآلة (الكلارينات)، ثم يأتي دور البندير وبقية الآلات، وهذا يمهدون به الجوّ قبل النوبات والعمل العادي بالزّكرة. ثم يُشرع في المبيتة (السهرة) فتنطلق بـ:

1) - نوبة الاستفتاح.

2) - مصدّر يخرج معه الصف وشاوشان أحدهما يهيء أصحاب الصف ويخرجهم

1 حديث مباشر أجراه الأستاذ حسين بلحاج يوسف مع الشيخ حمادي المانسي قصد الله شيخ الطريقة العيساوية والمالوف بتستور بتاريخ 02 ديسمبر 1994.

والآخر يقول (دَايِمْ حَيْ).

3) - وتأتي رقصة الرفاعي فيقفز ويقوم بحركات بهلوانية.

4) - ورقصة العزّوزي: فيرقص بالأمشاك (المخايط) يرشقها في أشداقه وفي جبهته وفي بطنه.

5) - ورقصة الغربي: ويتمرّغ الراقص على الأشواك وظلف الهندي.

6) - ورقصة الجمالي: وهما راقصان متقابلان يقدمان حركات منسجمة ومتناسقة.

طريقة العمل بالقطار(جهة قفصة): يقام الحفل في العادة بين العصر والمغرب، لكنّ الانطلاقة تكون قبل العصر من الزاوية بمثابة الإعلان عن الحفل، وبعد صلاة العصر تخرج الفرقة من الزاوية مثل الحزب، وتقوم بنوبة تتواصل إلى منزل المختون مثلا. عند الوصول يسخّن شاوش الأثاث الآلات خارج المنزل وتدخل الفرقة بالنوبة الإيقاعية. وعندما يجلس أعضاء الفرقة يشرعون في قراءة الفاتحة ثم نصيب من "حزب سبحان الدايم لا يزول"، ثم الأحزاب الكبير والصغير والفلاح، ومن الطريف أن ينشد حزب"سبحان الدايم لا يزول" لحظة الختان إذ أن العملية تعتبر مقدّسة، ثم يتقدّم شيخ الصف فيقرأ الفاتحة من جديد بصوت عال، ثم ينادي:

يَا ابِنْ عِيسَى يَا وَلِي مُكْنَاسْ　　سلَّكْ يَا ابِنْ عِيسَى لاَتُكَاسْ

أَحْضَرْ يَا نَعَّارْ　　يَا مَوْلاَنَا أَحْضَرْ

ويقف الصفّ (الصدر) حفاة بدون جبايب أمام حلقة العمل ويذكرون بصوت واحد (هو.. هو.. هو..) ويتبعون حركة شيخ الصف الذي قد يخرج منه ليأتي برقصة أو حركة كي يراها الصفّ ويتّبعها أو بالتصفيق والغرغرة في ذكر الاسم الأعظم وذلك كلما سمع في المديح ذكر الرسول صلى الله عليه وسلّم أو ذكر وليّ صالح.

طريقة العمل بفريانة: العمل بفريانة بدون زكرة ولا قصبة، فيستعملون البنادر والنغارات فقط دون دربوكة وهو غناء مدحات فقط.

طريقة العمل بالمناطق المتاخمة للجزائر بالشمال الغربي: يكون العمل فيها على

آلة القصبة والدفوف فقط، ولكنهم يلعبون ألعابا كثيرة بالنيران، مثلا يُشعلون نارا عظيمة في (عربة) ويحمون فيها رفشا من حديد حتى يحمر ويمسح الراقص به صلعته فلا يحترق، وغير ذلك من الألعاب.

طريقة العمل بطرابلس: يقول الدكتور صالح المهدي أن أصحاب الطريقة أدخلوا في العمل القانون والأدوار المصرية، والّذي أدخل هذا النوع هو محمد شاكر المرابط وكانوا يسمّونه الشيخ الفاقو لأنه يشبه (الفاقونة Wagon) عربة القطار أي تجد عنده كلّ شيء. ويذكر الدكتور صالح المهدي أنّه اصطحب الحاج محمد الكريكشي إلى الزوايا وجلبوا المشايخ بعد المصالحة بينهم وبين الإذاعة التي كانوا غاضبين عليها لأنها أهملت شأنهم ولم تعتن بهم. ويذكر الدكتور أنه جلب معه جماعة من ليبيا إلى تونس للدراسة في معهدها من بينهم حسن العريبي ومَحمد ڨرشان.



الطريقة الزرّوقية

نسبة إلى أحد الشاذلية وهو الشيخ زروق أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي

الشيخ المؤسس: هو أبو العباس [أو أبوالفضل شهاب الدين] أحمد بن أحمد بن محمد ابن عيسى البرنوسي الفاسي الشاذلي، فهو برنوسي نسبة إلى البرانس القريبة من فاس أي هو من عرب المغرب، ولُقّب بـ"زروق" لأن أحد أجداده كان أزرق العينين.

وُلد يوم الخميس عند طلوع الشمس في 18 (أو 22) محرم الحرام سنة 846 هـ [1442م]، وتوفّيت أمّه في اليوم الثالث من ولادته، وتبعها أبوه بعد خمسة أيام والتحق بهما عمّه بالقرب، فما أتى عليه السابع إلا وهو فاقد السند إلا الله تعالى. عاش في كفالة جدّته لأمّه الفقيهة "أم البنين"حتى بلغ العشر سنين فحفظ القرآن الكريم، وتعلّم صناعة الخرز ليعيش منها، ولمّا بلغ السادسة عشرة انتقل إلى سكنى فاس وتلقى بها العلوم الشرعية واللغوية، فانتظم في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة العنانية معًا، وهما أكبر مؤسستين تعليميّتين بفاس في ذلك العصر، فـ"أخذ عن أئمة المشرق والمغرب منهم: حلولو، والمشذالي، والرصّاع والسنوسي [مؤلف التوحيد] والشيخ الجزولي والمجاصي والقوري والنور السنهوري وابن زكري وابن المواز والولي التازي وابن التونسي وعبد الرحمان الثعالبي وأحمد الحباك والماواسي والخروبي الكبير وهو عن الأبّي"[1]، وسليمان وابن مرزوق والديمي والسخاوي وابن زين الدين والزرهوني ونور الدين يحي

---

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص267 رقم 988.

الحريزي وابن الشاوي والمغيري والمكناسي والمغيري والمرياحي والشاوي والحميدي وابن الأفلح وابن زكرياء وابن عباس الشرقي والرضا نور الدين يحي الحريزي من شيوخ الفقه المالكية، وأخذ علوم الباطن والتصوّف على عدّة مشايخ آخرين منهم الشيخ أحمد بن عقبة اليموني وأحمد ابن عبد الله الجزائري ويحي العيدلي ومحمد بن عبد الله الزيتوني وابن الحسين وابن يحي السرّاج، والسراج نفسه والغرابلي والغراز والشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب الطريقة الجزولية، والتازي وابن علي ابن عروس والحمامي والفيلالي واللمطي والعبدوسي وابن إبراهيم والأستاذ بن سعيد المجزولي وغيرهم[1].

ثم شرع في الرحلة بعد طول الإقامة بفاس، فانتقل إلى بجاية وأخذ في نشر علومه على الطريقة الشاذلية، ورحل إلى المشرق العربي سنة 873 هـ وقضى ثلاث عشرة سنة متنقلا بين موطنه الأوّل فاس وأقطار المغرب العربي ومصر والحجاز يستزيد من العلم لنفسه وينشره ويعلّمه لغيره ويحجّ البيت الحرام، إلى أن ألقى عصا الترحال بمصراتة بعد طول التجوال سنة 886 هـ حيث طاب له فيها المقام وقضى فيها بقية الأيّام، فتزوّج من أهلها بامرأة اسمها "أمة الجليل" بنت أحمد بن زكرياء الغلياني المصراتي، فأنجبت له ابنين سمّى أوّلهما أحمد أبا الفضل وسمّى الثاني أحمد أبا العبّاس وبنتًا سمّاها عائشة.

وأخذ عنه " من لا يعدّ كثرة منهم الحطاب الكبير والخروبي الصغير والشمس والناصر اللقانيان وسفين وطاهر بن زيان القسنطيني والولي الشعراني والقطب أبو الحسن البكري[2]".

له تآليف عديدة من يطّلع عليها يعرف له قدره، منها: تسعة وعشرون شرحا على "الحكم العطائية" لابن عطاء الله الاسكندري، وشرحان على "حزب البحر" للإمام الشاذلي، وشرح على "الحزب الكبير"، وشرح على مشكلاته، وشرح "قطع الششتري"، وشرح على"أسماء الله الحسنى"، و"قواعد التصوف"، و"عدّة المريد الصادق" وهو كتاب كبير جليل، وتعليق على "البخاري"، وشرحان على"الرسالة"، وشرح على"رشاد" ابن عسكر، وشرح على "مختصر خليل"، و"القرطبية"، و"الوغليسية"، و"الغافقية"، وشرح

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 458.
2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص267 رقم 988.

"العقيدة القدسية" للغزالي، وشرح "الحقائق والدقائق" للمقري وشرح "المراصد في التصوّف" لشيخه ابن عقبة و"إغاثة المسكين على طريق الفتح والتمكين"، و"النصح الأنفع"، و"النصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية" [وعمل عليها الشيخ محمدبن يوسف الكافي شرحا ضافيا بعنوان "الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية" نشرته مطبعة حجازي بالقاهرة سنة 1345هـ/1935م]، وجزء في علم الحديث ورسائل كثيرة لأصحابه فيها مواعظ وحكم وآداب وغير ذلك مما هو كثير. وكان يميل إلى الاختصار مع تحريرات وتحقيقات قلّ أن توجد لغيره، وقد عرّف بنفسه وبأحواله وشيوخه في كناشته، وله وظيفة تسمّى "سفينة النجا لمن إلى الله التجا"، وقد شرحها الشيخ أبو زيد العياشي[1] في كتابه: "الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية"، و"كتاب الأنس" ألفه سنة 888 هـ، وبه 600 بيت وشرحه محمّد بن علي الخرّوبي، وكتاب "الجُنّة العاصمة من البدع في السنّة"،

من أقواله المأثورة عليه قوله: "كلّ من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوّف[2]".

وتوفّي [يوم الاثنين 10 صفر] سنة 899 هـ [1494م] ودفن في مصراتة ذات الرمال (تاقيران) من أطراف برقة[3].

أخبار الطريقة: كوّن تلاميذ الشيخ زروق الكثيرون جماعة تحت اسم الشاذلية-الزروقية. ويقول كوبولاني أن تعاليمهم لا تقدّم أي ميزة ظاهرة عن الطريقة الأم وهي التعاليم التي ورد بعضها للشيخ زروق في "كتاب كفاية المحتاج" للشيخ أحمد بابا التنبكتي[4].

---

1 هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمّد بن عبد الله بن محمّد بن أبي بكر العياشي ابن أخ العياشي الذي ألّف كتاب "الرحلة" المشهور.

2 أحمد زرّوق، قواعد التصوّف، ، تحقيق الشيخ عثمان الحويمدي، المطابع الموحّدة شارع عبد الرحمن عزّام، تونس، الطبعة الأولى 1407/ 1987.

3 أبو زيد العياشي، الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية، المطبوع ذيل مواهب الرحيم للشيخ محمد مخلوف. ص: 265.

4 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 458. والتنبكتي هو أبو العباس بابا أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي (مالي) ولد سنة 963 هـ/1555م وتوفي سنة 1036هـ/ 1626م وترك سلسلة من العلماء بتنبكتو. وهو يقدّم مثالا رائعا للعلوم المنتشرة في عصره في تلك المدينة حيث كان يملك مكتبة تضم ألفا وستمائة كتاب وترك كتبا منها "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" في تراجم المالكية وله حواش ومختصرات تقارب عدتها الأربعين أكثرها في الفقه والحديث والعربية.(خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1 ص30.

ويقول "كوبولاني: انتشرت الطريقة، إذن، عن طريق تلاميذ الشيخ زروق ومنهم الشيخ عبدالسلام الأسمر صاحب الطريقة السلامية، ولكنه رغم صلاحه وغزارة علمه لم تمثل الطائفة المنضوية تحت اسمه إلا تنظيما بدائيا، إذ بقيت آراؤه لدى الطوائف المثقّفة ولم تتمكن من النزول إلى العامّة الذين لا يحتفظون عن الشيخ إلا بذكرى شاحبة. ولعلها من الطرق التي اندثرت بهذا السبب. وللطريقة زاوية أم بأولاد طريف بمنطقة البرواغية بجهة الجزائر، ولها أتباع بالمغرب من زكارة وهوارة الّذين يعتبرون أنفسهم خدما للشيخ زروق، ولا تكاد الطريقة تعرف بجهة طرابلس وبقية البلاد الإسلامية[1].

وهذا مما يُستغرب من "كوبولاني"، إذ أنّ الشيخ لمّا أن استقرّ بمصراتة في البلدة التي تُسمّى الآن باسمه وتحتضن منارته العلمية، أخذ يعقد مجالس العلم، ويلتفّ حوله الطلبة والمريدون، فوضع بذلك حجر الأساس للزاوية الزرّوقية التي كانت آنذاك تتكوّن من جامع الجمعة العتيق الذي بُني قبل مجيء الشيخ زرّوق وسُمِّي باسمه فيما بعد، ومن الخلوة التي بناها الشيخ زرّوق خلف هذا الجامع بالإضافة إلى الجابية التي أهداها له أحد سكان المنطقة وهي تحوي رفاته الآن. وبعد وفاة الشيخ بعشرين سنة بنى أحد أتباعه مسجدا بجانب ضريحه تحوّل فيما بعد إلى ما يعرف الآن بزاوية سيدي أحمد زرّوق، وهي تتكوّن من مسجد جامع وضريح الشيخ زرّوق ومكتبة تراثية ومدرسة للعلوم الشرعية وعدد من كتاتيب تحفيظ القرآن، وعدّة حلقات للدروس الحرّة في الشريعة واللغة العربية.

أصول الطريقة: يقول "كوبولاني[2]" إن أتباع الطريقة الزروقية يعتمدون في مبادئهم الصوفية على الطريقة الشاذلية الأم، ولكن سمعة شيخهم تقدّم لهم تفوّقا على بقية الطوائف الشاذلية الأخرى فهم يعيشون على سمعة الإمام زروق وكتاباته الشهيرة لدى المثقفين المسلمين حيث يعتبرونه من أكابر العلماء بإفريقيا الشمالية.

والزرّوقية طريقة صوفية سنّية مغربية يتّفق مؤرّخو الطرق على إلحاقها بالطريقة الشاذلية، وعلى أنها فرع منها، وعلى أنّ الشيخ أحمد زرّوق كان شاذليا صِرفًا، إلا أننا نرى

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 459.
2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 458.

أنّه تأثّر بآراء الطرق الأخرى، فكانت الزرّوقية مزيجا من هذه الطرق في إطار الشاذلية، وقدكان الشيخ زرّوق على صلة دائمة بفرعي الشاذلية الوفائية والجزولية، وكذلك على صلة بالجشتية والعروسية والسهروردية، وهذا ما يوحي باستقلاله عن كلّ من سبقوه وتحرّره من الارتباط بطريقة معيّنة مما تركه قادرا على إنشاء طريقة خاصّة به، وهو يدافع دفاعا مستميتا عن تنوّع الطرق إلى الله، فكلّ يسلك السبيل التي يجدها أيسر له بحسب ما يتناسب مع طبيعته وقدراته، لكنه في الآن نفسه كان معترضا بل محاربا لمن يدّعي الصوفية بدون شروطها، وجعلهم من المفسدين الّذين تجب محاربتهم وهم أولئك الذين يسيئون للدين والتصوف من الّذين يعتمدون لجلب الجماهير على الخوارق للعادات.

يقول الشيخ أحمد زروق: " أصول طريقتنا خمسة أشياء: (1) تقوى الله في السرّ والعلانية (2) واتّباع السنّة في الأقوال والأفعال (3) والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار (4) والرضا عن الله في القليل والكثير (5) والرجوع إلى الله في السرّاء والضّرّاء. وتحقيق السنّة بالتحفّظ وحسن الخُلُق، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكّل، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر واللجوء إليه في السرّاء والضرّاء.

وأصول ذلك كله خمسة: علو الهمّة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزمة، وتعظيم النعمة، فمن علت همته ارتفعت مرتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن نفذت عزمته دامت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها، ومن شكرها استوجب المزيد من النعم.

وأصول المعاملة خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ الذين أقامهم الحقّ سبحانه والإخوان للتبرك، وترك الرخص والتأويلات للتحفّظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتّهام النفس في كلّ شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب والغلط. فطلب العلم آفته الإحداث سنّا أو عقلا أو دينًا مما لا يرجع لأصلٍ ولا قاعدة، ومن آفات المحبّة الاغترار والفضول. وآفة ترك الرخص التأويلات والشفقة على النفس. وآفة ضبط الأوقات اتّساع النظر في العمل بالفضائل. وآفة اتهام النفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها.

وأصول ما تُداوى به النفس خمسة أشياء: تخفيف المعدة بقلّة الطّعام، واللجوء إلى الله في كل ما يعرض عند عروضه، والفرار مما يُخشى وقوع الأمر المتوقع منه، ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبيء صلّى الله عليه وسلّم بخلوة وانجماع، وصحبة من يدلّ على الله أو على أمرالله وهو معدوم. وقد رأيت فقراء هذا الوقت قد ابتلوا بخمسة أشياء: إيثار الجهل على العلم، والاعتزاز بكلّ ناعق، والتهوّن في الأمور، والتعزّز بالطريق، واستعجال الفتح دون شروطه، فابتلوا بخمسة أشياء: إيثار البدعة على السنّة، واتّباع أهل الباطل دون أهل الحقّ، والعمل بالهوى في كلّ أمر أوجُلّ الأمور، وطلب التّرّهات دون الحقائق، وظهور الدعوى دون تصديق، فظفروا لذلك بخمسة أشياء: الوسوسة في العبادات، والاسترسال مع العادات، والاجتماع في عموم الأوقات واستمالة الوجوه بحسب الإمكان، والاغترار في ذلك بوقائع القوم وذكر أحوالهم. وكلّ من ادعى حالاً مع الله ثمّ ظهرت منه إحدى خمس فهو كذاب أو مسلوب: إرسال الجوارح في معيّة الله، والتّصنّع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، والوقيعة في أهل الله وعدم احترام مسلم"[1].

و إنما ذكرنا هذه الطريقة لأن بعض الطرق الموجودة إلى الآن ما زالت تتوارث بقايا منها كالأذكار والوظيفة وبعض الكتب والعظات.

الوظيفة الزروقية: وهي وظيفة الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد زروق: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ألم، اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ، للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،

1 انظر، كتاب: أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي 1995 الجماهيرية الليبية، ص: 581.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إلى آخر السورة، والبسملة وسورة إذا جاء نصر الله إلخ والبسملة وسورة الإخلاص (ثلاثا) والمعوذتين (ثلاثا ثلاثا) مع تكرار البسملة ثم تشرع في الدعاء وهو: اللّهُمَّ إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم (ثلاثا) اللّهُمَّ إني أعوذ بك من الهمّ والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدّين وقهر الرجال (ثلاثا) اللّهُمَّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذبك من عذاب القبر لا إله إلّا أنت (ثلاثا). اللّهُمَّ عافني في سمعي اللّهُمَّ عافني في بصري لا إله إلا أنت (ثلاثا) اللّهُمَّ أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت (ثلاثا)، اللّهُمَّ إنّي أصبحت منك في نعمة وعافية وستر فأتمّ عليَّ نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة (ثلاثا). اللّهُمَّ ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر (ثلاثا)، يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك (ثلاثا)، رضيت بالله ربّا وبالإسلام دينا وبسيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم نبيّا ورسولا (ثلاثا). سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته (ثلاثا). أعوذ بكلمات الله التّامّات من شرّ ما خلق (ثلاثا)، بسم الله الّذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاثا). أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (ثلاثا)، والبسملة ثمّ تضع يدك على رأسك وتقول سبحان الله العظيم وبحمده (ثلاثا) تحصّنت بذي العزّة والجبروت واعتصمت بربّ الملكوت وتوكّلت على الحيّ الّذي لا يموت اصرف عنّي الأذى إنّك على كل شيء قدير (ثلاثا من قوله اصرف إلى قدير). ثم تقرأ البسملة وسورة قريش (مرّة) ثم تقول: اللّهُمَّ كما أطعمتهم فأطعمنا وكما أمنتهم فأمنّا واجعلنا من الشاكرين (مرة) سبحانك اللّهُمَّ وبحمدك أشهد أن لا

إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك (ثلاثا) أستغفر الله العظيم الّذي لا إله إلاّ هو الحيَّ القيّومَ وأتوب إليه(ثلاثا). اللّهُمَّ صلّ على سيّدنا محمد عبدك ونبيّك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّمْ تسليما (ثلاثا). ثم تقول: عدد ما أحاط به علمك وخطّ به قلمك وأحصاه كتابك والرضا على ساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن الصّحابة أجمعين وعن التّابعين وتابع التّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين. ثم تقول: لاإله إلاّ الله (مائة مرة) وأزيد إن شئت إلى الألف ثم تقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله. ثم تقول: ثبّتنا يا ربّ بقولها (ثلاثا) وانفعنا يا ربّ بفضلها (ثلاثا) واجعلنا من خيار أهلها (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) أصبحنا في حماك يا مولانا، أمسينا في رضاك يا مولانا (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) لا إله إلاّ أنت لاأحد ربّنا يا مجمّعَنا اغفر ذنوبنا (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما بقي بحرمة الأبرار يا عالم الأسرار (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) يا عالم السرّ منّا لا تكشف الستر عنّا (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين يا مولانا يا مجيب، من يرجوك لا يخيب، اقضِ حاجتنا قريب، يا حاضرًا لا يغيب (ثلاثا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) اللّهُمَّ صل وسلم على سيدنا محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد (عشرا) آمين آمين آمين أمن رب العالمين (ثلاثا) ثم تقول: وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين (مرة) والبسملة والفاتحة (ثلاثا) إنّ الله وملائكته يُصلّون على النبي يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما عدد الشفع والوتر وكلمات ربّنا التّامّات المباركات (ثلاثا) ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم (مرة) وهو حسبنا ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النّصير سبحان ربّك رب العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين."

الطريقة السلامية (العروسية)

نسبة إلى الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري. وقد تسمى (العروسية) نسبة إلى الشيخ أحمد بن عروس[1]، لأن الشيخ الأسمر صرّح بأخذها عنه، عن طريق

---

1 الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الدايم الشهير بابن عروس بن عبد القادر التميمي الهواري المتوفّى سنة 868 هـ /1463 ميلادية) وله من العمر 90سنة. من أشهر مشايخ العهد الحفصي، وقد بنى له السلطان محمد المنتصر الحفصي زاوية في تونس سنة 838 هـ(1434 ميلادية) قرب جامع الزيتونة. سمي بابن عروس نسبة إلى جده عبد الدايم حيث تزوج أبوه عبد القادر ولم يمكث مع عروسه إلّا ساعة وغاب غيبة لم يظهر بعدها، فلقبوا عبد الدايم الذي طال عمره بابن عروس. وفي الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد البهلي النيال : "ولد بقرية المزاتين بوادي الرمل من الوطن القبلي وظهرعليه الجذب من صغره فكان أهل قريته ينادونه يا مرابط. فرّ عن أهله قبل البلوغ وجاء تونس وآوى إلى زاوية بلوح القراءة ثم انتقل منها إلى الزاوية التي بالسواري وكان شيخها عبد الرحمان بن البناء. وكان ملازما للتردّد على مقام سيدي محرز بن خلف وخدم نشّارا للخشب (بدار العود) وخدم بالزبّوجيين خارج باب سويقة وعمل في فرن بقصيبة بنزرت. وذهب إليه بعض أقاربه لإرجاعه فامتنع، ومنها انتقل إلى باجة ولازم باب جامعها. وكان لايتسوّل ويأكل المنبوذ من الخضر وغيرها. وانتقل إلى ميلة وجلس فيها لتأديب الصبيان. ثم انتقل إلى الجزائر وأقام بمقام الشيخ أبي مدين شعيب بتلمسان ودخل مدينة فاس ووصل إلى مراكش وانتقل إلى مدينة سبتة وهي محتلّة من النّصارى، ورجع إلى تونس على طريق عنّابة. كان ملازما للصلاة بجامع الزيتونة والوضوء بميضاة السلطان أبي عثمان (وهي المجاورة للمدرسة الخلدونية بالعطارين) وكان يسكن بالفندق الذي نقضه أبو عبد الله المنتصر وأقام به للشيخ زاوية ليسكنها فسكنها وقضى فيها مايقرب من ثلاثين سنة وتوفي سنة 868 هـوبناء الزاوية كان في 838هـ/20 أكتوبر1434م. وقد كثر إقبال النسوة على زيارة الشيخ حتّى تفاقم الأمر فأمر قاضي القضاة بتونس بغلق الزاوية فأغلقوا أبوابها حينا. وكان النقيب المكلف بالزاوية ابن أخ الشيخ. وللزاوية وشيخها مكانة عند الأمراء الحفصيين فقد لازمها أبو محمد الحسن ابن الأمير إسماعيل بن أبي العبّاس أحمد . ومن أتباع الشيخ ابن عروس عبد السلام الأسمر..." وأحمد زروق نفسه. وينسبون لابن عروس بعض أناشيد وأزجال منها :

(يَارَبِّ وَانْتَ رْجَايَا * لاَلِي سْنَدْ غِيرْ بَابِكْ * مْنِ النَّارْ نَجِّي اعْضَايَا * وِاسْبِلْ عْلَيَّ حْجَابَكْ)

وكذلك: (نِفْتِلْ عْمَامَة مْنِ الْمَاء * وِنْشِدَّهَا شَدْ مَايِلْ * وْنَعْمَلْ مْنِ الثَّلْجْ مِصْبَاحْ * إِذَا حْمَاتِ الْقْوَايِلْ)

وكذلك: (الدُّنْيَا مَثْلْتْهَا دِلاَّعَة * تِتْكَرْكَبْ مِثْلِ الدِّلاَّعْ * مَاذَا لِحْقُوهَا طَمَّاعَة * رْمَاتْهُمْ فِي بِيرْمَالُه قَاعْ)

وكذلك :(جْمِيعْ الِبْلاَدْ شَوّلِتْ * حَتَّى لْسِبْتَة الْحْصِينَة * أَنَا مِثْلْ بِنْزَرْتْ مَارِيتْ * الْوَادْ فِي وِسْطِ الْمْدِينَة)

شيخه عبد الواحد الدوكالي. ويرجعها الغير إلى القادرية، ويظهر أن هذه الأخيرة هي الأصل الذي ترجع له بقية الطرق جميعا. غير أن محمد البوهلي النيال يجعلها وسطا بين العروسية والشاذلية. ولعل ذلك يظهر فيما رويناه عن الشيخ محمد مخلوف من تصريحه بكونه شاذليا وكتابته عن الشيخ الأسمر، ومنه نفهم مدى اختلاط الطريقتين في ما نراه من ممارسات السلامية.

الشيخ المؤسس: تنسب الطريقة السلامية إلى الشيخ عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن محمد بن حُميد بن عمران بن محي بن سليمان بن سالم بن خليفة بن نوفل السعيد المغربي المخزوني القريشي الملقب بأبي مرزوق المشهور الأسمرالفيتوري المتوفّى بحسنة (طرابلس) سنة 981 هـ. أما مولده فيذكر الشيخ مخلوف أنه ولد ليلة الثاني عشر من ربيع الأنور سنة 880 هـ [1475م] أي ليلة المولد النبوي الشريف بزليطن.

ويروون أن والده سليم[1] كان صاحب كرامات وإشارات رغم كونه أميّا لا يقرأ ولا يكتب، لكنه يتكلم كلاما بليغا على معاني الكتاب والسنة، وكان يرد الغلط على القارئ، فتحيّر في أمره العلماء، وقيل أن من كراماته أنه اطلع على زوجته سليمة قبل ولادتها، فكان كلما قيل له: تزوج! يقول: "..حتى تنزاد أم عبد السلام" وإذّاك لم يبن أبوها بأمّها بعد.

وأمّه هي السيدة سليمة الشهيرة بعيّادة بنت الشيخ الصالح عبد الرحمان الدرعي بن عبد الواحد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن علي بن سعد بن محمد بن أبي عبد الله بن الشيخ عبد السلام بن مشيش. قيل أنها ولدت ببلاد "درعة" يوم عيد الفطر لذلك لقبوها "عيّادة"، وظهر لأبيها أن لا يزوجها إلا لسيدي سليم بأرض طرابلس، فكثر خطّابها، لكنه ردّهم وهو يقول: "مالي وتزويجها لكم ولو بوزنها ياقوتا، وسيظهر زوجها إن شاء الله من طرابلس شريف نسبه من آل محمد صلّى الله عليه وسلّم." فلما أحلّ الله الكتاب حملها أبوها إلى أرض طرابلس وعندما وصل إلى "عوسجة" تلقاه سليم ومعه القاضي والشهود فزوجها له والدها بعقد وصداق. ورحل بها سليم إلى الزاوية الغربية وبنى بها فلم تلد له غير عبد السلام. وعاشت 110 سنين ودفنت بالحجرة المدفون بها

1 محمد مخلوف، مواهب الرحيم، ص 85.

سيدي عمران جدّ الشيخ، وهكذا لقبت بـ"الدرعية" نسبة إلى درعة.

وتيتّم الصبي عبد السلام وهو ابن سنتين وشهرين، فكفله عمّه أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري واعتنى بتربيته ووضعه في مدرسة قرآنية فحفظ القرآن الكريم وتجويده ولم يتجاوز بعد السابعة، وتعلم عن عمه علوم العربية والمنطق والتوحيد والفقه والشعر. ثم انتقل إلى مدينة مسلاتة كي يتّخذ له شيخا بأمر من عمّه، فتعلّم على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي "مختصر خليل" و"الرسالة" و"الحكم" والتوحيد وأصول التصوّف، وبقي عنده سبع سنين، وصبر معه على تمارين قاسية في قوّة التحمّل والطاعة الخالصة، وأصبح فقيها محافظا للسنّة، وفي تلك الفترة ظهرت عليه بوادر التصوف، وربما وقعت له كرامات، وتعرّف على عدّة شيوخ بارزين في مختلف المعارف منهم الشيخ فتح الله أبو راس القيرواني الذي شفع له عند شيخه الدوكالي لما أراد معاقبته بسبب ما أظهر من الجذب ونقر البندير، ولكن الشيخين انجذبا عندما أذنا لهذا التلميذ أن ينشد ويعزف.

ولمّا فرغ من الدراسة على يد الشيخ الدوكالي وبقية شيوخه، رجع إلى أمّه، وقد كفّ بصرها بزليطن، فبقي معها يعبد الله حتى وافاها الأجل، فسافر الشاب عبد السلام إلى زيارة الأولياء على ما جرت به العادة، ثم توجه إلى جبل زغوان وأقام به مدّة يتعبّد كما هي العادة بعد أبي الحسن الشاذلي. وفي ذلك يقول:

أَنَـا تُرْكِي جَبَلْ زَغْـــوَان ... مَرْقَبْ وِمْشَوَّفْ وْعَالي
وَانَا نَظِيْرْ وَادِي مِلْيَـــان ... إِذاَ احْتَمَلْ فِي اللَّـــيَالي
وَأنَا سِيفْ مُولاَيْ حَسَّان ... فِي يُومِ نْسُـوقِ الْمِشَـالي
وَأنَا دِرْعْ مُولاَيْ عُثْمَـان ... إِذَا تْرَاكْـــمُوا بِالعْوَالي
وَأنَا بِنْ عْـرُوسِ اللِّي كَان ... تْـغَـاثْ بِهِ الرِّجَـــالي

ثم رجع إلى زليطن، وكثر حسّاده وأعداؤه ورموه بالزندقة ونفوه منها مرات عديدة إلى تاورغاء ومصراتة، فتعسف عليه الأحامد البغاة وأطردوه من قريتهم فقال فيهم:

يَا أَللهُ يَـــا وَاحِد   يَا مُحْيِي الْعَــبْدْ بَعْدِ الْمَـمَاتْ

شُقْ وْطَنِ الأَحَـامِد   حَتَّى يِبْقَى عْلَى ثْـلاثْ شَظْيَـاتْ

وَاجْعَلْ وَكِرْهُمْ بَايِد   يَا رَبِّ يَا قَابِــلِ الدَّعْـــوَاتْ

نْبَاتْ لَيْلِي كَــامِد   مِمَّــا جْرَى لِي، وْلِي حَـرْكَـاتْ

دَمْعِي يْهِيلْ بْدَايِــد   وْطَنِ السَّاحِلْ دَالُوا عَلِيهْ أَزْفَاتْ

وخرج منها هاربا إلى طرابلس وأقام بمسجد الناقة فكثر تلاميذه، يأخذون عنه العلم، وكان يستعمل لهم السماع وهو الحضرة، وذاع صيته، فرماه حساده بالزندقة وشكوا به إلى الوالي فألزمه بالخروج فقال (من بحر الوافر):

إِذَا ظَلَمَ الأَمِيرُ وَكَاتِبَــاهُ   وَعَمَّ الْحُسْدُ فِي كُلِّ الْبِــلاَدِ[1]

وَقَاضِي الْحُكْمِ تَاهَ فِي هَوَاهُ   وَأَظْـهَرَ بِالْفُجُورِ وَبِالْعِـنَادِ

فَوَيْـلٌ ثُمَّ وَيْـــلٌ ثُمَّ وَيْـلٌ   لِكُلِّ فَقِيرٍ مِنْ قَاضِي الْبِــلاَدِ

أَقُـولُ ..أَقُـولُ: يَايَا وِحْشَتَاهُ   فَلاَ يَخْلُو الْفَـقِيرُ مِنَ النَّكَادِ

مِنَ الْبَلْقَاءِ يَا أُخَيِّ خَرَجْنَـا   وَكُلُّ مُقِيمٍ يَرْحَــلُ بِاعْتِيَادِ

وخرج إلى جبل غريان جنوب غربي طرابلس فمكث هناك بكهف يسمى (تكيرة) فتألبت عليه القبائل وطاردوه ما خلا أولاد سيدي ساعد وأولاد بوسلامة فإنهم عاضدوه وحموه، فقال هذا القسيم متألما:

أَقَلْــبَــاهُ يَفُـــورْ   مِ الْهَمْ وِ شْدِيدِ الْبْلِيَّة

أَنَا جْبَــالِي مَــقْهُورْ   نِبْكِي دْمُـوعِي سْخِيَّــة

نُحَضْ كَمَا الْمَكْسُورْ   أُلْطُفْ يَا مُولاَيَ بِيَّــه

مِ الْفِتْنَة وِ الـــزُّورْ   مَا نُـرْقُدْ لِيــلَة هْنِيَّة

1 وهومشابه لماقاله أحدهم: إِذَا خَـــانَ الأَمِـيرُ وَكَـاتِبَاهُ   وَقَاضِي الأَرْضِ دَاهَنَ فِي الْقَضَـاءِ
فَوَيْلٌ لِــلأَمِــيرِ وَكَـاتِبَـيْهِ   وَقَاضِي الأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

نُصُبّ دْمُوعِي ذْرُورْ مِنْ حَـاسِدْ جَارَ عْلَيَّه

مَزْجُـورْ وَ مَقْــهُورْ عِدْوَايَا نَكْـرُوا عْلَيَّه

مِثْلِ فْـرِيدِ نْـدُورْ مِتْحَيَّرْ نَارِي قْـوِيَّة

مَغْبُونْ وْ مَكْــدُورْ طَرْدُونِي مِنْ غِيـرْ سَيَّة

مِنْسِي أَنَا مَقْـهُورْ لاَ مِنْهُ يِـفْــزَعْ لِيَّـه

يَاهَلْ تْرَانِي مَسْحُورْ وِالاَّ دَعْـوِةْ وَالْــدَيَّـه

عُدْتْ كْمَا الزَّرْزُورْ مَنْ رَانِي حَــامَ عْلَيَّه

وانتقل هاربا إلى عدّة أماكن حتى أقام بقلعة سوف الجين سبع سنين، وكان يقول متصبّرا :

الصَّبْرْ مُرْ يِبْرِي الِانْسَـانْ وَالْمُرْ يَـرْجَعْ حْــلاَوِي

صْبِرْتْ صَبْرَ أَيُّوبْ وْلُقْمَانْ وِغْـلِبْتْ نَفْسِ الشّـهَاوِي

وقال أيضا : صْـبَرْتْ صَبْرْ أُولِي الْعَــزْمْ الاَنْبِيَاء السَّادَاتْ الاَخْـيَارْ

إِلَى أَنْ فُقْتْ عْلَى أَهْلِ الْعِلْمْ بْسِرِّ الإِلاَهْ خْـفَى وِجْهَـارْ

اللِّي صْبَرْ رَاهُو نَــالِ الْحِلْمْ وَمَنْ لاَ صْبَرْ لاَ نَالَ اسْـرَارْ

مَطْرُودْ مِــنْ حِزْبِ الْقُـومْ مَحْسُوبْ مِنْ نَـاسْ أَشْـرَارْ

غير أن الحسد لحق به في هذه القلعة، أيضا فسعى به مناوؤوه إلى الوالي، فخرج منها عائدا إلى تاورغاء ثم مصراتة، وأخيرا استقر به المقام بزليطن قرية الفواتير[1] أبناء عشيرته وبنى بها الزاوية الموجودة إلى اليوم. ورابط بزاويته إلى أن وافاه الأجل في شهر

1 كثيرا ما يلقب الشيخ عبد السلام بالفيتور والفيتوري والجمع فواتير المشهورين بالرقص والتخميرة، والأصل في ذلك أن الجد السابع وهو خليفة الملقب بالفيتور عندما كان صبيا قامت معركة تناحرت فيها قبيلته مع قبيلة أولاد سعيد الخزومي فخافت عليه أمه من القتل فخبّأته في دهليز معصرة زيتون بها الفيتورة (بقايا الزيتون بعد عصره) فلما كبر صار مشهورا بالفيتور وأطلق الاسم على كامل العشيرة . (عن مواهب الرحيم للشيخ محمد مخلوف ص75، 76)

رمضان سنة 981 هجرية (1573 ميلادية) ودفن بزاويته. وقد بلغ درجة القطب (الغوث) القادر على الإحاطة بشؤون العالم في معتقدهم والخارق للحواجز المادية، وبقي أربعين سنة بهذه الدرجة.

أخبار الطريقة: اشتهر الشيخ عبد السلام في إقليمي طرابلس وتونس بورعه الشديد ومعارفه الشاسعة في علوم الباطن، وكان صاحب إلهامات وكرامات جلبت إليه الجماهير ولكنها جلبت إليه المصائب. كانت إلهاماته ورؤاه نتيجة لاتباعه المستمر للشيوخ الورعين الصالحين ممن اشتهروا بتونس وغربي ليبيا. هؤلاء الرجال المتميزون المشهورون هم الّذين ألهموه تلك الأفكار الفخيمة والآراء العظيمة التي تميّز فكره، (وهذه هي القطبانية أو الغواثة)، وهكذا كان يستقي من فضائلهم ويُبلّغ للناس كلماتهم الشريفة ونصائحهم الثمينة. وفي تأملاته وربما خمراته العنيفة التي عادة ما يُرى غارقا فيها تنكشف له الأسرار الروحانية فينقل ذلك إلى أتباعه وأصحابه. وهكذا اشتهر ببعد النظر، ورؤية حتّى المستقبل إذ أنه تنبّأ بموت ابنه فقال هذا القسيم المثلث:

الأَمْــــرْ للهِ الــــرّحمَان * قُولُـوا لْعِمْرَان * لَا بُـــدَّ مَا يُنْقْـتَلْ بَعْدِي

وِيظَــلْ دَمِّــكْ يَا عِمْرَان * يِجْرِي غُدْرَان * مَالاَهْ يَـا لَوْعِةْ كِبْـــدِي

وِتْظَلْ يَا شَرْحِةْ الاَذْهَــان * مُرْمِي عِرْيَـان * مَسْــبُولْ مَا بِينِ الْوَتْـدِي

مَا يُقْتْلُــوكْ إِلاَّ الْعِـدْوَان * وِانْتِ مُطْمَـان * مِنْ بَعْدِ تَكْتِيف وقَيْدِي

يَا صِيدْ فِي يُومِ الْمَــيْدَان * يَابْنِي عِمْـرَان * الصَّــبْرْ لله يــاَ وِلْـــدِي

مِنْ غَمْرِتِكْ قَلْبِي دَهْشَان * مِثْلِ السُّكْرَانْ * الدَّمْعْ يِسْكِبْ عَـنْ خَدِّي

وِنْبَاتْ يَاكِبْــدِي سَهْرَان * دَمْعِي سَكْبَان * يَا صِيدْ عَصْـرِكْ يَا وِلْدِي

فالأحداث المستقبيلة بالنسبة إليه لا سرّ لها. ومن البديهي في نظر الجموع أن يمتلك الدواء لهذه الآلام المستقبلية ما دام يمتلك القدرة العجيبة على معرفتها. وهكذا وصلت شهرته إلى أصقاع شرق إفريقيا والسودان الشرقي حيث انتشرت أخبار كراماته، وهرع آلاف المريدين إليه لبلوغ رضا العلي القدير بواسطته. فنصب زاوية بزليطن

وهي إحدى الواحات البحرية بولاية طرابلس، وأصبحت هذه الزاوية العظيمة ضريحه، وتؤوي عديد الزيّار الّذين يأتون يوميا برّا وبحرا لزيارته.

وعلى غرار كل المؤسسين لمثل هذه الطوائف الدينية فإنه لا يخفي اعتماده على طريقة قد عُرفت من قبله بالبلاد التونسية، والتي لم يكن هو نفسه إلاّ مواصلا لها. هذه الطريقة هي التي تتبعها طائفة العروسية التي أسسها[الشيخ الشهير والصوفي الخطير أبو العباس أحمد بن سالم بن عبد السلام بن أبي بكر بن عروس التميمي الهروي بن رواحة بن شعبة بن كنانة بن قتادة بن الفضل بن العباس بن عمر بن عبد الله بن عبد القادر بن سعيد الشريف الهاشمي القرشي المتوفى بتونس حوالي 864 - 865 للهجرة (1460 ميلادية)][1].

وكان الأسمر هو المنظم للطائفة العروسية وهو الّذي حوّل المذاهب الروحية إلى ممارسات تطبيقية تصل إلى حدود التخميرة، فقد صرّح هو نفسه بمنطلقاته: "إن طريقتنا هي العروسية وقد وصلت إلينا عن طريق شيخنا الشيخ سيدي عبد الواحد الدوكالي [المغربي القرشي المتوفي في سن 130 في القرن العاشر الهجري] عن الشيخ سيدي فتح الله بن المرابط سعيد أبي راس القيرواني المتوفّى والمدفون [ببرنو من أرض] السودان عن الشيخ الإمام أبو العباس أحمد [الساحلي مولدا وهو المعروف] بأبي تلّيس القيرواني المتوفى بالقيروان والمدفون بجامع الزيتونة بها عن الشيخ أبي راوي [الفحل عبد الله بن علي القلعي مولدا واللواتي نسبا] المدفون بسوسة عن الفقيه الإمام علامة العلماء [الغوث الأعظم] الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر العروسي الهراوي التميمي التومي حامي الطرابلسية، عن الشيخ سيدي فتح الله العجمي التومي المتوفى في شوال سنة 847 هـ بتونس وقبره من الجلاز[2]، عن الشيخ ناصر الدين العوضي عن الشيخ نظام الدين الخالدي عن الشيخ فريد الدين الشاكر الغناجي عن الشيخ معين الدين الحبشي عن الشيخ عثمان الهراوي عن الحاج الشريف الزندي عن القطب المورود بن بوسيف بن محمد بن سمعان الحبشي عن ابنه محمد، وابنه الآخر سمعان وخاله محمد

1 هي رواية ديبون وكوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص.339 - 349.
2 من هنا ينطلق الخلاف بين رواية الشيخ مخلوف في مواهب الرحيم وبين (ديبون وكوبولاني) في الطوائف الدينية الإسلامية، وما بين [..] إضافة من الشيخ مخلوف لنص (ديبون وكوبولاني).

بن أحمد وابنه أبي إسحاق الشامي الشيخ ممشاد الدينوري البصيري المرشد عن ابراهيم بن عظام، عن الفضيل ابن عياض، عن عبد الواحدابن زيد، عن كامل بن زيد،

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن محمّد (صلى الله عليه وسلّم) عن جبريل (عليه السلام) عن الله (تعالى).

هذه السلسلة هي سلسلة الصالحين الذين تناقلوا الورد إلى مولانا أبي العباس أحمد بن عبد الله العروسي، ولكن هذا الشيخ نال أيضا البركة من شيخه فتح الله العجمي الذي يلحق مذاهبه بمذاهب الشاذلية بواسطة الشيخ أبي عبد الله سيدى محمد المجاهدي عن أبي النجاة سالم العنابي عن الشيخ سليمان الجزار عن الشيخ القسنطيني عن الشيخ أبي علي الحفياني عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الكبير الشاذلي، فطريقتنا، إذن، هي طريقة العروسية التي أخذنا منها الورد، أي الّذي نقوم به الآن وهي طريقة لاحقة بطريقة الشاذلية التي أخذ منها الشيخ العروسي البركة المأخوذة عن أشهر الصوفية .".

لكن الشيخ الأسمر يعتمد في تعاليمه على الهيئات المعروفة بالأصول والتطبيقات التي أكدها في الوصية (وصية في قرابة 300 صفحة مطبوعة في طرابلس) تمثل طائفة مماثلة في بعض الأمورلما عند الهيئات الصوفية الأخرى.

أمّا الأذكار أو الحضرة فيظهر أنها منقولة عن القادرية، وبطول صيغها تُحدث في الأتباع الهيجان مثل الأذكار في الهيئات المشابهة، فهذه الأناشيد الموقعة والموسيقى المصاحبة والابتهالات الحارّة المهيجة التي يقوم بها شيخ الطائفة وترديدها من قبل الحاضرين في نفس الوقت يثيرها القرع على الدفوف، فيقومون بنفث اللهب ويخترقون الحرائق العظيمة، أو يقومون بممارسات أخرى تعطيهم طابعا خاصّا ليس له نظير إلا لدى دراويش الرفاعية والسعدية والبوعلية والعيساوية وبعض الآخرين المهتاجين من نفس الفصيلة. ومن جهة أخرى فإن الاعتماد على تلاميذ الشيخ العروسي يمكنهم أن يحسبوا طائفتهم فرعا من الشاذلية، فإن عملهم الّذي أملاه الشيخ عبد السلام الأسمر يرتبهم ضمن طوائف القادرية. وهذه هي الوظيفة أو ذكر الحضرة كما وقع تقديمه لفقراء العروسية ويعمل به في أهم الزوايا:

الوظيفة السلامية: [أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. الفاتحة (3 مرات) الإخلاص(3) الفلق (3) الناس (3) وبعدها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم (3) فضل من الله ونعمة، شكر من الله ورحمة، والحمد لله على التوفيق ونستغفر الله في كل تقصير غفرانك ربنا وإليك المصير نعم المولى ونعم النصير (3) سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب (3) سبحانك ما عبدناك حق عبادتك سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو حي دائم لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير (3) وإليه النشور (صباحا) وإليه المصير (مساء) لاإله إلا الله الملك الحق المبين، لاإله إلا الله الملك الحق المتين، لاإله إلا الله الملك الحق اليقين، لاإله إلاالله أرحم الراحمين، لا إله إلا الله أكرم الأكرمين . لا إله إلا الله حبيب التوّابين. لاإله إلا الله غياث المستغيثين، لاإله إلا الله أبدا حقّا، لاإله إلا الله إيمانا وصدقا، لاإله إلا الله تلطفا ورفقا، لا إله إلا الله تعبدا ورقّا، لا إله إلا الله القوي الجبار، لا إله إلا الله الواحد القهار، لاإله إلا الله الحليم الستار، لا إله إلا الله العزيز الغفار. لا إله إلا الله هو رب كل شي، لاإله إلا الله هو قبل كل شيء، لاإله إلا الله هو بعد كل شيء، لا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى ويموت كل شيء، لاإله إلا الله المعبود في كل مكان لا إله إلا الله المعبود في كل زمان، لا إله إلا الله المذكور بكل لسان، لا إله إلا الله المعروف بالإحسان، لا إله إلا الله الحليم المنان، لا إله إلا الله العزيز الرحمان، لا إله إلا الله العظيم السلطان، لا إله إلا الله كل يوم هو في شان، لا إله إلا الله صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، لاشيء قبله ولا شيء بعده. لا إله إلا الله له النعمة وله الفضل وله الثناء وله الإحسان. لا إله إلا الله لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير) (3) لا إله إلا الله (11) لا إله إلا الله (23) لا إله إلا الله (33) لا إله إلا الله (33) اللهُ اللهُ، اللهُ اللهْ. اللهُ اللهْ (100) اللهْ اللهْ اللهْ اللهْ (ختم الوظيفة) أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله (3) اللّهُمَّ أحينا عليها وأمتنا عليها وانفعنا بها عند الشدائد والحاجة إليها يا رب العالمين يا ألله (3) اللّهُمَّ أحينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا

عن طريق الهدى يا رب العالمين يا ألله (3) ثم دعاء ثم: أجب دعانا ألله يا مولانا أجب دعانا وارحمنا يا ألله. أجب دعانا الله يا مولانا أجب دعانا وأجرنا يا ألله. أجب دعانا ألله يا مولانا أجب دعانا واسترنا يا ألله. أجب دعانا ألله يا مولانا أجب دعانا واحفظنا يا ألله، أجب دعانا ألله يا مولانا أجب دعانا ولا تفضحنا يا ألله. صلوات دائمات طيبات على محمد (3) سلام دائم طيّب على محمد (3) تحيات زاكيات طيبات على محمد (3) يا ذا الجلال والإكرام يا ألله اختم لنا بالإسلام يا ألله (3) يا ذا الجلال والإكرام والعزة القاهرة ثبّتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة (3) آمين آمين آمين يا رب العالمين (3) وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (الفاتحة) (3) إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما: اللّهُمَّ صلّ على سيّدنا محمّد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما (3) سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين] (انتهت الوظيفة)[1].

وبعد تلاوة الورد جماعةً، يُنشد الفقراء الأشعار الصوفية التي تركها شيوخهم كما أوصى الشيخ عبد السلام الأسمر: " تقربا إلى الله واتباعا لنظامنا من كانوا منكم حسان الصوت وطيبي الحنجرة يقفون ينشدون ويوقعون كلمات شيوخ العروسية ".

ويضيف الشيخ عبد السلام: "... قال شيخنا الدوكالي: إنه من الضروري أن يكون النقيب لسنا فصيحا ذا صوت عذب رخيم قادرا على تعميق حب الله ورسوله لدى المستمعين، ومن بين أشعار ساداتنا أشعار شيخنا الممشاد الدينوري التي هي الأجمل والأندر..."، ويواصل الشيخ الأسمر قائلا: " عندما أسمعها تأخذني عاطفة جياشة وانفعال عظيم يجبرني على مفارقة الجماعة والذهاب إلى البستان المجاور فأتمشّى لعدّة ساعات في فتنة وجذب صوفي لايوصف. في السابق، كنت فقيها ولم يكن لي أي ميل لهذه الأشعار ولا ما يغذّي روح99ها ولكن بمجرّد أن بيّن لي شيخي الدوكالي مزاياها حتى وجدت نفسي في حالة فوق عادية وعرفت جمال النشوة وأصبح ميلي للطار ولأشعار الدينوري بلا حدود ... أيها الإخوة: إن هذه الأشعار شهيرة وأغلبها يتغنّى بأشراف المغاربة التي ينشدونها في أعياد المولد من أعلى صوامع مساجدهم؛ والّذين لا يعتقدون

1 محمد مخلوف، مواهب الرحيم.

في فضائلها الفذّة ولا يتّبعون وصايانا ووصايا الشيوخ سيظمؤون في هذه الدنيا وفي الآخرة ولا يروون أبدا ولو شربوا أشهى رحيق".[1]

وقد عثر "كوبولاني" ورفيقه على مخطوط لديوان كامل بهذه الأشعار الصوفية التي تستجيب لجميع الأذواق وبحسب كل الظروف والمناسبات، وقالا: إن بها تحاميد وتسابيح شيوخ الإسلام وشيوخ العروسية ومنها ما يتغنى بخصايل الشيخ العروسي وخصايل مجدد الطريقة الشيخ الأسمر، وهنالك حتّى مجادلات ومقارعات للعلماء الّذين يحاربون مذاهب الصوفية، كما هنالك أشعار ضد اليهود والنصارى الّذين يجب قطع أي صلة بهم وعدم النظر إلى وجوههم ولا الجلوس معهم، وذكر "كوبولاني" ورفيقه أن نضالا كبيرا قام بين علماء طرابلس وتونس وأعضاء هذه الجمعية العروسية الّذين يتّهمون بالبدعة والهرطقة.

أصول الطريقة: يظهر أن الأصل في هذه الطريقة التشجيع على العلم، وأن المجادلات والنزاعات التي كانت مع العلماء، هي في التفريق بين ممارسات الفقه وممارسات الذوق التي تميّز الطوائف الصوفية، وبها بعض ما ينافي ظاهر النصوص من رقص وغناء وغير ذلك، وقد تعرض لها الشيخ أبو مدين شعيب مؤسس الطريقة المدنية كما رأينا سابقا، ولا ينازع أحد في أن الشيوخ الأصليين للطرق لا يعترفون إلاّ بمن حصّل نصيبا لا بأس به من العلم كما رأينا في الشاذلية وهكذا نجد من بحور الشيخ عبد السلام معالجة لهذه المسألة، وإبداءً لرأيه فيها، فمن جهة يشير على مريده بطلب العلم ولكنّه يؤكّد على الأخلاق، ويرجو من الفقهاء التفهّم لحال المتصوّف مثل قوله في هذا القسيم :

الصَّـــبْرْ وَاجِـبْ يَا فُقْرَا	كَذَا الصَّمْتْ رَاهُ فِيهِ مْزِيَّة
يَا مُبْتَــلَى إِصْبـَـرْ تِــبْرَا	وَاصْمُتْ وَسَـامَحْ بِالنِّــيَّة
مَاذَا يْصِـيرْ وَ مَــاذَا يجْرَى	لِلْعَــبْدْ بَعْدَ أَنْ يِتْهَــيَّا
إِنْ كُـنْتَ يَا صَــاحِ تَقْـرَا	وْتِسْمَعِ كْلاَمِ الصُّــوفِيَّــة
أَعْرَضْ عَنِ الــنَّفْسِ الْغَــرَّا	هَاكِ اللَّــئِيمَة الْمِخْــزِيَّــة

---

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف...، ص339 - 349 (نحن نترجم).

وَاصْمُتِ لْسَانِكْ عَنْ هَذْرَة	لَا تُكْثِرْ الْهَدَرْ وَ زَيَّه
وشَكَّمْ غَرِيزَةِ الْهَدْرَة	نَفْسِ الْبَلَاوِي الْبِدْعِيَّة
وَاخْلِصْ أعْمَالِكْ لِتَدْرَا	بُحُسْنِ الْعَقِيدَة وِ النِّيَّة
وَادْخُلْ مْعَانَا لِلْحَضْرَة	تِنْجَحْ وْتُظْهُرْ بِضْوِيَّة
وْكِي شِعْرِي يَا ابْنِ الْغَرَّا	عَلَى الْعَقِيدَة السَّنُوسِيَّة[1]
صَحَّحْ إِيمَانِكْ وَ اقْرَأ	فِي النَّحْوْ وِكْذَا الأَلْفِيَّة
وَاحْفَظْ مَوَازِينِ الشِّعْرَا	وْعِلْمِ الْعَرُوضْ بِالْكُلِّيَّة
وْمُخْتَصَرْ خَلِيلْ وَاشْرَاحه	وِالتُّحْفَة [زِيدِ]اللاَّمِيّة[2]
وْشَكَّمْ غَرِيزَةِ الْمُقْبَاحَة	نَفْسِ الشَّهَاوِي الْغِرِّيَّة
الصَّمْتْ رَاهُو الرَّاحَة	وِالصَّبْرْ أَصْلِ الْجُمْلِيَّة
سَبْعَة آلاَفْ مِنَ الْحِكْمَة	فِي الصَّمْتْ قَالُوا السُّنِّيَّة
وِإذَاوْجِبْ نُطْقِكْ فَاصْدَعْ	وِالصَّمْتْ مَرَّاتِ رْزِيَّة
مْحَلّ الْكْلام اِنْطَقْ واصْدَعْ	والأمْرِ والنَّهْيْ بِالنِّيَّة

1 العقيدة السنوسية"كانت تدرّس في جامع الزيتونة.

2 ما بين [.] أضفناه لاستقامة الوزن.وقد ذكر الشيخ في هذه الأبيات " العقيدة السنوسية " وقدكانت تدرس بجامع الزيتونةمع" ألفية بن مالك " لمحمد بن مالك في النحو و" مختصرخليل" في الفقه " تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام " المعروف بـ"العاصمية" للقاضي محمد بن عاصم الغرناطي.واللامية هي "لامية الزقاق" أو الزقاقية التي ألفها القاضي علي بن قاسم بن محمد التجيبي الفاسي المشهور بالزقاق، وقد أخذ عن أبي عبد الله القوري والإمام المواق وغيرهما من شيوخ فاس وسافر إلى غرناطة وأخذ بها وتوفي عن سن عالية في شوال سنة عشر وتسعمائة للهجرة له تفنن في علوم عديدة وألف منظومة في القواعد وتقييد على مختصر خليل ولامية في الأحكام المعروفة بالزقاقية أو "لامية الزقاق" وهي قصيدة لامية من البحر الطويل تضم نيف وستين ومائتي بيت، من شراحها الشيخ التاودي ومطلعها:

ثنائي على المولى أُقدّم أوّلا * ولكنّ لا أحصي ثناء، فذو العُلا،
تعالى كما أثنى (عليه) وبعده * على أحمد الهادي صلاتي على الولا؛
وآله والزوجات والصحب ثمّ من * تلاهم بإحسان إلى يوم الإبتلا؛
وبعد فمن في الدّين فُقّه مجتبى * مُرادُ بِهِ خير وللرّشد أَهِّلا.

وقد تكون لامية بن الوردي (اِعْتَزِلْ ذِكْرَ الأَغَانِي وَالْغَزَلْ* وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ) أو لامية العرب للشنفرى(أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ * فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ).

بَالِكْ تُنْكُرْ وتْشَنَّعْ　　بِكْلاَمْ مَا لِيلُه نِيّة
وِالنَّفْسْ خَوَّانَة تِفْزَعْ　　فَاتْرُكْ هَوَاهَا الْمِدْعِيَّة
فَوَّضْ بْقَلْبِكْ لِلأَجْمَعْ　　أَهْلِ الجِنَانِ العَلِيّة
يَا فَقِيه سَلِّمْ واسْمَعْ　　لَا تِتْعَرَّضْ لِلصُّوفِيَّة

وهكذا نجد هذا الحل الذي اقترحه الشيخ لكفّ النزاع دون التراجع عن الدفاع المستميت عن الطريقة، ولعل ذلك ما جعل أهل السنّة يوصون بعدم التدخل في أعمال الصوفية في غير مفهوم، ولكن بالتسليم لهم فيما هم عليه دون تشنيع.

والطريقة معروفة بالبحور والشطحات وهي طريقة ذكر، وشيخ العمل بها يقال له "الزمزام" وأصحابه "الزمزامة" وغالب ألحانهم طرابلسية في لهجة "الحامدي" (نسبة إلى الأحامد) وهي مثل "العرضاوي" (نسبة إلى الأعراض) لهجة خاصة في شمال ليبيا وجنوب تونس.

وأصول الطريقة هي مجموعة في سفائن (سفينة) تشتمل على التراث المدوّن من جملة أدعية تضمنتها أحزاب الشيخ ووظائفه وبحوره:

فالحزب: هو مجموعة الأدعية التي يؤلفها أحد الشيوخ البارزين مثل سيدي عبد السلام الذي له أربعة أحزاب: الحزب الكبير وحزب الخوف وحزب الطمس وأشهرها حزب الفلاح.

والوظيفة: هي ما يقدّر من عمل وتكون نصّا نثريا يحتوي على تلاوة بعض السور من القرآن الكريم وتسابيح وأدعية واعتراف بعظمة الله.

والبحر: هو أشعار بالملحون تدور حول الوعظ والتنفير من ملذات الدنيا ومدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم والتوسل به وبالأنبياء والأولياء وطلب العفو والمغفرة وذكر الله وتمجيده وتوحيده وذكر فضائل شيخ الطريقة. وتتضمن كذلك أدعية على الظلمة والتصابي والوجد والهيام والعشق والوصف والحماسة واستنهاض الهمم والشكوى والتفجع. والأشعار المنسوبة إلى الشيخ عبد السلام الأسمر تسمّى بحورا وما قاله سواه

فهي إما بحور أوصنائع.

طريقة العمل: في أول أمرهم كانوا يقومون بعملهم وقوفا على نقر الدفوف مع ترتيب معين، ثم دخلت على ذلك تحسينات بمدينة القيروان بإدخال الطار والنغارات وصارت طريقة العمل جلوسا، كما كانوا في القيروان يجعلون في الحلقة أطفالا صغارا لإحداث الأصوات الحادّة النسائية قصد إحداث تأثير حسن للسامعين من جهة ولتمرين هؤلاء الأطفال ليأخذوا المشعل من بعدهم. وتنقسم العناصر الفنية للطريقة السلامية على قسمين:

قسم غير غنائي: تلاوة الفاتحة وقراءة أحد الأحزاب بدون ألحان ومنها حزب الفلاح والوظيفة.

القسم الغنائي: ينطلق من:

السلسلة الذهبية في بحر الرجز على طبع الحسين ومطلعها:

يَقُولُ رَاجِي الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ   عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ سُلَيْمِ الْفَانِي

اَلْحَمْدُ للهِ الَّــذِي هَــدَانَا   إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَ اجْتَبَـانَـا

فيذكر سلسلة إسناده إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، وينهيها بالصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم:

ثُمَّ الصَّلاَةُ وَالسَّــلَامُ التَـامّْ   عَلَى الْـعَدْنَـانِي سَـيِّدِ الأَنَــامْ

مَا غَرَّدَتْ قُمْـرِيَّةٌ بَكِــيَّةْ   وَصَــدَحَتْ بِصَوْتِــهَا عَشِــيَّةْ

قَدِ انْتَهَتْ مَنْظُومَةٌ عَلَى الْمُرَادْ   أَبْيَاتُهَا سَبْعَ وَتِسْعِينْ خُذْ بِالْعْدَادْ

وقد أتمّ نظمها كما ذكر في أحد الأبيات في شهر شعبان من سنة 979، ويظهر من ذلك أن القصيدة وإن كانت موزونة فإن صاحبها لا يحترم البحر إن ضاق به عن إتمام المراد فنراه يزيد حسب الحاجة كالبيت الأخير مثلا أو البيت الذي ضمنه التاريخ وهو:

فِي شَهْرِ شَعْبَانَ تَمَامُ نَظْمِـهَا   فِي عَامِ 979 فَكُنْ مُنْــتَبِهَا

ويقال إن واضع ألحان السلسلة هو الشيخ محمد بن سليمان وهناك من يعزوها إلى الشيخ حمدة التركي والأرجح هو الأول، وأحيانا تنشد ضمن السلسلة الذهبية كتطريز لها (الهَلاَّلو) (في مقام الرهاوي) وهي:

وَهَلِّلُوا وَكَبِّرُوا تَكْبِيرَا   صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ كَثِيرَا

ثم تأتي سلسلة الفزوع وهي في الاستغاثة بالأولياء الصالحين وهي قسيم يشتمل على ثمانمائة بيت يبدأ بطبع الذيل ثم يدخل في عدّة طبوع تتناغم مع الذيل ثم يرجع إلى الذيل: ومنها:

يَا طْبِيبِ الأَنْفَاسْ   بِالدَّوَاء دَاوِينِي

يَا مُثَبِّتْ الاَغْرَاسْ   ثَبَّتْنِي عْلَى دِينِي

بْحُرْمِةْ طَيِّبْ الأَنْفَاسْ   يَا كْرِيمَ اهْدِينِي

....

يَا مُهَوِّنْ الأَسْبَابْ   الْعَفْوْ يَا رَبِّي

ويتخلل فصول السلسة: ارتجال بعض القصائد، ثم ينشدون أختام سلسلة الفزوع ومنها:

نَغْرَة يَا سِيدِي الْفَاسِي   مَا تْفَزَّعْ لِي الرَّجَّالَة

بَابَا عِمْرَانْ وْسَاسِي   شُوَّرْ يَعْدُونِي دَالَة

يِذْهِبْ عَنِّي الْوَسْوَاسِ   وَهْوَى النَّفْسِ الْخَتَّالَة

ثم تأتي التصلية: يقوم المنشدون بترديد (اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه) مع قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على لحن بسيط وسريع يتركّب من درجتين ثم تُتلى الفاتحة ثم يأتي إنشاد البحور فبحور طرابلسي على الطريقة الليبية وحامدي على طريقة قبيلة الحواميد، والسفاين على ما ذكره السادة شيخ السلامية بقرية الشيخ يدعس والصادق الرزقي في (الأغاني التونسية) ومحمد مخلوف في (تنقيح روضة الأزهار) وعمارة بشير شيخ السلامية بالمنستير وكذلك الشيخ العروسي بن خميس التركي

ومحمد الزيتوني الضرير القفصي.

ثم تأتي البحور والشطحات والأختام والتهليلات. والبحر هو الشعر الذي قاله الشيخ عبد السلام الأسمر وكذلك بعض البحور من تأليف أتباعه وقد جمعوها في سفاين منها سفينة البحور التي طبعها على العسلي على ذمته بتونس العاصمة.

ثم الصنايع: وهي قصائد أو كلمات توضع على لحن معروف من الألحان المتداولة سواء من الأغاني أو الموشّحات، ويقول الشيخ عز الدين بن محمود السلامي أن الصنايع ابتكرها في الأصل جماعة بنزرت السُّلاميين. والصنايع باب مفتوح للاجتهاد لدى كلّ فرقة، فتأخذ لحنا من الألحان الطربية المنتشرة بالساحة الفنّية، وتنسج عليه كلمات مثل:

(يا كحلا يا بنت عمّي ما أحلاك الله ينصر سيدي سعد باباك)

فتصبح:

(يا كعبة يا بيت ربّي ما ابهاك يرحم سيدنا الخليل اللّي بناك)

القوالب اللحنية: لحّنت أغلب البحور السلامية في الطبوع التونسية أو اللهجات التراثية المحليّة كالحامدي والطرابلسي والعرضاوي والصالحي والمحيّر عراق والمحير سيكاه والسعداوي، والبحور التي لحّنت في اللهجات الشعبية أكثر بكثير من التي لحنت في الطبوع التقليدية التي لُحِّن عليها المالوف غير ما هو موجود بالسلسلة الذهبية أو سلسلة الفزوع.

أما الإيقاعات: فأهم إيقاع تقليدي هو دخول براول 4من4 كما في (صلّى عليك ربّي) و(أهلا وسهلا). وأهم إيقاع شعبي هو إيقاع سعداوي 12 من8 كما في بحور (يا بن مراد) (يا سيدي منصور) (يا لائمي في شوق المحبوب) و(قلبي ما يحب اللّوّاص)، و(باسم الكريم عظيم الشان). ويشتمل الهيكل اللحني في بحور السلامية على جملة موسيقية رئيسية ينشدها شيخ الفرقة ويعيدها المنشدون ثم تعاد مختلف أبيات البحر بتصرف بسيط وارتجال موزون، كما هناك بعض البحور الخالية من الترديدة وتسمّى المشاركة فينشدها عدّة أفراد كبحر (بالله يا خيالة).

الشطحة: هي مقطوعة تنشد مباشرة بعد البحر على إيقاع أسرع أي إذا كان البحر

في وزن السعداوي تكون الشطحة في وزن البرول (أي من 12من8 إلى 2من4).

الختم: هومقطوعة تلي الشطحة على إيقاع برول سريع أي أسرع من الشطحة حتى يمكن أن تكون 2من4.

التهليلة: جملة موسيقية بسيطة في إيقاع سريع (برول أو ختم) تنشد على اسم الجلالة. وكلمة تهليلة مشتقة من اسم (الله) وتسمّى أيضا جدبة: (جذبة) وهي أسرع مقطوعة في الوصلة. ويوكل تحديد مضمون الحفل إلى الزمزام (شيخ العمل المسؤول الفني على جماعة المنشدين).

البحور: مكتوبة باللهجة العامية التونسية أو الطرابلسية في نوع القسيم والقسيم المثلث والموقف والمسدس والملزومة.[1]

الرقص: هناك بعض السلاميين من يتخمّر أثناء الإنشاد وهو نادر جدّا ويقول الصادق الرزقي:...لكنّ الذين يرقصون يعمدون إلى خلع ثيابهم ويبقون بأجساد عارية إلا من السراويل والجبة على اللحم فيأخذ الراقص لفة من الحلفاء فيشعلها ويدخلها تحت جبّته ويرقص رقصا مفرطا في حالة جنون ولا يحترق لا هو ولا الجبة وقد يلحس قطعا حديدية محماة، وقد يلحسها ويكوي بها بعض المرضى، وقد يحرقون الجريد، ولكل نوع من الرقص نوبة خاصّة من الغناء.

وحكى لنا الشيخ عمارة بشير شيخ السلامية بالمنستير، وصححنا عنه لدى السيد ناجي الزغيدي المقديش، كما أرشدنا إلى جماعة حضروا الحفل منهم الشيخ محمد بسباس والمرحوم عبد السلام حليلة وهما من شيوخ السلامية وغيرهما: أنه لما كان شابّا يافعا لعب مرّة كثيرا وإثرها مرض مرضا عضالا طال به أشهرا، فهزل وتوقع أهله موته، وأقبل إلى الزاوية السلامية بحيهم حومة الطرابلسية بالمنستير، أحد الفواتير من زليطن،

1 القسيم في الشعر الشعبي هو قصيد بمصراعين أشطاره الأولى متحدة القافية وليس له طالع ولا مكب. وهو زيادة في إحكام الزجل الموحّد القافية في العجز. والقسيم المثلث يتركب من ثلاثة أغصان الأوسط فيها مقطوف (ناقص) ويتحد الأول والثاني في القافية ويخالفهما الثالث الذي يكون متحدا مع ثالث الأغصان في البيت الموالي. والموقف مربع ثلاثة أشطاره الأولى متحدة القافية والرابع مختلف ويتحد مع الرابع في البيت الموالي. والمسدس، سداسي الأغصان، والملزومة لها طالع من غصنين إلى أربعة وأبيات مربعة أو مسدسة تنتهي بمكب وهو قافية الطالع للرجوع. وهذه مجرّد أشكال أما مضامينها فلها تراكيب خاصة من حيث الأغراض والتخلصات.

فأقيمت حضرة، قال: "فأخذني أخي الأكبر للترويح عن النفس وطمعا أن أجد رقية عند هذا الفيتوري، قال: فقام أحدهم ينقر البندير وهذا الفيتوري وراءه في شطح عجيب، ثم أخرج سكينا طول نصله يصل إلى نصف الذراع أو يفوق فغرسه في بطنه ثم تقدّم إلى الشيخ العمدة وكان رجلا قويا بدينا، قال: فأخذ الشيخ مقبض السكين وجذب ليقتلعه من مكانه فما استطاع لذلك سبيلا وسقط على الأرض من الإعياء، قال: ثم أخذ مفتولا وهي قطعة نسيج تطوى كالعصا وتُشرّب الزيت قال: فأشعلها وأخذ يبتلعها وقد رأيت حلقه يضيء من داخل، قال: ثمّ حموا له حديدة حتى احمرّت فأخذ يلحسها بلسانه وفمه وصوت النشيش يطبق الآذان ولم يحترق لسانه، وجرّب ذلك على أحد الحاضرين[1]. قال: فقدموني له، فأضجعني على ظهري ونزع ثيابي وأخذ يمص جلدي بفمه من جهة بطني وسرتي، ويتفل دما عبيطا بلغ قرابة الربع لتر حتى أخرج حصاة كأنها قطعة حلوى، قال: فلما رجعت إلى المنزل وكأنني نشطت من عقال، جربت النوم على جنبي الذي كان يؤلمني، فلم يؤلمني فانتفضت به انتفاضا فلم يؤلمني، فصحت في الظلمة مُعلما أمّي بأني برئت، فخافت المسكينة أن يكونوا فعلوا بي شيئا، فأوقدت السراج وجعلت تقلّبني وتتفحصني فلم تجد ما يريب، فأطفأنا السراج ونمنا وها أنا أمامك قد بلغت الشيخوخة وأنا صحيح معافى". وما كان لنا أن نصدّق مثل هذا، ولكن تواتر الرواية يجعلك لا تشك في صحّة الخبر، بعد التصحيح لدى من حضر.

وهناك طريقتان في العمل:

في الميعاد بالزاوية: تكون البداية بالسلسلة الذهبية كما صرح به الشيخ عمارة بشير وذكره الأستاذ الفتحي زغندة، ثم يتخلّص منها إلى سلسلة الفزوع، ثم بعض الارتجالات، ثم يقع ختم سلسلة الفزوع، ثم إنشاد التصلية ثم يدخل في البحور والشطحات والأختام والتهليلات. فمن هذه البحور بحر:

(يَا شَيْخِي الأَسْمَرْ يَا ابْنَ الدُّرْعِــيَّة نَادِيتِكْ تَحْضَـرْ تَاخُذْ بِيــدَيَّ)

أو: (أَنَا عْرُوسِي بَحْرِي زْلاَلَه غْطَـانِي رَبِّي جَـلاَلَه)

---

1 ذكر كوبولاني أن السلامية بطرابلس مثل العيساوية بالمغرب والبوعلية بتونس يمارسون ألعاب الرفاعية (الطوائف..، ص 159).

أو: (أَنَـا الأَسْمَرْ سِرِّي ظَاهِرْ　　وَانَا سْقَـانِي بُو الأَسْرَارْ

أَنَا عْرُوسِي بْحْرِي زَاخِـرْ　　يَا وِيحْ مَنْ جَا فِي التَّيَّارْ)

أو: (يَا بِنْ عْرُوسْ مَاكْ غُوثِ الأَنَـامْ * بَحْرِ اللِّثَـامْ * مُولَى الْمَكَارِمْ وِالْحْجَرْ وطَام)

أو: يَابِنْ عْرُوسِ شْكِيتْ لِكْ بَا حْوَالِي * عَارِي عَلِيكْ * رَانِي قْلِيـلِ الْـوَالي

*** ***

يَا بِنْ عْرُوسِ شْكِيتْ لِكْ تَحْمِينِي　　يَا نَـدْهَةِ الْمَضْـيُومْ كُونَ عْوِينِي

نِبْغِيكْ يَا سِـيدِ الرِّجَالْ تْجِينِي　　وْتِسْقِي فْقِـيرِكْ مِنْ شْـرَابِ زْلاَلِي

*** ***

يَا بِنْ عْرُوسِ شْكِيتْ لِكْ تُنْصُرْنِي　　مَا صِبْتْ فِي الْمَخْلُوقْ مَنْ يِعْذِرْنِي

حَالِي مْكَدَّرْ وِ الزَّمَـانِ قْـهَرْنِي　　وِالدَّمْعْ يِسْكِبْ عْلَى الْخُدُودْ هْمَالِي

*** ***

يَا عَالِمْ الأَسْـرَارْ تُـوبَ عْلَـيَّ　　تَوْبَـة نَصُوحَة بَاهِـيَة وِنْقِـيَّة

وَاقْضِ الحْقُـوقِ اللِّي بْقَـاتَ عْلَيَّ　　مِنْ رَحْمْتِكْ يَـا وَاسْعِ الأَفْضَـالِ

***

صَلُّوا عَلَى الْمُخْتَـارْ بَابَا الـزَّهْـرَا　　وِالآلِ وِالأَصْحَـابْ أَهْلِ النُّصْرَة

عَلَى قَدِّ مَا قَطْعُوا رْقَابِ الْكَـفْرَة　　بْمَدْحِ النَّبِي نِرْقَى الْمَقَـامِ الْعَـالِي

وفي نهاية السهرة يقول شيخ الحضرة (الختمة) في نوع الموقف :

شَرَّفْتُمُونَا يَا كِرَامْ　　أَنَرْتُمُوا هَذَا الْمَقَامْ

أَبْقَاكُمْ رَبُّ الأَنَامْ　　مُمَتَّعِـيَن بِالنِّعَمْ

ويردد الحاضرون (آمين آمين آمين) وتنشد هذه الأبيات التالية في طبع (الماية) وهو

آخر الطبوع في ترتيب المقامات التونسية في ترتيب الإنشاد، ويكون الوقت آنذاك قد طلع الصباح فيقول أحد المنشدين:

الصَّبَاحِ انْشَرْ أَعْلاَمَه   وَبَدَا لَوْنُه شَرِيقْ
سَادَتِي اِبْقُوا بِالسَّلاَمَة   وَ الْهَنَا وَ الْعَافِيَة[1]

وفي النهاية يردد الحاضرون ثلاث مرات: (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله).

في المنازل: تكون البداية بالعادة (بسم الله (7 مرات)، والحمد لله (7مرات) وبجاه رسول الله)، وعند الدخول إلى المنزل (قال ربّي فادخلوها بسلام آمنينا) ثم تذكر الجماعة في طبقة (قرار) (الله دايم حي) وينطلق أحد المنشدين في طبقة (جواب) بتقصيد عدّة أبيات مثل (العروبيات أي مواويل) من شكل:

يَا لاَيْمِي بَطِّلِ اللُّومْ   حَيَّرْتْ عَلَيَّ الْمْوَاجَعْ
وَانَا بْحُبِّ النَّبِي مَغْرُومْ   هَيْهَاتْ مَا نِيشْ رَاجِعْ

أو:

يَا رَبِّي اِنْتِ رْجَايَا   وْلاَلِي سْنَدْ غِيْر بَابِكْ
مْنِ النَّارْ تْنَجِّي عْضَايَا   وْتِسْبِلْ عْلِيَّ حْجَابَكْ

ثم ينشدون: (الله الله، لاإله إلا الله، لا إله إلا الله الملك الحق المبين، لاإله إلا الله أرحم الراحمين)

لحد هذه الأبيات لا يزالون وقوفا، ثم تقرأ الفاتحة وقوفا ويجلسون.

وروي لنا أنه قبل سنة 1950م، كانوا يجعلون نصف الليل الأول للمولدية وتعطيراتها والموشحات، والنصف الثاني للبحور والشطحات أي دخول آلات الإيقاع إلى مطلع الفجر.

1 في الأغاني للصادق الرزقي نجد ختم نوبة الماية ص 238 تذكر البيت على هذا الشكل:
ختم: بيت: الصَّبَاحُ نَشَر أَعْلاَمُه * وبَدا لونُه شَرِيق * وَالظلاَمْ جرّدْ حُسامُه * زادَ فِي قَلْبِي حَرِيقْ
والمليحْ جدّدْ غَرامُه   خَدُّهُ يَحْكِي الْعَقِيق
طالع: المَلِيحْ فِي خَدُّ شَامَه * كَالْمُسُوكِ الْغَالِيَه * سَادَتِي ابْقَوا بِالسَّلاَمَه * وَالْهَنَا وَالْعَافِيَه

وعندما يجلسون يقرؤون الفاتحة، ثم ينشدون المولدية (مولد البرزنجي) وتتخللها تعطيرة الشيخ الفرّان في مقام البياتي:(اللّهُمَّ صلّ وسلّم وبارك عليه) فينفلت المنشد عن طريقها ليقول توشيحا أو قصيدة أو صنعة ويحوّم ويحوّم ثم يرجع إلى المولدية لإتمامها. وأصبحت المولدية الآن تنشد التعطيرات في الطبوع التونسية منذ 1970 م.

أما الجاري به العمل الآن، فقد انفرط عقد هذا النظام وأصبح المنطلق هو قراءة الفاتحة ثم التخلّص مباشرة إلى بعض البحور ثم الدخول في الصنائع وهي ابتكارات على تلاحين الغناء غير الصوفي الموجود في الساحة الغنائية، وينطلق ذلك من الإيقاعات الهادئة إلى الإيقاعات الأسرع، ولعل الغرض الوحيد هو تمكين النّاس من فرصة الرقص والتنفيس الوجداني عن كوابت النفس، فيكون بذلك تنفيسا لها.

في الجنائز:[1] بعد غسل الميت وتلاوة القرآن عليه وهو بفراشه قبل الخروج به يدخل جماعة السلامية أو القراء أنفسهم إن اتبعوا الطريقة، فيبدؤون بهذه القطعة من حزب التوسّل للإمام أبي الحسن الشاذلي بتغيير البيت الثالث[2]، وهي من البحر الكامل مع ترديدة (الله أللهُمَّ صل عليه) عند كل شطر على نفس قريب من المحيّر سيكاه:

(اللهُ عَظَّمَ قَـدْرَ جَاهِ مُحَمَّــدٍ   وَأَنَالَهُ فَضْــلاً لَدَيْهِ عَظِيـمَا

فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ قَالَ لِخَلْقِهِ   صَـلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَإِذَا سَمِعْتُمْ ذِكْرَهُ فِي مَجْلِسٍ   صَـلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ثم هذه الأبيات من البحر الطويل : وقد يقولونها في نغمة العراق:

لَكَ الْحَمْـدُ يَا مُسْتَـوْجِـبَ الْحَـمْدِ دَائِـمًا   عَلَى كُلِّ حَـــالٍ حَمْدَ فَــانٍ لِدَائِـمِ

وسُبْحَانَكَ اللَّـهُـمَّ تَسْبِـيحَ شَاكِـرٍ لِمَعْرُوفِكَ   الْمَعْــرُوفِ يَــــا ذَا الْمَــرَاحِـمِ

إِلَهِي بِحَقِّ الْمُصْطَفَى اغْفِــرْ ذُنُــوبَـنَــا   وَخَفِّفْ عَنِ الْعَــاصِينَ ثِـقْلَ الْمَآثِمِ

فَجُـودُكَ مَــوْجُـــودٌ وَفَضْـــلُكَ دَائِـــمٌ   وَأَنْتَ الَّذِي يُرْجَى لِكَـشْفِ الْعَظَائِمِ

---

1 ننقل هنا ما نسمعه مباشرة من قرّاء مدينة المنستير وفرقهم السلامية.

2 البيت الثالث في أصله: (يَا أَيُّهَا الرَّاجِينَ مِنْهُ شَفَاعَةً   صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا)

أو هذين البيتين في العراق أيضا:

لَوْكَانَتِ الدُّنْيَا تَدُومُ لأَهْلِهَا　　لَكَانَ رَسُولُ اللهِ حَيًّا وَبَاقِيَا

لَكِنَّهَا تَفْنَى وَيَفْنَى نَعِيمُهَا　　وَلاَ يَبْقَى لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى

ثم ينشد هذا البيت:

شَفِيعُ الْمُذْنِبِينَ * صَلاَةُ اللهِ عَلَى الْهَادِي نَبِينَا * خِتَامُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

ثم يدخلون في بحر أو اثنين مثل هذا المسدس الأليف في مقام الرهاوي[1]:

يَا غَافِلِينَ　　عَنْ ذِكْرِ الْقَوْلْ

صَلُّوا اجْمَعِينَ　　عَلَى الرَّسُولْ

طَهَ نَبِينَا　　تَاجِ الْعُدُولْ

*** ***

أَتَانَا رَحْمَة　　شَفِيعُ الأُمَّة

خْرَجْ مِنْ بُطْنُ أُمَّه　　مْكَحَّلْ مَخْتُونْ

قَلْبَه وَ جِسْمَه　　مِ الْكَوْثَرْ مَغْسُولْ

*** ***

بَدْرُ الْبِدَايَة　　مَوْلَى الْعَنَايَة

مَبْعُوثِ نْهَايَة　　آخِرْ مَرْسُولْ

قَبْلَ الْبِدَايَة　　إِسْمُه مَنْزُولْ

*** ***

تَوْبَةِ الْعَاصِي　　فِي حُسْنِ خْلاَصِ

صَابِحْ وَمَاسِي　　بِهَا مَشْغُولْ

1 المسدس الأليف ما ترتبت أبياته على ترتيب حروف الهجاء وهي ترتب على نحو ا، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ط، ظ، ك، ل، م، ن، ص، ض، ع، غ، ف، ق، س، ش، ه، و، لا، ي) لا كما هو متعارف اليوم عندنا.

أَحْمَدْ خَـلاَصِي　　يَـوْمَ الْـوُحُـــول

*** ***

ثَبّتْ لِسَــتَــانِي　　عِنْدِ النَّــزْعَــانِ
بَـاسْمِ الْوَحْـدَانِي　　نِنْـطَق بِـالْقَــوْلْ
آخِرْ خَتْـمَــانِي　　وَانَـا مَسْبُــول

*** ***

جَــاوْنِي أَحْـبَابِي　　الاَمْلاَكِ اصْحَابِي
نَقْـرَا كِتَـــابِي　　عِنْـــدَ الْحُلُول
نِلْبِسْ ثِيَـــابِي　　بَعْدَ الْغُـسُـول

*** ***

حُفْرَة مَـا اشْيَنْهَا　　لاَهَــرْبَة مِنْــهَا
نْمُوتْ ونُسْـكُنْهَا　　آشِ الْمَفْعُـــولْ؟
نِفْسِي نِـدْفِـنْهَا　　فَرْضَـا هُـو الأُول

*** ***

خَايِفْ مِنْ قَبْرِي　　حَــايِرْ فِي أَمْـرِي
يَـا قِلَّـةْ صَبْرِي　　سَــاقِ الْمَرْحُـول
عَـازِمْ مَـا نِدْرِي　　أَيْـنَ الـنُّــزُول

*** ***

دَارُوا لِي نَــاسِي　　فِي حُسْـنِ لْبَاسي
قَـاصِدْ الأَرْمَاسِ　　وَأَنَا مَحْــمُولْ
لِلْقَبْـرِ قْيَـاسِي　　عُــرْضًا وَطُــول

*** ***

ذَكْرُوا مَـوْلاَنَـا قَصْـدُوا الْجَبَّانَة

سَـارُوا بِكْهَانَة وِالدَّمْـعِ هْطُولْ

صَـلاَّوْا وْرَانَـا عَاصِي وْمَقْـبُولْ

*** ***

رَوَّحْـتِ لْلَحْدِي وِسْكُنِتْ وَحْدِي

جَاهِي وَ جُهْدِي مِنِّي مَعْـزُولْ

عُبَيْـدِكْ مُبْـدِي فْقَيِّرْ مَـذْلُـولْ

*** ***

زَاهُـوا دُنْيَاهُمْ نَـاسِينْ قُرْبَـاهُمْ

مِنْ بَعْدْ بْكَاهُمْ لِتْـمَامِ الْحَـوْل

اللهْ نَـسَّـاهُـمْ حُسْنَى الْجُهُـولْ

*** ***

طُولِ الـزَّمَـانِ تِفْـنَى الأَكْـوَانِ

الإِنْسِ مْعَ الْجَانِ مَـا يِبْقَـى زُولْ

حَتَّى الشَّيْـطَانِ آخِرْ مَقْـتُولْ

*** ***

ظَـاوِي جَبِيـنَه أَحْمَـدْ نَبِينَـا

هُوَ يِشْـفَعْ فِيـنَا فِي يَوْمِ الْهَـوْلْ

مِنْ حَوْضُه يِرْوِينَا مَـاءً زُلُولْ

إلخ...ثم بحر آخر مثل:

يَامَا سْكُـنَّا مِنِ مْسَاكِنْ عَالْـيَه وْ يَامَا لْبِسْنَـا مِنِ لْبَاسِ رْهِيفْ

وَيَامَا كْسِبْـنَا مِنِ مْخَـازِنْ مَالْيَة وْمَاذَا عَدِّيـنَا مِنِ رْبِيعُ وصِيف

حَالِ بْنَـادِمْ فِي مْثِيـلِ الـدَّالْيَه مِنْ بَعْدِ الْغَلَّة فِي عْقَابِ خْرِيف

تْنِزْعِتْ مِ الأَوْرَاقْ وْصَارِتْ جَالْيَة وْمَا كَانْ فِيهَا قْوِي صَارِ ضْعِيفْ

أُفْ عْلَى الدُّنْيَا الْمْـشُومَة الْفَانْيَة الإِنْسَانْ فِـيهَا فِي مْثِيلِ الضِّيفْ

اِخْدِمْ لِلدَّارِالـدَّايْمَة الْمُتْـوَالْيَة واِقْدِمْ عْلَى رَبِّـكْ بْوِجْـهِ نْظِيفْ

حُورِ الْعِينِ مْغَمَّـزَة وْ مُتْجَـالْيَة وِقْصُـورْ وِخْلاَعَاتْ وِ تْكَالِيفْ

هَذِي مْعَانِي كْمَا الْجْوَاهِـرْ غَالْيَـة وْنِخْـتِمْ بِالصَّـلاَةْ عْلَى الشَّرِيـفْ

ثم يختمون بهذا البحر في إيقاع سريع:

يَا رَسُـولَ اللهِ يَا خَيْـرَ الْبَشَرْ اَنَا خَـاطْرِي حَيْـرَانِي

كَيْفَ حَالِي حِيـن دْخُولِي لِلْقَبَرْ وَجَـاوْنِي الْمَلَـكَانِ

يَسْـأَلاَنِ هَكَـذَا صَحَّ الْخَـبَرْ عَنْـكَ يَا سُلْـتـطَانِي

يَا خَالِقِي اَحْفَظْ لِسَـانِي مِنْ كُلْ شَرْ وَ انْطِـقْهُ بِالْبَيَـانِ

يَشْـهَدْ بِأَنَّ اللهَ بَـاقِي مُسْتَمِـرْ وَكُـلُّ شَيْءٍ فَـانِي

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَـبْدُهُ خَيْرُ الْبَـشَرْ أَرْسَلَـهُ الْـوَحْدَانِي

صَـادَقْ مُصَدَّقْ بِالـدَّلِيلِ مُشْتَـهِرْ دَلِيـلُـهُ قُرْآنِي

....

اِرْحَمْ خَدِيمِكْ يَا سِيدِي مِنَ الْكَدَرْ يُومِ الْغَرَقْ طُوفَـانِي

يَوْمَ تَلْقَى كُلُّ نَفْـسٍ مُحْـتَضَرْ فِعْلَـهَا بِالْبَـيَانِ

مَنْ يُطِيعَ اللهَ وِ يطِيعْ سِيدِ الْبَشَرْ فَازَ يَا الإِخْــوَانِـــي

مَنْ يُحِبِّ اللهَ الْكَـرِيمِ الْمُقْــتَدِرْ يُجَــازِيهِ بِالإِحْـــسَانِ

مَنْ يُحِبِّ الْمُصْـطَفَى يَـــا مَنْ حَضَرْ يُجَــاوِرْهُ فِي الْجِـــنَانِ

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَـــا خَـــيْرِ الْبَشَرْ الْمَالِـكِ الْوَحْــدَانِي

إلخ....ثم يقرؤون الوظيفة حتى يختموها بقول أحدهم (ختمت يا بن عروس ختمت) وقد يأتون بعدها بألفية أي ألف (لاإله إلا الله) حتى يأتي وقت خروج الجنازة، فتخرج ويضعونها في باحة الدار أو أمامها فتقرأ الحضرة بعد ذكر الجلالة (الله الله لاإله إلا الله) يقول الشيخ: من البحر البسيط في طبع النوى ارتجالا في شكل العروبي فيقول الصدر ويردّ الجماعة بالعجز في نفس الطبع:

إِنِّي عَلَى الْعَهْدِ لاَ أَنْسَـــاكُـمُو أَبَدًا وَكَيْفَ أَنْسَـاكُمُ وَالْقَلْـبُ عِنْدَكُـمُـو

أَوْرَثْتُـــمُونِي جَمِيلاً لَسْتُ أُنْكِـرُهُ مَا دُمْتُ حَـــيًّا فَـلاَ أَنْسَى جَمِيلَـكُمُ

وَاللهِ مَا بَقِيَتْ فِي الْجِسْمِ جَـــارِحَةٌ إِلاَّ وَ فِيـــهَا لِطُـولِ الـدَّهْرِ ذِكْرُكُمُ

عَيْنُ الزَّمَـــانِ أَصَـــابَتْنِي بِنَظْرَتِهَا وَمَنْ يَأْتِيـكُمْ خَلاَصًا مِنْ عَيْنِ الزَّمَانِ

حَالَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ كَمَا حَـــالَ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّــتِ الْقَبْـرُ

ثم من مجزوء الكامل في طبع النوى أيضا:

اَلْمَوْتُ أَفْـنَى مَنْ مَضَى وَالْمَوْتُ يُفْـنِي مَنْ بَقِي

وَالْمَوْتُ يَجْمَعُ فِي الثَّرَى بَيْنَ الْمُنَـعَّمِ وَالشَّـقِي

وَالْقَبْرُ صُنْــدُوقُ الْجَزَا فَمَا سَبَّـقْتَ تَلْـــتَقِي

يَا مَنْ أَسَا فِيــمَا مَضَى كُـنْ مُحْسِنًا فِيـمَا بَقِي

وَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا يَـوْمَ الْقِـيَـامَةِ تَلْـتَقِي

ثم من الكامل التام كذلك في طبع النوى:

أَمْسَيْـــتَ ضَيْفَ اللهِ فِي دَارِ الْبَقَا وَعَلَى الْمُلُوكِ ضِيَـافَةُ الضِّيفَانِ

هُمْ يُكْرِمُونَ النَّاسَ عِنْدَ نُزُولِهِمْ   كَيْفَ النَّـزِيلُ بِسَاحَةِ الرَّحْمَانِ

مَا ثَـمَّ شَيْءٌ فِي الْوُجُـــودِ مُخَـلَّدٌ   إِلاَّ الإِلَـــهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَاني

أَفْنَى الخَــلاَئِقَ كُلَّـــهَا سُبْحَانَهُ   وَلَمْ يَـــزَلْ فِي مُلْكِهِ وَحْــدَاني

وهي أبيات شعرية مختلفة الأوزان، في ذكر الموت وتختم هذه الحضرة بالدعاء للميت وأواخر سورة الحشر: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ..إلخ..الخ السورة) . وذكروا لي أن الجنازة كانت تتبع بنوع من الأذكار من جملتها:

رَحْمَانِ يَا رَحْمَانْ هَذَا عَبْدِكْ   وِالْيُومْ يَا رَحْمَانْ طَالِبْ فَضْلِكْ

ثم حذف ذلك وأصبح موكب الجنازة يمشي صامتا إلى المقبرة، ولم أعثر على من يذكر لي تلك الأذكار بدقّة.



الطريقة الناصرية

نسبة إلى صاحب الكرامات محمد بن الناصر الدرعي

الشيخ المؤسس: هو العالم الرباني الشهير محمد بن الناصر الدرعي[1]، كان داعية متحمّسا للتعاليم الروحية الشاذلية، وقد انتشرت عن طريق أستاذه الروحي الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الذي يرجع انتماؤه الصوفي إلى طريق عبد الله بن الحسن الرضي وعلي بن عبد الله أحمد ابن علي الحاج الدرعي وأبي سالم التازي، وذاع صيت هذه الشخصية الدينية ذات الولاية والكرامات الخارقة في كامل الجنوب المغربي والسودان الغربي، واعترفت به كل الطوائف الفرعية للشاذلية كأستاذ كامل لا مثيل له صاحب المناقب والكرامات التي تساهم في إسعاد أتباع. وتوفي محمد بن الناصر الدرعي بتمغروت بوادي الذراع وترك ذرية كثيرة وآلاف الأتباع.

أخبار الطريقة: هي إحدى الطوائف الهامة التي أسسها تلاميذ الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، وقد التف أتباعها حول ضريح أستاذهم الشيخ محمد بن الناصر الدرعي، وأسّسوا زوايا باسمه حيث أصبحت زاوية تمغروت الزاوية الأم للطريقة وشعّت بأنوارها على كامل المملكة المغربية والجزائر وتونس، ومن ورثة شيخ الناصرية نجد عدّة رجال مشهورين في الحركة التجارية من "أغادير" إلى "التوات" إلى "تنبكتو" حيث تجد القوافل لديهم المساعدة وحسن الضيافة والحماية وحتى الوساطة مع القبائل الصحراوية كالطوارق وغيرهم.

---

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.467.

أمّا في البلاد التونسية فقد ذكر الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز في الكتاب الباشي[1] في معرض حديثه عن مناقب الأمير أبي الحسن الباشا علي بن حسين بن علي باي المتوّج في 14 جمادى الثانية 1172هـ/1759 مانصه : "...مع ما التزمه من الأوراد والأذكار وغير ذلك، وله في ذلك أسانيد وإجازات عن الشّيوخ، فقد أخذ وِرد الإمام العلاّمة سيدي أحمد بن الناصر الدرعي عن الشيخ سيدي عبدالحفيظ الزواوي بن دوابلاده الخنفي، وهو يرويه عن صاحبه سيدي أحمد بن ناصر رحمه الله تعالى. وقد أجازه [أي الباشا علي بن حسين باي] الشيخ سيدي عبد الحفيظ عن سيد أحمد بن ناصر بسنده المعروف في الطريقة، ولنذكره تبرّكا به فنقول: روى سيدي أحمد بن ناصر عن سيدي محمد بن ناصر، عن سيدي عبد الله بن حسين القبّاب عن سيدي أحمد بن علي الخزرجي عن سيدي أبي القاسم التّازي عن سيدي علي بن عبد الله الفيلالي عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني، عن سيدي أحمد زروق عن سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي عن سيدي علي القرافي عن سيدي أحمد بن عطاء الله عن سيدي أبي العباس المرسي عن سيدي أبي الحسن الشاذلي عن سيدي عبد السلام بن مشّيش عن سيدي عبد الرحمان العطار...إلخ... ثمّ وردت عليه [أي الباشا علي بن حسين باي] إجازة من الشيخ العلاّمة الفاضل سيدي يوسف بن محمد بن محمد (أيضا) بن ناصر ابن أخي أحمد بن ناصر القائم مقامه الآن فسح الله في أجله...ويستمرّ في ذكرالأسانيد حتى يقول: ولولا خوف الإطالة لتتبّعنا الأسانيد كلّها حتّى تكون دفترا عظيما. ولكن حسبنا التّبرّك بذكر هؤلاء فقد أجازونا والحمد لله في العلوم الإسلامية معقولا ومنقولا حديثا وتفسيرا نحوا وتصريفا وأدبا وعروضا وتوقيتا وتوحيدا وتعديلا ومصافحة ومشابكة ومناولة ومعانقة وضيافة بالماء والتّمر والحديث المسلسل أوّل كل شيء في المجلس، وبقراءة سورة "الصفّ" وقراءة سورة "ألم نشرح" واليُمنى على الصدر واليُسرى أسفلها وبجميع ما ذكرْتُ أجزت السيّد علي باي ابن حسين باي كما أجازني أشياخي في جميعه، وبكلّ ما تصحّ روايته من مسموع ومقروء وتقييد، وأذنتُ له في تلقين الذكر لمن أراد من أولاده وعياله، وزدته في ورده أحد عشر ألفًا من (يالطيف.. يا لطيف) كل يوم وأذنت

1 الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة 1202هـ/1788م، الكتاب الباشي، تحقيق الشيخ ماضور طبع الدار التونسية للنشر 1970، الجزء الأول، ص206.

له في قراءة المُسبّعات العشر عند كلّ طلوع شمس وغروبها وحزب النووي وحزب البحر والوظيفة الزروقية والصلاة المشّيشيّة مؤكّدا عليه في الإقبال على الله والتوكّل عليه والاعتصام بحبله، موقنا أن الله تعالى لم يخلقنا في الدّنيا إلاّ لنعبر إلى الآخرة عليها. وأوصيته بالغرباء وبالاقتصاص من القرناء للجمّاء فإنّك مسؤول عن رعيّتك فأعِدَّ لسؤالك ما استطعت، فإنّ سائلك لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء والله يرعاكم ويحفظكم ويتولّى بمنّه أموركم ويأخذ بأيديكم ويُعزّكم ويدفع عنكم كل سوء آمين. وفي أربع وعشرين من صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف كتب عبيد الله تعالى عن فرط هول نسأل الله العفو والعافية يوسف بن محمد بن محمد(أيضا) بن ناصر تاب الله عليه. آمين. انتهى." ويذكرالمؤلف أنّ هذا الباي كان يتواضع لكلّ من ينتمي إلى الطريقة ويقول (هو أخي في الطريقة الناصرية). وكانت هنالك زوايا ناصرية، ولعلّ واحدة منهاكانت بالمنستير بحي الربط، وما زالت إلى الآن تسمّى (الناصرية) وقد استعملها الجنرال أحمد زرّوق مخزنا لما اجتباه من أهل البلد من أموال عند نكبته للمنستير في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي قبيل الاحتلال الفرنسي.

ويظهر أن الطريقة الناصرية أقدم من هذا الباي بكثير، إذ يرجع نشرها إلى الشيخ أحمد بن مخلوف الذي تم تكليفه بذلك وهو من سلالة سيدي محمد بن الناصر الدرعي وهو أن يذهب إلى تونس لنشر الطريقة الناصرية[1]. وسيأتي خبره في الحديث عن الشابيّة.

أصول الطريقة: يظهر أن الطريقة الناصرية طريقة شاذلية، ولم نعثر على عمل لها، ولعلّه الذي ورثته الشابية والغريانية.

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 481 -484.



الطريقة الشابيّة

نسبة إلى الشابّة آخر مدينة من مدن الساحل التونسي جنوبا

شيوخ التأسيس: هم: محمد بن عبد العاطف وساعده في ذلك ابنه مسعود فأسّسا زاوية في جبل ششار وهي زاوية سيدي مسعود الشابي، ووسعا نطاق عمل الطائفة في مناطق خنشلة وتبسّة ووادي سوف بالقطر الجزائري، وأسّسا عدّة مساجد وجوامع. ثم تتالى أبناء مسعود بجبل ششار، وهم علي وأحمد الصغير وبن جدّو بورقعة وسيدي رمضان وابنه سي عمار الذي غادر ششار إلى توزر وأسّس هناك الزاوية الشابية التي سميت "بيت الشريعة"، وورث السيد عمّار روحيا الحاج أحمد سيدي بن جدّو مدير الطائفة مع نائبه العام ابن أخيه الحاج محمد بن الحاج إبراهيم بن الحاج أحمد.

وشيخ الطريقة الأكبر هو أحمد بن مخلوف الشابي المولود في 803 والمتوفى سنة 887هـ/1482م وهو صاحب كتاب "الفتح المنير"، ويظهر أنّه من ذرّية سيدي نعمون. نشأ ببلدة الشابّة ومنها انتقل إلى تونس طالبا للعلم في زمن الشيخ الرصّاع[1] قاضي القضاة بتونس ومكث بها أعواما يطلب العلم وكان يتردد على الولي الصالح أحمد بن عروس في حياته حتّى اعتدى الشيخ بن مخلوف مرّة على عون للسلطان فلمّا عرف الشيخ ابن عروس ذلك، تغيّر على تلميذه وقال له: حلفتُ أنّ الّذي فعل هذا لايُعاشرني. فغادر الشيخ أحمد بن مخلوف شيخه، وجاء إلى الساحل ليلتحق بشيخ آخر من الصوفية

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص240 وص280. والشيخ الرصاع توفّي سنة 894هـ/1488م.

فوجد بقصور الساف سيدي علي المحجوب[1] فاستخدمه وكلّفه بغراسة الأشجار ببستانه واستمرّ الشيخ ابن مخلوف يعمل لذلك إلى أن أثمر غرسه، وهنا بدأت الكرامات في الظهور، وتمّ له الفتح فأشار عليه شيخه سيدي علي المحجوب بالذهاب إلى القيروان وأذن له في العهد، وقال له: "شيخك يأتيك إلى القيروان". فانتقل الشيخ أحمد بن مخلوف إلى القيروان وأقام بجامع الدوّاز، وكان فقيرا يتجرّد ظاهرا وباطنا، ثم صار إمام هذا الجامع، ثمّ مؤدّبا بمكتب قريب منه، ثمّ تزوّج (أم العز)

فانجب ستّة ذكور وهم محمد الكبير والشيخ عرفة (ملك القيروان في أواخر الدولة الحفصية)[2] وأبو الفضل وأبو الطيّب وأبو الكرم (بوبكر) وأبو السعود وآخر لم يذكر اسمه والأخيرة سماها (أم العز) إذ توفيت أمّها فأطلقوا اسمها عليها، ولم يتزوّج بعدها.

قيل له: "الناس يسبّونك ! فقال: على أي شيء؟ فما زدت شيئا أُسبُّ من أجله فالكتاب كتاب الله، والسنّة سنّة رسول الله، والطّريق للجنيد، والواهب سيدي عبد الوهّاب الهندي والمصافحة سيدي علي المحجوب، وحزب البحر للشاذلي، والوظيفة ليحي بن عقيبة إلاّ أعوذ بكلمات الله التّامّات". وتوفّي سنة 887هـ /1482م. ودفن بمقام الشيخ عبدالله بن أبي زيد بالقيروان.[3]

أخبار الطريقة: يذكر "كوبولاني" أنه في القرن الحادي عشر للهجرة تم تكليف الشيخ أحمد بن مخلوف وهو من سلالة سيدي محمد بن الناصر الدرعي أن يذهب إلى تونس لنشر الطريقة الناصرية[4]. وبعد تجوال وسياحة طويلة استقر بالشابّة[5] وهي مدينة

---

1 هو الشيخ أبوالحسن علي المحجوب ولد بقصور الساف سنة 876هـ وجدّه الشيخ سيدي طاهر المزوغي المتوفّى سنة 646 هـ دفين قصور الساف، والمزوغي من أصحاب أبي مدين شعيب الغوث وأقران أبي علي النفطي وعبد العزيز المهدوي وأبي سعيد الباجي، أخذ علي المحجوب عن أبي علي السمّاط والشيخ عبد الغني المزوغي وعنه أخذ علي الكراي بوبغيلة. وسمّي المحجوب لملازمته الحجاب وانقطاعه للعبادة. أخذ الطريق عن سيدي علوان بن سعيد الذي قبره مشهور غربي قصور الساف وعن محمد بن جابر: يقال أنه استشهد في جهاد الإسبان عند هجومهم على المهدية سنة 957هـ/1550م . لكن التاريخ يحتاج إلى تحرٍّ أكثر (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، لمحمد النيال، ص 228 و320.)

2 لطيفة الأخضر، الاسلام الطرقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، سراس للنشرتونس أفريل 1993ص28.

3 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص.ص280 -286.

4 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص 481 -484.

5 الشابة وتسمى أيضا "الصبيّة" مدينة تقع في أقصى منطقة الساحل التونسي بين المهدية وصفاقس بها زاويتان الأولى باسم الولي: عبد الله المراكشي، وهي على شاطئ البحر وعليها نقيب اسمه عبد الله العجمي، وبها حزب

من الساحل التونسي بين المهدية وصفاقس. ومن هناك أعطي اسم "الشابّي" لأعضاء هذه العائلة ثم أصبح اسما للطائفة.

والواقع أن خبرا كهذا يتعارض مع ما نرى من أن هذا الشيخ نشأ بالشابّة ودرس بتونس كما أن التاريخ يختلف فبينما نجد الشيخ على رواية النيّال وجد بأوائل القرن العاشر يذكر كوبولاني القرن الحادي عشر وأن نكبة الشابية وقعت في ذلك القرن، فربما كان أحد بنيه الّذين شرّدوا للجزائر ومنها خرج أحدهم للبحث عن وسيلة للرجوع إلى الجريد ويذكر كوبولاني أنّ شيخهم قد ساهم في استتباب الأمر للفرنسيين إبان احتلال البلاد وتحصل جزاء له على صنيعه تسميته قايدا على بيت الشريعة.

بعد أن توفّي الشيخ أحمد بن مخلوف الشابّي مؤسس الطريقة الشابّية بالقيروان خلفه ابنه عرفة الشابّي المتوفى سنة 949هـ وهو الّذي قام ضد الحفصيين لتواطئهم مع الإسبان وإبرامهم معاهدة أوت 1535م. فجمع الشيخ عرفة الجموع من مريديه وأتباعه للوقوف في وجه الغزاة والحكم العميل، وانضم إليه العديد من القبائل والأعراب منها قبيلة الحنانشة، ووجد دعما من قرى الساحل ومدنه، ورأت فيه المخلص من الحكم العميل ومن الإسبان ومن قراصنة الأتراك، وانتصر الشيخ في معركة باطن القرن في سبتمبر 1535، وأخرج الأتراك من القيروان، وهكذا أصبحت الطريقة الشابّية سيّدة البلاد وصار شيخها يدعى في مراسلات الإسبان "ملك القيروان"، وجمع المنهزم فلول جيشه واستنجد بجنود الإسبان واقتحم معركة نكراء ضد الشّابّية بمنزل حرب لكنه انهزم في 12 نوفمبر 1540م. وانحاز الكثير من جيشه لعرفة الشابي وغرق العديد من الجنود الإسبان بالسبخة[1].

وواصل أحفاد هذا الولي الصالح نشر طريقتهم بصفتها موروثا تركه الأجداد، واستقر بعضهم بالقيروان حيث أسس الشيخ أحمد مخلوف بحياته زاوية، وجاء مَنْ بَعْدَه فبنوا لها فروعا بتوزر والبرارشة وتبسّة، كما لهم زاوية بصفاقس[2]. ومن هذه الزوايا نشروا

له سناجق وخرجات في حفلات الختان والحج. والثانية باسم الولي (سيدي نعمون) موجودة بوسط المدينة بجانب السوق وبها نقيب اسمه: الهادي الخموسي (الحلو). ويذكر الكثيرون أنّ جدّ الشابّيّة الشيخ (سيدي نعمون) دفين بلد الشابّة.

1 لطفي عزيز، الساحلين، نقوش عربية، الطبعة الأولى 1998. تونس.

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 218.

تعاليمهم في مناطق بني صالح، وكان الأكثرَ حماسا لخلافة الشيخ أحمد بن مخلوف ابنه بدر الدين الذي يوجد ضريحه بـ"قيرية" من أحواز تبسّة، وترك عدّة ورثة عرفوا بأولياء بدر الدين وبلغ أحدهم وهو أبو معيزة محمد الطاهر ابن الحاج الراعي منصب القيادة (منصب العمل على جهة ترابية) بقسنطينة.

من شيوخ الطريقة الشابيّة نذكر: أحمد بن مخلوف ومحمد الكبير والشيخ عرفة ومحمد المسعود ومن الكتب المؤلفة في التصوّف " الفتح المنير في التعريف بالطريقة الشابية وما يُربّى به الفقير" ألّفه الشيخ محمد المسعود المتوفى سنة 1029هـ

وطارد الأتراك (محلّة درغوث باشا) الشابيّة وقتلوا زعيمهم محمد بنور بن الشيخ محمد المسعود وشرّدوهم إلى الجهة الغربية ويظهر أنهم استعانوا بالغريانية عليهم في معركة حاسمة بالساحلين بالقرب من المنستير ولعلّ ذلك مرتبط برابط ما مع شيخ الرباط محمد بن أبي زيد المنستيري الذي كان غريانيا. وبعد مدّة دخل الشابيّون بلاد الجريد بضاحية خاصّة من مدينة توزر حيث هم الآن يعيشون، واشتهر

منهم أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الكبير[1].

أصول الطريقة: هي طريقة عائلة من الأولياء تمارس الطقوس الناصرية بدون أن يكون لها ارتباط بها، وهي في الأصل شاذلية، وتطورت إلى الناصرية إلاّ أنّ القواعد التي يعلمها السادة لأتباعهم تتميّز بالرقم سبعين (70) الذي يدخل في ممارساتهم التعبّديّة.

وهذا نموذج من إجازة مقدم:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

سلمنا مكتوبنا هذا بين يدي أخينا في الله ليشهد أننا أجزنا له إعطاء الطريقة الشابية لكل من يطلبها. وعليه أن يعمل على توجيه الأتباع للحصول عليها وهي إجازة كاملة عامة ورسمية منتقلة بدون انقطاع من شيخ إلى شيخ ونحن نجيزه بنفس الطريقة التي أجازنا بها والدنا نفعنا الله به. أما الطريقة فتشتمل على السبعينية ... والّذين لا يقدرون على القيام بذلك من النساء والأطفال يرددون بعد صلاة الفجر 100 مرة

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص280 -286.

(أستغفر الله) و100 مرّة (لاإله إلا الله) و100 مرة (اللّهُمَّ صل على سيدنا محمد وعلى آله) وهذا يكون لهم عوضا عن السبعينية، ولتكونوا في عون الله وحمايته، والسلام من الفقير إلى ربه الرحيم عبده أحمد بن عمار بن رمضان الشابي شيخ بيت الشريعة أعانه الله آمين وحرر في 4 جمادى الثانية 1279 هـ[سبتمبر 1862م].

طريقة العمل: لم نعثر للشابّية على عمل سماع، غير أننا عندما نربط الأحداث نجد أن أولاد الشيخ عرفة كان لهم مزهر قدّموه للملك المخلوع الحسن الحفصي، مما يدلّ على أن الشابيين لهم اهتمام بالموسيقى إلى جانب طريقتهم الصوفية، ثم نجد في الأخبار أن الشيخ عامر المزوغي مؤسس الطريقة العوامرية كان له اتّصال بهم وقد شارك في حربهم ضدّ الإسبان، كما اتّصل بزاوية الجديدي، نذهب إلى أنّه تأثّر من قريب ومن بعيد بالطريقة الشابّية أو الناصرية، على أن أصل عمله يعتمد على القشاشية.



الطريقة الغريانية

تنسب إلى الشيخ أبي سمير عبيد بن يعيش الغرياني[1] المتوفى سنة 805 هـ وهو تلميذ المؤسس

الشيخ المؤسس: هو "أبو عبد الله محمد بن عبد الله السبائي عرف الجديدي القيرواني، الشيخ الإمام الفقيه العالم من أكابر الصالحين مجاب الدعوة كثير الكرامات، أخذ عن القاضي أبي عبد الله بن فندار عرف عظوم البخاري[2] وغيره، له مدرسة بالقيروان مقصودة لقراءة القرآن والعلوم وغالب علماء القيروان وغيرها قرأوا بها، وانتفع به خلائق كالشيخ القرقوري الصفاقسي[3] وعبد العزيز العياشي الطبلبي[4] والشيخ

---

1 نسبة إلى غريان مدينة بالقطر الليبي ومركز محافظة .

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص259، عدد950: "أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى بن فندار القيرواني عرف بعظوم من بيت معروف الفضل والتحلّي بالوقار، الإمام الفقيه العالم المحصّل المؤلف المتقن، أخذ عن البرزلي والزعبي وغيرهما له تآليف في الفقه منها: مواهب العرفان، والمباني اليقينية، ومرشد الحكّام. كان بالحساة سنة 889هـ"

3 عبد الرحمان الدبّاغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، الجزء الرابع، طبع ونشر المكتبة العتيقة لصاحبها علي العنسلي بتونس، ص240. "...وكذلك الشيخ أبو بكر القرقوري بصفاقس كان من تلاميذه (أي تلاميذ الجديدي) وقرأ العلم بالقيروان على شيخنا الشبيبي وسلك طريق الشيخ الجديدي في زاويته ففيها خلق كثير من الناس وزاد بأنّه يعمل الميعاد في مسجد الشيخ أبي الحسن علي الربعي المعروف باللخمي لأنه فقيه عراف موفق للجواب".

4 عبد الرحمان الدبّاغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع ونشر المكتبة العتيقة لصاحبها علي العسلي بتونس، الجزء الرابع، ص240. "...وكذلك الشيخ أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ الصالح عيّاش ذكره قبل هذا من خواص الشيخ أيضا (أي الجديدي) ومن فقراء زاويته. وهو بزاويته بطبلبة من عمل المهدية في خير كبير وناس يقرؤون القرآن ويأكلون عليه، وكثيرا ما يُعين زاوية شيخه الجديدي بالطعام الكثير وخصوصا عند الحاجة. وكل من يرد عليه من جميع الناس يُضيفه ويحلِف له ولو كانت محلّة السلطان وعربها يقوم بها وكل ما يكتب للسلطان غالب الحال تقضى فيه الحاجة، وكل من يهرب إليه من قوّاد السلطان وشيوخ العرب وصل الأمان ويكتب فيهم فيجيء الجواب بما يريد."

الصالح محمد بن أبي زيد[1] الناظر على قصر المنستير، توفي المترجم له بمكة وقام مقامه خليفته الشيخ الصالح الشهير الذكر عبيد بن يعيش الغرياني المتوفّى سنة 805 هـ"[2]، وفي معرض الحديث عن أبي بكر القرقوري يقول "النيّال" من تلاميذ محمد الجديدي المتوفى سنة 786هـ/ 1384م المؤسس للزاوية الغريانية بمدينة القيروان وتوفي بمكّة ولم يترك ولدا ولا أهلا، فانتصب فيها خادمه الشيخ عبيد بن يعيش الغرياني وأصبحت الزاوية تسمّى بالزاوية الغريانية، ومن أصحاب الجديدي أبوفارس عبد العزيز بن الشيخ عيّاش صاحب الزاوية المعروفة بطبلبة، وهو حسنة من حسنات الشيخ الجديدي."[3] وذكر في "معالم الإيمان"[4] أنّ الشيخ كان يحفظ بعض القرآن وانه ربِّي يتيم الأب، وأوّل ما اجتمعت عليه الفقراء لقراءة القرآن بزاوية الشيخ أبي الحسن علي العوني، ثم انتقل إلى زوايا أخرى حتّى استقر في زاويته التي اشتراها. وكان، رغم أنّه يطلب للفقراء بنفسه على أبواب الديار بين المغرب والعشاء بالحلاّب في يده، فإنه كان لا يأكل مما يأتي للفقراء، وإنما يأكل من الّذي يأتيه لنفسه، وينفق الباقي للفقراء وأصحابه. ومشى الشيخ الجديدي إلى المنستير ومعه الحاج عيسى المغربي وإسماعيل بن أحمد الشرفي وبها تلميذه الشيخ محمد بن أبي زيد المنستيري ناظر قصر الرباط، كما سعى بالصلح في فتنة

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص246 عدد886: "أبو عبد الله محمد بن أبي زيد المنستيري الفقيه العمدة الشيخ الصالح القدوة، أدرك ابن عرفة وطبقته، وأخذ عن الشيخ الجديدي القيرواني وانتفع به وسلك في قصر المنستير طريقته ابتداء وانتهاء، وعنده بالقصر من التلامذة ما يربو عن المائة وحصل النفع به واشتهر ذكره وكانت الأرزاق تأتي إليهم من نواحي إفريقية كالجزيرة (الوطن القبلي) والقيروان وقفصة وتوزر ونفزاوة ونفطة وقابس، وعنه ابنه أحمد. وقبره بالقصر معروف. لم أقف على وفاته" [أقول: وقد كانت له قبّة في ساحة القصر أزيلت إثر ترميم القصر وتهيئته للعمل الثقافي، وهو رحمه الله الّذي حبّس هنشير بن منصور بعمل المهدية "على ولده الشيخ الفقيه العدل المعتقد البركة سيدي أحمد وعلى عقبه وعقب عقبه ما تناسلوا وامتدّت فروعهم في الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وعلى فقراء القصر الكبير في بلد الرباط المنستير المقيمين به لتعليم القرآن العظيم وسنّة نبينا محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وأصحابه أجمعين .... بتاريخ أوائل صفر الخير عام خمسة وعشرين وثمانمائة بشهادة عدلين ممن سلف من عدول المنستير.."(الوثيقة رسم حبس مع صدور فتوى عدلية بتاريخ أواخر رمضان سنة ستة وثمانين ومائة وألف.)]

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص258 عدد944 :"أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي زيد المنستيري الفقيه العالم الشيخ الصالح، أخذ عن والده وقام مقامه بشؤون قصر المنستير، توفي سنة 869 هـ ودفن بمقبرة المنستير قريبا من شاطئ البحر عليه بناء حفيل، ولمّا خُشِيَ عليه من البحر نُقِلَ لموضع آخر بالمقبرة وبني عليه بناء حفيل أما البناء الأول فأخذه البحر بعد النقل ولم يبق منه أثر، وكان الّذي تولّى نقله الشيخ محمد القزّاح المساكني سنة 1310 هـ" [أقول: وقد أدمج هذا البناء بروضة آل بورقيبة حاليا].

3 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص314.

4 عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع ونشر المكتبة العتيقة تونس، الجزء 4، ص ص226 - 241.

وقعت بين البقالطة وطبلبة فكانت سببا في اجتماع شيوخ الساحل به. ولما عزم على السفر إلى الحج دعا خادمه الشيخ عبيد الغرياني[1]، وكلفه بالزاوية فأبى، وبعد إلحاح قبل الشيخ الغرياني التقديم وذهب الشيخ الجديدي وحجّ ثلاث حجج.

ولمّا مرض الشيخ الجديدي تزوّج امرأة وأعطاها من جملة نقدها خاتمه، ومات بعد ثلاثة أيام ولم يصبها، وأبت أن تبيع الخاتم المذكور لمن سألها ذلك التماسا لبركة الشيخ، وكان آنئذ مجاورا بمكّة، وتوفي بها أوائل سنة 787هـ.

أخبارالطريقة: ذكر في "معالم الإيمان" أن الزاوية بناها الحاج مبارك الهيشري[2]، ويروى أن الشيخ أبا سمير عبيد بن يعيش الغرياني هو الّذي أشار على الشيخ الجديدي بشرائها عن رؤيا رآها، وأصبح للزاوية شأن حتّى أن من يحتمي بها يجد الأمان ولو كان السلطان خلفه، وتخرّج منها علماء وأكابر منهم الفقيه أبو علي حسن بن عبد الله اللواتي وأبو الحسن علي بن عقبة الوسلاتي قاضي المنستير، كما كان يقصدها الناس من أقصى المغرب. وانتشرت الطريقة بالمنستير على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي زيد صاحب قصر الرباط بالمنستير واجتمع له ما يفوق المائة فقير، وله من الرباع ما يفي بالنفقة عليهم، كما انتشرت بصفاقس على يد الشيخ أبي بكر القرقوري وكان يعمل

1 هو أبو سمير عبيد بن يعيش الغرياني [المتوفى سنة 805 دفين الزاوية الغريانية بالقيروان.] كان يرعى غنما لوالده فباعها، فعزم عبيد على السفر للمنستير، فاستأذن في ذلك والده فأذن له وودعه من طرابلس.قال:" جئت من جبل غريان لقصر المنستير، وكان فيه الشيخ عمر بن محفوظ الغرياني، فأقمت عنده أزيد من عام، فرأيت في منامي كأنّ قائلا يقول لي:ما يفتح الله عليك إلاّ على يد سيدي محمد الجديدي." فلما ورد الجديدي على قصر المنستير مشى الشيخ عبيد في صحبته، فخدمه وتقدّم على زاويته بعده فسميت الزاوية الغريانية.كان يحفظ بعض القرآن، وكان شيخا فاضلا نفاعا لخلق الله وكان لا يهتم للدنيا ولا حتى لطعامه، وكان يخدم شيخه خدمة المملوك لمالكه، ولما عرض عليه الجديدي نيابته في الزاوية وهو على أهبة السفر للحج امتنع الشيخ عبيد، قال يحكي عن نفسه:" لمّا هربت من التقديم عليها غاية الهروب قال[أي الشيخ الجديدي] لي: يا عبيد، أنا ما نقدمك على عمارتها وإنما نقدمك على حلها وغلقها فإن جاءك أحد فتحتها له وإلاّ غلقتها، وأنا إن كانت نيتي فيها صالحة فحالها يزيد على ما هي عليه الآن، وإن كانت نيتي هو لنأكل بها فأنا مشى حالي بها [بالعامية :أي تيسّرت حالي بها] ومشيت [مضيت] عنها. فسهُل عليّ ذلك وقبلت التقديم، ففيها اليوم مائة وخمسون إنسانا صغارا وكبارا بين طلبة يتعلّمون العلم وقرّاء يقرؤون القرآن وهم الأكثر، ومائة نفس عيالات الرجال الّذين يخدمون الزاوية دخلا وخرجا." وتوسط في الصلح بين أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز وأخيه عمر بصفاقس، وكان الشيخ يخدم زيتونا للفقراء بغابة سفاية نحو سبعة عشر ميلا من القيروان لما أرسل إليه أمير المؤمنين أبو فارس طالبا الدعاء في حملته على توزر، فارسل إليه المطلوب مكتوبا بسواد القدر وكان النصر لأبي فارس وتوفي الشيخ عبيد عام805 ه ودفن بالزاوية.

2 عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع ونشر المكتبة العتيقة تونس، الجزء الرابع، ص227.

الميعاد في مسجد الشيخ علي اللخمي. وبالمهدية على يد الشيخ عبد العزيز بن عياش وغيرهم. وكان للطريقة الغريانية وزاويتها نفوذ كبير بالساحل التونسي، فأعانت درغوث باشا في تشتيت شمل الشابيين المتملكين بالقيروان " وملكت الأملاك الشاسعة بمنطقة الساحل وربما أرض الساحلين أيضا خاصة وأن هذه الأرض كانت تتبع إداريا سنجق القيروان مركز الطريقة الغريانية".[1]

أصول الطريقة: للطريقة الغريانية عادة اسمها الميعاد وهي قراءة التفسير وإلقاء المواعظ على الناس وأخبار الصالحين، ويظهر أنه كان للطريقة سماع غير أنه لم يصلنا عنه شيء.

1 لطفي عزيز، الساحلين، نقوش عربية، الطبعة الأولى 1998، ص 18 وما بعدها.

الطريقة القشّاشية

تنسب إلى الشيخ أبي الغيث القشّاش ويظهر أنها اضمحلت وخلفتها البكرية والعوامرية

الشيخ المؤسس: هو الشيخ أبو الغيث بن محمد القشّاش المتوفّى بتونس سنة 1031هـ/ 1621م، وكلمة القشاش تعني بائع الثياب القديمة. كان والده محمد القشّاش من حفاظ كلام الله وصاحب اعتقاد في الصوفية، وكان على علاقة صداقة وتلمذة مع سيدي معاوية[1] وكان يزوره بدخلة المعاوين بالوطن القبلي، وأثناء هذه الزيارات قال له سيدي معاوية: [أبشر يا قشّاش سيخرج من صلبك ولد تفخر به تونس] فكان كذلك. وكان الوالد إذذاك إماما خطيبا بجامع باب البحر بالحاضرة فرزق بولد فسمّاه (أبا الغيث) وذلك سنة 959هـ/1551م. ولما كبر الولد تعلّم علمي الظاهر والباطن على يد شيخه محمد الجديدي[2] تزوّج ابنة عمّه وفارقها، ثمّ تزوّج ثانية "حيزية بنت الكشباطي" وكانت لا

---

1 هو سيدي معاوية الشارف له زاوية في دخلة المعاوين بالوطن القبلي. وكان الشيخ محمد القشاش والد أبي الغيث يزوره. ويحضرحفلات الزاوية عنده، فهو من رجال القرن العاشر، خلفه بعد موته ابنه أبو الحسن علي وخلّف الأخير ابنًا اسمه الحاج بلحسن المعروف بشيخ الركب وشيخ الركب هذا أنجب الحاج عبد الله والحاج داود والحاج حسين والحاج محمد. ومن أولاد الحاج عبد الله محمد الأصغر وحسين هو والد سيدي داود. وفي القرن الثاني عشر بلغت الزاوية أوجها في الثروة والكسب وأصبحت تملك الأراضي الفلاحية الشاسعة بجهات منزل حر والمدايسة ومنزل تميم وقربة. (عن محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 278.).

2 الشيخ محمد الجديدي أستاذ الشيخ القشاش من رجالات الدولة الحفصية في آخر يوم من أيامها في عهد السلطان محمد بن الحسن آخر الحفصيين سنة981 هـ، وقد عاشت هذه الدولة 378 سنة أي منذ 603 هـ، فسبحان الحي الدائم. والشيخ الجديدي هو الّذي افتكّ نساء وأطفال الحمامات من أيدي الإسبان سنة980هـ، عندما داهموا المدينة، كما استعمله القائد علي بن أبي زيد في تحريض النّاس ضدّ الإسبان والحاكم الحفصي محمدبن الحسن الذي انقرضت على يديه الدولة. ولما توفي الشيخ الجديدي دفن بزاويته التي تقع على بعد 20 كيلومترا غرب مدينة الحمّامات. وهو ليس الجديدي مؤسس الغريانية.

تتلاءم مع طبيعته الصوفية والدينية فقدكانت تركب الخيل دون احتجاب، فلم تعاشره وواصلت ركوب الخيل وهي سافرة وخرجت عن طوعه فطلّقها، وبقي الشيخ غير مكترث بها بدون زوجة، ثم تزوّج علجية من العلوج الوافدين إلى تونس من الخارج اشتراها بـ500 دينار فكانت أم أولاده بعد أن أسلمت سنة 1006هـ، وولدت له بنتا سماها "أم هانئ"، وصاهر محمد[1] تاج العارفين البكري شيخ البكرية فزوّجه ابنته "أم هانئ"، وكان وكان مسكنه وزاويته قرب سوق البلاط.

يروى عن الشيخ القشاش أنه كان ماهرا في التفسير والحديث والأصول وكان في شهور رجب وشعبان ورمضان يعقد مجلسا لقراءة التفسير والبخاري وكان يرغب في تحصيل نسخ متعددة من البخاري (ويظهر أنّ ذلك طبيعي بما أنّ حلقته تهتمّ بقراءة البخاري) وجمع نحو ألف نسخة منها، كما جمع عدّة نظائر من كتب أخرى حفلت بها خزائنه، وفيه يقول شيخ الإسلام يحى بن زكرياء مقرظا إجازة أجاز بها الشيخ القشاش أحد خلفائه إلى بلاد الروم:

أَبُو الْغَيْـثِ غَيْـثُ الْمُسْتَغِيثِينَ كُلِّهِمْ   بِهِمَّتِهِ نَالَ الورَى فَكَّ أَسْرِهِمْ

فَـهِمَّتُهُ الْعَـلْيَاءُ غَيْثٌ بِهِ ارْتَوَى   رِيَـاضُ أَمَـانِ اللأَّئِـذِينَ بِأَسْرِهِمْ[2]

ويظهر أنّ من أتباعه كان جماعة من الملامتية فقد روى "محمد النيال": (وفي حياة الشيخ القشاش خرج من زاويته جماعة من المريدين عراة مكشوفي العورات ومرّوا بسوق البلاط وغيره على حالة الكشف بما أزعج النّاس وقيّض إليهم أعوان السلطان فأدّبهم السلطان وجلدهم الأعوان. والمفهوم من ذلك أنهم كانوا على مذهب الملامة."[3].

واحتجب الشيخ طيلة الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من عمره ولم يخرج من حجبته حتى توفّي، وكانت تقوم بأمور الزاوية ابنته " أم هانئ".

الطريقة وأخبارها: زاوية القشاش قرب سوق البلاط بنهج سيدي التينجي تعقد فيها مجالس الشيخ لقراءة التفسير وشرح جامع البخاري، ويظهر أن الزاوية القشاشية تقلصت مساحتها الكبيرة لتقسيمات عقارية متتالية حتّى أصبحت مكوّنة من جزء

1 محمد النيال يجعله (علي تاج العارفين) ويكنيه بأبي الحسن وينعته بكل ما نعت به محمد .انظر ص 303.
2 انظر ترجمة أبي الغيث القشاش في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص 275 عدد 1122.
3 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 129.

صغير به مدخل ومخزن زمن الاحتلال، والآن أصبحت سوق الحشايش الطّبّية ومسجد الإشبيلي بسوق البلاط.

يقول "محمد النيال" في الصفحة 344 [وفي مناقب القشاش قائمة تنص على ما وضع القشاش عليه يده من أوقاف جامع الزيتونة ومعظم الجوامع والزوايا والهناشير وتصرف فيها إثر انقراض الدولة الحفصية وبعد القضاء على الاحتلال الإسباني وانتصاب الحكم التركي ودخول الجالية الأندلسية الأمر الذي جلب لزاوية القشاش ثراء لا نظير له، ثم انتقل منها إلى زاوية أخرى جديدة هي الزاوية البكرية. وفيما بعد ذلك وقبل أن يتوفّر العمران في البلاد التونسية استسهل أمراء البلاد أن يقطعوا للزوايا الإقطاعات الواسعة من الأراضي ويحبسوها لتقوم بتعليم الصبيان والأمّيّين تعليما دينيا وعربيا، وإصلاح الزاوية وتوفير مرافقها وإقراء الصادر والوارد مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأمر الذي كان متعذّرا على الحكومات وقتئذٍ القيام به في البوادي فأوكلوه إلى شيوخ الزوايا، وشيوخ الزوايا تفرّغوا لهذه المهنة بدون أن تتوفّر في أغلبيتهم الكفاءة][1]. وحيث إن ورثة الشيخ القشاش كانوا من آل البكري فقد انتقل الكل إلى الزاوية البكرية[2].

والزاوية البكرية تنسب إلى عائلة الشيخ أبي بكر الأكبر دفين المنيهلة ونسبهم جميعا يتصل بالإمام عثمان ابن عفان الخليفة الثالث رضي الله عنه. وكانت زاويتهم قائمة بتونس ولا تعتبر امتدادا للقشاشية إلا لأن محمد تاج العارفين البكري المتوفى سنة 1037 هـ تزوج بأم هانئ كريمة الشيخ القشّاش صاحب الزاوية العتيقة الغنية بوفرة أحباسها وأملاكها حيث إن الشيخ القشاش لم يترك ولدا إلاّ أم هانئ فآلت الزاوية القشاشية وتوابعها وأملاكها إلى الزاوية البكرية.

وكان الشيخ محمد تاج العارفين إماما خطيبا بجامع الزيتونة وبقيت الخطابة في بيته بين بنيه مائة وثلاثة وسبعين عاما [وعدها محمد النيال ثلاثا وتسعين] وقد وليها بإشارة من شيخه الرصاع وتوارثها أعقابه حتّى انتقلت منهم إلى الأشراف وأوّلهم حسن بن عبد الكبير الشريف المتوفّى سنة 1234هـ. وكانت للشيخ محمد تاج العارفين مراسلات مع صديقه عبد الكريم الفكون إحداها مؤرخة في سنة 1037 هـ، فإما أن تكون سنة

---

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي.

2 من حديث مع السيد الهاشمي بن عامر من أحفاد الشيخ عامر المزوغي وداره ببلدة سيدي عامر.

وفاته وإما أن اعتمدها المترجمون لتأريخ وفاته وترك من الولد ابنه أبا بكر من زوجته أم هانئ ابنة أبي الغيث القشاش الذي انتقلت إليه ثروة جدّه المادية والروحية.

[وفي مناقب القشّاش قائمة في المساجد والزوايا التي أصلحها أو جدّدها أبو الغيث القشّاش من ريع الموقوفات التي استبدّ بالتصرّف فيها كان من بينها زاوية الشيخ قاسم الزليجي][1]. ويذكر التاريخ أنّ الشيخ القشّاش كان نزيها في هذا التصرّف، وقد وقعت محاسبته من لجنة بالجامع الأعظم فوجدوه أمينا قد نمّى الثروة وصرفها في مصارفها الصحيحة دون زيغ.

طريقة العمل فيها: يقول الأستاذ الحبيب: " وظهر العالم الصوفي إمام جامع الزيتونة ووكيل أوقافه أبوالغيث القشّاش جدّ البكريين المتوفّى سنة1037 ه بمدائحه العذبة وابتهالاته وحلقات ذكره كل يوم سبت "[2].

كان يعقد، إذن، بالزاوية القشاشية مجالس للقراءة والتفسير والذّكر، كما يعقد عملا للمستمعين بالششتري والرباب والقصب من بعد العصر إلى المغرب. وأخذت طرق عديدة عمل الششتري على القشّاشيّة منها العيساوية والسلامية[3]. ويظهر أنّ السّماع بالششتري من الفن الأندلسي المعروف بالمالوف، وأنّ زاوية القشّاش كانت أولى الزوايا بتونس التي عملها المالوف الأندلسي قبل زاوية سيدي علي عزّوز والزاوية العيساوية، مع العلم أنّ زاوية القشّاش كانت مأوى المهاجرين الأندلسيين، وأن الششتري صوفي أندلسي يقول الشعر والتواشيح والمواويل وكان يُنشدها في الأسواق بالرباب في رحلته إلى الشرق. وكان الشيخ محمد الظريف صوفيا أيضا، وله قصيدة ضمنها أسماء طبوع الموسيقى والأغاني التونسية وهوأسبق من القشّاش فقد توفّي سنة 787 هجري، ومعنى هذا أن تونس استعملت الفن الأندلسي بالتأثّر بالمهاجرين اللأندلسيين في أول القرن السابع أي في الهجرة الأولى[4].

---

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص. 275.
2 محمد الحبيب، تطور الإنتاج الموسيقي خلال القرنين الماضيين، مقال في كتاب: (الإنتاج الموسيقي العربي قديما وحديثا) الصادر عن ملتقى خميس الترنان الملتئم ببنزرت في نوفمبر 1978 طبع الدارالتونسية للنشر.
3 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 151 بالهامش.
4 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 291.

الطريقة العوامرية

نسبة إلى سيدي عامر المزوغي

دفين بلدة سيدي عامر المتوفى سنة 1040هـ/1630م[1]

الشيخ المؤسس: هو الشيخ أبو شامة عامر بن الشيخ سالم المزوغي (من "مزوغة" قرية بالمغرب)، وُلد ببلدة "الساحلين" سنة 920 للهجرة أي 1514 م وعاش مائة وعشرين عاما حيث توفّي في 1040 هـ/1630م، ووالدته"ريانة" بنت الشيخ "نصر الشارف" دفين بلدة الساحلين وبالمقام نفسه دفن الشيخ سالم المذكور.

وينحدر الشيخ سالم من سلالة إدريس الأكبر من المملكة المغربية، وبالساحلين تزوّج بابنة الشيخ نصر الشارف، وتوفّي قبل ولادة ابنه"عامر" بشهرين، فتربّى الطفل عند جدّه نصر الشارف فحفظ القرآن الكريم على يديه وكذلك علوم الدين، ثم تحوّل إلى مدينة سوسة ليواصل تعلّمه بها، ومنها رحل إلى تونس حيث أخذ القشاشية، ويقدر ذلك في حوالي سنة 1001 هـ.

وكان الشيخ عامر المزوغي هو وتاج العارفين البكري من أخصّ تلاميذ الشيخ أبي الغيث القشّاش المتوفى سنة 1031 هـ وأخذ عن شيخه يحي الشعراني وعبد الرحمان الجوهري الأدعية، وعن شيخه معروش الطريقة الشاذلية الجزولية.

1 اعتمدنا على التواريخ التي أمدنا بها الشيخ علية المقدم من وثيقة رسمية وأعرضنا عما أورده غيره من جعل سنة الميلاد 929 وسنة الوفاة 1049.

وكان من أخص أصدقاء الشيخ عامر المزوغي: الشيخ عبد الرحمان الجندولي دفين المنستير ومقامه على حافة الطريق السياحية من الناحية الشرقية للمقبرة، والشيخ منصور بيزيد دفين القراعية على حافة غار السعود بمدخل ميناء الكحلية، والمرأة الصالحة عائشة الفتحية التي مقامها بالمقبرة قرب مقام سيدي عمر مخلوف بمقبرة المنستير، وخصوصا الشيخ عمر الشطّي بمساكن وهؤلاء هم المعاصرون للشيخ المربي أبي شامة عامر المزوغي[1]. ولا غرو أن يكون الشيخ عامر وأصحابه ممن شاركوا في الحرب ضدّ الاحتلال الإسباني الّذي شهدته بالخصوص منطقة الساحل والوقائع التي وقعت بالدخيلة والساحلين التي شهدت عدّة تقلّبات ذكرناها في مواضعها، فهم مرابطون والجهاد جزء من نشاطهم.

ومما رواه المرحوم الشيخ المنجي بن عبد القادر المقدم حفيظ الزاوية وهو والد الشيخ عليّة المقدّم حاليا أن الشيخ عامر شارك في الثورة التي قام بها الشيخ عرفة الشابي بجهة القيروان وتعرف بمعركة الدخيلة[2] ضد الاحتلال الإسباني.

ورحل الشيخ عامر من تونس الحاضرة إلى الوطن القبلي بزاوية الجديدي، ثم قام بزيارات عديدة إلى الكاف وتالة وسيدي بوزيد وقفصة والجنوب، ومكث في جربة بزاوية الشيخ إبراهيم الجمني[3] مدة، ثم رجع إلى صفاقس حيث تعرّف على عدد من رجال الدين قدّموا له كلّ خير وصار محلّ تبجيل واحترام، وعاش عند أولاد "العشّ" قرابة الأربعين سنة لم يلق منهم إلاّ كلّ خير. ثم رجع إلى الساحلين حيث استقر به المقام، وأسّس زاويته بهنشير الوحيشي وهي بلدة سيدي عامر حاليا.

ترك الشيخ عامر ابنا هو"نصر" وابنتين هما "حليمة" و"خديجة" تزوجتا بالساحلين، ويظهر أن الذي ورث عنه الطريقة هو ابنه نصر الذي كان له خمسة أبناء والابنة "رقية" المدفونة في بهو زاوية سيدي عامر جدّها.

---

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية (التتمة)، ص 198.

2 يظهر أن هذه المعركة هي التي وقعت في أيام القائد الإسباني (درّيا) قبيل قدوم الأتراك في نهاية الدولة الحفصية وهي في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر هجريا وقد شاركت فيها بلدة الساحلين مشاركة كبيرة. و"الدخيلة" هي خليج بين المنستير والساحلين به واحة نخيل أوّل واحة تعترض الذاهب من تونس إلى بلاد الجريد. وكانت المنستير في تلك العهود تعتبر الضاحية البحرية للقيروان ومحرسها.

3 الشيخ الجمني توفي سنة 1034 هـ/ 1623م وهو من رجال الفقه والتصوّف، ساح في البلاد كثيرا ودخل إلى القاهرة وأخذ عن شيوخها ثم رجع إلى جربة وتوفي بها (محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 324، عدد 1268)

وأقدم أمر عَلِيٍّ لِمُقَدَّمٍ هو الأمر الذي به أخذ الشيخ "أحمد بن نصر بن عامر المزوغي" التقديم على الزاوية وهو مؤرخ بأواخر جمادى الثانية 1114 هـ، من مراد الثالث آخر البايات المراديين في حدود 1700 ميلادية، ثم تجدد الأمر من إبراهيم الشريف باشا باي داي الذي قتل مراد الثالث وتولّى الملك بعده وخلفه حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية.

الطريقة وأخبارها: أسست الزاوية سنة 1553م في العهد الحفصي وأتمّها فيما بعد السيد أحمد بن الطاهر سنة 1215 هـ. وحيث إن الطريقة انطلقت في البداية من صفاقس، أصبحت الزاوية محطّة للقوافل الصفاقسية الذاهبة والراجعة من الحاضرة، فلا بدّ من الراحة بالزاوية والاستجمام بها قبل مواصلة الطريق، ومن ثَمَّ تكوّنت الأحزاب العوامرية بصفاقس.

ويروى أن أهل سوسة كانوا يأتون إلى الزيارة، وعلى رأسهم سيدي "أحمد الميلي" كل ليلة جمعة، ويقولون شيئا من الطريقة الجزولية والأدعية التي أخذها الشيخ عامر المزوغي عن مشايخه، وأسسوا حوشا ومسجدا وغرفة. وسمع أهل القيروان والفراشيش وصفاقس فكانت الزيارات تتوالى وتكوّنت الأحزاب.

ويظهر أنه إثر الثورة على الإسبان وقع إكرام الشيخ "أبوشامة سيدي عامر بن سالم المزوغي" فحبّس عليه الداي عدّة أحباس منها حبس بن مراد (أحد ملوك الدولة المرادية) وكذلك إبراهيم الشريف باشا باي داي وبعض بايات الدولة الحسينية، كما للزاوية أحباس بقفصة والقلعة الجرداء ومنزل كامل وقرقنة وصفاقس وعوسجة وهنشير الصغير قرب الكنايس (وهي قرية من معتمدية مساكن) وقرعة الساحلين وما يفوق العشرين ألف عود زيتون.

وللطريقة عدّة زوايا بالبلاد التونسية فهناك بالحاضرة زاوية بنهج سيدي علي عزّوز وأخرى بنهج الجزيرة، وزوايا بسوسة وواحدة بالقيروان وخمس زوايا بصفاقس. ويقول الكسراوي أن الزوايا النشيطة بصفاقس هي زاوية سيدي عبّاس الجديدي، وهي أقدم معلم للعوامرية بالمدينة، وقد نزل بها الشيخ عامر نفسه في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وزاوية سيدي الخافي، وزاوية سيدي سلامة، وزاوية سيدي السبتي، وزاوية

المرابطة "لَلاَّ مسعودة". كما هنالك زاوية بجربة، وأخرى بتستور، وواحدة بالمكنين، وكذلك بالمنستير وغيرها من مدن الجمهورية.

أصول الطريقة: ربما ترجع هذه الطريقة (العوامرية) إلى عهد مراد الثالث أبي بالة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي أوائل القرن الثاني عشر للهجرة، ويظهر أن الطريقة مأخوذة من القشّاشية الّتي اضمحلّت. ويقال عندنا للطريقة العامرية "العوامرية" ولتابع الطريقة "عوامري" ولعلّها أخذت من جمع عامر "عوامر" فأتى اسم التابع من الجمع "عوامري" فأصبح الجماعة "عوامرية". وهي طريقة الولي الصالح هذا الشيخ سيدي " عامر المزوغي".

يقول الصادق الرزقي في كتابه الأغاني التونسية: "ولا أعرف لهذه الطريقة حزبا خاصّا ولا أذكارا خاصّة، إلا بعض أدعية وتصليات يقرؤها بعضهم قبل الشروع في المديح. أما جماعتها فهي قليلة عندنا بحيث إن انتشارها في ولاية قسنطينة من عمالة الجزائر أكثر بكثير من هذا الإقليم.... وهي في جلّ أعمالها مشابهة لما عليه طريقة سيدي [أبي علي النفطي]".

هذا ويظهر أن الصادق الرزقي اختلطت عليه الأمور فاشتبهت عليه العوامرية بطريقة أخرى، فالشيخ "عامر المزوغي" لم يسافر إلى القطر الجزائري وربما وقع اشتباه بين هذه الطريقة والطريقة العمّارية المنتشرة بقسنطينة وهي قليلة بتونس إلا في جهة الكاف حيث إنها مأخوذة عن سيدي المزوني، إلا أن السيد الهاشمي بن عامر يقول: إن الجماعة العوامرية موجودة بقسنطينة، وكانت تشبه الشاذلية وتطابقها في جماعة العمل، إلا أن العوامرية تزيد آلة القصبة. وقد يبدو هذا معقولا إلا أن الزاوية الأمّ هي زاوية سيدِي عامر بالساحل التونسي. أمّا تشابه عملها بعمل البوعلية فهذا معروف، فهنالك فرقة بوعلية تنظم سنويا زيارة إلى مقام سيدي عامر كما أن البوعلية عندما يأتيهم عوامري يغنّون له (طَرْقًا) خاصّا، ولكن التشابه لا يعقل أن يجرّ إلى هذا الاشتباه.

ويقوم بشؤون العوامرية مقدّم يدير أعمال الزاوية من أناشيد وحضرات ويسمّى بأمر عَلِيٍّ من الباي، وله دار يتوارثها المقدَّمون أبا عن جد. وهناك عدّة مقدّمين صفاقسيين منهم الحاج مُحمّد بَركية وعبدالسلام بركية والمختار الفخفاخ والحاج يوسف الجمني

والشيخ السلامي ومحمود سيّالة والشيخ داود. ومن رياس البندير: محمود بن طار وأحمد بن حسنة والحبيب المدلل وحسن شرف الدين. ومن الزكّارة: محمد بوديّة والمختار النيفر وحسن بوطار ومحمد الشريف وطاجينة وهو أقدمهم. أما بسيدي عامر، فأشهر الزكّارة السيد عمر ثوير، وكذلك عبد السلام مخلوف من المنستير، والمختار سلامة من قصيبة المديوني وهو مدرّس الزّكرة بمعهد الموسيقى بسوسة وعازف بالفرقة القومية للفنون الشعبية. أما في رياسة البندير فنجد المرحوم محمد الزرلّي من سوسة وعمر البرڨاوي من المنستير والمنجي المقدم وابنه عليّة بسيدي عامر.

هذا وقد قام الشيخ "الشحمي الصفاقسي" بجمع السفينة الخاصّة بالعوامرية فجمع فيها كل النوبات التقليدية.

طريقة العمل فيها: أكبر أيام الطريقة العوامرية هي يوم عرفة وليلة عيد الأضحى، إذ تقع زيارات كبيرة من كافّة أنحاء الجمهورية ومن عدد كبير من الأحزاب ويقوم احتفال كبير جدّا، وهذا العمل متواصل إلى الآن. أما ليلة الميعاد فهي ليلة الجمعة.

يقول المرحوم المنجي المقدم شيخ الطريقة العوامرية بسيدي عامر: "كان لدينا طبع اسمه: "طبع عبد المومن" ولكن لطول المدّة لم أعد أستحضره، ولدينا أيضا نوبة: "العشيران"، ولمّا سألتُ عنها المرحوم محمد بوديّة قال إنها تُشبه: "الحسين" على درجة (la) في طبقة منخفضة. ولمّا سألت عنها بعض الموسيقيين من تونس أجابوني - بعد أن استخبرت لهم من الأوّل - إن هذا الطبع هو: "طبع العراق.". ويقول سليم داود مقدم فرقة العوامرية بصفاقس: "الغربي بصفاقس يدخل (بكّوشا) أي أنّ نوبات الغربي تكون بآلات دون كلمات، فالإيقاع يسبق خلافا لما في الساحل حيث يكون البدء بالكلام. فبصفاقس يبقون حوالي خمس دقائق يعزفون فقط على وزن المربع التونسي 4 من4، وإذا شرعنا في الكلام يصير الميزان على إيقاع الوحدة، وينتهي الغربي بميزان الجربي."

وتبتدئ النوبة العوامرية بإيقاع المصدّر وهو ما يقابله المصمودي، ثم تحويلة ثم تثليثة إيقاعية ثم الدخول في البراول فتتدرّج من البطء إلى السرعة المفرطة، وتمتاز طريقة العوامرية بنوبتين أساسيتين:

1 - نوبة المغراوي: ويقابلها من المقامات التقليدية التونسية مقام الحسين نيرز، وخاصيته كثرة الاعتماد على درجة الراست (دو) مثل:

اللهُ اللهُ لاَ إِلَـــــهَ إِلاَّ اللهْ   وآشْ خْـلاَفِ اللهْ يُذْكَـــارْ

اللهُ اللهُ والصَّـــلاَةْ عْلَى محـمَّد   وْبَعْدِ صْلاَتِي عْلَى النَّبِي الْمُخْتَارْ

اَلْمُصْطَفَى شَــارِقْ الأَنْــوَارْ   اَرْضُوا عْلَى الصُّحَابَةِ الأَخْـيَارْ

مَا مَقْصْـدِي إِلاَّ نْزُورِ الْقـبَّة   بَابَا عَامِرْ يَا مْلِيـحِ النِّسْـــبَة

دَاوِينِي بِــدْوَاكْ وَكُنْ لِي سَنْـدَة   دَاوِيـنِي بِـدْوَاكْ يَـا سُلْطَـــانِي

يَا محَمَّدْ الشَّــوْقْ لِيـكِ دْعَـانِي   بُو شَــامَة اللِّي سِــرّه رَبَّـــانِي

مَا مَقْــصْدِي إِلاَّ نْـزُورِ الْغَايَة   بَابَا عَامِرْ يَا مْلِيحْ الـصَّــايَــا

دَاوِينِي بِـدْوَاكْ يْزُولْ عَنِّي دَايَـا   دَاوِينِي بِدْوَاكْ يَـا سُلْطَـــانِي

يَا مُحَمّدْ الشُّـــوقْ لِيـك دْعَـانِي   بُوشَـــــامَة اللِّي ســرّه رَبَّـانِي

بَابَا عَــامِرْ يَــا وْلِي يَـا صَـالَحْ   مَا بِينْ جَمْعِ النَّـاسْ سِرِّكْ وَاضَحْ

بِيكْ يَا سُـلْـطَانِي قَلْبِي فَـارَحْ   يَا نَدْهَةِ الْمُـصَـابْ بِينِ اخْوَانِي

يَا مُحَمّدْ الشُّـــوقْ لِيك دْعَـــانِي   بُـوشَـــــامَة اللِّي سرّه رَبَّـــانِي

بَابَا عَامِرْ فِي حْيَـــاتُه تْكَـــلَّمْ   قَالَ : لِلْفُـــقْرَا لَيْسَ يْسَـلِّـــمْ

يَارَبْ جِيرْهُمْ مِنَ عْذَابِ جْهَنَّمْ   وَاغْفِر لْهُمْ يَا وَاسِعَ الْغُفْــرَانِ

يَا مُحَمّدْ الشُّــوقْ لِيـكِ دْعَانِي   بُــوشَــامَة اللِّي سرّه رَبَّـــانِي

ثم تختم نوبة المغراوي بدرّازي:

لاَ إِلَــــهَ إِلاَّ اللهْ   وَالْعَــــمَالَــة عَلَى اللهْ

يَا أَهْلِ السِّرِّ الرَّبَّـانِي   بِاللهِ غِيـثُوا مَنْ نَادَاكُمْ

حُبُّكُمْ هَيَّظْ نِيرَانِي قَلْبِي مِتْولَّعْ بِهْوَاكُمْ

يَا سْيَادِي سِيدِ الأُمَّة النَّبِي صَلِّيوْا عْلِيهْ

الْقَمَرْ زِرْقِتْ مِنْ كُمَّه وَالنُّجُومِ تْسَبَّحْ لِيهْ

يَا سْيَادِي دَلَّلْتُونِي وَالدّلاَلْ عْلَيَّ صْعِيبْ

وَمِنْ يُومْ فَارَقْتُونِي لاَوْجِدتْ لْدَايَا طْبِيبْ

بَابَا عَامِرْ فِي الْحْمَادَة هُوَ وَ أَوْلاَدَه

شِيلَة يَا بَابَا حْنِينِي يَا قُطْبَ الصَّلاَّحْ

وَاللِّي يْزُورِكْ يَا مْزُوغِي يِبْرِي مْنِ الاَجْرَاحْ

2 - نوبة العروسي: ويقابلها مقام السيكاه التونسية التقليدية مع استعمال لهجة المحير سيكاه في عقدها الثاني صعودا ونزولا. وقد يسبقها قصيد مرتجل في طبع السيكاه بلهجة خاصّة:

(نَادِيتْ وَالقَلْبْ وَاعِي وِدْمُوعْ عِينِي سْخِيفَة

ونْبَاتْ عِينِي تْرَاجِي فِي الشِّيخْ مُولَى الْوِظِيفَة

يَا لِنْدَرى تِنْفَعْشِي سَاعِيكْ عَابِرْ عْلَى حَمْرَا خْفِيفَة)

فعلى إيقاع الوحدة في مقام السيكاه التونسية:

(مِنِ الْبُعْدِ تْبَانْ * يَا قُبّة سِيدِي * الشَّوقِ دْعَانِي

حَافِي عِرْيَانْ يَا قُبّة سِيدِي

سِرِّكْ جَبَّادْ * حَضْرَة مَنْصُوبَة * فِي كُلِّ بْلاَدْ * يَا بَابَا عَامِرْ

سِرِّكْ نِبْغِيهْ * وِقْلِيلِ الْوَالِي * عْلاَشْ تْخَلِّيهْ * يَا بَابَا عَامِرْ

الشبوك: من عمل العوامرية ما يسمّونه "الشبوك" أو "المشكّل" وهو أن يرتجل الزكّار مخاطبا بذلك عازف البندير والدربوكة كأنّه يوقّع بينهما ليتشابكا (لذلك سمّي:

"الشبوك ") فتارة يلتفت إلى هذا كأنّه يكلّمه فينفعل ذلك العازف ويوقع على بنديره أو دربوكته ارتجالات يبرز فيها براعته وتحكمه في آلته، ثم يلتفت الزكّار إلى العازف الآخر فيخاطبه كأنه يوغر صدره فينفعل وينطلق في الارتجال كما فعل خصمه، وهكذا يظهر كلّ واحد منهما مدى تحكّمه في الارتجالات دون إضاعة الميزان الأصلي. وفي حين يقوم هؤلاء بهذا "الشبوك" تجد بقية ضباط الميزان محافظين على الأرضية الإيقاعية الأصلية التي هي في وزن الدرّازي. والملاحظ أنه عند انتهاء عمل "الشبوك" لا يقع الرجوع إلى الإنشاد، وهكذا تنتهي النوبة. وعلى غرار ذلك يقع العمل في فرق العيساوية بالساحل ولدى طائفة البوعلية بأقلّ حدّة.

نموذج من سهرة
في ليلة الجمعة بالزاوية[1]

بعد الجلوس في شكل دائرة ينطلق الجماعة بتلاوة فاتحة الكتاب ثم يأتون بجانب طفيف من الشاذلية: (بِسْمِ الله * وَبِالله * وِبِجَاهِ رَسُولِ الله * بِسْمِ الله سَمِّينَا)

ثم يدخلون مباشرة في الشاذلية: (زُخْرِفَتْ جَنَّةُ عَدْنٍ بُعِثَتْ لِلْمُتَّــــقِينَ

قَالَ رَبِّي فَادْخُـلُوهَا بِسَـلاَمٍ آمِنِــــينَ)

ثمّ يدخلون مباشرة في مدح الرسول مدحة مجرّدة من الآلات على غرار الشاذلية والمدنية تؤدّى بالصوت على إيقاع 6من8 بطيء في طبع المزموم بعنوان :

(يَارَبِّي بْفَضْلِكْ بَــــلَّغْ لِي مُرَادِي

زَوْرَة لْنَبِيِّـــكْ وَالْعَشْرَة اسْيَادي

شَوْقِي لْرَسُـولِكْ سَـاكِنْ فُؤَادِي)

ثمّ ينطلق الحزب بالنوبات فيأتون بها على غرار ما هو موجود في المالوف التونسي.

---

1 مباشر من فم أصحاب الطريقة وعلى رأسهم المقدم علية وأخوه عمر في زيارة للزاوية يوم الجمعة 13 سبتمبر 2002م)

النوبة الأولى: نوبة الحسين، فتكون البداية بمصدّر:

(يَا زِيَارِ الْكَعْبَة مَهْلا يَا سَادَاتي

فَانِي بِالْمَـــحَبَّة فِي لَيْلَةْ مُرَادِي

ثمّ إيقاع بطايحي بطيء: أَدْعُـوكَ رَبِّـي تِقْبِلْ عَلِينَا

بِزْيَارَةِ السّادَةِ الصَّـالِحِينَا

ثم بطايحي أسرع من الّذي قبله [من منهوك الرمل]:

(يَـا بُوشَامَة جُدْ لِي بِالْعَطَا وَالْفَـضْلِ

عَـامِرْ يَا سُلْطَـانِي اِهْـوَانِي وَارْعَـاني

مَـدْحُـك الْحَقَّانِي أَمّنْ لِي عَـــمْلِي)

ثم تحويلة (برول) [من مجزوء الرمل] في وزن 2 من 4:

(شَوَّش الْعَـلاّمُ عَقْلِي حِينَ نَـادَى لِلزِّيَـارَة

قُلْــتُ يَا عَلاَّمُ مَهْلاً وَعسَى نُعْطِي الْبِشَارَة)

ثم يأتي بعده دخول براول 4 من 4:

(بِسْمِ الْكَرِيمْ نِبْدَا النِّظَامْ سُبْـحَانَهُ نِعْمَ الْمُجِيبْ

صَلـُّوا عَلَى خَيْرِ الأَنَــامْ الْمُصْطَفَى طَـهَ الْحَبِيبْ

الله يُرْزُقْــــنِي الصَّــبْرْ عَنْ شَيْخِي عَامِرِ الْوَلِي)

ثم يأتي برول: (يَاحَلِيمْ انْهَضْ وَقُمْ لِلصَّبَاحْ)

ثم برول: (لاَ صِبْتُ لِلْوَصْلِ حِيلَة شِيلُونِي يا اهْلِ الْفَضِيلَة

قَصْدِي لُوَيْــلَة بِلَيْلى[1] فَـــازِتْ عَلَى كُلِّ لَيْــلَة)

ثم برول: (ما احْلَى الصَّلاَةْ عْلَى الْحَبِيبْ اَلْهَاشِمِي خَــيْرِ الْوَرَى

1 ليلى هذه ليست فتاة بل يقصدون بها الكعبة المشرّفة.

وَنِتْقَــرَّبْ لِلْمُجِـيــبْ وِنْعَــايْنُه لَمَّا سَرَى

ثم برول سريع: (يَا وِلْدْ أُمِّ الْـخِيرْ تَاخُـذْ بِـيدَيَّا

سَهِّـلْ لِي الاَوْعَارْ فِي كُلِّ ثْنِـيَّة)

أصله لحن الدرج من نوبة الحسين في المالوف الذي هو:

(قُلْـتُ يَاحِبِّي تَلَطَّفْ وَتَعَطَّـفْ بِالْمَزَارْ

أَنْتَ شِبْهُ الظَّبِي الأَهْيَفْ وَأَنْتَ تَسْحَرْبِالأَنْظَارْ)

وتكون النهاية على إيقاع الختم : (بِسمِ الله نِبْدَا ....)

وصلة في الغربي: في البداية يقوم الزكار باستخبار في لهجة الغربي الذي هو مزيج بين مقامي المزموم والنوى بشكل مؤثّر جدّا، ثم تدخل الآلات في النوبة بالعادة في مقام طبع الحسين وتنتهي بإيقاع درّازي بمدحة:

(بُو شَامَة نُوبْ عْلَيَّا وَاحْضَـرْ يَا لَلاَّ رْقَيَّة)

وأحيانا مدحة مثل: (اَلْقَلْـبْ شَاهِي لْقَاكْ قَصْدِي نْزُورِكْ وَنْرَاكْ

رَبِّ الْخْلاَيْقْ اعْطَاكْ نُـورْ مِنَ الله شَرِيـقْ)

ثم يأتي ميزان خفيف وتختم الوصلة بإيقاعات سريعة على وزن البرول. أحيانا تُؤدّى:

وصلة ثانية في الغربي (مثل الشغل في صفاقس) أو غربي آخر بالعادة من طبع السيكاه:

(عَقْلِي شَاشْ لِرْجَالِ الْحَمَادَة وَاللِّي يْـزُورْهُمْ يِبْلَـغْ مُرَادَه

يَا عُشَّاقِ الْحِزْبْ قَلْبِي شَوَّقْ دَمْعِ الْعِينْ عَ الْخُدِّينْ يَحْرَقْ)

ثم درّازي في السيكاه:

(يَا لَلَّـتِي يَا غَرْبِـيَّة احْضَرْ لِي وَاعْطِفْ عَلَيَّا

يَا لَلَّتِي يَا شُـوشَـانَة اَحْضَرْ لِي وَكُونِي مْعَـانَـا

يَا عَامِـرْ يَا سُلْـطَانِي اَحْضَرْ لِي دِيمَا وَ ارْعَانِي

يَابْنَيَّــــةْ الأَجْـوَادْ اَحْضَرْلِي فِي كُلْ مْيعَــادْ)

وصلة ثالثة على إيقاع المدوّر حوزي في طبع الحسين:

(مْزُوغِي يَا سُلْطَــانْ اِمْلاَ لِي كِيــسَانِي

بْجَاهِ الْهَادِي الْعَدْنَانْ شَيْـخِي مَا تِنْسَانِي)

ثم تقع تحويلة في إيقاع الدرّازي سريع في طبع المحيّر عراق:

(يَا عَامِرْ يَا شَيْخْ يَا سُلْطَانِي بُو شَــامَة وَاعْطِفْ عْلَيَّا)

أو مدحة (عَدَّالَة يَا عَدَّالَة) في طبع النوى وإيقاع 6 من8 بطيء يشبه إيقاع العلاجي في الموسيقى الشعبية التونسية : (عَدَّالَة يَا عَـدّالَة يَا عَدَّالِينْ الْمِـيلْ

مَا تِعْدِلُوا لِي مِيلِي حِمْلِي عَلَيَّ ثْقِيلْ[1]

آه آه يَا بَابَا! * آه آه يَا سِيدِي! * آه آه بُو شَامَة

هَـمَّالَة يَا هَــمَّالَة صُبِّ الدُّمُوعْ ذَبَّالَة

عْلَى فَارِسِ الْخَيَّالَة اللِّي ظَهَرْ فِي اللِّيــلْ

آه آه يَا بَابَا! * آه آه يَا سِيدِي! * آه آه بُو شَامَة

وتختم بدرّازي من نفس الطبع:

يَا عَامِرْ يَا قُــــرْشِي سَهِّلْ لِي لِيــكْ الْخُـطَى نِمْشِي

بِاسْمِ الإِلَه بْــــدِيتْ وَعْلَى الْهَادِي الْمُصْطَفَى صَلِّيتْ

مُــولَى الْحَرَمْ وِالْبِيتْ يِشْفَعْ فِي يَوْمِ اللِّقَــاء وَحْـــدَه

يَا عَامِرْ يَا قُــرْشِي..)

1 هو قسيم مربع منسوب للشيخ عبد السلام الأسمر مؤسس الطريقة السلامية، ومذكور في السفينة القادرية، ص 339.

وتوجد عديد النوبات في كل الطبوع التونسية الأصيلة على غرار هذا الترتيب المذكور في نوبة الحسين مثل:

(يَا وَلِي بُوشَامَة * وَاللِّي يْزُورَكْ * يِبْرَى سْقَامَه) في طبع المحيّر عراق .

أو: (بَابَا الْمْزُوغِي أَنْتَ ضَيْ عْيَانِي) في لهجة العرضاوي .

وعادة ما يقوم الزكّار، أثناء المحاسبة (اللازمة الموسيقية التي تأتي بين الأبيات) بارتجالات في نفس المقام المتغنى به أوالمقامات المجاورة فيبرز فيها مقدرته ومعرفته بالطبوع، ويسمّى هذا الارتجال "السروح" ثمّ يرجع إلى نفس اللحن الأصلي الذي هو بصدد عزفه. ويكون مثل هذا في العوامرية وكذلك في البوعلية والعيساوية وحتّى العمارية، من هنا نستخلص أن الطريقة العوامرية من أرقى الطرق موسيقى ومن أعمقها جذورا في التراث التونسي ومن أبدعها فنّا، وقد لا يضاهيها في ذلك إلا العيساوية التي تأخذ منها وتعطيها في كثير من المدحات.

أَمّا الرقص في العوامرية فهو منفرد إذ ليس لهم صف مثلما رأينا عند العيساوية، إلاّ في شطحة فريدة في "الشاذلية" حين يرقص الجميع معا.

وكان الراقصون يربّون شوشة أي خصلة من الشعر في وسط الرأس يُرسلونها عند الرقص، فتضيف للمشهد نوعا من الزينة، ويقوم هذا الراقص المنفرد بصرخ الكنبر أواجتلاب الجاوي أو إخراج الثقيل (الرصاص) من جوفه. فيقصِّد أحد المنشدين في نوبة العروسي، ويقوم الراقص باستفراغ حبات الرصاص من فمه فترنّ في البندير الذي بيده ويديرها فيه، وعندما تنتهي نوبته يقوم بشربها كما يشرب حبّات دواء. أو يقوم أحذ المنشدين بمدحات في الغربي فيجلب راقص آخر الجاوي من سارية أمامه أو جدار أو من الهواء ويرمي به في الكانون المشتعلة جمراته فيتصاعد البخور ويشمّه الحاضرون، أويصرخ آخر بالكنبر (وهو إطلاق البارود)، وقد روي لنا في ذلك أعاجيب يصعب تصديقها لو لم تشاهد عيانا.

الزيارات: أصبحت زاوية سيدي عامر كما أسلفنا مزارا لأحزاب العوامرية، فمن صفاقس خمسة أحزاب عوامرية، وحزب الطريقة البوعلية التابعة لسيدي بوعلي

السنّي دفين نفطة وقد اتّفقوا في وثيقة عدلية عن تعيين كل حزب لأسبوعه بعد انتهاء أيام الحسوم[1].

وأصبحت لهذه الأحزاب ترتيبات خاصّة بهذه الزيارات فهي تقام في دخول الربيع بصفة دورية حيث إنهم يكونون قد جمعوا محاصيل الزيتون وتيسّرت أحوالهم فكأنهم، مع الفارق، يؤدّون زكاتهم بزيارة

شيخهم. ويقوم كل حزب، قبل الخروج من"صفاقس" باستعراض وإعلان لأولاد الزاوية بالرحيل فيأتون بوعائدهم إلى مقرّهم من قمح وشعير وزيت وفاكهة وشريحة التين والأفاويه والقرنيط المجفّف والبخور والنقود والغنم وغير ذلك، فتلتئم قافلة مهمّة مؤلفة من عرباتهم وكرارطهم أمام الزاوية فيحملون تلك البضاعة، وفي يوم الخميس يخرجون بين راكب وماش، ويسير الركب في طريق مخصوص هو طريق الشاطئ إلى مدينة "جبنيانة" فينزلون بها ويبيتون بزاوية سيدي " أبي إسحاق"[2] الأب الروحي لجبنيانة ويقيمون بها حضرة. وفي الصباح الباكر يواصلون طريقهم إلى "قصور الساف" فينزلون على زاوية سيدي "علي محجوب"[3] ويعترضهم أبناء الزاوية فيقرؤون فاتحة الكتاب على

---

1 أمدّنا السيد علية المقدم بوثيقة عدلية مؤرخة في 01 محرم الحرام سنة 1280 هـ أي سنة 1872 م تقريبا تنازل فيها الشيخ الحاج علي المهيري عن أسبوع حزبه الأول وأخذ عوضا عنه الأسبوع الخامس فأصبحت الجمعة الثانية بعد الحسوم لحزب الشيخ الحاج محمود سيالة والجمعة الثالثة لحزب الشيخ أحمد بن علي الرقيق والجمعة الرابعة لحزب الشيخ عامر بن عبد اللطيف السلامي والجمعة الخامسة عوضا عن الأولى لحزب الشيخ على المهيري.

2) أبو إسحاق الجبنياني هو ثاني اثنين في الشهرة بالعلم في الربوع التونسية مع الإمام سحنون. هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي بن سالم البكري ولد سنة 280 هـ/893م وكان أبوه أحمد واليا لبني الأغلب على الخراج وكان جدّه قاضيا على مدينة صفاقس وأسس رباط المحرس، وكان ثريّا يملك قرية جبنيانة بما فيها، وله رباعات كثيرة بمدينة صفاقس، وكان هذا الجد من أصحاب سحنون ويتآخى مع ابنه محمد فقد أرضعته أمّ محمد. شبّ أبو إسحاق في انهيار الدولة الأغلبية وتحكّم بني عبيد الّذين صادروا والده وانتزعوا أملاكه. درس أبو إسحاق بجبنيانة على العابد بن عاصم، ولم يلبث أن دخل قلبَه وعظُ أستاذه وانخلع من الدنيا ولبس عباءة الصوف وهرب عن والده. فبحثوا عنه فوجدوه بعد مدّة بسوسة يعجن الطين بالأجرة. فلمّا خاطبوه قال: قولوا لوالدي: أكنت تظنّ أنّه يخرج من ظهرك من يطلب الحلال؟ ... وبقي أبوإسحاق بتونس ينتقل من بلد إلى بلد ويعمل لكسب قوته من عمل يده. ثمّ أدّى فريضة الحجّ في سنة 314 هـ واجتمع هناك بوالده. ثمّ رجع إلى تونس ودخل القيروان وأخذ العلم عن أبي بكر اللباد فكان يأتيه من حين إلى حين ومعه جرادق من دقيق الشعير يفطر على واحدة كلّ ليلة ويأتي إلى بئر روطة فيشرب من مائها، ثمّ يأخذ عن أبي عبد الرحمان حمود بن سهلول الفقيه الزاهد [وهو سيدي سهلول قرب حمام سوسة وله زاوية وقبّة مشهورة] ولأبي إسحاق إجازة من عيسى بن مسكين. وله نوادر كثيرة تدلّ على علم وذكاء وورع. وتوفّي أبو إسحاق سنة 369هـ وهو في التسعين من عمره وترك سبعة أبناء ودُفن قريبا من قرية جبنيانة بجهة الشرق وعلى قبره قبة ومقامه بها مشهور. (النيال، ص 176 - 181).

3 انظرترجمته عند ذكرالشابية في كتابنا هذا.

ضريح السيد علي محجوب ويريحون قليلا دون المبيت ويواصلون طريقهم إلى "طبلبة" فيبيتون بها ويقيمون حضرة في مقام سيدي "علي شبيل".[1]

وفي الصباح الباكر يواصلون طريقهم إلى "الساحلين" فيذهبون مباشرة إلى سيدي "نصرالشارف" فيريحون بالمقام وعند العصر يخرجون قاصدين سيدي "عامربوشامة" فيخرج لهم حزب سيدي عامر ويلتقي الجمعان بـ"وادي الغدير" في وسط الطريق وسناجقهم مذرية وغناؤهم يتعالى فينشد حزب صفاقس:

جِينَاكُمْ جِينَاكُمْ   وِ قْصَدْنَا حِمَاكُمْ

وْلَـوْ لاَ فَضْـلُ الله   لاَجِيـنَاَ زُرْنـاَكُمْ

فيردد حزب سيدي عامر: أَهْلاً وَسَهْـلاً   بِالزَّائِـرِينَـا

وَاحْناَ بِقْلُوبْنَا   جَاوْنَا لِيدِينَا

فإذا التقى الفريقان، سلّموا على بعضهم البعض سلاما حارّا، ثم يتّحد الحزبان في نوبة واحدة:

أَدْعُـوكَ رَبِّي   تِقْبِلْ عَلِينَا

بِزْيَارَةِ السَّادَةِ   الصَّالِـحِينَا

ويكون هكذا يوم الرجوع بهذه النوبة أيضا، ويكون مجيئهم يوم السّبت فيبيتون ليلتها ويوم الأحد صباحا يقومون بزيارة مقام الشيخ سيدي عامر، ومن هنالك يبدأ المهرجان، فيمكثون أسبوعا أو ستّة أيام بالتدقيق.

الليلة الأولى: وهي يوم الأحد ليلة الاثنين، يقوم حزب صفاقس بجولة في البلدة للتعريف بأنفسهم، فيبدؤون بنوبة أمام دار المقدم، ثم يجولون في البلدة، وتقع الزيارة (ويودعون أيضا بالجولة) وكل عرش من أحفاد الشيخ الخمسة أولاد نصر يخصص شخصين أحدهما يهتم بالغداء وهو كسكسي ولحم، والآخر بالعشاء ويكون ملوخية

1 الشيخ علي شبيل هو دفين طبلبة وصاحب زاويتها المشهورة، يظهر أنّ أصله مغربي نزح أسلافه من إسبيدلية، ومن المغرب انتقل إلى تونس واستوطن طبلبة في آخر القرن العاشر حوالي 972 هـ أوبداية القرن الحادي عشر (النيال، ص318).

تيمّنًا بالخصب ومرقة، وفي الصباح تقدم قصاع العصيدة والفطائر، أما المقدّم وجماعته فيأتيهم سهمهم في مثرد خاص إلى حجرة المقدم. وهكذا يوميا حتى يوم الإربعاء يخدم أولاد الزاوية أضيافهم.

يوم الخميس: يستدعي مقدم حزب صفاقس أولاد سيدي عامر الّذين يتولّون تقديم السهرة والحضرة، فينطلقون منذ الصباح بالشاذلية وبقية الأحزاب في مقام للاّ رقيّة، وفي المساء يقومون بعدّة ألعاب وتسليات بحزب أو فرقة وترية أو على آلة الكرنيطة في مصاحبة الأغاني العتيقة وهنا كل عازف أو قوّال يظهر مقدرته في انشراح وانبساط، وفي الليل ينصبون الحزب فيقوم بنوبات ومدحات وغربي ورقص وجاوي وكنبر وغير ذلك.

يوم الجمعة: يقوم أهل سيدي عامر بإفطار الضيوف وإهدائهم عشر قصاع من الكسكسي واللحم، ويرجع وفد صفاقس بجولة في البلدة كما أسلفنا ونوبة:

أَدْعُوكَ رَبِّـي تِقْبِلْ عَلِينَا   بِزْيَارَةِ السّـَادَةِ الصَّالِحِينَا

ويخصص يوم السبت للتنظيف استعدادا لاستقبال الحزب الموالي يوم الأحد بنفس الطريقة وهكذا تمر خمسة الأحزاب العوامرية وحزب العلوية (البوعلية).

وذكر علي الحشيشة في كتابه (السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس) مسلكا معاكسا لما ذكرناه فجعل مسلك الذهاب مسلك الإياب مع تغييرات طفيفة[1]. وبعد التحقق من أصحاب الشأن تأكّد لدينا ماذهبنا نحن إليه. على كل نواصل مسلكنا، ففي طريق الرجوع لا يتقابل الحزبان القادم والراجع، إذ أن الراجعين يمرّون على بلدة "المصدور" لزيارة سيدي " المايل" فيغتسلون بماء البئر التي في الزاوية، ويتداوون من الصفراء، ويمرون بمدينة "جمّال" لزيارة السيدة "أمّ الزين" الجمّالية[2]: وفيها نوبة نذكر منها:

اللِّي لَيَّـــعُه الْغَرَامْ   مِثْلِي أَنـَا مَقْـهُورْ

فِي حُبِّ السُّلْـطَانْ   شَيْخِي بُـوشَـامَة

قَصْدِي يَا الإِخْوَانْ   نِعْـنَى لِـيهِ نْزُورْ

1 علي الحشيشة ؛ السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس ؛ مطبعة سوجيك صفاقس 2000.
2 هي أم الزين البوهلية بنت ميلاد سعيدّ الجمالي (راجع آخركتابنا هذا)

وِنْبَاتْ حَــاظِي بِالْــهَنَا وَالسَّــلاَمَة

يَا مَاشِي لِلشَّــيْخ اِخْتَمْ عَلَى الْمَصْدُور

تُظْهُرْ لِيكِ الْقُبَّة فِي مْثِيلْ حْمَــامَــة

وَاللِّي زَارْهَا عْلَى الله يِبْرِي سْقَامَه

أما نوبة أم الزين كما تنشدها فرقة علية المقدم بسيدي عامر فهي على النحو التالي: تبدأ النوبة باستخبار في مقام العرضاوي تؤدّيه آلة الزكرة، ثم يقوم أحد المريدين من ذوي الأصوات الحسنة فيؤدّي عروبي (ياسيدة حرمك منور) ثم يعيد الزكّار ما قاله المنشد، ثمّ يدخل المنشدون والآلات في إنشاد الردة (يا لَلاّ مريض عليل ننادي عْلَى امِّ الزين) ثمّ تُغنّى الأبيات في مقام العرضاوي مطرّزة بخرجات في مقام الحسين، وتتوالى الأبيات والخرجات. أمّا الإيقاع فهو في البونوّارة، ويتواصل مع شيء من السرعة في خطوته، وتختم النوبة بمدحة : (أوّل ما نبدَا باسم الله ورسول الله نمدحْ في مقامك يا للاّ) في وزن الدرّازي وطبع الحسين.

(عْرُوبِي عرضاوي) يَا سَيِّدة حرْمِكْ مْنَوَّرْ بِالذِّكْرِ وْحُسْنِ الِمْعَانِي

يَا سَيِّدَة قَلْبِي مْغَيَّــرْ نِبْغِيـــكْ تُنْظُرِ لْحَالِي

(بيت في العرضاوي) يَا لَلاَّ مْرَيِّضْ عْلِيكِ اللّومْ وَاحْـضَرْ يَا امُّ الزِّينْ

يَا لَلاَّ نِبْـــدَا بِاسْـمِ الله نُنْـــظُمْ فِي الْحِـلَّة

يَا لَلاَّ بْجَــاهْ رْسُــولِ الله وَاحْـضَرْ يَا امِّ الزِّيـنْ

(بيت آخر في العرضاوي) يا لَلاَّ يَا ابْنَـــيِّـــةْ جْمَّالْ يَا أُمّ سَبْعَة مْحَالْ

يَا لَلاَّ مْرَيِّضْ فِي الْحَالْ وَاحْضَرْ يَا امِّ الزِّيـــنْ

(خرجة في الحسين) يَا لَلاَّ جِيـنَــاكِ اللِيــلَة فِي لَيْلِةْ جُمْعَة وِفْضِيلَة

يَا امِّ الزِّينَ عْلِيكْ الْعَمِيلَة وَاحْضَرْ يَا ابْنَيَّةْ جْمَّالْ

(خرجة أخرى في الحسين) نُدْخُلْ مِنْ بَـابِ الْقُرْجَانِي وِنْشُوفِ الْقُبَّة بِعْـــيَانِي

مُولاَةِ السِّـرِّ الـرَّبَّـــانِي   بِالسِّــرْ وِالْـبُـــرْهَانِ

(ثم يرجع عرضاوي) بَالِــكْ تِنْسَانِي   يَــا لَــلاَّ امِّ الزِّيــنْ

بَالِـكْ تِـنْسَانِي   وَانَا مَا نِـنْـسَاكْ

عَلْى طُولِ زْمَانِي   وَاحْضَرْ يَا امُّ الزِّينْ

لَـلاَّ الْمَحْبُـوبَة   حَضْــرَة وِبْنَــادِرْ

قُبّة مَنْــصُوبة   عْلَى راسِ امِّ الزِّيــنْ

عَجِّلْ بِالتَّــوْبَة * وَانَا مَا نِـنْسَاكْ * عَلْى طُولِ زْمَانِي

(ثمّ في مقام السيكاه) لَلاَّ وْعَجِّــلْ بِـالجَيَّة   تَــايْهَة يَـا بُـوهَلِـيَّة

مَجْدُوبَـــــــة   بِينْ حْضَـــارِي

مَنْصُــــــوبَـة   لاَيْـزُورِكْ شَبْشُــوب

دَاء قْــلَيبِي * وَمَا بِــيَّا * يَا لَلاَّ وْ عَجِّـلْ

بِنْتِ بْلاَدِي * يَا مُولاَةِ * الْمَدْفَعْ صَادِي

يَا لَلاَّ سْأَلْتِكْ بِالْهَادِي   وَعْـلِيلِكْ سَالِمْ بِالخِيرْ

وتختم النوبة بهذه المدحة (في طبع الحسين ووزن الدرّازي)

أَوّل مَا نِبْـــدَا بِسْمِ الله * وِرْسُـــــولِ الله * نِمْدَحْ فِي مْقَامِـكْ يَا لَلاَّ

يَا أُمِّ الزِّينْ مَعْـرُوفِكْ لله * يَـــا سْعَـيْدِيَّـــــة * عَجِّلْ بِالْوَصْلْ يَا جَمّـالِيَّة

قُدَّامْ دَارِكْ نَصْبُوا الْمَحَلَّة * آه يَـــا لَـــــلاَّ * طَبَّالْ يَضْرَبْ زُكْرَة وْرَنَّة

يَاأُمِّ الزِّينْ مَعْــرُوفِكْ لله * يَـــا سْعَـيْدِيَّـــــة * عَجِّلْ بِالْوَصْلْ يَا جَمَّـالِيَّة

آه يَا لَـلاَّ خَبْرِكْ شَـــاذْ * مِنْ تُونِسْ حَتَّى لْبَغْدَادْ * يَا لَلاَّ عْطَـــاكِ الجُـوَّادِ

سِرّ وكَــــــــوْنِيّة * سَـــافِرْ مْعَــانَـا * وْخُـــوذْ الشّـنِـــيَّة

زيارات أحزاب العوامرية غير الصفاقسية

أحزاب المكنين: تقع زيارة أحزاب" المكنين " في آخر الصيف وأول الخريف فيتم استدعاء وتشويق، ويأتي المريدون بالبطيخ والفخار والهدايا الأخرى من قمح وشعير وغير ذلك، فيصلون إلى سيدي " نصر الشارف"، ثم يبلغون الهدايا إلى أولاد الزاوية، وكان آخر هذه الأحزاب حزب " بوڤيلة" وحزب " الحاج عبد الله بن خليدية"، ويكون الحزب ليلة الجمعة فيبيتون هناك ويرجعون من غد إلى بلدهم.

حزب الغرابة: يأتي هذا الحزب من "القلعة الجرداء (الخصبة") وهداياهم هي (البرشني) أي الجدي، وتستعمل فرقتهم القصبة والبنادر على غرار أولاد بوغانم (قرب تالة)، فيغنّون مدحات للأولياء والصالحين، وزيارتهم خفيفة، فيزورون شيخهم "محمد بن خليفة" المدفون ببْحِيَرة سيدي عامر (والبحيرة هي الأرض المزروعة).

حزب سوسة: يشوّق لزيارة سيدي عامر في النصف الثاني من رمضان فيأتي أصحابه إلى الزاوية كما يأتونها صباح عيد الفطر.

حزب القيروان: حزب شقرون وحزب ڤرفالة يأتيان مرّة في السنة، فيبيت الجماعة ثم يرجعون من حيث أتوا.



الطريقة الشطّية بمساكن

نسبة إلى سيدي عمر الشطي المتوفى سنة 1065هـ/1652م

الشيخ المؤسس: عمر بن أحمد بن عمر بن علي الزاهد (الأعمى) الحسيني. وسمّي "الشطّي" لأنّه كان يتشطّط على الناس (أي ينزوي عنهم) ومن هذا الانزواء أتى لقب "الشطّي" عاش ولازم الشيخ "عامر المزوغي" وكانا رفيقين. يُروى أن الشيخ "عمر الشطّي" ساح صحبة الشيخ "عامرالمزوغي" فمرّا بقبيلة، فأهداهما رئيسها قطيعا من الغنم، فلمّا أرادا الدّخول إلى "مساكن" قال له: "سوق...سوق يا عامر ! الدقّة(الوخزة)ليَّ والشائدة ليك، لو نروّح بيها، أولادي يتقاتلوا عليها". وتوفّي في حدود سنة 1065هـ/1652م، وترك من التلاميذ المشهورين محمد بن فرج المشهور بالمالوف، ورؤوف الزرلّي في العيساوية والبشير وصالح الشاهد اللذين أخذا عنه الشطّية وهي نوبة (أَلْفْ بُكْرَة مِنْ عْقَابِ اللِّيلْ) الّتي تنتهي بدخول براول.

ولسوء الحظ، عندما زرنا المقام كان عشية يوم جمعة، فوجدنا سوقا منتصبة في فناء المقام ليس بها إلاّ النساء، فسألنا عن ذلك، فقيل: إنّ البلدية نصبت فيه سوقا يوم الجمعة، ولمّا كثر الاختلاط وظهرت بوادر غريبة، طلب أهل الزاوية من السلط البلدية جعلها سوقا خاصّة بالنساء، فأجابتهم إلى ذلك وبعثت أعوان تراتيبها للمراقبة.

أخبار الطريقة:" من أوّل ما اتّفق الشيخان على اقتسام البركة أصبحت الوعائد

غنما وثيرانا وغيرها تأتي إلى سيدي عامر، ولكن لابدّ من زيارة الشيخ الشطّي وإلاّ فالزيارة غير مقبولة" هكذا يصرّح الشيخ محمد شبيل الشطّي في حديث معه أجريناه عشية يوم الجمعة 20 سبتمبر 2002 م بمقر الفرقة بمساكن، أمّا الآن فيقود الفرقة هذا الشيخ محمد شبيل بن أحمد بن بلقاسم بن عثمان الشطّي المولود حوالي 1917م، في صباه حفظ جانبا من القرآن الكريم في بلدته ودرس بجامع الزيتونة المعمور. وكان منذ نشأته الأولى مغرما بالغناء الصوفي والإيقاع حتّى فاض فنّه على يدي والده الّذي عاش إلى التسعين، وكان الشيخ محمد شبيل من عائلة فلاحين أبا عن جدّ، وقد تقلّد أمر مشيخة الطريقة العامرية بزاوية سيدي عمر الشطّي بأمر عليّ مؤّخ في 1949م، ويظهر أن ذلك كان بعد وفاة والده، وتكوّنت الفرقة الشطّية الحالية منذ 1930م. والشيخ محمد شبيل متألّم من حظّه لدى السلط الثقافية، رغم شهائد التقدير العديدة المزيّنة لجدار النادي مع الصور التذكارية، ويرى أنّ الشباب غير مقبل على هذا التراث، بل يجري وراء الدرهم والدينار، ولو لم يقف السادة محمد الأكحل وخليفة الأكحل وابنه أحمد الزكّار إلى جانبه لما استطاع تكوين الفرقة، وقد كانوا لا يطلبون أجرا إنما يعملون بما يسمّونه (البدنة) أي الطعام من كسكسي ولحم، وكانوا عندما يدخلون دارا تتحجّب النساء، ويمنع الاختلاط. أمّا الآن حسب قوله فقد اختلطت الأمور وأصبح الشباب لا يبحث إلا عن النقود.

أصول الطريقة: أتباع هذه الطريقة يصرّحون أنهم ليست لديهم أرصدة من أغان أو سفائن تقليدية ماعدا ما يسمّى الشطّية أو نوبة سيدي الشطّي، فهم يأخذون من كل شيء بطرف، ويميلون إلى العوامرية في أغلب أعمالهم، وهكذا فإنّ آلاتهم تتمثّل في البندير والدربوكة والزكرة، وقد يضيفون إليها النغّارات إن كانوا جالسين. أمّا الميعاد الأصلي فهو يوم الجمعة وهو مجعول للتّمارين والإشهار.

طريقة العمل: كانوا يستهلّون بالعادة، ثم قراءة الفاتحة ثمّ الدعاء (اللّهُمَّ أطعم من أطعمنا واسق من سقانا إلخ...)، ثم يشرعون في النوبات وفي كل نوبة يذكرون الشطّي:

فمن نوبة راست الذيل:

(زادَ شَوْقِي وَقَدْ حَلاَ   لِي وَمَدْحِي يَطِيبْ)

وهوخاص بنوبة الشطّي، أوممّا يُبدأُ به السهرة من نوبة راست الذيل أيضا: (قَدْ هِمْتُ) أومصدّر (أنا الّذي قد هِمْتُ)

ومن نوبة العراق: (قَصْدِي أَنْظُرْ إِلَيْهْ * وِنْشَاهِدْ مَقَامه * وِنْصَلِّي عَلَيْه)

ومن نوبة الإصبعين: (يَا جَاهِلاً هَذِي الأُمُورْ   اِسْمَحْ لَنَا فِيمَا مَضَى)

ومن نوبة السيكاه: نَدْعُوكَ يَارَبِّـي   تِقْبِلْ عَلِينَا

بِزْيَارَةِ السَّـادَةِ   الصَّالِحِيـنَا

أو يذكرون:

(الله، يَا أَهْلَ الله قَلْبِي بَغَاكُمْ   وَالْفَـوْزَة بِيـكُمْ إِلَى الله

(يَـا فَرْحَـتِي يَـا هَنَـايَ   أَنَـا بَلَـغْـتُ الأَمَـانِي

الشَّطِّي شَـيْـخُ الْعِنَـايَة   بَابَا مِنْ كَـاسُه سَقَـانِي

سِيـدِي سَقَـانِي الْمُـدَامَةْ   مِنْ خَـمْـره طَيِّبْ الأنْفَاسْ

شَـاهَـدْتُ بِهَا الْكَـرَامَة   وِانْجَـلَتْ عَنِّي الأَوْكَاسْ

و نوبة خاصّة محيّر عراق: (يَا خِيلْ سِيرُوا)

أو نوبة الشطّي في المحير عراق: (أَلْف بُكْرَة مِنْ عِقَابِ اللّيل)

أو نوبة الحسين: (كُلّْ مَنْ يَهْوَى الرّسُولْ)

أو نوبة المغراوي: (الله الله * لاَ إِلَهَ * إِلاَّ الله

وْمَقْصْدِي أَنِّي نْزُورِ الْقُبَّة   وَبَابَا الشَّطِّي يِرْحَم اللِّي جَابه)

أو نوبة المزموم: (بِاسْمِ الإلَهِ بْدِيتْ   وَعْلَى النَّبِي صَلِّيتْ)

ودرازي محيّر سيكاه:

(آه يَا وْلِيَّ * يَا سِيدِي الشَّطِّي * يِرْحَمِ اللِّي جَابه

وعلى لحن (يا ناس جرت لي غرايب) في مقام الحسين:

يَا فَرْحَتِي يَا هَــنَايَ أَنَا بَلَـغْتُ الأَمَـاني

الشَّطِّي شَيْخُ الْعِنَايَة بَابَا مِنْ كَاسُه سَقَانِي)

ومن النوى: (طَيِّبُ الْمَنَازِلْ).

وقد يختمون بنوبة (أم الزين).

كذلك يذكرون مدحة سيدي الدهمول أو مدحة سيدي الحذيري: (يَا زَايْرِينَ) ونُوَب (نوبات) أخرى تتغنّى بالأولياء والصّالحين.

رواح العريس:

في الليلة التي تلي صباح العرس يجدّدون للعريس سهرة ثانية يقع فيها الكثير من الظرف والفكاهة، وكذلك في الطهور.

نموذج من سهرة شطيّة

وافانا رئيس الفرقة الشّطيّة السيد حبيب الشّطي بنموذج من سهرة شطّيّة، علّق قبل ذكره بأن للشطّية علاقة أكثر متانة بالعوامرية (من بقية الطرق الأخرى)، "فبمقارنة أحزاب طريقتي العوامرية والشطّية نلاحظ تشابها في المعاني والأداء". ثم يواصل قائلا: "تبدأ السهرة بالدخلة وتسمّى العادة وفيما يلي نصّها:

بِسْمِ اللهِ وَبِـــــــاللهِ * وَبِجَاهِ رَسُولِ اللهِ * بِسمِ اللهِ سَمِّـــــيــــنَا * الله الله الله الله

زُخْرِفَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ * الله الله الله الله * أُعِدَّتْ لِلْمُـتَّـقِـــيــنْ * الله الله الله الله

قَالَ رَبِّي فَادْخُلُــــوهَا * الله الله الله الله * بِسَـــــلاَمٍ آمِـنِـــــيــنْ * الله الله الله الله

يَا إِلَهِي بِـــالْمُشَفَّـــعْ * الله الله الله الله * صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمُرَفَّعْ * الله الله الله الله

لاَ تُخَيِّـــبْ يَـــا إِلَهِي * الله الله الله الله * كُلَّ مَنْ حَضَرْ وَيِسْـمَعْ * الله الله الله الله

شَيْخُنَا شَيْخُ الْكَمَـالِ * الله الله الله الله * الشَّطِّي فَحْلُ الرِّجَــالِ * الله الله الله الله

يَسْقِيـــنَا خَمْرَة زُلاَلِ * الله الله الله الله * بَاهِيَة تُصْلِحْ أَحْــوَالِي * الله الله الله الله

اللهُ يَا أَهْلَ اللهِ قَلْبِي بَغَاكُمْ   وَالْفَوْزُ بِكُمْ إِلَى اللهِ

اللهُ وَالشَّطِّي شَيْخ الْعِنَايَة   بَابَا بْكَاسُه سَقَانِي

سِيدِي سَقَانِي الْمُدَامَة   مِنْ خِيرْ مَا تَعْصَرِ النَّاسْ

وَحْفَظْتُ سِرَّ الْمُدَامَة   حَتَّى تْوَلَّعْتُ بالْكَاسْ

شَاهَدْتُ بِهَا الْكَرَامَة   وَانْجَلَتْ عَنِّي الاَوْكَاسْ

بِاسْمِكْ نِبْدَا نِبْدَا   يَا عَالِمْ بِحَالِي

أَزِلِ الشِّدَّة الشِّدَّة   لاَ تَقْطَعْ أَمَالِي

كُنْ لِي سَنْدَة سَنْدَة   فِي يُوم الرِّحَالِ

كُنْ لِي نَصِيرْ كُنْ لِي نَصِيرْ   لاَحَوْلَ إِلاَّ بِالله

بَابَا الشَّطِّي * شَيْخِي شَيْ لله * شَاشِ الْخَاطِرْ * لِمَقَامْ رَسُول ِالله...

وتعتبر العادة بمثابة المقدّمة التي يُفتتح بها الحفل الدّيني الخاص بالطريقة الشطّية. ويليها القسم الغنائي والإيقاعي فتقدّم الفرقة نوبة في مقام راست الذّيل ووزن خفيف عوامري وهي:

قَدْ هِمْتُ مَاذَا مَا بِالْوَجْدِ * يَا سِيدِي * وَاعْذِرْ جُنُونِي

وَالدَّمْعُ سَالَ مِنْ عَيْنِي * يَا سِيدِي * جَرَّحْ جُفُونِي

وَانْظُرْ لِي أَنَا وَمَنْ حَوْلِي * يَا سِيدِي * وَاحْضَرْ يَا شَطِّي

شَيْخِ الْوَفَاء * الْوَفَاء يَا أَلله * شَيْخِ الْوَفَاء الشَّطِّي

نُورُهُ وَنَّسْنِي * يَا سِيدِي * وَاحْضَرْ يَا شَطِّي

يَا فَرْحَتِي يَا هَنَايَ * أَنَا بَلَغْتُ الأَمَانِي * أَنَا بَلَغْتُ الأَمَانِي

وَالشَّطِّي شَيْخُ الْعِنَايَة * بَابَا بِكَاسُه سَقَانِي * بَابَا بِكَاسُه سَقَانِي

سِيدِي سَقَانِي الْمُدَامَة * مِنْ خِيرْ مَاتَعْصَرِ النَّاسْ * مِنْ خِيرِ مَا تَعْصَرِ النَّاسْ

شَاهَـدْتُ بِهَا الْكَـرَامَة * وَانجَلَتْ عَنِّي الاَوْكَـاسْ * وَانْجَلَتْ عَنِّي الاَوْكَاسْ

الْغَرَامْ هَزِّنِي حَيَّرْ دْلِيـلِي * الْغَرَامْ هَـزِّنِي حَيَّرْ دْلِيـلِي * آه يَـــا شَيْـــخ

مَا وْجِـدتِشْ مَنْ يِعْذِرْنِي * كَانِ اللِّي حَبُّه بِغْرَامُه مْعِنِّي * آه يَـــا شَيْـــخ

وَالْغَـرَامْ يْحَيَّرْ حَيَّرْ دْلِيـلِي * وَالْغَـرَامْ يْحَيَّرْ حَيَّرْ دْلِيـلِي * آه يَـــا شَيْـــخ

وَالْغَـرَامْ يْحَـيَّرْ صَـبْرِي * مُولاَيَ خَالِقِي حَيَّرْ دْلِيـلِي * آه يَـــا شَيْـــخ

وَالْغَرَامْ حَيَّرْنِي حَيَّرْ دْلِيلِي * وَالْغَرَامْ حَيَّرْنِي حَيَّرْ دْلِيـلِي * آه يَـــا شَيْـــخ

وَالْغَرَامْ حَيَّرْ لِي صَبْـرِي * مُولاَيَ خَالِـقِي صَبَّـرْنِي * آه يَـــا شَيْـــخ

أَقْبَلَ الْبَدْرُ عَلَـيْنَا   مِنْ ثَنِـيَّاتِ الْوَدَاعِ

وَجَب الشُّكْرُ عَلَيْنَا   مَـا دَعَـا للهِ دَاعِ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِيـنَا   جِئْتَ بِالأَمرِ الْمُطَاعِ

مَرْحَبًا أَهْلاً وَسَهْـلاً   بِكَ يَـا بَدْرَ الْبُدُور

يـا وْلِي يَـا بَـابَـا * سِيدِي الشَّطِّي * يَـا وْلِي يَـا بَابَا * سِيدِي الشَّطِّي * وَاللَّـه دَايِـمْ حَيْ

يـا وْلِي يَـا بَـابَـا * وَاللِّي يْـزُورِكْ * يَبْـلَغْ مُـرَادُه * سِيدِي الشَّطِّي * وَاللَّـه دَايِـمْ حَيْ

يَـا وْلِي يَـا سِيدِي * بَـابَـا الشَّـطِّي * يَاوْلِي يَا سِـيـدِي * بَـابَا الشَّـطِّي * وَاللَّـه دَايِـمْ حَيْ

يَـا وْلِي يَـا سِيدِي * يَا مَنْ هْدَرْ دَمّـه * تَاخُذْ تَاخُذْ بِيدِي * بَابَـا الشَّـطِّي * وَاللَّـهُ دَايِـمْ حَيْ

يَـا وْلِي يَـا صَـالَحْ * بَـابَـا الشَّـطِّي * يَاوْلِـي يَا صَـالَحْ * بَابَا الشَّـطِّي * واللَّـهُ دَايِـمْ حَيْ

يَـا وْلِي يَـا صَـالَحْ * لَبِّيـتْ جَمْعِـكْ * يَاسِرْ سِرِّكْ فَاوَحْ * بَابَا الشَّـطِّي * وَاللَّـهُ دَايِـمْ حَيْ

نَادِيتْ عْلَى مْحْــبُوبَة * يَاسَــاكِنَة مَنُّــوبَة * رَبِّي عْطَــاكِ التُّــوبَة * وَاعْمَــلْ عْلَــيَّ جْمِيــلْ

نَادِيتْ رْجَالِ الصَّــبْرَة * دَاوِي الْمْــرِيِّضْ يِبْرَى * بْجَاهْ عَــالِي الْقُــدْرَة * وَاعْمَــلْ عْلَــيَّ جْمِيــلْ

نَادِيتْ رْجَالِ السَّاحِلْ * وْخَلَّصْ سِيدِي الْوَاحِلْ * وِبْجَاهْ سِيدِي الرَّاحِــلْ * وَاعْمَــلْ عْلَــيَّ جْمِيــلْ

نَادِيتْ يَا بُــورَاوِي * مُولَى الْقِنْدِيلِ الضَّاوِي * وِالشَّطِّي عْطَانِي الْجَاوِي * وَاعْمَــلْ عْلَــيَّ جمِيــلْ

برول:

رَبِي جْمَعْـنَا بِالسَّــلاَمْ * الله الله * فِي أَرْضِ الْفَيَافِي وَالْقِفَارْ * الله الله * فِــي أَرْضِ الْفَيَافِي وَالْقِفَارْ * الله الله

كُنَّا جْمِيعْ مُجْتَمِــعِينْ * الله الله * نِتْنَاوَلُوا كْيُوسَ العِظَاتْ * الله الله * نِتْــنَــاوَلُوا كْيُوسَ الْعِظَاتْ * الله الله

بَعْدَ الْبِعَادْ صِرْنَـا هِيَـامْ * الله الله * نِتْـفَكَّرُوا بُعَدَ الدِّيَــارْ * الله الله * نِتْفَــكَّرُوا بُــعْــدَ الدِّيَارْ * الله الله

وَالطَّيْرُ غَنَّى فِي السَّحَرْ * الله الله * يُنْـشِدْ عَلَى نَغَمِ الْــوَتَرْ * الله الله * يُنْشِــدْ عَلَى نَغَــمِ الْوَتَــرْ * الله الله

يَصِيــحُ فِي جُنْحِ الدُّجَى * الله الله * مَا بَيْنَ دَوْحَــاتِ الشَّجَرْ * الله الله * مَا بَيْنَ دَوْحَاتِ الشَّــجَـــرْ * الله الله

يَالاَيِــمِ الاِخْــوَانْ يَااللِّي رَايِكْ مَعْدُومْ

أُنْظُرْ يَــا إِنْسَــانْ هَــذَا السِّرِّ الْمَعْلُومْ

شَطِّي يَــا سُلْطَــانْ طَاعِتُّه كلِّ سْـمُــومْ

بُكْرَة وْمَسَاء حِزْبُه   يْجَلِّي الاَوْكَــــاسْ

بَابَا الشَّطِّي شَيْــخِي   مُــولَى الْبْـــــلاَدْ....

بعد هذه النوبة تقوم الفرقة بإنشاد نوبة ثانية في مقام الأصبعين ووزن خفيف عوامري وهي كالآتي:

(رَأَيْتُ طَهَ فِي مَنَامِي   وَطَلَبْتُ مِنْهُ الشَّفَاعَة.)

وتليها نوبة في مقام الحسين "نزاد النبي وفرحنا بيه".

ويأتي بعد ذلك دور الإستعراض والرقصات البهلوانية، وذلك من خلال رقصة "بوسعدية" على إيقاع عجمي ونوبة "هات السوداء" في مقام العجم أو نوبة "سيدي بو لبابة" في مقام السيكاه.

إثره يأتي دور الاستعراض الثاني لشطّاح "الصرارفي"، ويقوم هذا الأخير بأداء رقصات مختلفة باستعمال القلال والصرارف (السلالم)[1].

وتعود الفرقة للإنشاد والإيقاع بأداء نوبة في مقام العرضاوي : "أم الزين الجمّالية ".

كما تقوم الفرقة ببعض الأوزان والنغمات الشعبية الفولكلورية.

وتختم عملها بالتعليلة في مقام محيّر عراق ووزن مدوّر حوزي: (طَهَّرْ يَا مُطَهَّرْ) أو (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله).

مع ملاحظة اختلاف البرنامج من سهرة إلى أخرى حيث تمتلك الفرقة عديد النوبات ونذكر منها:

- نوبة الحسين: (كَرَّايْ وْعَالِمْ قَصْدِي نِمْشِي   لُه وِنْزُورْ مْقَامُه نِبْرَى فِي لَيْلَة)

- نوبة السيكاه: (عَقْلِي شَاشْ لِرْجَالِ الْحْمَادَة   وَاللِّي يْزُورْهُمْ يِبْلَغْ مُرَادَه)

- نوبة العرضاوي: (أَنَــا دَمْــعِي سَيَّــــالْ   يِسْكَبْ عَلَى الأَرْكَاب)

1 اشتهر بها الراقص الشهير محرز المساكني ثم جاء بعده آخرون لم يبلغوا شهرته وبراعته.

- نوبة المزموم: (بِاسْمِ الإلَه بْدِيتْ)

- نوبة المغراوي عروسي: (اللهْ الله ولاَ إِلَهَ إلاَّالله)

- نوبة الغربي وهي عديدة.[1]

1 طريقة االعمل الخاصة بالشطية هي مزيج من الطريقتين العوامرية والعيساوية.

الطريقة العزّوزية

نسبة إلى الولي الصالح سيدي علي عزّوز دفين بلدة زغوان

الشيخ المؤسس: هو الشيخ علي عزّوز وُلد بفاس من المغرب الأقصى وحجّ مرّتين وسكن بلد زغوان، وتوفي بها سنة 1117هـ، لكن الشيخ مخلوف جعل هذه الوفاة سنة 1122هـ[1]. أخذ الطريق عن الشيخ أبي القاسم بن للوشة [وهوالّذي أشار عليه بالرحيل إلى تونس لبثّ علمه الباطني في أهلها]. وهو أستاذ الشيخ محمد زيتونة المنستيري[2]. [ونزل بزغوان (بعدالحج) واشترى دارا لسكناه والتفّ به أتباع. وكان في بداية أمره يجمع الحطب من الغابة بنفسه لطبخ طعام أتباعه. وكان له ميعاد للذكر وقد حضر ميعاده الأمير (المرادي) محمد باشا الحفصي[3] في جولة كانت له بزغوان وتلقّى منه إشارات اعتقد منها صلاحه فبنى له بجانب مسكنه زاويته المعروفة بزغوان وبها قبره].

---

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 325. ومابين[..] إضافة من الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي لمحمد النيال ص.ص 298 و299.

2 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 324.هومحمد زيتونة المنستيري ولد سنة 1081هـ وتوفي في 5شوال 1138 وكانت له مواقف جريئة وكان مستشارا للباي حسين بن علي وهو الّذي شيّع جنازته رفعها بنفسه.

3 أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الثاني، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963، ص.36 وما بعدها، الأمير محمد باشا الحفصي هو ابن حمودة باشا المرادي، عقد له أبوه على القيروان وسوسة والمنستير وصفاقس، ولما لم يل الأمر بعد أخيه مراد الثاني، وقع منه حسد لابني أخيه محمد وعلي فأغرى بينهما وغرقت البلاد في حروب طاحنة.

ويقول السيد عمر البواب: إنه في زمن الحملة الصليبية للويس التاسع على تونس، جمع الولي الصالح أبو الحسن الشاذلي أولياء الزمان مثل سيدي علي الحطاب وسيدي بوسعيد والسيدة المنوبية بمكان بزغوان أطلق عليه اسم (بوڤبرين) للنظر في التّصدّي لهذه الهجمة الشرسة[1]. ومن ذلك العهد أصبح لزغوان حنين من هؤلاء الأولياء كما كان الصالحون يزورون المكان تبركا بأثر الصالحين من قبلهم، فكان سيدي علي عزّوز ممن يتردّدون على زيارة زغوان، واحتقره النّاس في أوّل عهدهم وعاملوه معاملة المجانين وطردوه، وكانوا من مزارعي التّفاح، فدعا عليهم بقوله (يعطيكم الأرياح وقت التّفاح) وصادف أن فسدت ثمارهم، فاكتشفوا أنّه ولي صالح فأحبّوه وبجّلوه، حتّى عيّن من الوفد الذي بعثه الباي للتفاوض مع الجزائريين حول الحدود فوقع الاتفاق العجيب.

وتبعا لذلك صار كلّ باي لا بدّ أن ينحر فدية لسيدي علي عزّوز تتمثل في ثور أو اثنين وآخرهم محمد الأمين بن الحبيب باي آخر البايات الحسينيين قبل إعلان الجمهورية في 25 جويلية 9571. فلمّا توفي الشيخ أرسل الباي أخاه للقيام بتجهيزه وإقامة جنازته بالعاصمة، لكنه لقي معارضة شديدة من أهالي زغوان، وحينئذ أمر الباي بدفنه بمكانه المعروف الآن بزغوان وبناء زاوية ومسجد.

أخبار الطريقة: من المعروف أن جلّ سكان زغوان أندلسيون في الأصل وهم الّذين جلبوا معهم تقاليدهم ومالوفهم. فكانوا كل يوم بعد صلاة العشاء لا بدّ لهم من نصب الميعاد وغناء نوبة أو نوبتين من المالوف بأحد منازلهم. فلمّا بُنيت زاوية سيدي علي عزّوز، أقاموا عادة جديدة وهي نصب ميعاد بعد صلاة الجمعة بالزاوية، فيجتمعون للحديث في شؤونهم، ثم يختمون جلساتهم بنوبة أو نوبتين من المالوف. وصار أهالي فاس يزورون مقام سيدي علي عزّوز في طريقهم إلى الحجّ فيجلبون أغنامهم معهم ويقيمون الولائم، فجلبوا معهم البندير والنغارات وألّفوا الأغاني في مدح الشيخ، فحفظها أهالي زغوان، وهكذا انطلقت الطريقة وتكوّنت، وانتشر مريدو سيدي علي عزوز في كل مكان، ولا تزال زاويته قائمة الذات إلى حد الآن بتونس العاصمة وكانت معهدا لتعليم المالوف لمدّة طويلة.

---

1 قصّة مشابهة للتي وقعت في مصر في الحملة الصليبية وخروج أبي الحسن إلى الحرب مع الظاهر بيبرس. وفي الخبر تضارب حيث إن أبي سعيد الباجي أقدم من أبي الحسن الشادلي فالثاني يكون تابعا للأول وليس العكس.

أصول الطريقة: للطريقة أحزاب وأذكار قليلة وهي طريقة جدّ وهدوء وأعمالها مشابهة لأعمال القادرية من جميع الجهات[1]. وهي طريقة لا نجد لها زوايا إلاّ في تونس الحاضرة وبنزرت وزغوان، وليس لها آلات إلا البنادر والنغارات.

طريقة العمل: كل الطرق الصوفية الموجودة بتونس العاصمة تقوم بزيارة لسيدي علي عزّوز سنويًّا إكراما له وللمكان الّذي كان يجتمع فيه سيدي أبو الحسن الشاذلي بأصحابه الأربعين وتدخل هذه الفرق لمقام سيدي علي عزوز بالعادة.

وفي تصريح للسيد رشيد عبّاس مقدّم الفرقة العزّوزيّة بزغوان أنه فيما عدا ذلك، ينصب ميعاد فرقة العزّوزية بالزاوية كل يوم جمعة بعد صلاة العشاء بحضور كل المولعين من أهالي زغوان أو الوافدين عليها، فيبدأون مثلا، بالدخلة وهي مدحة تقام بمناسبة المواسم والأعياد الدينية مثل 27 رجب أو 51 شعبان أو 27 رمضان وهي:

(بِسْمِ اللهْ وَبِاللهْ   وِبْجَاهِ رَسُولِ الله)

(بِسْمِ اللهْ سَمّينَا   ....)

أو: (عروبي) (بِنْ عَزُّوزْ شَيْخِ الْكَمَالْ   سْقَـانِي شُرْبَ الـزُّلاَلْ)

أو: (عروبي) (عَزُّوزْ نَا لِيكْ مَنْسُـوبْ   مَحْسُوبْ نَا مِنْ اولاَدِكْ

بالله يا صَاحِـبِ النُّورْ   غِثْـنِي بْحُرْمَةَ اجْدَادِكْ)

أو: (عروبي) (لاَ خَابْ مَنْ يَعْشَقِ الزِّينْ   وَلاَ خَابْ سَعْيُه خْسَارَة

مِحْنْـتِي فِي كَـامْـلِ الْعِـينْ   عَزُّوزْ مُـــولَى الدّبَـارَة)

ثم تنشد مدحات تمجّد مناقب الشيخ مثل:

(هَيَّا نْزُورُو شَيْـخْنَا يَا فُـقْـرَا   سِيدِي عْلِي عَزّوزْ نْشُوفه نِبْرَى)

أو: (جِيتُوا زِيَارْ نْرُوحْ مْعَـاكُمْ   لِمْدِيــنَةْ زَغْــــــوَانْ يَاللهْ)

ثم تنشد نوبات من المالوف التونسي.

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص154.



الطريقة الطيبية

منسوبة إلى الشيخ الطيب بن محمد الوزاني

دفين المغرب الأقصى المتوفى سنة 1181هـ

الشيخ المؤسس : أسس الطريقة في الأصل الشيخ مولاي عبد الله الشريف بن إبراهيم بعد أن انسلخ عن الجزولية التي أخذ منها الكثير، ثم جاء حفيده الشيخ الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف بن إبراهيم الوزاني دفين المغرب الأقصى المتوفي سنة 1181 ه [وقد ناف عن الثمانين فيكون مولده بين 1101 و1102 ه][1] فأتمها وأكمل تنظيمها ومنحها اسمه[2].

أخبار الطريقة : بعد أن أتم الشيخ عبد الله دروسه بزاوية (دار العلم)[3] وهي زاوية أسسها إدريس لتعليم الأشراف الناشرين للتعاليم الإسلامية في المغرب، أسس بوزّان[4] (دار الأمان) إثر رؤيا رأى فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ويظهر أن مولاي عبد الله أسسها لمعاضدة دولة السلطان المغربي وهو إدريسي مثل الشيخ عبد الله. [وعندما توفّي الشيخ ورثه حفيده الطيّب المذكور فلما توفي ورثه ابنه أحمد المتوفّى سنة 1196 ه وورثه ابنه أبو الحسن المتوفّى سنة 1226ه فخلفه ابنه العربي المتوفى سنة 1266ه ثم ابنه عبد السلام المتوفّى سنة 1310 ه.][5]

---

1 إضافة من شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 135 - 136.

3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 484 - 492.

4 وزان مدينة صغيرة على سفح جبل وزّان أو جبل بوعلال تبعد 150 كيلومترا جنوب غربي طنجة.

5 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 355 عدد 1418 و1419.

وأخذت تحيط بالزاوية بعض المساكن حتّى أصبحت مركزا هامّا نظرا للمآثر التي أحاط بها السلاطين مؤسّسها إلى درجة أن أصبحت وزّان مركزا مرموقا يؤثّر في قرارات بلاط فاس تبعا لمشاعر قادة الزاوية، وأصبح سكّان وزّان من أتباعها ويعتبرون أنفسهم المتحررين من أيّ قيد أزاء السلطان. وانتشر نفوذ الزاوية على ما يحيط بها من ممتلكات الأشراف حتّى أن قضاءهم يرجع إلى محكمة الأشراف التابعة للزاوية والتي لا تحكم على الوزانية فقط بل على كل من يسكن بالمنطقة. غير أن الطيبيّة لا يخلطون بسهولة ما هو ديني بما هو سياسي، وهكذا تنقسم امتيازات الشرفاء فيرجعون في الروحانيات إلى مولاي العربي بن عبد السلام بن الحاج العربي الذي قاد الجماعة إلى حدود سنة 1892م والّذي قدم من المغرب إلى الجزائر لإعادة ربط علاقات الصداقة القديمة التي تلاشت، وقد دخل تحت الحماية الفرنسية[1]، ويرجعون في القيادة السياسية إلى السيد محمد بن عبد السلام المتوفى في 29 أكتوبر 1895 بعد أن ولّى ابنه كلّ مسؤولياته. وهذا ما يفسّر قوّة نفوذ الطيّبيّة في مناطقها، فعندما تراجع هذا النفوذ لفائدة الدرقاوية فسّره الشريف عبد السلام: "لو أن رجلا يملك بستانا بعيدا عنه ولا يتمكّن من مراقبته فإن الأعشاب الخبيثة ستغطيه بينما لو كان يتعهده ويصلحه كل سنة، فإنه يجده مليئا بالخضر والغلال." ولعل هذه بداية تراجع الطيبية واندثارها. ومن المعلوم أن مؤسّس الدرقاوية أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الجمل الحسني الإدريسي الفاسي أخذ عن الشيخ الطيّب الوزّاني.

أما بتونس فقد انتشرت الجماعة الطيبية بالحاضرة من جموع التوات المغاربة النازحين إلى تونس، إلا أن انتشارهالم يتوسع، وأتباعها بالعاصمة لهم جماعات متعددة ولها زوايا خاصّة تقام فيها أذكار الشيخ ومدائحه[2]. وآخر شيوخها كان الشيخ الطاهر الزهّار وكان يحضر في سيدي علي الحطاب وفي السيدة المنوبية وهو قائم مع الجماعة، وكانت زاويتهم في نهج الحجّامين.

وتنطلق السلسلة الروحية للطيّبيّة من الملاك جبريل عليه السلام إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى الحسن إلى أبي عبد الله جابر

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 14 (المقدمة).
2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 135 - 136.

بن عبد الله الأنصاري إلى أبي سعيد الرضواني إلى أبي محمد فتح السعود إلى سعد إلى أبي محمد سعيد المخزوم إلى أبي القاسم المرواني إلى أبي إسحاق إبراهيم البصري إلى زين الدين محمد القزويني إلى شمس الدين التركماني إلى تاج الدين محمد إلى نور الدين أبي الحسن علي إلى فخر الدين إلى تقي الدين الفقير إلى أبي زيد المدني إلى عبد السلام بن مشيش إلى أبي الحسن الشاذلي إلى أبي العباس المرسي إلى تاج الدين بن عطاء الله إلى أبي عبد الله المغربي إلى أبي الحسن الحنفي إلى أنوس البدوي إلى أبي الفضل الهندي إلى عبد الرحمان الرجراجي إلى أبي عثمان الهرتاني إلى أبي عبد الله محمد الأمغر الشريف إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر سليمان الجزولي إلى عبد العزيز التباع إلى عبد الله الرضواني إلى محمد الطالب إلى عيسى حسن المساب إلى علي بن أحمد إلى مولاي عبد الله إبراهيم الشريف إلى مولاي محمد إلى مولاي الطيّب إلى السيد أحمد إلى السيد الحاج العربي إلى السيد عبد السلام إلى السيد العربي بن الحاج عبد السلام[1].

أصول الطريقة : للطريقة الطّيّبيّة أذكار كلها توحيد وصلوات على النبي صلّى الله عليه وسلّم ومن خصوصياتها عدم استعمال الآلات، ومن هنا هي تنتمي للشاذلية، وهو تأييد لما وجد في السلسلة الروحية، وجزولية أيضا فقد أخذت عن شيوخ الجزولية بالضبط كالعيساوية. ومديح الطيبية يجري من وقوف بلهجة وأنغام خاصة امتاز بها أصحابها عن غيرهم. قال الأستاذ عثمان الكعاك[2]:

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 484 - 492.

2 عثمان الكعاك، الشيخ أحمد الوافي، نشر المعهد الرشيدي للموسيقى التونسية، 1982، ص 47. والشيخ هو أحمد بن حميدة الوافي أصل عائلته من الأندلسيين الّذين هاجروا إلى تونس في عهد عثمان داي (1018 هـ/1613م) واستوطن أهله في حومة حوانيت عاشور بزنقة الوافي، وبها ولد الشيخ أحمد في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي في عائلة بلدية فلاحية علمية تصوفية. كان أبوه حميدة (باش برداجي) في جامع الزيتونة (أي شيخ إنشاد البردة) وهي أعلى خطة فنية في التلاحين الدينية والمدائح والمبايت، إذ أنّه يشرف على تعليم الألحان المتعلّقة بالمدائح من بردة وهمزية ومعراجية ومولدية. وكانت أم أحمد تجيد المالوف كما تجيده أختاه حلومة الوافي زوج الحاج الشاذلي التميمي أمين العطّارين، وشلبية الوافي زوج خميس حديدان شيخ المبايت في طبربة. درس بكتاب حوانيت عاشور فحفظ به تلاحين البردة والهمزية، وسلبت ليلى، وغيرها من التلاحين التي يتعلّمها الأطفال وكان يحضر مبايت سيدي معاوية، ويمشي مع والده إلى جامع الزيتونة فيشارك في أعمال البردة وغيرها من المدائح. حفظ القرآن الكريم وبعض التجويد والمتون والمدائح ثم انتقل إلى جامع الزيتونة فتابع دروسه إلى أن تخرّج منه في اللغة والأدب والعلوم الإسلامية. وكان يتعلّم بالتوازي الموسيقى على ساقسلي رئيس طاقم الموسيقى النحاسية العصرية فأخذ عنه ضبط الألحان بالأساليب الأوروبية. وبوجوده بحومة حوانيت عاشور القريبة من الحارة الإسرائيلية وجد نفسه قريبا من الحارة الإسرائيلية فكان على صلة بالفن اليهودي المنتشر بسيدي مردوم وهو فن مختلف الطبقات من المالوف إلى الفن الشعبي التونسي اليهودي القائم على الرباب والجرانة والمزود والزكرة والدربوكة فأخذ الشيخ أحمد أصول هذا الفنّ ولا سيما الرباب عن زعيمه وقتئذ إبراهيم تبسّي.

"وأحضر مع والدي مبائت الطيبية بنهج باب سعدون بين سوق أولاد بوزيد ودرائب المشاكّة فأجد خالي هناك أيضا (وهو الشيخ أحمدالوافي). وقد تعلّمت عن جدّتي الكثير من مدائح الطّيبيّة التي تحتاج إلى درس لأهميتها. منها :

مَوْلاَيَ الطَّيِّـبْ   سَاكِنْ وَزَّانِ (ي)

أَحْضَرْ لاَتْغِيبْ   بَالِكْ تِنْسَاني

أو الأنشودة (المدحة) الأخرى التي تعلّم الأطفال الحساب والتوحيد والتاريخ :

الصَّـلاَةْ عْلِيـكْ * يَـازِينِ الْعْمَامَة * يَا شَفِـيعِ الْخَلْق * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُـوَ وَاحِدْ * يَـازِينِ الْعْمَامَة * وَاحِـدْ هُوَ الله * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَامَنْ هُـمَا اثْنِينْ * يَـازِينِ الْعْمَامَة * آدَمْ وَحَـوَّاءْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمْ ثَـلاَثَة * يَـازِينِ الْعْمَامَة * أَصْحَابِ الرَّوْضَة * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُـمْ أَرْبَعَة * يَـازِينِ الْعْمَامَة * أَرْبَـعَة كُتُبُ الله * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُـمْ خَمْسَة * يَـازِينِ الْعْمَامَة * خَمْس صَلَـوَاتْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُـمَ سِتَّة * يَـازِينِ الْعْمَامَة * سِتَّة ايَّـامِ الْخَـلْقِ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمَ سَبْعَـة * يَـازِينِ الْعْمَامَة * سَبْعَ سَمَـاوَاتْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمَ ثْمَانِية * يَـازِينِ الْعْمَامَة * حَمَّـلاَتِ الْعَـرْشْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

واهتمّ الشيخ أحمد الوافي بالموسيقى الزنجية أصواتا وألحانا وأغاني فولكلورية. واتجه الشيخ أحمد إلى مطالعة كتب الموسيقى، فبدأ بالقديمة منها، ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ودرسه ككتاب موسيقى. وكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي الّذي فتح به مغاليق الأغاني، ورسائل إخوان الصفا والموسيقى الكبير للفارابي وكتب ابن سينا وكتب يعقوب الكندي، ثمّ اتجه إلى كتب القرون الوسطى كمقدّمة ابن خلدون وسفينة الملك للخفاجي وكتاب نفح الطيب لأحمد المقري التلمساني وهو المعلمة الكبرى للموشّحات والأزجال والموسيقى الأندلسية. ثمّ اتّصل بالبارون درلنجي من 1914 إلى 1921 وأمدّه البارون بجميع المساعدات وبجلبه الإخصّائيين في الفن العربي من الأوروبيين مثل روس فارمر، والبارون كارادى فو، فتوصّل الشيخ الوافي إلى إعادة الهيكل الموسيقي للفن التونسي. واستقر في آخر أيامه بجبل المنار (ضاحية أبي سعيد) ليكون أقرب إلى البارون ديرلنجي فيعتمد على مكتبته الموسيقية الضخمة، فكان يتردد على قصر محسن وصحن سيدي أبي سعيد الباجي في عمل العيساوية، أو المولدية، أوجمع أبي الحسن الشادلي أوخرجات التزاور لعيساوية أريانة أوسيدي الحاري أوسيدي داود أويذهب في مساء الإربعاء إلى المرسى ليحضر عيساوية سيدي صالح. وتوفي وهوساكن بدار بلوم وهو علوّ يقع أمام دار الأصرم الكبرى التي وضعها البارون ديرلنجي تحت تصرّفه، في مصيف 1921م ودفن بمقبرة سيدي الجبالي قرب الناظور.

يَا مَنْ هُمَ تِسْــعَة * يَــازِينِ الْعْمَامَة * زَوْجَاتِ الرَّسُـولْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمَ عَشْـرَة * يَـازَيْنِ الْعْمَامَة * أَصْحَابِ الرَّسُولِ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمْ أحْدَاشْ * يَــازِينِ الْعْمَامَة * إخْـوَةُ يُـوسِــفْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمْ أَثْنَـاشْ * يَــازِينِ الْعْمَامَة * عْـدَدْ الشُّــهُورْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

يَا مَنْ هُمْ سِتِّــينْ * يَــازِينِ الْعْمَامَة * أَحْـزَابِ الْفُرْقَانْ * فِي يُومِ الْقْيَامَة

طريقة العمل : يقول الدكتور محمود قطاط: "...وحضرة الطيبية بتيميمون عاصمة قوارة في أقصى الجنوب(الجزائري) حيث توجد رقصة آلة القرقابو النحاسية بمصاحبة الطبل الكبير(دندون) وذلك خلال حضرة ينتهي إليها زنوج المنطقة"[1]. وهو تصريح لايتّفق مع أصول الطّيّبيّة الشاذلية حيث أنهم لايستعملون آلات في عملهم. ونحن نورد قول الدكتور في هذا المقام بكلّ احتراز. فقد يكون وجود هذه الحضرة الزنجية بجانب الحضرة الطيّبة اتّفاقا بتيميمون دون أن يكون بينهما أيّ صلة.

ويذكر الصادق الرزقي في الأغاني التونسية، بالصفحة 135: أن وظائف الطيبية نظام مماثل للقادرية والعيساوية، ويسمّون الشيخ "مقدّما" . أما خرجاتهم فتزيد على الزوايا الأخرى بأن يتجمّع نفر عديد من أتباع الطريقة علاوة على العلاّمة وأصحاب العمل، فيكون كلّ من هؤلاء حاملا مكحلة فيتماشون صفوفا أمام جماعة العمل بنظام تام، والأعلام تخفق على رؤوسهم. وبعد المشي حصّة زمنية يقفون فيكوّنون حلقة ويشحنون بنادقهم بالبارود ويظلّون يجولون حول الحلقة بشكل يمثل أن تلك الحلقة تجول حول نفسها، وهؤلاء كلهم توات، فيرقصون رقصا خفيفا متماثلا وهم يقولون : " البارود ليه مواليه والكاذب يلعن بوه "أو يقولون: " يعيش فاطمة بنتي، أعطاتنا الكسكسي والمكاحل حاضرين" ثم يطلقون النار دفعة واحدة ويجرون هذه العملية مرارا ثم يسيرون.

ويذكر صالح المهدي أنه كان يحضر جماعة من أصل جزائري بلباس جزائري (قندورة وشاش) ويقومون بالحضرة في الزاوية بنهج الحجامين بالعاصمة.

1 محمود قطاط، التراث الموسيقي الجزائري، مجلة الحياة الثقافية عددخاص بالجزائر عدد 23/1984، ص 150.

من مديحهم : مَوْلَاَيَ الطّيِّـبْ عِـزِّ الإِخْـوَان

أَحْضَرْ لَا تْغِيبْ سَـاكِنْ وَزَّانْ

وكذلك: مْتَـاعَ الله لله يَا مـوالِي الدِّيَـارْ

ضِيفَ الله لله جِينَـاكُمْ زِيَّارْ

ومن المديح الذي يقولون في عملهم:

اللَّـــهُمَّ صَـــلِّ عَلَى مُحَمَّدْ يَـــا رَبِّي صَـــلِّ عَلَى مُحَمَّدْ

اللَّهُمَّ صَلِّ عْلَى سِيدَ أَسْيَادِي اللَّهُمَّ صَلِّ عْلَى سِيدَ أَسْيَادِي

بِسْمِ اللهِ الْعَـــالِي * ذِي الْجَــلاَلِ * عَلَيْــك اتِّكَالِي * وَاعْـتِــمَادِي

أَزْكَى الـتَّـــحِيَّة * عَلَى نَــبِــيَّ * خِيــرِ الْـــبَرِيَّة * عَلِيهِ إِنْـشَادِي

عَلَى النَّبِي الْمَاحِي * عَلِيهَ أَمْدَاحِي * بِهْ تْزُولِ أَجْـرَاحِي * وَ الأَنْــكَـــادِ

بِالنَّــبِي الْقُـرْشِي * نُورِ الْعَــرْشِ * بِهِ اضْوَاتِ شَمْسِ * فِي الْـبِـــلاَدِ

ومن أمداحهم أيضا :

جَــــارِتْ الأَشْـوَاقْ يَا احْبَابـي قَلْـــبِي مُشْــتَاقْ يَا احْـــبَابِي

***

أَوَّلْ تَعْــــرِيفْ وَالانْـــعَـامْ حُسْـنِ التَّصْنِيفْ فِي الْـكَلاَمْ

أَهْلِ التَّصْرِيــفْ وَهُــمْ وِدَادِي عَـلَى الإِطْـلاَقْ يَا احْـــبَابِي

***

بِاسْمِ الْمَجِيدْ فِي الْمُلْكْ وَحْـدُه يِفْعَلْ مَا يْـرِيدْ لاَ مَنْ يِـضِدُّه

مَا لُـــه تَحْــدِيدْ رَبِّ الْعِـبَادِ هُــوَ الْخَلاَّقْ يَـا احْـــبَابِي

أُتْرُكْ الأَدْنَاسْ وَ اخْطَى النمِيمَة مَا بِينِ النَّـاسْ حَاجَة عْظِيمَة

تِبْقَ لاَ بَاسْ لاَ مَنْ تْــــعَادِي كْثِير الـــرِّفَاقْ يَا احْــبَابِي

***

لاَ نُرْقُــدْ نُــومْ بَــايْتِ نِخَــمِّمْ قَلْبِي مَهْـــمُومْ وَالرَّبْ يِعْـلِمْ

بَاكِي مَضْيُومْ حِلُّوا قْيَــــادِي بِالإسْتِــحْــقَاقْ يَااحْـــبَابِي

***

صَلِّ وَصُــومْ وْخَـــافْ رَبِّي الْحَيِّ الْقَيُّــومْ غَفَّــارْ ذَنْــبِي

وِطْرِيقِ اللُّومْ خَلِّيــهْ غَــــادِي وَاخْطَى النِّـفَاقْ يَا احْـــبَابِي

***

صْلاَةِ الْمُخْتَارْ صَاحِبِ الشّفَاعَة عَدَدِ الأَمْطَــارْ فِي كُلِّ سَــاعَة

الْهُوشْ وِالاَطْيَارْ مِنْ غِيرْ عْدَادِ رَاقِ الْبــُرَاقْ يَــا احْـــبَابِي

***

نِخْتِمْ بِصْـــلاَتِي عْلَى نْبِـــينَا شْفِيــعْ الْعُصَــاةْ وَالْمُذْنِبِينَــا

مُولَى الاَيَـــاتْ طَــهَ الْهَــادِي نُــورِ الآفَـــاقْ يَا احْبَـــابِي

ويظهر مما أوردنا أن الطريقة الطيبية في الأصل شاذلية ليس لها آلات، ثم دخلت الآلات للرقص وإظهار أن الطريقة لا تختلف في الطرب عن الطرق الأخرى للفرجة وجلب الناس كالزنوج، وتشبهها بالطرق التي هي من أصل قادري.



الطريقة التهامية
فرع عن الطريقة الطيبية

نسبة إلى مولاي التهامي ابن عبد السلام بن الحاج العربي بن أحمد بن مولاي الطيّب الوزّاني الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري أي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي. وهو ثالث إخوة خمسة، إذ أن مولاي عبد السلام بن الحاج العربي الوزّاني كان له خمسة أبناء: ثلاثة منهم أشقاء وهم مولاي العربي بن عبد السلام بن الحاج العربي الذي قاد الجماعة الطيبية حتى سنة 1892م. الثاني مولاي محمد والد مولاي أحمد بن محمد ابن عبد السلام بن الحاج العربي الوزّاني قائد الجماعة الزمني وهو المتوفى في 29 أكتوبر 1895م، وأخوه علي. والثالث هو مولاي التهامي الّذي لم يرد ذكره في الطّيّبية إلا في شجرة النسب. وها هو مستقلّ بفرع باسمه الخاص. والابنان الباقيان لمولاي عبد السلام هما من زوجته الإنقليزية وهما مولاي علي ومولاي أحمد. ولم يكن لهما ذكر في الطريقة إلا الانتماء للعائلة، ولعلّ دورهما كان سياسيا خفيا وليس صوفيا ظاهرا.

أخبار الطريقة : يظهر أنّ الطريقة الطيبية، لمّا فقدت نفوذها وخلفتها الجماعة الدرقاوية، وجدت ككلّ الفرق الصوفية ملاذا في مدينة نفطة وتوارت باسم "التهامية" عن أعين الفرنسيين والإنقليز في ذلك الوقت، فدخلت الجريد التونسي عن طريق عائلة

(بوراس)، وركّز دعائمها بمدينة نفطة الولي الصالح (سيدي الحاج)، ووجدت صدى كبيرا في عرش (بني يزيد). وقد تكون الزوايا التهامية بتونس والقيروان وتوزركلها انطلقت من نفطة. وتبعا لاضمحلال الأم اضمحلّ الفرع "التهامية" حتّى قيّض الله له الشيخ المريد محمد السعدي فلمّ شتات المريدين وبعث الطريقة من جديد في فرقته الحالية، وأخذ يدربها على الإنشاد.

أصول الطريقة : التهامية كبقية الطرق الصوفية طريقة تربية، ومقرها الديني الذي ترجع إليه هوالمعروف بسيدي الحاج، وهو عبارة عن مسجد وروضة قرآنية عريقة أسّست لتربية النشء، ويعتبر سكان الحي من الكهول والشيوخ مريدين وأتباعا لهذه الطريقة. وللتهامي أو المريد ورد يومي صباح مساء من استغفار(100 مرة) وتسبيح (100 مرّة) وتصلية (أي صلاة على النبيء): (100 مرة) وأمّيّة (أي: اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم) (100 مرّة).

طريقة العمل : تتميّز التهامية بأمداحها وأذكارها المتعددة الأغراض ففيها التعليمي من توحيد وغيره، وفيها الصلاة على النبيء ومدح شيوخها، وفيها الوعظ والدعوة إلى الاستقامة والزهد وهي في ذلك لا تختلف عن الدرقاوية أو الرحمانية، ولكنها ذات علاقة وطيدة بالشاذلية ولها حلقة ذكر تسمّى "الشاذلية". وألحانها بسيطة يغلب عليها الطابع الغربي، وكالشاذلية لا تستعمل الآلات بل تعتمد على الأداء الصوتي والجماعي ولها في ذلك أربع مراحل هامّة:

1 - أثناء الحركة من الزاوية إلى مكان السهرة : تكون الحركة منظمة صفوفا كما رأينا في الطيّبية، ومرتبة بالسن الأكبر فالأصغر، وتمشي الكوكبة بتؤدة تحفّها الشموع أوالقناديل وهي تردد هذا الذكر :

لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهْ   مُحَمَّدْ رَسُولُ الله

لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهْ   تْـوَحَّدْ يَا غَافِـلْ

2 - عند الدخول : يقف الجميع في حلقة كبيرة وسط فناء الدار أو الزاوية ويسلّمون على أهل المكان :

الله * سَلاَمْ عَلَــيْكُمْ * الله * ورحـــمـة الله

اللّه * تقبّلُوا مَنْ جَاكُمْ * اللّه * زايــركـــم اللّه

اللّه * يا مَرْحَــبَا بِكُـمْ * اللّه * يَامَنْ جَــانَا اللّه

اللّه * مولاَنَا يُجَازِيكُـمْ * اللّه * الْمَقْصُودْ هُوَ اللّه

يِسْقِينَـا ويِسْقِيــكُمْ اللّه مِنْ حَوْض الْعِدْنَــاني

يِسْقِينَـا ويِسْقِيــكُمْ اللّه مِنْ حَوْضِ رَسُولِ اللّه

3 - أثناء السهرة : تفتتح السهرة بالفاتحة، يليها قصائد يرددها المريدون بالتناوب مثل هذا القصيد في التوحيد :

ا للّه ا للّه ا للّه لاَ إِلَـــهَ إِلاّ اللّه

بِاسْمِ اللّه وَبِاللّه جَـلَّ وَ الْحَمْـدُ للّه

وَالصَّلاَةُ دَائِـمًا عَنْكَ يَارَسُولَ اللّه

هُوَ السَّاسِ الْمَشَيَّدْ * بُنْيَانْ بْلاَ سَاسْ يِفْسِدْ * مَنْ لاَ يَعْــرِفْنَــا يِبْعِدْ * لاَ يِطْـلَـعْ بُنْيَــانْ عَـلاَّهْ

وَاجِبْ عَلَى الْعَــاقِلْ * اَلْجَايِزْ وَالْمُسْتَـحِيـلْ * فِي حَـقِّ اللّهِ الْجَلِيـــلْ * فَــــرْضْ عْلَى الْمُومِـنْ يِقْرَاهْ

اَلْمُقَلَّدْ قَالُوا فِـــيهْ * لاَ هُومُـؤْمِــنْ بِإِيمَانُه * وَلاَهُوَ كَـافِـرْ بْكُفْـرُه * غَــــافِـلْ وَالتَّقْلِيدَ عْمَاهْ

نِقْتَنِعْ بِالْمَحْمُودَاتْ * عَلَى نَهْجِ الْمَحْمُـولاَتْ * أَنَا جَايِبْ وَزْنِ الأَبْيَاتْ * لاَ يِشْـكِلْ عْلَى مَــنْ يَقْــرَاهْ

طالع آخر : ولعل من الطريف فيه تضمين تاريخ نظم القصيدة وهو وسط شعبان 1294 هـ أي في أواخر القرن التاسع عشر :

لاَ إِلَهَ إِلاّ اللّه رَبِّي وَاحِدْ لاَ ثَاني

خَبْـرِي لله يَــا رَبِّي * اَلْوَحْش رَنَّ عْلَى قَلْبِي * عَلَى شَـيْخِي الْمُـرَبِّي * الطَّيِّبْ سَاكِنْ وَزَّانْ

ذَاكَ هُــــوَ مُنَـــايَا * بِهِ يُقْـــبَلْ دُعَـايَـا * وهو نِقْـمة لِاعْدَايَا * وَاهْلِ الشّرّو العصيان

هو عِزّي وَفــخري * هو كَنْزي وذخــري * في الْبَرّ وفي البحـْرِ * سِرُّه ظَـــاهِـرْ عِيَانْ

قَدْ قَالَ بِلِـسَــانَه * يَا سَــعَادَةَ مَنْ جَانَا * وجَازْ لْدار الضَّمَانَة * تُحْـرُمْ عَنْـهُ النّيرَانْ

وفِي يَوْمِ الْـحِسَــابْ * يَنْجَى مِنَ العــذابْ * وَيُسْقَى بِشَــــرَابْ * مِنْ عَـسَلِ الْوِدْيَـانْ

نَظّمت هذَا الْقَصِيدْ * فِي نَظْمِــهَا جَـدِيـدْ * يَوْمَ الْجُـمُعَة مُفِيدْ * فِي وَسَطْ شَعْـــبَـانْ

عَامَ أَرْبَعَ وْتِسْــعِينْ * وَأَلِـــفْ وَ مِـائَتَيْنْ * يَا مَنْ هُـوَ فَطِيـنْ * إِحْسِبْـهَا فِي الْعَدَّانْ

وَاغْـفِرْ لِـوَالِـدَيَّ * وَالْمُسْلِمِـينَ كُلِّيَــة * وَمـن حـاضـر إِلَيَّ * يِسْــمَعْ فِي الأَوْزَانْ

رَبّ صَـــلِّ وَ مَجِّـدْ * عَلَى الْهَــادِي مُحَـمَّدْ * هُوَ الْقُرَشِي الأَمْجَدْ * نسبــتُه مِنْ عَدْنَـانْ

4 - في ختام السهرة : على إثر القصائد تقوم حلقة الذكر المعروفة بالشاذلية لذكر اسم الجلالة (900) مرة (الله) يُذكر بأنساق متصاعدة من البطيء إلى السريع وخلالها يقوم منشد من المجموعة لإنشاد بعض أذكار الصوفية المعروفة مثل : (أَنْتُمْ فُرُوضِي وَنَفْلِي أَنْتُمْ حَدِيثِي وَشُغْلِي

يَا قِبْـلَتِي فِي صَلاَتِي إذا وَقَفْت أُصَلي[1]

شَرِبْنَا مِنْ كَاسْ الهوَى جِهَارا،

وَصِرْنَا بَعْدَ شُـرْبِهِ حَيَارَى،

دَعَانَا الحَالُ وَالْكَاسَاتُ تَجْلَى

حَسِبْنَا أَنَّ فِي الْكَاسَاتِ نَارَا،

فَمِنَّا مَنْ يَعِيش عَلَى وُضُوءٍ،

وَمِنَّا مَنْ يَعِيش على طَهَارَة،

1 البيتان لابن الفارض.

وَمِنَّا مَنْ يَعِيش عَلَى عُلُومٍ

وَقُرْآنٍ وَذِكْرٍ افْتِكَارَا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا محمّد وَعَلَى آله وأصحابه وأزواجِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

وتتميّز التهامية بما يُعْرَف بـ(الدلالة) وهي عبارة عن مزاد يتزايد خلاله المريدون على عدد معلوم من صلاة النبي. ويفتتح هذا المزاد بأن يقوم أحد المريدين فيقول: (اَلْفَايْدَة وَالْعَايْدَة وَالْبَرَكَة الزَّايْدَة بَابَ الله فَتَحْ الْكَرِيمْ) ويتزايد كل واحد من المجموعة إلى أن يُرْسِيَ المزاد على أحدهم وعليه إتمام ذكره تلك الليلة . وتختم السهرة بالفاتحة وبهذه الصيغة ثلاث مرّات :

مَنْ دَخَلْ حَضْـرِتْنَـــــا يِبْرَى وِيرُوحْ قَلْـــــبُه مُسْتَـامِنْ

مَنْ جَانَا نْحَاسْ يَرْجَــعْ فُضّــــَة سِيدِي رَسُولِ الله هُوَ الضَّامِنْ

مَنْ دَخَلْ حَضْرِتْنـــــــا يِبْرَى وِيرُوحْ قَلْــــبُه مُسْتَـامِنْ

مَنْ جَانَا نْحَاسْ يَرْجَعْ نُقْرَة (أي ذهب) سِيدِي رَسُولِ الله هُـوَ الضَّامِنْ.

وهذه قطعة تبرز سلسلة التهامية :

سَأَلْتِكْ بِجَاهْ أَشْيَاخِكْ وَأَجْــدَادِكْ وَأَشْبَالِكْ

وَ كُلِّ وَلِي صَــالِــحْ عَارِفِ الْـمَسَـــالِكْ

يَا مُولاَيَ عَـبْـدَ الله الشَّرِيـفِ الْحَسْنَـاوِي[1]

وَأَبُو الطَّيِّب الْمِنْسِكْ[2] نُورِ الْــوَجْهْ ضَـاوِي

يَاسِيدِي بِيـكِ نْبَاهِي الأَهْــلِ وِالْجِــيرَانْ

التُّهَامِي[3] بْحَرُه زَاخِـرْ طَـافَحْ مِلْــيَانْ

1 هو الجدّ الأول مؤسس الطيّبيّة بعد الانسلاخ من الجزولية.

2 أبو الطيب : هو الطيب بن محمد بن عبد الله المنسوبة إليه الطريقة الطيبية

3 التهامي : صاحبنا مؤسس الطريقة التهامية وهو ابن عبد السلام.

يَاشَيْخِي عَبْدِ السَّـلاَمْ يَا سَاكِـــــــنْ وَزَّانْ

يَا صَاحِبِ التَّصْرِيـفِ الْكَـاينْ فِي هَذَا الزَّمَانْ

بِجَاهْ أَبِيـــكِ الْعَـرْبِي[1] صَـــاحِـبِ الْمَـــزَايَا

أُنْظُرْ لِي بْعَيْنِ الرَّحْمَـة يُسْـتَـــجَابْ دُعَـايَـــا

1 العربي : هو والد الشيخ عبد السلام وجدّ الشيخ التهامي.

الطريقة العمّارية

نسبة إلى سيدي عمّار بوسنة[1]

الشيخ المؤسس : تنتسب الطائفة العمّارية إلى سيدي عمّار أبي سنّة صاحب الكرامات وخوارق العادات الشهير المولود حوالي 1123 هجرية (1712 م) بزمالة بن مراد من مقاطعة وادي الزناتي بالجزائر. وهو أصيل أسرة ولي منتسبة إلى مقدّم القادرية.

أحيط سيدي عمار بوسنّة بهالة من الاحترام والتقدير منذ ولادته تبعا لتنبّئ بعض أتباع سيدي عبد القادر الجيلاني بمجيئه إلى الدنيا وتحقيق وقوعه بوصفه من أكبر المتحمّسين لنشر طريقته. وقضّى عمّار كلّ شبابه في الجبال المجاورة غارقا في عزلته يعيش مع السباع الضارية والوحوش الكاسرة عرضة لتقلبات الطقس والبؤس والتقشف إلى أن انغمس في التصوف وأصبح درويشا متصوّفا بأتمّ معنى الكلمة. ولم يلبث أن ظهرت على يديه عدّة خوارق وكرامات فتجمّعت حوله فرقة لا يستهان بها من الفقراء الّذين أقاموا قبره عند وفاته بـ(بوحمام) قبيلة بني قايد بجهة نشماية، وأقاموا عليه قبّة أصبحت فيما بعد الزاوية الأم للجماعة.

الطريقة وأخبارها : يذكر"كوبولاني" أن سيدي عمّار بوسنّة انطلق سنة 1715م في

1 نترجم بتصرف عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ابتداء من ص356.

إحياء طريقة الحشّاشين بجهة قالمة[1]، وهي دعوى تتعارض مع ما أثبته من سنة ميلاد الشيخ، فلا يعقل أن يكون الشيخ عمّار بوسنّة يمارس هذه الطريقة وهو ابن ثلاث سنين. ويواصل"كوبولاني" فيذكر أن الشيخ عمّار كان يقدّم "الكيف" لأتباعه، وهو مخدّر شبيه بالبُنج لدى الهندوس ودراويش آسيا الوسطى [الذي يأخذونه من نبات القنب، ويظهر أن الكيف لدى العمّارية هو نبات التكروري] فيبلغون به درجة الانتشاء، ويعتقد العامّة والمرضى أنفسهم أنّ ذلك المخدّر هو تبغ مقدّس أعطيت مزاياه العجيبة للشيخ عمّار في رؤاه العديدة، وتحت تأثير موسيقى القصبة والبندير والرقص يصل فقراء سيدي عمار إلى درجة من الانتشاء تقف معها شعورهم وتتفتّح أعينهم واسعة ويتسمّرون وترتخي أعصابهم، وبمساعدة ذلك التبغ يسقطون في تشنجات عصبية على هتافات المتفرجين وزغاريد النساء. لكن يظهر أنّ ممارسات طريقة "سيدي عمّار" لم تنطلق إلا حوالي 1815 ميلادية، أي مائة سنة بعد تاريخ كوبولاني، ففي تلك الفترة قدم إلى مدينة الجزائر زنجي من متساكني مكناس هو الحاج مبارك

المغربي البوخاري[2] سليل عائلة المرابطين البخاريين، واشتغل إسكافيّا لمدّة، ثمّ واصل طريقه إلى مكّة المكرّمة. وكان كعادة الحجّاج يزور الزوايا التي تعترضه في طريقه فيعتني بالنزول في هذه الأماكن المقدّسة للتزوّد بقُوى جديدة من راحة وزاد والجلوس إلى حلقات العلم، فلفت انتباهه ببوحمام التوقير والاحترام الذي يُبديه السكّان لسيدي عمّار بوسنّة، ولاحظ غياب الانسجام بين أتباع هذا الولي. وهكذا قرّر أن ينهي رحلته لكي يؤلّف جمعية من هذه العناصر المتفرقة ويستقرّ بمقام الولي. وسرعان ما انتشر عنه الخبر بكرمه وإخلاصه وتفانيه وأصبح له عدّة أتباع وأعلن نفسه الخديم الورع لسيدي عمّار بوسنة. وتبعا لتوسّلاته الملحة وتضرعاته الخالصة تحصّل من الوكيل على الشرف العظيم المتمثّل في حمل الماء على ظهره من عين تبعد عن الضريح مسافة كيلومتر كامل لسقاية الحجيج. هذا التفاني والإخلاص مكّناه من عديد الامتيازات من بينها

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص160.

2 الحاج مبارك المغربي البخاري من سلالة السودان الذين جلبهم من المغرب إلى مكناس السلطان مولاي إسماعيل، والذين وُضعوا تحت رعاية الولي سيدي البخاري وكوّنوا هذا الحرس السوداني الخاص بالسلطان دون أي صلة بالرعية الأهالي من العرب أو البربر، والذي أصبح قوّة عظيمة لسلاطين المغرب. وعاش الشيخ مبارك 110 سنين وهذا العمر الطويل استغله الأتباع في مآربهم المادّية. انظر ترجمته لدى كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية في الهامش ص356.

مراقبة الولائم (الزرد)[1] التي يقدّمها المؤمنون مرّتين في السنة على شرف أبي سنّة.

وأكسبه هذا التعلّق بالولي مكانة في نظر الأصحاب، غير أن دهشتهم كانت عظيمة عندما علموا سنة 1820 ميلادية أن هذا الزنجي المغربي تحصّل على كرامة الخوارق وأنّه يهيئ نفسه لمواصلة ما بدأه سيّدهم، فأقبلوا عليه جماعات إلى بوحمام مصحوبين بالأحباء المتحمّسين من القطر الجزائري والقطر التونسي. وبعد أن قدّموا أضاحيهم من أجمل ثيران قطعانهم طلبوا من سيدي الحاج مبارك أن يُطلعهم على التجلّيات التي أظهرها له سيّدهم ؛ واستمعوا بكامل الخشوع إلى خبر الرّؤى التي كشفها سيدي الحاج مبارك، تلك الكشوفات التي أمدّتهم بالبرهان القاطع على حقيقة تصوّفه وعزيمته القوية ورقيته النافذة من القدرة الربانية الخالصة التي تلقاها بإرادة سيدي عمّار.

وقوبلت تصريحاته بالابتهاج وأعلنوه (خديم سيدي عمّار بوسنة). لكن طموحه لم يقف عند هذا الحدّ

فاختار أكثر مستمعيه حماسا له وطاف بهم كامل القطر الجزائري والقطر التونسي وجزءا كبيرا من طرابلس.

وخلافا للأساليب المستعملة قبله، نصّب في كلّ من المراكز الهامّة التي زارها، فقيرا من الموالين له وخلع عليه لقب (خليفة) ومهمته انتداب المريدين. هذه المراكز التي أصبحت أماكن للدعاية وقع اختيارها بكل عناية: تارة في غرفة متواضعة يتم تسوغها في الأماكن الأكثر ازدحاما وترددا في المدن الرئيسة بالجزائر أو تونس، وتارة يأمر ببناء كوخ (قربي) في مكان محترم حيث يقدّم الخلفاء الضيافة الحسنة للمسلمين الّذين يتوقّفون عندهم وحيث يتفرغون إلى ممارساتهم.

في سنة 1830 قام سيدي الحاج مبارك بحجته الأولى، ومكّنته هذه الحجة من الالتقاء بعدّة دراويش من الشرق الّذين يعتبرونه من رجال الدين الأكثر تأثيرا. وعند رجوعه أعاد من جديد تطوافه وجولاته بأذكار سيدي عمّار والتي أضاف إليها في سبيل الدعاية

---

1 زرد جمع زَرْدَة : وهي الوَليمة، وهي كلمة تركية وتطلق الآن باسم أحد الأولياء (زردة سيدي مزهود) و(زردة سيدي علي بن خليفة) وهي أيام سوق واحتفالات تقام وتذبح فيها الذبائح ويطعم فيها الناس، ويقام ببعض الاستعراضات الفنية، وتقع فيها عدّة فوائد اجتماعية واقتصادية وحتّى ثقافية، فهي في الحقيقة سوق لتبادل كل ما يمكن تبادله.

له بعض آيات القرآن التي نقلها عن أذكار الطائفة العيساوية التي أصبح لها مقدما.

في سنة 1836 ميلادية قدّم بعض خدمات للبعثة الفرنسية الأولى لمقاطعة قسنطينة، وجازته على ذلك حتّى تكسب حياده بأن قام اللواء يوسف ببناء زاوية وقبّة له على بعد بعض الكيلومترات من ڤالمة على سفح جبل ماونة، وعرفت هذه الزاوية بعين الدفلة وأصبحت فيما بعد محل إقامته العادي. من 1840 إلى 1870 ظهر سيدي الحاج مبارك بالإضافة إلى حماسه الديني بأنه سياسي ماهر.

حجّ ثماني مرات، وفي كلّ مرّة يرجع بإجلال وإكبار عظيم من أتباعه الّذين يتزايدون يوما بعد يوم. وارتحل إلى المغرب مسقط رأسه ودرس ذكر الجنزلية بالزاوية الأم بدادس وتحصل على إجازة المقدّم من أكبر شيوخ الزاوية مولاي إدريس. هذه الشهرة التي تحصّل عليها جعلت أتباعه المتعصبين له والمتحمسين لتنبّؤاته وأقواله يرفعونه عند رجوعه على الأعناق رفع الانتصار من ڤالمة إلى بوحمام في غضون شهر ماي 1876 م. في تلك الفترة طلب من السلطات أن يبني حجرة بضريح سيدي عمار بوسنة حيث نوى أن يستقر، ولكن السلطات رفضت طلبه لأسباب سياسية. وعندما رجع إلى بوحمام كانت السلطة بيده دون غيره، وأخذ الوكيل يقدّم له هدايا وقرابين الأتباع وهو يعتني بصيانة المقام.

وطلب منه معارضوه من أتباع سيدي عمّار بوسنّة الّذين كانوا يعترفون بخصائله ولكنهم رفضوا إعطاءه قسطا من الزيارة التي يقوم بها الزائرون كما يقع في كلّ التنظيمات الدينية عن طريق امتحان عسير، وطلبوا منه الورد واعترفوا له برئاسة الجماعة وهكذا تأسس هذا التنظيم سنة 1882م.

أصول الطريقة : للعمّارية زاوية بتونس الحاضرة (على ما ذكره كوبولاني) وفرع أم بالكاف ويعدّون عدّة فقراء بالبلاد التونسية التي يذرعونها في كل اتجاه[1]. فبداية من سنة 1882م تاريخ تنظيم هذه الطريقة أي بعد البعثة الفرنسية إلى تونس وقع تأليف الذكر برعاية الشيخ سيدي الميزوني بالكاف الذي رأى في جماعة سيدي عمّار بوسنّة نواة لفرقة فرعية من القادرية التي هو من أهم مقدميها. واتبع سيدي الحاج مبارك نصائح سيدي الميزوني، وبما أنه كان أمّيا بالكامل كان مجبرا على إملاء الذكر على بعض خدامه

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 219.

الورعين الذي أصبح صهرا لابنه ورئيسا لطلبة الطائفة. وحُفظ هذا الذكر للأتباع الّذين يمتلكون الصفات الأساسية لبلوغ درجة المقدّم.

الذكر : لا يمتد تسلسل الشيوخ في هذه الطائفة بعيدا. فسيدي الحاج مبارك رئيس الطائفة لا تمتد سلسلته الصوفية إلا إلى سيدي عمار بوسنّة الذي هو نفسه تحت الرعاية الربّانية. ويدّعي بعض العلماء المنتمين إلى الطائفة منذ 1882 م أن سيدي عمار بوسنة لم يكن إلا قادريا متحمسا، ويضيفون إلى إجازة تقديمهم السلسلة الصوفية لسيدي عبد القادر الجيلاني رغم رأي سيدي الحاج مبارك المخالف ....

صفة الذكر : الحـــمد لله وحـــده   ولا يـــدوم إلا سبحـــانه

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلّى الله على الحبيب محمد

وهذه تقديمة الطريقة الواضح والأمور الصالح طريق سيدي عمّار أبي سنة نفعنا الله وإياكم بأمثاله آمين. وقد أخذها عليه سيدي الربّاني الكوكب النوراني الولي الصالح القطب الواضح سيدي الحاج مبارك بن محمد المغربي البخاري وقد أخذها عليه سيدي الطاهر بن علي بن غربية الهنداوي وهو يذكرها في كل ليلة ونهارا وهو يعبد الله سبحانه ولا إله غيره.[1]

الأوراد : ويأتي بعده الورد الذي ليس فيه شيء خصوصي غير تمجيد الله الذي نجده في كل جملة. فالعبارات التي استخرجت في الغالب من القرآن الكريم تتشابه مع ما نجده عند القادرية والعيساوية. ويفضّل الليل على النهار تبعا لتعاليم الشاذلية وتوابعها الذين يرون أن الصلاة بالليل أشدّ وطئا من النهار وأقرب للاستجابة .

ورد ليلة الأحد

يذكر فيها (لاحول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم) خمسمائة مرّة، فإن خلّصها صلّى أربعين ركعة لله. انتهت.

ورد ليلة الاثنين

يذكر فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم) ستمائة مرّة، فإن

1 نقلناها هكذا بأخطائها كما جاءت لدى كوبولاني الّذي نبّه إلى هذه الأخطاء دون تدارك .

خلّصها صلّى خمسين ركعة وهلّل بالقرآن بعض آيات. انتهت.

ورد ليلة الثلاثاء

يذكر فيها (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. اللّهُمَّ يا غياث المستغيثين أغثنا يا ألله أغثنا يا ألله) سبعمائة مرّة، فإن خلصها صلّى خمسين ركعة ونفّل بالقرآن. انتهت.

ورد ليلة الإربعاء

يذكر فيها (الحمد لله رب العالمين إلى آخرها) خمسمائة مرّة، فإن أتمّها صلّى أربعين ركعة ونفّل بالقرآن. انتهت.

ورد ليلة الخميس

يذكر فيها (لاإله إلا الله، لاغالب إلا الله، لاإله إلا الله عيسى روح الله. لاإله إلاّ الله موسى كليم الله. لاإله إلاّ الله إبراهيم خليل الله. لاإله إلاّ الله محمد حبيب الله وخير خلق الله. ويس إلى آخرها) سبعمائة مرّة، فإن خلّصها صلّى خمسين ركعة ونفّل بالقرآن. انتهت.

ورد ليلة الجمعة

يذكر فيها (كل شيء هالك إلاّ وجهَه له الحكم وإليه ترجعون، كل من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم) سبعين مرّة، فإن أتمّها صلّى ثلاثين ركعة ونفّل بالقرآن. انتهت.

ورد ليلة السبت

يذكر فيها (سور طه ويس والملك إلى آخرها ويصلّي عشرين ركعة وينفّل بالقرآن. انتهت.

***

و هذه طريقة الإسلام من عند مصباح الظلام شيخ الطريقة وإمام الحقيقة سيدنا وسندنا ومن على الله ثمّ عليه اعتمدنا سيّدي عمّار أبي سنّة نفعنا الله به. آمين. وهذه

إجازة الطاهر بن علي ابن غربية صانه الله. آمين. أوصيكم يا إخوان عليكم بطاعة الرحمن واذكروا الله وحده ولا تطيعوا غيره واذكروا الورد القايم في كل وقت ونهارا والله مجيب لمن دعا إليه. اذكروا: إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر سلام هي حتّى مطلع الفجر. وورد الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى آخره، والسلام المؤمن المهيمن إلى آخرها. والله على كلّ شيء قدير، وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد. في كل دبر الصلوات الخمس انتهت مؤلفة من الشيخ عمّار أبي سنّة بحمد الله).

وأخيرا تأتي الوصايا الأخيرة التي توصي المريدين بتلاوة سور من القرآن الكريم في أي وقت من اليوم. وعندما يتمكّن الأتباع من تعليم الذكر يتحصلون على لقب مقدم ويكلّفون بإدارة زاوية. وعلاوة على ذلك يتأكّد أن يكونوا تابعين وقدّموا لمدّة سنوات عديدة الدليل على تعلُّقهم وتحمّسهم للطريقة. ويقع التبريك عادة بالزاوية الأم بحضور أبرز المستحقين من الطائفة، فيوضع المترشّح في حالة خشوع أمام الشيخ يستمع إلى واجباته الجديدة بينما يقوم أحد الطلبة بتدوينها بصحيفة تكون هي الإجازة. ثمّ يقدّم المترشح آيات الولاء والطاعة ويتحصّل علاوة على الذّكر على سنجق سيدي عمّار بوسنّة والشّارة المقدّسة التي يجب أن تحفظ بكل عناية وخشوع بالزاوية التي سيقوم بإدارتها.

ولا يُطلب أي ضمان من الفقراء فهم في الغالب متعصّبون بوعي أو بدون وعي تحت الإدارة المباشرة للمقدّم الّذي لا يجد احترامه لدى العلماء بينما يحظى لدى العوام بكل تقدير.

تنقسم الطائفة إلى ثلاثة فروع على رأس كل واحد منها شيوخ مستقلّون: مقام سيدي عمّار بوسنّة الكائن ببوحمام قبيلة بني قايد (نشماية) بإدارة سيدي الحاج مبارك عين دفلة بقالمة، بالنسبة إلى قسنطينة والجزائر، وزاوية أدوق بالقبايل المقامة لذكرى الشيخ أحمد بن بلقاسم وزاوية الكاف (تونس) التي كان يديرها سيدي رمضان الكلاعي، وزاوية أخرى بالدندان.

وتنطبق هذه المعلومات على أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كما ذكرها"كوبولاني" و"ديبون"، أمّا في أيّامنا هذه فالحديث قلّ عن هذه الطائفة ولم نجد منها سوى فرقة أو فرقتين بالجمهورية التونسية.

وفِي حديث لصالح المهدي[1] أعلم أنّ للعمّارية زاوية "سيدي عمّار" وتوجد بنهج الرابطة، وقال: " وكنت أحضر، ولهم آلات ڨصبة وأحيانا ڨصبتين وبنادر ومجموعة بالڨنادر[2] وشاش ويشطحون بالأكتاف وكلّ جمعة لهم ميعاد ".

أمّا الآن فمقدّم فرقة العمّارية بالهدّاج (وهي قرية تبعد حوالي ثلاثة عشر كيلومترا عن مطماطة الجديدة بولاية ڨابس)، هو السيد عمر بن أحمد فطّوش من مواليد 18 جويلية 1951 وهو يصرّح في حديث معه أن هذه الفرقة لاتعمل إلا الأعمال الخيرية ذات الصبغة الدينية أو العقائدية في مبيتاتها. وللعمارية زاوية "سيدي عمّار" بالهدّاج وقد تستدعيهم بعض الزوايا الأخرى فيقومون بحفلات الختان أوخروج الحاج أورجوعه من البقاع المقدّسة، ويخرجون لدورة المطهر (جولة المختون) ولكنهم لا يخرجون للأعراس فهم لا يعتبرونها دينية، ولا يقومون بسهرات ولا استقبالات.

طريقة العمل : يذكر"كوبولاني" أن الشيخ عمّار بوسنّة هو الّذي أحي طريقة شيوخ الجبل فأعاد طريقة الحشاشين في ڨالمة فكان يثير في أتباعة النشوة بمدّهم بـ"الكيف"وهو نوع من المخدّر مثل "البنج" لدى الهندوس ودراويش آسيا الوسطى. وعن طريق أصوات القصبة والبندير والرقص يندفع فقراء العمارية فتقفُّ شعورهم وتجحظ أعينهم ويتسمّرون وتتشنّج أعصابهم بتدخين هذا التبغ السحري فيتساقطون طرحى تحت تصفيق الجماهير وزغردة النسوة المعجبات بهذه الفرجة[3].

وما وصلنا أيضا من عملهم هو الاحتفال بتسمية مقدميهم كما ذكره "كوبولاني" ورفيقه وهو أن يقع احتفال كبير عندما يقع انتداب فقير أو أكثر، فيفسح المقدم والطلبة والآخرين مكانا للخلفاء المكلفين بمراقبة الإختبارات الصوفية التي يخضع

---

1 حديث أجراه الأستاذحسين الحاج يوسف مع الدكتور يوم الاثنين 17 فيفري 2003.
2 الڨنادر جمع ڨندورة (بالجيم المصرية gu)وهولباس خارجي بين الجبة والجلباب مشهور كثيرا بالجزائر والغرب التونسي.
3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 160.

لها المترشحون. فإن حكم بأهليتهم لممارسة ما يجب على الأعضاء العاملين بالطريقة، يغطيهم الشيخ بالتناوب بسنجق "سيدي عمّار بوسنّة" كما يعزف المنشدون القصبة والبندير. ويتلقون فيما بعد تسمياتهم بمراكزهم وتبعا لاجتهادهم الذي يسجّلونه في الطريقة الصوفية يرتقون باقتدار إلى الخلافة. وفي حديث للشيخ رجب[1] مقدم فرقة الطريقة العمّارية السابق ببلدة الهدّاج، يذكر الشيخ أن الطريقة نقلها إلى منطقتهم الشيخ عيّاد الّذي أخذها عن الشيخ الحاج مبارك البخاري من قالمة وآلاتها زرنة وثلاثة أو أربعة بنادر وشقاشق (وليس لهم دربوكة ولاغيرها)

ويلبس أعضاء الفرقة اللباس التونسي الأصيل الجبّة والشاشية وملحفة على الرأس أو عمامة، بينما يلبس الراقصون قندورة جزائرية وعمامة بيضاء على الرأس بذؤابة متدلية إلى الخلف على النمط الجزائري، ويستعملون الصفّ في رقصهم فيكوّنونه من ثمانية إلى عشرة ومعهم شاوش.

ويمتاز رقصهم بارتعاش الكتفين على الطريقة الجزائرية فإن اختمر أحد أخذه راقصان وأخرجاه من الصفّ ثمّ رجعا.

أمّا ما يقومون به في المنازل فهم يدخلونها بقرع البنادر ونفخ الزكرة دون غناء، وعندما يدخلون يقرؤون فاتحة الكتاب ويشرعون في قراءة الأحزاب، فيعملون حزب (اللطيف) عند المرض وحزب (الفلاح) من الطريقة العيساوية. ويروي الشيخ عمر فطّوش نفس رواية سابقه، أنّ الّذي أتاهم بهذه الطريقة هو الشيخ عيّاد الّذي أخذها مباشرة عن الشيخ مبارك البخاري من قالمة.

ثمّ يشرعون في الأمداح بالبنادر والزكرة وهي أمداح في جلّها قادرية مثل :

أَزْكَى صَلاَةِ اللهِ الدَّايِمْ

آه آه يَـــا بُـــويَ بُـــويَ   مَا جَاشِي عَبْدِ الْقَـادِرْ

سُلْطَـــانِ كُلِّ الاَوْلِـيَاء   والشَّيْـخْ سِرُّه حَـــاضِرْ

مَا جَاشِي قُطْبِ الْحَضْرَة   مُولَى الاِشَارَة الْخَضْــرا

1 بحث ميداني قام به الأستاذ حسين بلحاج يوسف.

جَلُّولْ مُولَى الثَّغْرَة   مِنْ نَسْلِ طَـهَ الطَّاهِرْ
يَا شَيْخِي هَبْ لِي نُصْرَة   مَوْلاَيَ عَبْدِ الْقَادِرْ[1]

ثمّ يقومون بأمداح من العيساوية، فهم يعتقدون أنّ الشيخ عمّار بوسنّة تلميذ من تلاميذ الشيخ بن عيسى ومن أتباع الجزولية.

الحضرة : يقدّمون فيها أورادا من مدحات العيساوية مصحوبة برقصات الصفّ وهو رقص جزائري بحت بلباس جزائري (قندورة وعمامة) ويعتمد ارتعاش الأكتاف، ومن هذه المدحات.

يَا لَطِيفًا لَمْ تَزَلْ   اُلْطُفْ بِنَا فِي مَانَزَلْ

وهي تُؤَدّى مدحة بالصف (أي بالرقص).

الرقص : لهم عدّة رقصات منها :

رقصة المنجل : يحمّى في النارحتّى يحمرّ ثمّ يُلعق باللّسان.

رقصة العقرب.

رقصة الأمشاك : وهي الإبر أو الأشافي التي يُشكّ بها البدن في الحنك أوالبطن أو غير ذلك من الأماكن.

رقصة النفّة : وهو نوع من السعوط يقدّم لمن أراد ذلك في غمرة الرقص.

ثمّ يأتي عزف على البنادر والزكرة من نوع الغربي ثم العمّاري (وهو مثل الدرّازي) ينتهي به الحفل بدون غناء وتكون معزوفات راقصة مثلما رأيناه لدى طريقة الشيخ عبد الملك السنّي. ثمّ يأتي إيقاع جربي ينتهي بالعجمي مصحوبا بالرقص دون غناء.

وهذه النهاية بالعجمي (أي بالإيقاع الزنجي) وهو رقص الجذب، توجهنا للاعتقاد بأنها من محدثات الشيخ مبارك البخاري لأنه زنجي وهو ينسبه إلى شيخه عمار بوسنّة لحثّ الراقصين، والمعروف عن الزنوج محبّة عظيمة في الشيخ مبارك.

---

1 هو مطلع قصيدة من تأليف الشيخ محمد الإمام المنزلي تتركب من 18 بيت مسدسة، هكذا جاءت في السفينة القادرية، نشر مكتبة المنار، تونس.

الطريقة الخلوتية

نسبة إلى محمد الخلوتي الفارسي الأصل

الشيخ المؤسس : الطريقة الخلوتية تنسب إلى الفارسي محمد الخلوتي الذي عاش فيما يظهر في القرن الثامن للهجرة أي القرن الرابع عشر للميلاد، وظهرت طريقته في تبريز من أذربيجان الإيراني، وسمي "الخلوتي" لأنه كان كثير الخلوة والعزلة، وقد أخذ عن شيخه إبراهيم الكيلاني عن جلال الدين التبريزي عن شهاب الدين الشيرازي عن محمد النجاشي عن الأبهري عن أبي نجيب السهروردي عن عمر البكري عن القاضي وجيه الدين عن محمد الدينوري عن ممشاد الدينوري عن أبي القاسم الجنيد عن السري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن الحبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب. ويُقال إن الخلوتي كان من أتباع الطريقة السهروردية، وأخذ التصوف عن إبراهيم الزاهد، ثم استقل بطريقته، وتفرغ لجمع الأتباع وتعليم المريدين.

" ولكن إن كان صانع المعجزات هذا هو بطريقة ما مؤسس هذه الطائفة، وإن صلحت ممارساته كأساس للنظريات من الوجهة الأصلية للخلوتية، فإن تلميذه عمر الخلوتي[1] المتوفى بقيصرية [من مدن آسيا الصغرى (تركيا حاليا)] (سنة 800 للهجرة 1397

1 ذكرت لطيفة الأخضر في كتابها "الإسلام الطرقي " نشر دار سراس في الصفحة 46، أن عمر الخلواتي تلقى تكوينه عن أستاذه محمد الفارسي، وتولدت عن الخلواتية منذ 1397م طرق عديدة كانت الرحمانية آخرها.

- 1398 للميلاد) الذي يجب اعتباره المؤسّس الواقعي للطائفة. ففي الشرق يعزى لهذا الأخير الفضل في التأسيس، وفي بعض المؤلفات الخاصة بالفروع المنبثقة عن الخلوتية، يقدّم بصفته المنظم للتعاليم التقليدية التي مع الممارسات الانتشائية الخاصة بالفارسي محمد، تميّز نظريات مدرسته."[1] وخلفه على ذلك بيرم الخلوتي وعز الدين الخلوتي وبدر الدين الخيالي ويحي الشرواني ومحمد الأرزنجاوي وشلبي سلطان وخير التوكادي وشعبان القسطماني وإسماعيل الجوروني المدفون بالقدس وسيدي علي أفندي كاناباش الذي أعطى اسمه الطائفة البكرية ومصطفى أفندي وخلفائه إلى سيدي البكري إلخ .....

الخلوتي وأشهرهم عمر الخلوتي، ومحمد الخلوتي[2]. وقيل إنها طريقة تركية ازدهرت في مصر إبان القرنين الثاني عشر والثالث من الهجرة، وتُنسب في مصر إلى الشيخ مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة 1162هـ.

أخبار الطريقة : يذكر"كوبولاني" أن هذه الطريقة تطورت بعد قرن من انتشار الطريقة القادرية فهي إذن من القرن السابع الهجري[3]، وتوقفت في القرن الثاني عشر عندما انحلّت تماما، ولم يبق منها سوى شذرات مثل التي بتونس والمنستير. وانتشرت الطريقة الخلوتية بشكل أساسي في مصر، ولها وجود في الأردن بزعامة الشيخ حسني الشريف، رئيس جمعية دار الإيمان. أما في فلسطين فنجد الطريقة الخلوتية القاسمية، ومن مؤسساتها كلية القواسمي في منطقة باقة الغربية.

من فروعها في مصر: الشبراوية، المحمدية، الجنيدية، السمّانيّة، الضيفية، العمرانية القبيسية، المغازية، الهراوية الحفنية، المروانية، الصاوية، المسلمية، العلوانية، الدومية، القصبية الغنيمية، القاياتية، البكرية، نسبة إلى محمد كوبلاي البكري، الهاشمية، الجودية، البهوتية، المصلحية، الدمرداشية.

أما فروعها في تركيا: فهي: الجراحية. الاغتباشية. لعشاقية. النيازية. السنبلية. الشمسية. الكلشنية. الشجاعية.

---

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 370.

2 يرجح أنه محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتي، وهو من أئمة الصوفية في خراسان في القرن العاشر الهجري، نشأ في بيت المقدس، ولكنه رحل منذ صغره إلى أقطار أخرى كثيرة ليبشر بدعوته، وتوفى في مصر سنة 986 هـ.

3 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 369.

أمّا بتونس وبالأخص المنستير، فنجد في وثيقة حبس الحاج حسين نويرة مؤرخة في 1205هـ [1790م] لدى العدلين عبد الله أبي عبده ومحمد محلّة والتي بين أيدينا نسخة مؤرخة في 1242هـ [1826 م] وهي التي أدرجها السيد محمد الحبيب نويرة في كتابه "وثائق حول مدينة المنستير" ما نصه:" ... وما فضل[من ريع الحبس موضوع الوثيقة] نصفه لأهل الطريقة الخلوتية المنسوبة للشيخ سيدي محمود الكردي نفعنا الله تعالى به آمين، الذّاكرين الله تعالى بالخلوة التي بالمسجد المذكور [وهو مسجد نويرة بالربط من مدينة المنستير] ولمن جاء زايرا من أهل الطريقة المذكورة المنتسب إليها حقّا، فيأكل من ذلك مدّة إقامته بالمنستير وملازمته للذكر بالخلوة المذكورة مؤونة معتادة وكذلك علف دابّته، والنصف الثاني لأهل الطريقة المذكورة بمدينة تونس المحروسة، يصرف ذلك في سماط عقب الذكر على نظر شيخهم".[1]

ويقول الصادق الرزقي:" وأفراد هذه الطريقة بإقليمنا قليلون جدّا حتّى أن عددهم لا يكاد يذكر، أما مبدؤها فهو موجود بعدّة طرق من حيث الأعمال التعبّدية والأوراد وشروط التلمذة وتربية النفس إلى غير ذلك ممّا حضّ عليه علماء الباطن، ولا توجد بقطرنا زوايا مستقلّة بهذه الطريقة ولا جماعة مخصوصة."

أصول الطريقة: يقول الصادق الرزقي في كتابه الأغاني التونسية "الخلوتية طريقة تربية وسلوك وزهد وتقشف وعزلة واعتكاف وتجرّد من متاع الدنيا وتصوّف بحت ".[2]

وتذكر مصادر الطريقة أن منهجها هو التطبيق العملي للشرع قولا وعملا وأخلاقا، وذلك بإصلاح ظاهر السالك وباطنه، وذلك بصحبة الشيخ الوارث المربّي الذي لا يكتفي بتعليم مريده أمور دينه بصورة نظرية بحتة، وإنما يأخذ بيده لتطبيق أحكام الشرع عمليا: فيثني عليه إذا أحسن، وينبهه إذا زلّ، ويتفقده إذا غاب، ويذكّره إذا نسي، ويزكّي قلبه إذا قسا ويحفزه إذا فتر، ويحنو عليه، ويحبه محبة الوالد لولده، قاصدا بذلك وجه الله تعالى، وبذلك يكتسب المريد الصفات الحميدة، ومعرفة الله، ويداوي عيوب وآفات نفسه.

1 محمد الحبيب نويرة، وثائق حول مدينة المنستير، مطبعة فرشيو المنستير، 14 أفريل 2011 . ص 29.
2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص. 106 و107.

وللطريقة الخلوتية أركان سبعة هي: الحب والامتثال والذكر والفكر والصمت والعزلة (الخلوة) والصوم (الجوع). وأصول هذه الأركان في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة آله وأصحابه والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين، كما أن للطريقة أورادا يومية راتبة وأورادا اختيارية يتم تلقيها وتلقينها من الشيخ المرشد لتكون زادا للسالكين في طريقهم إلى الله.

وتشبه طقوس الانضمام إلى الطريقة الخلوتية غيرها في باقي الطرق الصوفية الأخرى فصورة البيعة عند مشايخ الطريقة الخلوتية أن يجلس الشيخ جاثيا على ركبتيه والمريد أمامه كذلك، ثم يضع الشيخ يده اليمنى في يد المريد اليمنى ثم يضع الشيخ يده اليسرى بين كتفي المريد ويقرأ هو والمريد الفاتحة ثلاث مرات، ثم يقول الشيخ والمريد يردّد خلفه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله ومن الله وإلى الله وعلى ملة الصادق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه لا أنقض عقدها أبدا، والله على ما أقول وكيل. رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيّا ورسولا وبشيخك شيخا ودليلا إلى الله تعالى. عاهدتك بالله العظيم على أن الطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا، والله على ما أقول وكيل.

ثم يقول الشيخ للمريد: أغمض عينيك واسمع مني: لا إله إلا الله ثلاث مرات، ثم قل أنت لا إله إلا الله ثلاث مرات وأنا أسمع .. بعد فراغهما يقول الشيخ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[10 سورة الفتح]}. وعند الذكر في الخلوة المتمثل في قول "لا إله إلا الله" لا بد من ذكر الأسماء العشرة: هو، الحقّ، الحيّ، القهّار، الوهّاب، الفتّاح، الواحد، الأحد، الصمد، القيوم.

ومن أهم رموزها: مصطفى كمال الدين البكري الذي دخلت الخلوتية مصر على يده وأحمد بن محمد العدوي، الشهير بأبي البركات الدردير ومحمد الحفناوي.

طريقة العمل: تنقسم الطريقة إلى أبواب يقع تتبعها في العمل التلقيني وهي 1- باب

السند. 2- باب مراتب الطريق. 3- باب التلقين. 4- باب الأركان والأصول. 5- باب الذكر. 6- باب أداب المريد. 7- باب الخلوة. 8- باب تدريج الأسماء. 9- باب أداب النقباء. ولهم توصية توضح طريقة العمل، في لون القسيم المربع تنشد إنشادا وهي :

يا داخـلا في الزمــرة	تبــغي فتح البصيرة
إياك تــرك الحــضرة	صبــاحا ومــاسيا
هي صيــدك العزيز	هي كــنزك الإبريز
كــلام الله الــعزيز	حض عنــها نبيــا
لازمــوها يا إخـوان	تبـلغوا بها الرضوان
تمنحـــكم الغفران	تقيــكم البــلايا
هي حصـنه الحصــين	من دخــله أمــين
من عــــذابه المهين	في الآخـرة والدنـيا
تستــــديروا حلقة	تــذكـروا متفــقـة
من ثمـــاني رفقــة	والأقــل لا شيــا
إلى ثـــلاث عـشر	لا كـــراهة تحتضر
فهو الحـــد المشتهر	إلى مـــا لا نهــاية
زولوا اعوجــاجــكم	وســدوا فرجتــكم
و غلـــقوا بابـكم	تـــاركين للدنيــا
و ادخلـــوها فقـراء	ســاكـــنين وقـــرا
طالبـــين الحضـــور	تـــذكرون ثلاثمايا
فـألاول مـــــدهـــا	والشـــاني وسطـهــا
و الثالـــث قصّــرها	هكـــذاك مـــرويا

اذا كنـــت في الأول حرك رأسـك وتمايل
كأنـــك تخـــايل دائـــرة قـلبـــيا
تصعد بهـا من يميـن نفسـك يـا مسكين
تنزل بها باليـــقـين في الجـــهة اليسـاريـا
و إذا كنـت في الثاني حرك قلـبك غيزاني
وإلا رأســـك ضرباني علـــويـا وسـفـليا
و أعلم يا أخي المطلوب وضع الاسم في القلوب
يحصـــل به المـرغوب نـــوره والــنـــاريـــا
فنــــاره تخـليـــــا مـــن رذايـــل كلـيـا
و نـــوره تـحـلــيا بالفـــضـائل مـروية
خذوا مني ذا التفصيل يا مريدين التحصيل
إذا رمتـم التـــطويل زيدوا على الثلاثمايا
إن لم تبلــغـوا المراد في الأول يـــا زهـــاد
و أردتـــم الإمـــداد ....
إن وفيــتم فاسكنــوا كطـــيور حضـــنوا
و أرجـــوا ما تلقـــنوا واردا من مـــولا يـــا
حضوا عنها يـا إخوان هي روضـــة الجنـــان
خصوصا في ذا الزمان كثرت فيـــه الأهويا
شروطـــها يا مسكين عــدها قالوا عشرين
أدبـــات الذاكـــرين نـص عنها الصـوفية

خمس قــالوا قبلـها اثني عشــــر معهـا
ثـــلاثة بعـدهـــا هكـــذا قــد رويا
أولهـــا تـــوبـة ثــانيهـا طهــارة
ثـالثـهـا سكـــوت تجـعـل ذكـرك قلبيا
رابعـهـا الاستـــمداد بهمة شيخك يا مـراد
خامس ذاك الاستمداد تـــــراه من نبـــيا
جلوســك أولـــهـا في طـــهارة نقيـــة
ثاني تضـع راحتيــك يــا أخي في ركبــتيك
ثالـــث محل ذكرك بخــــره بالجــاوية
رابع لا تلـبس حرام خامس مكان الظلام
غمض عينيك يا غلام خيل صــورة شيخيا
ثامن قصـدك يا مراد سـو لسـانك والفؤاد
تـاسع اخلص تستعاد من الشـــرك والريــا
عـشــــرها الجلالـة اختــارها أهــل الملا
لا مثلــــها في الجلا في الأســماء الكلــيا
حادي عشر الاستحضار معنـى ذكرك المختار
الاستـغناء والافـتقار خذ معنـى الألوهيــا
و في حالـــة الأذكار فرغ ذهنك من الأغيار
و أكتــف بما يذكار عنــد أهل التربـية
لا معبــــود إلا الله لا مطــلوب إلا الله

لا موجـود سـوى الله	هكـــذاك مـرويـــا
فالأول للمبــــتدى	والمتوســط يحـــادي
و الأخـر سنـــــدي	قـالــوا للمنتهـيــا
ثاني عاشــر يا سالك	اِنْفِ غَيْرًا مـن قلبك
ســوى هو وشيخــك	رفيـــقك في التربيـة
فـهـــــذه مـعـــه	وثـــلاث بـــعـده
سكونك خشــوعـك	وارتقـاب الجانـــيـا
و الشـاني هو الازمـام	نفـــسك يا غــلام
من ثلاث إلى التـمام	همّـــتـك العلـيــا
و الثالث شرب المـــاء	مـنـعه العلـمــــاء
بعـد ذكرك الأسـماء	مطـفـيا للنــار يــا
تمت هـــذه الأدبـات	عشرين قالوا السادات

أما الحضرة فيجلسون في حلقة كما وجد في الوصية أعلاه وينشد أحدهم (الرسيم) بينما الآخرون يقولون أرضية بـ(لا إله إلا الله) بميزان بطيء وهم يتمايلون، ثم يسرع الايقاع فإذا بلغ حدّا معينا وقفوا للتراكع والتمايل، والألحان أغلبها تكتسي الصبغة التركية.

ومن تفرعات الخلوتية نجد الرحمانية والتيجانية اللتين كان لهما رواج بتونس.

الطريقة الرحمانية

هي من فروع الطريقة الخلوتية المشرقية[1]. ويذكر الصادق الرزقي في الصفحة 129 من (الأغاني التونسية) فيقول: " هذه الطريقة منسوبة للولي الصالح الشيخ سيدي أحمد زروق الهروي المتوفّى سنة 899 هـ. ولها شأن عظيم وأتباع كثيرون بالقطر التونسي، وجماعاتها متعددة أشهرهم (دار أبي حجر بالكاف) التي تعرف بزاوية سيدي علي بن عيسى، وجماعة (الشيخ محمد الصالح) بعمل باجة، وجماعة (الشيخ محمود بن عبد الحفيظ بالحاضرة) .." وفي هامش الأغاني التونسية للصادق الرزقي صفحة 106: "والرحمانية فرع من فروع الطريقة الخلوتية المشرقية أسسها محمد بن عبد الرحمان الزواوي (بوقبرين) المتوفّى سنة 1208هـ/1793م، ومن فروعها الزاوية البشيرية بتونس التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242 هـ وزوايا متعددة بجهات الجمهورية."

1 راجع كتابنا هذا بالهامش عن سلسلة إسناد الخلوتية، ص51. وتذكر لطيفة الأخضر في كتابها "الإسلام الطرقي" نشر دار سراس في الصفحة 46 أن عمر الخلواتي تلقى تكوينه عن أستاذه محمد الفارسي وتولدت عن الخلواتية منذ 1397م طرق عديدة كانت الرحمانية آخرها."فعلى هذا الأساس نحن نحاول استخلاص المنهجية في التأملات المرتكزة على تقنيات التأمل التي طوّرتها الرحمانية التي ترتكز على المبادئ التأسيسية للخلوتية التي رأت النور في تبريز في أذربيجان الإيراني حوالي نهاية القرن الرابع عشر الميلادي قبل أن تنتشر خصوصا نحو الغرب والجنوب الغربي في اتجاه الأناضول وحتى أبعد من ذلك نحو الجنوب الشرقي لأوروبا، وسوريا، ومصر، والسودان حتى جبال القبائل بالجزائر." عن الأنترنيت، الخلوتية.

الشيخ المؤسس: [يقول الشيخ مصطفى باش تارزي القسنطيني في شرحه للمنظومة الرحمانية المسماة بالمنح الربانية: إن هذه الطريقة الخلوتية لم يكن لها ذكر بالأرض المغربية، وإنّما أتى بها الشيخ خاتمة المربّين وواسطة عقد الأيمّة العارفين أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمان القجطولي الزواوي الأزهري مجاورة حين رحل من وطنه إلى مصر قاصدا تحصيل علم الشريعة والحقيقة، فجاور بالجامع الأزهر مستقرّا برواق المغاربة. ولازم علاّمة زمانه أبا عبد الله سيدي محمد بن سالم الحفناوي فلقّنه الأسماء السبعة وسلك على يده. ثمّ وجّهه إلى ناحية السودان لنشر الأوراد ونفع العباد. وبعد مدّة أمره بالرجوع إلى مصر فرجع وألبسه الخرقة وأمره أن يرجع إلى وطنه فامتثل، وذهب إلى وطنه واستقر بجبل "جرجرة" جبل بناحية الجزائر بينه وبينها مسافة قريبة من مائة كيلومتر في وطن يسمّى "قجطولة" من أرض "زواوة"، وأذن له في التربية وتعليم خلق الله ما هم مطالبون به من أمور الدين. فأخذ عنه جمّ غفير، وسلك على يده خلق كثير واشتهر في الأقطار ذكره وكثر أتباعه وحزبه.][1]

إذن، أسس الطريقة مَحمد بن عبد الرحمان القجطولي الجرجري الأزهري المولود حوالي 1126 - 1133هـ /1715 - 1728م، بـ"آيت اسماعيل" وكان أحسن تلاميذ الشيخ الحفناوي[2]. طاف ببلاد السودان داعية ومبشرا كما طاف جزءا من الهند والحجاز وتركيا، ناشرا في كل مكان مبادئ معلمه الروحي ومبشرا بها. ثم رجع إلى مسقط رأسه حوالي سنة 1183 هـ وقد سبقته أنباؤه وشهرته التي طبقت الآفاق وأخبار خوارقه وعلومه الباطنية وفضائله العجيبة التي تنسب إلى أتباع المدرسة الخلوتية، وجلبت له تنبّؤاته حماس الجماهير، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح مسكنه في "آيت اسماعيل" مقرا لوكالة إعلام ينطلق منها الأتباع إلى عشائر منطقة القبايل الجزائرية لنشر محامد أستاذهم الذي منّت عليهم به العناية الإلهية.

وقام الشيخ بزيارة مدينة الجزائر وأحوازها، وفي كل مكان كانت تعاليمه وخوارقه تجلب له إعجاب الجماهير واحترامهم، فلا حسد طوائف الأولياء الصالحين ولا فتاوي العلماء في تحريك نظام الحكم التركي للتصدّى له، استطاعت إيقاف هذا الزحف.

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص.ص 336و337

2 نقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص 382 - 413.

واندفع سكان "جرجرة" في تأييد صاحب البركات الشيخ محمد بن عبد الرحمان وجعله وليّهم القومي. وفجأة اختطفته يد المنون سنة 1208هـ[1793 - 1794] في الوقت الذي كانت طائفته في أوج تطوّرها. هذه الوفاة أثارت العديد من البيانات من أتباع الشيخ محمد بن عبد الرحمان، وقام أهل السهل يؤدّون واجب الزيارة إلى جبال "جرجرة" وأصبح ضريح الولي مكان لقاء الجماهير القبايلية التي أظهرت عدوانية وشراسة ضد النظام القائم. وتوجّس الأتراك من ذلك شرّا، وكي يتمكنوا من مراقبة الإخوان الرحمانية أخرجوا جثّة الشيخ التي دفنت بطريقة غير محكمة في "آيت اسماعيل" ونقلوها إلى "الحامة" وهكذا أصبح للشيخ قبران فسمي "بوقبرين"، وأصبح للطائفة الرحمانية زاويتان رئيستان الأولى بـ"آيت اسماعيل" بـ"جرجرة" والثانية بـ"الحامة" قرب "الجزائر". ويعتقد أتباع الرحمانية في وجود جثة وليهم المفضل في القبرين في نفس الوقت.

أخبار الطريقة : انتشرت هذه الطريقة الرحمانية على ما يظهر في عدّة أماكن حيث إن لها مسالك خاصة في أساليب الذكر والمديح ترجع كلها إلى مدار واحد للطريقة وهو الزهد والورع. إلاّ أن زاوية "جرجرة" تعتبر دائما هي الرئيسية في ترتيب الطائفة الرحمانية، وقد شهد للمديرين الذين تداولوا عليها بأنهم محل بركة سيدي مَحمد بن عبد الرحمان (بو قبرين) نفسه بمجرد حصولهم على قيادة الطائفة، ويروي محمد البهلي النيال: [عيّن الشيخ مَحمد بن عبد الرحمان خليفة له في قسنطينة الشيخ مصطفى بن عبد الرحمان باش تارزي، وعن هذا الأخير أخذ الطريق الشيخ محمد بن عزوز بجهة بسكرة. ولمّا احتلّت فرنسا بسكرة سنة 1843م التحق محمد بن عزوز بنفطة بعد أن أسس أصحابه بنواحي الجزائر خمس زوايا من بينها زاوية الشيخ علي بن عمر بطولقا[1]]، ثمّ تولّى مشيخة الزاوية المركزية بجرجرة الشيخ المغربي "علي بن عيسى" [المتوفى سنة 1252هـ] وهوالذي تنسب إليه (دار أبي حجر بالكاف) وقد وقعت تسميته بحياة الشيخ المؤسس وهو الّذي واصل منذ 1794 م إلى 1836 عمل أستاذه [وعن الشيخ بن عيسى أخذ الشيخ بلحسن اليوسفي الدهماني][2]. ثم يأتي الشيخ "بلقاسم بن عَبد الحفيظ" أصيل "معتقة"، ثم المغربي "الحاج البشير المغربي"[1836 - 1837] [وقدكان صديقا مخلصا للأمير عبد القادر الجزائري

1 طولقا: واحة في الجزائر بولاية الأوراس، بها زاوية رحمانية شهيرة.
2 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 338.

والتحق به وخلّف الزاوية للسيدة خديجة أرملة الشيخ بن عيسى، وإلى هذه الفروع ترجع الزوايا الرحمانية بتونس كزاوية سيدي البشير التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242 هـ الذي يرجع للشيخ الحاج البشير المغربي هو ينسب إلى سيدي عبد السلام بن مشيش المغربي شيخ أبي الحسن الشاذلي[1]، ثم " محمد بن بلقاسم آيت عنان " أصيل "زمنـزر" [1843 - 1844] ثم "الحاج عمار"[1843 - 1857] ثم "محمد الجحدي"، فهؤلاء هم الّذين تداولوا على رأس الطائفة والّذين اعترفت بهم عشائر التل والقبايل قبل أن يظهر الأستاذ الأعظم للطائفة وهو سيدي "محمد مزيام الحداد" حامل لواء انتفاضة سنة 1871 حيث أغلقت زاوية "جرجرة " بأمر من سلطات الاستعمار الفرنسي، وزجّ بالشيخ في السجن، وبينما هو في سجنه هدمت زاويته بـ"صدّوق" وصودرت أملاك الطائفة لفائدة الاحتلال الفرنسي. وقام ابنه الشيخ "عزيز" بدوره في الانتفاضة، فقد كان محركها وروحها، ولكنّه المسكين قبض عليه بعد والده ونُفي إلى كاليدونيا الجديدة، فاستطاع أن يفرّ ويستقر بـ"جدّة". ومرض مرضا عضالا اضطره إلى تقديم اعتذاراته للسلط الاستعمارية وطلب الرحمة فقبلت توبته، وخففت عقوبته، وسمحت له بالقدوم إلى باريس سنة 1895 للعلاج، فتوفي بها بعد إقامة قصيرة ودفن بقسنطينة. وهكذا فقدت الطائفة انسجامها واستقل أغلب فروعها عن الأم فلم يعد يجمعهم إلا التسمية ووحدة الأوراد. ورغم الجهود التي بذلها الشيخ "عزيز" من "جدّة" لم يبق معه إلا بعض المقدمين بزاوية "جرجرة" وبعض الإخوان ممن يريدون الحصول على البركة من معينها الاعتراف بابنه "صالح" الذي حمل لواء الطائفة بمجرّد حصوله على وظيف إداري. وفي إجازة سلمها الشيخ "عزيز" نجد الفكر الذي حرّك هذا الرجل الديني في وصاياه لأتباعه: بعد المقدمة المعهودة وطلب الشيخ الدعاء من الأتباع كما يدعو هو لهم:

" ... قد [أجزنا] لحامل الإجازة سي محمد بن عمارة ابننا ليس من صلبنا ولكن بالصحبة وما أجده في قلبي نحوه وهو الذي وافق عليه شيخنا .. لذلك أجزته أن يعطي أوراد الرحمانية لكل من يأتي راغبا في الدخول في طريقتنا أو يطلبها مباشرة فيعلّم الأسماء السبعة[2] للتلميذ الذي يقدم علامات على تعلقه بالطريقة ويبرز من الفضل أنه أهل لها،

---

1 المرجع السابق.
2 الأسماء السبعة هي بعض أسماء الله الحسنى تصاحب حالات نفسية في طريق الرحمانية وهي: [لا إله إلاّ الله] تكون النفس في حالة الميل والنزوع إلى الله، ثم[الله] تكون النفس فيه لوّامة، ثم[هُو] تكون النفس

وعلى سي محمد بن عمارة أن ينقل هذه التعاليم كما أخذها هو نفسه عن الشيخ، وليهده الله إلى الطريق السوي، وليستعمله في هداية غيره، ولينوّره ويجعل منه نبراسا منورا لغيره ويهده إلى طريق الجنّة ويهدِ به، وليعلمه أكثر وأكثر من تعاليم طريقنا ولينشرها بتدريسه، فمن خاطبه للدخول في طريقتنا كمن خاطب المرحوم الشيخ ابن الحداد الذي مات بعيدا عن أهله. وأوصيكم وأوصي نفسي وأوصي حامل هذه الإجازة بالثبات على طاعة الله وخشيته والحفاظ بأمانة على ورد الطريقة وإظهار الخشوع، ولا يرجو الاعتماد إلا على السلام إذ هو أحسن طريق لله دون عقبات، وهو الذي يمكن من مضاعفة الحسنات، وليس عندي ما أضيف ولكن هذا يكفي لكل رجل جدّي عارف وحبيب لله. من عزيز بن الشيخ بن الحداد المُبعد عن أهله حفظه الله ".

وانتشرت هذه الطريقة بتونس وطرابلس والقاهرة وجدّة، ومن أهم الزوايا بتونس زاوية نفطة التي أسسها مصطفى بن محمد بن عزوز، فقد أثّرت شخصية الشيخ في الناس[1] وأصبح الإخوان الرحمانية يرسلون إليه أبناءهم ويأتون هم أنفسهم للاستفادة من نصائحه وعلومه. ومن زواياهم بالعاصمة زاوية سيدي البشير التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242هـ ونسبه يتصل بالشيخ عبد السلام بن مشيش شيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي. وهو يرجع للشيخ الحاج البشير المغري الذي

تولّى مشيخة زاوية جرجرة (زوارة) وزاوية الشيخ علي بن عيسى بالكاف وهو خليفة الشيخ ابن عبد الرحمان عن زاوية جرجرة، وعن الشيخ بن عيسى هذا أخذ الشيخ بلحسن اليوسفي. ومن فروع الرحمانية أيضا بتونس زاوية عين الصابون أسسها الشيخ محمد الصالح العمراني، وزاوية القسطلّي بباجة وزاوية بن عزوز بنفطة أسسها الشيخ مصطفى بن عزوز وكانت وفاته في 1282هـ/1865م ودفن بزاويته بنفطة، والشيخ محمد بن عزوز المهاجر صاحب زاوية طولقة من ولاية بِسْكرة بالجزائر، ومن فروع

في هذه الحالة مُلهَمة، ثم[الحق] وتكون النفس في هذه الحالة مطمئنّة، ثم[الحي] وتكون النفس في هذه الحالة راضية، ثم[الباعث] وتكون النفس في هذه الحالة مرضية، ثم[القاهر] وتكون النفس في هذه الحالة كاملة.(عن كوبولاني).ولا تختلف هذه الأسماء عما نجده عند القادرية إلاّ في الاسم السادس وهو [القيّوم] عوضاعن[الباعث] (عن الفيوضات الربانية لإسماعيل سعيد القادري).

1 ذكر محمد مخلوف في شجرة النور الزكية أن الشيخ الجليل إبراهيم الرياحي شيخ التجانية التقاه وأعجب بشخصيته وامتدحه بشعره (انظر الشجرة ص286).

هذه الزاوية بتونس زاوية ابن عبد الملك بسليانة وزاوية الحاج مبارك بتالة وزاوية أخرى بالقصرين (محمد البهلي النيّال ص. 338 و339) وانسلخ فرع الرحمانية بنفطة عن الجزائر، وأصبح طائفة مميزة يسميها الأهالي رحمانية-عزوزية، وتفرّعت عنها زاوية في مدينة تالة بناها مع مسجد المصلح سيدي الحاج مبارك بن محمد العلوي المذكور آنفا، وأصله من دشرة أولاد غيدة التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن مدينة تالة شمالا في اتّجاه الكاف. ويقومون الآن باحتفالاتهم بكل المناسبات الدينية وبالخصوص السابع والعشرين من رمضان، وتسمّى الآن زاوية بن عزّوز، وهكذا فإنّ الطريقة في تونس كما في بنغازي أو المدينة المنوّرة تكون ممثلة بمقدم أو ببعض الأتباع الذين يعدون بالمئات لا يعرفون إلا عن طريق الشيخ أبي النخبة مصطفى بن محمد عزوز[1] الّذي أدخل الطريقة إلى القطر التونسي وبثّها في العروش الذين قبلوها لسهولتها وبساطتها، وهو الّذي عهد قبل أن يستقر بنفطة إلى الشيخ علي ابن عمر كامل المصالح الروحية لأتباعه وأكّد له ذلك قبل موته، لكن الواقع أن ابنيه المكي والأزهري هما وحدهما الماسكين بريع زاوية نفطة وفروعها.

أما في "خنقة سيدي ناجي" بالجزائر، فإن مقدّم الشيخ بن عزوز، هو عبد الحفيظ بن محمد الذي ورث أجداده في زاوية "خنقة سيدي ناجي" عندما انتدب لتعليم مبادئ الرحمانية هناك.

وعند وفاة شيخه لم يعترف بسلطة علي بن عمر، وتحمل الورثة دائما رئاسة زاوية نفطة، غير أنهم في خصام دائم مع زاوية "طولقة" فلم يتمكنوا من الحفاظ على ناموس الأجداد.

---

1 محمد مخلوف، شجرة النورالزكية، ص 391 عدد 1563 :" أبو النخبة مصطفى بن محمد عزوز العالم الولي العارف بالله الفقيه التقي الصوفي مع صلاح ودين متين من بيت علم وفضل وزاويتهم بصحراء سوف شهيرة دخل هذا الولي القطر التونسي وبثّ الطريقة الرحمانية الخلوتية في العروش. وطريقته لا تشديد فيها إلاّ من أراد التوغّل في السلوك، يأمر الناس بأداء فريضة الصلاة وذكر(لا إله إلا الله) بقدر الإمكان. وطار صيته وظهرت كرامته سيما في الجهة الغربية بنفطة. وصار له أتباع كثيرون. أخذ عن علي بن عمر صاحب زاوية طولقة وهو عن الشيخ محمد عزّوز وهو عن الشيخ محمد الأزهري الزواوي وهو عن الشيخ محمد الحنفي المصري الخلوتي. وأخذ عنه الكثير منهم ابنه المكّي، وانتفع به وورث سرّه. وكان المشير أحمد باشا يعتقده ويعظّم شأنه. ومنّ الله به على هذا القطر بإطفاء نار فتنة تأججت بإفريقية تُعرف بفتنة علي بن غذاهم الواقعة سنة 1280 ه[1864م] لأجل مغرم الاثنين والسبعين وضمن للناس الأمان وطوّع العاصي .. وتوفّي في ذي الحجة سنة 1282ه."

وقام أحدهم وهو محمود بن عبد الحفيظ بن محمد وانتصب في تونس الحاضرة مبتعدا عن الخصام وأسس هنالك زاوية. وبلغت الرحمانية درجة التقدّم على سائر الطرق الصوفية في عهد الاستعمار الفرنسي بتونس الحاضرة، فقد وصف محمد بن الخوجة في (الرحلة الفليارية)[1] مضمار استعراض الوفود بالقصر السعيد للرئيس الفرنسي فيليار الّذي زار تونس سنة 1911م للاحتفال بمرور ثلاثين سنة على الاحتلال الفرنسي: "وكان التختروان[2] منمّقا مزركشا ومزدانا بالأعلام والأبسطة الحريرية والرياش الفاخرة على أجمل شكل يخطر بالبال، وكان إلى يسار التختوان نحو الألف رجل من مشايخ ونقباء وشوّاش وسقّاية وإخوان ومريدي الطرق القادرية والشاذلية والعيساوية والتجانية والرحمانية وغيرها وبين أيديهم مباخرهم ورشّاشاتهم وسناجق زواياهم وطبولهم ونغراتهم وبقية الآلات الخاصّة بهم، فكان لمجموعهم منظر في بابه غريب، وقد تجمّع حذوهم خلائق لا تُحصى من أعيان أهالي الحاضرة ... ثم وقع الشروع في الاستعراض فمرّ في طليعة القوم وفود الحاضرة يتقدمهم شيخ المدينة، وأعقبهم في المرور عامل الأحواز يتبعه وفود عمله، ثم جموع طرق الذكر يتقدّمهم الشريف السيد **محمد البشيري شيخ مشايخ الطريقة الرحمانية**، ثم جموع الطوائف الجزائرية، ثم أعيان الطائفة الإسرائيلية ..."[3].

وأسس أخوه الآخر محمد الأزهري بن عبد الحفيظ بن محمد زاوية صغيرة بـ"خيران" بدائرة "خنشلة" بالجزائر وترك لابنيه رئاسة زاوية "خنقة سيدي ناجي" فهما نائبان لزاوية نفطة.

وبغض النظر عن كل ذلك فإن فروع الرحمانية بـ"نفطة" و"خنقة سيدي ناجي "لهما عدة خانات (زوايا) بالحاضرة (زاوية عين الصابون)أسّسها الشيخ محمد الصالح العمراني وزاوية القسطلّي بباجة وزاوية ابن عبد الملك بسليانة، وزاوية الحاج مبارك بتالة، وزاوية قضوم بالقصرين وتوزر وتمغزة والقيروان وأتباع في بني غازي وجنوب طرابلس وغدامس والمدينة المنوّرة ويبقى الفرع الحقيقي للرحمانية الصحراوية هو فرع "طولقة" الذي أسّسه الشيخ علي بن عمر، وكان الرّباط الذي يديره خليفته علي بن عثمان بكل حكمة أحد أهم مراكز الطائفة، وأوراده هي نفسها أوراد زاوية نفطة التي تحدثنا

1 محمد بن الخوجة، كتاب (الرحلة الفليارية بالمملكة التونسية)، طبع المطبعة الرسمية العربية سنة 1330هـ/1912م، تونس.
2 التختروان: هو المنصّة الشرفية العالية للرئيس، والكلمة من أصل تركي.
3 محمد بن الخوجة، الرحلة الفليارية بالمملكة التونسية، ص 75.

عنها آنفا والتي تعترف بالسلطة الروحية للشيخ علي بن عثمان.

أصول الطريقة : قال الشيخ باش تارزي القسنطيني :

يَا مَنْ تُرِيدُ الشِّفَاءْ وَاتِّبَاعَ الْمُصْطَفى

ادْخُلْ طَرِيق الْوَفَاءْ طَرِيق الْخَلْوَتِيَا

فهي طريقة تحثّ على الورع والزهد وسلوك طريق الآخرة، وأهمها القيام بالمفروضات والانهماك في ذكر (لا إله إلا الله). وفي البيت تذكير بالخلوتية التي تنتسب إليها الطريقة. ويفهم ذلك من نص الإجازة الذي سلمه الشيخ علي بن عثمان الطولقي إلى أحد المقدمين والتي تعتبر مثالا لكل زوايا الرحمانية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله كثيرا كثيرا

من خديم شيخه علي بن عثمان بن علي بن عمر الطولقي إلى كافة أحبابنا وإخواننا الواقفين على جوابنا هذا، السلام والرحمة والبركة، أما بعد فإني أذنت وأجزت إجازة تامّة شاملة للحامل المنوّر الصالح العامل الحاذق الأديب العارف بربه ولدنا قلبًا لا صُلْبًا سيدي : ... أن يعطي أوراد طريقتنا الخلوتية المتصل سندها إلى خير البرية صلّى الله عليه وسلّم، وصفة التلقين هو أن يمسك إبهام يمين الطالب ويقول له غمّض عينيك واسمع إليّ وتبّعني: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم، أستغفر الله تبنا لله ولرسوله. اللّهُمَّ يا رب اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما بقي. ثم تقول: اسكت، وتقول وحدك: لا إله إلا الله ثلاثا ثم يقولها هو ثلاثا، تأخذ الفاتحة لكما وللنبي والشيخ المربّي، ثم تأمره بطاعة الله ورسوله ويذكر بعد صلاة الصبح ثلاثمائة (لا إله إلا الله) وإن زدتم فحسن، ومن عصر يوم الخميس إلى عصر يوم الجمعة الصلاة الشاذلية وهي:(اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) ما يسّر الله وبعد عصر يوم الجمعة اختم بالأمي وهي:(اللّهُمَّ صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم) ثمانين مرة، يغفر الله لقائلها ذنب ثمانين سنة. ومن أخذ عنه كأنما أخذ عنّا، وعليكم بطاعته ومداومة الحضرة صباحا ومساء مجتمعين ليحصل المدد النبوي منه صلى الله عليه وسلّم، وعليكم بمخاواة[1] بعضكم بعضا، وعليكم أيضا بالصبر والتسليم لخلق الله

1 هكذا وجدناها وهكذا ننقلها أمانة، ولعلّها تحريف للمصدر مؤاخاة من آخى يؤاخي مؤاخاة.

وتعاونوا على البر والتقوى وجدّوا واجتهدوا في ذكركم لتدخلوا في حزب الطريقة المنوّرة فإنّ من دخلها دخل في حزب وضمانة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، ومن دخلها كمن دخل دخل سفينة نوح وكمن دخل مقام إبراهيم، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [للشيخ رحمه الله]: طريقتك هذه كسفينة نوح من دخلها نجا ومقام إبراهيم من دخله كان آمنا وببشارة المصطفى للمشايخ جيلا بعد جيل ولم تنقطع إلى الآن وهو زمان التاريخ وذلك في شهر الله جماد الأول بعد ما مضى منه ثمانية وعشرون يوما سنة 1302 والسلام من المذكور أعلاه.

طريقة العمل : وظائفهم ثلاث في الأساس[1]:

1- الشيخ : وهو الذي يتولّى شؤون الجماعات المتعددة، وهو الذي يعطي الإجازات في ولاية المقدمين ويولي القدّاشة وكذلك شيوخ العمل والشواش ويعطي العهد بالطريقة للمنخرطين الجدد ويقبل النذور التي تصل إلى الزاوية.

2 - المقدم : وهو الّذي يتولى شؤون الجماعة، وربما أولى شيخ العمل، ومن خصائصه إعطاء العهد بالطريقة.

3 - القدّاش : وهو وظيف خاص يعطيه الشيخ لمن يظهر خدمة زائدة في أحدى الزوايا.

4 - شيخ العمل.

5 - الباش شاوش: هاتان الوظيفتان أحدثتا تقليدا للطرق الأخرى.

. وكان عمل الجماعة منحصرا في ذكر (لا إله إلا الله) فأحدثوا المديح وأدخلوا فيها نقر الطّار والنغّرات والدفوف وألّفوا لها مدائح شبيهة بمدائح القادرية.

وكانت للزاوية البشيرية التي أسسها الشيخ محمد البشير المتوفى سنة 1242 هـ خرجة تسمى (خرجة زواوة) عبارة عن استعراض عسكري بالأعلام يمينا وشمالا ووراءهم جماعة أخرى بالحراب وتعزف فيه الموسيقى ويطلق البارود.

---

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، هامش الصفحة 106 .و ص 129.

الطريقة الحفوظية
فرع عن الطريقة الرحمانية
نسبة إلى سيدي عبد الحفيظ بن محمد

الشيخ المؤسس : هو الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الذي ورث أجداده في زاوية "خنقة سيدي ناجي" عندما انتدب لتعليم مبادئ الرحمانية هناك. أمّا ناشر الطريقة الحفوظية بالقطر التونسي فيظهر أنه تلميذ الشيخ عبد الحفيظ الشيخ التارزي بن محمد بن عزّوز وابني الشيخ عبد الحفيظ محمود بتونس العاصمة والحفناوي بتوزر.

أخبار الطريقة : يقول السيد أمين بن عبد الكريم بن عزوز أستاذ الفيزياء بكلية العلوم بالمنستير، وهومن سلالة شيخ الطريقة الحفوظية: إن هذه الأخيرة واحدة من فروع الطريقة العزّوزية - الرحمانية، وتنسب إلى الولي الصالح الشيخ عبد الحفيظ الخنقي الذي تسلّم الولاية من يد شيخه محمد بن عزّوز البرجي. وهي طريقة قادمة من القطر الجزائري، وانتشرت في البلاد التونسية خاصّة عن طريق ابني الشيخ عبد الحفيظ: محمود والحفناوي وعن طريق تلميذه الشيخ التارزي بن عزّوز وهو ابن الشيخ محمد بن عزّوز، وقد نشر هذا الأخير الطريقة الحفوظية بنفطة قبل أن ينتقل بها إلى المدينة المنوّرة وذلك سنة 1883م.

واستقر الشيخ محمود بن عبد الحفيظ بحاضرة تونس، وزاويته قائمة إلى اليوم وهي زاوية سيدي محمود. أمّا الشيخ الحفناوي بن عبد الحفيظ فقد أقام زاوية بتوزر بمنطقة أولاد الهادف وهي زاوية سيدي الحفناوي.

وحوالي 1919م رجع الشيخ عبد الكريم بن عزّوز إلى نفطة بعد رحلة طويلة قريبة من الثلاثين سنة قضاها بين "جدّة" وسوريا "حلب" بسبب مناهضة الاستعمار الفرنسي، واستقرّ الشيخ من جديد وأقام الزاوية الحفوظية المعروفة بزاوية سيدي عبد الكريم بن عزّوز بمنطقة "الباومة"، مع العلم أنّ بمدينة نفطة توجد زاوية عزوزية أخرى مشهورة وهي زاوية الشيخ مصطفى بن عزّوز، وهو عم الشيخ عبد الكريم. ويظهر أنه كان هنالك تعاون وتقاسم للأدوار بين هذه الفرق والزوايا، إذ يروي السيد أمين أنّ الهدايا كانت عندما ترد على الشيخ التارزي يقول: ارفعوها إلى مصطفى(أي مصطفى بن عزوز) فهو الّذي في حاجة إليها، وقدكان في تلك الآونة بصدد إقامة رباط للمقاومة إلى جهة الغرب من مدينة نفطة، بينما كان الشيخ التارزي ينزل بالجهة الشرقية داخل البلد، وهذا يدلّ على التفاهم بين الطريقتين العزوزية والحفوظية وتقاسم الأدوار بينهما حيث إنهما ينتميان معا للطائفة الرحمانية.

أصول الطريقة : أكبر ميزة تمتاز بها الطريقة الحفّوظية هو إدخالها لتجديدات في الإنشاد الديني على مستوى الكلمات والألحان والآلات، وهذا ما يفسّر الشهرة والصيت اللذين حظيت بهما هذه الفرقة بالجهة. فبينما حافظت أحزاب الحفوظية بتوزر وتونس على طابعها الغربي (الجزائري) فإن حزب الحفوظية بنفطة أدخل ألحانا شرقية على القصائد المتداولة على نمط المالوف التونسي والْقِدَد[1] الحلبية وذلك منذ بداية القرن العشرين.

من أشهر مشائخ حزب الحفّوظية الشيخ التارزي بن عزّوز وتنسب إليه العديد من القصائد الصوفية التي تُنشد إلى الآن، وقد كان أديبا متميّزا يرتجل القصائد ويسجع

---

1 القِدَد أو القدود الحلبية: جمع (قِدّ) وهو السير(الشريط) من الجلد كالخيط، والجمع (قِدَد)؛ قال طرفة بن العبد "وَإِنْ شِئْتُ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شِئْتُ أَرْقَلَتْ * مَخَافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ الْقِدِّ مُحْصَدِ"أي السوط من الجلد، أوقدود جمع قَد: وهو قوام الإنسان، أو(قَدّ) بمعنى(قدر) ويظهر أن المعنى الأخير هو الّذي ينضبط مع هذا اللون من الغناء. والقدود الحلبية هي أغان قديمة ضاع نصها الأصلي ووضع بدلا منه شعر أو زجل بـ(قدّ) الوزن تماما لهذا سمّي (قدّا) فجمعه بعضهم على(قدود)وبعضهم على (قِدَد). وذلك لأن اللحن في الأغنية أثبت من الكلام، فالكلام قد يضيع ولكنّ اللحن يبقى فتركّب عليه كلمات أخرى ويبقى هو ثابتا محافظا على روح واضعه الأول. فهذه القدود، إذن، هي شبه صنايع على ألحان تراثية مجهولة الملحّن كالأغاني الشعبية.

الأسجاع ويلحّنها لتؤدّيها المجموعة المتكوّنة من منشدين ومريدين.

وتميّز حزب الحفوظية في عهد الشيخ عبد الكريم بالطابع الشرقي، فقد قضّى الشيخ فترة تفوق الثلاثين سنة بالمدينة المنوّرة، وكان مقرئا في الحرم النبوي الشريف ويدرّس القرءات، كما استقرّ فترة من الزمن بسوريا في مدينة حلب مما جعله يضيف قصائد[1] وألحانا شرقية جديدة على نمط الموشّح[2]، كما أنّه أعاد تلحين الكثير من القصائد الموروثة، فأصبحت تكتسي رونقا خاصّا وهي تنشد إلى الآن.

وازدهرت في عهد هذا الشيخ فرقة الحفوظية حيث أدّت أدوارها[3] وأناشيدها الدينية البديعة والمتقنة بالإعتماد على آلات البندير والنغارات والتشتري، وكذلك أدخلت آلة البيانو عن طريق الشيخ المكّي بن عبد الكريم بن عزّوز، وورثه ابنه عبد الحفيظ في هذا العزف ثمّ ابنه الآخر المكي.كان الشيخ المكي بن عزّوز من أبرز مشائخ حزب الحقّوظية، خلَفَ والِدَه عبد الكريم إثر وفاته سنة 1926م. وكان أديبا يُدرّس البلاغة واللغة العربية بنفطة وله ديوان شعر مخطوط في مدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم وآل بيته، وألّف كذلك في الموشّح وأثرى رصيد الحفوظية بالعديد من القصائد، وتميّز خاصّة بإدخال آلة البيانو وهي عملية منفردة النظير وغير معهودة لدى الطرق الصوفية في ذلك الوقت، فقد

---

1 قصائد جمع قصيدة وهي في الغناء العربي تعتبر من أرقى أنواع الغناء لرقي القصيدة الفصيحة وعلوّ شأنها، وهي القصيدة العمودية موحّدة القافية من صدور وأعجاز، فعلى الملحّن اختيار الشعر من ناحية ثم التّفنن في توقيعها من ناحية، وتوقّع في الغالب على ميزان المصمودي الصغير والكبير.

2 الموشّح أو الموشّحة هي كلمات موزونة على الأوزان الشعرية المعروفة لكنها عوض أن تتكوّن من السماطين الصدور والأعجاز تتركّب من طالع وأبيات والأبيات تتركب من أغصان تترتّب فيها القوافي ترتيبا يخترعه الشاعر لنفسه طبقا لعدد الأغصان وترتيب المكبّات إن وجد المكب، وتغلب على الموشح اللغة العربية الفصحى وهو من ابتكار اللأندلسيين. والقليل من الموشحات يكون في العامية وقد يمزج بين اللهجتين وربما مع لغة أجنبية كالإسبانية مثلا. وتكون مواضيعه غالبا في الغزل ووصف الرياض ومجالس الأنس أوفي الوجد والهيام كما لدى الصوفية.

3 الأدوار جمع دور وهونوع من الزجل المصري يشبه الموشح إلا أنه بالعامّية ويتألف عادة من مذهب (طالع) وأغصان والأغصان تسمّى أدوارا أيضا، والدور الأخير يسمّى (القفلة). ويلحن الدور في إيقاع المصمودي الكبير وقليلا ما يكون في غير المصمودي، وقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. المرددون يسمَّوْن المذهبجية وهم جماعة من ذوي الأصوات الحسنة لايتجاوزون الأربعة أنفار، ووظيفتهم في الدور ترديد الآهات وبعض الجمل القصيرة من الدور. وأخيرا ابتكر المصريّون طريقة جديدة للدور هي أن يردّد المغنّي ألفاظ القسم الثاني أي الأدوار دون الطالع بارتجالات في ألحان مختلفة من شأنها أن تبرز تفنن وبراعة وتسلطن المغني وتزيد السامعين طربا، وقديردد المذهبجية معه أحد هذه الألحان. والآهات جمع آهة تتخلل الدور بعد الفصل الأول وهي التغنّي بكلمة(آه) وهي موزونة بميزان الدور يرددها المغنّي الرئيسي ويتبعه المذهبجية. وتأتي هذه الآهات في الغالب بعد الإنتهاء من غناء الفصل الأول وقبل قفلة الدور، ومجيئها عند القفلة يكون بصورة مختصرة إيذانا بانتهاء الدور.

كان كثير التردّد على مقهى المرابط بالعاصمة تونس حيث تعلّم العزف على هذه الآلة ودرس المقامات التونسية، هذا ماروواه الفنان خميس الترنان للشيخ عبد الكريم بن الشيخ المكّي عندما التحق هذا الأخير بالرشيدية في بداية السّتّينات من القرن العشرين الميلادي. واكتسبت الحفّوظية في عهد الشيخ المكّي شعبية كبيرة ومن المأثور أنّ عدد المحبّين المردّدين إلى جانب الفرقة الرسمية يتجاوز في عديد المرّات المائة نفر، وذلك تبعا لما أدخلته في عملها من تجديد.

طريقة العمل : كتب لنا السيد لطفي الحفصي أحد المولعين بهذه الطريقة فجاء في رسالته: "ازدهرت هذه الفرقة (أي الحفوظية) حتّى أدّت أدوارها وأناشيدها الدينية البديعة والمتقنة بالاعتماد على آلات موسيقية متطوّرة كـ"البيانو"، أمّا الآلات الأخرى كالطار والبندير والنقارات والتشتري فهي تستعمل إلى اليوم. وهذه الفرقة لها نشاط كباقي الفرق الطرقية بنفطة في المواسم الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف أو ليلة القدر أو بالأعراس والأختان وتحيي خلالها سهراتها الرائعة والرائقة بمختلف الألحان والأوزان، وتتميّز بنوعية خاصّة تعرف بالقصيد الغربي الخاص بالجنوب الجزائري.

وعادة ما تبدأ السهرة أو الميعاد بالمتداولة قبل الدخول إلى وسط الدّار أو الزاوية مكان السهرة أو بعده فينشدونها وقوفا حتى تنتهي، ثمّ يجلسون في حلقة يتصدرها الشيخ وحوله المريدون والمنشدون؛ وتفتتح السهرة بقراءة الفاتحة وكذلك في سائر السهرات أو في المولد الذي تسرد فيه المولدية (مولد البرزنجي) وإثر كل تعطيرة تنشد قصائد نبوية مثل :

بَـــدَأْنَا بِاسْمِ اللهِ * وَ بِـصَــــلاَةِ اللهِ * عَلَى رَسُــــولِ الله * وآلِهِ الأَبْــرَارْ

قُمْ وَامْتَدِحْ يَا صَاحْ * وَجَدِّدِ الأَفْــــرَاحْ * سَعْدُ السُّعُـودِ لاَحْ * بِمَوْلِدِ الْمُخْتَارْ

يَا مُطْـرِبَ الجُـلاَّسْ * قَدْ زَالَ عَنْكَ الْبَاسْ * قُمْ طَيِّبَ الأَنْفَاسْ * بِقِصَّةِ الْمُخْتَارْ

وكذلك قصائد أخرى مثل :

(يَا آمِنَة بُشْـرَاكِ سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكِ

بِحَمْلِكِ بِمُحَمَّـدٍ رَبُّ السَّمَــاء هَنَّاكِ)

أو : (نُورِ الأَنَامْ سَاطِعِ الْمُحَيَّا) وكلها قصائد معروفة في كتب المولدية. وعلى إثر سرد قصّة المولد النبوي الشريف تبدأ المجموعة بقصائد نبوية أخرى تنطلق بها السهرة بالبندير ومختلف الآلات الأخرى، ويكون الشيخ أو المقدّم يقود الفرقة قارعا النقّارات أو بضابط الإيقاع التشتري، ويتخلل هذه القصائد أو الأدوار مقاطع من المتداولة أو النوبات المعروفة بها الفرقة، مثل :

الله الله لاإِلَهَ إِلاَّ الله　　الْوَاحِدِ الْوَحْدَاني

بِنْ عَــزُّوزْ وَلِيُّ الله　　مِنْ سِرُّه سَــقَاني

ويتكرر هذا المقطع عن طريق المنشد تارة والمجموعة تارة أخرى، ويكون الإيقاع خلال ذلك حادّا بالبندير والطار تقودهما النغّارات، ويضفي التشتري رنّة وزخرفة تطرب لها الأسماع، وهذا ما يميّز هذه الفرقة مما جعل صيتها ذائعا في نفطة وخارجها، فهي تتنقّل لإحياء السهرات في العائلات العزّوزية المقيمة بالبلدة أو خارجها مثل سبيطلة والكاف وتونس العاصمة. أمّا أشهر المقامات الشرقية التي تستخدمها الحفوظية فمقام النهاوند والقدود الحلبية بالإضافة إلى المقامات التونسية كالحسين والمزموم، هذا مع طابعها الغربي الجزائري المميز، مما يجعلها من أثرى الفرق ألحانا وأوزانا، وكذلك لها العديد من البحور والقصائد التي ألّفها مشائخها مثل التارزي بن عزّوز والمكي بن عبد الكريم، أوبعض مريديها، التي أثرت المخزون الثقافي العظيم لمدينة نفطة التي تزخر بالفرق الصوفية التي تتميّز كل واحدة منها بميزات خاصّة. ولا تزال هذه الفرقة العريقة تنشط وتشبب عناصرها الّذين يأخذون عن مشائخها ويُطوّرون ويُجدّدون ويُنوّعون في الألحان والموازين".

ومما ينشد قصيد تفتتح به السهرة: فينشد المنشد تارة بيتا في القرار وتارة في الجواب، وتردد المجموعة هذا البيت الأول :

صَلُّـــوا عَلَى مُحَمَّـــدْ * صَلُّـــوا عَلَى مُحَمَّـــدْ * صَلُّوا عَلَى مُحَمَّـــدْ * الْهَاشِمِيِّ الْمُرْشِدْ

بِسْمِ الله نِبْدَا النِّظَامْ * سُبْحَانَهُ هُوَ السَّلاَمْ * مُصَلِّيًا عَلَى الإِمَامْ * سَيِّـدِنَا مُحَـــمَّدْ

ثم تبديلة في إيقاع خفيف :

هُوَالْبَشِيرْ هُوَ النَّذِيرْ * هُوَ السِّرَاجْ هُوَ الْمُنِيرْ * هُوَ الشَّفِيعْ يَوْمَ الْهَجِيرْ * يَوْمَ الْحِسَابْ مُحَمَّدْ

هُوَ سِرَاجُ الأَوْلِيَـــاء * هُوَ تَقِيُّ الأَتْقِيَـــاء * هُوَ صَفِيُّ الأَصْفِــيَاء * سَيِّـــــدُنَا مُحَمَّدْ

ثم برول واختتام :

مِنْ بَعدِ تَشْرِيفِ الرَّسُولْ * اِرْضُوا عَلَى صَحْبُه الْعُدُولْ * مِنْهُمْ أَبُو بَـكْـــرٍ * أَقُـــــول سَيّدنا مُحَمَّدْ

فَبِـــالله يَا جَــــــوَّادْ * اِغْـفِـرْ لِي يَارَبَّ الْعِبَــادْ * بِجَاهِ سَاكِنِ الأَبْعَادْ * ....

....

أو مثل قصيد الشيخ التارزي في الغربي وهو يتميز عادة بالطول ويكون إمّا ملحونا أو بالفصحى وغالبا ما يمتزج فيراوح بين العربية الفصحى واللهجة المحلّية المتداولة ويتميّز كذلك بتعدد التبديلات والألحان فيكون شبه دور يغطّى معظم السهرة الحقّوظية :

الله الله الله * لاإله إلاّ الله * الدايـــم ربّي لا إلَــهَ إلاّالله

الله الله الله * لاإله إلاّ الله * الصَّلاَةُ عْلِيكْ يَارَسُولَ الله

بِسْمِ الله الْكَـرِيمْ * الرَّبِّ الرَّحِــــيمْ * سُبْحَانه الْـقَـدِيمْ * لاَ رَبَّ سِـــوَاهْ

يَـارَبْ يَا رَحِــيمْ * سَخَّـرْ لِي النَّدِيمْ * بِشَـرَابْ عَظِـيمْ * يِرْوِي قَلْـب تَاهْ

حتّى يقول :

كَمْ جَنِيتْ وكَمْ * مِـنْ ذَنْبٍ سَمَّـمْ * قَلْبِي يَا ذَا النِّـعَـمْ * اِشْـفِــهِ مِنْ دَاهْ

تْكَرَّمْ بِالْكَــرَمْ * وِبْــأَهْـلِ الْهِمَمْ * اِجْعَلْـنِي مُنْتَـظِمْ * فِي حِزْبِكْ يَاالله

لَوْمِي عْلَى الْحْبِيبْ * حَقُّوظِ النَّجِـيبْ * شَيْخِي انْتَ قَرِيبْ * مِنْ حَـضْرَةِ الله

وهكذا إلى تمام السبعة والخمسين بيتا.

ومن إنشادهم على شكل الموشح :

نَسِيمُ الْوَصْلِ هَبَّ عَلَى النَّدَامَى ... فَأَسْكَرَهُمْ وَمَاشَرِبُوا الْمُدَامَا

وَمَالَتْ مِنْهُمُ الأَعْنَاقُ مَيْلاً ... لأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُلِئَتْ غَرَامَا

وَلَمَّا شَاهَدُوا السَّاقِي تَجَلَّى ... وَأَيْقَظَ فِي الدُّجَى مَنْ كَانَ نَامَا

وَقَالَ لَهُمْ: عِبَادِي ! لاَ تَنَامُوا! ... يَنَالُ الْوَصْلَ مَنْ هَجَرَ الْمَنَامَا

وينشدون كذلك المتداولة الحفوظية المعروفة بنوبة الحُجّاج في ميزان المربع التونسي، وهي للشيخ عبد الرحيم البرعي [في البحر الكامل] : فيبدؤون بهذه اللازمة :

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ وَالأَوْلاَدِ

فيرددها الردّادة بينما ينشد المنشد الأبيات :

يَا رَاحِلِينَ إِلَى مِنَى بِالزَّادِ ... شَوَّقْتُمُوا يَوْمَ الرَّحِيلِ فُؤَادِي[1]

سِرْتُمْ وَسَارَدَلِيلُكُمْ يَا وِحْشَتِي ... الشَّوْقُ أَقْلَقَنِي وَ صَوْتُ الْحَادِي

للهِ مَا أَحْلَى الْوُقُوفَ عَلَى مِنَى ... فِي يَوْمِ عِيدٍ أَشْرَفِ الأَعْيَادِ

وَيُقَالُ لِي جِدْ يَا عُبَيْدُ إِلَى السُّرَى ... عَرَفَاتُ تَجْلَى وَكُلُّ قَلْبٍ صَادِي

مَنْ نَالَ مِنْ عَرَفَاتِ غَرْضَ عَشِيَّةٍ ... نَالَ السُّرُورَ وَنَالَ كُلَّ مُرَادِ

فَانْظُرْ إِلَى الْحُجَّاجِ عِنْدَ نُفُورِهِمْ ... بَاتُوا بِمُزْدَلِفَاتِ ذَاكَ الْوَادِي

وَرَمُوا الْحِجَارَةَ ثُمَّ قَصُّوا شُعُورَهُمْ ... لَبِسُوا الْمَخِيطَ لِصِحَّةِ الأَجْسَادِ

ضَحُّوا ضَحَايَاهُمْ وَسَالَ نَجِيعُهَا ... وَ أَنَا مِنَ الشَّوْقِ ذَبَحْتُ فُؤَادِي

يَاحَادِيَ الأَضْعَانِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... جِدَّ الْعَسِيسُ فَغَنِّ لِي يَاحَادِي

وَتَذَكَّرُوا عِنْدَ الطَّوَافِ مُتَيَّمًا ... صَبًّا بَرَاهُ الشَّوْقُ بِالإِبْعَادِ

1 القصيد للشيخ عبد الرحيم البرعي ولكن نظام الأبيات وقع بتصرّف وكذلك بعض العبارات وهو منشور بديوان الشيخ أحمد العلاوي، ص77 مطبعة الشحمي تونس 1407هـ/1986م

فَإِذَا وَصَلْـتُمْ نَحْوَ طِيــــبَةَ بَلِّغُــوا مِـنِّي السَّـلاَمَ إِلَى الرَّسُولِ الْهَادِي

تبديلة : (برول خفيف واختتام)

يَارَبِّ أَنْتَ وَصَلْتَهُمْ وَ قَطَعْــــتَنِي فَبِحَقِّــهِمْ يَا رَبِّ حُــلَّ قِـيَــادِي

النَّاسُ قَدْ حَجُّوا وَقَدْ بَلَغُوا الْمُنَى وَ أَنَا حَجَجْتَ وَمَا بَلَـغْتُ مُرَادِي

الْمُصْطَفَى عَالِي الْجَنَــــابَ مُحَمَّدٍ خَـيْرُ الْوَرَى مِنْ حَـاضِرٍ أَوْبَــادِي

فَعَلَــيْهِ مِنْ عَبْدِ الرَّحِيــمِ تَحِـيَّةً مَا سَــارَ رَكْــبٌ أَوْ تَرَنَّمَ حَــادِي

صورة من احتفالات حزب الحفوظية

كما رواها لنا الأستاذ أمين بن عزوز

للحفوظية حركة متميّزة في الحياة الثقافية بالجهة ولها نشاط مثل باقي الفرق الطرقية بنفطة في المواسم الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف أو ليلة القدر أو بالأعراس. ونورد هنا نموذجا **للاحتفال بعيد الفطر**: إثر صلاة العيد مباشرة بجامع محمد بن نصر يقف المصلّون متحلّقين في رحاب الجامع ويشرعون في إنشاد قصيدة البردة بلحن متعارف (من وضع الإخوان) ويخرجون منشدين إلى أن يصلوا إلى زاوية الشيخ عبد الكريم حيث يختمون القصيدة ويتناولون القهوة، ثم ينصرفون. ثم يأتي حزب الدرقاوية ومقرها في علقمة بجامع سيدي علي بن السياري إلى الزاوية فينشدون :

لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ * يَابَانِي دَارِ الْغُرُورْ * عْـلاَشِ تْعَـلِّيـهَا

لَوْتَبْنِي فِيهَا قْصُورْ * تِرْحَلْ وِتْخَلِّيـــهَا

ثمّ يتحوّلون إلى أضرحة المشائخ للترحّم على أرواحهم، فيتلون فاتحة الكتاب، ثمّ يستأنفون نشيدهم عائدين من حيث أتوا.

بعد ذلك يأتي دور حزب الحفوظية أو الإخوان، فيترنّمون بقصيد للشيخ التارزي في مدح شيخه عبد الحفيظ والذي طالعه :

اللـــه اللـــه * وَصَلِّ عَلَى رَسُـولِ الله * وَصَحْبِهِ الْكِـرَامْ

بِاسْمِكْ نُنْظُمْ * وْنِشْكِي أَحْوَالِي لِلْمُلْهِمْ * حَفَّا[1] بَدْرِ التَّمَـامْ

ثُمّ يقومون بجولة منشدين نشيد "السير "وهو "متداولة" في طريقهم إلى منازل الشيخ، فيصطفّون في ثلاثة أو أربعة صفوف وتكون الدفوف فيها بالصفّ الثاني، بينما يقف المشايخ في الصف الأوّل فينشدون مثلا :

إِلَـهِي يَـــا إِلَـهِي   يَا ذَا الْعُلاَوَ الجَاهِ

صَـــلِّ عَلَى الأَوَّاهِ   مُحَمَّدْ بِنْ عِدْنَانِ

أو : يَا سَاكِنَ الحُجْرَة   يَا أَبَـــا الزَّهْـرَاء

اَلْمَدَدْ يَا عَـــدْنَانِي   أَبْتَـــغِي نَظْـرَة

ثمّ يقصدون منازل الشيخ التارزي وأبنائه بعرش المصاعبة حيث ينشدون، ثمّ يأخذون طريق العودة إلى الزاوية بـ"المتداولة" حوالي الواحدة أو الثانية بعد الظهر على أمل اللقاء بعد صلاة العصر. فيجتمعون في الميعاد من جديد بالزاوية ثمّ يتحوّلون منشدين نشيد "السير" قاصدين سيدي مصطفى بن عزّوز حيث ينشدون بعض القصائد الطرقية التي تتضمّن مآثر ومناقب الشيخين سيدي مصطفى وسيدي محمد بن عزّوز. ثمّ يختمون حفلهم بالدعاء، وبنفس الطريقة يقع إحياء عيد الأضحى، ويقع فيه إنشاد قصيد للشيخ عبد الحفيظ يتضمّن مناسك الحج وشعائره طالعه :

الله لا إله إلا الله   سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شانَه

أمّا السهرات : فتبدأ بالدخول أو القدوم ويكون بالمتداولة، ثمّ تُقرأ سورة الفاتحة، ثمَّ ينشد أحد الشيوخ في نغمة الأصبعين قصيدا طالعه [من البحرالكامل] :

كُلُّ الْقُلُوبِ إِلَى الرَّسُولِ تَمِيلُ   عِنْدِي لِذَلِكَ شَـاهِدٌ وَدَلِيـــلُ

أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذَكَرْتُ مُحَمَّدًا   صَارَتْ دُمُوعُ الْعَاشِقِينَ تَسِيلُ

---

1 حَفّا: ترخيم اسم عبد الحفيظ.

ثم من[بحرالرمل] :

يَارَسُولَ اللهِ كُنْ لِي شَافِعًا وَمُغِيثًا عِنْدَ هَوْلِ الْمَحْشَرِ

ثم من[البحرالكامل] :

يَارَبِّ صَلِّ عَلَى الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ وَالآلِ وَالأَصْحَابِ وَالأَوْلاَدِ

ثم تُنشد قصائد شَرقية، ثم قصائد غربية، ثم بقصيدة الشيخ عبد الحفيظ، طالعها :

يَاسَعْدِي بِالنَّبِي زُرْتُه بَانِتْ الاَنْوَارْ سَاطِعَة

هَذَا الْمَقَام نَا دَخَلْتُه ذِهْبِتْ الاَحْزَانْ فَاجْعَة

رَبِّ أَنَا لِيكَ طَائِعًا

يَاسَعْدِي بِالنَّبِي قِبلْنِي وْفِرْحِتْ لِي كُلّْ جَارِحَة

يُومْ مَا زُرْنَاكْ ضَوْ عِينِي بَانِتْ الأَنْوَارْ وَاضِحَة

وتؤدى في لحن غربي (أي جزائري) مطرّزة بمجموعة من الزوارق (زورق أي عروبي) ويتخللها مجموعة من متداولات تنشيطية مثل :

يَا الاِخْوَانْ الله يْتُوبْ عْلِيكُمْ زُورُوا دَارِ الشَّيخْ بِالنِّيَّة

فِي نْهَارِ الْجِمْعَة يْصَلِّي بِيكُمْ وحتّى لِلْعَصْرِ تَقْرُوا الأُمَّة

أو : الله لا إِلَهَ إِلاَّ الله الاِخْوَانْ رَاهِي جَاتِ تْزُورْ

إِنْتُومَا رَاكُمْ دَرْوَلْتُونَا يَا اخْوَانِ الأَخْ بِنْ عَزُّوزْ

أو : الله الله لاَإِلَهَ إِلاَّ الله الْوَاحِدِ الْوَحْدَاني

بِنْ عَزُّوزْ وَلِيُّ الله مِنْ سِرُّه سَقَاني

أو : قَصَدْتُ بَابَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا

وَبِتُّ أَشْكُو إِلَى مَوْلاَيَ مَا أَجِدُ

وينتهي هذا المديح بالصدرية وهوذكر الجلالة بالصدر (الله) (هو) ثم يغادرون بالمتداولة كما كان الدخول.

ومن هذه القصائد ما هو للشيخ عبد الحفيظ: وتنشد في نهاية السهرة قبل المتداولة الأخيرة في الكردي بلهجة جزائرية :

يَاسَعْدِي بِالنَّبِي زُرْتُه   بَانِتْ الأَنْوَارْ سَاطِعَة

هَذَا الْمَقَام نَا دَخَلْتُه   ذِهْبِتْ الأَحْزَانْ فَاجْعَة

رَبِّ أَنَا لِيكَ طَائِعًا

الله الله * لاإِلَهَ إِلاَّ الله * سُبْحَانُه مَا اعْظَمْ شَانُه

ومنها ما هو للشيخ التارزي ومن تلحين الشيخ عبدالكريم :

الله الله الله * ما احْلَى لِلْعُشَّاقْ * ذِكْرُ الله

الله الله الله * مُحَمَّدْ * رَسُولَ الله

ا الله ا الله * وصلّى عَلَى رَسُولِ الله * وْصَحْبُه الْكِرَامْ

ومنها ما هو للشيخ عبدالكريم ومن تلحينه :

قصيد التوسّل : إِلَهِي يَا إِلَهِي   يَا ذَا الْعُلاَ وَالْجَاهِ

صَلِّ عَلَى الأَوَّاهِ   مُحَمَّدِ الْعِدْنَانِي

متداولة : يَا سَاكِنَ الْحُجْرَة   يَا أَبَا الزَّهْرَا

اَلْمَدَدْ يَا عَدْنَانِي   أَبْتَغِي نَظْرَة

دور : شَوْقُ الرَّسُولْ أَفْنَانِي   وَتَحَيَّرَ الْفُؤَادْ

لاَ صِبْتْ يَا خِلاَّنِي   لاَمَالْ وَلاَزَادْ

قصيد [في البحر الوافر] :

أَيَا مَنْ بِالْوَفَا قَدْ عَوَّدُونِي   بِحَقِّ جَمَالِكُمْ لاَ تَهْجُرُونِي

سَكَنْتُمْ فِي سُوَيْدَا الْقَلْبِ مِنِّي   وَبِالْحِسِّ الْبَدِيعِ مَلَكْتُمُونِي

بِعِزِّكُمُ... بِـذُلِّي فِي هَوَاكُمْ   عِدُونِي بِالْوِصَالِ وَ مَاطِلُونِي

ومنها ما هو للشيخ المكي :

دور : قُلْ بِالدَّوَامْ * يَاتَارِزِي يَاذُخْرِي * يَا ابْنَ الْكِرَامْ

غَوْثَ الأَنَـــامْ   سَامِي الْمَقَامْ

خُذْ بِالرِّضَا وَالْعَفْوِ   عَلَى الـدَّوَامْ

موشح : رَبَّنَا يَامُرْسِلَ الْجَدْوَى وَمنْ فَضْلُهُ   لاَ زَالَ فِيـنَـا مُنْـذُ مَنْ

بِالإِمَامِ التَّارِزِي أَنْ تُسْـبِلَنْ   سِتْرَكَ الضَّافِي عَلَيْنَا يَنْسَدِلْ

موشح : سَلِّمْ بِقَلْبِكْ * لأَمْرِ رَبِّكْ * يَكُونُ عَوْنَكْ * فِي كُلِّ شَيْ



الطريقة التيجانية

نسبة إلى مؤسسها أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني

(1150 - 1230هـ)

الشيخ المؤسس : هو[أبوالعباس] أحمد بن محمد الشريف بن المختار بن سالم الحسني التيجاني [العلواني] وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، [وأمّه عائشة بنت الشيخ محمد السنوسي التيجاني المضاوي (نسبة إلى عين ماضي)]1، وُلِد سنة 1150 هـ[1737-38م](1) في السفح الجنوبي لجبل "عمور" حيث يقوم قصر باسم "عين ماضي" من إنجازات بعض الشرفاء في القرن السابع عشر للميلاد الحادي عشر للهجرة، حين كثر تأسيس مثل هذه الرباطات المنتشرة هنا وهناك في كامل شمال إفريقيا. والّذي جعل هذا القصر مشهورا شهرة الأولياء والصالحين الذين رابطوا فيه، فقد كان يفد إليه العلماء والشرفاء من كل مكان: أماالعلماء المشاهير فلنشر علومهم ومبادئهم، والآخرون من أولياء ودعاة لإظهار خوارقهم والدعوة لطرقهم. ووصل القصر إلى القمة في شهرته المتنامية بشهرة هؤلاء الرجال على يد الشيخ سيدي "أحمد بن محمد بن المختار التيجاني" مؤسس طائفة التيجانية. وهو ينحدر من سلالة الولي الّذي أسس هذا الرباط بقرية "عين ماضي". "نشأ في عفاف وصيانة وتقوى وديانة محروسا بالعناية محفوفا بالرعاية مقبلا على الجد مائلا إلى الرشد والانفراد متطلّبا للدين وسنن المجتهدين

---

1 نقل عن كوبولاني، الطوائف..، ص 413 - 441. ومابين[..] إضافة من الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي لمحمد البوهلي النيال ص323 - 332.

مشتغلا بالقراءة، معتادا للتلاوة. حفظ القرآن الكريم حفظا متقنا في سبعة أعوام على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن أحمد التيجاني ثم اشتغل بقراءة العلم الشريف، فقرأ على جماعة من العلماءِ الجلّة من فحول هذه الملة بعين ماضي وغيرها إلى أن تبحّر رضي الله عنه في علم الشريعة، ثم مال رضي الله عنه إلى طريق الصوفية والبحث عن المعارف الإلهية والأسرار الخفيّة، وسافر في طلب ذلك من بلد إلى بلد، حتّى بلغ غاية ما قصد، بعد أن تلاقى مع جمع من العارفين والأولياء والصالحين رضي الله عن الجميع. وزوجه والداه قبل موتهما لما بلغ الحلم من غير تراخ منهما في ذلك اعتناء بشأنه وحفظا من الشيطان وحزبه وصونا لأمره مراعاة للسنّة المطهّرة بالمبادرة بذلك، وكان تزويجه سنة ثم طلّقها حيث رآها شغلته عن مقصوده الأهم من الجدّ والاجتهاد وحيث لم توافقه فيما رامه من العبادة وسلوك سبيل الرشاد.

ولما حصل مقصوده وعلم أن التزويج مطلوب منه بمقتضى الاقتداء بالسنة اشترى .. أَمَتَيْنِ مباركتين وتزوج بهما بعد عتقهما"[1] فكانتا نعم القرينتين لنعم الزوج، وأنجبتا له الذرّية التي كانت صالحة، وقام بنفسه بتربيتها بالحزم اللائق بأمثاله من حرص على الصلاح وحبّ خالص ورعاية كاملة. وكان والداه قد توفّيا معًا بالطاعون سنة 1166 هـ ودفنا بعين ماضي مع بعض إخوة الشيخ وسنّه ستّ عشرة ستة.[2]

وتاريخ حياة الشيخ أحمد التجاني لا ينفد من المدح والشكر والإجلال بعد أن عجز أتباعه عن وجود أوصاف معبرة لنشر فضائله وذكر خوارقه وتعداد فعائله وسطوع بوارقه، فهو العالم المعلّم بالمدرسة الزاهرة من علوم الدين والآخرة الباطنة منها والظاهرة، وهو صاحب الكرامات والأنوار والملهم من النبي المختار ملهمه الوحيد ومعتمده العتيد. ولكل هذا أسباب ظهرت بوادرها منذ الصبا، إذ تسلّم مشيخة الرّباط الذي أسسه جدّه في سن السادسة عشرة أي بمجرّد وفاة والديه، وجلس يعلّم القرآن الكريم والسنة المطهرة[3].

و لشغف الشيخ بالعلم، ترك رباطه، وسافر إلى "فاس" لإتمام دراسته على أيدي أجلّ

---

1 نفس المرجع.

2 أحمد العياشي سكيرج، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأحباب، المكتبة الشعبية، بيروت- لبنان، ص.و14 .بدون تاريخ للطبع.

3 نفس المرجع السابق، ص.12.

العلماء في عصره، وبعد بضع سنوات رجع إلى "عين ماضي" مصحوبا بإجازات أشياخه، فجلس ليعلّم عديد الطلبة كل العلوم المعروفة في ذلك العصر، بعد الاستقرار والزواج.

ولما بلغ سن السادسة والثلاثين [سنة 1186 هـ] حجّ إلى البلد الحرام فمرّ في طريقه بتونس والقاهرة والمدينة المنورة، ودخل في الطرق القادرية والخلوتية والطيّبية. ثم رجع إلى "فاس" وأخذ ينشر الآراء التي كانت ركيزة تعاليمه.

[وفي سنة 1196هـ/1781م خرج الشيخ أحمد التيجاني من تلمسان إلى قصر "بو صمغون"[1] (جنوب "جويفيل") والسلالة بالصحراء الشرقية فقُضيَ له فيها بالفتح، ورأى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقظة لا مناما، كما تقول كتُب القوم، وعيّن له الورد مائة من الاستغفار ومائة من الصلاة عليه وأمره بتلقينه لكل من طلبه من المسلمين والمسلمات. وقال له: "لا مِنّة لمخلوق عليك من مشائخ الطّريق فأنا واسطتك وممدّك على التحقيق فاترك عنك جميع ما أخذت من الطّرق ". وفي سنة 1200 هـ كمّل له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الورد بمائة من الهيللة. ثّم طلب التيجاني من الرسول الأعظم وقال: " إن كنتُ أنا بابا لنجاة كل عاصٍ تعلّق بي فنَعَمْ وإلاّ فأيّ فضل لي؟ " فأجابه الرسول (صلى الله عليه وسلّم):"أنت باب لنجاة كلّ عاصٍ تعلّق بك"][2].

ومنذ ذلك التاريخ وهو 1196 هـ[1781 - 82م] وهو تاريخ تأسيس الطائفة، انطلقت الطريقة، فرجع الشيخ إلى "عين ماضي" التي ما زالت إلى الآن المقر الرئيس للطائفة، ووضع القواعد الأساسية لها، ثم خرج يذرع الشمال الإفريقي و"التوات" والصحراء، ويقدّم نفسه مرسولا من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا داعية ولا معلّما. وبنى الزوايا وكلّف عليها المقدّمين وحصل الكثير من "الأحباب" (هكذا يسمى أتباع التجانية). واتسعت شهرته حتى أصبحت طائفته قويّة مهيبة تقلق أمن الحكم التركي الذي حاصر المدينة الصغيرة "عين ماضي" عن طريق باي "وهران" [محمد بن عثمان الّذي أزعج الشيخ التيجاني من تلمسان إلى قرية (بوصمغون). فلما مات هذا الباي خلفه ابنه عثمان بن محمد فسُعِيَ عنده بالشيخ التيجاني فأرسل إلى أهل أبي صمغون

1 بو صمغون قرية بسجلماسة (المغرب).

2 محمدالنيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 325 . وما هو خارج المعقفين لكوبولاني، وذكر مثل ذلك في كشف الحجاب، ص7.

وتهددهم ليخرجوه، فلما سمع الشيخ خرج مع بعض تلاميذه وأولاده وسلك طريق الصحراء حتى اقترب من فاس] حوالي [1783 - 1787].

وتعب الشيخ من المطاردات والملاحقات حتّى في رباطه، فاحتمى بـ"فاس" سنة 1211 هـ وتلقى مساعدات السلطان مولاي سليمان الذي بنى له زاوية في حومة "البليدة الغربية" حيث وافاه الأجل في 14 شوال 1230 هـ [19 سبتمبر 1815م] ودفن بزاويته هناك.

أخبار الطريقة : قبل أن يتوفى الشيخ أملى على الأحباب: سيدي الحاج علي حرازم[1] وسيدي محمد المشيري السايبي تاريخ حياته ووصاياه لأتباعه التي أصبحت فيما بعد تسمى "الكنّشية" التي أصبحت كتاب الأدعية التجانية، وللطريقة مؤلفات عديدة أخرى من أشهرها "الرّماح" لعمار الفوتي السوداني و"الجوهرة" تأليف الشيخ أحمد التيجاني نفسه ونسخه الحاج علي حرازم و"الجامع" لمحمد بن المشيري، و"قصة الحربة والسيوف" لعمّار الفوتي السوداني، و"انتصارات الشرفاء"لمحمد بن المشيري و"كتاب الياقوتة" لمحمد بن العربي، و" البغية"، وغير ذلك من المخطوطات الأخرى.

وانتشرت الطريقة التجانية بتونس عن طريق الشيخ الحاج علي حرازم بن العربي برادة، الّذي [انتهى من تدوين"كتاب جواهر المعاني" في شهر شعبان سنة 1213هـ. ولما ظهرت عليه بوادر الولاية أمره شيخه أحمد التجاني بالسفر، كما كلّفه بأمور توجهت عليه بالمدينة المنورة ومكة المكرمة، فأطاع الشيخ علي حرازم، وظهر سنة 1216 هـ بمدينة تونس وتردد على جامع الزيتونة وتعرّف على الشيخ ابراهيم الرياحي[2]، وكان الشيخ

---

1 هو أبو الحسن الحاج علي بن العربي برادة المغربي الفاسي، كان من خاصة الشيخ أحمد التجاني، التقى به في مدينة وجدة سنة 1191 هـ حين خرج الشيخ من تلمسان قاصدا زيارة الولي مولانا إدريس، فتوجه معه إلى فاس وأقام بها مدّة في زيارة الروضة الإدريسية ثم لقنه الطريقة الخلوتية، ولما استقر المقام بالشيخ أحمد أمر تلميذه الشيخ علي حرازم بجمع "كتاب جواهر المعاني"وترتيب فصوله كما أجازه إجازة عامّة وكان ذلك سنة 1214هـ. ولما تم لصاحبنا الفتح أمره أستاذه بالسفر لقضاء أمور توجبت عليه بمكة المكرمة والمدينة المنورة لينوبه في قضائها، فخرج من فاس إلى الحجاز، وعند زيارته لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصابته غيبوبة فظن أصحابه أنه توفّي فتركوه. ومرّ في سفره بتونس سنة 1211هـ والتقى فيها بأبي إسحاق إبراهيم الرياحي فلقنّه الطريقة التجانية. (عن كشف الحجاب، للعياشي سكيرج بتصرف).

2 لشيخ أبو إسحاق سيدي إبراهيم بن عبد القادر الرياحي الطرابلسي التونسي (1181هـ/1767م -1266هـ/1849م)، كبيرالمفتين على مذهب إمام دارالهجرة وعالم تونس في أوائل القرن الثالث عشر، وُلد بتستور سنة 1180 - 81، أخذ عن أعلام كالشيخ حمزة الجباس والشيخ صالح الكوّاش الذي نابه في سفارة المغرب وحسن الشريف وغيرهم.كان أوّلا على الطريقة الشاذلية أخذها عن الشيخ البشير بن عبد الرحمان الونيسي، وتعرّف على شيخ الرحمانية الشيخ مصطفى عزوز وامتدحه في بعض أشعاره، ولما جاء خليفة التجاني الشيخ علي حرازم إلى تونس

إبراهيم في الخامسة والثلاثين من عمره شاذليا، وكان ذا مكانة في الإفتاء والتدريس... فأعجب بالشيخ علي حرازم غاية الإعجاب حتّى أنّه أسكنه معه في بيت سكناه بمدرسة بئر الحجّار، واستأذن في اتباع طريقته التيجانية فأُذِن له، وتلقاها من شيخه هذا. وقال فيه قصيدة عصماء بها 34 بيتا، مطلعها :(البحر الكامل)

كَرُمَ الزَّمَانُ وَلَمْ يَكُنْ بِكَـرِيمِ   وَصَفَا فَكَانَ عَلَى الصَّفَاءِ نَدِيمي

حتى يقول :

وَأَجَلُّهَا نَظَرِي إِلَى ابْنِ حَـرَازِمٍ   وَتَمَتُّعِي مِنْ وَجْـهِهِ بِنَعِيمِ[1]

وكان الشيخ إبراهيم منخرطا في سلك الطريقة الرحمانية وشيخها في تونس (آنذاك) سيدي عمر البشيري الّذي عرّفه على الطريقة لا يزال بقيد الحياة. إلاّ أنّ براعة الحاج علي حرازم قد حملت الشيخ إبراهيم الرياحي على الخروج من الطريقة الرحمانية والتّخلّي عن نُسَخِهَا، ولم يسلك الطريقة التيجانية إلا عن شروط ضمنها له الشيخ علي حرازم وهذه الشروط فيها الضمان المؤكّد لنجاح الشيخ إبراهيم في الدنيا بحصول الجاه والكسب وصلاح الذرية وما إلى ذلك، مع ما يضمن له الفوز وسعادة الآخرة ... وفي سنة 1218 تمكّن الشيخ إبراهيم من السفر إلى المغرب في سفارة من الأمير حمودة باشا،

سنة 1216 أعجب به واستأذن في ترك طريقته والدخول في التجانية فأُذن له وهو ناشر الطريقة التجانية بتونس أخذها عن صاحبها بفاس مباشرة عندما قام بالسفارة عن تونس لدى سلطان المغرب، وذلك أنه حدثت مسغبة بالبلاد التونسية سنة 1218هـ فأمر الأمير حمودة باشا الشيخ صالح الكوّاش بالسفارة إلى سلطان المغرب مولانا سليمان لطلب الميرة، فاعتذر وأشار بالشيخ إبراهيم الرياحي فكلّفه الأمير بهذه السفارة، فلما بلغ فاس مشى أولا لدار الشيخ التجاني عملا بوصية شيخه علي حرازم فقضى منه وطره ثم توجه للسلطان فامتدحه بقصيدة أنشدها بين يديه مطلعها :   إِنْ عَزَّ مِنْ خَيْرِ الأَنَامِ مَزَارُ   فَلَنَا بِزَوْرَةِ نَجْلِهِ اسْتِبْشَارُ
فقوبل بالترحاب وتحقيق الطلب. ثم حجّ حجّتين... وفي سنة 1254 بعثه المشير أحمد باي سفيرا في مهمّة لدار الخلافة والأستانة العلية فمدح بها السلطان محمود بقصيدة مطلعها:
اَلْعِزُّ بِاللهِ لِلسُّلْطَانِ مَحْمُودِ   ابْنِ السَّلاَطِينِ مَحْمُودٍ بِمَحْمُودِ
فلقي هناك إقبالا وترحابا. وللشيخ الرياحي شعر رفيع بديع، ومناقبه مفردة بالتأليف. وأسس زاويته المقبور بها بالنهج المعروف باسمه بنهج الباشا، وتوفي بالطاعون قبل إتمام عمارتها في 17 رمضان المعظم سنة1266هـ، فاتمّها المشير أحمد باي سنة 1270 هـ. ورتّب بها محمد باي ميعاد الطريقة التجانية التي كان ينتسب إليها أيضا، واعتنى بها محمد الصادق باي على يد الوزير خير الدين فأتم عمارتها "وضريح سيدي إبراهيم الرياحي بحومةحوانت عاشور." (الصادق الرزڤي، الأغاني التونسية هامش الصفحة 81، و كشف الحجاب للعياشي سكيرج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص386 عدد 1555.)

1 راجع القصيدة ص90 من (كشف الحجاب) للعياشي سكيرج.

وأدّى زيارة إلى الشيخ أحمد التيجاني واجتمع به في داره وقال عنه: (فرحت كثيرا برؤية السلف الصالح). وفي سنة 1238 هـ أدّى الشيخ إبراهيم زيارة للقطب الشيخ الحاج علي التماسيني الّذي تولّى مشيخة الطريقة بعد وفاة الشيخ أحمد التيجاني.].

ويظهر أنّ الشيخ إبراهيم تحصّل على إجازة من الشيخ أحمد التيجاني حيث[كتب(بنفسه) إجازة قال فيها : "...كما أجازني بها شيخنا أبوالعباس رضي الله عنه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقظة لامناما. "][1]. وللشيخ إبراهيم شعر كثير مدح فيها الشيخ التجاني منها في البحر الخفيف ميميته التي مطلعها :

يَا تُرَى مُمْرِضِي دَرَى بِسُقَامِي فَهْوَ إِنْ يَرْضَـهُ أَعَـزُّ مَرَامِي

ومنها (من البحر البسيط) سينيته التي مطلعها :

صَاحْ ارْكَبِ الْعَزْمَ لاَ تَخْلِدْ إِلَى الْيَاسِ وَاصْحَبْ أَخَـا الْحَزْمِ ذَا جِدٍّ إِلَى فَاسِ

ومنها في وزن اللاحق :

اَلْحَمْدُ للهِ وَهْوَ حَسْبِي وَفَازَ مَنْ حَسْبُهُ الْحَبِيبُ

ومنها (في البحر الوافر) سينيته التي مطلعها :

كَفَانِي مِنْ زَمَانِي مَا أُقَاسِي وَمَا مَنْ أَهْلُهُ بِالْقَلْبِ رَاسِي[2]

وزاوية الشيخ ابراهيم الرياحي في تونس معروفة مشهورة قرب حوانيت عاشور.

وللطريقة التجانية زوايا عديدة بالحاضرة منها زاوية "زُقُوم" و"تروجة" و"رحاحية" و"قمارة" و" باب المنارة"، وبتوزر زاوية المقدم سيدي عبد الرحمان بن السوداني، وفي القيروان زاوية المقدم سيدي محمد العلاّني، وبالسرس شرق القيروان زاوية علي بن بلقاسم، وبالسرس (بالشمال) زاوية الشيخ المنوبي، وزوايا ببنزرت وجربة، وعدّة أماكن أخرى.

وبالجملة فإن الطريقة التيجانية كانت من أبرز الطرق التي نشرت الإسلام بالساحل

1 محمد النيال، الحقيقة التاريخية التصوف الإسلامي، ص.ص 329و 330.
2 العياشي سكيرج، كشف الحجاب، ص.ص. 137 - 142.

الصحراوي والسودان الغربي من إفريقيا.

أصول الطريقة : هي طريقة ذات هدوء، أتباعها يسمون أحباب الشيخ، ويسمّى الشيخ الذي يعطي العهد (مقدما) وجميع التسميات تقع من خلفاء الشيخ بالإجازة أو من بعض أحفاده. وتمتاز بعدّة خصائص منها عدم زيارة الزوايا الأجنبية عن الطريقة، وعدم أكل سماطهم، ومنع الأحباب من التوسل في الدعاء بأولئك المشائخ، ولعلّه من باب توجيه القصد إلى شيء واحد في كل شيء دفعا لاضطراب العزم، فالشيخ كما أسلفنا حريص على أتباعه كأنهم أولاده ويغار عليهم ويخاف عليهم من الضلال.

ونورد هنا القواعدَ الأساسية مختصرة ومحفوظة بكل عناية في إجازة المقدم التي يقدمها له أحد الورثة الروحيين للشيخ التجاني[1]:

[الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله

من المعلم الشهير الكريم، الكاشف للناس الطريق المستقيم، والمثال المتبع والحاج الورع مولانا سيدي الحاج معمر الإبن الوحيد للغوث الكامل القطب الذي يلجأ إلى بابه كل من أراد القرب من ربه مولانا الشيخ سيدي الحاج علي التيجاني رضي الله تعالى عنه أجزنا لصديقنا الشهير أكبر التلاميذ ...... أن يعطي طريقة مولانا الشيخ أبي العباس سيدي أحمد التيجاني رضي الله تعالى عنه لكل من يطلبها. وتتمثل أوراد طريقتنا في التلاوة بين اليوم والليلة الذكر المخصوص الآتي :

(100 مرة أستغفر الله) و(100 مرة تصلية الفاتح: اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم)، ثم (100مرة لا إله إلا الله). ويمتد الليل من صلاة العصر إلى الفجر ويبتدئ النهار من صلاة الصبح ويمتد إلى صلاة العصر. ويمكن تلاوة الذكر في كل وقت من ليل أو نهار، ومن ترك هذه الأوقات تمر (الصبح والعصر) دون أن يتلو الذكر المكتوب فيمكنه تلافي خطئه. أما تلاوة الوظيفة (وهي دعاء للإخوان بحكم الطريقة خارج الذكر) لازم أيضا مرتين في اليوم لمن دخل في الطريقة. ويكفي لمن منعه

---

1 هذا نقل عن المكتوب بالفرنسية من كتاب كوبولاني ورفيقه (الطوائف الدينية الإسلامية).

مانع أو شغله شاغل يجعله معذورا أن يتلو الوظيفة مرة واحدة في اليوم.

وتتمثل هذه الوظيفة في الترديد بعد الوضوء (100 مرة أستغفر الله) (30 مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم) و(50 مرة صلاة الفاتح) و(100 مرة لا إله إلا الله) و(12 مرة دعاء جوهرة الكمال)، والذي يتيمم، يجب عليه عوض (جوهرة الكمال):(20 مرة صلاة الفاتح) فذلك يكفيه. كذلك يجب في يوم الجمعة على كل من يدخل الطريقة التيجانية (الهيللة) أن يقول (لا إله إلا الله) ويجب أن يبدأ في هذا الدعاء في اليوم المذكور من صلاة العصر إلى غروب الشمس. ومن له شواغل تمنعه من قول هذه التصلية من العصر إلى غروب الشمس يقولها بعدد غير محدد لا يقل عن 12 مرة فإن ترك الوقت المحدد يمر فلا يقول الهيللة في وقت آخر ويخسر بذلك جزاء كثيرا من الله. وكل من دخل طريقتنا يحصل له خير بإذن الله ويجب عليه خشية الله سرا وعلانية وأن لا يتهاون بالصلوات الخمس اليومية في صحبة المؤمنين إلاّ إذا منعه مانع.

كان أجازني شيخي المذكور أن أعطي الطريقة وقد أخذها هو عن شيخه الجليل الشيخ سيدي محمد الصغير الذي أخذها هو نفسه عن المثال المحتذى الشيخ محمد العيد الذي أعطاه إياها الشيخ الولي الجليل سيدي الحاج علي الذي أخذها عن الشيخ الورع العالم الشهير شيخنا ومولانا أحمد التجاني رضي الله تعالى عنه. وقد تلقاها من سيدنا وسيد كل مخلوقات الله تعالى مولانا رسول الله صلوات الله وبركاته وسلامه عليه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه والحمد لله أولا وآخرا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم آمين يا رب العالمين].

طريقة العمل : أعمالهم هي الاستغفار والصلاة على النبيء وذكر (لاإله إلا الله) وتسمّى مجموعة تلك الأذكار الوظيفة، وهي واجبة القراءة على كل واحد من أحباب الشيخ في كل صباح ومساء بكل سكينة ووقار وخشوع.

وللطريقة حلقات يمدحون فيها الشيخ بالألحان والنغم والنقر على طبلة صغيرة يضربون عليها بالأيدي. وهذه الحلقات لا توجد إلا في الحاضرة وبلاد الجريد. وفي الحاضرة قد يستعملون الطّار والنغارات أو يزيدون الكمنجة أو الرباب أو البيانو

ولكن هذه الآلات الثلاث الأخيرة لا يُدخلونها إلى الزاوية ولا يستعملونها إلا في الولائم والأفراح[1].

والطريقة مشهورة بين النساء أيضا، فبالحاضرة قد لا تجد حومة خالية من زاوية تيجانية و"مقدّمة" أو اثنتين بكل زاوية. فالمقدّمة تعطي العهد إلى النساء مثل الرجال مع بعضهم. وحبيبات الشيخ يجتمعن عند المقدّمة ويأتينها بالنذور، ومنهنّ المدّاحات اللاّتي يضعن طبلة سيدي أحمد بينهنّ في مساء كل جمعة وينقرن عليها ويمدحن أمداحا كثيرة وطويلة.

ومن العادة في زوايا النساء الرشوق، بأن تهز النخوة بعضهن فترشق (وهو نثر بعض الدراهم) فتتبعها الأخريات فيجتمع فوق الطبلة للمدّاحات والمقدّمة مال يقلّ ويكثر. وعند ختم المديح تُرفع الطبلة وتتلى وظيفة الشيخ، وتوزّع تلك الأموال بين الزاوية والمقدمة والمدّاحات.

وجميع المديح عندهم هو تقليد للأغاني المجونية حتى السمجة الألفاظ ومنها مدائح بلحن جريدي ومنها ما هو بلحن تونسي وهو الذي يأتي على ألحان الأغاني، ومنها مدائح بلحن غربي مخالف للبقية من كونه مهيجا وخفيفا يطرب بإفراط. وقد يعتري النساء بالخصوص منه نوبات عصبية شبيهة بالجنون ولو في دورهن، فيتعلّلن لأزواجهنّ أو آبائهنّ بأنهنّ لا يشفين من هذا المرض إلا على طبلة سيدي أحمد فيسرحهنّ ويذهبن إلى الزوايا أو دور المقدّمات[2].

ومن أمداحهم نَظَمَ الفاضل الأديب الشيخ أحمد بن سعيد التونسي، وقيل هو حسن بن سعيد ونّاس المتوفّى سنة 1922 وكان مشاركا في عدّة فنون :

ردّة : رَبِّي سَأَلْتِــكْ بِالنَّبِي الأَوَّابْ   وَالآل وَالأَصْحَـابْ

وَالتِّيجَانِي وَأَحْبَابُه الأَقْطَابْ   اَلْغَوْثْ سِيدِي أَحْمَدْ

يَسِّرْ أَمْرِي وَافْتَحْ الأَبْــوَابْ   وَأَصْلِحْ لِي اللِّي فَسَدْ

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية. ص.ص 138 - 151.

2 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص.ص 141 - 142.

***

بيت1 : بِسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ الْمَوْجُودْ قْدِيمْ وَمَـعْبُـودْ

هُوَ الْبَاقِي غَيْـرُهُ مَفْـقُودْ غَـنِي عَلَى الأَبَـدْ

الْمُخَالِفْ لِكُلِّ الْمَوْجُـودْ اَلْحَيُّ الصَّـمَـدْ

بيت 2 : اَلْمُرِيدِ الْعَالِمِ الْقَـدِيرْ سَمِـيعْ بَصِـيرْ

اَلْمُتَكَلِّمْ مِنْ غِـيرْ تَاخِيرْ اَلْوَاحِدْ الاَحَـدْ

اَلْفَـعَّالْ إِلَـيْـهِ الْمَصِيرْ لَيْسَ مِثْـلُهُ أَحَدْ

***

بيت 3 : وِنْصَـلِّي عْلَى النَّـبِي وِالآلْ مَمَرِّ اللَّـيَالْ

وِالصَّحَـابَة سْلاَمْ لا يَـزَالْ دَائِمْ مِتْجَـدِّدْ

وِعْلَى التِّيجَانِي واصْحَابُه الاَمْثَالْ وِالاِبْـنِ وِالْـجَدْ

***

بيت 4 : بِاللهْ نَادُوا يَا جْمِيع الاَحْبَابْ اللِّي حَضَرْ وْ غَابْ

عْلَى بِنْ سَالِمْ فَكَّاكِ الْمُصَـابْ إِذَا الْجُـرْحِ نْفِـدْ

وِإِذَا ذْكَـرْتِمِ الشِّيخِ الْمُهَـابْ رَاهُ الْكَرْب شْـرَدْ

وهكذا 21 بيتا يختمها :

بيت 21 : نْتَمِّمْ نَظْـمِي بِصْلاَةِ الْغَـفَّـارْ عْلَى النَّـبِي الْمُخْـتَارْ

وْ عْلَى الآلْ وْالاَصْحَابِ الأَقْمَارْ سَـلاَمْ لاَ يُـعَـدْ

وْ عْلَى التِّيجَانِي وَاحْبَابُه الاَخْيَارْ وْأُمَّـةْ مُحَمَّدْ

ومن مديحهم مدحة من إنشاء الأديب العربي النجّار وهو من مشاهير شعراء

الملحون بالشمال التونسي وهو دفين بلد العالية توفى سنة 1332 هـ وهذه المدحة مشهورة ينشدونها علىنغمات عديدة منها النغمة الجريدية :

ردة : بِسْمِ اللهِ نِبْــدَا تَرْتِيــبْ أَوْزَانِي ‏ ‏ وْبِصْلاَةْ كَنْزِنَا الْمَبْرُورْ

وِنْمَجَّدْ الشّرِيفِ الْغُوثِ الرَّبَّانِي ‏ ‏ بِنْ سَالِمِ الّذِي مَشْهُورْ

بيت : فِي مَدْحْ نَجْلْ طَهَ الْهَادِي ‏ ‏ سِيدِي احْمِدْ نُورِ أَسْهَـادِي

فْصَلِ الْمَضِيقْ بِهِ نْنَـادِي ‏ ‏ يِفْزَعْ وِيزِيحْ عَنِّي احْـزَانِي

وْكْذَا يْجُودْ لِي بِأَوْتَــادِي ‏ ‏ نِرْتَاحْ مِنْ كَرْبِي الدَّخْلاَنِي

وتتركّب هذه المدحة من ستّة أبيات على هذا النمط.

ومن مديحهم أيضا مدحة الأديب العربي بن عثمان التونسي وينشدونها على أنغام عديدة :

ردة : أَلْفَى يَا سُـلْطَانِ الْمَغْـرِبْ ‏ ‏ يَا بْحَرِ الْكَمَالْ

قَدَّاشْ أَنَا عْلِـيكْ نِنْحِبْ ‏ ‏ راهُ الْوَعْدْ طَالْ

بيت1 : نِبْدَا قُولِي بِسْمِ الْقَاهِرْ ‏ ‏ وِنْصَلِّ عْلَى الْهَادِي الطَّاهِرْ

صَلِّ يَا رَبِّ يَا قَـــادِرْ ‏ ‏ عْلَى سَيِّدِ الــرِّجَــــــالْ

بيت2 : بَعْدِ صْلاَتِي عْلَى مُحَمَّدْ ‏ ‏ نِمْدَحِ التِّجَانِي أَحْمَدْ

اللِّي يِحِبُّه مَــاذَا يِسْعِدْ ‏ ‏ يِلْـقَى لُه عَجَّــــالْ

وهكذا تسعة أبيات :

بيت 9 : سِيدِي أَحْمَدْ نَا فِيكْ شَادِدْ ‏ ‏ رَانِي مْنِ الأَدْرَاكْ فَـادِدْ

تِحْضَرْ لِي عِنْـدَ الشّـدَايِـدْ ‏ ‏ رَاهُ اشْتَـــدِّ الحَــالْ



الطريقة الدرقاوية

يظهر أن الطريقة الشاذلية الأمّ وجدت مجالا رَحْبا للتوسّع السّريع بسلطنة المغرب الأقصى، فانتشر المذهب وقسمت الطريقة إلى عدّة تقسيمات متمايزة بين الأشراف المعتمدين عادة على أصولهم واحترام الناس لهم، وبدأ العلم الروحاني الذي أسسه الصوفية ونشره أبو الحسن الشاذلي وأتباعه يميل إلى الجمود، ونوع من تقديس الأولياء والصالحين، فرغم اتباعهم للخطوط العريضة التي رسمها الشيخ أبو مدين شعيب المدني والشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبو الحسن الشاذلي، فإن هؤلاء الأشراف منذ ولادتهم ينحازون للدولة الشريفة ولا يراهم أحد يهملون النواحي الدنيوية والمادّية رغم تعاليم الزهد ونبذ الدنيا في الطريقة الأم.

لكن من كل هؤلاء شذّ أحد العلماء الشهير بفقهه وترفعه واحتقاره العميق لمباهج الدنيا فقام يريد الوقوف ضدّ التيار، وينادي بالعودة إلى المعين الصافي للتعاليم الصوفية ويهيب بالمثقفين والتقاة إلى الرجوع إلى الطريقة الشاذلية الصرفة إذ هي الوحيدة التي يمكن أن تفتح لهم طريق الجنّة. هذا العالم المتحمس هو أبو الحسن مولاي علي بن

عبد الرحمان الجمل الفاسي[1] الذي أخذ عن الشيخ الطّيّب الوزّاني الآنف الذكر، ثم أخذ عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي، فكانت طريقته وريثة الطريقة الطيبية. وفي بداية القرن الثالث عشر للهجرة قام تلميذه ومساعده الرئيسي مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي بمواصلة العمل فنسبت إليه الطريقة.[2]

الشيخ المؤسس : هو أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الشريف الحسني[3]، وُلد سنة 1114 هـ في قبيلة بني زروال، وينسب إلى فرقة الدرقة التي خرج منها جدّه يوسف بودُرقة (صاحب ترس) ومن هناك خرجت النسبة درقاوية. أخذ الطريقة عن أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الجمل

الفاسي عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي عن أبيه عن الشيخ الخصاصي عن االشيخ محمد الفاسي عن الشيخ عبد الرحمان الفاسي عن الشيخ عبد الرحمان المجذوب عن الشيخ علي الصنهاجي عن الشيخ إبراهيم إِمْجَامْ عن الشيخ أحمد زروق بسنده للإمام الشاذلي.

وقام التلميذ العربي الدرقاوي بنشر الطريقة إتماما لعمل أستاذه، وأخذ عنه خلق كثير وانتفعوا به منهم ابناه محمد الطيّب المتوفّى سنة 1287 هـ والشيخ البركة علي، وأبو عبد الله محمد ابن حسن ظافر المدني، وأبو العبّاس أحمد زويتن وأبو عبد الله عمر بن الحرّاق، وتُوُفّي سنة 1239هـ[سنة 1823م] وله زاوية بـ(بوبريح) على بعد بعض الكيلومترات من فاس في قبيلة بني زروال.[4]

أخبار الطريقة : واصل الشيخ الدرقاوي عمل أستاذه فكان أشدّ صرامة وحزما، ومال إلى الطهر والتمسك بالفضيلة حتى جعل من أتباعه الشاذليين طائفة من الفقراء

---

1 هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الجمل الحسني الإدريسي شيخ الطريقة وإمام الحقيقة العارف بالله الدالّ عليه الفاضل، منبع المعارف الولي الكامل. أخذ عن مولاي الطيب الوزّاني، ثم لزم العارف الأكبر الشيخ العربي بن أحمد معن وانتفع به حتّى صار بحرا زاخرا بالعلم والعرفان وسارت بأخباره الركبان وانتفع به الكثير منهم الشيخ العربي الدرقاوي وقد بالغ في الثناء على شيخه المذكور في كثير من رسائله. توفّي سنة 1194 وسنّه مائة وتسعة أعوام.(شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف ص 358 عدد 1428.)

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص.ص 503 - 513.

3 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 381 عدد 1523.

4 نص الترجمة مشترك بين كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 503 - 513 وشجرة النور الزكية لمخلوف ص381 عدد 1523.

المتحمّسين للممارسات الصعبة، فقدّموا المثل المحتذى للعامّة في مجاهدة النفس والوقوف مع الحق ومواجهة كل من لا يدين بمذهبهم ولو كان من أهل الجاه والسلطة. ومنذ أن وُجدت هذه الطريقة أصبح لها يد في كل انتفاضة أو تمرّد يقع بالجزائر وبالمغرب، فهؤلاء الشاذلية الدرقاوية من لابسي الأطمار والمرقعات والمتطهرين من أرجاس الحياة بانسلاخهم عن العالم من جهة وكراهيتهم لرجال السلطة من جهة أخرى، تراهم يسارعون إلى بث الفوضى وروح التمرد في أقرب فرصة تتاح لهم. وهكذا بانزوائهم في جبال "مجاجة" مثلا، استطاع محمد بن علي الذي يعتبر الأتراك مسلمين بدون عقيدة، أن يقود حربا مقدّسة سنة (1195هـ/1783 م) وأن يحقق انتصارا رائعا على العساكر التركية "المخزن" ويَغْرِقَ في هدايا باي "وهران" كما قام "بن عرش" في "بني والبان" من القبايل بدحر جيش الباي "عصمان" في سهل الهراس سنة (1222هـ-1808 م) وكذلك قصة "أبو ترفاس" ودور الدرقاوية في اضطرابات المغرب تحت السلطان مولاي سليمان، وأقرب منها انتفاضة عبد الرحمان التوشي والحاج موسى بن علي بن حسين المعروف بـ" بوحمار". وهكذا كلما هُزموا تفرقوا وقتيا ليظهروا من جديد أشد صلابة وأعنف مقاومة مزودين بأحاسيس المقت والثورة والتمرّد[1]. وقد رأينا سابقا كيف ورثت الدرقاوية نفوذها بوزّان وغيرها عن الطائفة الطيبية.

وانتشر الدرقاوية في كثير من البلدان العربية رغم فقرهم، وبلغوا البقاع المقدّسة، وكانوا يلتقون بأفواج الحجيج، ويعرضون عليهم دعوتهم دون محاولة للظهور بغير أطمارهم ومظاهر زهدهم، مما قد يلجئ بعض الحجيج إلى مدّهم ببعض الصدقات، لكنهم يظهر أنهم ليسوا مرتزقة متسوّلين رغم مظاهرالخصاصة، بل دعاة للتقشّف الّذي هو مذهبهم في الحياة، إذ أنهم يتحدّثون عن مبادئهم دون شكوى من المعاناة، وقد ذكر محمد بن الخوجة الكاتب الرسمي ومدير مطبعة الرائد الرسمي بتونس في رزنامته لسنة 1917 قوله: "وفي يوم الأحد رابع أكتوبر [1916م] اجتمعنا ببعض شيوخ الدرقاوية، وكانت أعنّة حديثنا معهم بيد الأستاذ الشيخ الجودي، إلاّ أنه كانت الخصاصة بادية على وجوههم مما حمل بعض إخواننا الحجّاج على إمدادهم بما سمحت به هممهم الأبية."[2]

1 نحن نترجم ترجمة قريبة من الحرفية عن كوبولاني.
2 محمد بن الخوجة، الرزنامة التونسية، سنة 17 طبع مطبعة الرائد الرسمي بحاضرة تونس سنتي:1335هـ/1917م، ص 61.

أصول الطريقة : يرى أتباع الدرقاوية أنهم كي يقوموا بواجباتهم، عليهم أن يتشبهوا بالنبيء موسى عليه السلام باصطحاب العصا، وبأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ضي الله عنهما بلبس المرقّعة، وبجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بمصاحبة الذكر وحمد الله بالرقص[1]، وبأبي هريرة بأن يضع في رقبته مسبحة، وبالنبي عيسى عليه السلام بحياة العزلة والعيش في الصحراء، وكذلك بالمشي حافيا والرياضة بالجوع وعدم مخالطة غير الصالحين ومجانبة أصحاب الجاه والسلطة والحذر من الكذب وقلة النوم والصلاة بالليل وتقديم الصدقات وإعلام الشيخ بالكبيرة والصغيرة مما يجول بالخاطر أو تقوم به الجوارح وأن يكونوا بين يدي الشيخ كالميت بين يدي غاسله[2].

ولعلّ من ميزاتهم البحث عن التخلّي عن الشهوات والإرادة لتكون إرادتهم هي ما أراد الله سبحانه وتعالى، وهذا ما يظهر في قول الشيخ أحمد العربي الدرقاوي في كتابه (شور الهدية):"أصحّ وسيلة لسلب الإرادة بالله هي النوم" فهو يريد أن يكون مسلوب الإرادة في هذه الحياة يسيرطبق ما يريده الله ولا اختيار له مثل النوم تماما. ويبالغون في تطهير النفس من التعلّق بأي غرض من أغراض الدنيا كما قال شيخ الدرقاوية في المغرب : " يعرف المريد في جذبه باختياره في ماله فإن فطن للخطإ فيه فهو كاذب"[3].

ويرجع الدرقاوية أصول طريقتهم إلى السلسلة الآتية: العربي بن عبد الله عن أحمد بن عبد الله عن قاسم سيدي أحمد اليماني عن قاسم الخزاز عن محمد بن عبد الله عن أبي جمال الدين أبي محصر يوسف بن محمد عن أبي زيد عبد الرحمان الفاسي الوكيل المجدوب عن أبي الحكم علي بن أحمد الصنهاجي الدوار عن يوسف الصنهاجي الدوّار عن سيدي الغازي بن بلقاسم عن سيدي علي السوسي عن إبراهيم بن الأجهم عن أبي الأنوار إبراهيم بن علي الزرهوني عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني الرشيدي

---

1 ويظهر أن هذا المبدأ قد ورثته الطريقة المدنية العلاوية، ففي حديث لي مع الشيخ منوّر المدني خلف الله عندما سألته عن مرجعية الرّقص عندهم احتج لي برقص جعفر بن أبي طالب عندما أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتسليمه الراية بعد زيد بن حارثة في الغزوة التي استشهد فيها وهي غزوة مؤتة، فروى أنه رقص فرحا بالشهادة التي كان يترصّد فرصتها.(راجع:خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ)

2 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص ص 503 - 513.

3 الحارث المحاسبي المتوفى سنة 243هـ، كتاب الوصايا، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1406هـ/1986م، ص 137.

عن سيدي أبي العباس أحمد زروق البرنوسي عن الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي عن أبي العباس حسن القرافي عن تاج الدين بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري المالكي (المتوفى بالقاهرة سنة 709 هـ/1309 - 1310 م) عن أبي العباس أحمد بن عمار الأنصاري المرسي عن أبي الحسن الشاذلي.

طريقة العمل : بالمغرب الأقصى يمثّل الطائفة الدرقاوية مجموعة من الرجال يُنشدون الحضرة وقوفًا بدون آلات، ويتوّلى الإنشاد ثلاثة أو أربعة، بينما يردد بقية الحاضرين كلمة (الله) على إيقاع 2من4 كما نجده في مدنية النّساء بالمنستير أثناء أدائهنّ لحضرتهنّ.

وينشط الدرقاوية الآن في جامع سيدي علي السياري وفي مقرها بعلقمة من مدينة نفطة. ولهم زيارة إلى زاوية الشيخ عبد الكريم بن عزوز في يوم عيد الفطر فيخرجون من مقرهم ويأتون إلى الزاوية المذكورة وهم ينشدون :

لاَ إِلَــــهَ إِلاَّ اللهُ لاَ إِلَــــهَ إِلاَّ اللهُ

يَابَانِي دَارِ الْغُـرُورْ غْـلاَشِ تْعَـلِّيـهَا

لَوْتَبْنِي فِيهَا قْصُورْ تِرْحَلْ وِتْخَلِّيـــهَا

وهي مدحة تقولها مدنية نساء المنستير، التي سنتعرض لها في الفصل القادم. ثمّ يتحوّلون إلى التربة

فيترحمون على أرواح المشايخ، ويتلون فاتحة الكتاب، ثمّ يستأنفون إنشادهم عَائدين من حيث أتوا.

أما غير ذلك من العمل فقد ورثه عنهم المدنية كما سنرى فيما يلي.



الطريقة المدنية «الدرقاوية»

قد لا تختلف الطريقة المدنية التي نتحدث عنها الآن عن الطريقة المدنية لأبي مدين شعيب المدني، فتلك أمّ تفرعت عنها الشاذلية، بينما هذه متفرّعة عن الدرقاوية التي هي نفسها متفرعة عن الشاذلية، فهي إذن نسبة إلى الشيخ الدرقاوي محمد بن حمزة **المدني** أصيل المدينة المنوّرة. ومن الموافقات العجيبة اتحاد الطريقة الأم مدنية الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري **المدني** وهذه الطريقة الفرع المتولّدة عن الأم عن طريق المدرسة الشاذلية. والواقع أن الشاذلية نفسها ليست إلاّ الطريقة المدنية كما نقلها الشيخ عبد السلام بن مشيش عن شيخة أبي مدين شعيب، ونلاحظ غياب استعمال الآلات في كل المدنيات بما في ذلك الشاذلية، بخلاف الطرق التي اصطلحنا على تسميتها "قادرية" التي تستعمل الآلات في عملها كما أسلفنا.

الشيخ المؤسس : هو الدرقاوي أبو عبد الله محمد حسن بن حمزة ظافر المدني أصيل المدينة المنوّرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، قرأ بها، ثم خرج سنة 1222 هـ، وساح في الأرض مدة 25 سنة حتّى انتهى إلى المغرب الأقصى، وهناك التقى بجلّة من العلماء فأخذ عنهم، منهم المختار القادري، وأخذ الطريقة النّاصرية، واجتمع بالشيخ أحمد التجاني وأخذ عنه، ثم أخذ عن أستاذه حامل لواء الطريقة الشاذلية العارف بالله

الشيخ العربي الدرقاوي وذلك سنة [1224هـ] وانتفع به، وأمره شيخه سيدي العربي الدرقاوي بالرجوع إلى طيبة(1) وقال له: "رُحْ جعلتك وسيلة بيني وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم" فامتثل أمره ورجع إلى المدينة المنوّرة، ولقّن الذّكر وانتفع به جماعة، ثم رجع إلى شيخه وأقام عنده سنين إلى أن توفّي الشيخ العربي الدرقاوي سنة[1239هـ] وورث سرّه، ثم رجع الشيخ محمد حسن المدني إلى بلده (طابه[1] خير من أمّ المطي رحابه)، ونشر في طريقه الطريقة، وهي المعروفة بالمدنية، وانتشرت واتّسع مجالها بالجزائر وإفريقية وخصوصا في طرابلس.

ولعل ما أورده الشيخ الحبيب عباس في أحد مقالاته عن صديق الشيخ محمد المدني: "- محمد بن سعيد الحجري المتوفى سنة 1199هـ/1783م ومن شعره الصوفي ما استزار به صاحبه محمد المدني:(من بحر البسيط): هَلْ فِيكُمْ مِنْ جَزِيلِ الْحُبِّ مَا فِينَا ؟ فَإِنَّ شَوْقَكُمْ قَدْ كَادَ يُفْنِينَا،

يَا سَائِرِينَ كَسَيْرِ الشَّمْسِ سِيرَتُهُمْ	وَالذِّكْرُ يَتْبَعُهُمْ كَالرَّوْضِ تَلْوِينَا،
تَقَاسَمَتْنَا عَجِيبَاتٌ لِبُعْدِكُمُ	فَالذِّكْرُ يُضْحِكُنَا، وَ الْبُعْدُ يُبْكِينَا
لَمْ أَمْلِكِ الصَّبْرَ إِذْ حَانَ الرَّحِيلُ بِكُمْ	لاَ يَمْكِنُ الصَّبْرُ مِنْ بُعْدِ الْمُحِبِّينَا"[2]

و أخذ عنه ابنه محمد ظافر الوارث لسرّه والخليفة بعده رئاسة الطريقة، ومن أحفاده الشيخ محمد البشير ظافر مؤلف: " اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة" وتوفي صاحب الترجمة (الشيخ محمد حسن) سنة [1268هـ/ 1852م][3].

أخبار الطريقة : تفرعت هذه الفرقة عن الدرقاوية وهي تمثل الفكر المعاصر الذي يجعلها منافسة لها. وتأسّست حوالي 1820م عن طريق الدرقاوي الشيخ محمد بن حمزة المدني، ولم تنتظر طويلا لتصبح من أهم الطوائف بطرابلس بزاويتها الأم بمصراطة مركز العديد من المبشرين الذين يأتون للانضمام إلى قيادة الشيخ المدني، وخصوصا

1 طيبة أو طابة هي المدينة المنوّرة.
2 محمد الحبيب عباس، كتاباتي، (مخطوط) وقد نشر هذا المقال في مجلة "الفكر" عدد 9 السنة 12 جوان 1967، ص71. نشر الكتاب سنة 2006 ويراجع المقال بالجزء الثالث ص29.
3 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 383 عدد 1535 .

عندما أصبح الشيخ محمد الظافر بن محمد حسن بن حمزة[1] المستشار المخلص للسلطان عبد الحميد الثاني عدوّ الدرقاويين في الأصل.

ومن ذلك الوقت أصبح المذهب الشاذلي الدرقاوي كما يعلِّمه هذا الشيخ المدني يُكَيَّفُ على رغبات الشيخ ظافر واحتياجاته السياسية في الدعوة للوحدة الإسلامية للخلافة العثمانية التي نادى بها هو نفسه وكان محركها الأساسي[2] فقد شرح في كتابه "النور الساطع" المنشور بالقسطنطينية سنة 1885م المبادئ الأساسية لمذهبه. وأنت تلمس بالإضافة إلى الطابع الصوفي ومبادئ التوحيد والتصوّف في الشاذلية الصرفة ما يشير إلى اهتمامات هذا الدبلوماسي ومحاولته لجعل أتباعه دعاة للأفكار الوحدوية.

نقول: إن تلك الفترة الحرجة من حياة المسلمين، وأملهم في الخلافة أن تبعد عنهم شبح الأخطار المحدقة بهم، هو الذي يحدو بأصحاب العقول النظيفة للبحث عن التوحّد ولو في ظل حكم غاشم، فهو على الأقل يحمل الإسلام بين جنبيه وليس الكافر الذي يرمي إلى طمس الاسلام من وراء تحطيم هيكل الخلافة ولو كان مهترئا.

وكانت طرابلس المركز الأصلي للشيخ محمد ظافر، وبعد وفاة الشيخ حمزة، توارثها أبناء أخيه فكانوا أعوانا للسياسة العثمانية، ووصلت حركاتهم إلى أقاليم إفريقيا الوسطى وودّاية وبورنو.

أما في تونس والجزائر فإن هؤلاء الأشخاص هم الذين يترجمون تعليمات سيدهم الروحي والزمني. أما في المغرب والحجاز فلهم مقدّمين يقومون بهذه المهمة. وهم يعتبرون دعاة بالنسبة إلى الشاذلية الصرفة، وبالنسبة للدرقاوية يظهرون بمظهر المتطهرين النزهاء، وبالنسبة إلى الطلبة هم العلماء الأفذاذ، أمّا بالنسبة إلى من لا ينتمي لأي

---

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص:411، " أبو عبد الله محمد ظافر بن الشيخ محمد حسن ظافر المدني... أخذ عن والده وورث سره وكان الخليفة من بعده، وفي أيامه ازدادت الطريقة في الانتشار في كثير من الأمصار، وتجوّل في إفريقية وغيرها، ودخل صفاقس وسوسة والمنستير، وأخذ عنه الكثير منهم الشيخ محمد الجدّي بوزقرو واستوطن طرابلس، وله هناك أتباع كثيرون وممن أخذ عنه هناك ابن أخيه محمد البشير ظافر. ثم سافر إلى الآستانة وحصلت له حظوة وبعد صيت مع إقبال خاص من سلطان آل عثمان عبد الحميد وعيّن له جراية وخصّص له تكية باسمه. وحصل له جاه لم يشاركه فيه أحد إلى أن توفي وهو على تلك الحال من الإجلال والإقبال في حدود سنة 1325 هـ ومن تآليفه "أقرب الوسائل لإدراك المعاني ومنتخب الرسائل" في مناقب والده و" الأنوار القدسية" في شرح طرق القوم العلمية في مناقب الشاذلية. وله أدعية وأوراد."

2 نحن الآن ننقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص219 و513- 520.

طريقة فهم أولئك الذين يقدّمون مساندة لسلطان اسطمبول. فهم يستعملون كل الوسائل لإنجاز مهماتهم: بالوعود للطامحين والبسطاء، وبالرهبة من الله بالنسبة إلى المنخرطين، وبالنذور والعطايا للأشخاص الديّنين المستقلين عنهم، وبالتحيل على أصحاب السلطة إن لزم الأمر، فهم لا يتورعون من استعمال أي سلاح ببراعة فائقة.

يعلّق"كوبولاني" و"ديبون" فيقولان: إن لم ينجح المدنيّة في ما راموا فإنهم على الأقلّ ساهموا في دعم روح التمرّد وهذا الأمل المتأجج في المستقبل، أمل الانعتاق الذي تحلم به الشعوب المسلمة هذا من الناحية السياسية. وقد أوردت لطيفة الأخضر في كتابها الاسلام الطرقي:"..من ذلك مراقبة (السلط الاستعمارية) زيارات المسمى حسن باي ظافر المدني شيخ الطريقة المدنية بمسراطة بطرابلس إلى تونس فيما بين سنتي 1915و1922، والّذي نسبت له تقارير البوليس اتّصالات بمجموعة الشّباب التونسي"[3]. أما من الناحية الأخلاقية والدينية ففي بادئ الأمر لا تمثل التعاليم المدنية أي خصوصية، أما بعد التعمق والبحث فإنّك تكتشف الرغبة في الحصول على السلطة الزمنية رغم محاولة إخفائها في العبارات[4]. وهذه إجازة مقدّم مدني :

(بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله * الصلاة والسلام على سيد المرسلين)

الحمد لله الذي جعل أهل المعرفة مصابيح الظلام، ورفعت على خيمة سرهم الأعلام، فسبحان من اختصهم لشراب المدام، ومن أتاهم واقفا ببابهم حصل له السكر والهيام، فنحمده على هذه النعم والمزايا، ونشكره شكرا يليق بكماله على ما منحنا من العطايا، كما نطلب منه الزيادة على الدوام، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عبد ظهرت نفحاته، وتوالت أفراحه بمولاه ومسراته، حتى دخل لدار السلام، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، الذي بيّن لنا الحلال والحرام، واهتدينا بنوره في الأنام، حتّى بلغنا المرام، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى، وأيمة الاقتدا، صلاة وسلاما دايمين متلازمين لا نهاية لهما ولو بعد الختام، أما بعد فيقول المتوكل على مولاه خادم أهل الله محمد[بن] أحمد بن عبد الله المداني أني لما أخذت الطريقة عن والدي وهو

3 لطيفة الأخضر، الاسلام الطرقي دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، دار سراس للنشر، تونس:1993، ص90.

4 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص514.

العارف الأكبر، والملاذ الأفخر، الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله التونسي منشئا ودارا الصفاقسي تربة ومزارا، المغربي أصلا، الشريف الحسني نسبة وأصلا، وهو أخذها عن جدّي للأم الغوث الأكبر، والقطب الأشهر، سيدي محمد بن حمزة ظافر المدني وهو أخذها عن القطب الرباني، والعارف النوراني، سيدي ومولاي العربي الدرقاوي الحسني وهما من فحل إلى فحل كما في السلسلة المدنية الدرقاوية الشاذلية إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فلما أخذت الطريقة عن والدي المذكور أمرني بالسياحة مع الفقراء ورباني رضي الله تعالى عنه حتّى رفع عن قلبي الأوهام والستور وأمرني بتقوى الله في السر والعلانية وأن نحسن إلى عباد الله لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: الخلق عيال الله أحبكم إلى الله أنفعكم لعياله، والإحسان يستوي فيه جميع المخلوقات حتى من الحيوانات فبذلك تتوالى النفحات، وتحصل الفيوضات، وكما ءاذنني في ذلك فأنا أذنت جميع من قدمته على الطائفة المدنية كما ءاذنني والدي المذكور فنخص بهذه الإجازة ابننا المشهور، الذي عليه الخيرات تدور، مقدم مقادم أولاد نايل فأجزته إجازة تامّة، وجعلته في ذلك نائبا عني وبعضا مني وهو منه مقدم ومنه ناظر عليهم، وهو العارف الرباني والسيد النوراني، من هو واقف في الحد، وملازم للجد، سيدي يحي بن أحمد، وأوصيه هو ومن معه من الإخوان بتقوى الله العظيم ظاهرا وباطنا، سرّا وعلانية كما قال صلّى الله عليه وسلّم لمن سأله أن يوصيه :اتّق الله حيث ما كنت واتبع السيئات حسنة تمحوها وخالق الناس بخلق حسن وأن يوصي جميع من أخذ علينا الطريقة بهاذه الوصاية لتحصل لهم الدّراية، ويفوزوا من الله بالعطايا، وكما أوصيهم أن يعلو هممهم عن الناس ولا يتعاطوا إلا في المنفعة الخاصة بالديانة ليحظوا بالصيانة وكما نوصيهم أن يطيعوا للأمير ويتواضعوا للغني والفقير، وأن لا يفرقوا بين عباد الله بشرط أن يكون نظرهم وتعظمهم لصنع الله وطاعة الأمير لها دليل من قوله تعالى يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم وكما أوصيهم بذكر الله دائما وأن لا يشتغلوا بما لا يعنيهم ولا بمجالس الغفلة ولا بالقيل والقال، ولا يلتفتوا إلى أي حال بل يشغلوا قلوبهم بمولاهم ويستغرقوا في محبته ليحصل لهم مناهم، وأن يروا لأدناهم كما يروا لأعلاهم وأن يكونوا من الذاكرين المتّقين إن الله لا يضيع أجر المحسنين والسلام[1]).

1 حاولنا أن ننقل هذه الإجازة بالضبط كما وردت عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص515 دون تعهد لأخطائها الرسمية أو النحوية التي قد يعثر عليها. من باب أمانة النقل.

من هذه الوصية يتّضح خروج الطائفة المدنية عن الدرقاوية بطاعة ولي الأمر المطلقة، وذلك ما يفسّر اعتراض الدرقاوية بالمغرب على المدنية واعتبارهم هراطقة وخارجين عن الصف وجواسيس للسلطة التركية في أواخر القرن التاسع عشر ويقدمونهم للعامّة على أنهم خونة للعهد.

في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد كثر بتونس المدنيّون وزواياهم الرئيسة بصفاقس بقيادة الشيخ محمد بن عبد الله المدني، وبتونس الحاضرة مقدمهم عبد الله الغدامسي والصادق الصحراوي، ولهم زوايا أخرى مبثوثة هنا وهناك في العروش والقبائل.

وتعلق الأستاذة لطيفة الأخضر: "وقد استطاع هذا الأخير (محمد ظافر) أن يبعث عدّة زوايا بليبيا ولكنّها لم تبرز بصفة خاصّة هناك نظرا للهيمنة السنوسية، كما كانت له زيارة إلى تونس أسّس خلالها زاوية بصفاقس. وما تميّز به السلطان عبد الحميد الثاني سياسيا هو دعوته وتحمسه لفكرة الجامعة الإسلامية كمحاولة لخلق حزام إسلامي يسدّ الطريق أمام القوى الأوروبية التي كانت تريد آنذاك تصفية "المسألة الشرقية" واقتسام تركة "الرجل المريض". ومن هنا جاءت العلاقة بين الطريقة المدنية والجامعة الإسلامية ومن هنا أيضا جاء التحفّظ الّذي ما رسته السلط الفرنسية بتونس تجاه هذه الطريقة إلى درجة جعلت الأرقام التي قدّمتها حول حجمها حسب تعداد 1925 متناقضة جدّا مع أرقام أخرى قدّمت فينفس الوقت، ففي حين يعطي تعداد 1925 لهذه الطريقة 7 زوايا و271 فقط من الأتباع في كامل البلاد ها أن تعداد المراقبة المدنية لجهة مكثر بمفردها يعطينا 587 من أولاد عيار قبالة. 715 من أولاد عون. 206 من أولاد ميمون، وهو يتجاوز بالواضح الرقم الّذي قدمته في التعداد العام."[1] هذا التناقض يفسر أن السلط الاستعمارية ترمي إلى تقزيم الفكرة وبالخصوص عندما عجزت الخلافة عن حماية تونس من الاحتلال الأجنبي سنة 1881 ومصر 1882 وليبيا 1911. وهكذا تقلصت الطريقة ولم يبق منها إلا شذرات بالمنستير ورثها آخر الأمر النساء اللاتي لا تعيرهن السلط الاستعمارية انتباها.

---

1 لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، دار سراس للنشر، ص54.

مدنية النساء بالمنستير (مدنية ظافر)

هي فرقة نسائية بالمنستير يمكن اعتبارها فرعا لطريقة أبي عبد الله محمد حسن بن حمزة ظافر المدني

الشيخ **المؤسس** : في ظروف غامضة وغريبة أسّس أبو عبد الله محمد بن علي بوزڨرّو عرف الجدّي المنستيري هذه الفرقة ... والمعروف أنه ولد بالمنستير وحفظ القرآن الكريم، ثمّ انتقل إلى تونس لإكمال دراسته، فأخذ عن الشيخ البنّا وهو عمدته والشيخ الرياحي والشيخ ابن ملوكة وغيرهم، وتلقّى الذّكر والطريقة المدنية عن الشيخ ظافر المدني. وتولّى الفتيا بالمنستير سنة 1266هـ ثم القضاء سنة 1269هـ، وحمدت سيرته، ثم امتحن بالإبعاد لصفاقس عقب الثورة المعروفة بثورة ابن غذاهم سنة 1280هـ/ 1864م وذلك بحكم من وزير الحرب أحمد زروق حين قدم الساحل لتمهيد الراحة. قال الشيخ محمد مخلوف في (تتمة شجرة النور الزكية)[1] : "وقدم عليه (أي على أحمد زرّوق) وفود أهل الساحل منقادين، من جملتهم وفود المنستير يؤمهم العلماء أهل المجلس الشرعي، فقابلهم بشدّة، وحكّم الأغلال في أعناقهم وأرجلهم وأوّلهم رئيس المجلس الشرعي الشيخ أبو عبد الله محمد الجدّي بوزڨرو وشدّد تنكيله وأمر بإزالة عمامته في المجلس بلفظ مستهجن".

وحصل الشيخ بصفاقس على إقبال فوق ما يقال، وتصدّى لإقراء العلوم، وحصل

1 محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص.175.

النفع به. وفي حدود سنة 1288هـ فُرِّج عنه وصدر له الإذن بالرجوع إلى مسقط رأسه متولّيا رئاسة المفتين بها وإمامتها بجامعها الأعظم، وتصدّى لإقراء العلوم وانتفع به جماعة، وبعُد صيته وقُصد للفتيا من الجهات وكانت فتاويه غاية في التحرير. وتُوفّي أوائل ذي القعدة عقب احتلال فرنسا للإيالة التونسية سنة 1295هـ/1881م ودفن قريبا من قبر الإمام المازري قبلته[1].

زار الشيخ ظافر المدني سوسة والمنستير، واتصل بأهلها في إطار نشر طريقته والدعوة إلى فكرته التي يعمل لها وهي الفكرة الوحدوية التي حمل رسالتها عن السلطان عبد الحميد. وأخذ عنه الطريقة الشيخ المفتى محمّد بوزڤرّو الجدّي وقد كانت بينهما مراسلات، وجعل قدوم الشيخ ظافر من ليبيا واهتمامه بالشيخ الجدّي مكانة لهذا الأخير عند الطرابلسيّة. ومن المعلوم أنه كان يقطن بالمنستير الكثير منهم ولهم حومة كبيرة لاتزال باسمهم إلى حدّ التاريخ، وقد ترعرعت فيها الطريقة السلامية أصيلة ليبيا أيضا، فلا عجب أن كان بعض هؤلاء الطرابلسيين ينتمون إلى مدنية ظافر التي لها زاوية كبيرة بليبيا، وانتشرت طريقتهم بين النساء والرجال، إلاّ أنّ الرّجال كانوا أشدّ حماسا للسلامية.

هذه المدنية هي مثيلة ما هو موجود بالعاصمة كزاوية الشيخ الصادق الصحراوي أو صفاقس كزاوية الشيخ محمد بن عبد الله المدني. فالأصل واحد ويرجع إلى الدرقاوية، ويستمدّ أصوله من الشاذلية، ولكنّ الشيخ ظافر المدني الّذي أسّسها بنفسه أو ترك مهمّة ذلك لتلميذه في الطريقة الشيخ محمد بوزڤرّو الجدّي، جعلها تحمل كلّ خصوصيات الدرقاية ما عدا الفكر السياسي. ويذهب بنا الظنّ أن بعض هذا الفكر هو الّذي حرّك الشيخ محمد بوزڤرّو الجدّي للوقوف وقفته الحازمة في ثورة الساحل أمام الطاغية زرّوق الّذي نفاه إلى صفاقس حيث وجد زاوية المدنية ونشط بها من حيث كان يؤمّل تعطيله عن النشاط. وحياة الشيخ محمّد الجدّي بوزڤرّو مليئة بالأحداث السياسية التي جعلها تؤثّر حتّى في قرارات الباي نفسه بعد العفو.

أخبار الطريقة : نشر الشيخ محمد بوزڤرّو الجدّي، إذن، الطريقة المدنية الظافرية

1 نفس المصدر السابق.ص395. وقد عثرنا أن الشيخ الجدي توفي يوم 13 ماي 1881 في حين وقعت معاهدة باردو في يوم 12 ماي، ولعلّ الشيخ تأثر لما بلغه الخبر فمات كمدا ممسوسا في وطنيته التي كافح عنها في حياته.

بعد أن أخذها فعلاً عن الشيخ ظافر المدني نفسه، ومارسها في صفاقس أيام محنته بزاوية الشيخ محمد بن عبد الله المدني الموجودة هناك، فلما وقع العفو عنه ورجع إلى مسقط رأسه واطمأنت به الحال نشرها بعد رحيل الشيخ ظافر المدني بين من كانوا قد أخذوها عن مؤسسها، خصوصا ومكانته العلمية والسياسية والاجتماعية تمكّنه من ذلك. وكان بينه وبين الشيخ ظافر مراسلات، وما زال منها لدى أحفاد الشيخ رسالة خطية للشيخ ظافر أرسل بها إلى الشيخ محمّد الجدي يسأله عن أحواله، وقد أخبرنا بذلك الحفيد السيد صالح بن حسن الجدّي بوزڤرّو الّذي صرّح أيضا أن الشيخ محمد المدني خلف الله كان يأتي إلى منزلهم بالمنستير، ويقول له: إنّ جدّك للأم(وهو الشيخ محمد بوزڤرّو الجدّي) هو من جماعة الشيخ ظافر.

ويظهر أنّ الطريقة الظافرية انقرضت بعد ظهور الطريقة العلاوية من زاويتي الشيخ الصادق الصحراوي والشيخ محمد بن عبد الله المدني الصفاقسي، ولم يبق منها إلاّ ما احتفظت به نساء المنستير، ونقول هذا نتيجةً لما نلمسه من مخالفة في القصائد المغنّاة وموازين الغناء واختلاف الحضرة بين مدنية نساء المنستير ومدنية قصيبة المديوني، إذ تقول النساء في حضرتهن (الله) كما عند الدرقاوية بالمغرب الأقصى وليس اسم الصدر (آه) كما عند العلاوية. لذلك اصطلحنا بتسمية مدنية ظافر الدرقاوية للتشابه بينها وبين ما بقي إلى الآن من درقاوية المغرب وقد نجد بعض الأشعار التي تنشدها النساء بها لمسة اللهجة الغربية[1]. وهكذا تأكّد لدينا انفراد نساء المنستير بالحفاظ على مدنية ظافر رغم تشابه بعض القصائد، فإننا بعد أن تثبتنا وجدنا المطالع متشابهة أما الأبيات والموازين والألحان فمختلفة، ولا يمكن الجزم بأنّ النساء أخذن من الشيخ محمد المدني خلف الله كما يروي ابنه الشيخ منوّر، وتصرّفن، بل إنّ الشيخ محمد المدني أخذ عنهنّ وهذّب على طريقته كما وجدناه عنده في بعض القصائد، وتبقى الأدلّة قاطعة بأنّ هنالك اتّصالات وتلاقحا بين الطريقتين، ولم تزل نساء المنستير يتّصلن بالشيخ محمد حتّى آخر حياته، ومنهنّ من اتّصلت بعد وفاته بخلفائه، حيث لم يكن هنالك من يدقّق ليقف على الفروق بين الطريقتين.

وهكذا يمكننا القول بأن مدنيّة النساء بالمنستير تمثّل وجها آخر من الطريقة

1 المقصود بالغربية : المغربية من المغرب الأقصى.

المدنيّة، ويمكن لدراسة موسيقية مختصّة أن تبيّن أوجه الاختلاف بين الطريقتين، فالثراء الموسيقي التي تمتاز به مدنية النساء بالمنستير لايقارن باقتصار مدنية الشيخ محمد المدني خلف الله على بعض المقامات والموازين.

ونوشك أن نتيقّن أن مدنية ظافر كانت السلط الاستعمارية لها بالمرصاد ما دامت تحمل النوايا الوحدوية، فعملت بوسائل مختلفة للقضاء عليها وتقزيمها والتخفيف من شأنها ومتابعة أصحابها حتّى انقرضت قبل انهيار الخلافة العثمانية سنة 1922م. خصوصا بعد وفاة الشيخ الجدّي في ماي 1881 أي إبان دخول الحماية الفرنسية، وإنما بقيت لدى النساء لأنهنّ كنّ لا يمثّلن أي خطر سياسي على السلطة الاستعمارية.

ويظهر أنّ النّساء ورثن الطريقة عن الرّجال بتعليم الشيخ الجدّي، ولا غرو أن يكون انتدب للنساء قريباته أو زوجته نفسها، فتعلّمنها واستعملنها في حفلاتهن قبل مجيء الشيخ محمد المدني خلف الله القصيبي، فلمّا قدم هذا الأخير المنستير وجدهنّ على ذلك فأقرّهنّ، وتطعّم رصيدهن الغنائي بما عنده، وربما يكون هو أيضا أخذ أو اقتبس مما لديهنّ مما يمكن أن يكون قد رواه له أصدقاؤه من المنستير مثل الشيخ الحاج محمد مَحْوْ الكفيف، أو ما نقل عن السيدة آمنة مزالية من الجيل الأول من كبيرات المدنيات، فكلتا الطريقتين درقاوية فهما من أصل واحد.

وتكوّنت منذ ذلك العهد، فرقة نسائية ضمّت عددا من النساء، وبقين يتوارثنها إلى اليوم، وهكذا تولّدت ظاهرة بالمنستير: إذا تحدثنا عن حفل رجالي قلنا (سلامية) وإذا تحدثنا عن حفل

نسائي قلنا (مدنية)، فكأن كل طريقة منهما أصبحت اختصاصا لأحد الجنسين، ونتأكّد أنّ لذلك تأثيرا في الغناء والموسيقى، فلا بدّ أن تكتسي المدنية ثوبا نسائيا بعد طول السنين وخصوصا والفرقة تنتدب لإقامة حفلات من خصوصيات النساء سواء بمناسبة النفاس أو الزواج وما إلى ذلك من احتفالات نسائية بحتة، ولو قام أحدهم بدراسة للنبرات التي تصدرها النساء في غنائهنّ وعدم وجود تلك الذبذبات والنبرات لدى الرّجال لكان قد وضع يده على نقطة هامّة من نقاط التمييز بين مدنية النساء وما يمكن أن يقوم به الرجال من نفس الطريقة، فلا بدّ من ملاحظة الفرق الواضح بين

"تينور" الرجال و"سوپرانو" النساء. أمّا من حيث الروح الأنثوية التي تضفيها أصواتهنّ على الطريقة فلا يمكن لسامع أن يغفل عنه.

طريقة العمل : عندما نتحدّث عن طريقة العمل لدى الحضرة المدنية النسائية بالمنستير لا بدّ أن نتذكّر أصول الطريقة المدنية كما ورثها الأبناء عن الآباء، وهي عدم استعمال الآلات في الإنشاد، والبدء بالقصائد والانتهاء بالحضرة أي ذكر اسم"الله"، وذلك أصل من أصول الشاذلية كما حافظت عليه الطريقة الدرقاوية وكلّ فروعها من مدنيات مختلفة.

وانتشر غناء المدنية لدى نساء المنستير في دورهن واجتماعاتهن الحميمة، حتى أنّ المرأة لتترنم به في مطبخها أو مشغلها دون غيره من الغناء، ويمكن أن نُرجع ذلك إلى عدّة عوامل: أوّلها أن النَّفَس الأنثويّ الّذي يلتصق بالسمع يجعله قريبا من نفس المرأة أكثر منه موسيقى، فبالإضافة إلى الكلام فالنبر يوقظ فيها الإحساس بأختها التي تنشد فتتفاعل معها في نفس الأحاسيس، وثانيها سهولة دعوة الفرقة لإقامة الحفلات النسائية، فقد كانت الفرقة لا تشترط أجرا، ولا تأنف من القيام بعمل ولو في منازل الفقراء ومن ليس لهم ما يقدّمون سوى "شكشوكة قرع" أو "شكشوكة فول" دون أيّ أجر آخر، فكانت أعضاء الفرقة مبجّلات محبوبات لدى الجميع، يحظين بالاحترام والتبجيل الكامل، ونتج عن هذا امتلاء أذن المرأة بهذا المغنى أكثر من غيره في غياب الوسائل السمعية البصرية المنتشرة الآن.

وترتقي المدنية بالمتفهّم والمتذوّق إلى مراتب سامية من الانتشاء والسبح في ملكوت الروح ما يجعل الجسد يهتزّ اهتزازا قد يبلغ درجة العنف أحيانا، وقد لاحظنا ذلك عند نساء بدينات وكبيرات جليلات، يرقصن برشاقة الشابّات، كأنّهنّ لا يعبأن بالبدانة ولا بجلال المظهر.

وتنطلق الحفلة بهذا الموشح في طبع السيكاه على إيقاع النّوَخْت 7 من 4 الذي يغلب عليه الطابع الشرقي، وتطرزه الفرقة بخرجة في طبع الحسين على إيقاع 4 من4 :

بَديْتُ بِـذِكْرِ الْحَبِيــبْ   وَهِمْــتُ بِعَيْشِي وَطِيـبْ

وَعِشْقِي إِيمَـان الحَبِيبْ　　أَتَاهُمْ بِالسِّـرِّ الْعَجِـيبْ

أُشْرَبْ يَا حَبِيبِي وَطِيبْ　　عَلَى قَدْ مَا يِتْعَنَّى الرَّقِيبْ[1]

خرجة : اِشْرَبْ مِنَ الطَّـاسَاتْ　　قُمْ خَـلِّي الْـكَاسَاتْ

فِي مْـقَـامِ السَّــادَاتْ　　اِسْتَغْـــنِمِ اللَّـذَّاتْ

شِرْبُـوا مِ الْمُدَامْ * مَعْ سَادَاتِ كْرَامْ * وَصِبْحُـوا هِـيَامْ

رجوع : يَا سَاقِي تْرَفَّقْ بِينَا * الْمَوْلَى غَفَرْ ذَنْبَنَا * وِسْتَرْ لِيـنَا عَيْبَنَا

سَقَانَا كَاسِ الرِّضَـا * عَفَا اللهُ عَـمَّا مَضى

خرجة : لَمَّا انْ دَارَ الْكَـاسْ　　مَـا بَيْنِ الجُـلاَّسْ

هَبِّتْ لْهُـمْ الاَنْفَاسْ　　عِنْـدْهُمْ زِينِ لْبَاسْ

قَلْبِ اللِّي مَا يَهْوَاهُمْ　　عُمْـرُه مَا يِرْتَـاحْ

يَا لَوْ كَـــانْ يِرَاهُـمْ　　تِبْرَى لُه الاَجْـرَاحْ

وَحْلاَوِةْ مَلْقَـــاهُمْ　　فُوقَ عْسَلْ الاَجْبَاحْ

يِتْبَـاهَى بِبْـــهَاهُمْ　　يْجَـدَّدْ فِي الاَفْـرَاحْ

يِتْحَـظَّى بَحْـظَاهُمْ　　وْمِ الْعَـدُو يِـرْتَاحْ

يِتْمَـنَّى فِي مَـاهُـمْ　　يُشْـرُبْ مِ الأَقْـدَاحْ

---

1 نجد في ديوان أبي الحسن الششتري هذا الموشح: ويروى أنّ أستاذه ابن سبعين أعطاه الطالع وأمره أن يتغنّى به فانغلق عليه في اليومين الأولين، ثم انفتح له فأكمل الموشّح :

بَدِيتْ بِذِكْرِ الْحَبِيبْ * وَهِمْتُ، وَعَيْشِي يَطِيبْ * وَبُحْتُ بِسِرٍّ عَجِيـبْ
لَمَّـا دَارِ الْكَـاسْ * مَا بَيْنِ الجُـلاَّسْ * أَحْيَتْـهُمُ الأَنْفَاسْ * عَنْـهُمْ زَالِ الْبَاسْ
سَقَاهُمْ بِكَاسِ الرِّضَى　　عَفَا اللهُ عَـمَّا مَضى
اِشْرَبْ نَدِيمِـي وَطِيبْ　　وَعِشْ فِي أَمَانِ الْحَبِيبْ
قُمْ خَلِّي الْكَاسَاتْ * وَاشْـرَبْ بِالطَّاسَاتْ * وَاغْـتَـنِمْ لَـذَّاتْ * فِي مْـقَـامِ السَّادَاتْ
بْرِيقِ الْحِمَّا قَدْ أَضَـا　　عَفَـا اللهُ عَمَّـا مَضَى
يَـا سَاقِي تَرَفَّـقْ بِنَـا　　اَلْمَـوْلَى غَفَـرْ ذَنْبَـنَا
اِسْقِـنَا مُـدَامْ * وَانْـعِمْ بِالسَّـلاَمْ * وَنَحْـنُ هُـيَـامْ * مَع سَـادَاتٍ كِرَامْ
وَوَسِّعْ عَلَيْنَـا الْفَضَـا　　عَفَـا اللهُ عَمَّـا مَضَى

هَذَا الرَّبّ عْطَــاهُمْ فِي مْقَــامَاتِ مْلاَحْ

مْحْبُــوبِي وِانْشَــاهُمْ وِالْكُلْ بِينِ أيــدِيـه

حَارُوا فِــي أَوْصَـافُه لاَ مَنْ قْــوَى يَحْكِيهْ

والسَّادَاتْ يْــرَافُــوا بِالْمَـحَــبَّة فِيــهْ

صَارُوا مْنَ اشِ يْخَافُوا؟ سُكْـنُوا بَـحْرِ التِّيـهْ

خَاتِمْ بَيْنَ اكْــتَـافُه صَـلَّى الله عْلِــيهْ

ويقفلن هذا الموشح في طبع السيكاه عند إعادة البيت الأخير.

ثم ينتقلن إلى هذه المدحة في طبع الحسين على إيقاع 6 من8 :

الله الله الله الله * ذِكْـــــرُ الله يَا مَاَ احْلاَه * الله الله الله الله * تقــــول عْسَــلْ بِيــنِ اسْنَــاني

الله الله الله الله * وَإِذَا نُـذْكُـرْ مْحَــــــمَّدْ * الله الله الله الله * تِصْلِـحْ يَــــا رَبِّـي حَـــالي

الله الله الله الله * وَإِذَا نُـذْكُـــــرْ مُحَـمَّـدْ * الله الله الله الله * تُسْتُــــــــرْنِي وْ تُسْــتُرْ حَـالي

الله الله الله الله * سْيَادِي وِالْعَـارَ عْلِــــيهُمْ * الله الله الله الله * سْيَــــــــادِي وِ نْنَـادِي بِيــهُـمْ

الله الله الله الله * يْجِيبُوا الِمْفَـاتَحْ فِي يــدِيهُمْ * الله الله الله الله * يحـــــلُّـــــوا مِفْتَاحِ الصُّدُورْ

الله الله الله الله * يَامَا احْلَى سْيَادِي فِي الْحَضْرَة * الله الله الله الله * وِالْجُـــــــوخَـة وِالجُبَّـة الْخَضْرَاء

الله الله الله الله * يَامَا احْلَى الهِـذْبَة مِــذْرِيَة * الله الله الله الله * يَا مَـا احْلَى السِّـبْحَة مِثْــنِيَّـــة

الله الله الله * يَا وَارثِي مَـــاكْ ابَيَّــه * الله الله الله الله * وَالشَّيْـــخْ وَابْـنه بِالْقَاسِمْ

الله الله الله * يْعَارْكَ عْلِينَا وِ يخَــاصِمْ * الله الله الله الله * وبَـابَـا دِيــوَانُه رَاسِـمْ

الله الله الله * وِالشِّيخْ دَاخِلْ لِلْحَـضْرَة * الله الله الله الله * بِالجُوخَــة وِالجُبَّـة الْخَضْرَاء

الله الله الله * وِمْعَانَا الشِّــيخ الْمَـدَانِي * الله الله الله الله * رَبِّي الـلِّي خْلَـقْنِي وِانْشَاني

الله الله الله * هُوَ اللِّي سْتَـرْنِي وِرْعَـانِي * الله الله الله الله * رَبِّي اللِّي سْقَـانِي وِارْوَاني

ثُمَّ ينتقلن إلى مدحة أخرى لا يبعد أن تكون جزائرية الأصل أو منقولة بتصرف عن الدرقاوية الحالية بالمغرب الأقصى، نظرا لبعض تراكيبها المشابه للهجة الجزائرية أو المغربية، وهي من طبع الحسين على إيقاع 2 من4 :

أُشْرُبْ شَرَابْ أَهْلِ الصَّفَا　　تَـرى الْعَجَـايِبْ

مَـعَ رِجَـالِ الْمَعْـرِفَة　　وَالْخَمْرُ طَـايِبْ

اخْتَارُوا لِي واحْدِ النَّهَـارْ　　يَـا قَـوْمُ خَطْرَة

وْزِيـدْهُمْ أَهْـلِ الْغَـرَامْ　　لْقِيتْهُمْ فِي الْحَضْرَة

وعْيُونْـهُمْ مُـذَبَّـلَة　　ووْجُـوهُمْ صَفْـرَا

وْقُلْتُ لْهُمْ: نُدْخُلْ حِمَاكُمْ　　يَا أَهْـلِ الْمَوَالي

قَالُوا : تِقْـبَلْ شَرْطَنَا　　وَ الشَّـرْطُ غَـالي

اصْبَرْ عَـلَى حَـالِ الدَّوَامْ　　طُـولَ اللَّـيَـالي

اِسْهَرْ عَلَى ذِكْـرِ الْحَبِيبْ　　سَـبْـعِينَ لَيْـلَة

أُشْرُبْ كُـؤُوسَ الْحَنْظَـلِ وَالْـمُـرُّ يَحْـلى

تَرْجَعْ سَبِيـكَة مِنْ ذَهَبْ يَـا مَـنْ عَـرَفْهَـا

عَدِّيتُ مِنْ عُمْرِي سِنِينْ وَانَـا فِي غَـفْـلَة

اِلْيُـومِ رْجِعْتُ لِلْيَـقِـينْ ولْبِسْـتُ حُلَّـة

وْحُلَّـة بِيهَـا نِفْتَـخِرْ بِـيـنِ الـرِّجَـالِ

اِغْفِرْ لِعَبْـدِكْ مَا عَصَى وَالْـطُـفْ بِحَـالي

يَـا لَوْ تَـرَى يَا لَوْ تَـرَى يَـا بُـو الْجَلاَلِ

لَيْلَةْ نُـزُولِي فِي الْقَـبَرْ ثَـبِّـتْ سُـؤَالي

وِابْنِ لِي فِي الْجَنَّـة قَصَـرْ وَاسِـعْ وْعَـالي

وْعَالِي عَـلاَّهِ الْكَرِيـمْ مَـوْلَـى الْمَوالي

عَدِّيتْ عُمْـرِي فِي دْلاَلْ أَنَـــا مُـدَلَّلْ

مِثْلَ الْهِـلاَلِ الضَّـاوِي ضْـوَى وِتْهَـلَّلْ

ثم يدخلن في غيرها بإيقاع أسرع أي دخول براول في طبع الحسين أيضا :

اللهُ اللهُ يِكْفِـــينِي مِنْ كَاسِ الْحُبِّ يِرْوِينِي

****

وَقُلْتُ يَا حْبِيبِي فَطِيبْ سَلَّمْ لِي عَـلَى الْحَبِيـبْ

وْكُلَّمَا يِبْـعِدْ وِيغْيـبْ يْزِيدْ فِي الْوَجْدِ تَمْكِينِي

****

دْخَلْنَا فِي بْحُـورِ الْحُبْ والأَنْـوَارْ تَهْـدِينِي

أَنَا صِبْتْ أَيَّـامِ الْحُبْ وَهْوَاهْ وِالْوَجْدْ سابِـينِي

****

يَا رَبِّ سْأَلْتِكْ بِالْمِعْرَاجْ وِسْأَلْتِكْ بِالْخَاتِمْ وِ التَّاجْ
تْبَلَّغْنِي مَعَ الْحُجَّاجْ لْمُحَمَّدْ قُرَّةْ عَيْنِي

****

يَا رَبِّ سْأَلْتِكْ بِالْهَادِي بْمُحَمَّدْ سِيدِ اسْيَادِي
يَا رَبِّ تْبَلِّغْ مُرَادِي وِنْشُوفِ مْقَامُه بْعِينِي

ثم في البحر المتقارب من مقام الحسين على إيقاع 6 من8 :

أَتَانِي زَمَانِي بِمَا أَرْتَضِي بِاللهِ يَا دَهْرُ لاَ تَنْقَضِي
وَيَا لَيْلَةَ الأُنْسِ عُودِي لَنَا لأَنَّ الْحَبِيبْ عَلَيْنَا رَضِي
سَقَانِي بِكَأْسِ الْهَوَى جَرْعَةً فَعَايَنْتُ فِي الْكَأْسِ نُورًا يُضِي
وَفِي حَالَةِ السُّخْطِ لاَ فِي الرِّضَا بَيَانُ الْمُحِبِّ مِنَ الْمُبْغِضِ
وَنَحْنُ عَلَى الْعَهْدِ نَرْعَى الْوِدَادَ وَعَهْدُ الْمُحِبِّينَ لاَ يَنْقَضِي
فَيَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى صَلاَةً تَدُومُ وَلاَ تَنْقَضِي

ثم : شُفْتُ الْهِلاَلْ وَوَجْهَ الْحَبِيبْ فَصَارَ اهِلاَلَيْنِ عِنْدَالنَّظَرْ[1]

---

1 هي أربعة أبيات وقع تلحينها على إيقاع سماعي ثقيل، في مقام الراست ماهور، وذكرها محمد العربي القباني في كتابه(جامع النفحات القدسية في الأناشيد الدينية والقصائد العرفانية والموشحات الأندلسية، دارالخير، الطبعة الثانية 1419 هـ/1998م بيروت، ص700):

رَأَيْتُ الْهِلاَلَ وَوَجْهَ الْحَبِيبِ فَكَانَا هِلاَلَيْنِ عِنْدَ النَّظَرْ
فَلَمْ أَدْرِ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا هِلاَلَ الدُّجَى مِنْ هِلاَلِ الْبَشَرْ
وَلَوْلاَ التَّوَرُّدُ فِي الْوَجْنَتَيْنِ وَمَا رَاعَنِي مِنْ سَوَادِ الشَّعَرْ
لَكُنْتُ ظَنَنْتُ الْهِلاَلَ الْحَبِيبَ وَكُنْتُ ظَنَنْتُ الْحَبِيبَ الْقَمَرْ

وتنشد هذه الأبيات برولا بموشح (كللي يا سُحْبُ تيجان الرُّبَى) من تأليف ابن سناء الملك وتلحين الشيخ ترنان في مقام راست الذيل، بتغيير في البيتين الثاني والرابع على النحو التالي:

فَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيُّهُمَا قَاتِلِي هِلاَلَ الدُّجَى مِنْ هِلاَلِ الْبَشَرْ
لَقُلْتُ الْهِلاَلَ هُوَ الْحَبِيبَ وَوَجْهُ حَبِيبِي هُوَ الْقَمَرْ

عن صالح المهدي، التراث الموسيقي التونسي، السفر التاسع، نشر وزارة الشؤون الثقافية، إدارة الموسيقى والفنون

فَلَمْ أَدْرِ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا هِلاَلَ الدُّجىمِنْ هِلاَلِ الْبَشَرْ

ومن قصائدهن في مدح الرسول (محمد يا نبينا) :

مُحَمَّدْ يَا نَبِينَا يَا شَفِيعَ الْمُذْنِبِينَ
كُنْ شَفِيعِي يَا تِهَامِي يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ
مُحَمَّدْ الْعِدْنَانِي قَدْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
وِدْعَانَا إِلَى الإِيمَانِ يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ
مُحَمَّدْ يَا رَسُولْ يَا صَادِقًا فِي الْقَوْلْ
اِشْفَعْ فِينَا يَومَ الْهَوْلْ يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ

****

مُحَمَّدِ الْقُرَيْشِي هُوَ نُورُ الْوِحَيْشِي
يَا إِلَهِي سَهِّلْ لِي نِمْشِي نْزُورْ مَكَّة وِ الْمَدِينَة

وتختلف كلمات هذه المدحة اختلافا بيّنا تركيبا وإيقاعا عن المدحة المشابهة بديوان"أنيس المريد" للشيخ محمد المدني خلف الله.

بعد ذلك ينطلقن في مدحات للرسول صلى الله عليه وسلم :

صلِّ وَسَلِّمْ يَا مِتْحَنِّنْ عَلَى مَحْمُودِ الْجُودِ الْمُحْسِنْ
أَحْمَدْ مُحَمَّدْ عَزْ مْثِيلَه في يوم الآخرة يِشْفَعْ فِينَا

****

صَلِّ وَسَلِّمْ يَا عَالِي الْقُدْرَة عَلَى مُحَمَّدْ سِمْحِ الْبَشْرَة
اِرْضُوا عْلِيهْ وِاصْحَابُه الْعَشْرَة في يوم الآخرة يِشْفَعْ فِينَا

****

الشعبية، مطبعة الدار التونسية للنشر سنة 1979، ص30.

صَلِّ وْسَلِّمْ عَ الـرَّسُـــــولْ هُوَ شْفِيعْنَا فِي يُومِ الْهُولْ

أَحْمَدْ مُحَمَّـدْ مَــا لُـــه مْثِيـلْ في يوم الآخرة يِشْفَعْ فِينَـا

ثمّ يقفن بعد ذلك وينشدن (صلّ يا ربّي وسلم) :

الله الله الله الله لاَ إِلَــــــهَ إِلاَّ الله

صَلِّ يَــا رَبِّ وْسَلِّـمْ عَـلَى الْمُصْطَفَى مُحَمَّـدْ

زُخْرِفَتْ جَنّـةُ عَـدْنٍ أُعِـدَّتْ لِلْمُـتَّـــقِينَ

قَالَ رَبِّي فَادْخُلُــوهَـا بِسَـلاَمٍ آمِـــنِــــينَ

يَـا إِلَـــهِي بِالْمُشَفَّـعْ صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمُـرَفَّعْ

لاَ تُخَيِّـــبْ يَـا إِلَـهِي كُلَّ مَنْ حَـضَرْ وَيِسْـمَعْ

يَـا حَلِيـمَة يَـا أَمِينَة قُومِي وَارْضِـعِي الْمَبْرُورْ

بِهِ تَنَــالِي الْغَنِيــمَة تَخْـتَـفِي مِنْهُ الْبُـدُورْ

مِثْلَ وَجْهِكْ مَا رَأَينَـا أَنْتَ يَا نِعْـــمَ السُّرُور

أَنْتَ شَمْسٌ أَنْتَ بَدْرٌ أَنْتَ نُورٌ فَـــوْقَ نُـورْ

أَنْــــتَ وَالله يَـا مُحَمَّد أَنْتَ مِفْتَاحُ الصُّـــدُورْ

ثم : يدخلن في الحضرة وقوفا في مقام الحمدان :

لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله

يَا شَارْبِينِ الْكَـاسْ أَسْيَـــادِي مَخْمُورَة

شَرْبُوا مِن الأَقْدَاحْ دَارُوا بِهَـــا دُورة

بِالْهَـادِي وبِالْيَـاسْ رْجَــالْ الله هُنَــا

نَجِّينَا مِن الْوَسْوَاسْ الْخَنَّـــاسْ يَا أَللهْ

بمُحَمَّدْ وِ الْعَبَّـاسْ   عَمِّ النَّبِي يَـــا اللهْ
رُحْ يَا الْعَـدُو عَنِّي   جَانَا الْفُتُوحْ يَا اللهْ
قَدَّمْـنَـا وَ دْخَلْنَـــا   فِي حَضْرْتِكْ يَـا اللهْ
يَا مْشَـايْخِ الْحَضْرَة   يَا رْكَـايْزِ الْحَضْـرَة
هَيَّـــا يَـــا فُقْـرَا   بِالْعَمَـلْ يَـــا أَللهْ
الْمَـــدَدْ الْمَـــدَدْ   يَا رَسُـــولَ اللهْ
الْمَـــدَدْ الْمَـــدَدْ   يَـا حَبِيـــبَ اللهْ
شَوْقًا وَ مَـــــدَدْ   يَـا رَسُـــولَ اللهْ
غَــوْثًـا وَمَـــدَدْ   يَـا حَبِيـــبَ اللهْ

فيردّدن (الله، الله) بالصدر على إيقاع بطيء ثم يتسارع حتّى يبلغ الأوج، بينما المنشدة تنشد قصائد، ففي إيقاع سماعي فاخت من أصل تركي تقول :

رُحْ يَا الْعَدُو عَنِّي   جَـانَا الْفُتُوحْ يَاالله
يَا مَنْ عْلِمْ سِرِّي   فِـي حُرْمَتِكْ يَاالله
تْقَـدَّمْنَا وِدْخَلْنَـا   فِـي حرْمتِكْ يَاالله
يَا دَاخِلْ لِلحَضْرَة   بِالْقَلْب صَافِي يَاالله
يَـــا دَاخِلْ بِالنِّـيَّة   دَاوِي الْعْلِيلْ يَاالله
يَـا رْكَايِزِ الْحَضْرَة   بِالـعَـمَــــلْ يَاالله

ثم يجلسن. ثم :

سْلاَمِي عْلَى الشَّيخْ سِيدِ الْمَزِيَّة   الله يْعَـــطِّـف قْلَيْبُه عَـلَيَّه

***

هَيّا نْزُرُوا الشِّـــيخْ يَـــا فُقْرَا   بِالـزَّادْ وِ الرَّحْلْ جُمْلَة يَا فُقْرَا

وِاذَا وِقْفُوا سْيَـادِي فِي الْحَضْـرَة نَعْمَلْ مِدْحَة وْلِيلَة هْنِـــيَّة

***

سْلاَمِي عْلَى الشِّيـخْ زَاوِيتُه بْعِيدَة مَا بِينْ طْبُرْبَة وَقَصْرِ جْدِيدَة

إِنْ شَا الله بَابَا مَا يْطَوَّلْ غِيـــبَة نَعْمَلْ مِدْحَة وْلِيـلَة هْنِــيَّة

***

هَيَّا نْزُوروا الشِّيخْ يَـا نَـــاسْ فَخْرِةْ سِيـدِي مِنْ كُلِّ لْبَاسْ

وِاذَا وِقْفُوا سْيَـــادِي فِي الْحَضْرَة نَعْمَلْ مِدْحَة وْلِيـــلَة هْنِيَّة

***

قُلْتْ لُه: يَا شِيخْ، هُوَ شِيخِ الْفُقْرَا يِتْعَرَّضْ لِينَا وْ يِفْــــزَعْ نَغْرَة

يَا شَيْخِي، وْيُدْخُلْ لِلْحَضْـــــرَة يُدْخُلْ لِلْحَضْرَة سِيـدِ الْمَزِيَّة

***

سْلاَمِي عْلَى الشِّيــخْ هُوَ حْبِـيبِي هُوَ دْوَايَــــا هُــوَ طْبِيــبِي

يِبْرِيني مِنْ حَـــــرِّ اللَّهِيــــــبِ نَعْمَلْ لِيلَة وَنَفْـحَة قْـــوِيَّـــة

***

سْلاَمِي عْلَى الشِّـيخْ آهْ يَـا فُقْـــرَا مِنْ جَانَا الشِّيخِ نْصُحُّ وِنِبْرَى

هُو اللِّي يِرْقِيــــــنِي فِي الْحَضْــرَة نَعْمَلْ لِيلَة وَ نَفْــحَة قْــوِيَّة

***

سْلاَمِي عْلَى الشِّيخْ يـَا نُورْ عِيـنِي مِيـعَادِكْ بَابَا مَاذَا يَحْــــمِينِي

فِي الحَضْرَة إِنْــتَ تِـــــرْقِينِي نَعْمَلْ لِيلَـــة وَنَفْحَة قْــوِيَّة

ثم على إيقاع النوخت التركي 7 من8 :

هَيَّا يَـا خَمَّــــــارْ هَيَّا وَاسْقِنَا كَـــاسَ الْحُمَيَّـــا

وَاسْقِنَا كَاسًا مُصَفَّى أَسْيَادِي عَطْفُهُمْ عَلَيَّ

اِسْقِنَا صِرْفًا وَذُخْرًا خَمْرَة صَافْيَة زُلاَلِيَّة

وَاهْدِ لِلْخَمَّارْ دَلْقِي وَالثِّيَابِ اللِّي عَلَيَّ

يَاسُقَاةَ الرَّاحِ قُومُوا هَاتُوا الرُّوحْ وَالرُّوحَانِيّة

وينتهين بـ(يا راكب البراق) في لهجة العرضاوي على إيقاع 4 من4 ينتهي بالدرّازي 12 من8 :

يَا رَاكِبِ الْبُرَاقْ يَا الأَمْجَدْ يَا نُورْ كُلّ انْوَارْ

يَا شْفِيعْ فِي الْخَلاَقْ

نَجِّنَا مِ الْهَمْ وِ الأَكْدَارْ يُومِ اللِّي نَرْجُو لْقَاكْ

نَجِّ اوْلاَدِي مِنِ لْهِيبِ التَّارْ انَا صِيدْهُمْ عَرَّاكْ

وَعْلَى اوْلاَدِي دَايْمًا قْحْتَارْ مَنْ قَاسْهُمْ هَتَّاكْ

نَقْصَمْ ظَهْرَه عْلَى ثْلاَثَة اشْطَارْ مَا امْضَاكْ اوَاشْ دْعَاكْ ؟

يَا مِعْمِيَّة يِجْزِيكْ مِنْ هَا العَارْ رَاهُمْ صْيُودَة وْرَاكْ

وِالْمِتْعَرَّضْ يِخَلّفُوهْ رْمَادْ وِاللِّي وْقِفِ السَّاسْ

مَا نَعْشَقْ كَانِ النَّبِي الْمُخْتَارْ هُوَ طَيِّبْ الأَنْفَاسْ

مَا يَعْرَفْ كَانِ النَّبِي الْمُخْتَارْ اللِّي عَرَفِ النَّاسْ

مِتْضَمِّنْ بِضْمَانِةِ السَّتَّارْ فِي وِسْطِ سُورِ نْحَاسْ

دَايِرْ بِالفِضَّة سَبْعَة ادْوَارْ يَا نَاصْبِينِ السِّيَاسْ

رِيتُوشِي مَا رِيتْ يَا خِيَّارْ انَا رِيتْ بَابَا رْقَيّة

سَيِّدْ الأُمَّة، يَا شَارِقِ الأَنْوَارْ رُدُّوا سْلاَمُه عْلَيَّا

خَلَّى فِي جَاشِي كِي لْهِيبِ النَّارْ وَلاَ صِبْتْ مَهْرِيَّة

وْنُوصِلْ بِيهَا لِلنَّبِي الْمُـخْتَارْ   الآمْـجَـدْ بَـابَا رْقَـيَّـة

سَيِّدْ الأُمَّة، شَارِقِ الآنْــوَارْ   رُدُّوا سْــلاَمُـه عْـلَـيَّا

وقد ينشدن مدحات أخرى مثل :

نِفنَى فِي حُبَّكْ وَنْعِيشْ مُنَعَّمْ   حَتَّى أَنَــالْ كُلَّ مَــا أُرِيدْ

أو قطعة أخرى في المتقارب :

ا لله ا لله ا لله ا لله   الله لا إلـــــه إلا الله

أَتَيْنَاكَ بِالْفَقْــرِ يَــا ذَا الْغِنَى   وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُحْسِــنَا

وَعَوَّدْتَنَا كُلَّ فَضــلِ عَـــسَى   يَدُومُ الَّذِي مِنْـكَ عَوَّدْتَــنَا

مَسَاكِينُكَ الشُّعْثُ قَدْ وَلِهُوا   بِحُبِّكَ إِذْ هُوَ أَقْصَى الْمُــنى

فَمَا فِي الْغِنَى أَحَـدٌ مِثْلُكُمْ   وَفِي الْفَقْرِ لاَ عُصْبَةً مِثْـلَنَا

رَأَيْنَــاكَ فِي كُــلِّ أَمْرٍ بَـدَا   وَلَيْسَ فِي الأَمْـرِ شَيْءٌ لَنَـا

إِذَا كُنْـتَ فِي الْحَالِ أَنْتَ مَعِي   فَعَنْ حَمْلِ زَادِي أَنَا فِي غِنى

سَتَرْتُ اسْمَكُمْ غَيْرَةً، هَا أَنَا   أُمَوِّهُ فِي الشَّعْثِ وَالْمُنْحَنى

فَأَنْتُمْ هُوَ الْحَقُّ لاَ غَيْرُكُمْ   فَيَا لَيْتَ شِعْرِي:أَنَا. مَنْ أَنَا؟

فَيَارَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى   صَلاَةً تَكُــونُ أَمَانًا لَنَــا

ويتابعن بعض الأناشيد مثل هذه المدحة في مقام الحمدان على إيقاع 2من4 :

حُبِّ كْـــرِيمْ   وَاسْقِنَا يَا رَحْمَانْ

نِبْدُوا بِسْمِ اللهْ   وِالسِّرْ وِ الآعْلاَمْ

نِنْظَــمْ فِي حُــلَّة   تِجَلِّي عَنَّا الِغْمَامْ

يَا شَارْبِينِ الْكَاسْ   ارْوِيهَا مِ الْخَمْرَة

حتّى يصلن إلى :

قَدْ أَشْرَقَ الْبَدْرُ الْمُنِيرْ　　بِمَوْلِدِ الْهَادِي الْبَشِيرْ

أَهْلاً وَ سَهْلاً بِالإِمَامْ * اَلْمُصْطَفَى بَدْرِ التَّمَامْ * شَفِيعِنَا يومَ الزِّحَامْ * أَرْسَلَهُ الرَّبُّ الْقَدِيرْ

بُشْرَى لَنَا نِلْنَا الْمَرَامْ * بِطَهَ مُعْتَلَى الْمَقَامْ * شَرَّفَهُ رَبُّ الأَنَامْ * فَلَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرْ

يَا ذَا الْجَلاَلِ يَا مُجِيبْ * عَبْدٌ دَعَاكَ لاَ يَخِيبْ * بِحُرْمَةِ النَّبِي الْحَبِيبْ * يَسِّرْلَنَا الأَمْرَ الْعَسِيرْ

أَدْعُوكَ يَارَبَّ الأَنَامْ * أَمِتْنَا عَنْ حُسْنِ الْخِتَامْ * وَاسْكِنَّا فِي دَارِ السَّلاَمْ * لِبَاسُنَا فِيهَا حَرِيرْ

أَجِبْ دُعَائِي يَا أَحَدْ * وَاسْمَعْ نِدَائِي يَا صَمَدْ * يَا دَائِمًا عَلَى الأَبَدْ * أَنْتَ الْمُهَيْمِنُ الْخَبِيرْ

أُهْدِي التَّحِيَّة وَالسَّلاَمْ * لِلْمُجْتَبَى خَيْرِ الأَنَامْ * وَالآلِ وَالصَّحْبِ الْكِرَامْ * مَا أَمْطَرَ الْقَطْرُ الْغَزِيرْ

ويضفن عدّة أناشيد أخرى ويختمن بـ :

جِينَاهُمْ جِينَاهُمْ　　وِ دْخَلْنَا حِمَاهُمْ

وْهَذَا مِنْ فَضْلِ الله　　أَللِّي جِينَا وْزُرْنَاهُمْ

***

ويكون هذا الانتهاء عند منتصف الليل أومنتصف الوقت المحدد للحفلة. فيسترحن، ثم يخرجن فعلا من الطريقة المدنية فيستعملن الدفوف والدربوكة والطار، وينطلقن في الأمداح والاستغاثة بالله عزّ وجلّ ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأصحاب الطرق وأولياء الله تعالى والصالحين. فتجد النساء الحاضرات فرصة كي

يفرغن بالرقص على ألحان طرق أخرى إلى جانب الحضرة المدنية، شُحَنًا من الهموم اليومية، ويجدن في هذه الحفلات نوعا من التحرّر من الضغط الذي يرزحن تحته من تسلّط الزوج والحماة والأهل، وهنّ يجدن في مثل هذه المناسبات متنفسا لهنّ على غرار ما ذكرناه في التجانية. ولعلّ هذا ما يفسّر لجوء الفرقة النسائية المدنية إلى السلامية وغيرها من الطرق كي يتمكّنّ من استعمال الدّفوف، نظرا للطابع الهادئ الذي يميّز المدنية عند مقارنتها بالسُّلامية، ولعلّ مثل هذا الطرب هو الّذي يفسّر أيضا عزوف الرجال عن المدنية لفائدة السلامية في ذلك الوقت.

وهكذا نرى أن الطريقة المدنية بالمنستير قد ساهمت في إدخال المقامات والإيقاعات الشرقية إلى البلاد التونسية من خلال الموشحات والمدحات التي ذكرناها مثل مقام السيكاه والبياتي والرصد، والأوزان الشرقية مثل ما ذكرنا النوخت بنوعيه 7من8 و7من4 والسماعي فاخت 10 من 8 . وكان هذا من بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري التاسع عشر ميلادي. ويفسّر ذلك باتّصال الشيخ ظافر بإسطنبول وتأثّره بذلك ونقله إيّاه إلى مريديه من أصحاب الطريقة المدنية.

وللذكر، فإن هنالك عدّةَ فرق نسائية بأغلب المدن التونسية تقوم بما تقوم به الفرقة النسائية المدنية بالمنستير عدا الأذكار المدنية، وتسمّى حضاري رغم أنها لا تقوم بالحضرة، فتنشد النساء أذكارا وأمداحا للرسول وأمداحا للأولياء والصالحين على نقرات الدفوف والطار والدربوكة، تجد ذلك في سوسة وفي القيروان وفي المهدية وفي صفاقس وغيرها من المدن التونسية.

الطريقة العلاوية

نسبة إلى الشيخ أحمد العلاوي المتوفى سنة 1353هـ/1934م

الشيخ المؤسس : أبوالعباس أحمد العلاوي بن مصطفى بن محمد بن أحمد القاضي بن محمد المعروف بأبي شنتوف بن الولي الصالح الملقّب بمدبوغ الجبهة بن الحاج علي المعروف عند العامة بعليوة بن غانم القادم من الجزائر إلى مستغانم. [ولد الشيخ أحمد العلاوي سنة 1291هـ/1873م بمستغانم القريبة من مدينة وهران.]

يقول الشيخ أحمد العلاوي:"أوّل مَيل كان قد وقع لي لأهل النسبة على الاجمال تعلُّقي بأحد الرجال من السادات العيساوية، كنت أراه متعففا يظهر عليه أثر الصلاح...إلى أن اجتمعت بالأستاذ الشيخ سيدي محمد [بن الحبيب] البوزيدي [الشريف المستغانمي][1] رضوان الله عليه، فقال ذات يوم وهو عندنا بدكاننا: إنه بلغني أنك تأخذ الحيّة ولا تخشى من لسعها، فقلت له: نعم! كذلك كنت. فقال لي: هل يمكنك الآن أن تأتينا بواحدة فتأخذها بحضورنا ؟ فقلت له: متيسّر. وذهبت من حيني إلى خارج البلد، وبعد مرور نصف يوم لم أجد إلا واحدة صغيرة يقرب طولها نصف ذراع، فجئت بها ثم وضعتها بين يديه، وأخذت أقلّب فيها كما هي عادتي، وهو ينظر إلى ذلك رضي الله عنه، ثمّ قال

1 هو الولي الكامل سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي الغماري الحسني [الشريف المستغانمي] تلميذ[الشيخ قدور عن شيخه أبي عزّة المهاجي عن] مولاي العربي الدرقاوي الحسيني شيخ الأولياء وهو تلميذ القطب الكبير سيدي علي بن عبد الرحمان الجمل الحسيني، [وتوفي الشيخ البوزيدي في 1327هـ/1909م وخلفه الشيخ أحمد العلاوي] (عن الأنوار الرحمانية في الطريقة الكسنزانية، ص124)

لي: هل تستطيع أن تأخذ أكبر من هذه الحية مما هو أكبر منها جرما ؟ فقلت له: أنها عندي على السواء، فقال لي: ها أنا أدلّك على واحدة أكبر وأشدّ منعها بأسا، فإن أمسطتها وتصرفت فيها فأنت الحكيم. فقلت له: فأين هي؟ فقال: نفسُك التي بين جنبيك فإن سمّها أشدّ من سمّ الحيّة فإن أمسكتها وتصرفت فيها فأنت الحكيم".[1]

ولزم الشيخ أحمد الشيخ البوزيدي وأخذ عنه العلم والطريقة الدرقاوية، وصدّره في حياته وخلفه بعد مماته، وتخرّج على يد الشيخ أحمد العلاوي الشيخ محمد خلف الله المدني صاحب الطريقة المدنيّة

بقصيبة المديوني. وبالجملة فهو شيخ مدني على الطريقة الدرقاوية. وتوفي في غرّة ربيع الثاني 1353 هـ[14جويلية 1934م]. [ألّف الشيخ العلاوي عدّة كتب من بينها رسالة في الردّ على كتاب ألّفه الشيخ عثمان بن المكّي التونسي أحد المدرسين بجامع الزيتونة أسماه: "المرآة لإظهار الضلالات." انتقد فيه الطريقة العلاوية. والرسالة العلاوية أسماها: "القول المعروف في الردّ على من أنكر التصوف." طبعت في تونس سنة 1339هـ والرسالة مذيّلة بتقريظ وتأييد من الشيخ محمد عبد الحي الكتاني حاول فيها أن يُثبت للتصوّف مرجعا دينيا في الإسلام .][2]. كما للشيخ العلاوي كتاب: "المنح القدّوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية." وكتاب في الفلك وديوان جمع بعض أذكاره وأذكار غيره طبع بتونس بمطبعة الشحمي سنة 1407هـ/1986م، تتصدّره قصيدة عمودية على قافية اللام للشيخ العلاوي تضمّ أكثر من مائتي بيت في نَفَسِ الطويل إلّا أنها غير موزونة، ونحن نعلم أن هؤلاء تلهيهم غزارة المعاني عن مراعاة المباني كما قال الناشر للديوان، مطلعها:(البحر الطويل)

أَيَا أَيُّهَا الْعُشَّاقُ لِلْمَحْـضَرِ الأَعْلَى   عِدُونَا بِوَصْلِكُمْ فَفِينَا لَكُمْ وَصْلاَ

ومن قراءة الديوان يتبيّن أنّ الشيخ وشّاح أكثر منه كاتب للقصيد وهذا ينبئ عن الذوق الفنّي ورقّة الطبع من جهة، وعن انتشار نظم الموشحات وما شاكلها من

---

1 أحمد العلاوي، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطلايق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009. ص6.

2 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 341.

أزجال وتلميع في الطرق الصوفية، ونذكر هذا الموشّح التام على سبيل المثال للشيخ أحمد العلاوي المذكور في الديوان ص(51) بعنوان (الذكر أسباب كلّ خير) :

طالع مَاذَا فَرَّطْتْ فِي الأَوْقَاتِ الْخَلِيَّة ضَاعِتْ الأَيَّامْ كِيفْ نْدِيرْ؟

نِغْنِمْ وَقْتِي الْيُومْ نُذْكُرْ بِالنِّيَّة نَحْضُرْ بِالْقَلْبْ وَالضَّمِيرْ

الدور الذِّكْرُ أَحْسَنْ مِنَ التِّجَارَة لَوْ كَانْ نْقُولْ آشْ فِيه

أَفْضَلْ مِنَ الْمُلْكْ وَالْوزَارَة وَالنَّاسِ مُنحَرفَة عِلِيهْ

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا خسَارَة حَاطِتْ بِالْعَدْلْ وِالسَّفِيهْ

القفل رَبِّي مِنْ حَرّهَا يْجِيرْ

نَخْشَى نَفْسِي تْصِيرْ لَهَا مْطِيَّة نِبْقَى فِي يِدْهَا أَسِيرْ

بَعْدِ التَّوْفِيقْ وِالأَوْصَافِ الْمَرْضِيَّة اَلذِّكْرِ اسْبَابْ كُلِّ خِيرْ

الدور يَارَبِّ عَمِّتْ الْمْصَايِبْ وِالذِّكْرِ اثْقَالْ فِي اللُّسُونْ

وِالْخَلْقِ اسْعَاتْ فِي اللِّي غَايِبْ وِالنّاسْ احْوالْهَا فْنُونْ

تِعْصَى الْمَطْلُوبْ فِي الْمَطَالِبْ وِالصِّدْقِ قْلِيلْ مَا يْكُونْ

القفل ألنّاس قْلُوبْهَا ذْكِيرْ

مَا يِنْفَعْ وَعْظْ فِي ارْبَابِ الْمَعِصِيَّة عِيِيتْ أَنَا مْنِ النَّذِيرْ

أَيْنَ اقْوَالِي مِنْ اقْوَالْ الأنْبِيَّا وِ الذِّكْرِ سْبَبْ كُلْ خِيرْ

***

الدور النَّايِمِ فِي الْقِرِيبْ يُفْطُنْ وِالْمِيتْ مَالُه احْسَاسْ

كِيفَاشِ الْقُولْ فِيهْ يِمْكِنْ رَانِي نِبْنِي بْلاَ سَاسْ

وِالنَّاسْ اَحْوَالْهَا تجَنِّنْ تِسْعَى فِي مَقْتْ وِفْلاَسْ

القفل مَعْلُومْ نَهَارَهَا كْبِيرْ

كَمْ سَيِّـــئَة ظَـاهْرَة وِخْفِيَّة وَالنَّاسِ تْعَـدِّي بْخِيرْ

لَوْ مَا فَضْلِكْ عَمْنِي وِظْهُرْ فِيَّ الذِّكْرِ سْبَبْ كُلْ خِيرْ

***

الدور صَيَّرِ كْـــلاَمِي حْقَـايَقْ رَاهُ مَنْقُولْ فِي كْتُـــبْ

يُظْهُرْ مَلْمُـوسْ لِخْـلاَيَقْ يَا خِذْ بِالرُّوحِ وِ قْلُوبْ

صَاحِبْ الصِّدِقْ لُه شَايَقْ يَا رَبْ تُسْتُرْ الْـعْيُـوبْ

القفل الَعْلاَوِي يْظُنِّ الْخِيرْ

ومثله موشّح (اصطفاك الباري) وغيره. وله على شكل (القسيم المثنّى):

يَا مَنْ تُرِيدْ تَدْرِي فَنِّي فَاسْأَلْ عَـنِّي الأُلُو هِيَّا

آمَا الْبَشَرْ لاَ يَعْـرَفْنِي احْوَالِي عَنُّه غَيْــبِـيَّا

اُطْلُبْنِي عِنْـدَ التّــدَنِّي مِنْ وَرَا الْعُبُــــودِيَّـــا

ومن طرائف الشيخ العلاوي هذا الّذي يشبه الموقف على نافرات القوافي الواو الساكنة:

الْـوَاوْا الْـــوَاوْا * سَافِرُوا الَحْبَابْ مْشَاوْا * رَحْلُوا وِ ارْقَـاوْا * لِلْبِسَاطِ الْمَعْــنَاوِي

اطْوَاوْا اطْـوَاوْا * ذَا الْحُجْبَ اللِّي تَـــرَاوْا *صَعْدُوا وَعْـلاَوْا * جَالْ بِهِمْ سَـمَـــاوِي

أَنْسَـاوْا انْسَـاوْا * نَاسْهُمْ وَاللِّي خَـــلاَّوْا * أَيُّ شِ يِرْضَـاوْا * فِي التَّعِيمِ الدُّنْــيَاوِي

اضْوَاوْا اضْوَاوْا * كَالنُّجُومْ مْنِينَ اعْلاَوْا *غَابُوا وَخْـفَــاوْا * رُحْ رَاحُوا بِنْشَـاوِي

افْـنَاوْا افْــنَاوْا * حَارْ عَقْلِي بَاشِ ابْقَاوْا * ذَهْلُوا وَاهْفَـاوْا * فِي الْغَنِي نِعْمَ الْقَاوِي

اغْلاَوْا اغْـلاَوْا * كَالتِّبْرِ عَـادُوا يِسْـوَاوْا * بَعْدَانْ مَاجَاوْا * لِلْخَـــلاَيِقْ يَا رَاوِي

أَدْوَوْا أَدْوَاوْا * بِالْعُلُــومْ اللِّي يَسْــوَاوْا * مَــاذَا دَرَّاوْا * لِلصَّدِيــقِ الْجَدَّاوِي

مَـاذَا صَــفَّاوْا * مِنَ الْقُلُوبِ اللِّي صَدَّاوْا * قَدَّاشِ هْـدَاوْا * مِنْ مُحَيَّرْ دَهْـــرَاوِي

أَرْوَاوْا أَرْوَاوْا * كُلُّهُمْ سَكْرُوا وَصْحَـاوْا * شَرِبُوا وَ سْقَاوْا * مِنَ الرَّحِيقِ النَّبَـاوِي

أنْفَـاوْا انْفَــاوْا * كُلّ حَاجِزْ بَاشْ أَسْـرَاوْا * غَنِمُوا وسْعَـاوْا * كُنْتُ مِنْهُمْ دَرْقَـاوِي

عِنْدِي خَــلاَّوْا * كَاسْ مِنْهُمْ بَاشْ سْقَـاوْا * بَعْدَ انْ قَـفَّاوْا * لِلْمَقَـامِ الأُخْـــرَاوِي

رَانَــا نِسْــعَاوْا * فِي الصَّوَابِ اللِّي نْــرَاوْا * عَسَى يِرْضَـاوْا * بِالضَّـعِيفِ الْعَلاَوِي

رِجالْ امْضَــاوْا * عِزُّنَا حَـاشَا يَخْـفَـــاوْا * وَنَحْنُ نَرْجَــاوْا * يَوْمَنَا مَـاذَا حَــاوِي[1]

أخبار الطريقة : اهتم المستشرقون وعلماء الغرب بالتصوّف الإسلامي لعدّة أغراض منها العلمي ومنها العسكري واتّجه بعض علماء البلاد السكندنافية إلى الطريق العلاوية وحياة الشيخ أحمد العلاوي وكتبوا كتبا في طريقته منها كتاب "Comprendre l'Islam" (لنفهم الإسلام) للكاتب FRITHJOF Schuon فريتجوف شوان الذي حلل فيه الطريقة من حيث جذورها العقائدية وممارساتها التعبّدية وتأثيرها في سلوك مريديها.

[انتشرت الطريقة العلاوية في بلاد الجزائر والبلاد التونسية وفي بلاد المغرب، وكان الشيخ محمد عبد الحي الكتاني (وهو من مشائخ الطرق) من أنصاره ومؤيّديه. وكانت فرنسا في الأقطار الثلاثة تؤيّدهم جميعا بكلّ الوسائل. وكانت أكثرية أتباعه في البلاد التونسية بالساحل ومركز نائب الشيخ بقرية القصيبة المديونية ولهم أتباع في ولاية السواسي وغيرها. وهم يعرفون بإطلاق اللّحى، والركوب على العجلات وإظهار النشاط والحزم كالآباء البيض.][2].

أصول الطريقة : أصول هذه الطريقة درقاوية وتنتمي بالجملة إلى الطريقة الشاذلية الممتدّة إلى مدنية الشيخ أبي مدين شعيب، فليراجع ذلك في مظانّه. غير أنّ الشيخ أحمد العلاوي ألّف من ذاته أدعية وصلوات وأمداحا، فمن صلواته ما أجرى الله على لسانه وانتشر لدى الناس وواظب عليه جماعة المدنية:"اللّهمّ يا مَنْ

---

1 أحمد العلوي، الديوان، تونس، 1986م/1407هـ، ص 51.

2 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 341.

جَعَلْتَ الصَّلاَةَ عَلَى النَّبِيءِ مِنَ الْقُرُبَاتِ أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِكُلِّ صَلاَةٍ صُلِّيَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ إِلَى مَالاَ نِهَايَةَ لِلْكَمَالاتِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

طريقة العمل : يقول السيد ساسي السعيدي[1] من زاوية عنابة المدنية أن الزاوية أسسها الشيخ أحمد العلاوي سنة 1928م، وكان الفقراء يأتون كل يوم جمعة بعد صلاة الجمعة وصلاة العشاء فيلتقون هناك وتلقى لهم دروس وقصائد ويقومون بالعمارة (الحضرة). وقد زارها الشيخ أحمد العلاوي في حياته خمس مرّات. وفي حضرتهم يذكرون فيقولون :

الله الله الله الله   الله الله يَا مَــوْلاَنَا

كما يذكرون اسم الصدر(آه) وقوفا والنور منطفئ والعيون مغمضة وتنشد أثناء ذلك مدحة :

جَمْعْ فِيهِ الــرَّحْمَــة   جَمْعْ فِيهِ الْحِكْمَة[2]

---

1 في زيارتنا للشيخ منور المدني بقصيبة المديوني عشية يوم الجمعة 14 جوان 2002 التقينا بشخص جزائري هو السيد ساسي السعيدي المذكور أتى لزيارة الزاوية فأخذنا عنه هذا الحديث.

2 في الديوان الموشح :

بُشْرَاكُمْ خِــــلاَّنِي * بِالْقُرْبِ وَالــتَّـــدَانِي * جَمْعُكُمْ فِي أَمَــانِ * مَا دُمْتُمْ فِي حِزْبِ الله
بُشْرَاكُمْ يَا سَــادَتِي * بُشْــرَاكُمْ أَحِــبَّتِي * بَشَّرْتُكُمْ بِالآتِــي * أَنْتُــمْ فِي رَحْــمَةِ الله
جَمْعُكُمْ عَيْنِ الرَّحْمَة * جَمْـعُكُمْ فِيهِ الرَّحْمَة * وِمَنْ حَبّــكُمْ سَمَا * عَلَيْــكُمْ رِضْوَانُ الله
الرِّضَى مَعَ الرِّضْـوَان * وَالرَّحْمَة مَعَ الْغُفْــرَانْ * أَنْتُمْ حِزْبُ الرَّحْمَانْ * أَنْتُــمْ أَوْلِــيَــاءُ الله
طَرِيقُــكُمْ لاتَغُــورْ * مُحِــبُّكُمْ لاَيْبُــورْ * تَاللهِ لَكُــمْ ظُهُورْ * فِي جِمِــيعْ خَلْــقِ الله

الطريقة المدنية «العلاوية»

أسسها الشيخ محمد المدني خلف الله بقصيبة المديوني

الشيخ المؤسس : هو الشيخ محمد المدني بن خليفة بن حسين بن الحاج عمر خلف الله ولدسنة 1307 هـ/ 1888م ببلدة قصيبة المديوني من ولاية المنستير، كان أبوه خليفة فلاّحا تاجرا ينتقل إلى تونس ويغشى زاوية المدنية التي كان مقدمها الشيخ الصادق الصحراوي الذي أخذ الطريقة عن الشيخ ظافر المدني. كانت زوجة التاجر حاملا فنذر وقال: "كان ربي عطاني ولد نسميه على اسم اللي أسّس الطريقة محمد(حسن بن حمزة) المدني" وربما كان ذلك بإيعاز من الشيخ الصادق الصحراوي نفسه، وكان الأمر كذلك، فكبر الطفل محمد المدني وحفظ القرآن بالجهة، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بالعاصمة، وصار لامعا في العربية والفقه والأصول، وكان دائم الاتصال بالشيخ الصادق الصحراوي صحبة والده حتى أصبح صديقا حميما لابنه علي الصحراوي. وقدم إلى تونس الشيخ أحمد العلاوي من مدينة مستغانم بالجزائر الذي أسس بها الطريقة العلاوية، فاتصل بصديقه الشيخ الصادق الصحراوي الذي يكنّ له احتراما كبيرا، كي يدلّه على طالب نابه له دراية بالعربية يوكل إليه قراءة وتصحيح كتابه " المنح القدسية في شرح المرشد المعين بالطريقة الصوفية" استعدادا لطبعه، فوقع اختيار الشيخ الصادق الصحراوي على الشاب الطالب محمد المدني خلف الله للاضطلاع بهذه المهمّة، فقدّمه للشيخ العلاوي.

ولفت انتباه الطالب محمد المدني اختلاف التفسير الذي قرأه في الكتاب مع الشرح الذي درسه في جامع الزيتونة، وسأل المؤلف الشيخ عن ذلك فأجابه أن الشرح نابع من علم رباني وهو علم موهوب، فسأله أن يعطيه منه فأجابه إن الله هو الّذي يعطي فقال له الشاب: "خذ بيدي إلى الله " فسمح له بالصحبة حتّى أعطاه الطريق ولقنه إياه.

وسافر الشاب بعد إذن والده، مع شيخه الجديد إلى مستغانم سنة 1906م فتعلّم لديه الطريقة العلاوية، وهي طريقة سنّية شاذلية درقاوية، وتلقّى منه الاسم الأعظم، وتجرّد لتعليم أهل تلمسان اللغة العربية والبلاغة والعلوم الشرعية إلى سنة 1327هـ/1910م حين أذن له شيخه في الرجوع إلى بلاده وأن ينشر الطريقة بين الناس باسمه لا باسم الشيخ العلاوي، وذلك بإجازة كتابية في علم التصوّف، بالإضافة إلى بقية إجازاته في الفقه والحديث والتفسير والبلاغة وإجازة خاصّة في قراءة "دلائل الخيرات" والإذن بإقرائها.

رجع الشيخ محمد المدني خلف الله إلى بلدته قصيبة المديوني وعمل فلاّحا إذ كان على ملك أبيه زياتين بالقصيبة ورأس المرج، وأخذ ينشر الطريقة بالقصيبة فاجتمع له بعض شيوخها، وكانت أولى اجتماعاته في زاوية سيدي المراكشي على طريق لمطة زمن وكيلها السيد صالح بوستّة فكان كل واحد يأتي ببعض الطعام فيتكوّن عشاء، ويقومون هناك بأذكارهم ووظائفهم، غير أن الزاوية كانت بعيدة على رجال مسنين مثلهم فاكتروا دكانا لاجتماعهم.

في هذه الفترة دخل الشيخ إلى المنستير ناشرا للطريقة، وقد كان على اتصال دائم بها إذ هي مركز الإدارة العمومية، وعمل بها مدرّسا، وتعرّف على أهلها أمثال الحاج محمد محو الكفيف من سكان الربط والشيخ محمد السخيري المفتي والشيخ محمود عباس والسيدة آمنة مزالية وكانوا يكنّون له مودّة وصحبة وتبنوا طريقته، فسكن بالمنستير مع زوجته الأولى فاطمة الجمالي وابنه حسين في سنة 1917م، ولم تلبث زوجته فاطمة الجمّالي أن توفيت ولحق بها ولدها، فتوسطوا له في خطبة السيدة هنّونة ابنة فرج العتيل أخت الشيخ الشاهد محمد الصالح العتيل، كان أبوها نساجا شهر بالثقة والعفاف، فتزوجها الشيخ المدني سنة 1918م وأنجب منها ابنه منوّر وكيل الطريقة حاليا بالزاوية الأصلية بقصيبة المديوني.

وغادر الشيخ التدريس بعد خمس سنوات من 1918 إلى 1923م، بإذن من الشيخ أحمد العلاوي حيث أنه أمره بنشر الطريقة بين الرجال لا أن يعلّم الأطفال، فأخذ يجوب الأرياف ماشيا ثم اتخذ أتانًا من عند والده ليسيح بها في الأباعد، وأخذ يستعمل وسائل النقل المتوفرة حتى تمكن من الحصول على مركبة يجرها حصان (برودشينو)، ووصل إلى السواسي بلد تلميذه الشيخ عبد الله بن بلقاسم وغيرها.

وبعد أن كثر مريدوه، كلّف بعضهم ممن رأى فيهم الأهلية بنشر الطريقة في جهاتهم: منهم السادة: الطاهر عبد الواحد في صفاقس، وإسماعيل الهادفي وعبد الرحمن النيفر في توزر، والحاج رشيد النيفر والحاج أحمد عثمان ومحمد بن مبارك بتونس الحاضرة، والحاج الجيلاني يعقوب بقابس، وعلي العلواني بالسواسي، والبشير الشراحيلي من شراحل معتمدية المكنين، وعبد العزيز بوزيد ببوحجر، والحاج محمد الغوثي بخوش بطبلبة، والكيلاني زايدة بمنزل تميم، والحاج حسن زينة ببنان، وابنه منوّر المدني بقصيبة المديوني، هؤلاء ورثوا هذا التراث الروحي عن شيخهم محمد المدني وأصبح عليهم أن ينشروه ويبلغوه للخاص والعام بالدعوة اللينة والخلق الحسن ومحبة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم.

قضى الشيخ نصف قرن في التذكير بالله ونشر الطريق وتأليف الكتب والأدعية والرسائل وحتّى إصدار بعض الفتاوي إلى أن وافاه الأجل المحتوم بأحد مستشفيات سوسة يوم الخميس الثامن من ذي القعدة 1378هـ [14 ماي1959م] تغمّده الله برحمته وأسكنه فراديس جنانه[1].

أخبار الطريقة : الطريقة العلاوية طريقة مدنية حيث إن سلسلة سندها تحتوي على الشيخ العربي الدرقاوي، وحيث إن العلاوية بمستغانم مدنية درقاوية وكذلك مدنية الشيخ الصحراوي بتونس الذي نشأ عنده الشيخ محمد المدني القصيبي المديوني، تكون هذه الطريقة كما جددها الشيخ محمد المدني القصيبي امتدادا للمدنية الأصلية بل ولها صلات بمدنية الغوث أبي مدين شعيب، فقد نجد في الطريقة الغوثية المتفرعة عن هذه المدنية ببلدة "زاوية سوسة" بعض القصائد المنسوبة إلى الشيخ شعيب نفسه.

1 ترجمة مؤلّفة من عدّة مصادر منها كتاب (المعرفة الواضحة) من تأليف المترجم له الطبعة الأولى سنة 2002م

وعلى كل فإن هذه الطريقة انتشرت في الساحل التونسي منطلقة من قصيبة المديوني مقر الشيخ محمد المدني وزاويته وببوحجر وسوسة والمنستير وخاصة صفاقس وتونس العاصمة وبلاد الجريد أي الجنوب الغربي وحتّى تطاوين، وأتباعها في ازدياد مستمر داخل الجمهورية وخارجها. وهي الآن في أوائل القرن الخامس عشر للهجرة والقرن الواحد والعشرين للميلاد من أبرز الطرق الموجودة في البلاد العربية من حيث التنظيم وتوفير الإمكانات والترتيب الكامل الدقيق الذي يعتمد على التطوّع في إسداء الخدمات المتنوعة كل حسب ما يعرف وما يرى أنه أهل لتقديمه، ويوم المولد النبوي الشريف يأتيها الزوّار من عدّة أقطار عربية وأوربّيّة وغيرها ويشاركون في الحضرة التي تقام بالزاوية الأم بقصيبة المديوني.

للطريقة المدنية زوايا خارج الجمهورية مثل زاوية باريس بفرنسا يديرها المقدم الحاج البشير ميرة منذ حياة الشيخ المؤسس محمد المدني، والنجل نجم الدين بن الشيخ منوّر الذي يواصل تعليمه العالي في اللغة العربية بباريس ينشط بها. كما هنالك الشيخ إسماعيل بباريس وهو تابع لزاوية سوسة، ومحمد علي بزاوية مونبلييه (غير أن الذي يأسف له الشيخ منوّر أن هاتين الزاويتين تقيمان طقوس الحضرة دون دروس أو وعظ) ويعتبر ذلك تفريغا للطريقة من محتواها العلمي.

أصول الطريقة : هي طريقة المحبّة تنفّر الناس من الرذائل وتحببهم في الفضائل، وهي طريقة تشجّع على التبحّر في كل المعارف الإنسانية دون استثناء إلا ما كان علما ضارًا بنص الشريعة، وكان الشيخ محمد المدني عندما يلتقي بابن أستاذه العلاّمة الشيخ الفاضل ابن الشيخ الطاهر بن

عاشور يتبادلان الاحترام والتقدير. وهذه الطريقة تشجّع مريديها على التزوّد بعلوم الدنيا والآخرة غير أن الشيخين متكاملان فالشيخ الفاضل شيخ فقه غلب عليه العلم، والشيخ المدني شيخ تصوف وذوق.

وأهم احتفالاتها المولد النبوي الشريف حيث يصل الحاضرون إلى أكثر من الألفي نسمة، وكذلك الأعياد والمواسم الدينية وأفراح الأعيان حيث لا يتعاملون بأجر أبدا.

وللطريقة وظيفة من تأليف الشيخ محمد خلف الله المدني وأحزاب وأذكار أغلبها

في "ديوان أنيس المريد في التصوّف والتوحيد" للشيخ المؤسس، ولعلّ أبرز أصولها الحضرة التي تعتمد بالخصوص على اسم الصدر (آه).

وظيفة الطريقة المدنية (شجرة الأكوان) : إثر صلاة الصبح وصلاة المغرب يقرأ أتباع المدنية سورة الواقعة ثم هذه الوظيفة: "بسم الله الرحمان الرحيم، إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى شَجَرَةِ الأَكْوَانِ الْمُتَفَرِّعِ مِن نورهِ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ، بَحْرِ نُورِكَ الْمُنَزَّهِ عَنِ التَّحْدِيدِ الْمُبَرَّإِ عَنْ رِبْقَةِ الإِطْلاَقِ وَالتَّقْيِيدِ، عَيْنِ كُلِّ الأَعْيَانِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ أَصْلِ النُّقْطَةِ الأَزَلِيَّةِ، الْمُتَجَلِّي بِمَا هُوَ ظَاهِرٌ لِسَائِرِ الْبَرِيَّةِ الَّذِي بَرَزَتْ لِلْعِيَانِ حَقَائِقُهُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، الْفَرْعِ الزَّاهِرِ الزَّاهِي، بَلِ الأَصْلِ الْبَاهِرِ الإِلَهِي، فَيْضِ الأَمَاكِنِ وَالأَزْمَانِ، وَيُنْبُوعِ الْمَعَانِي وَالْعِرْفَانِ، فَهْوَ جِنَانٌ وَالأَنَامُ أَثْمَارُهُ، أَوْ رَوْضٌ وَ بُرُوقُ الْخَلْقِ أَنْوَارُهُ، بَلْ هُوَ سَمَاءُ الْوُجُودِ أَضَاءَتْ فِي لَيْلِ الأَكْوَانِ بُدُورُهُ وَأَقْمَارُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا انْتَشَرَ عَلَى لَوْحِ الْوُجُودِ سِرُّ الأَلْوَانِ وَانْفَلَقَ مِنْ عَالَمِ الْجَبَرُوتِ لَطَائِفُ الْمَلَكُوتِ وَكَثَائِفُ الأَعْيَانِ، نَسْأَلُكَ بِبُطُونِ ذَاتِكَ عَنِ الشُّهُودِ، وَظُهُورِ آيَاتِكَ لِلْوُجُودِ أَنْ تَجْعَلَ فِي الصَّلاَةِ قُرَّةَ عَيْنِي، كَيْ يَتَحَقَّقَ جَمْعِي وَيَزُولَ بَيْنِي وَتَثْبُتَ فِي شُهُودِي الْعَيْنُ بَدَلاً عَنْ غَيْنِي، وَنَسْأَلُكَ بِوِحْدَانِيَّتِكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى التَّنَزُّلِ الأَوَّلِ وَالظُّهُورِ الثَّانِي، قَبْضَةِ نُورِكَ الأَزَلِي وَسِرِّ سَائِرِ الأَوَانِي. اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مِرْآةِ الْحَقَائِقِ مِصْبَاحِ نُورِكَ الْمُمْتَدِّ ضِيَاؤُهُ إِلَى أَجْزَاءِ الْخَلاَئِقِ، مَنْ تَجَلَّيْتَ عَلَيْهِ بِلاَ فَاصِلٍ وَلاَ فَارِقٍ حَتَّى قُلْتَ: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ، فَاسْبِلِ اللَّهُمَّ عَلَيَّ حُلَّةَ سَنَاهُ وَحِلْيَةَ بَهَاهُ كَيْ يُسْقَى عَدَمِي بِمَاءِ وُجُودِهِ، وَتَنْتَعِشَ رُوحِي بِعَذْبِ مَوْرُودِهِ، فَيَنْطَوِي فِي حُضُورِي غَيْبِي فَأَقُولُ: كَقَوْلِهِ: لِي وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيهِ إِلاَّ رَبِّي، صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ عَدَدَ فَيْضِكَ الرَّحْمَانِيِّ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ عَالَمِ الْجَبَرُوتِ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي، فَقُلْتَ: الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، فَاخْتَفَى عَدَمُ الْخَلْقِ فِي وُجُودِكَ وَانْطَوَى، فَقُلْنَا لاَ مَوْجُودَ غَيْرُكَ، وَمَا فِي الشُّهُودِ إِلاَّ بِرُّكَ وَخَيْرُكَ، فَاحْجُبِ اللَّهُمَّ بَصَائِرَنَا عَنِ الْعَدَمِ وَكَحِّلْ أَبْصَارَنَا بِنُورِ الْقِدَمِ، وَأَوْقِدْ لَنَا نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ شَجَرَةِ:"فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ" حَتَّى لاَ نَرْضَى بِصُحْبَةِ غَيْرِكَ وَلاَ نَرَاهُ، الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا نُورَ الْوُجُودِ وَعَيْنَ الْوُجُودِ وَمِفْتَاحَ الشُّهُودِ، أَيُّهَا الْمَظْهَرُ الأَتَمُّ وَالنُّورُ الأَكْمَلُ الأَعَمُّ، يَا مَنْ أُسْرِيَ بِكَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، حَتَّى كُنْتَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَانْطَوَى لَيْلُ الْبَشَرِيَّةِ فِي نَهَارِ تِلْكَ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ، فَأَوْحَى إِلَيْكَ مَا

أَوْحَى وَانْبَعَثَتْ إِلَيْنَا أَشِعَّةُ ذَلِكَ النَّهَارِ، وَأَشْرَقَتْ عَلَى عَدَمِنَا الشُّمُوسُ مِنْكَ وَالأَقْمَارُ، فَوُجُودُنَا وُجُودُكَ وَشُهُودُنَا شُهُودُكَ، وَنَحْمَدُ اللهَ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَمَالِهِ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا يُنَاسِبُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى الْخُلَفَاءِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالأَحْكَامِ الْمُطَهَّرَةِ الْمَنِيعَةِ وَعَلَى جَمِيعِ الآلِ وَالأَصْحَابِ الأُولَى غَرَفُوا مِنْ بَحْرِ حَقَائِقِهِ الْوَاسِعَةِ الرَّفِيعَةِ، وَعَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَعَلَى أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَذُرِّيَّاتِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. بسم الله الرحمان الرحيم:"اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ"(إلى آخر آية الكرسي) رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ - رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ - لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا - اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" سورة الإخلاص (3 مرات) بسم الله الرحمان الرحيم "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" (مرة واحدة) بسم الله الرحمان الرحيم " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ"(مرة واحدة) بسم الله الرحمان الرحيم، اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ (إلى آخرها) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وبعد الدعاء وقراءة الفاتحة تقرأ التصلية الآتية (ثلاث مرات) وهي التي أجراها الله على لسان العالم الربّاني والعارف الرحماني سيدي "أحمد العلاوي" المستغانمي:"اللَّهُمَّ يَا مَنْ جَعَلْتَ الصَّلاَةَ عَلَى النَّبِيءِ مِنَ الْقُرُبَاتِ أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِكُلِّ صَلاَةٍ صُلِّيَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ إِلَى مَالاَ نِهَايَةَ لِلْكَمَالاتِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثم اذكر "لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ" (ثلاث مرات) وتختم بقولك:"محمد رسول الله"".

ورد الطريقة المدنية : صفته أن تقول أولا: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (مرة) بسم الله الرحمن الرحيم (مرة) ثم تتلو قوله تعالى: "وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (مرة) ثم (استغفر الله) (100 مرة) ثم قوله تعالى "إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (مرة) اللَّهُمَ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيءِ الأُمِّيِّ وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ (100مرة) وعند تمامها تزيد:"وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا" ثم

قوله تعالى:"فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَإِلَهَ إِلاّ اللهُ (مرة)"لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ"(100مرة) ثم اللَّهُمَّ بِجَاهِ اسْمِكَ اللَّطِيفِ وَنَبِيِّكَ الشَّرِيفِ اُلْطُف بِنَا "يَا لَطِيفُ"(100 مرة) وفي ختامها تقول:"اللَّهُمَّ يَا لَطِيفًا بِخَلْقِهِ يَا عَلِيمًا بِخَلْقِهِ، يَا خَبِيرًا بِخَلْقِهِ الْطُفْ بِنَا يَا لَطِيفُ يَا عَلِيمُ يَاخَبِيرُ (ثلاث مرات)" ثم:اللَّهُمَّ "يَاوَهَّابُ"(100 مرة) وفي ختامها تقول:"هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"(مرة) ثم تذكر:لاَإِلَهَ إِلاَّ اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ "(100 مرة) ثم تقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" سورة الإخلاص (ثلاث مرات) ثم سورة" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" (مرة) ثم سورة" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ"(مرة) ثم سورة الفاتحة" اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَالضَّالِّين. آمِينْ، اللَّهُمَ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيءِ الأُمِّيِّ وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ "سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ." ثم تدعو الله لنفسك ولشيخك ولأهل سلسلة الطريق ولجميع المسلمين[1].

طريقة العمل : ليلة الجمعة هي ليلة الميعاد ثم أصبحت ليلة الأحد منذ الاستقلال لأنها ليلة عطلة، وتزدحم الزاوية بالناس فتكون البداية بـ:القرآن الكريم: فيتلى ثمن حزب من القرآن الكريم، ثم تأتي:**الصيغ** :(وهي القصائد، وتسمّى صيغا على أنها صيغ مختلفة في الصلاة على النبي أو في مدائحه)، فتنشد بألحان عذبة بدون آلات لا إيقاعية ولا غيرها، ثم يقف الجالسون للحضرة وقوفا فيمسك أحدهم بيد الآخر في حلقة أو في صف وينطلقون في (الزهير) أي القول بالصدر (أه)حيث يعتبرونه اسما من أسماء الله تعالى، والتمايل (وهم يسمونه الاهتزاز ولعله أقرب).

الحضرة : يسمع المستمع للحضرة (أه، أه) وهي على إيقاع 4من4 ومعناها طبق ما يقول الشيخ محمد المنور المدني (الله) كما ذكره السيوطي في كتاب (السراج المنير)، وفي حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد (حتّى الأنين في المرض كما نقل)[2] وهذا الاسم (آه) المخالف لـ(أخ) اسم فقال إبراهيم المارغني الشارح نقلا عن البيجوري في(بغية

---

1 محمد المدني، أنيس المريد. وكذلك "وظيفة الطريقة المدنية المسماة شجرة الأكوان" نشرية صغيرة مفردة.

2 البيت جاء في معرض الحديث عن [الملائكة] الحفظة في (جوهرة التوحيد) للقاني :

بِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظُونَ وُكِّلُوا   وَكَاتِبُونَ خِيرَةً لَنْ يُهْمِلُوا
مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا فَعَلْ وَلَوْ ذَهِلْ   حَتَّى الأَنِينَ فِي الْمَرَضْ كَمَا نُقِلْ

المريد)في الصفحتين 82و83 :" ...وينبغي للمريض أن يقول (آه) لأنه ورد أنّه من أسمائه تعالى ولا يقول : (أخ) لأنّه من أسماء الشيطان ..."

الشيطان، هو اسم من أسماء الله تعالى التي تعد بالآلاف وليست التسعة والتسعين إلا الأسماء المذكورة في القرآن الكريم، كما ذكر الشيخ يوسف النبهاني في كتابه (أحسن الوسائل) عددا كبيرا من أسماء الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

والحضرة ليست العمارة لأن فيها حضورا مع الله سبحانه وتعالى، والمريد الحاضر هو في غاية الوضوح ولا يغيب عن وعيه أبدا، إلا أن المنشد يتدرج به من مدح المحبوب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهيم معه المريد، ويرتقي به إلى حمد الله ومدحه، وتلك قمة القمم ونهاية النهايات، فإذا بلغ المنشد الذروة سكت وترك أهل الحضرة في حضورهم مع ربهم جلّ وعلا حتّى إذا تراخى الوقع أخذ في تسريعه بالكف حتّى يصل إلى أعلى مستوًى يمكن بلوغه، ثم يختم بذكر اسم الجلالة (الله)[1]. وهكذا العمل في كل الصيغ (القصائد) التي تأتي في الحضرة فتكون على نفس الإيقاع، وتتدرج نحو السرعة حتى تصبح 2من4.

ويختم العمل بمذاكرة يقوم بها شيخ الطريقة في الموعظة والحث على مكارم الأخلاق والاتّصاف بالفضائل والإبتعاد عن الرذائل، وتختم المذاكرة بتلاوة فاتحة الكتاب.

وتنشد الأذكار في أغلبها في طبعي الرصد والبياتي إلا القليل منها في الجهاركاه.

المولد النبوي الشريف : أسس الاحتفال بالمولد سنة 1929م، وكان من أهم منشديه الشيخ علي البرّاق ثم علي الثري (من الثريات) والإخوة الصادق وإبراهيم وحسن بن سعيد والشيخ محمد طقطق وغيرهم. وكان هذا الاحتفال يدوم ثلاثة أيام اليوم الثاني والثالث والرابع للمولد الشريف من كل عام، وذلك لأن اليوم الأول يوم عيد ومن واجب ربّ الأسرة أن يلتقي بعياله ويوسع عليهم في النفقة ويؤنسهم بحضوره، وأما دوامها ثلاثة أيام فلتمكين الأباعد من اللحاق بالزاوية لبعد الشقّة وبدائية المواصلات، فلمّا تطوّرت الوسائل أصبح الاحتفال منذ الاستقلال يوما واحدا هو اليوم الثاني. ويشرح الشيخ منوّر المدني سبب ذلك بأن أيمة المساجد والقائمين عليها

1 رواية شفوية عن الشيخ منور بن الشيخ محمد المدني صاحب الطريقة بتاريخ 14 جوان 2002.

في أغلب المدن هم من أهل الطريقة وهم يقومون بالاحتفالات الرسمية هناك فإذا فرغوا منها جاؤوا إلى زاويتهم ونشطوا بها.

ويقسّم المدنية وظائفهم على أنفسهم بالتطوّع دون تكليف أو رئاسة، فيعقدون جلسة أو جلسات قبل موعد الاحتفال ويقتسمون المهام التي لا يمكن أن يطلق عليها وظائف حيث إنها تنتهي بانتهاء الحفل لتتجدّد في المرة القادمة، فيكونون لجانا لتنسيق الخدمات المقدّمة للزوار الذين يصلون إلى الألفي شخص أو أكثر فتوزع على هؤلاء المتطوعين شارات تشير إلى مهامهم حتى يستعين بها الزوار في طلباتهم، وهذه اللجان تتعدّد بتعدد الخدمات، فهناك لجنة الماء، ولجنة الطعام، ولجنة الشاي، ولجنة النظافة بالميضاة وغيرها، ولجنة للأحذية وحفظها حيث أن الداخلين يخلعونها، ولجنة الأضواء، ولجنة الاستقبال، ولجنة لوسائل الإعلام والتسجيل من تلفزة وتساجيل وأبواق، ولجنة العسّة (للحراسة)، ولجنة المكتبة، ولجنة التنظيم، واللجنة الطبّية للإسعاف. وتحل الجموع بالزاوية في الموالد بدون دعوات لأن صاحب الحفل هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والكل أضيافه بما فيهم أهل الزاوية أنفسهم، ولعلّ هذا التنظيم هو سرّ النجاح الذي تلقاه هذه الاحتفالات. وبعد انتهاء الحفل بيوم أو يومين يقع تقييم العمل ويهتمّ بالخصوص بإبراز السلبيات لتلافيها في المستقبل، وهذا سرّ آخر في النجاح.

وينطلق العمل في اليوم الثاني للمولد أي يوم الاحتفال منذ الصباح على الساعة الثامنة مثلا فيختم القرآن الكريم إلى العاشرة ثم تنطلق مسابقات دينية تشمل أسئلة عامّة حول الدين والتصوف والطريقة، وربما مسابقة في ترجمات بعض فقراء الطريقة المشهورين، وعند الزوال يقدّم طعام الغداء وتقام صلاة الظهر. ثم انطلاقا من صلاة العصر إلى المغرب تقدّم عدّة حضرات وأذكار، فإذا صُلّيت المغرب قدّم طعام العشاء بطريقة ذكية بحيث لا تمر نصف ساعة حتى يكون الجميع قد انتهوا. ثم تقام صلاة العشاء، وتبدأ السهرة التي تصل إلى الثلاث ساعات يقع فيها الذكر والحضرة ويتخلل ذلك خطبة المولد.

ومن أشهر قصائدهم المسموعة من تأليف الشيخ المؤسس أو شيخه أحمد العلاوي فمما ألّف الشيخ محمد المدني مدحة :

صَلُّوا عَلَى بَدْرِ التَّمَامْ * شَمْسِ الْمَعَالِي * أَيُّـهَا الْكِــرَامْ
شَفِيعُناَ يَوْمَ الزِّحَــامْ * عِـنْدَ الأَهْوَالِ * كَاشِفُ الْغَمَامْ
مُحَمَّـدٌ خَيْرُ الأَنَــامْ * مَـوْلَى الْمَوَالِي * عَلَـيْهِ السَّلاَمْ

وكذلك :

اللهُ اللهُ يَكْـفِينِي وَفَـضْــلُ اللهِ يُغْنِــينِي
وَنُورُ اللهِ يَـغْشَــانِي وَلُطْـــفُ اللهِ يَـقِـينِي
وَعَيْنُ اللهِ تَـرْعَـانِي وَحِفْـظُ اللهِ يَحْمِـيــنِي
وَمَنْ يَحْفَظْهُ الإِلَــهُ يَكُنْ فِي حِصْنٍ حَصِين
فَـاللهُ خَيْرُ حَفِـيظٍ فَاحْفَظْ لِي يَارَبِّي دِيــنِي
وَظَنِّي فِيـكَ جَمِيــلٌ وَحُسْنُ الظَّنِّ يَكْفِينِي
وَحُـبُّ اللهِ مُـرَادِي وَحُـبُّ أَهْلِ الْيَـقِـــينِ
وَعِنْدِي كَنْزٌ عَظِيـمٌ شَفِيعِي فِي يَوْمِ الدِّيــــنِ
بِالْمُؤْمِنِــينَ رَؤُوفٌ شَفِيــعُ الْخَلْـقِ يُنْجِينِـي
وَرَبِّي دَوْمًـا غَفُـورٌ فَإِنْ عَمَيْــتُ يَهْـدِينِي
إِذَا أَذْنَـبْتُ وَتُبْـتُ بِالْحُبِّ رَبِّي يُرْضِيـــــنِي
وَمَنْ يُعْلِــيهِ مَوْلاَهُ يَعْطِيهِ خَيْرَ الـــدَّارَيْنِ
فَالْحَمْــدُ للهِ دَوْمَـا عَلَى نَعِيمِ الــدَّارَيْـــنِ

أو :

هَيَّا يَا خَمَّـــارْ هَـيَّا وَاسْقِنَا كَاسَ الْحُمَيَّا
وَاسْقِنَا كَأْسًا مُصَفَّى مِنْ خُمَيْرَه أَزَلِـــيَّةَ

وَاسْقِنَا مَزْجًا وَصِرْفًا   وَانْظُرْ بِقَلْــبِكْ إِلَيَّ
فَعَطْــفًا بِاللهِ عَطْفًا   سَيِّدِي فَاعْطَفْ عَلَيّ

أو:

يَا مُحَمَّدْ يَا نَبِــينَــا   يَا إِمَامَ الْمُرْسَــلِينَـا
كُنْ شَفِيعِي يَا إِمَامِي   يَا شَفِــيعَ الْمُذْنِبِينَــا

***

يَــا رَسُــولَ اللهِ إِنَّــا   بِحِمَاكَ الْعَالِي لُذْنَــا
نَرْجُو مِنْكَ لَمّـَـا جِئْنَا   عَطْــفَةً لِلْمُؤْمِنِيــنَ

***

فَاعْطِفَنْ يَوْمَ الْقِيَــامِ   وَاشْفَعْ فِي أَهْلِ الأَثَامِ
قَدْ بُعِثْتَ يَــا إِمَــامِي   رَحْمَةً لِلْـعَالَمِــــينَ

أو هذا المسدّس (الأليف) وهو معارضة لمسدس آخر بنفس المكب:

أَهْلُ الله رَاهُمْ حَــــازُوا   يَا سَامِعْ قَــوْلِي إِصْغَــاهْ
بِلْغُوا مْنَــاهُمْ لمَّا جَـازُوا   وَفَـنُـوا عَمَّــا سِــوَاهْ
شَغْلُوا عُمُرْهُم،حتّى فازوا   بِــلا إلـــــه إلاّ الله

***

بِهَا وِصْلُوا لِلْمَطْــــلُوبْ   كَنْزُهُمْ ذَاكَ الْمَرْغُــوبْ
شَاهَدُوا نُورَ الْمَحْبُــوبْ   تَجَلَّى لِمَــــنْ يَــرَاهْ
خُذْهَا صِقَالِ الْقُـلُــوبْ   لا إلـــــه إلاّ الله

ويستمر هكذا في تسديسات تنتهي بـ(لا إله إلا الله) إلى نهاية الحروف الهجائية

ويختم بـ :

يا إِلاهِي حَقِّــق ظَنِّي وَفِي حِصْــنِكَ أَدْخِلْني

ظَنِّي فِيكَ تَعْـفُو عَنِّي فِي يَــوْمٍ نَخْشَى قَضَـاهْ

عَـبْـدُكَ الْمَـدَانِي فَنِّي لاَ إِلَـــــــه إِلاَّ الله

ويبرمج الإنشاد في المولد مسبّقا حسب التدرّج في الترتيب على القياس المعنوي فلا يرجع مثلا من ذكر الله إلى مدح الأولياء والصالحين. أما في هذه السنوات فقد أضيف لهذه البرمجة ترتيب موسيقي عن طريق السيد مراد شبشوب من أتباع الطريقة بصفاقس وهو أستاذ موسيقى ومن أبرز المنشدين الآن، إلّا أن الألحان تبقى دائما ليست هي الأولى بالأساس في الطريقة المدنية فالمهمّ لديهم الكلمات ومعانيها الروحية السامية.

فرع المدنية: الطريقة الغوثية

نسبة إلى الشيخ محمد بخّوش الغوثي الطبلبي

الشيخ المؤسس : هو الشيخ الحاج محمد بخّوش الغوثي، أصله من الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى، قدمت عائلته من هناك واستقرّت بطبلبة حيث مقام الصالحين سيدي عياش وسيدي علي شبيل. ولد الشيخ محمد بخّوش سنة 1905 م، وحفظ القرآن الكريم بمقام سيدي عياش، وعند البلوغ فتح دكاكين لنسج الملابس الصوفية، وكان يبيعها في المدن المجاورة ويسافر بها إلى صفاقس، فأحبّه أهلها حتّى اشترى بها منزلا. وتزوّج الشيخ بخّوش من امرأتين ولدتا له البنين والبنات. وفي سنة 1946م اتّصل بالشيخ محمد المدني القصيبي المديوني ولازمه وأخذ عنه العهد وتوطّدت العلاقة بينهما حتّى خطب الشيخ محمد المدني ابنة الشيخ الغوثي لابنه منور. وعندما توفّي الشيخ المدني سنة 1959م واصل الغوثي عمل أستاذه فجمع الفقراء وواصل بهم مجالس الذكر في الزاوية المدنية وفي غيرها من المدن والقرى وخاصّة مدينة تونس وبلدة زاوية سوسة مقر إقامة مريده الهادي بوكمشة الّذي لازمه ونهل من معينه، وامتدحه بعدّة قصائد، وتوفي الشيخ بخوش في 20 أوت 1979م إثر مرض ألمّ به رحمة الله عليه[1].

الشيخ الوريث : لئن كانت الطريقة تنسب إلى الشيخ محمد الغوثي بخّوش الذي قام

1 عبد السلام بخوش الغوثي، نفحات صوفية، المطبعة الجديدة بالساحل، قصرهلال. تونس.

بأعمال جليلة كما ذكرنا، فإنّ مروّجها ومحييها وباعث أمجادها هو تلميذ الشيخ بحّوش البارّ ووارث سرّه الشيخ الهادي بن علي بوكمشة الّذي ولد بزاوية سوسة في 17 مارس 1935م، ودرس بالفرع الزيتوني بسوسة فتحصّل على شهادة الأهلية في جوان 1955م، ثمّ انتقل إلى العاصمة للكرع من الحياض الفياضة بجامع الزيتونة المعمور سنة 1956م وتحصّل منه على شهادة التحصيل في نهاية السنة الدراسية: 58 - 1959م. إثرها باشر التدريس بالمنستير في أكتوبر 1959م، ثمّ بالكاف سنة 1960م، فبلدة البرجين من ولاية سوسة سنة 1964، وأخيرا بمسقط رأسه بلدة زاوية سوسة سنة 1968. وتلقى الطريقة المدنية حسب تصريحه عن الشيخ محمد بحوش الطبلبي سنة 1969 عندما التقى به ولازمه وكان أقرب المريدين إليه والقائم على خدمته، وفتق هذا التعرّف قريحة الشيخ الهادي وهام قلبه في بحار الوجد فتتالت القصائد حاملة معاني الصوفية ومدائح الحضرة العلية والحضرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وكأنما أحسّ الشيخ الهادي بالمسؤولية قد ألقيت على كاهله عندما رأى مرض شيخه العضال، وكان لزاما عليه أخذ المشعل ومواصلة الطريق، فتقدّم بطلب التقاعد المبكّر وتحصّل عليه سنة 1979م، وما لبث شيخه أن توفّي إلى رحمة الله تعالى يوم ليلة القدر السابع والعشرين من رمضان سنة 1399هـ، الموافق للعشرين من أوت 1979م، فألقيت المسؤولية بأثقالها على كاهل الشيخ الهادي، فلقّب نفسه بالغوثي انتسابا إلى أستاذه وطريقته، وقام ينقلها بدوره إلى بعض أتباعه الذين واصلوا العمل بها ببلدته التي بنى بها زاويته بإشارة من شيخه، وتوفي ودفن بها في السابع عشرمن فيفري 1990م الموافق للعشرين من رجب الأصب 1410هـ، تغمّده الله برحمته، وترك سبعة مؤلّفات: (1) ديوان حادي العشّاق وملهب الأشواق إلى الحضرة النّبويّة وحضرة الملك الخلاّق (2) كتاب الرسالة السعدية في التعريف بالطريقة الغوثية (3) كتاب الدّليل لسالك السبيل (4) كتاب القول المعتبر للرّدّ على الاعتذار بالقضاء والقدر (5) كتاب روضة الأحباب ومتعة الألباب في تفسير السبع المثاني وأمّ الكتاب (6) كتاب الحقائق لما للطريق الصوفي من دقائق (7) كتاب رسالة المحبّة.

وأقام أتباعه على ضريحه بناء يقوم بأمره ابنه السيد فؤاد بوكمشة مع ثلّة من الإخوان أبناء الشيخ الروحيين يحيون طريقته ويواصلون مسيرته.

روى عن الشيخ الهادي أنّه كان شديد الحبّ لأتباعه ينصح لهم أكثر من نصيحة الأمّ لولدها، ويحدب عليهم مثلما يحدب الأب على أبنائه من صلبه، بل أكثر من ذلك لأنهم أحبوه ووضعوا ثقتهم فيه وهو يتحمّل وزرهم إن غشّهم أو أشار عليهم بما لا أصل له في الشرع، وكان يشمل بعطفه أصحاب الحاجات، ويعين من تنزل بهم العاهات، وتلك أخلاق الشيوخ المتصوّفة رحمهم الله.

أخبار الطريقة : ليست الطريقة الغوثية المعروفة بزاوية سوسة إلا الطريقة المدنية التي هي نفسها الطريقة العلاوية التي تنسب إلى الطريقة الدرقاوية حيث إنّ الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي المولود سنة 1114 هـ يمثل حلقة من سلسلة السند التي تعتمد عليها الطريقة المدنية، وقد أسندت للشيخ محمد الغوثي بخوش الطبلبي لأنه هو الذي نقلها للشيخ الهادي بن علي بوكمشة الذي لقب نفسه بالغوثي اعتزازا بالانتساب إلى شيخه الطبلبي. ويروى أنّ الشيخ الهادي المذكور تعرّف على الشيخ بخوش عن طريق أخيه عبد الحميد بوكمشة القاضي بناحية المكنين آنذاك فعرّف أخاه بالطريقة في القصيبة كبقية الناس، لكن الشيخ الهادي يصرّح في كتابه "كتاب الدليل لسالك السبيل" أنه تلقّى الطريقة عن شيخه الحاج محمد بخوش المدني الغوثي الطبلبي الذي أخذ عن شيخه الحاج محمد بن خليفة بن الحاج عمر خلف الله المدني الّذي توفّي قبل أن يتعرّف الشيخ الهادي على الطريق.

يقول الشيخ الهادي بوكمشة[1] إن شيخه الحاج محمد بخوش الطبلبي ظلّ اثنتي عشرة سنة بعد وفاة شيخه محمد المدني، دون أن يكون له مريد واحد ودون أن يصرّح أو يلمّح بأنه شيخ حتى أدرك بعضهم مقامه سنة 1970م، لكنه رغم ذلك بقي إلى سنة 1975م يوجّه الفقراء إلى الزاوية المدنية الأم حتّى اشتدّ عليه الإلحاح فنهض بأمانة الإرشاد دون أن يخرج عن طريقة أستاذه.

ولمّا تولّى الشيخ الهادي بوكمشة أمور الزاوية الغوثية بزاوية سوسة بعهد من أستاذه، أنشأ مريدين جددا بالمكان. ويظهر أن الطريقة فترت في وقت ما بعد وفاة الشيخ الهادي، ووقع إحياؤها بتقدمة السيدة (آمال بن رمضان) وهي امرأة رأت أن تنبذ زخرف الدنيا

---

1 الهادي بوكمشة : كتاب الدليل لسالك السبيل. بلا ذكر طبع ولا تاريخ.

رغم الإمكانيات المتوفّرة لديها من علم ومنصب، وتنذر نفسها لإحياء طريقة شيخها الهادي بوكمشة الذي هي إحدى مريداته، وكان لها ذلك فالتفّ حولها رجال ونساء من بينهم زوجها (السيد محمد الطيّب بن ميلاد)،

وبعثت الحياة في الطريقة، وأصبحت الزاوية نشيطة انتشرت بركاتها في الآفاق وبلغت فرنسا، والمريدون الآن بباريس ومونبلييه ينشطون نشاطا عاديا حيث أقيمت لهم هناك زاويتان، ودخل الطريقة عدد من الفرنسيين التقينا ببعضهم في بعض السهرات.

أصول الطريقة : الطريقة الغوثية، إذن، ليست إلاّ فرعا من الطريقة المدنية مباشرة من مدنية الشيخ محمد خلف الله المدني القصيبي المديوني، تأسّست على يد الشيخ الهادي بوكمشة الغوثي بالعهد من أستاذه الشيخ بخوش الطبلبي الّذي كان تلميذا من أبرّ تلاميذ الشيخ المدني. إذن فأصول الطريقة مدنية تمتدّ جذورها ككل المدنيات إلى طريقة الشيخ الصوفي الشهير شعيب أبي مدين الأندلسي على الطريقة الدرقاوية العلاوية. وتستعمل نفس القواعد سواء، كالبسملة في الصلاة، وتعقيبها بالتهليل، وتلاوة الوظيفة "شجرة الأكوان" إثر صلاة الصبح وصلاة المغرب، وإنشاد الأناشيد التي تستعملها الطريقة الأم بالإضافة إلى قصائد الشيخ الهادي بوكمشة، وكذلك الحضرة واسم الصدر دون تدخّل أي آلة كانت.

طريقة العمل : لهم ميعادان في الأسبوع يوم الخميس ويوم السبت ومن عملهم قراءة (وظيفة الشيخ محمد المدني خلف الله "شجرة الأكوان ") إثر صلاة الصبح وإثر صلاة المغرب، وينشدون إحدى قصائدهم الكثيرة المنسوب بعضها إلى الشيخ الغوث أبي مدين، وبعضها إل الشيخ أحمد العلاوي، وبعضها إلى الشيخ محمد المداني، وقد أضاف الشيخ الهادي كثيرا من القصائد التي تظهر موازينها العروضية ولغتها الفصيحة ناضجة تركيبا وترنيما: كما في قصيد ليلة المعراج للشيخ الهادي بوكمشة [من بحر الرمل] :

لَيْلَةَ الْمِـعْرَاجِ قَـدْ وَارَاكِ سِـرٌّ ... مِنْ مَعِينِ السِّرِّ ..مِنْ أَسْرَارِ غَيْبِ

شَعَّ نُورُالْحَقِّ مِنْ لَيْـلِ الْمَعَــانِي ... فِي وَثِيقِ الْوَصْلِ فِي أَقْـرَبِ قُـرْبِ

وَاحْتَـوَى مَعْنَاهُ قَلْبُ الْهَادِي طَهَ ... فِي تَجَلٍّ مُتْرَعٍ قَـلْـبَ الْمُحِــبِّ

عِنْدَهَا يَا سَـــادَتِي قَالَ الأَمِـينُ   لَمْ يَسَعْـــنِي أَيُّ شَيْءٍ غَيْــرُ رَبِي
خَاضَ بَحْرَ السِّرِّ فَاسْتَقْصَى حَشَاهُ   وَانْضَوَى فِي لُجِّهِ مِنْ غَيْرِ حُجْبِ

أو قوله[من البحر البسيط] :

بُحْ بِالْغَرَامِ فَمَا عَلَـيْكَ مِنْ حَرَجٍ   لاَمِنْ عَشِيقٍ عَلَى كَتْمِ الْهَوَى صَبَرَا
فَالْعَيْنُ فَـضَّـاحَةٌ بِالدَّمْعِ تَسْـكُبُهُ   وَالْوَجْـهُ سِحْنَـتُهُ تُغْنِي لِمَنْ نَظَــرَا
وَالْوَجْدُ نِيرَانُهُ قَدْ حَرَّقَتْ كَبِـدِي   إِنَّ فُـؤَادِي بِـــمَا عَانَى قَـدِ انْـفَطَرَا

أو قوله [من البحرالطويل] :

بِنَارِ الْهَـوَى قَلْـبِي وَ رَبِّكَ عَــالِقُ   وَلَمْ يَسْلُ إِطْـــلاَقًا لأَنَّهُ عَـــاشِقُ
فَمُذْ لَدَغَتْـنِي صِرْتُ أَصْلَى لَهِيبَـهَا   عَلَى رَغْبَةٍ مِنِّي تَــرَوْنَنِ(ي) أُحْــرَقُ
وَأَهْلُ الْهَـوَى نَارُ الصَّبَابَةِ شُغْلُـهُمْ   وَ مَنْ هَامَ فِي الْمَعْشُوقِ بِالشَّوْقِ يُحْرَقُ
وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَ الْحُبِّ قَــدَّمَ مَهْـرَهُ   فَمِنْ أَجْـلِهِ الرُّوحُ الرَّفِيــعَةُ تُنْــفَقُ
وَمِنْ أَجْـلِهِ أَبْقَى مُعَـنًّى مُـعَـذَّبًـا   وَمِنْ أَجْـلِـهِ كُـلُّ دِمَــــا ئِي تُهْرَقُ
وَمِنْ أَجْلِهِ لَذَّاتُ عَيْشِي هَجَـرْتُهَا   وَمَا عَـزَّ مِنْهَا فَهْـوَ عِنْــدِيَ طَــالِقُ

وللغوثية أربعة احتفالات رسمية في السنة وهي: المولد النبوي الشريف ويقع ليلة المولد، ثم لهم احتفال خاص بذكرى الإسراء والمعراج فهم يبدؤون الاحتفال بهذه المناسبة من اليوم العشرين من رجب ذكرى وفاة الشيخ الهادي بوكمشة ويتواصل احتفالهم إلى ليلة السابع والعشرين ليلة الإسراء والمعراج، ثمّ الاحتفال بليلة القدر في 27 رمضان وبيوم عرفة التاسع من ذي الحجة.

ولهم نظام في طريقة العمل في كلّ المواسم والأعياد، فيبدؤون بعد المغرب بالطعام ولهم فيه إعداد عجيب واجتهاد واضح وعناية بالغة، تدلّ على حبّهم لإكرام ضيوفهم، وعنايتهم بمريديهم وقد صرّح لنا بعضهم أنّ من أحبّ القربات إلى الله عزّ وجلّ

لديهم إطعام الطعام. وهو ما يوافق ما كان يحرّض عليه حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والقيام بالليل والناس نيام". فإن انتهوا من هذه الولائم الفاخرة الداعية للشكر والحمد للمنعم، اجتمعوا لصلاة العشاء التي يكون من أهمّ معقباتها التهليل، ثمّ يأخذون مجالسهم، وينطلقون في إنشاد قصائد من تأليف الشيخ الهادي بوكمشة غالبا، ويتخلل هذه الأناشيد إمّا قصائد في شكل العروبي أو الموال، وإمّا تلاوة جانب من القرآن الكريم، فإذا بلغوا فيها شوطا يظهر بانتشاء الحاضرين المنشدين، وعلامته تسارع الإيقاع، بدؤوا في ذكر اسم الصدر (آه) والاهتزاز حتّى يبلغ ذلك أوجه الّذي يظهر في عنف الاهتزاز وسرعة الإيقاع حتّى يصل بهم الأمر إلى القفز فتفارق أرجلهم الأرض، فإن بلغوا ذلك المستوى توقفوا للراحة وبعد إعادة الكرّة مرّات، وفي نهاية السهرة يقدّم الشيخ مذاكرة، ويرتاحون فترة يتناولون فيها بعض المرطّبات، ثمّ يذهب البعض في حال سبيله، ويواصل الباقون الإنشاد إلى الصبح، فيصلّون الفجر، ويرجعون إلى منازلهم، وعند الضحى يأتي بعضهم لإقامة عمارة ثالثة. هذا ما صرّح لنا به السيد فؤاد بوكمشة في زيارة للزاوية يوم الجمعة السادس والعشرين من رجب الأصب 1423هـ بمناسبة ليلة الإسراء والمعراج الموافق للرابع من أكتوبر 2002م. وعند انتهاء الفترة الأولى سمعنا أصواتا تنشد مثلما كنّا نسمعه ونراه، فقيل لنا إنّها الحضرة النسائية في محلّ آخر من الزاوية يقوم فيها النساء بالعمارة كما قام بذلك الرجال بالضبط بنفس الطريقة.

فرع المدنية: الطريقة الهادفية

هي نسبة إلى الشيخ إسماعيل الهادفي التوزري المداني،
والعديد من أتباعها والذين يعرفونها يسمّونها «الإسماعيلية»

الشيخ المؤسس : هو الشيخ إسماعيل الهادفي من مدينة توزر من قبيل الهوادف، ولد سنة 1916م، وحفظ القرآن الكريم بالفرع الزيتوني بتوزر لدى أخيه أحمد الهادفي التوزري، ثم انتقل إلى تونس لإتمام دراسته الثانوية بجامع الزيتونة. ولما استقرّ به المقام بإحدى المدارس تعرّف على أحد تلاميذ الشيخ محمد خلف الله المداني صاحب الطريقة المدنية فاتّصل عن طريقه بالشيخ وأخذ عنه الطريقة والعهد. كان الشيخ إسماعيل مدرّسا بالفرع الحفصي لجامع الزيتونة يُقرئ بالسنة الثانية حوالي 1947-1946، ويقال إنه كان يقرأ القرآن الكريم بالروايات السبع. وقام ببناء زاويته قبل الوفاة وتركها كاملة، وكان قد بناها مسجدا جامعا بترخيص بلدي. وتوفي سنة 1994م بعد أن ذاع صيته وترك الآلاف من المريدين في كامل أنحاء الجمهورية، وأغدق عليه أتباعه لقب قطب الأقطاب. وله من الذرّية ابن أسماه "منوّر". وخلفه في مشيخة الطريقة الشيخ الفتحي السلامي ومقره بمدينة القيروان.

أخبار الطريقة : انتشرت الطريقة الهادفية في كامل أنحاء الجمهورية التونسية في حياة الشيخ، وعلى ما يذكره لنا الحفيظ بسوسة الحاج عبد الحميد الصويد (اتصلنا به في حدود سنة 2003)، اجتازت الطريقة الحدود إلى مكّة والمدينة المنوّرة وحتّى إلى فرنسا وإيطاليا.

أصول الطريقة : الطريقة هي المدنية العلاوية، وهم يقومون بنفس الطقوس، إلاّ أن للهادفية وردا خاصا يسمونه الورد العام للطريقة الهادفية، ووظيفة من تأليف الشيخ إسماعيل الهادفي بعنوان " مرآة الذّاكرين في مناجاة ربّ العالمين":

الوظيفة : "**مرآة الذّاكرين في مناجاة ربّ العالمين**": بسم الله الرحمان الرحيم:"إِلَهِي قَدْ غَمَرَتْنِي أَمْوَاجُ بَحْرِ كَرَمِكَ الزَّاخِرِ الَّذِي لاَ يَتَنَاهَى فَاحْرِسْنِي فِيهَا حَتَّى لاَ أَطْغَى بِهَا، وَثَبِّتْهَا لَدَيَّ بِتَوْفِيقِي لِشُكْرِكَ عَلَيْهَا، فَأَرَاهَا مِنْكَ وَإِلَيْكَ، وَأَكُونُ فِيهَا دَاعِيًا بِكَ إِلَيْكَ، إِذْ رَحْمَتُكَ جَاءَتْ بِي إِلَيْكَ وَفَضْلُكَ دَلَّنِي عَلَيْكَ، وَالْكَرِيمُ إِذَا أَعْطَى أَجْزَلَ الْعَطَاءَ وَرَفَعَ عَنْ عَظِيمِ آيَاتِ جُودِهِ الْغِطَاءَ، وَكَيْفَ لاَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ. إِلَهِي، مَاذَا عَسَانِي أَسْأَلُ وَبِكَ نَطَقَ لِسَانِي، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ أَرْغَبُ وَبِيَدِكَ نَاصِيَةُ جَنَانِي فَأَطْلِقِ اللَّهُمَّ لِسَانِي بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ وَاهْدِ جَنَانِي لِمَا يَتَكَفَّلُ لَهُ فِي نِعْمَةِ شُهُودِكَ وَالأُنْسِ بِكَ بِالْمَزِيدِ، رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا يُسَاعِدُنِي عَلَيْكَ وَيُؤَدِّبُنِي بَيْنَ يَدَيْكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. إِلَهِي أَنْتَ الْوَاحِدُ الأَحَدُ الَّذِي تَنَزَّهَ عَنِ الشَّرِيكِ وَالنِّدِّ تَعَرَّفْتَ بِنَفْسِكَ لِنَفْسِكَ وَمَتَّعْتَ مَنْ قَرَّبْتَ بِلَذَّةِ أُنْسِكَ، وَأَشْهَدْتَ مَنْ أَحْبَبْتَ أَحَدِيَّةَ قَدْسِكَ فَأَغْرِقْنِي يَا بَاطِنُ فِي بُطُونِ بِحَارِ أَحَدِيَّةِ ذَاتِكَ، وَاسْقِنِي مِنْ حِيَاضِ مَعَالِمِ عَوَالِمِ بَحْرِ نُورِكَ الأَعْظَمِ وَكَنْزِ سِرِّكَ الْمُطَلْسَمِ حَتَّى لاَ يَبْقَى لِلسِّوَى عَلَى قَلْبِي سَبِيلٌ، وَاسْقِنِي مِنْ مَخْتُومِ رَحِيقِ خَمْرِ شُهُودِكَ سَلْسَبِيلاً، وَأَخْرِجْنِي يَا ظَاهِرُ بِكَ لِعَوَالِمِ الْمَظَاهِرِ الَّتِي حَجَبْتَ عَنْهَا مَنْ قَامَ فِيهَا بِنَفْسِهِ، وَأَوْضَحْتَ مَعَالِمَهَا لِمَنْ كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ مَعْرِفَةُ نَفْسِهِ وَالتَّمَتُّعُ بِلَذَّةِ أُنْسِهِ، وَحَقِّقْنِي يَا حَقُّ بِحَقِيقَةِ أَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ حَتَّى أَكُونَ لاَبِسًا خِلْعَةَ الْحُضُورِ مَعَكَ فِي سَائِرِ تَجَلِّيَاتِكَ، رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مَنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا. إِلَهِي، إِنَّ كَمَالَ الْعَارِفِ بِدَايَةُ الْكَمَالِ، وَالْوُصُولُ إِلَى نِهَايَةِ نَوَالِكُمْ لاَ تُنَالُ وَأَنَا أَعْجَزُ مِنْ أَنْ أَعْرِفَ مَا فِيهِ نَفْعِي وَضُرِّي مِنْ مَطَاعِمَ وَمَوَائِدَ الإِنْعَامِ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ فَأَوْهِبْنِي يَا وَهَّابُ أَعْظَمَ حُلَّةٍ كَسَوْتَهَا لأَهْلِ النِّسْبَةِ الإِلَهِيَّةِ الطَّاهِرَةِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ بَحْرِ نَوَالِكَ الأَعْظَمِ، وَكُنِ اللَّهُمَّ سَمْعِي وَبَصَرِي وَيَدِي وَرِجْلِي تُلَبِّي قَوْلِي وَتُجِيبُ سُؤْلِي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. إِلَهِي إِنَّ بِدَايَةَ الْخِذْلاَنِ الْغَفْلَةُ، وَمَعْصِيَتُكَ هِي بَذْرَةُ الْعِلَّةِ فَأَعِذْنِي مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُنِي عَنْكَ وَيُبْعِدُنِي مِنْكَ، وَسَيِّرْنِي فِي مِنْهَاجِ شَرِيعَتِكَ الأَقْوَمِ وَأَلْبِسْنِي

أَعْظَمَ حُلَّةٍ مِنْ نُورِكَ الأَعَزِّ الأَعْظَمِ وَمَكِّنِّي فِي تَلْوِينِ تَجَلِّيَاتِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ حَتَّى لاَ تَقَعَ عَيْنِي إِلاَّ عَنْ ذَاتِ الذَّاتِ وَغَيِّبْنِي فِيهَا بِكَ عَنْهَا، وَتَوَلَّنِي بِالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ وَالتَّأْيِيدِ وَالتَّمْكِينِ وَأَنْتَ تَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِلَهِي أَنْتَ الآخِذُ بِنَوَاصِي الْقُلُوبِ إِلَيْكَ أَمْرُهَا وَبِيَدِكَ أَزِمَّتُهَا فَأَوْفِرْ حَظَّ قَلْبِي مِنْ مَحَبَّتِكَ الْخَالِصَةِ مِنْ شَوَائِبِ الْعِلَلِ حَتَّى لاَ يَكُونَ لَهُ أُنْسٌ إِلاَّ بِكَ وَلاَ رَاحَةٌ إِلاَّ فِي تَجَلِّيكَ عَلَيْهِ وَتَعَرُّفَكَ إِلَيْهِ، وَاجْعَلِ اللَّهُمَّ سُكْنَاهُ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّ الأُنْسِ بِكَ وَالتَّمَتُّعِ بِلَذَّةِ شُهُودِ سَنَاكَ، وَاسْقِهِ مِنْ مَنَاهِلِ مَعَالِمِ الْمَعَارِفِ اللَّدُنِيَّةِ الْعَذْبَةِ عَلَلاً حَتَّى يَكُونَ مَنْبَعًا فَيَّاضًا بِكُلِّ ضُرُوبِ الْحِكْمَةِ وَصُنُوفِ الْعِلْمِ يَا عَزِيزُ يَا وَهَابُ. إِلَهِي كَمْ عَصَيْتُ وَسَتَرْتَ وَكَمْ أَذْنَبْتُ فَغَفَرْتَ، غَطَّيْتَ بِرِدَاءِ سِتْرِكَ عُيُوبِي وَمَحَوْتَ بِيَدِ عَفْوِ رَحْمَانِيَّتِكَ ذُنُوبِي وَكَشَفْتَ بِعَظِيمِ لُطْفِ إِنْعَامِكَ خُطُوبِي فَنِعْمَ الرَّبُّ أَنْتَ تَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَتَسْتُرُ الْعُيُوبَ وَتَكْشِفُ الْكُرُوبَ فَارْحَمِ اللَّهُمَّ ضُعْفِي وَأَبْرِئْ سَقَمِي وَأَدِمْ عَلَيَّ نِعْمَةَ الْمُعَافَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ. إِلَهِي أَنْتَ غِيَاثِي فَعَلَيْكَ تَوَكُّلِي وَبِكَ عِيَاذِي فَأَنْتَ وِقَايَتِي وَأَنْتَ الْمَلْجَأُ وَالْمُرْتَجَى لِكُلِّ مُضْطَرٍّ فَمِنْكَ أَسْتَمِدُّ حِمَايَتِي فَأَدِمْ إِلَهِي عَلَى عَبْدِكَ الضَّعِيفِ الْمِسْكِينِ كَرَامَةَ بِرِّكَ وَنَدَاكَ وَلَبِّ نِدَاءَهُ إِذَا مَا نَادَاكَ وَأَجِبْ دُعَاءَهُ إِذَا مَادَعَاكَ بِإِنْجَازِ وَعْدِ قَوْلِكَ الْحَقِّ وَكَلاَمِكَ الصِّدْقِ وَقَالَ رَبُّكُمْ أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. أَغِثْنِي يَا غَيَّاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ (ثلاثا) وَأَنْجِدْنِي يَا رَاحِمَ الْمُسْتَضْعَفِينَ(ثلاثا) وَأَعِذْنِي مِنْ مَكْرِ الْمَاكِرِينَ وَسَطْوَةِ الظَّالِمِينَ وَكَيْدِ الشَّيَاطِينِ وَأَسْكِنِّي فِي سُرَادِقَاتِ حِصْنِ لُطْفِكَ الْخَفِيِّ كَمَا يَقْتَضِيهِ جُودُكَ وَيَتَطَلَّبُهُ كَرَمُكَ حَتَّى لاَ أَشْعُرَ عِنْدَ الإِقْتِضَاءِ بِمُرِّ الْقَضَاءِ وَأَرْضِنِي اللَّهُمَّ بِمَا قَسَمْتَهُ لِي أَزَلاً وَأَوْفِرْ حَظِّي مِنَ الصَّبْرِ فِي مَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ فَلَكَ الأَمْرُ وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى مَنْبَعِ الْمَظَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ قَبْضَةِ نُورِكَ الأَزَلِيِّ الَّتِي تَعَرَّفْتُ بِهَا إِلَيْكَ وَدَلَلْتَ بِهَا عَلَيْكَ بِعَدَدِ مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ مِنْ تَحَوُّلِ كَهَارِبِ الذَّرِّ فِي مَيْدَانَيْ تَجَلِّيَاتِ جَمَالِكَ وَجَلاَلِكَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى مَا لاَنِهَايَةَ لَهُ فِي عِلْمِكَ وَعَلَى الآلِ وَالأَصْحَابِ أَعْلاَمِ الاهْتِدَاءِ وَنُجُومِ الاقْتِدَاءِ وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ كُلِّ تَابِعٍ لَهُمْ وَمُقْتَفٍ لآثَارِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ سِيَمَا تَاجُ الأَوْفِيَاءِ وَنِبْرَاسُ الأَتْقِيَاءِ بَابُنَا إِلَيْكَ وَشَفِيعُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ مَعَالِمِ مَعَارِفِكَ اللَّدُنِيَّةِ وَعَوَارِفِكَ الرَّبَّانِيَّةِ مَنْ مَنَنْتَ عَلَيْهِ بِالْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِيِّ الْخِلاَفَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدُ الْمَدَانِي، فَأَدِمِ اللَّهُمَّ كَرَامَتَهُ وَأَجْزِلْ ثَوَابَهُ وَكُنِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلَهُ كَمَا

كُنْتَ لِرَسُولِنَا الأَكْرَمِ وَنَبِيِّنَا الأَعْظَمِ الْمُعَظَّمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى كُلِّ مَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُ وَسَارَ عَلَى مِنْوَالِهِ مَنَ الْمُنْتَسِبِينَ لَطَرِيقَتِهِ الْمَدَنِيَّةِ وَكَافَّةِ أَفْرَادِ الأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".[1]

طريقة العمل : لا يختلف عملهم عن عمل كل الفرق المدنية العلاوية. وأهم لياليهم ليلة المولد النبوي الشريف. ويسمون ميعادهم يوم اللقاء: وهم يجتمعون يوم الجمعة ويخصصونه للقصائد المحمدية البحتة كالهمزية والبردة. أما لقاء أيام الخميس والسبت والأحد فيضاف إلى ذلك القصائد الربانية والمحمدية والخمرية، ويقيمون العمارة التي هي الحضرة في المدنية الأم. وعثرنا للشيخ إسماعيل على أربع قصائد: ثلاث منها على البحر الطويل وأخرى على شكل القسيم المربع (أو هو الزجل الفصيح)ينشدونها بألحان متعددة ولعلّها أحسن القصائد أداء ولحنا وتعبيرا منها:

أبْغِي ثَبَاتِي * فِي شُهُودِ بَحْرِ الذَّاتِ * نِغْنِمْ أَوْقَاتِي * فِي رُؤْيَا الذَّاتِ الْعَلِيّة

بِكُمْ حُضُورِي * مَعْ جَمَالِ نُورِ النُّورِ * فَوْزِي وسْرُورِي * رُجُوعِي إِلَى الْكَنْزِيَّة

تِهْتُ بِالذَّاتِ * مُذْكَانِتْ ذَاتِي وْصِفَاتِي * طَابَتْ أَوْقَاتِي * مِنْ تَجَلِّيهَا عَلَيَّ[2]

ومن قصائد الشيخ إسماعيل الهادفي ما ورد في(أنيس المريد) [من البحر الطويل]

بِهِمَّتِكَ الْعَلْيَاءِ نِلْتَ الْمُؤَمَّلاَ   سَقَيْتَ بِكَأْسِ الْحُبِّ خَمْرًا مُعَلَّلاَ

أَجَلْ، إِنَّ مَنْ يُسْقَى بِيُمْنَاكَ قَطْرَةً   يَتِيهُ عَلَى الأَكْوَانِ حُرًّا مُدَلَّلاَ

كَمَا أَنَّ مَنْ يُسْقَى بِكَأْسِكَ شَرْبَةً   يَغِيبُ عَنِ الأَكْوَانِ طُرًّا وَيَدْخُلاَ

نَعمْ! هِيَ خَمْرٌ لاَ مَحَالَةَ تُنْعِشُ الْفُؤَادَ بِلاَ غَوْلٍ شَرَابًا مُحَلَّلاَ[3]

إلى أن يقول :

أَيَا مَنْ يُرِيدُ اللهُ هَذِي نَصِيحَتِي   إِلَيْكَ فَبَابُ اللهِ قُرْبَكَ قَدْ جَلاَ

1 إسماعيل الهادفي، معالم معارف الله اللدنية وعوارفه الربانية للسير إلى الحضرة العلية، مخطوط، ص13.
2 إسماعيل الهادفي، معالم معارف الله اللدنية وعوارفه الربانية للسير إلى الحضرة العلية، مخطوط، ص3.
3 محمدالمدني، أنيس المريد، مطبعة الهلال، تونس، أفريل2002 .ص87.

عَلَيْكَ بِهِ شَيْـخِي الْمَدَانِي إِمَامِنَا   لِوِرْدِ شَرَابِ الْقَوْمِ قَدْ كَانَ مَنْهَلاَ

ويختم القصيد بقوله :

إِلَهِي بِجَاهِ الْمُصْطَـــفَى وَبِـآلِــهِ   وَبِالصَّحْبِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلاَ

أَنِلْ شَيْخَنَا وَالْحَاضِرِينَ جَمِيـعَهُمْ   مَعَ الأُمَّةِ الْجَمْعَـــا رِضًـــا مُتَـــبَدَّلاَ

وَلاَ تَحْرِمَنْ مَنْ كَانَ بِالْبَابِ وَاقِفًا   لِيُسْقَى سَحَابَ الْفَضْلِ مِنْكَ تَفَـضُّـلاَ

وله أيضا [من البحر الطويل] :

إِمَامِـي وَذُخْـرِي عِنْدَ كُلِّ مُلِمّـَةِ   وَعُدَّتِـي فِي الدُّنْيَا وَيَـوْمَ الْقِيَـــامَةِ

رَجَوْتُكَ فِي الدَّارَيْنِ حِفْظِي وَ إِنَّنِي   بِكُمْ أَحْتَمِي لَمَّا بَدَا نَقْصُ طَـاعَتِي

وَعِنْدِي مِنَ الأَشْوَاقِ مَا لَمْ أُبُحْ بِـهِ   فَأَنْتَ طَبِيبِي عَالِمٌ بِالْحَقِــيقَـــــةِ

وَأَنْتَ الَّذِي تُعْلِي لِذِي الشَّأْنِ شَأْنَهُ   وَتَـرْفَعُ مِنْ شَأْنِ الْوَضِيـعِ بِنَظْـــرَةِ

إلى أن يختمه :

وَصَلِّ إِلَهَ الْعَــرْشِ دَوْمًا وَسَلِّمَـــنْ   عَلَى مَنْبَعِ الأَنْوَارِ فَيْضِ الْحَقِيقَةِ

وَعُمَّ جَمِيعَ الآلِ وَالصَّحْبِ بِالرِّضَا   مَعَ الْقَوْمِ أَهْلِ اللهِ فِي كُلِّ حَالَـةِ[1]

1 محمدالمدني، أنيس المريد، ص 85.



فرع الهادفية: الطريقة القاسمية

هي فرع عن الفرع، ولعلّ هذا التفرّع مما أوعز به الشيخ أحمد العلاوي لمريده الشيخ محمد المدني عندما أمره بأن ينشر الطريق باسمه، ولعلّ نجاح الشيخ المدني يتمثّل في تفرّع عديد الفروع من طريقته مثل الغوثية والإسماعيلية (الهادفية)، وهاهي الاسماعيلية تتفرّع عنها الطريقة القاسمية. ويظهر أنّ في هذا التفرّع تجديدا للدعوة ونفض الغبار عنها، وتحفيزا على الاجتهاد، وإلاّ فإنّ الطريقة لم تفقد من مميزاتها أيّ شيء فالأذكار والحضرة أو العمارة كلّها سواء في القاسمية كما في الإسماعيلية كما في الغوثية كما في المدنية الأمّ كما في العلاوية الأصل.

الشيخ المؤسس : وتنسب الطريقة القاسمية إلى وريث الشيخ إسماعيل الهادفي الشيخ (بلقاسم بالخيري) وهو أصيل منطقة الرديّف من ولاية قفصة بالجنوب التونسي، من مواليد جوان 1941م، فهو الآن في الستّين ونيّف من العمر(سنة 2007).

أخبارالطريقة : وللطريقة القاسمية زاويتها الأمّ بالرديّف مقر الشيخ وتتبعها عدّة مجموعات بكامل الجمهورية تصل في العدّ إلى المائة والثمانين مجموعة تعمل بانتظام، وللشيخ بالقاسم بلخيري زيارات خارج الجمهورية وحتّى في المدينة المنوّرة، كما تتم زياراته بالمناسبات الرسمية وحتّى غير الرسمية من بقية المريدين بالجهات، منهم جماعة بالمنستير.

أصول الطريقة : الطريقة القاسمية، إذن، هي مواصلة للهادفية(الإسماعيلية) بقضّها وقضيضها بما في ذلك الورد العام.

ومما يحسب للشيخ أبي القاسم بلخيري صاحب هذه الطريقة إضافته ما يشبه الوظيفة وقد سمّاها (مواهب الاصطفاء في الصلاة والدّعاء)، وتخصيص زيّ خاصّ يتمثل في الجبّة التونسية والشاشية الحمراء بالكُبّيطة (النوّارة) تلفّها عصابة في شكل العمامة بيضاء فوقها لحاف أبيض شفّاف في الغالب.

طريقة العمل : مواعيد النشاط لدى القاسمية ليلة الخميس والجمعة والأحد: ويتمثّل النشاط في اجتماع الفقراء بالزاوية لصلاة المغرب جماعة، ثم يأخذون مجالسهم ويجلس أمامهم المقدّم وهو نائب الشيخ، وعن يمينه جماعة من قدماء الفقراء يقومون بالتقصيد بينما يقوم البقيّة بالترديد. ومن قصائدهم :

سَهْرَة يَا سِيدِي وَلَيْلَة هنِيَّة   نِمْـدَحْ فِي خَيْرِ الْبَـرِيَّـة

وكذلك : دَارَتْ كُؤُوسُ الْغَرَامْ   مَا بَيْنِ الْمَـوَالي

فَـزَادَتْـهُمُ اسْـتِـلاَمْ   حَالاً عَلَى حَـالِ

وكذلك : يَارَسُولَ اللهِ يَا سِيدِي   أَنْتَ بَابُ اللهِ مُعْتَمَدِي

فَـبِدُ نْيَـايَ وَآخِرَتِي   يَا رَسُولَ اللهِ خُذْ بِيَدِي

وربّما اختلفت ألحانهم من فرقة إلى أخرى، حيث تترك في بعض الأحيان للمقدّم فيرتجلها كيفما اتّفق إلاّ أنها لا تخرج في الغالب عن الطبوع المعروفة والأوزان المألوفة في الطريقة الأم.

طرق تسافر وطرق تهاجر

حتّمت الحياة العصرية على مختلف شعوب المعمورة التقارب في كلّ المجالات أكثرمن ذي قبل، فعلاوة على الاتصالات السياسية والاقتصادية، قامت وسائل الإعلام بالدور الأكبر في هذا التقارب والتعامل المفروض قسرا على أبناء هذا العصر، وهكذا وجدت بعض العادات المحلية من اجتماعية وثقافية طريقها للانتشار خارج الحدود التي نشأت فيها، وتسللت إلى شعوب جديدة عليها لم تكن من ممارسيها من قبل. وتعدّت هذه الظاهرة إلى الطرق الصوفية تعدّيها لكل ما يمسّ حياة الإنسان من قريب أو من بعيد، فبحكم التعامل الذي ازداد وثوقا بين مختلف الشعوب لقيت الطرق الصوفية مجالات للانتشار في أقطار الأرض لم تكن تجدها قبل هذا العصر. وهكذا، انتقلت بعض الطرق التونسية إلى خارج حدودها، كالمدنية والغوثية وغيرهما، كما استقبلت تونس طرقا خارجية تركّزت في أرضها وبدأت تأخذ مكانها بين الطرق المحلّيّة بل وتحصد الجوائز في المهرجانات الوطنية مثل الطريقة الدسوقية. وقد تنتقل هذه الطرق بفعل ظرف سياسي معين، وقد تهاجر من بلدها الأمّ تماما مثل الطريقة الساعدية التي هاجرت من تونس إلى ليبيا، ولم يبق منها بتونس إلاّ الذّكرى، أو هاجرت جزئيا كالطريقة الشاذلية من تونس إلى مصر.

ولا عجب أن لا تنتقل هذه الطرق عن طريق أشخاص ممن يمثّلون طبقة معيّنة في المجتمع، فالقضيّة غير متعلّقة بدرجة الطبقة الاجتماعية التي ينتسب إليها جالب الطريقة بقدر ماهي متعلّقة بمدى اقتناع هذا الجالب بطريقته ومدى حبّه وتعلّقه بها وصدقه في التعامل معها، وهكذا فقد تجد شيخ الطريقة لا يحمل شهادات جامعية أو مدرسية، ولكنّه يحمل بين جنبيه روحا متشبعة بمبادئ الطريقة وممارساتها، مما أهّله ليكون شيخها، يلتفّ حوله المريدون من كل الطبقات الاجتماعية ومن كل المستويات الثقافية، ويلمسون لديه ما لا يلمسونه عند حامل أكبر الشهادات الجامعية. ولعلّ هذا هو ميزة هذه الطرق، إذ أنها لا تخضع لمعاييرنا المتعارفة بل تخضع لمعايير أخرى ما أجدرنا بالتعرّف عليها كي نفهم خط التفكير الذي يسلكه هؤلاء، فيجعل من حياتهم العادية حياة تختلف في كثير من مظاهرها عن حياتنا نحن، وخصوصا عند اتخاذ المواقف الحاسمة سواء فيما يمسّ الحياة المادية أو العادات السلوكية. ولا يغرّنا تصرّف بعض المنتمين إلى هذه الطرق مما نراه على بعضهم، فالفرق واضح بين الشيخ المربّي وبين المريد السالك وبين المتشبه، وبين من التصق بالطريقة لغرض غير التوجّه إلى الله عزّ وجلّ.

الطريقة الساعدية

من أمثلة الطرق المهاجرة: الطريقة السعدية أو الساعدية

من شيوخها : سيدي أحمد الشارف، سيدي الظاهر الدبّاني الذي هاجر صحبة مريدي الطريقة من تونس إلى مصراتة بليبيا لمباشرة مهامه القيادية، والشيخ موسى المصري، وسيدي سعد الظاهر الدباني بن سيدي سعد، وسيدي محمد بن عبد الله، وسيدي الشيباني العبدلّي.

أخبار الطريقة : لعل الطريقة الساعدية اكتسبت اسمها نسبة إلى أولاد سيدي ساعد بغريان الّذين ساندوا الشيخ عبد السلام الأسمر، إذ يقول"كوبولاني": إنها غير معروفة بالجزائر والمغرب وهي ممثلة في طرابلس (ليبيا) بستّ زوايا وتسعة مقدّمين وألفين وخمسمائة من الإخوان[1]. لذلك يمكن القول بأنّ الطريقة الساعدية ازدهرت في بعض المناطق بليبيا في مطلع القرن العشرين الميلادي، والظاهر أنّها أُسّست قبل ذلك بيسير بمدينة زغوان منبع الأولياء والطرق كما اشتهر عن جبل زغوان، وأخذت تمارس نشاطا مشبوها سياسيا، حيث إنها كانت تحرّض النّاس على محاربة الكافرين ومنهم الاحتلال الفرنسي نفسه، كما تدعو إلى الاعتماد على الذات ونبذ المادّيّات، وهذا لا يخدم مصالح المستعمر، إذ أنّ مثل هذا الفكر يمنع التعاون مع الأجنبي، ويدعو إلى مقاطعته وعدم التعامل معه، كما لايترك فرصة لهذا الأخير أن يستغلّ لهفة وحاجة هذا النابذ، فأحسّت

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 219.

سلطات الحماية بالخطر وأطردت جميع المريدين وأغلقت زاويتهم وشرّدتهم في كلّ مكان. فهاجر الشيخ الظاهر الدباني شيخ الطريقة آنذاك إلى مصراتة حيث وجد الأمن، واستقرّ بها وأخذ يجمع شتات مريديه وينشط على طريقته حتّى انتشرت في بعض مناطق من ليبيا وكثر أتباعها، ولا نرى أي مانع من القول بأنّ هذه الطريقة قد ساهمت في تغذية الروح الوطنية لدى الليبيين سواء من أتباع الشيخ الصوفي عمر المختار أو غيره. وعندما نقرأ مثلا القصيد الذي سنورده بعد قليل، قد نفهم الدواعي التي دعت الحماية الفرنسية إلى طرد الجماعة الساعدية فلجؤوا إلى القطر الليبي الواقع تحت سلطة غير الفرنسيين.

أصول الطريقة : من خصائص الطريقة: التجرّد من المادّيّات وعبادة الله وحده والمداومة عليها وكثرة الذكر والعمل، ومقاومة الأعداء والاعتماد على الذات، وجهاد أعداء الله وأعداء المسلمين. ويسمّى أتباعها "فقراء التجريد"، واعتنقها كثير من النّاس ومنهم علماء مشهورون من ليبيا.

من أناشيدها : من أشهر قصائد الشيخ "أحمد الشارف" أحد أعلام الطريقة الساعدية ومما يردّده ويحفظه الأتباع قصيد [في البحر المتقارب] يحرّض فيه الشاعر على الجهاد، يقول فيه :

رَضِـينَا بِحَتْفِ النُّفُوسِ رَضِينَا ... وَلَمْ نَرْضَ أَنْ يُعْرَفَ الضَّيْمُ فِينَا

وَلَمْ نَرْضَ بِالْعَيْشِ إِلاَّ عَزِيـزًا ... وَلاَ نَتَّقِي الشَّرَّ، بَلْ يَتَّــقِــينَا

وَمَا الْحُرُّ إِلاَّ الَّذِي مَـاتَ حُـرًّا ... وَلَمْ يَرْضَ بِالْعَيْشِ إِلاَّ أَمِــينَــا

ويقول أيضا [من البحر الكامل] :

أَهْلاً وَسَهْلاً بِالأَهِلَّــةِ إِذْ بَــدَتْ ... سَهُلَتْ عَلَيَّ مَسَــالِكُ الْخَيْرَاتِ

وَتَعَطَّرَتْ بِقُدُومِهِمْ آفَـاقُـــنَــا ... كَتَعَـطُّرِ الأَزْهَارِ بِالنَّسَمَــاتِ

وَكَذَا الْكَوَاكِبُ فِي السَّمَاءِ طُلُوعُهَا ... مُسْتَحْسَنٌ في حِنْدِسِ الظُّلُمَاتِ

فَهُمُ الْكِـرَامُ وَ لاَ كِـرَامَ سِوَاهُــمُ ... هُمْ سَــادَتِي وَأَئِمَّتِي وَثِــقَــاتي

يَتَعَرَّضُونَ لِنَفْحَــةِ الْمَوْلَى وَمِنْ ... شَأْنِ الْكِرَامِ تَعَـرُّضُ النَّفَحَــاتِ

الطريقة الدّسوقية

ومن الطرق القادمة من مصر إلى تونس الطريقة الدسوقية

نسبة إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة 776هـ/1374م[1]

الشيخ المؤسس : هو الشيخ إبراهيم الدسوقي بن عبد العزيز أبي المجد بن علي قريش ابن محمد أبي الرضا بن محمد أبي النجا بن علي زين العابدين بن السيد عبد الخالق بن محمد الطيب ابن عبد الله الكاتم بن عبد الخالق بن أبي القاسم موسى بن جعفر الزكي بن الإمام علي الهادي بن الإمام محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب من زوجه فاطمة الزهراء بنت محمد بن عبد الله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ويظهر أن أصل والده أبي المجد عبد العزيز من قرية "مرقص" الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيل، وانتقل منها إلى "دُسوق" وراء مصالحه وكان له عدّة معارف بها، كما كان من أصحاب العارف محمد بن هارون السنهوري، فلا يبعد أن يكون اجتمع بالإمام الشهير أبي الحسن الشاذلي وتلقّى عنه الطريق. وتوفّي أبو المجد عبد العزيز بقريته وله فيها مزار مشهور.

أمّا زوجته أمّ شيخنا إبراهيم الدسوقي فهي السيدة فاطمة بنت الشيخ أبي الفتح

---

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 337.

الواسطي[1] نزيل الإسكندرية وأحد أجلاء خلفاء الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه. لكن يظهر أن ابنته تلقت الطريق الشاذلية وأصبحت من أتباعها وكان لذلك أثره على ابنها.

ويصرّ أتباع الطريقة على أن والدة الشيخ إبراهيم هي أخت الشيخ أبي الحسن الشاذلي فيكون هذا الأخير خال إبراهيم الدسوقي نسبا، واعتمدوا في ذلك على ما رواه الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني في كتابه "أنوار الأمين" صفحة 157، حيث ينقل محادثة منامية بينه وبين القطب الدسوقي إذ يقول القطب: "لمّا كنت في مهدي عندي أقلّ من سنة، جاؤوا بي إلى خالي الشاذلي فأعطاني إيّاه (أي الحزب السيفي) تامًّا، فعندما يلزمني أقرأه مرّة" أو ما ورد في كتابه:"السيرة الذاتية للإمام فخرالدين" مشيرين إلى الفقرة التالية بالصفحة 161 من المخطوط: "كانت سيدتنا فاطمة الشاذلية رضي الله عنها أم سيدي إبراهيم عندما تلد ولدًا تبعث به إلى أخيها سيدي أبي الحسن الشاذلي، ولكنه عندما ولدت سيدي إبراهيم مرضت فعاقها المرض عامًا عن أن تذهب إلى أخيها سيدي أبي الحسن الشاذلي، فأخبرت أخاها أبا الفتوح أن يخبر سيدي أبا الحسن بأنّها أنجبت ولدًا، ولم تستطع الحضور إليه لمرضها، فذهب سيدي أبو الفتوح وأخبر بما قالت له الشاذلية. فقال له: اذهب وقل لها:{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}[2] ثمّ أخبرها بأن تأتي به ليلاً. وذهبت سيدتنا الشاذلية ومعها ابنها سيدي إبراهيم وأخوها سيدي أبو الفتوح إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي، وقد قضى سيدي إبراهيم ليلة واحدة مع سيدي أبي الحسن فسلّمه أماناته، وفي الصباح سافر سيدي أبي الحسن لأداء فريضة الحج، بعد أن ودّع أخته سيدتنا الشاذلية وأهله، ورجعت سيدتنا فاطمة الشاذلية بسيدي إبراهيم بعد سفر أخيها. والمعروف أنّ سيدي أبا الحسن تُوُفِّيَ وهو في طريقه إلى الحجّ في صحراء مصر."[وكان ذلك سنة 656 أي عندما بلغ القطب الدسوقي ثلاث سنوات من العمر]. وهذا النصّ يضعنا أمام تساؤلات: فكيف يبقى الشيخ أبو الحسن الشاذلي عامًا كاملا لا يزور أخته المريضة وهو بذلك يكون في مقابلة الله ولقائه طبق الحديث القدسي{يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا ربِّ، كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما

1 يظهر أن السيدة فاطمة تلقت طريق السادة الشاذلية فكانت من أخلص أتباع الإمام، فلما زار أبو الحسن الشاذلي سنهور زارته ومعها ابنها إبراهيم وعمره 3 سنوات ليباركه الإمام أبو الحسن.
2 الآية 51 من سورة الأنبياء.

علمت أنّ عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما إنّك لوعُدْتَه لوجدتني عنده}[1] أو هكذا قال، في حين أنّ أخاها الحقيقي أبا الفتوح معها حتّى أنّها أرسلته إليه. ثّم إن كان أخاها كان من حقّها أن تعاتبه لا أن تعتذر إليه بمرضها، ثمّ كيف يكون عالمًا بأنّ أخته ولدت ولا يذهب لتهنئتها بالمولود الجديد وحسن الخلاص؟ كلّ هذه التساؤلات تبعد هذه الأخوّة الدموية بين السيدة فاطمة والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وإنّما تكون هي من أتباع الطريقة الشاذلية، ولها مكانة ما لدى الشيخ لا تصل إلى حدّ الشخوص لعيادتها وهي مريضة، أو السؤال عنها ليعلم بمرضها. ونحن لم نعثر على أخت لأبي الحسن في كلّ ما درسناه عن حياته، كما لم نعرف له أخا اسمه أو يكنى بأبي الفتوح، ولكن مثل هذا الجدل لا يقدم ولا يؤخر.

المهم، أنّ الشيخ إبراهيم وُلِدَ على ما ذكر"كوبولاني"سنة733هـ/ 1332م. فيكون قد عاش حسب هذه الرواية اثنتين وأربعين سنة شمسية، أو ثلاثا وأربعين سنة هجرية. لكن أحمد خلف الله[2] جعل هذه الولادة سنة 653 هـ/1255م. وهكذا فالفارق بين التاريخين ثمانون سنة وهو زمن ليس بالقليل.

ولد، إذن، ليلة الثلاثين من شعبان أوليلة الفاتح من رمضان سنة 653 هـ/1255م وموضع ولادته هو موضع دفنه وذلك سنة 696هـ/1298م، ورويت له كرامات ذكرها بنفسه في كتبه.

عني السيد أبوالمجد بتعليم ابنه إبراهيم منذ طفولته، وكان نبوغ الطفل ظاهرا لافتا للنظر، فبعد أن حفظ القرآن الكريم، وتفقّه علىالمذهب الشافعي، وبُنيت له خلوة بدُسّوق فدخلها وأقام بها عشرين سنة، قال الجلال الكركي[3]:"ولما أتمّ الأستاذ بخلوته

---

1 الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:{يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي.قَالَ: رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَاابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَارَبِّ، كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَارَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي}.

2 أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة 1419هـ/1998م؛ ص17.

3 الجلال الكركي هو العارف الصوفي البرهامي جلال الدين بن محمد خير الدين من القرن العاشر الهجري . تولّى مشيخة المسجد البرهامي مدّة طويلة وكان خليفة السادة البرهامية وله أكثر من عشرة مؤلفات منها (لسان التعريف) الذي كتب فيه بإسهاب عن شيخه إبراهيم الدسوقي(عن أحمد خلف الله) .

ثلاثا وعشرين سنة توفّي والده، فخرج من الخلوة وصلّى عليه، ثمّ أراد أن يدخلها، فحلف عليه بعض الفقراء ألاّ يدخلها فجلس تجاهها، فقطع الناس أسباب معايشهم واشتغلوا بالنظر إليه، وكيف لا وهو مُفلِحٌ، ومن لايقع عليه نظر مُفلحٍ لا يُفلِحُ، فأرخى بُرقُعًا على وجهه.".

كانت علومه وهبيّة لا كسبية، ولا توجد رواية واحدة تدلّ على أنّه سلك الطّريق على يد شيخ للتربية لازمه حتّى وصل على يديه وأذنه بتربية المريدين ولو كان والدَه رضي الله عنه[1]. ولم يُروَ عنه أنّه خرج من دسوق في طلب علم أوشيخ تربية، ولكنه تنقل ناشرا لعلمه وزائرا لمريديه ومن أشهر المدن التي تردد عليها دمنهور[2].

عاش القطب الدسوقي مشاركا لأبناء جيله في مشاغلهم وكانت له صلات منها صداقته الحميمة مع شيخ السطوحية الأحمدية السيد أحمد البدوي بطنطا. وكان مريدو الشيخين همزة الوصل بينهما حتى أخذا عن بعضهما البعض، ولعلّ ما جعل"كوبولاني"يحسب أن تعاليم الدسوقية مستقاة من السطوحية أو أنها فرع منها ما نجده متشابها في الحزب الدسوقي الكبير وحزب أبي الفتيان القطب أحمد البدوي[3]، فقد جاء في حزب هذا الأخير ما يلي:"لُوُوا عَمَّا نَوَوْا، فَعَمُوا وَصَمُّوا عَمَّا طَوَوْا. رَبِّ لاَتَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(بسم الله الرحمان الرحيم: سورة الفيل) اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُبِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ وَأَدْرَأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ، بِكَ أُحَاوِلُ وَبِكَ أُقَاتِلُ، اللَّهُمَّ وَاقِيَةً كَوَاقِيَةِ الْوَلِيدِ بِكهيعص كُفِيتُ، بحم عسق حُمِيتُ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَلاَحَوْلَ وَلاَقُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَصَلّى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما والحمد لله ربّ العالمين." ونجد في الحزب الدسوقي

---

1 احمد خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص 49 .

2 نفس المرجع ص49 .

3 أحمد البدوي شيخ الطريقة الأحمدية البدوية السطوحية، ولد بفاس من عائلة أصيلة الحجاز، وتوفّي بطنطا بمصر سنة 675 هـ /1276م كان تلميذا بزوايا بغداد وأم عبيدة(مكان الرفاعية)، وإثر خمرة رأى الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن طريق الشيخين عبد القادر وأحمد الرفاعي أسس طريقة على ضفاف النيل وكان اجتماع أتباعه على سطح داره لذلك سموا السطوحية، وكانت له خوارق كدواء العقم عند النساء وبالخصوص قيادته للانتصار على الصليبي لويس التاسع ملك فرنسا سنة 643هـ، وبذلك انتشرت طريقته ولقي مبعوثوه القبول الحسن بطرابلس وتونس وسوريا والجزيرة العربية وتركيا، ويتميّز أتباعه بالخرقة الحمراء التي اتخذها شيخهم والتي يلبسونها في المواكب الرسمية على شكل عمامة، زاويتهم الكبرى بطنطا.

(*)تقرأ موصولة بدون فصل (أي وقف) كما نبّه عليه في (أنوار الأمين) ص83.

الكبير ما يلي:"رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُالْوَارِثِينَ، ألم* نَوَوْا فَلَوَوْا عَمَّا نَوَوْا ثُمَّ لَوَوْا عَمَّا نَوَوْا فَعَمُوا وَصَمُّوا عَمَّا نَوَوْا فَوَقَعَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ ... أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ....، بحم عسق حُمِيتُ (حمايتُنا)، بِكهيعص كُفِيتُ (كفايتُنا)، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(ثلاثا) وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ...". أما نحن فنفسّر ذلك بالرابطة القوية التي ربطت بين القطبين وهما يمتحان من معين واحد.[1]

ومما رواه الجلال الكركي من وقائع مع السلطان الملك الأشرف خليل الّذي أمر بقتل الشيخ لما انتشر من كراماته ووشاية حساده، ثم أصبح يتبرّك به ويلبّي له طلباته وتدخلاته وكانت كلها لرفع المظالم، وقد بشّره الشيخ بالاستيلاء على حصن عكّا وتحريره من الصليبيين، وقد تمّ ذلك سنة 690هـ أو693هـ وما تبع ذلك من أن السلطان وقّف (حبّس) الجزيرة المواجهة لدسوق على الفقراء والزاوية الدسوقية[2].

قال الجلال الكركي متحدثا عن وفاة القطب الدسوقي في كتابه "لسان التعريف": "ولمّا شعر بدنوٍّ أجله أرسل نقيبه إلى أخيه شرف الدين أبي العمران موسى، وكان مدّة حياة الأستاذ يقطن مصر بجامع الفيلة، فأمره أن يبلّغه السلام، ويسأله أن يطهّر باطنه قبل ظاهره ... فاتّفق أن النقيب وصل مصر ودخل المسجد على الشيخ شرف الدين وهو يقرأ على الطلاّب كتاب الطّهارة فأخبره النقيب برسالة أخيه القطب الدسوقي، فلمّا سمعها طوى الكتاب وسافر من فوره إلى دسوق فوجد الأستاذ القطب قد قُبض وهو ساجد سنة ستّ وتسعين وستّمائة ودفن بدسوق محل مولده"[3].

وللقطب الدسوقي أشعار، فمما ينسب إليه قوله [من البحر الطويل] :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعْنَى حَدِيثِكَ لِي يُرْوَى   فَلاَ مُهْجَتِي تُشْفَى وَلاَ كَبِدِي تَرْوَى

نَظَرْتُ فَلَمْ أَنْظُرْ سِوَاكَ أُحِبُّهُ   وَلَوْلاَكَ مَا طَابَ الْهَوَى لِلَّذِي يَهْوَى

وَلَمَّا حَلاَ لِيَ الذِّكْرُ فِي خَلْوَةِ الرِّضَا   وَغِبْتُ، فَقَالَ النَّاسُ:ضَلَّتْ بِهِ الأَهْوَا(ء)

1 أحمدخلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص 47و48.

2 نفس المرجع ص 281.

3 أحمدخلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص: 279.

لَعَمْرُكَ، مَا ضَلَّ الْمُحِبُّ وَمَا غَوَى ... وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا عَمُوا أَخْطَأُوا الْفَتْوَى

وَلَوْ شَهِدُوا مَعْنَى جَمَالِكَ مِثْلَمَا ... شَهِدْتُ بِعَيْنِ الْقَلْبِ مَاأَخْطَأُوا الدَّعْوَى

خَلَعْتُ عِذَارِي فِي هَوَاكَ، وَمَنْ يَكُنْ ... خَلِيعَ عِذَارٍ فِي الْهَوَى سِرُّهُ نَجْوَى

وَمَزَّقْتُ أَثْوَابَ الْوَقَارِ تَهَتُّكًا ... عَلَيْكَ وَطَابَتْ فِي مَحَبَّتِكَ الدَّعْوَى

فَمَافِي الْهَوَى شَكْوَى وَلَوْمَزَّقَ الحَشَا ... وَعَارٌ عَلَى الْعُشَّاقِ فِي حُبِّكَ الشَّكْوَى

وَمَا عَلِمُوا لِلْحُبِّ دَاءً سِوَى الْهَوَى ... وَعِنْدِيَ أَسْبَابُ الْهَوَى كُلُّهَا أَدْوَا(ء)

وَقَدْ كُنْتُ مِنْ خَوْفِ الْهَوَى أَتَّقِي الْهَوَى ... وَلَكِنْ إِذَا اشْتَدَّ الْهَوَى غَلَبَ التَّقْوَى

وله أيضا [من البحر الطويل]:

عَلَى مَذْهَبِي كُلُّ الْمُحِبِّينَ يَمَّمُوا ... وَ نَشْوَةُ خَمْرِي هَيَّمَتْهُمْ فَهَمْهَمُوا

وَ كُلُّ مِلاَحِ الْحَيِّ أَرْخَوْا لِثَامَهُمْ ... عَلَيَّ، وَعَنْ غَيْرِي أَبَوْا وَتَلَثَّمُوا

أَنَا الصَّاحِي، أَنَاالسَّكْرَانُ مِنْ غَيْرِ خَمْرَةٍ ... أَنَا الضَّاحِكُ الْبَاكِي، وَسِرِّي مُكَتَّمُ

وله أيضا [من وزن اللاحق (مخلع البسيط)]:

يَامَنْ حَلاَ الصَّبْرُ فِي هَوَاهُمْ ... بِعِزَّةِ الْوَصْلِ وَ الدَّلاَلِ

وَاللهِ مَا لِي مُنَى سِوَاكُمْ ... بِاللهِ رِفْقًا بِضُعْفِ حَالِي

وَا فَيْتُ فِي حُبِّكُمِ وَفَاتِي ... مَا لِي وَلِلْحَيَاةِ وَمَا لِي

حِبِّي دَعَانِي إِلَى التَّدَانِي ... لَبَّيْكَ، يَا دَاعِيَ الْجَمَالِ

وَلَهُ أيضا [من البحر البسيط]:

كُلِّي بِكُلِّكَ مَشْغُولٌ عَنِ الْبَشَرِ ... فَكَيْفَ أَنْسَاكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي[1]

---

1 تلميح إلى الحديث القدسي {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَايَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُبِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَإِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ } رواه البخاري ومسلم.

وَلَوْ أَنَّ عَيْنِي إِلَيْكَ الدَّهْرَ نَاظِرَةٌ دَنَتْ وَفَاتِي وَلَمْ أَشْبَعْ مِنَ النَّظَرِ

وله تائيتان من البحر الطويل، واحدة مطولة منها هذه الأبيات :

تَجَلَّى لِيَ الْمَحْبُوبُ فِي كُلِّ وِجْهَةٍ فَشَاهَدتُّهُ فِي كُلِّ مَعْنًى وَصُورَةِ

وَخَاطَبَنِي مِنِّي بِكَشْفِ سَرَائِرٍ تَعَالَتْ عَنِ الأَغْيَارِ لُطْفًا وَجَلَّتِ

وَأَنْتَ مُنَائِي بَلْ أَنَا أَنْتَ دَائِمًا إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْيَوْمَ عَيْنَ حَقِيقَتِي

فَقَالَ كَذَاكَ الأَمْرُ، لَكِنَّهُ إِذَا تَعَيَّنَتِ الأَشْيَاءُ كُنْتَ كَنُسْخَتِي

فَأَوْصَلْتُ ذَاتِي بِاتِّحَادِي بِذَاتِهِ بِغَيْرِ حُلُولٍ بَلْ بِتَحْقِيقِ نِسْبَتِي

فَصِرْتُ فَنَاءً فِي بَقَاءٍ مُؤَبَّدٍ لِذَاتٍ بِدَيْمُومَةٍ سَرْمَدِيَّةِ

وَغَيَّبَنِي عَنِّي فَأَصْبَحْتُ سَائِلاً لِذَاتِيَ عَنْ ذَاتِي لِشُغْلِي بِغَيْبَتِي

وَأَنْظُرُ فِي مِرْآةِ ذَاتِي مُشَاهِدًا لِذَاتِي بِذَاتِي وَهْيَ غَايَةُ غَايَتِي

وَمَا شَهِدَتْ عَيْنِي سِوَى عَيْنِ ذَاتِهَا لأَنَّ سِوَاهَا لَمْ يُلِمَّ بِفِكْرَتِي

فَأَغْدُو وَأَمْرِي بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَاقِفٌ عُلُومِيَ تَمْحُونِي وَوَجْدِيَ مُثْبِتِي

خَبَأْتُ لَهُ فِي جَنَّةِ الْقَلْبِ مَنْزِلاً تَرَفَّعَ عَنْ دَعْدٍ وَهِنْدٍ وَعَلْوَةِ

أَنَا ذَلِكَ الْقُطْبُ الْمُبَارَكُ أَمْرُهُ فَإِنَّ مَدَارَ الْكُلِّ مِنْ حَوْلِ ذِرْوَتِي

أَنَا شَمْسُ إِشْرَاقِ الْعُقُولِ وَلَمْ أَفِلْ وَلاَ غِبْتُ إِلاَّ عَنْ قُلُوبٍ عَمِيَّةِ

يَرَوْنِيَ فِي الْمِرْآةِ وَهْيَ صَدِيَّةٌ وَلَيْسَ يَرَوْنِي بِالْمِرَآة الصَّقِيلَةِ

وَبِي قَامَتِ الأَنْبَاءُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِمُخْتَلَفِ الآرَاءِ وَالْكُلُّ أُمَّتِي

وَلاَ جَامِعٌ إِلاَّ وَلِي فِيهِ مِنْبَرٌ وَفِي حَضْرَةِ الْمُخْتَارِ فُزْتُ بِبُغْيَتِي

ومنها :

نَعَمْ ! نَشْأَتِي فِي الْحُبِّ مِنْ قَبْلِ آدَمٍ وَسِرِّيَ فِي الأَكْوَانِ مِنْ قَبْلِ نَشْأَتِي

عَلَى الدُّرَّةِ الْبَيْضَاءِ[1] كَـانَ اجْتِمَاعُـنَا وَفِي قَـابِ قَوْسَيْنِ اجْتِمَـاعُ الأَحِبَّةِ[2]

وَكُلُّ وَلِيٍّ لِـلإِلَـهِ مُـؤَيَّـدٌ وَيَشْـهَدُ أَنِّي ثَابِـتٌ فِي وِلاَيَـتي

أَنَا الْقُطْبُ شَيْخُ الْوَقْتِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ أَنَا السَّيِّدُ الْبُرْهَـانُ شَيْـخُ الْحَقِيقَةِ

وواحدة مختصرة نوردها كاملة :

سَقَانِيَ مَحْـبُوبِي بِكَـأْسِ الْمَحَبَّـةِ فَتِهْتُ عَلَى الْعُشَّـاقِ سُكْرًا بِخَلْوَتي

وَلاَحَ لَنَا نُـورُ الْجَـلاَلَةِ لَـوْ أَضَـا لِصُمِّ الْجِبَالِ الرَّاسِيَـاتِ لَدُكَّتِ

وَكُنْتُ أَنَا السَّـاقِي لِمَنْ كَـانَ حَـاضِرًا أُطُـوفُ عَلَيْـهِمْ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةِ

وَنَـادَمَنِي سِـرًّا بِسِـرٍّ وَ حِـكْـمَةٍ وَإِنَّ رَسُـولَ اللهِ شَيْـخِي وَقُـدْوَتي

وَعَـاهَدَنِي عَـهْدًا حَفِظْتُ لِعَهْـدِهِ وَعِـشْـتُ وَثِيـقًا صَـادِقًا بِمَحَبَّتي

وَحَكَّمَنِي فِي سَـائِرِ الأَرْضِ[3] كُـلِّـهَا وَفِي الْجِـنِّ وَالأَشْـبَاحِ رَبُّ الْبَرِيَّةِ

وَفِي الأَرْضِ أَرْضِ الصِّينِ وَالشَّرْقِ كُلِّهَا وَأَقْـصَى بِـلاَدِ اللهِ صَـحَّتْ وِلاَيَتي

أَنَا الْحَرْفَ لاَ أُقْرَا لِكُـلِّ مُنَـاظِـرٍ وَكُلُّ الْوَرَى مِـنْ أَمْـرِ رَبِّي رَعِيَّـتي[4]

وَكَمْ عَالِمٍ قَدْ جَـاءَنَـا وَهْوَ مُنْـكِرٌ فَصَارَ بِفَـضْلِ اللهِ مِنْ أَهْـلِ خِرْقَتي

وَ مَاقُلْتُ هَذَا الْقَـوْلَ فَخـرًا وَ إِنَّـمَا أَتَى الإِذْنُ كَـيْ لاَتَجْهَلُونَ[5] طَرِيقَـتي

وله أيضا :

فَمَعْنَاهُ فِي قَلْبِي وَذِكْرَاهُ فِي فَـمِي وَمَثْوَاهُ عِنْـدِي فِي أَجَلِّ مَكَـانِ

1 الدرّة البيضاء، أول مخلوقات الله تعالى التي جاء منها بقية الخلق. وهي مخلوقة من نور النبيء صلّىالله عليه وسلّم (راجع في ذلك "المعجم الصوفي" لسعاد الحكيم. ويشار بها إلى العقل الأوّل أو النورالمحمّدي في حالة الرتق أي قبل انفصال السماء عن الأرض.)

2 تلميح إلى الآيتين 8و9 من سورة النجم :{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى؛ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} وهي من أعلى المراتب الصوفية.

3 الأرض في اصطلاح الصوفية هي أرض النفوس.

4 الرعية هي كلّ قوى الإنسان الوجودية.

5 يظهر أنه أثبت النون لضرورة الوزن رغم وجوب حذفها لأنّ الفعل منصوب بـ(كي)

دَعُونِي فَلِي مَـوْلًى إِذَا مَـا دَعَوْتُهُ   أَجَابَ، وَإِنْ أَبْطَـأْتُ عَنْهُ دَعَانِي

وَلِي مِنْهُ وَصْلٌ كُلَّمَا رُمْتُ وَصْلَهُ   فَنَحْنُ عَلَى التَّحْـقِـيقِ مُجْتَمِعَانِ

ومن أقواله رضي الله عنه:" لاَ تقنعوا من الطريق بالوصف دون الذوق، وما تكلّم القوم إلاّ على شيء ذاقوه، فبالله عليكم يا أولادي، إذا سألكم أحد عن شيء من مقامات الطّريق فلا تُجيبوه إلّا إن كنتم متحقّقين به".

والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة طالبين الله خالصا، ودخلوا تحت أوامره لاستغنوا عن الأشياخ، ولكنهم جاءوا إلى الطّريق بعِلل وأمراضٍ فاحتاجوا إلى حكيم ".

" وَاعْلَمْ يَا ولدي أنّ طريقتنا هذه طريقة تحقيق وتصديق وجهد وعمل وتنزّه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان، فمن خالف شيئا من أفعالها رفضته الطريق طوعا أوكرها ".

" الشريعة أصل، والحقيقة فرع، فالشريعة ما ظهر من الشرع، والحقيقة ما خفي منها، وجميع المقامات مندرجة فيهما، ولكلٍّ منهما أهل، والكاملُ من جمع بينهما".

ترك الشيخ إبراهيم الدسوقي عدّة مؤلفات في الفقه والتصوّف، ومن كتبه: كتب في الفقه وكتاب الحقائق والرسالة والجوهرة.

أخبار الطريقة : معلوم أنّ القطب الدسوقي، بعد وفاته، خلفه أخوه أبو العمران شرف الدّين موسى، وبعد وفاته سنة 739هـ خلفه ابنه شمس الدّين الّذي اجتمع مع القطب محمد وفا بن محمد الأوسط بن محمد النجم الحسني عندما قدم دُسوق معزّيا في وفاة شقيق القطب الدسوقي. والطريقة الدُّسوقية، وتسمّى "البرهامية" (نسبة إلى اسم القطب إبراهيم) و"البرهانية"(نسبة إلى لقب القطب برهان الدين) شعبة كبيرة من الشاذلية وإحدى الطرق المشهورة في الديار المصرية منسوبة إلى الولي الكبير والقطب الشهير المرشد للصواب المنقطع عن الخلق في السرداب[1] سيدي برهان الدين إبراهيم بن أبي المجد عبد العزيز بن قريش الحسيني الدسوقي المتوفّى سنة 676 هـ[2].

---

1 يقصد بالسرداب : الخلوة، وقد اشتهر الشيخ بذلك لأنه قضى بها أكثر من عشر سنوات مختليا، ولوقال المنقطع عن الخلق في الخلوة كان أفضل لأن لفظ السرداب ملازم للشيعة الإمامية وذكره متّصل بانقطاع الإمام.
2 الكلام منقول عن أحمد خلف الله وهو نقله عن الجلال الكركي. وهذه رواية ثالثة في وفاة الشيخ.

وتمتاز الطريقة بالانزواء الّذي ظهرت به الطريقة الخلوتية والبدوية والبيومية، وانقسمت الطائفة إلى عدّة فروع مستقلّة وانتشرت، يعدّ منها الزاوية الأمّ بدُسوق والشرنوبية (نسبة إلى صاحبها أحمد عرب الشرنوبي بن عثمان بن أحمد سليل العارف علي البرهاني صاحب المزار بشرنوب) وهي فرع من الشهاوية (نسبة إلى السيد محمد الشهاوي الحسيني الشافعي المتوفى سنة 949هـ بقرية نمرة البصل، وهو من ذرية أبي العمران موسى شقيق القطب الدسوقي) والتهامية[1].

وركدت الطريقة في بعض السنين، ثمّ أحياها الإمام فخر الدين محمد عثمان عبده البرهاني المولود سنة 1902م والمتوفّى في 1403هـ/1983م وهو من أصل سوداني (نسبة إلى جمهورية السودان) ويرجّع شجرة نسبه إلى الإمام عليّ كرم الله وجهه عن طريق الفرع الحسيني. غير أنّ الغريب في هذه السلسلة وجود نساء هنّ الواصلات لهذا النسب الشريف، فإلحاقه به كان عن طريق جدته أم عثمان آسيا بنت السيدة كلثومة بنت السيّدة تُكّة بنت السيد موسى بن عالم بن خضر إلخ ...

[بدأ الشيخ محمد عثمان من سنّ الخامسة يعمل بالمذهب المالكي، والطريقة الشاذلية متبعا سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مقاومة البدع وإطفاء نار الفتنة أينما راح أو غدا، بما رزقه الله من موسوعية العلم وسعة الصدر وحسن الخلق ونور أهل بيت النبوة، وترك من الكتب:"تبرئة الذمّة في نصح الأمة" أو "تذكرة أولي الألباب بالمسير إلى الصواب" وكتاب:"انتصار أولياء الرحمان على أولياء الشيطان" وديوان:"(شراب الوصل". ولمّا انتقل إلى الرفيق الأعلى في الواحد والعشرين من جمادى الثانية 1403هـ الموافق للرابع من إبريل 1983م حمل أمانته بعده ابنه البار الولي الكامل سيدي الشيخ إبراهيم محمد عثمان عبده البرهاني، وانتشرت الطريقة في أمريكا وألمانيا وفرنسا وإنقلترا وإيطاليا والنمسا واستراليا والبلاد العربية.][2].

كيف دخلت الطريقة إلى تونس : أدخل الطريقة الدُّسوقية إلى تونس الشيخ الحبيب بن ناجي بن حسين بوزويتة المولود بقصر هلال في 10 جويلية 1959م. تعلّم

1 كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص 337.
2 جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي في الفترة مابين 24-22 ربيع الآخر الموافق لـ18-16سبتمبر1995م. بتصرف.

صناعة النسيج بمعمل سعيدان بمسقط رأسه، ثمّ رحل إلى القطر الليبي في شهر ديسمبر 1979 لممارسة مهنته بمدينة طرابلس حيث يشتغل أخوه رضا في نفس المهنة.

وفي سنة 1980 تعرّف على رجل مصريّ يدعى حسين جَزْرْ من قرية "دَرَاوْ" من محافظة "أسوان"كان يعمل بنفس المصنع، وهو من مواليد 1952، وكان مريدا للطريقة البرهانية الدُّسوقية، يقول الشيخ الحبيب: " أخذني معه للزاوية بـ"سوق الجمعة" حيث تنشط الجماعة "البرهانية" وكان هذا أوّل لقاء لي بجماعة الطريقة بزاوية "صُرمان"."وتعلّم معه أخوه رضا وبعض العمّال التونسيين وتلقوا بعض الأذكار. ورجع الشيخ الحبيب إلى قصر هلال في أواخر سنة 1980 وشرع ينشط بمفرده ويعرّف أبناء حيّه بالطريقة وهو حي "بن عياد" موطن مؤتمر قصر هلال الشهير للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في 2 مارس1934، وانضمّ إليه بعض المريدين ورجع إلى الأذكار. وفي 11 أوت 1991 شرع يعلّم الجماعة الذكر وعمل الحضرة، وأول مشاركة علنية رسمية لهذه الطريقة كانت سنة 1998 بالمهرجان الدولي للإنشاد الصوفي بسيدي بولبابة بقابس، وفي سنة 2000 شرعت هذه المجموعة تنشط بانتظام وتشارك في مهرجان سيدي بولبابة كلّ سنة.

وعلاوة على زاوية قصر هلال، هناك بالجمهورية التونسية زاوية ببني ڤردان مقدمها السيد سعد زغدود وهي فرقة نشيطة منذ حوالي عشرين سنة، وزاوية ثانية بالشهبانية التي تبعد حوالي 30 كلم عن بني ڤردان في اتجاه الشمال بطريق مدنين ومقدمها السيد عمّار البخلي، وزاوية بتونس العاصمة ينشطون بها بدون حضرة، ومقدمها السيد جعفر بالضياف وقد تعلّم الطريقة بالكندا. وأخيرا هنالك جماعة بباجة ينشطون بالأوراد دون الحضرة تحت إشراف السيد خالد البحري. أما بالسعودية فلها زاوية بجدة وأخرى بالمدينة المنوّرة.[1]

أصول الطريقة : يقول"كوبولاني":(من حيث المبادئ يمكن اعتبار الدسوقية فرعا من البدوية[2]. ولكن في الواقع تأسّست هذه الطائفة بإشراف ولي مشهور بصلاحه

1 ما قلناه عن دخول الطريقة إلى تونس ملخص لحديث أجريناه مع السيد الحبيب بوزيتة وأصحابه في زيارات ميدانية لزاويتهم بقصرهلال في غضون شهري سبتمبر وأكتوبر 2003.

2 هي طريقة منسوبة إلى الشيخ أبي الفتيان أحمد البدوي المتوفّى في 675 هـ مؤسس الطريقة السطوحية الأحمدية ولها فروع في كامل العالم الإسلامي (انظر ترجمته أعلاه)(عن أحمد خلف الله، السيد إبراهيم الدسوقي، ص26).

وكراماته وهوالشيخ إبراهيم الدسوقي وهي طريقة شاذلية) فهي، إذن، لا تستعمل الآلات بتاتا في أذكارها وفي حضرتها، وقد قال لنا أحدهم: "بنديره في صدره" وهو كناية عن الإيقاع الداخلي الذي يهزّ النفس والروح أثناء الذكر، فلا يستعين بآلة خرساء لبلوغ ذلك، ولكنهم ربّما استعانوا بالتصفيق إيقاعا فقط. وعملهم عمل يومي وهم يقسمونه إلى ثلاث مراحل:

العمل اليومي : ويهم كلّ مريد بمفرده، فيقوم بـ :

المرحلة الأولى : مرحلة الاستغفار :كلّ مريد يقوم بالاستغفار سبعين ألف مرّة على مدّة غير محددة بلفظ: "أستغفر الله العظيم هو التواب الرحيم "، ثمّ مرحلة التهليل : "لاإله إلاّ الله" سبعين ألف مرّة، ثمّ مرحلة الأساس*: وهي الوظيفة على الطريقة البرهانية وهي: "بسم الله الرحمن الرحيم" (100مرّة) "أستغفرالله العظيم هو التوّاب الرحيم" (100 مرّة) "لاإله إلاّالله" (100 مرّة) "يا دايم" (300 مرّة) "اللّهُمّ صلّ على سيّدنا محمّد وآله وسلّم" (100 مرّة)، وبعد: يقرأ التحصين الشريف (مرّة واحدة)، ثمّ الحزب الكبير*(مرة واحدة)، ثمّ: "يا عزيز" (100 مرّة) ثمّ: "يا عزيزا لم أزل بعزّك عزيزا ياعزيز "(07 مرات)، ثمّ الحزب الصغير*(3 مرات)، ثمّ "ياباريءُ " (100 مرّة)، ثمّ "يالطيف " (129 مرة) "اللّهُمّ يالطيفا بخلقه ياعليما بخلقه يا خبيرا بخلقه ألطف بنا يالطيف" ثمّ "يا عليم ياخبير" (7 مرات) و{ياألله} (66 مرة)، ثمّ " يا دايم " (66 مرة) "لك الدوام الأزلي والبقاء السرمدي حتّى ترث الأرض ومن عليها وأنت خير الوارثين، سبحانك يا دايم أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، سبحانك يا دايم ارزقنا حلاوة محبّتك واحشرنا في زمرة المحبين"، "ياودود" (240 مرة)، ثمّ: الصلاة المحمدية الذاتية*(3 مرات): ثمّ صلاة بن مشيش* (مرّة واحدة). هذا يعتبر أساس الصباح ويعاد نفس الأساس*في المساء.

المرحلة الثانية: تعاد المرحلة الأولى بكاملها.

المرحلة الثالثة: بالنسبة إلى الأساس[1] هو نفسه، ثمّ (1117 مرة) سورة الإخلاص مع (117 مرة) الصلاة المحمّديّة الذاتية*. ثم الحزب السيفي* (وهوحزب أي دعاء منسوب إلى

1 ما وضعت عليه النجمة موجود في مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية وشرحها في أنوار الأمين(انظر قائمة المراجع)

الإمام علي كرّم الله وجهه)(من 5 إلى 9 مرات) ثم (21 مرة) الحزب الكبير*، ثمّ (100 مرة) بسم الله الرحمان الرحيم" ثم(100 مرة) استغفار، ثم (100 مرة) "اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وآله وسلّم "، ثمّ (6666 مرة) الاسم الأعظم {الله}.

وكلّ مرحلة من هذه المراحل تنتهي بالخلوة، فتنتهي المرحلة الأولى بـ"بسم الله الرحمان الرحيم"(100 مرة)، ثم (100 مرة) "اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وآله وسلّم" والنهاية بالصلاة على النبيء (100 مرة). وتنتهي المرحلة الثانية بـ : "بسم الله الرحمن الرحيم" (100مرّة) واستغفار(100 مرة) و"اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وآله وسلّم". والمرحلة الثالثة مثل المرحلة الثانية.

الخلوة : يختلي المريد بنفسه يوميّا في المرحلة الأولى بالاستغفار، وفي المرحلة الثانية بالتهليل، وفي المرحلة الثالثة بالاسم الأعظم. وتكون الخلوة بين صلاة المغرب وصلاة العشاء. وعند انتهاء الخلوة يختمها بـ(100 مرة) "اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وآله وسلّم ".

والحضرة : عمل جماعي له أدعية وقصائد وترتيبات خاصّة نذكرها في طريقة العمل.

طريقةالعمل : يقوم الدسوقية بالحضرة الإلهية يوم الخميس ليلة الجمعة بعدصلاة المغرب وبالحضرة النبوية في نفس الموعد ليلة الاثنين موعد مولد الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وهي كما يلي:

يجلس المنشدون في نصف دائرة في طرف القاعة تحت الشعار ويصطف الذاكرون صفوفا تقل وتكثر وتطول وتقصر لطرفي القوس ويضعون بينهم "الزي" وهو عبارة عن قفص ذي سبعة أضلاع مغطّى بعلم أوبيرق في أعلاه أصفر وفي أوسطه أبيض وفي أسفله أخضر وهي رموز للطريقة البرهانية كونها حازت عدّة طرق ويوقد تحت هذا البيرق فانوس. فإذا انتظم الجمع هكذا جالسين ملتزمين بقلّة الحركة والكلام، يقع إنشاد قصيدة أواثنتين أو ثلاث تسمى قصائد النداء، وهي مذكورة في ديوان (شراب الوصل). ثم يأتي الاستفتاح، فيرفع الزي، ويقع التأمين، ثمّ تأتي قراءة الفواتح، يعقبها دعاء سرّي، ثم مدح معين في الصلاة على النبيء صلّى الله عليه وسلّم، ثم الدخول في الذكر بـ "لا إله إلاّ الله" ممزوجة بالأمداد (أي طلب المدد من أهل السلسلة) وعند الوصول إلى مدد "يا أبا العينين" يقف الجميع ويقع إكمال الأمداد مع تمايل الذاكرين يمينا وشمالا، عند

انتهاء الأمداد يبدأ الإنشاد والدّخول في الذكر بالاسم {الله}وبالتمايل أمام وخلف ويقع إنشاد قصيدة أو اثنتين أو ثلاث حتّى يشتدّ الذكر ويصير بذكر الصدر أو المشاهدة لا بالتمايل بل بالتراكع، عند شدّة الذّكر والانتعاش يقطع فجأة ويبقى الذاكرون في حالة ترنّح، ثمّ يقوم منشدان كل واحد بسماعية مؤثّرة، وهي قصائد ترتجل في مقام معيّن، ثمّ يرجع إلى الذكر حسب اختيار البسيط (الرسيم)، إمّا بذكر الدندنة (وهو صيغة من صيغ الذكر بها صوت كالدندنة) أو بذكر الليثي وهو أيضا طبقة في الذّكرخافتة تشبه الفحيح) أو بذكر الاسم المفرد، ودائما بين الطبقة والطبقة يكون هناك سماعيّتان، وعند إكمال 4 أو 5 طبقات حسب الأمداد يجلس الجميع على الشكل الّذي بدأوا به، ثمّ يُنشدون جميعا توسّل السادة البرهانية فالصدر ينشده المنشدون والعجز ينشده الذاكرون، وهو قصيدة شعرية تحتوي على أربعة وسبعين بيتا من البحر الطويل تائية القافية مطلعها:

إِلَهِي بِكَنْزِ الذَّاتِ ذِي الأَحَدِيَّةِ ... بِطَلْسَمِ غَيْبِ الْغَيْبِ سِرِّ الْهُوِيَّةِ

بِنُورِ تَجَلِّيهَا وَحَقِّ صِفَاتِهَا ... وَأَسْرَارِهَا الْعُظْمَى بِقُدْسٍ وَعِزَّةِ

ويختمونها، بعد ذكر الأنبياء والصحابة والتابعين والأولياء إلى أن يصلوا إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي وأخيه موسى وجملة من الأولياء والصالحين وكل المنتمين إليهم بالدعاء والتوسّل:

وَبِاللُّطْفِ وَالإِحْسَانِ عَامِلْ جَمِيعَنَا ... وَنَجِّ مِنَ الأَسْوَاءِ فِي كُلِّ حَالَةِ

وَأَكْرِمْ بِتَقْوَاكَ الضَّعِيفَ وَقَوِّنَا ... وَسَلِّمْ وَجُدْ وَارْأَفْ بِأَلْطَفِ رَأْفَةِ

وَعَمِّمْ بِخَيْرٍوَاكْسُنِي كُسْوَةً تَقِي ... بِأَنْوَارِهَا إِيَّايَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةِ

وَكَمِّلْ بِنُورِ الْقُرْبِ حَالِي وَعُمَّنِي ... بِحُسْنٍ وَإِحْسَانٍ وَخَتْمِ السَّعَادَةِ

وَفِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ فَاجْعَلْ مَقَرَّنَا ... وَزِدْنِي دَوَامَ الْوَصْلِ مَعْ قُدْسِ رُؤْيَةِ

وَهَبْ لِي جِوَارَ الْمُصْطَفَى وَشُهُودَهُ ... وَصُنِّي مِنَ التَّلْوِينِ يَا ذَا الْعِنَايَةِ

وَأَوْفَى صَلاَةٍ وَالسَّلاَمُ مُؤَبَّدٌ ... عَلَى خَاتَمِ الرُّسْلِ الْكِرَامِ وَعِتْرَةِ

وَكُلِّ نَبِيٍّ وَالصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ ... مِنَ الآلِ مَا لاَحَ الْهُدَى بِأَشِعَّةِ

وَمَا شَمَّ عِطْرَ الْقُدْسِ، مَنْ عُرِفُوا بِهِ وَمَـا شَمَّ بَدْرَ الأُنْسِ مَعْ شَمْسِ سَادَةٍ

ثمّ قراءة الفواتح مرّة أخرى، ثم يقع دعاء، ثم يرفع الزي مع الفاتحة، ثم يُدَارُ على الحاضرين كأس الشاي ويمنع شرب الماء لأنه يُطفئ نور القلب (حسب زعمهم)[1]، ثم تقرأ الفاتحة لسيدي نوح باب البسط المفتوح وقوفا، ثم يقع تناول طعام العشاء غالبا. هذه هي الحضرة كما وصفها لنا أحدهم كتابيا.

أمّا ما شاهدناه، فلا يختلف عن ذلك كثيرا، ولاحظنا أن الإنشاد ينطلق في مقام السيكاه مثلا لينتهي الجميع أخيرا بمقام السيكاه ويتخلل ذلك تطرّق للمقامات الأخرى إلاّ أن القاعدة أنّ مقام الابتداء يكون مقام الانتهاء، فينشد أحدهم بإنشاد بعض القصائد من ديوان "شراب الوصل" وهو ديوان أشعار متينة البناء رائقة التركيب والمعاني بليغة اللغة والنسج، قيل أن الشيخ أملاه بعد وفاته على أحد المريدين فكتبه وليس له فيه أي بيت من عندياته. وعندما يتمّ الإنشاد يطلب الفاتحة للرسول صلّى الله عليه وسلم وابنته وزوجتيه خديجة وعائشة (غير أنهم لا يقرؤون الفاتحة) ويكتفون بقول:(اللّهُمَّ صلّ على سيدنا محمد) ثمّ تطلب الفاتحة لأهل السلسلة الدسوقية، ثمّ الفاتحة لأهل الصفا والأقطاب، وكذلك لا تقرأ الفاتحة بل يكتفى بالصلاة على النبيء، [وسألناهم عن عدم قراءة الفاتحة كلّ مرّة ولماذا يكتفون بالصلاة على النبيء، فقال لنا مقدمهم: إن الأصل هو قراءتها كلّ مرّة ولكننا نختصر، ونأمل أن يكون ما بين الصلوات على النبيء صلّى الله عليه وسلّم هو المقبول] ثم تطلب الفاتحة لأشياخ الشاذلية، ثمّ تقرأ الفاتحة، ثمّ يصلّى على النبيء:(اللّهُمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد في الأولين وصلّ وسلم على سيدنا

---

1 محمد السيد بن عبد الكريم الكسنزاني، التصوف الأنوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية، مكتبة مدبولي، القاهرة 1990، ص 102. يقول:"...وأما الثلاثة الباقية التي تأتي بعد الذّكر فهي أولا: أن يسكن بعد سكون ويخشع ويحضر مع قلبه مترقّبًا لوارد الذكر فلعلّه يَرِدُ عليه وارد فيعمّر باطنه في تلك اللحظة أكثر مما يمكن أن تعمره الرياضة والمجاهدة مدّة ثلاثين سنة، فإذا ورد عليه وارد الزهد فيصير زاهدا، أو ورد عليه تحمّل الأذى فيصير صابرا، أو وارد الخوف فيصير خائفا من الله تعالى، وهكذا، ويجمع الحواسّ بحيث لا تتحرّك منه شعرة، حاله كحال الهرّة المتحفّزة لاصطياد الفأر، وينفي الخواطر ويُجري معنى الذكر على قلبه. ثانيا: أن يذمّ نفسه مرارا وبقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس أو أكثر حتى يدور الوارد في جميع حواسّه فتتنوّر بصيرته وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان وتكشف عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم. ثالثا: **منع شرب الماء البارد عُقَيْبَ الذّكر** فإنّ الذكر يورث حُرْقة وهيجانا وشوقا إلى المذكور الّذي هو المطلوب الأعظم من الذكر. وشُرب الماء يُطفِئُ تلك الحرارة . فليحرص على هذه الآداب الثلاثة فإنّ فيها نتيجة الذكر تظهر والله أعلم." وهو ما وجدناه بالطريقة الخلوتية في نصيحتهم: " والثالث شرب الماء مـنعه العلمـاء بعد ذكرك الأسماء مطفـيا للنـاريا"

محمد في الآخرين وصلّ وسلم على سيدنا محمد في كل وقت وحين وصلّ وسلّم على سيدنا محمد في الملإ الأعلى إلى يوم الدين وصلّ وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة المقربين وعلى عباد الله الصالحين من أهل السماء والأرضين وبارك على ساداتنا أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وعباد الله الصالحين إلخ ...) ثم يطلب الفاتحة للحسن والحسين وللشيخ أبي العينين وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي وكذلك بقية أشياخ الدسوقية. ثم يأتي ذكر "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله" وطلب المدد من الرسول بالتصفيق وهم جالسون "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، آه ياحبيب الله" ويبدؤون في التراكع وذكر "آه" من الصدر بصورة بطيئة جدّا، ثم يقفون ويبدؤون الالتفات يمينا ويسارا والمنشد يُنشد "لاإله إلاّ الله" إه إه إه مصحوبة بطرق الكف، والمنشدان يُنشدان ويبدأ التسارع ويشتدّ الاهتزاز والالتفات على وزن (مُفْتَعِلُن أي الوزن الرباعي) ثم يصبح اهتزازا فقط ثمّ يقفون بذكر خافت {الله} ويخرج منشد ينشد في شكل عروبي والصف وقوف يستريحون، ثم يرجع الصفّ لذكر{الله} إه إه إه {الله}ومنشد يُنشد، ويقع ذلك صحبة الالتفات يمنة ويسرة، ويعودون كالكرّة الأولى إلى الاهتزاز والتسارع، ثمّ يريحون، ويرجع المنشد إلى سماعية في شكل عروبي كما فعل آنفًا، ويظهر هذا الغناء على النمط السوداني المميز بانزلاقه من أعلى طبقة صوتية مباشرة إلى القرار[1]، ثمّ ينطلق تنفس أشبه ما يكون بالفحيح قيل أنه النطق بالاسم {الله} بإدخال الهواء داخل الصدر عوض إخراجه، فيكون أرضية لإنشاد كالعادة ويعيدون الكرّة كالمرّة السابقة. ثم يعيدون كرّة أخرى إلخ ... ثم بعد الإنشاد يبدؤون بالأرضية {الله}مع التراكع لا التفاتَ ولا اهتزازَ، ثمّ يرجعون إلى الالتفات والتصفيق، ثمّ يتسارع الاهتزاز دون التفات ثم يريحون ويجلسون وتضاء الأنوار، ويرجعون للإنشاد جلوسا فيقرؤون جميعا "توسل السادة البرهانية" فالصدر ينشده المنشدون والعجز ينشده الذاكرون مع التصفيق ويقرأ البيت الأخير بصوت بطيء جدّا مؤذنا بالانتهاء، ثمّ تقرأ الفواتح مرّة أخرى، ثم يقع دعاء، ثم يرفع الزي مع الفاتحة، ثم يُدَارُ على الحاضرين كأس الشاي ويمنع شرب الماء لأنه يُطفئ نور القلب (حسب زعمهم)، ثم تقرأ الفاتحة لسيدي نوح باب البسط المفتوح(وهو أحد الأولياء) وقوفا، ثم يقع تناول طعام العشاء غالبا.

1 يكون ذلك على المقام الخماسي (gamme pentatonique)

ونورد فيما يلي نماذج من القصائد المغنّاة وهي من ديوان "شراب الوصل" للشيخ فخر الدين محمد عثمان عبده البرهاني شيخ الطريقة : يقول في القصيدة الثانية [من البحر الكامل] وبها 59 بيتا : هَـذَا عَطَـاءُ اللهِ مِنْ عَلْـيَائِهِ هَـذَا اصْطِفَاءُ السَّيِّدِ الْبُرْهَـانِي

مَـا كُـلُّ مَـنْ كَتَـمَ الشَّهَـــادَةَ آثِـــمٌ[1] أَوْ كُلُّ مَنْ وَأَدَ الْبَـرِيئَـةَ جَـــانِي[2]

حَـــارَتْ جَمِيعُ الإِنْـسِ فِي كُنْهِي، كَـذَا فِي مَشْرَبِي حَارَتْ مُلُــوكُ الجَانِ

مِنْ آهَـــــةِ الأَوَّاهِ آهًـــا قُـلْـتُـهَـــــا مِنْ أَوْبَـةِ الأَوَّابِ فِي الْوِجْـــدَانِ

دَانَـــتْ مَرَاقِي الصَّـــالِحِيــنَ لِسَـرْوَتِي وَ ازْدَانَتِ الْعَـلْيَـــاءُ بِالإِحْسَانِ

عَصَفَتْ رِيَاحُ الْقُرْبِ لَمَّا قَارَبَ الْمِيقَاتُ عَـــانَــقَ لُـؤْلُــؤِي مَرْجَـــانِي

ثَـوْبًـــا مِـنَ النُّـــورِ الْعَلِــيِّ لَبِسْـــتُهُ نِعْمَ اللِّـبَاسُ وَجَلَّ مَنْ أَعْـطَانِي

إلى أن يقول : لَوْلاَ هَوَاهُمْ فِي الْقُلُوبِ وَفِي الْحَشَا مَا ذَاقَ قَلْبٌ لَـــذَّةَ الإِيمَـانِ

وفي القصيدة 19 [من البحر الكامل أيضا]، يقول في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

هُوَ جَـــابِرٌ وَهْوَ الْجَــوَادُ وَإِنَّهُ يَسْعَى إِلَيْهِ الْجُـــودُ كَيْ يَرْعَـــاهُ

هُوَ أَحْمَدٌ فِي قَابِ قَوْسَيْنِ انْجَلَى وَلَهُ لِـوَاءُ الْحَمْدِ، مَا أَسْمَـــاهُ !

كَرَمٌ بِلاَ كَمٍّ وَ لاَ كَيْـــفِيَّةٍ كَفّ كَـرِيـم أَرْضُـهُ وَ سَمَـاهُ

هُوَ رَحْمَةٌ، وَالأُمَّهَاتُ بِهِ اقْتَدَتْ بَـرٌّ رَحِيــم، رَبُّـــهُ سَمَّـــاهُ

هُوَ قُرَّةُ الأَعْـيَانِ وَهْـوَ قَـرَارُهَا قَـرَّتْ عُيُونُ الْكَـوْنِ فِي مَرْآهُ

وانظر إلى هذا الاقتباس بالتصرف من القرآن الكريم إذ يقول [من البحر الخفيف]:

قَدْ شَـهِدْنَا وَيَا لَطِيبَ شُهُودٍ نَاشِئَ اللَّيْلِ وَهْوَ أَقْـوَمُ قِيلاَ[3]

---

1 تلميح إلى الآية الكريمة 283 من سورة البقرة "...وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ"

2 تلميح إلى الآيتين الكريمتين 8و9 من سورة التكوير "وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"

3 اقتباس الآية (6) من سورة المزّمّل وهي:{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً}

مَوْلِدَ النُّورِ وَالسُّـــرُورِ تَجَلَّى　　كَـاشِف الْغَـمِّ نَتَّخِذْهُ وَكِيلاَ

وَاتَّخَذْنَا الْمَقَـــامَ فِيهِ مُصَلَّى　　كَاتِّخَاذِ الْمُفِيضِ جَدِّي خَلِيلاَ

طَابَ يَاحِبَّـتِي مَقَامُ حَبِيبٍ　　قَدْ غَدَا بِالْحَبِيبِ أَهْلاً نَزِيلاَ

دُرَّةٌ عِنْـــدَمَـا أَسَرَّ بِسِرٍّ　　كَانَ لِي بِالنَّهَارِسَبْحًا طَوِيـــلاَ[1]

وانظر إليه كَيْفَ يجد في حادثة الاسراء والمعراج مجالا للشطح الصوفي في القصيدة الثامنة والعشرين [من البحر البسيط] :

فِي كُلِّ حِينٍ لَنَا فِي الْمُصْطَفَى أَمَـلٌ　　حَتَّى إِذَا حَانَتِ الإِسْرَا يُسَـــرِّينَـــا

وَكَفُّهُ مِنْ عَطَـاءِ اللهِ يَمْـنَحُنَـــا　　وَمِنْ تَدَانِيهِ يُطْعِــمُنَا وَ يَسْـقِينَـــا

لَمَّا دَنَا الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ جِيءَ بِهِ　　فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَ ازْدَانَـتْ مَرَاقِيـــنَا

حَلَّتْ عَلَى أَهْلِ هَـذَا الْحَيِّ فَرْحَتُهُ　　كُلٌّ تَخَلَّـوْا، فَلاَ مَعَنَـا.. وَ لاَ فِينَـــا

مِنْ أَوَّلِ الْبَـــدْءِ أَرْوَاحًـا إِلَى خَتَمٍ　　فِي حَضرَةِ الْقُرْبِ. مَا أَبْهَى تَلاَقِينَا!

جَمْعًاإِلَى فَرْدِهِ الْمَجْمُوعُ فِي حُجُبٍ　　وَالْكُلُّ حَشْـــدًا يُقَرِّبُنَـا وَيُدْنِينَـــا

وِقَايَةٌ خَلْـفَ سِتْرِ الْكِبْرِيَا كَرَمًـا　　كَانَتْ لَنَا فِيهِ أَسْـــتَارًا تُـــوَارِينَـا

نِلْنَا مُنَانَا، وَمَـا فَـوْقَ الْمُنَى دُرَرًا　　عَهْـدًا وَعَيْنَاهُ مِنْ سِـرٍّ سَرَى فِينَا

لَمَّا بَدَتْ شَمْـسُهُ، أَوْ جَنَّ حَالِكُهُ　　أَقْمَـــارُنَا دُونَهُ عَادَتْ عَرَاجِينَـــا[2]

إِنَّا رُعَـــاةٌ وَلَكِـنْ حِينَ صُحْبَتِـــهِ　　يُقَلِّـبُ الْكُـلُّ فِي عَيْـنٍ تُرَاعِينَـــا

---

1 اقتباس الآية (7)من سورة المزّمّل وهي :{ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً}
2 اقتباس الآية (39)من سورة يس وهي:{ وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}

الطريقة النقشبندية

كذلك، من الطرق التي انتقلت إلى تونس عن طريق الطلبة العرب الطريقة النقشبندية نسبة إلى بهاء الدين النقشبندي المتوفّى سنة 791هـ/1388م[1].

الشيخ المؤسس : هو الخوجة (الشيخ) العابد بهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي البخاري النقشبندي مؤسس الطائفة الحاملة لاسمه، وُلِد بقصر العارفان وهي الهندوان قرية قرب مدينة بخارى من أوزبكستان سنة 718 هـ[2] حوالي 1317 ميلاديا، وقد تنبأ بميلاده الشيخ محمد بابا السماسي عندما مرّ يوما من قصر العارفان. وعهد بتربيته إلى عناية سيدي أمير كُلال عن طريق شيخه الشيخ محمد بابا السماسي. أمّا التدريب الروحي فقد تلقّاه عن أُويس بن عمر القرني[3] بواسطة روح عبد الخالق الغُجدواني[4].

---

1 ننقل عن كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية، ص532-521.

2 نقل كوبولاني هذه التواريخ من كتاب "جامع الأصول" للشيخ أحمد الكمشخانوي النقشبندي الخالدي فجعل سنة 718هـ سنة ميلاد الشيخ بهاء الدين وسنة 791هـ/1388م سنة وفاته.

3 أُويس بن عمر القرني توفي سنة 37 للهجرة (657-58 م) لم يتصل بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو من أهل اليمن وكان مجاب الدعوة وأوصى به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خيرا، واتصل به الخليفة عمر بن الخطاب ودعا له نزولا عند وصية رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وهو مؤسس الأويسية وقد تلاشت الآن تماما، وحسب الشيخ السنوسي يعتبر هذه الطريقة أحسن مرتكزاته إذ يتلقى المريدون فيها الإعداد النفسي من روح الشيخ أويس، أما لدى النقشبندية فكل الشيوخ الّذين تحصّلوا هكذا على هذا الإعداد يسمّون الأويسيين. كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية.

4 ولد عبد الخالق الغجدواني بقرية غجدوان القريبة من بخارى ونشأ وتوفّي ودفن بها. سأل الغجدواني شيخه

يذكر الشيخ أحمد الكمشخانوي[1] في كتابه "جامع الأصول في الأولياء" المطبوع بالقاهرة سنة 1298هـ/1880م. أنّ شاه النقشبند بهاء الدين كان خليفة للقادرية والسهروردية والكبروية والجشتية وستّ وثلاثين طائفة أخرى عددها الشيخ أحمد. ويقدّم كتاب "الحدائق الوردية" تعداد الشيوخ المربين اللاحقين بالطائفة النقشبندية بالقادرية والسهروردية والكبروية والجشتية.

وتوفّي الشيخ بهاء الدين النقشبندي سنة 791هـ/1388م، ودفن ببخارى مسقط رأسه. وترك طريقته المنتشرة في الصين وتركستان والهند وتركيا، وكتاب:"الأوراد البهائية" وكتاب:"سلك الأنوار وهداية السالكين".

يقول"كوبولاني": بهاء الدين محترم في التركستان، ويأتيه الزوّار من أقصى الصين لتقديم الترّحمات على قبره المنصوب في روضة على بعد ثمانية كيلومترات من بخارى.

هذا ما رواه"كوبولاني "ورفيقه" ديبون"في كتابهما "الطوائف الدينية". أمّا ماورد في "الفتوحات الحقانية في مناقب أجلاّء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية العلية" لعدنان محمد القبّاني: فإن اسم الشيخ هو محمد بن محمد بن محمد بهاء الدين الشاه

عن حقيقة الذكر الخفي وكيفيته، لأن العبد إذا ذكر جهرا وبتحريك الأعضاء اطلع عليه النّاس، وإن ذكر في قلبه فإن الشيطان يطّلع عليه لأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق1)نا به بخطهم السيد شكري سفطة طبيب أسنان لباني الأصل ويقوم ببعض خواتيم الخواجكان والحضرة الجماعية، ين بتونس ولهم اجتماعات بدار. وما لبث أن اهتدى إلى طريقة في الذكر، وهي أن يغطس في الماء ويذكر بقلبه "لاإله إلا الله محمد رسول الله" فكان أول من اشتغل بالذّكر الخفي على هذه الطريقة وأوّل من أدخل هذا النوع من الذكر في التصوّف. ولازم الشيخ يوسف الهمذاني، لكنّ الشيخ أقرّ تابعه على طريقته لأنها طريق الصدق والوفاء ومتابعة الشرع وسنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ومجانبة البدع، ومخالفة الهوى. وسافر إلى الشام حيث بنى زاوية وربّى الكثيرين وترك العديد من الخلفاء في مدن وقرى العالم الإسلامي لا سيما في وسط غرب آسيا.ووضع الغجدواني"الختم"النقشبندي وترك عدّة وصايا شرحها أبو الخير فضل بن روزبهان خواجه مولانا الأصبهاني منها قوله"يا بني أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم السنّة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلين، ولازم صلاة الجماعة، وإيّاك والشهرة، فإنّها آفة، وكن واحدا من الناس ولا تمِل لمنصب ولو كان محمودا"(محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص16)

1 هوأحمد بن مصطفى بن عبد الرحمان الكمشخانوي النقشبندي ولد في كمشخانة بولاية طرابازون سنة 1277هـ/1812م. تعلّم بالآستانة ثم انصرف إلى الوعظ والإرشاد والتأليف، ثم رحل إلى مصر حيث أقام فيها ثلاث سنوات أنشأ خلالها مطبعة لطبع الكتب وتوزيعها مجانا على فقراء العلماء.ثم عاد إلى الآستانة وأنشأ فيها ثلاث مكتبات للجمهور وظل ينشر العلم حتّى وفاته سنة 1311هـ/1893م. له نحو خمسين كتابا منها "جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأصنافهم وأصول كل طريق" وكتاب"روح العارفين ورشاد الطالبين في التصوّف" (محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص71).

نقشبند الأويسي البخاري، وأنّه وُلد في 14 محرم الحرام سنة 717 هـ وعندما بلغ سنّه ثمان عشرة سنة أرسله جدّه إلى سماس لخدمة العارف الشيخ محمد بابا السماسي[1] الذي تنبأ بميلاده من قبل وبشّر به، فتلقّى الطريقة عنه[وأخذ عنه السكينة والخشوع والتضرّع][2] وبقي معه حتى توفّي، فصحب الشيخ أمير كلال. قال الشيخ بهاء النقشبندي:" ولما توفي حضرة الشيخ محمد بابا السماسي قدس سره أخذني الجدّ إلى سمرقند، فكان كلّما سمع برجل صالح من أهل الله حملني إليه وسأله الدعاء لي فكانت تنالني بركتهم حتّى أتى بي إلى بخارى وزوّجني بها، وكانت إقامتي بقصر العارفان.

ومن العناية الإلهية بي أنّه وصلت إليّ قلنسوة العزيزان[3] في تلك الأوقات فتحسّنت أحوالي وقويت آمالي إلى أن حظيت بصحبة السيد أمير كُلال قدّس سره وأخبرني بأنّ حضرة الشيخ محمد بابا السماسي قدس سرّه أوْصاه بي .." ثمّ صحب من بعده السيد أمير كُلال. قال الشيخ متحدّثًا عن نفسه أنه اشتغل في أوائل الطلب والجذبة بجبر الخواطر وخدمة العاجزين والضعفاء الذين لا يكترث بهم أحد من الناس مع المحافظة على تمام المسكنة والتواضع والانكسار، ثم أُمر بخدمة الحيوانات ومداواة أمراضها وجروحها بنفسه مع الإخلاص والتذلّل، ثمّ دخل في خدمة الكلاب حتّى أنه إذا اعترضه كلبٌ في الطريق وقف له حتّى يمرّ، فكان يعمل ذلك بصدق طوية وإخلاص نية حتّى فتح له.

واتصل بأمير كُلال[4] فلقّنه الذكر بالنفي والإثبات خفية وهو قول{ لا إله إلاّ الله}

---

1 هو الشيخ محمد بابا السماسي ولد بسماس على بعد ثلاثة أميال من بخارى، أتقن العلوم العقلية والنقلية، ثم صحب العزيزان (علي الراميتني) وأقبل على المجاهدات والرياضات ففاق الأقران، وقد أوصى شيخُه بخلافته من بعده، وتوفي محمد بابا سماسي بسماس تاركا عددا كبيرا من المريدين والخلفاء أشهرهم أمير كُلال. (محمدأحمددرنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص131).

2 ما بين [..] إضافة من (محمدأحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص18)

3 العزيزان هو أحد أفراد السلسلة النقشبندية من أشياخ شاه النقشبند وهو الشيخ علي الراميتني من قرية راميتن بالقرب من بخارى سلك على يد الشيخ محمود الأنجيرفغنوي وورثه توفي سنة721هـ/1321م.وعاش مائة وثلاثين سنة، له شعرجيّد بالفارسية وقد عُرّب بعضه :منه :

مَنْ لَمْ تُفِدْكَ حُضُورَ الْقَلْبِ صُحْبَتُهُ ... وَعَنْكَ غَيْمَ الْهَوَى وَالنَّفْسِ مَا كَشَفَا
إِنْ لَمْ تُفَارِقْهُ تَحْصِيـلاً لِجَمْعِـكَ لَمْ ... تَقْبَلْكَ رُوحُ الْعَـزِيزَانِ الَّذِي عـرَفَـا

وقال أيضا :

إِذَا رُمْتَ قُرْبَ الْحَقِّ دَعْ كُلَّ فِرْقَةٍ ... وَفِرْقَةَ أَهْلِ الْحَقِّ بِالصِّدْقِ فَاصْحَبِ
وَإِنْ رُمْتَ إِمْدَادَ الْعَـزِيزَانِ فَأْتِهِ ... عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنَيْنِ سَعْيًـا تَـقَرَّبِ

(عن محمدأحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص115).

4 أمير كُلال شيخ شاه نقشبند ولد وتوفي بقرية سوخار القريبة من بخارى، لما شبّ حذق فنّ المصارعة.ولمّا شاهد الشيخ محمد بابا السماسي انجذب نحوه ولازم صحبته عشرين عاما، أتقن الذكر وأصول الطريقة، ودخل

وأمره بالاشتغال به، ثّم لازم العلماء لاقتباس العلوم الشرعية واقتفاء آثار الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثمّ اجتهد بالخلوات والرياضات والتقرّب إلى الله حتّى بلغ درجات رفيعة، فكان يحضر بالبستان الذي فيه ضريحه مع جماعة فتغلب عليه الجذبات فيغيب ويرى الرؤى، ويبقى هكذا الساعات الطوال، ثم يرجع إليه رشده. وحجّ ثلاث مرات، ومرّ أخيرا بِمَرَوْ فأقام بها مدّة، ثّم انتقل إلى بخارى وأقام في قصر العارفان وكان يعرف قبل بقصر الهندوان، فطار صيت إرشاده في كل مكان وقصدت الناس رحابه من كل البلدان.

ولماّ بلغ سبعا وسبعين سنة مرض مرضه الأخير، فخرج إلى الرباط ودخل خلوته، وطفق أصحابه يتوافدون عليه وهو يوصي كلّ واحد منهم بما يناسبه، حتّى بلغ ليلة الاثنين الثالث من ربيع الأوّل سنة 794 هـ أخذ أصحابه في تلاوة سورة"يس" فلمّا أتمّوها رفع شاه نقشبند يديه بالدعاء، فدعا ثمّ مسح وجهه ولبّى داعي ربّه وارتحل إلى الرفيق الأعلى. ودفن ببستانه كما أوصى، وجاء أتباعه من بعده وبنوا على قبره قبّة عظيمة وحوّلوا البستان إلى مسجد فسيح، وبالغ الملوك بعده في الاعتناء بالقبّة والمسجد ووقفوا الأوقاف الكثيرة عليهما.

لشاه نقشبند صلوات على الرسول صلّى الله عليه وسلّم منها:"اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الْحَقُّ الْمُبِينُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نِبْرَاسِ الأَنْبِيَاءِ وَنَيِّرِ الأَوْلِيَاءِ، وَزِبْرِقَانِ الأَصْفِيَاءِ وَضِيَاءِ الْخَافِقَيْنِ"، كما ترك عدّة رسائل منها "الأوراد البهائية" وقد قام أتباعه بشرحها وسموها "منبع الأسرار"، و"تنبيه الغافلين" و"سلك الأنوار" و"هدية السالكين وتحفة الطالبين"، واشتهر بنظم بعض الأبيات الحكمية بالفارسية قام مريدوه بتعريبها من ذلك قوله :

أَتَيْنَـاكَ بِالْفَقْرِ لاَ بِـالْغِنَى وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُحْسِنَا [من بحرالمتقارب]

أوقوله : مَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ تَبَرَّأَ مِنْ فَتًى يُؤَخِّرُ فِعْلَ الْيَوْمِ مِنْهُ إِلَى الْغَدِ [من البحرالطويل]

ومن أقواله، وقد سئل عن اطلاع أهل الله على الخواطر الخفية والأحوال:"بنور الفراسة التي أكرمهم بها الله تعالى كما ورد في الحديث:{اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر

الخلوة وأكثر من النوافل، وكان يزور شيخه في سماس كل اثنين وخميس، ولمّا توفّي السماسي خلفه في مشيخة الطريقة (درنيقة، 74).

بنور الله}" وطلب منه مريدوه إظهار كرامة فقال:"مَشْيُنَا على الأرض مع وُجود هذه الذّنوب أظهرالكرامات" وقال أيضا:"الصلاة والصيام والمجاهدة هي طريق الوصول إلى الله". وسئل: بماذا يصل العبد إلى طريقكم ؟ قال:" بمتابعة سنّة رسول الله. إن طريقنا من النوادر، وهي العروة الوثقى، وما هي إلا التمسّك بأذيال متابعة السنّة السّنيّة واقتفاء آثار الصحابة الكرام". ويقول معلّلا اقتصاره على السرّ في الذكر:"هناك طريقان في الذكر سرّ وجهر، فاخترت منهما السرّ لأنّه أقوى وأولى".

وينقل النقشبندية عنه أنّه كان زاهدا متقشّفا حريصا على الكسب الحلال، فكان يأكل خبز الشعير الّذي يزرعه بنفسه، وكان يلبس جبّة من الصّوف، وكان محبّا للفقراء يصنع لهم الطعام بيده ويخدمهم ويواسيهم، لذلك أحبّه الجميع واعترفوا بفضله.

أخبار الطريقة : تأسست الطائفة النقشبندية ببخارى حوالي القرن الثامن للهجرة الرابع عشر الميلادي، طبعا على يد صاحبها محمد بهاء الدين الأويسي البخاري المعروف بنقشبند. وتتألف السلسلة الذهبية لشيوخها على هذا النحو: الملاك جبريل عليه السلام فمحمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه، فسلمان الفارسي رضي الله عنه، فالقاسم بن محمد بن أبي بكر الصّدّيق، فجعفر الصادق، فأبو يزيد طيفور بن آدم بن سروشان البسطامي المتوفّى سنة 264هـ/877 م، فأبو الحسن الخرقاني [لعله المتوفى سنة425هـ/ 1033م]، فأبو علي الفارمدي[1] فيوسف الهمذاني فعبد الخالق

1 هو أبو علي الفضل بن محمد الفارمدي الطوسي نسبة إلى فارمد من قرى طوس، كان عالما شافعيا تفقه على الغزالي الكبير وأبي عثمان الصابوني، وصحب القشيري، وأخذ عنه حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي، تلمذ لأبي القاسم القشيري ولأبي القاسم الكركاني وأبي الحسن الخرقاني الّذي ربّاه وصبّ في صدره العلم الشريف الّذي صبّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صدر أبي بكر الصدّيق. واتّصل بخدمة الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير من بلدة ميهنة وتبعه إلى محلّه، ولمّا سافر الشيخ إلى نيسابور رجع أبو علي إلى خدمة شيخه أبي القاسم القشيري، ثم توجّه إلى طوس لخدمة أبي القاسم الكركاني فتتلمذ عليه وأخذ عنه الرياضات وتزوّج من ابنته. ثم توجّه إلى أبي الحسن الخرقاني وبقي عنده حتّى تحقق بالبقاء في الله بعد الفناء فيه، وانتقل إليه السرّ الأعظم من قلب أبي الحسن الخرقاني وتولّى بعده الإرشاد والتسليك للمريدين والطالبين حتّى توفّي سنة447هـ وخلفه يوسف الهمذاني.(بتصرف عن عدنان محمد القباني، الفتوحات الحقانية، ص126) ويعلّق كوبولاني:"من أبي علي الفارمدي تتصل السلسلة بعلي بن أبي طالب عن طريق أبي القاسم الخرقاني فأبي عثمان الغربي فأبي علي الكاتب فأبي علي الروذباري فأبي القاسم الجنيد البغدادي فالسري السقطي فمعروف الكرخي[ومن معروف الكرخي، داود الطائي، وحبيب العجمي والحسن البصري، فعلي بن أبي طالب وتصل السلسلة أيضا إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم] ومن معروف الكرخي، إذن، علي الرضا [وهو الإمام المقدّس الأجل لدى الشيعة الفرس الّذي وقع تعيينه من الخليفة المأمون لخلافته، لكن العائلة العباسية هددت بالثورة وكذلك الجند والموظفون ؛ فاضطر المأمون إلى إرجاع الهدوء، ووقع تسميم علي الرضا. والمكان الّذي مات فيه وهو مسجد علي مازال مزارا كبيرا

الغجدواني فعارف الريكوري فمحمود الإنجيرفغنوي فعزيز بن علي الراميتني المتوفّى سنة 721 هـ/ 1321 م، فبابا السماسي فأمير كُلال[1] فمحمد البخاري الأويسي شاه نقشبند بهاء الدين.

وتشمل السلسلة التالية شيوخ التربية الّذين خلفوا الشاه النقشبندي بهاء الدين وهم: الشاه النقشبندي بهاء الدين محمد البخاري، ثم علاء الدين العطار[2]، ثم يعقوب السمرقندي الـچرخي الحصاري، ثم عبد الله الأحرار السمرقندي، ثم محمد الزاهد بدخشي، ثم درويش محمد، ثم محمد الأمكنكي، ثم محمد الباقي، ثم أحمد الفاروقي السرهندي، ثم محمد المعصوم، ثم سيف الدين، ثم نورالدين محمد البدواني، ثم شمس الدين، ثم حبيب الله، ثم جان جنان مظهر، ثم عبد الله شاه الدهلوي [وهذا هو الشيخ الّذي أمدّ الشيخ السنوسي بالورد والإجازة النقشبندية] ثم ضياء الدين، ثم محمد خالد العثمان النقشبندي، ثم الحاج أحمد بن سليمان الطرابلسي (طرابلس الغرب) وعنه أخذ الطريقة أحمد الكمشخانوي النقشبندي (طرابلس الغرب) وهو مؤلف كتاب "جامع الأصول في الأولياء" المطبوع بالقاهرة سنة 1298هـ/1880م.

هذه سلسلة الغرب على ما يظهر كما وصفها"كوبولاني". أمّا عدنان القباني[3] فقد سرد سلسلة أخرى تظهر أنها شرقية وهي أنّ خليفة الخواجة بهاء الدين النقشبندي محمد الأويسي البخاري هو محمد علاء الدين البخاري الخوارزمي العطار، ثمّ يعقوب الـچرخي(التشرخي)السمرقندي، ثمّ ناصرالدين عبيد الله الأحرار الشاشي السمرقندي، ثم محمد الزاهد القاضي، ثمّ الدرويش محمد السمرقندي، ثمّ محمد الخواجگى الأمكنكي

للفرس.] علي الرضا، إذن فموسى الكاتم، فالإمام جعفر الصادق، فمحمد الباقر، فعلي زين العابدين فالحسين فعلي بن أبي طالب فمحمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ."

1 يعلق كوبولاني في الهامش فيقول: أنه في"الحدائق الوردية"[وهوكتاب كتب سنة 1306 هـوطبع بالقاهرة سنة 1308هـ/1890م]: بعد عبد المجيد بن محمد الخاني الخالدي النقشبندي نجد أمير كُلال قبل بابا سماسي وهو الصحيح فالأوّل كان تلميذا للثاني.

2 هو محمد بن محمد علاء الدين البخاري العطّار ولد ببخارى وتنازل عن ميراثه لأخويه، وطلب العلم في بخارى، ثمّ صحب شاه نقشبند وسلك على يديه وتزوّج من ابنته؛وكان من أهل الصحو، فكان مقرّبا من شيخه. توفّي سنة 802هـ/1399م. ودفن في جفانيان من أعمال بخارى ؛وخلفه في مشيخة الطريقة ابنه حسن المتوفّى سنة 826هـ/1422م. ومن أقواله:"الخَيْرُ وَأَقْوَمُ أَنْ تَكُونَ بِجَانِبِ اللهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ بِجَانِبِ خَلْقِ اللهِ" وقوله:"إِلاَمَ تَعْبُدُ قُبُورَ الأَوْلِيَاءِ؟ إِشْغَلْ نَفْسَكَ بِأَعْمَالِهِمْ تَكُنْ مِنَ النَّاجِينَ.".

3 عدنان محمد القبّاني، النفحات الحقانية في مناقب أجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية، ص 37، 38، 39.

السمرقندي، ثم مؤيد الدين محمد الباقي، ثمّ أحمد الفاروقي السرهندي، ثمّ محمد المعصوم، ثمّ محمد سيف الدين الفاروقي المجددي ثمّ نور محمد البداوني، ثم شمس الدين حبيب الله جان جانان مظهر، ثم عبد الله الدهلوي المعروف بغلام عليٍّ، ثمّ خالد بن حسين الشهرزوري، ثمّ إسماعيل الأناراني، ثمّ خاص محمد الداغستاني، ثمّ محمد أفندي اليراغي، ثم جمال الدين الغموقي الحسيني، ثم أبو أحمد عبد الرحمان الصغوري، ثم أبو محمد المدني، ثّم شرف الدين الداغستاني، ثمّ عبد الله الفائز الداغستاني، ثم محمد ناظم عادل الحقاني النقشبندي المولود في 21 أفريل 1922 الموافق ليوم الأحد 26 شعبان الأكرم 1341 هـ بأسكلة-لارنكا مدينة من جزيرة قبرص.كما ذكر محمد درنيقة في كتابه "الطريقة النقشبندية وأعلامها" سلاسل أخرى.

ويقول"كوبولاني": وككل الطرق الأم، تفرعت النقشبندية شيئا فشيئا بحسب تطوّرها إلى فروع مستقلّة، ربما تنقسم هي نفسها إلى جماعات، لكنّ مركزها الرئيسي هو بخارى.

وحوالي بداية القرن الثالث عشر الهجري، زمن حدوث حركة التجديد الديني الناتجة عن الهجومات التي وجهتها الأمم المسيحية ضدّ الخلافة العثمانية، حاول الشيخ ضياء الدين زين الغنيهين مولانا خالد أن يوحّد مختلف الفروع النقشبندية المنتشرة بتركيا في صف واحد. ولكن، مجرّد وفاته رجع كلّ فريق إلى استقلاله، وبلغت الفرقة ذروتها في أوائل القرن الرابع عشر الهجري.

إذن، الزاوية الأم في بخارى، أما بإسطمبول فنعدّ أكثر من أربعين تكية (زاوية) وتوجد زوايا بكامل تراب تركيا. أما بمصر فليس للنقشبندية هناك إلا زاوية مهجورة، لكن بالسعودية هناك زاوية بجدة وعليها مقدم، وأخرى بالمدينة المنوّرة.

أما بسمرقند فالزوايا عديدة، وكذلك بمَرْوْ وخِيوة، وطشقند، وهراة، ونجد مريدين حتّى بالتركستان الصيني وخوخند بالشرق وفي أفغانستان وفارس (إيران) وبلوخستان والهند؛ وكل هذه الفرق حافظت على التسمية الأم، ولكن بعضها وضع نفسه تحت إشراف الشيوخ التي أسسوها مثل: السليمانية والبقتشيّة والعلوانية والبيرمية والملامية.

وانتشرت النقشبندية بمبادئها وزواياها بتركيا الأوروبية كما بتركيا الآسيوية، غير أنّ أصلها واتجاهاتها لم تسمح لها بالانتشار في إفريقيا، فهي ليست معروفة هناك البتّة، رغم كونها مثل بقية الطوائف الأخرى التي نجحت في نشر تعاليمها لدى الجموع الشعبية، ففتنتها وأدخلتها تحت نفوذها. هذا ما ورد عن"كوبولاني"أي حوالي 1890م، أمّا الآن فيظهر أنها انتشرت بمصر والعراق وسوريا وكامل الشرق الأوسط وهي تتسلّل إلى المغرب العربي، وقد يكون لها في مستقبل الأيام انتشار أكبر.

ونورد فيما يلي أشعار بعض النقشبندية وأخبارهم:

فنبدأ بالشيخ إلياس كرم[1]، قال [من البحر الطويل]:

وَحَقِّ الْهَــوَى إِنِّي بِحُبِّــكَ مُغْرَمُ ... وَفِي الْقَــلْبِ أَشْــوَاقٌ وَ فِيهِ تَضَــرُّمُ

مَشُــوقٌ لِذَيَّاكَ الْجَمَــالِ وَ إِنَّنِي ... أُسَامُ بِهِ نَفْــسِي وَمَــالِي وَأُعْــدَمُ

وَفَاجَأَنِي هَــذَا الْغَــرَامُ وَإِنَّــنِي ... فَقِيرٌ وَفِي شَرْعِ الْهَوَى لَسْتُ أَعْلَـمُ

وَمَا هُـوَ إِلاَّ أَنْ سَلَكْتُ طَرِيقَـةً ... أَدِلاَّؤُهَــا كُلٌّ شُمُــــوسٌ وَأَنْجُـمُ

طَرِيقَتُنَا لِلنَّقْشَــبَــنْدِ وَخَــالِدٍ[2] ... طَـرِيقُ وُصُولٍ، لاَ كَمَــا يُتَوَهَّــمُ

***

فَشَــاهَدتُ أَنْوَارًا وَحُزْتُ مَعَارِفًا ... وَمِلْتُ عَنِ الدَّارَيْنِ أَنْ ثَــمَّ أَكْـرَمُ

فَأَصْبَحْتُ ذَاشَوْقٍ لِرَبِّي وَلَمْ أَكُنْ ... كَذَاكَ، فَأَيْنَ الْمُنْكِرُونَ؟ لَقَدْ عَمُوا!

1 إلياس كرم المتوفّى سنة 1383هـ/1963م أسلم على يد الشيخ ذي الفقار (الكردي الأصل) وسلك عليه النقشبندية. كان الشيخ إلياس غزير النظم لاسيما في المناجاة الإلهية وفي مدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومدح شيخه النقشبندي (درنيقة، 139).

2 هو خالد بن حسين الشهرزوري العثماني الشهير بذي الجناحين ولد سنة 1193هـ/1779م بقرية (قرةداغ) القريبة من السليمانية شمال العراق .حفظ القرآن ودرس الصرف والنحو والفقه على المذهب الشافعي، ومال منذ نعومة أظفاره إلى الزهد والإقبال على الجوع والسهر منقطعا للعبادة والتبتّل، ثم قام برحلات عديدة، ورجع إلى وطنه ودرس على مشائخ منهم عبد الكريم البرزنجي وشقيقه عبد الرحيم.و سلك الطريق على يد الشيخ عبد الله الدهلوي النقشبندي حتّى نصّبه شيخه خليفة له. وساح في عديد البلدان ودرّس وحاضر. وتوفّي عام 1242هـ/1826م ودفن بسفح جبل قاسيون. أفرد له محمد أحمد درنيقة في الطريقة النقشبندية وأعلامها ترجمة حافلة بالصفحة 79.

ويقول محمد الحامد[1] [من البحر الكامل] :

يَا أَرْحَمَ الرُّحَمَاءِ مَالِيَ حِيلَةٌ إِلاَّ الرُّجُوعَ إِلَيْكَ يَارَبَّاهُ !

أَنَا قَدْ أَسَأْتُ وَأَنْتَ رَبٌّ غَافِرٌ غَوْثَاهُ مِمَّا قَدْ عَرَا غَوْثَاهُ !

يَا سَيِّدِي.يَا مَنْ إِلَيْهِ شِكَايَتِي أَوَّاهُ مِمَّا نَابَنِي ! أَوَّاهُ !

أَدْرِكْ بِلُطْفِكَ نَادِمًا ذَا حَسْرَةٍ مُسْتَغْفِرًا مِمَّا جَنَتْهُ يَدَاهُ

مَا لِلضَّعِيفِ إِذَا أَلَمَّتْ كُرْبَةٌ إِلاَّ الدُّعَاءَ : اَللهُ يَا أَللهُ!

ويقول من[البحر الخفيف] :

خَطَرَاتُ الْهَوَى تَرُوحُ وَتَغْدُو وَلِقَلْبِ الْمُحِبِّ حَلٌّ وَ عَقْدُ

وَأَخُو الْحُبِّ بِالْوَفَاءِ مُوَافٍ أَمْرُهُ فِي الْغَرَامِ صِدْقٌ وَ عَهْدُ

شَوْقُهُ طَائِرٌ إِلَى الحُبِّ مَا لِلشَّوْقِ فِي مَذْهَبِ الْمُحِبِّينَ حدٌّ

رَبِّ! عِدْ بِالْحَنَانِ وَارْحَمْ عُبَيْدًا مَا لَهُ مِنْ سُؤَالِ عَفْوِكَ بُدُّ

وَأَذِقْهُ مِنَ الرِّضَا نَفَحَاتٍ مَا إِلَيْهِنَّ فِي الْمَذَاقَةِ شَهْدُ

صَلِّ رَبِّي دَوْمًا عَلَى قَلْبِ حِبِّي وَ عَلَى الآلِ مَا تَرَدَّدَ حَمْدُ

مَعْ سَلاَمٍ تَهْنَا بِهِ الرُّوحُ مِنْهُ مَا تَغَنَّى حَادٍ وَأَقْمَرَ سَعْدُ

ويقول محمد جميل الخطيب[2] [من البحر البسيط]:

يَا ذَا الجَلاَلِ! وَيَا مُتَعَالِ! يَا أَبَدِي! أُمْنُنْ بِفَضْلِكَ ... بَلِّغْنِي مَآرِبِي

1 محمد الحامد ولد بحماة سنة 1328هـ/1910م وعندما بلغ ستّ سنين توفّي أبواه في الحرب العالمية الأولى حيث الجوع والخوف. تلقّى دروسه الابتدائية بحماة، وفي سنة 1343هـ/1924م دخل المدرسة الشرعية بحماة وكان يحضر حلقات العلم بمساجد المدينة. وفي عام 1347هـ/1928م سافر إلى حلب لإتمام دراسته الشرعية، فالتقى بالشيخ أبي نصر خلف الحمصي وسلك عليه الطريقة النقشبندية. وسافر إلى مصر للدراسة العليا في الأزهر حيث أنهى دراسته سنة 1362هـ/1942م ورجع إلى حماة ليناضل ضد الاستعمار والصهيونية ويدرّس ويحاضر حتّى وافاه الأجل عام 1389هـ/1969م ودفن بحماة تاركا كتبا.

2 محمد جميل الخطيب كان حيّا في حدود سنة 1376هـ/1956م. وكان يكنّي نفسه محمد جميل آل الخطيب الأشعري اعتقادا الشافعي مذهبا النقشبندي طريقة الطانشماني مولدا وموطنا (درنيقة، ص134).

رَبَّاهُ! رَبَّاهُ! يَـــا غَوْثَاهُ! جُدْ كَـرَمًـا   عَلَى عُبَيْدِكَ فِي حَرْبِ الْمَحَـــابِيبِ

يَا غَافِرَ الذَّنْبِ! يَا سَـــتَّارَ لِلْعَيْبِ   يَا كَاشِفَ الْكَرْبِ اِمنَحْنِي مَطَالِبِي

أَتَيْتُ إِلَيْكَ أَشْكُو الْحَالَ، يَـــا أَمَلِي   أَجِبْ سُؤَالِيَ لُطْـفًـــا فِي أَسَـــالِيبِي

عِلْمُكَ بِحَالِي، إِلَهِي!يُغْنِ عَنْ طَلَبِي   فَأَنْتَ وَهَّـــابٌ! عَجِّـلْ لِي مَوَاهِيبِي

ويقول أيضا [في شكل التلميع] :

صَلَوَاتُ الرَّحْمَانْ * وَسَلاَمُ الْحَنَّـــانْ * عَلَى مَنْ بِالْهُـدَى * جَاءَنَا وَالْقُـــرْآنْ

الرَّسُـــولُ الـنَّبِي * مَدْحُهُ مَكْسَبِي * نَسْــلُهُ عَــرَبِي * مِنَ اوْلاَدِ عِدْنَـانْ

إِنَّ اللهَ أَمَــــرْ * فِي الْقُرْآنِ الْبَشَرْ * أَمْـرُهُ مُعْـتَـبَـرْ * بِالصَّلاَةْ يَا إِخْوَانْ

يَا إِخْوَانِي صَلّـُوا * عَلَيْهْ لاَ تَـمَلُّـــوا * بِالصَّـلاَةِ حَلُّـــوا * ذِكْــرُهُ كُــلَّ آنْ

فَصَلاَةٌ مَــــرَّةْ * مِنْكُـمُ مَسَـــرَّةْ * عَلَيْـكُمْ عَشْرَةْ * مِنَ اللهِ الْمَنَّـــانْ

ويقول الشيخ عمر بن عبد الغني الرافعي الفاروقي[1] [من البحر الخفيف] :

وَأَخٍ لِي فِي اللهِ لَمَّـــــا رآنـــي   خَالِيًا مِنْ مَشَـاغِلِي الْكَسْبِـيَّة

قَالَ لِي غِيـرَةً مَقَــــــالَةَ حَقٍّ   اِشْتَغِلْ بِالطَّرِيـقَةِ النَّقْـشِيّـــة

أَيُّ شُغْلٍ لِلعَبْـدِ مِنْ دُونِ ذِكْـرِ   اللّهِ يُعْلِيـهِ لِلسَّــمَـــاءِ الْعَـلِيَّة

كُنْ مَعَ الْحَقِّ لاَمَعَ الْخَلْقِ تَرْقَى   كُنْ مَعَ اللهِ فَهْـيَ خَيْرُ الْمَعِيَّة

---

1 عمر بن عبد الغني الرافعي الفاروقي ولد سنة 1299هـ/1881م في صنعاء باليمن، درس في طرابلس (لبنان) ثم في بيروت، ثم درس الحقوق في استنبول وسافر إلى القاهرة لتكملة الدراسة في الأزهر. وفي سنة 1324هـ/1906م.أراد أن يُصدر جريدة فلم يحصل على الإذن، فرجع إلى طرابلس واشتغل بالمحاماة ثم موظفا بنظارة العدلية بالدولة العثمانية.وفي الحرب العالمية الأولى حكم عليه الإتحاديون بالإعدام ثمّ خفّفوه إلى المؤبّد، وأُطلق سراحه عند انهزام الإتحاديين عام 1337هـ/1918م. وعيّن قاضيا للتحقيق في بيروت ثم صيدا فعدّة مدن أخرى ...وأحيل على التقاعد سنة 1349هـ/1930م. فاعتزل المناصب ومال إلى النقشبندية، واتّصل بالشيخ ذي الفقار بطرابلس وسلك عليه بالزاوية الشمسية قرب الجامع المنصوري الكبير[فقال من البحر الطويل]:

إِلَى ذِي الْفِقَارِ الْخَالِـدِيِّ شَيْخِنَا   الْكُرْدِي تَقَرَّبْ وَلُذْ بِالْمُــرْشِدِ الْفَـرْدِ

وَأَيْـقِنْ بِأَنَّ الشَّيْخَ قُطْبُ زَمَـانِهِ   كَمَا كَانَ شَيْخُ الْجِدِّ مَحْمُودُنَا الْكُـرْدِي

فَيَا بَـارَكَ اللهُ فِي الْكُـرْدِ كُلِّهِـمْ   إِذَا كَانَ قُطْبُ الْوَقْتِ مِنْ أُفْقِهِمْ يَهْدِي

وعند وفاة الشيخ عمر رثاه كبار الأدباء والشعراء (درنيقة، 118 - 120).

وكان رضي الله عنه يحاول تقريب وجهات النظر وعدم التفريق وإزالة الفوارق وذلك أصل من أصول النقشبندية فقال [من البحر الخفيف] :

لاَ تَقُولُوا سُنِّي وَشِيـعِي لاافْتَرَقَا   لاَ تُبِيحُوا الْمَقَالَ وَهْوَ حَرَامُ

نَحْنُ فِي الدِّيــنِ إِخْـوَةٌ إِي وَرَبِّي   إِنَّمَا الدِّينُ عِنْدَهُ الإِسْـــلاَمُ

كيف دخلت الطريقة إلى تونس : في العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي، كان بعض طلبة كلية طب الأسنان بالمنستير من عراقيين ولبنانيين ومشارقة يجتمعون في غرفة أحدهم، لإقامة حضرات نقشبندية، ودعوا لها بعض الطلبة من التونسيين، فأخذوا عنهم الطريق وربّما تعرّف بعضهم بالشيخ محمد عثمان الملقب بسراج الدين الثاني بتركيا عن طريق الهاتف، وقد يكون الشيخ أذن لهم بالذكر والدخول في الطريقة، من هؤلاء الجماعة: السيد شكري سفطة والسيد محمد الدقدوق والشيخ محمد الشتيوي مدير كلية الشريعة وأصول الدين بتونس، ولهم اجتماعات بدار أحدهم بالوردانين، ويقود الفرقة طبيب أسنان لباني الأصل ويقوم ببعض خواتيم الخواجكان والحضرة الجماعية، غير أنهم لم يتمكنوا من إحداث جماعة يعتدّ بها خصوصا وقد انقطع اتّصالهم بالشيخ إثر وفاته منذ بضعة أعوام تقريبا.

ووالد محمد عثمان واسمه علاء الدين العثماني هو الّذي أحيا الطريقة بتركيا، في هذه السنوات القريبة، بعد خمول، وتركها في يد ابنه سراج الدين الثاني الذي توفي منذ بضع سنوات تقريبا فانقطعت بموته الرابطة الروحانية التي يستحضرها المريد ساعة بدء الذكر. وقد عثرنا في كتاب "أعمال ملتقى التصوّف الإسلامي العالمي" الصادر بالجماهيرية سنة 1995 على أسماء بعض شيوخ الوقت منهم الشيخ عثمان سراج الدين بتركيا، والشيخ أحمد كفتارو مفتي سورية ومجمعه الشهير، والآن الشيخ رجب ديب أدام الله بقاءه وهو المدرس بإدارة الإفتاء، والشيخ أحمد حسونة بسوريا، والشيخ محمد جوسي بسيريلنكا، وممثل الشيخ علاء الدين النقشبندي وغيرهم ... وهكذا تكون عادة الاتصال بالروحانية الحيّة ما زالت بصدد الممارسة وكأنها استعمال ما يسمّى بالتليباثيا (Télépathie). غير أنّ الواقع هو محاولة التلميذ استحضار صورة أستاذه حتّى إذا تمثّلها أصبح يشعر بأنّه مراقب ويخجل من عين أستاذه أن يخرج عن المعقول أو أن يغفل عن

الواجب، وهو تدريب على المراقبة وتطبيق لـ{أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك}، لذلك قال المريد بعد أن توفّي الشيخ:"لقد انقطعت الآن الرابطة"، ولكنها ستربط من جديد مع الله تعالى الحيّ الدائم الّذي لا يموت.

أصول الطريقة : (نقشبند)كلمة فارسية تتألّف من شقّين، (نقش)وهي النقش أو الطبع و(بند) الجسد أو القلب وقيل معناه (الذكر) فـ(نقشبند) هي(النقش على الجسد) أو(الطبع الّذي لا يُمحى). وأورد عدنان محمّد القباني في كتابه "الفتوحات الحقانية" ابتداء من الصفحة 347 من النسخة التي بين أيدينا دليلا للمريد النقشبندي به آداب وأوراد وأذكار الطريقة النقشبندية، فليراجع ذلك هناك.

وترمي تعاليم النقشبندية إلى إحياء تعاليم الإسلام بمجاهدة بدع المبتدعين والرجوع بالمسلمين إلى مبادئ أبي بكر الصدّيق. وحسب كتاب "جامع الأصول" أركان الطريقة ستّة وهي: 1 - الرجوع إلى الله بالتوبة والندم. 2 - التخلّي عن الدّنيا. 3 - كراهة الغنى، والتقشف والأخذ بالصرامة في الأخلاق. 4 - خوف الله وخشيته. 5 - القناعة، والتحكّم في الشهوات. 6 - الخضوع الكامل للأوامر الإلهية.

وتعتمد هذه الأركان على أصول ستّة هي :

1 - العلم. 2 - الرفق. 3 - الصبر. 4 - الرضا بكل ما يأتي من عند الله. 5 - الإخلاص. 6 - إظهار الرضا الفطري عند الاستسلام لمأمورات الله ولو ضدّ ما يحب المريد.

وقواعد الطريقة ستٌّ أيضا مثل أسسها وأصولها، وهي :

1 - المعرفة. 2 - اليقين. 3 - المروءة والكرم. 4 - الصدق. 5 - الحمد. 6 - التفكر في خلق الله. وهكذا تكون مقتضيات الطريقة ستّة أيضا وهي : 1 - الذكر. 2 - التخلّي عن الرغبات الدنيوية. 3 - التخلّي عن الدّنيا. 4 - مراقبة الدين. 5 - فعل الخير مع مخلوقات الله تعالى. 6 - عمل الصالحات.

وحقائق قوّة النقشبندية[1] ستّ أيضا: 1 - حقيقة الجذبة. 2 - حقيقة الفيض. 3 - حقيقة الإرشاد. 4 - حقيقة الطي. 5 -حقيقة التوّسل. 6 - حقيقة التوجه.

1 عدنان محمد القبّاني، النفحات الحقانية في مناقب اجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية، ص41. بدون تاريخ ولا مكان نشر.

فمدار[1] الطريقة يقوم على: التحقق بكمال الإيمان بالله وبرسوله، والتحقق بكمال الإسلام بالتزام العبد بجميع الأحكام الشرعية مع إظهار العجز والافتقار والذلّ والانكسار والتسليم والتحقق بكمال الإحسان أي تصفية العمل من طلب عوض أو قصد غرض أو رياء أي أن يكون العمل خالصا لوجه الله تعالى. هذا وقد وضع عبد الخالق الغجدواني وشاه نقشبند كلمات تعتبر الأصول الأولى للطريقة النقشبندية وهي :

وقوف زماني : وهو عبارة أن تكون واقفا على أحوال نفسك فإن كانت موافقة للشريعة مرضية لله تعالى فاشكره وإلاّ فاستغفره.(أي التفقد الذاتي المستمر)، ويقول الشيخ رجب ديب السوري المولود سنة 1931 أن الزمن واللحظات إما أن تكون لحظات تذكّر أو لحظات غفلة عند كل نفس يختلج في الصدر فإن كان الوقت مشغولا بالذكر فعلى المرء أن يحمد الله وإن شغل بغير الذكر فهو زمن غفلة وتجب التوبة منه بالاستغفار.

ووقوف **عددي** : وهو شعور الذاكر عند ذكره بعدد الذكر وهو أول درجة من درجات العلم اللدني.

ووقوف **قلبي** : وهو توجّه قلب الذاكر إلى المذكور بحيث لا يغيب عن مراقبته ولا يلتفت إلى غيره.

ونظر بر قدم : وهو أن يكون نظر السالك إلى قدميه عند سيره وأن لا ينظر إلى الآفاق وهي حالة تورث التواضع.

وهوش دردم : أي العقل في النَّفَس أي أن يحفظ العاقل نَفَسَه من الغفلة الأمر الذي يؤدّي إلى حضور القلب مع الله.

و **سفر در وطن** : وهو السفر في الوطن أي يقصدون أن السالك يتوجّه بكلّيته إلى الحقّ جلّ وعلا، ويكون السفر من بلد إلى بلد سعيا وراء المرشد الكامل أوالسفر الباطني أن يترك السالك شهواته وينتقل من الصفات الخسيسة إلى الصفات الحميدة.

و **خلوة درانجمن** : أي الخلوة في الجلوة أي وسط الناس يقول شاه نقشبند:(أن يكون العبد في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق :

---

1 محمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص22.

فَفِي بَاطِنٍ كُنْ صاحِيًا غَيْرَ غَافِلٍ   وَفِي ظَاهِرٍ خَالِطْ كَبعْضِ الأَجَانِبِ)

و **ياد كرد** : وهو (الذكر) وهو أن يغمض الذاكر عينيه ويُطبق الفم ويجعل السن على السن ويلصق اللسان بعرش الفم ويحبس النفس ويذكر بالقلب لا باللسان (لاإله إلا الله) ويقول بعد ذلك في القلب (محمد رسول الله) ويكررها على قدر قوّة النفس.

وباز كشت : وهو الأساس: (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) ولهم عبارة لطيفة: (ما ذكرناك حقّ ذكرك يا مذكور).

و **نكاه دشت** : وهوالحفظ وهو أن يُقصر الذاكر قلبه على ملاحظة النفي والإثبات ويحفظه من دخول الخواطر.

ويا داشت : وهو حضور القلب مع المذكور ومشاهدة أنوار الذات الأحدية.

والرابطة[1] : عندهم من أعظم أسباب الوصول وهي عبارة عن استحضار روحانية أئمة رجال السلسلة النقشبندية للاستفاضة من روحانيتهم لدفع الخواطر الشيطانية، وهذه الرابطة ذات وجهين: الأوّل التأسّي وهو أنها تجعل المريد مرتبطا بشيخه أي بطريقته فلا يبتدع ما ليس منها فينجو من خواطر الشيطان، والوجه الثاني زجري وهو الإحساس بالمراقبة فيضبط المريد نفسه ولا يفعل ما لا يليق. وهي على ما ذكره الشيخ رجب ديب على مراتب أربعة تبتدئ بالتخيّل، فيتخيّل المريد محبوبه الذي هو شيخه، حتّى يمتلئ خياله به فيكون مصاحبا له فينتقل إلى مرتبة التصوّر فيتصوّر صورة شيخه حتّى أنه يراه سواء في المنام أو اليقظة حاضرا معه ثم تأتي مرتبة الروح وهي التقاء روح الشيخ بروح المريد فيصبح كلامه يجري على لسانه، ثم تأتي مرتبة السرّ وهي بلوغ المريد مرتبة الفناء في محبوبه حتّى يكون كأنه هو، فيفنى فيه وتمّحي صورته أي شخصيته فيصبح كأنه امتداد له.

---

1 محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص 28 :"يستحضر المريد صورة شيخه على أكمل الأحوال ليحصل له المدد، فإنّ شيخَه بَابُه إلى حضرة الله تعالى ووسيلته "[نقل عن حسين الخطيب، الدرّ اللطيف (حمص 1342هـ) ص121. وهو قول عبد الغني النابلسي النقشبندي] **وطريقتها أن يُغمض المريد عينيه ويتخيّل صورة شيخه بتعظيم ومحبّة زائدين حتّى يستفيد من صورته كما يستفيد من صحبته. أمّا إذا كان شيخه يُقيم حلقة الذكر فعلى المريد أن يفتح عينيه وينظر بين عيني الشيخ** [عن أحمد شاه ولي الله، القول الجميل في بيان سواء السبيل .1290 هـ دون ذكرمكان الطبع].

والمراقبة[1]: وهي استدامة العبد التذكّر باطلاع الرب عليه في جميع أحواله وهي إطراق السريرة بالحياء من ارتكاب الجريرة. وهي ذات فروع وتفصيل. وأخيرا:

الذكر: يرتّب كتاب (جامع الأصول) ذكر النقشبندية إلى أنواع رئيسية: أحدها:

ذكرالقلب: ويسمى الخفي القلبي [وقبل بهاء الدين كان شيوخ التربية يعرفون هذا الذّكر الّذي يتلى سرّا، بينما في الحضرة يتلى جهرا] وهو الاسم {**الله**} الّذي يردده المجذوب بدون عناء أو إجهاد مبتدئا بخمسة آلاف مرّة، ثم بخمسة وعشرين ألف مرّة، ثم متى شاء أو باستمرار.

وقبل الوصول إلى تلاوة هذا الذكر الذي يُتلى من أعماق النفس يتلقّى المريد تربية روحية يطهّر أثناءها قلبه وجسمه. هذه التربية الوقائية تتميّز بإحضار بعض التصوّرات الرمزية في ذهن المريد كالموت المنتظر والقبر الّذي يرى نفسه موضوعا فيه. ثم يقرأ ثلاث مرات **الفاتحة وسورة الإخلاص** ويهدي ثواب ذلك إلى روح بهاء الدّين وكل شيوخ التربية الذين تتألف منهم السلسلة الروحية.

هذا الذكر الخفي يقود المريد بإثارة عصبية إلى عدم القدرة على التخلّي عن توسلاته وابتهالاته التي تصبح حالة مستمرّة، لكن مع التدرّج من القلب إلى الروح إلى الروح السّرّيّة إلى الروح الخفية إلى الروح الأخفى الموجودات رمزيا على يسار أو يمين الصدر، وأخيرا النفس ذلك العنصر الحياتي الموجود رمزيا في الدّماغ، هذه الأرواح هي التي ستواصل التلاوة والابتهال.

هذه الأذكار الروحية تدعى الأذكار النافذة أو الدقيقة وكلها موجودة في ذكر النفس الّذي له كثافة قوية على الاتصال بالمادّة الجسدية بطريقة تجعل الكائن بسائره جسدا وروحا لحما وعظما يمارس الذّكر، هذا الابتهال وهذه الصلاة تعرف باسم **الجلالة**.

وهناك **ذكر ثان** يسمى أيضا ذكرالقلب ويتمثّل (إثباتا ونفيا) في تلاوة (لاَإِلَهَ إِلاَّ اللهُ

---

1 محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ص30 . المراقبة هي:"استدامة علم العبد باطّلاع الربّ عليه في جميع أحواله. وقيل هي اجتماع القلب لاطلاع الربّ، وقيل هي إطراق السريرة والحياء من ارتكاب الجريرة. وقيل هي ملاحظة الأوقات بملاحظة
الصفات." [عن محمدسليمان، الحديقة الندية في آداب النقشبندية، القاهرة 1313هـ].

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) دون تنفّس، وتقول الرواية أنّ روح الشيخ عبد الخالق الغجدواني شيخ شيوخ بهاء الدين هو الّذي أوصاه بتوحيد الذِّكْرَيْنِ، ومن هنا يكون هو الذكر الوحيد (ذكر القلب).

وهكذا يتّضح تفسير معنى كلمة "نقشبند" فالذكر الآنف يُحدث في قلب المريد مفعولا هائلا يسمى"النقش" أو الطبع، والذكر نفسه يسمى"بند" ومعناه هنا الارتباط. فيكون المعنى العام للعبارتين مجتمعتين هو التثبيت في قلب المريد من غير إمكانية الفسخ. وهي نقوش تمثّل الكمال الحقيقي للحياة الروحية، "اهـعن كتاب الحقائق الوردية"[1]. فالتلميذ الّذي يتابع الوحدة الروحية عن طريق الجذبة ليصل إلى النشوة، عليه أن يحافظ على أوّل الذكرين. أمّا السالك الّذي يتّبع تعليمات الطريقة فعليه بالذكر الثاني الّذي يبحث فيه عن سيرته وحياة التنسّك والتأمّل.

وذكر ثالث : ويسمى أيضا (نفي وإثبات) أي {لاَ إِلَهَ إِلاَّاللهُ} يجب أن يُتلى على الأقل خمسة آلاف مرّة والأكثر موكول لإرادة المريد، فإذا حصل هذا المريد بمجهودات مبذولة في التلاوة على اليقين بحقيقة النفي والإثبات في ذكره وأصبح من النتائج المفروغ منها، أصبح على وعي بأنه مرئي وملاحظ ومراقب من الله وأنّه في عداد عباد الله تعالى.

وذكر رابع يسمى ذكر "**التهاليل**".

وذكر خامس: ذكر المراقبة (المراقبة المستمرّة من الله).

وأخيرا **ذكر سادس:** ذكر تعليم الحقائق الإلهية (حقيقة القرآن والكعبة والصلاة).

وذكر سابع حول حقائق الأنبياء وهو الذي يختم قائمة التلاوات التي لم نقم إلا بتعدادها.

ومهما كانت الوضعية التي فيها المريد فإن عدد الصلوات والأدعية وطريقتها المميّزة تجرّ تدريجيّا الّذين يسلكون الطريق للإحساسات التي يبحثون عنها.

وعلاوة على الصلوات الشفوية السرّية والروحية، والأولى التي تُتلى في الحضرة وتعاليم النظام الّذي يعتمد في النظريات الروحية على الفناء في الله، يقدّم للحصول على

---

1 نحن ننقل بتعريب شخصي عن كتاب كوبولاني، الطوائف الدينية الإسلامية.

هذا الهدف وسيلتان:

الأولى: بالنسبة للّذي تأخذه الجذبة والانتشاء طبيعيا بعد التهيئات والاعدادات الرمزية التي يصفها الشيخ السنوسي في روح شيخه.

الثانية: على حالة المراقبة (وعي الإنسان بأنّه مراقب ومرئي من الله) ويُتَوصّل إلى ذلك بممارسات خاصّة وعقيدة راسخة وتصميم لا يتزعزع، وهي ممارسات وصفها أيضا الشيخ السنوسي في كتاب المستندات.

وعندما نمعن النظر في تعاليم هذه الطائفة نجدها انتقائية، فأهمّ هدف لمؤسس النقشبندية هو إحياء الإسلام، وهذا الهدف جعله يأخذ في حسابه عديد العقائد السائدة قبله، كما جعله يتسامح مع بعض ممارسات الباطنية ذات الجذور العميقة في فارس. وكأنّ بهاء الدّين تبنّى جميع مبادئ الطوائف الدينية في عصره سواء ما أخذه هو حقيقة بعنوان خلافته لأربعين طائفة، أو ما أضافه له أتباعه فيما بعد، إلاّ أنّه من المحقّق أنّه رغم تعلّقه بالأصول وتمسّكه بقواعد التطهير، فإن الطريقة الأولى شاهدت كيف التصق بتعاليمها كل الممارسات الحلولية المتطرّفة لتتمكّن من إرضاء الجميع فردا فردا. ولعلّ هذا هو سبب نجاحها، فهي تقدّم للبعض الطريقة الروحانية البحتة للتأمّل كما تقدّم للبعض الآخر نظاما فيزيولوجيا عن طريق الصور المرسومة في خطّ رمزي تمكنهم من رؤية أنفسهم مندمجين في روح شيخهم. وفي أماكن أخرى أقلّ تقبّلا لهذا التطهّر الأخلاقي فإن الذكر الخفي هو الّذي يفتح الآفاق للانتشاء والسبح.

وأخيرا عندما لا تكفي الطرق التأملية والفيزيولوجية والجسدية المتنوعة المظاهر يقول "كوبولاني": إن لم تكف كلّ هذه الأشياء أو تكون عاجزة عن اختراق الجماعات، فإنّ الجماعة النقشبندية، رغم حظر الاستعمال، يلجؤون إلى المخدّرات (بنج أو مستحضر القنّب[1]) ليحصلوا على السُّكرِ الّذي لا يوفّره الذّكر والتأمّل بنفس الدرجة. ويضيف"كوبولاني"قائلا: وهكذا يبلغ طرفي التنسّك من هذا الذي أخذ من الحلول

---

1 القنّب (بالتونسية : القرنب) هو جنس نبات سنوي زراعي ذو سوق كالخوص (القصب) يصل ارتفاعه إلى أكثر من مترين اثنين ويستعمل لأليافه التي تصنع منها الخيوط والحبال. ومنه نوع القنب الهندي يستخرج منه المخدّر المعروف بالحشيشة وهو مسحوق يُستخرج من ساق النبتة الذكر وله فوائد طبّية ويرغب فيه المدمنون على المخدّرات.

الهندي لدى أبي يزيد البسطامي[1] الذي يقول في بعض مقولاته: (عندما يتصوّر الناس أنّهم يعبدون الله، فذاك هو الله يعبد نفسه) وكان يقول أيضا: (أنا البحر بلا قرار، بلا بداية ولا نهاية). ويصل الناس إلى حالة السُّكر والانتشاء الهستيري الّذي يثيره الغناء والرقص والكِيف (الحشيش)[2] المستعمل عند بعض الطوائف أوالفرق المتفرعة عن القادرية والرفاعية والسعدية والعمّاريّة، إلخ... وعندما يصلون إلى هذه النهاية من الانتشاء والسكر الصوفي مصدر كلّ شذوذ وهوس، حسب"كوبولاني"، ومجاوزة كلّ حدّ، يفقد النقشبندية الوعي فيرقصون ويصرخون كالمأخوذين، وقد شوهدوا بسمرقند يقفزون على حجارة مدببة دون توقّف مثل المجانين،

والدم يشخب من أرجلهم، فلا يضع ذلك حدّا لجنونهم، ولا يتوقّفون إلاّ عندما يسقطون على الأرض فاقدين وعيهم. هذا التطوّر يبيّن أن الطائفة النقشبندية، رغم كل التحفّظات، تأثّرت بالعوامل المحيطة بها وخاصّة المنقولة إلى الصوفية حيث ترعرعت في قلب آسيا الوسطى.

وفي هذاالصدد بالذات، يضيف"كوبولاني"، لم يقف النقشبندية عند تقديس

---

1 هو أبويزيد الطيفور بن عيسى بن سروشان يدعى البُسطامي لأنّه أصيل بسطام(بلدة بين خراسان والعراق) ولدبها سنة 188هـ/804م وتوفي بها سنة 261هـ/874م عن سنّ تصل إلى 73 سنة.كان جدّه سروشان مجوسيّا فأسلم. وتتبع البسطامي أحكام الشريعة . ومما يروى أن أبا يزيد البسطامي اجتمع بالسندي الذي كان يجهل الفقه لكنه عارف بطريق الوصول إلى الله، في الحج فكان البسطامي يعلّم السنديّ مناسك الحج والسندي يعلّمه طريق الوصول إلى الله (النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي.ص180). ومارس أبو يزيد زهدا صارما، كما ظلّ حتّى وفاته حريصا على أداء واجباته الدينية وكان يطلب من مريديه التسليم لله في جميع أمورهم ويحثهم على التوحيد الخالص وخصوصا:لسان لا يكذب، وقلب لا يحقد، وبطن لا يأكل الحرام، وحركات لا بدعة فيها. وكان له شعر لطيف نورد منه:

غَرَسْتَ الْحُبَّ غَرْسًا فِي فُؤَادِي ... فَلاَ أَسْلُو إِلَى يَوْمِ التَّنَـــادِي
جَرَحْتَ الْقَلْبَ مِنِّي بِاتِّصَـــالٍ ... فَشَوْقِي زَائِدٌ وَ الْحُبُّ بَـــادِي
سَقَانِي شَرْبَةً أَحْيَـــا فُـــؤَادِي ... بِكَأْسِ الْحُبِّ فِي بَحْرِ الْـوِدَادِ
فَلَوْلاَ الله يَحْفَظُ عَــــارِفِيهِ ... لَهَامَ الْعَارِفُـونَ بِكُـلِّ وَادِي

ومنه قوله:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ: ذَكَرْتُ رَبِّي ... وَهَلْ أُنْسَى فَأَذْكُرُ مَا نَسِيتُ؟
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَـا رَوِيتُ

2 لا غرابة في استعمال الحشيش وقدكان منتشرا، ولم تكتشف مضرته الكبيرة ولم يقع تحريمه بالإجماع إلاّ في أواسط القرن العشرين، وهو إذ يساعد على الخروج من الواقع إلى عالم آخر قد يصلح للانتشاء الصوفي، ولعلّ الحالة الهستيرية التي يصورها كوبولاني ليست إلاّ نتيجة تناول الحشيش دون أن يتفطّن إليه السادة النقشبندية في ذلك الوقت.

الحلول المتحصّل عليه بكل هذا العنف، فقد بحثوا عن إكمال تصوّفهم بنظريتهم العجيبة حول وجود الروح الداخلية، فاتحين بذلك ألغاز المطالب العقلية، فجددوا بذلك خوارق الفقير والدويجة الهندي، بل ذهبوا حتّى إلى قبول فكرة التناسخ الحي لفائدة روح الولي، وقد قبل هذه الفكرة من بعد ذلك شيخ الخادرية عبدالعزيز بن دبّاغ. وفي هذا الصدد يكونون هم الأساتذة الكبار للصينيين المحمّديين، فعلمهم وسلطتهم التي أمدهم بها الواحد الحق تسمح لهم باستعمال قُوى الطبيعة ووضعها على الذمّة. وهكذا، يقول"كوبولاني"، نفهم كم رفع هذا النفوذ من تأثير دراويش النقشبندية، وهؤلاء هم بدون شك أولئك الّذين بلغوا درجة من اللاوعي القريبة من الجنون [ربما تكون ما يسمّى الغيبة]، وهم الذين يذرعون أدغال آسيا الوسطى، فيوزّعون أحجار الشفاء، ويهدون النفخة المعيدة للحياة لبعض المرضى الّذين يدعونهم للاستطباب، وهم الّذين يباركون القوافل دون أن ينسوا مدّ الكفّ بالسؤال.

قد يكون هذا حال الناس في عهد"كوبولاني"، وهو الظرف الّذي هيّأ للغزو الاستعماري الأوروبّي، إذ كثرت المظالم في تلك العهود الظلماء، ولا مندوحة للناس من البحث عن الارتزاق بأي وسيلة، فاندسّ بعضهم على الطرق الصوفية فظهروا بهذا المظهر المزري. أمّا الوقت الحاضر فنترك الكلام عنه للدكتور أحمد مبارك من أندونيسيا إذ يقول: "من خصائص أعمال أصحاب الطرق الصوفية السعي في مصالح الناس، وخاصّة خدمتهم في علاج النفس، ومن بينهم شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية في أندونيسيا اكتشف كيفية العلاج النفسي باستعمال طريقة الذكر في علاج مدمني الأدوية الممنوعة، وهذا العمل قرّب شيوخ الصوفية من رجال الحكومة لأن كثيرا من هؤلاء رجال أغنياء مدمنون لهذه الأدوية الممنوعة، وللطريقة النقشبندية عيادات لعلاج مدمني المخدّرات سمّيت بعيادات (الإنابة) منتشرة في مدن أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وفي مدينة (مكين) شيخ من الطريقة النقشبندية طوّر كيفية علاج النفس باستعمال طريق الأوراد، وله عيادة تسمّى عيادة (التوكّل)"[1].

طريقة العمل : طريقة العمل الفردية، كما أسلفنا تنطلق بقراءة الفاتحة و(قل هوالله أحد) ثلاث مرات، ثمّ الصلاة على النبيء سبع مرات، ثمّ استغفار سبع مرات، ويهدى

1 أعمال ملتقى التصوف الإسلامي، ص92.

ثواب ذلك إلى روح النبيء صلّى الله عليه وسلّم وإلى جميع الأنبياء والمرسلين وبقية الأولياء والصالحين إلى أن يصل إلى الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني شيخ الوقت. هذا الذكر القلبي يسبقه رابطة (وهو الاستحضار بالقلب لروحانية الشيخ) يأخذ منها المريد المدد على حد قولهم: (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة)، فيستحضرها المريد بقلبه ويأخذ منها الأنوار والمدد، ويقوم بالتركيز الذهني. وبعد هذه الرابطة وما يأخذ من الشيخ يحس المريد بأنوار داخلة إلى قلبه. والآن انقطعت هذه الرابطة بموت الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني بن علاء الدين بن سراج الدين الأول وهومن أصل كردي ودفن الجميع بتركيا. ولعل هذا الانقطاع هو التفسير للفظة (التناسخ الحي) الّذي ذكره"كوبولاني"آنفا ونقصد استحضار روح الحي لا روح الميّت. وبانتهاء هذه الرابطة يدخل المريد، إذن، مباشرة في الذكر فيقلب لسانه كمن يهم بنطق الراء وينطق {الله} وهو يجتذب الهواء إلى صدره عوض أن يخرجه، فيحسّ هكذا بأنوار داخلة إلى قلبه، فيعمل ذلك وترا مرّةً أوثلاثًا أوخمسًا أوسبعًا وترا دائما. وهذا عمل فردي غير محدود بوقت.

أما العمل الجماعي، فطريقة منه تسمى ختم الخواجكان وهي :

ختم الخواجكان : أي ختم المشايخ وقد وضعه الشيخ عبد الخالق الغجدواني: يجتمع الصوفية فلا يخلو جمعهم من رجل صالح مستجاب الدعوة وفي هذا الاجتماع ربط للقلوب ببعضها ويستند الختم إلى سبعة أركان:

1 - الخضوع والخشوع والحضور. 2 - قراءة الفاتحة سبع مرات عن يمين الشيخ. 3 - الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم مائة مرة. 4 - تلاوة سورة الانشراح تسعا وسبعين مرّة. 5 - تلاوة سورة الإخلاص 1001 مرة (ألف مرة ومرة). 6 - قراءة الفاتحة سبع مرات على يسار الشيخ. 7 - الصلاة على النبيء صلّى الله عليه وسلّم مائة مرة.

وهم يحرصون على أن لا يزيد العدد ولا ينقص لأنّ العدد في الأذكار كالأسنان في المفتاح إن زاد سنّ أونقص بطل عمل المفتاح.

ويختم الختم بدعاء:(بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، إمام المتّقين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. اللّهُمَّ يا مفتّح الأبواب، يا مسبّب الأسباب، يا مقلّب القلوب والأبصار، ياخالق الليل والنهار،

يادليل المتحيرين، يا غياث المستغيثين أغثنا. توكّلنا عليك يا أرحم الراحمين. وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد بألف ألف لاحول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم).

والطريقة الثانية وهي :

الحضرة : يذكرها المريدون مع بعضهم وهي ليست مرتبطة لحد الآن بموعد، ويقومون بها بدون استعمال آلات فيقع الذكر جماعيا بين أفراد الفرقة، وقد يسمّونه الحضرة، وهو الآتي[1]:

بِسمِ الله الرّحمَن الرحيم: صَلّى اللهُ عَلَى النَّبِيءِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (3 مرات) أَسْتَغْفِرُ اللهَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، ولِلْعُيُوبِ سَتَّارًا، فاتحة شريفة مع إخلاص شريف.[أي قراءة سورتي الفاتحة والإخلاص].

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} وقال تعالى:{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وقال صلّى الله عليه وسلّم:(اذْكُرُوا هَازِمَ اللَّذَّاتِ فَإِنَّهُ لاَ يَكُونُ فِي كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ وَلاَفِي قَلِيلٍ إِلاَّ وَأَجْزَلَهُ) رابطة الموت.[استحضار صورة الموت والدفن].

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} رابطة شريفة رَابِطَةُ حَضْرَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عُثْمَانَ سِرَاجِ الدِّينِ الثَّانِي.

صَلَوَاتٌ شريفة: صَلّى اللهُ عَلَى النَّبِيءِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (3 مرات كل مرة 100-300 مرّة تقسم على الجماعة).

لاَحَوْلَ وَلاَقُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ (5 مرات كل مرّة 100 -500 مرة تقسم على الجماعة).

صَلَوَات شريفة (3 مرات كل مرّة 100 -300 مرّة تقسم على الجماعة).

فاتحة شريفة مع إخلاص شريف.(أي قراءة الفاتحة والإخلاص).

1 النص الحرفي كما أمدنا به بخطهم السيد شكري سفطة.

صَلَوَاتٌ شريفة: صَلّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّءِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (3 مرات كل مرة 100 300 مرّة تقسم على الجماعة).

يَابَاقِي أَنْتَ الْبَاقِي (5 مرات كل مرّة 100-500 مرة تقسم على الجماعة).

صَلَوَات شريفة (3 مرات كل مرّة 100-300 مرّة تقسم على الجماعة).

فاتحة شريفة مع إخلاص شريف (أي قراءة الفاتحة والإخلاص).

ورد في الأثر الشريف:(عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ) اَلْحَمْدُ للهِ حَمْدًا يُوَافِي نِعَمَهُ وَيُكَافِئُ مَزِيدَهُ، اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلاَلِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، اَلْحَمْدُ للهِ حَقَّ حَمْدِهِ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ حَضْرَةِ فَاتِحِ أَبْوَابِ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعِنَايَةِ وَالْيَقِينِ سَيِّدِنَا وَمَلاَذِنَا وَشَفِيعِ ذُنُوبِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ نَبِيئًا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَعَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنْ حَضَرَاتِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ بَلِّغْ وَأَوْصِلْ مِثْلَ ثَوَابِ هَاتَيْنِ الْخَتْمَتَيْنِ الشَّرِيفَتَيْنِ بَعْدَ الْقَبُولِ مِنَّا بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ هَدِيَّةً وَاصِلَةً وَتُحْفَةً كَامِلَةً إِلَى رُوحِ وَضَرِيحِ مَنْبَعِ الصِّدْقِ وَالصَّفَا أَشْرَفِ الْخَلاَئِقِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِلَى أَرْوَاحِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الأَتْقِيَاءِ الْحُنَفَاءِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْنَا بِبَرَكَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَخُصُوصًا إِلَى رُوحِ صَاحِبِهِ فِي الْغَارِ وَالطَّرِيقِ وَخَلِيفَتِهِ بِأَمْرِهِ الْوَثِيقِ أَفْضَلِ الأَنَامِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيئِينَ عَلَى التَّحْقِيقِ الصِّدِّيقِ الأَكْبَرِ وَالْعَلَمِ الأَشْهَرِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ الأَمِيرِ الأَوَّابِ النَّاطِقِ بِالصَّوَابِ مُزَيِّنِ الْمِنْبَرِ وَالْمِحْرَابِ أَبِي الْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ صَاحِبِ الْحَيَاءِ وَالْعِرْفَانِ، أَمِيرِ الزَّمَانِ، جَامِعِ الْقُرْآنِ، حَضْرَةِ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ أَسَدِ اللهِ الْغَالِبِ عَلَى الْكُفَّارِ، ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمُخْتَارِ، حَضْرَةِ سَيِّدِنَا عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ الْحَيْدَرِ الْكَرَّارِ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ.

وَإِلَى رُوحِ السِّبْطَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ زِينَةِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الإِمَامِ الْحَسَنِ وَسَيِّدِنَا الإِمَامِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَإِلَى رُوحِ الصَّحَابِيِّ الْمَعْدُودِ مِنْ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ الْمُكَرَّمِ الْمَقْبُولِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَإِلَى رُوحِ الْخَادِمِ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ الْهَادِي لِلرُّشْدِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ.

وَإِلَى رُوحِ مَجْمَعِ الطَّرَائِقِ وَمَعْدِنِ الْحَقَائِقِ الْعَاشِقِ الْفَائِقِ حضْرَةِ سَيِّدِنَا الإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ.

وَإِلَى رُوحِ الْغَوَّاصِ فِي بَحْرِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالأَسَامِي سُلْطَانِ الْعَارِفِينَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِي.

وَإِلَى رُوحِ مَحْرَمِ السِّرِّ السُّبْحَانِي حَضْرَةِ سيِّدِنَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْخَالِقِ الْغُجْدَوَانِي.

وَإِلَى أَرْوَاحِ سَادَاتِنَا سَادَاتِ الطَّرَائِقِ الْعَلِيَّةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ وَالْقَادِرِيَّةِ وَالسُّهْرَوَرْدِيَّةِ وَالْكُبْرَوِيَّةِ وَالْجِشْتِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الطَّرَائِقِ الْعَلِيَّةِ قَدَّسَ اللهُ أَسْرَارَهُمُ الْبَهِيَّةَ وَانْفَعْنَا اللَّهُمَّ بِبَرَكَةِ أَنْوَارِهِمْ الْقُدُسِيَّةِ. (ثم يقرأ للتبرك هذا الإهداء:{وَإِلَى رُوحِ أَبِي الْعَلَمَيْنِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ، وَإِلَى رُوحِ أَبِي اللِّثَامَيْنِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا أَحْمَدَ الْبَدَوِيِّ، وَإِلَى رُوحِ إِمَامِ الشَّامِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الإِمَامِ عَبْدِ الرَّحْمَانِ الأَوْزَاعِيِّ، وَإِلَى أَرْوَاحِ سَادَاتِنَا الشَّاذُلِيِّ وَالدُّسُوقِيِّ وَالْبُرْهَانِيِّ وَالتِّجَانِيِّ}).

وَخُصُوصًا إِلَى رُوحِ صَاحِبِ الطَّرِيقَةِ بِالإِسْتِقْلاَلِ ذِي الْفَيْضِ الْجَارِي وَالنُّورِ السَّارِي حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الأُوَيْسِي الْبُخَارِيِّ الْمَشْهُورِ بِشَاهِ نَقْشَبَنْدَ الْمُلَقَّبِ بِخُوجَا بَهَاءِ الدِّينِ.

وَإِلَى رُوحِ الْقِنْدِيلِ النُّورَانِيِّ جَامِعِ الأَسْرَارِ وَالْمَعَانِيِّ مُحْيِي الدِّينِ أَبِي مُحَمَّدٍ بَازِاللهِ الأَشْهَبِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلاَنِيِّ.

وَإِلَى رُوحِ مَخْزِنِ أَسْرَارِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَالسُّوَرِ الْمُجَدِّدِ للأَلْفِ الثَّانِي حَضْرَةِ مولاَنَا الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْفَارُوقِيِّ السَّرْهِنْدِيِّ الْمَشْهُورِ بِالإِمَامِ الرَّبَّانِي.

وَإِلَى رُوحِ صَاحِبِ السِّرِّ الْخَفِيِّ وَالنُّورِ الْجَلِيِّ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ الدَّهْلِيِّ الْمَدْعُوِّ بِغُلاَمِ عَلِيٍّ.

وَإِلَى رُوحِ نُورِ الْمَشْرِقَيْنِ وَضِيَاءِ الْخَافِقَيْنِ ضِيَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ خَالِدٍ ذِي الْجَنَاحَيْنِ.

وَإِلَى رُوحِ قَمَرِ الْعِرْفَانِ وَشَمْسِ الْيَقِينِ شَيْخِ الْمَشَايِخِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ عُثْمَانَ الْمُلَقَّبِ بِسِرَاجِ الدِّينِ الأَوَّلِ.

وَإِلَى رُوحِ الْقُطْبِ الأَرْشَدِ وَالْغَوْثِ الأَمْجَدِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْمُلَقَّبِ بِبَهَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

وَإِلَى رُوحِ الْمُتَوَاضِعِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُرَوِّجِ لِلشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، الْمُجَدِّدِ للطَّرِيقَةِ الْمُنِيفَةِ الْبَيْضَاءِ كَاشِفِ أَسْرَارِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَالسُّوَرِ، ضِيَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ عُمَرَ.

وَإِلَى رُوحِ الْمُتَخَلِّقِ بِأَخْلاَقِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُرَوِّجِ لأَحْكَامِ الشَّرْعِ الْمَتِينِ، مُحْيِي سُنَنِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ نَجْمِ سَمَاءِ فَلَكِ الْهِدَايَةِ وَالْيَقِينِ قُطْبِ الْعَارِفِينَ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْمُلَقَّبِ بِنَجْمِ الْهِدَايَةِ وَالدِّينِ.

وَإِلَى رُوحِ خَادِمِ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الْمُرَوِّجِ لأَحْكَامِ الشَّرْعِ الْمَتِينِ إِمَامِ الْوَاصِلِينَ غَوْثِ الْمُسْتَمِدِّينَ سُلْطَانِ الأَوْلِيَاءِ الْكَامِلِينَ صَاحِبِ الضِّمْنِيَّةِ الْكُبْرَى الأَتَمِّ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْمُلَقَّبِ بِعلاَءِ الدِّينِ الْعُثْمَانِيِّ.

وَإِلَى رُوحِ صَاحِبِ الْحَيَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالتَّمْكِينِ سُلْطَانِ الأَوْلِيَاءِ الْكَامِلِينَ بُرْهَانِ الأَصْفِيَاءِ الْوَصِلِينَ الْقُطْبِ الأَعْظَمِ وَصَاحِبِ الضِّمْنِيَّةِ الْكُبْرَى الأَتَمِّ شَيْخِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ وَخَادِمِ الْمَحَاسِنِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ شَيْخِنَا وَمَلاَذِنَا وَمُرْشِدِنَا وَوَسِيلَتِنَا الْعُظْمَى إِلَى اللهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ حَضْرَةِ مَوْلاَنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عُثْمَانَ الْمُلَقَّبِ بِسِرَاجِ الدِّينِ الثَّانِي.

أَدَامَ اللهُ - أَدَامَ اللهُ- أَدَامَ اللهُ نِعْمَةَ بَقَائِهِ عَلَيْنَا وَأَعَانَهُ اللهُ عَلَى تَرْوِيجِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ، وَجَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَنَا لَهُ الْفِدَى، وَأَصْلَحَ اللهُ بِهِ قُلُوبَنَا وَقُلُوبَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَوْلاَدِهِ - آمِينَ - وَإِلَى أَرْوَاحِ مُرِيدِيهِ وَمُحِبِّيهِ وَمَحْسُوبِيهِ وَمَنْسُوبِيهِ وَإِلَى رُوحِ كُلِّ مَنْ يَعْتَقِدُ بِهِ

وَيَنْتَسِبُ إِلَيْهِ وَلَنَا وَلَهُمْ وَلِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ إِنَّكَ يَا مَوْلاَنَا سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قرآن كريم.

يَا رَبُّ يَا عَظِيمُ، يَا خَالِقَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، بِفَضْلِكَ الْعَظِيمْ صَلِّ عَلَى مَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ صَاحِبِ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلاَةً تُرْضِيكَ وَتُرْضِيهِ وَتَرْضَى بِهَا عَنَّا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَعِنَّا يَا مُعِينُ، يَا عَظِيمَ الْجَاهِ وَالشَّأْنِ وَالْمَقَامِ عِنْدَ اللهِ يَا رَسُول اللهِ.

مَدَد يَا أَللهُ، مَدَد يَا رَسُولَ اللهِ، مَدَد يَا أَنْبِيَاءَ اللهِ، مَدَد يَا أَوْلِيَاءَ اللهِ، مَدَد يَا آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ، مَدَد يَا شَاه عُثْمَانُ سِرَاجَ الدِّينِ الثَّانِي.

بِإِجَازَةِ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَبِإِجَازَةِ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ رَسُولِ اللهِ حَبِيبِ اللهِ، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي:{لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ}). لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهْوَحَيٌّ دَائِمٌ لاَ يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهْوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير. مَن قَالَ {الله} وفي قلبه قال {اللهُ} فَمُعِينُهُ وَمُغِيثُهُ فِي الدَّارَيْن: اللهُ.

اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الفاتحة.

اللَّهُمَّ يَادَائِمَ الْفَضْلِ عَلَى الْبَرِيَّةِ، يَا بَاسِطَ الْيَدَيْنِ بِالْعَطِيَّةِ، يَاصَاحِبَ الْمَوَاهِبِ السَّنِيَّةِ، يَادَافِعَ الْبَلاَيَا وَالْبَلِيَّةِ، يَاغَافِرَ الذُّنُوبِ وَالْخَطِيَّةِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى سَجِيَّةً، وَاغْفِرْ لَنَا يَا رَبَّنَا فِي الصُّبحِ وَالْعَشِيَّةِ (3 مرات).

سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ (3 مرات).

جَزَى اللهُ عَنَّا سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هُوَ أَهْلُهُ (3 مرات).

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:{إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

لَبَّيْكَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بِعَدَدِ كُلِّ دَاءٍ وَدَوَاءٍ وَبَارِكْ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كَثِيرًا (3 مرات).

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ ذُنُوبِنَا حَتَّى تُغْفَرَ، وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى حَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ حَسَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ حيدر صَلاَةً تُرْضِيكَ وَتُرْضِيهِ وَتَرْضَى بِهَا عَنَّا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. الفاتحة.

أشباه طرق وعادات

يقول"كوبولاني":"بصرف النظر عن الجمعيات المنبثقة عن القادرية والجمعيات ذات الممارسة الخارجية المماثلة لها، هناك مبثوث في العالم الإسلامي عدد من طوائف المشعوذين والدجّالين والحوّائين والعزّامين الممكن ذكرهم على سبيل التوثيق، فإنهم **ليسوا جمعيات بمعنى الكلمة** إذ ليس لهم نظام داخلي ولا أي مذهب أساسي يميزهم. ولكن يتميّزون بوجود القدرات العجيبة التي يلحقها السّذّج بممارساتهم الفجّة ودور المرسل الذي يقوم به أعضاؤهم فإننا نعتقد أنه يجب أن نذكر بالخصوص الفرق المعروفة بالجزائر". وعدد منهم :" أولاد موسى: المدينون في قوتهم الغيبية (الكرامة) إلى شيخهم أحمد موسى الولي الشهير (المرابط) بمراكش حيث دفن، وهم كثيرون بولايات السوس والذراع وينتقلون إلى أسواق المغرب ووهران والجزائر، ويمكن ملاقاتهم جماعات في أقصى الجنوب المغربي والحمادشة: (حمدوشي) وإخوتهم الدغرورية بمكناس الممكن تشبيههم بالعيساوية في منطقة زمورة على صخرة تشرف على وادي مينا توجد قبّة الشهير سيدي محمد بن عُود، وهي مشهورة بالأسود المتسوّلين الّذين يرسلهم خدّام هذا الرجل عبر القبائل وفي القرى الجزائرية في ذكرى شيخهم المقدّس الّذي يحميهم من قبره من غضب ملك الوحوش (الأسد). وبني عباس: وهم المذكورون في القبائل بقسنطينة وقد قويت حركتهم في تونس وطرابلس إلخ ....

والحال بالبلاد التونسية لا يختلف عن ذلك كبير اختلاف، فقد تألّفت جماعات على هامش الطرق لم يكن لها أصول مثلها، أو أفكار أساسية تنطلق منها، وإنما هي فرق تنسج على منوال غيرها وتملأ الفراغ عندما تجده.

هذا وإن كانت الطريقة الشطّية مثلا، تأخذ كلّ ما لها من الطريقة العوامرية رغم وجود الشيخ سيدي عمر الشطّي الّذي كان معاصرا للشيخ عامر المزوغي، فإنه يمكن أن نرى ناسا ينتمون إلى أولياء آخرين ليسوا من أصحاب الطرق ذلك لأن الانتماء إلى وليّ هو صكّ القبول عند جماهير الشعب الّذين تروج عندهم هذه الطرق الفنّية ويحتاجون إليها في أفراحهم وأتراحهم، فيصبغون هالة من التقديس عليها وينسجون حولها جملة من الأساطير والحكايات منها ما له جذور في الواقع ومنها ما هو محض خيال.

وهكذا برزت العديد من الفرق والعادات، مثلما تبرز الفرق الفنّيّة في المجتمع للحاجة إليها وتطوّر الحياة لدى الناس. فمن بين الفرق المتشبّهة بالطرق تكوّن ما سمّي بوجق دار شعبان الفهري. ومن الطوائف التي أرادت تمييز بعض الأولياء ممن ليس لهم طرق خاصّة، طائفة من الطريقة الشاذلية تقوم بعادات خاصّة تسمّى المنوبية (نسبة إلى السيدة عائشة المنوبية معاصرة الإمام الشاذلي) أو الحطابية (نسبة إلى سيدي علي الحطاب صاحب الإمام الشاذلي) ويمكن اعتبارها تفرعا غير واضح أو امتدادا للشاذلية. وقد تتكوّن حول شخص بارز جمعية من هذه الجمعيات أو تتكوّن حوله عادة مثل (العادات والنوبات) التي تكوّنت حول زاوية أم الزين البوهلية، رغم أن العديد من الطرق الأخرى لا ترى ما يمنعها من التغنّي بها مثل العوامرية.

وهكذا لإتمام الفائدة رأينا أن نذكر هذه العادات لأنها تمثل جزءا من هذا التراث الشعبي الذي ما زال إلى الآن يجد قبولا من الجماهير العريضة.

وجق دار شعبان الفهري

هي مجموعة من الفرق تسّمى كلها بوجق دار شعبان وكلّ واحدة لها مقرّها. والنسبة متداخلة، فالاسم (شعبان الفهري) تركيب مزجي بين علمين: شعبان مشماش وأحمد الفهري.

العلمان : 1) شعبان مشماش: كان (مشماش) هذا حاكما إسلاميا على جهة الوطن القبلي من قبل الدولة الأموية، وهو من سلالة الحارث بن زياد بن معاذ بن الربيع من بني حميَر من عرب اليمن. وكان الحارث بن زياد هذا قدم مع معاوية بن حديج سنة 34 ه إبّان الفتح الثاني لإفريقية، واستقر بهذا المكان وتولّى حكمه الّذي بقي في عقبه إلى أن بلغ إلى شعبان هذا.

2) أحمد الفهري: هو أحمد بن محمد بن الفضل بن عتبة بن إسحاق الخزرجي النجاري الضبي بن وهب والد آمنة أمّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وُلِد بالساقية الحمراء الغربية ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم. ثم انتقل إلى العلاّم بالمغرب الأقصى وتلقّى العلوم الشرعية عن الشيخ أحمد بن داود. ثمّ ارتحل إلى فاس حيث لقي مولاي إدريس الأصغر الذي حباه بالتبجيل، ثمّ انتقل إلى العرائش ثم إلى وهران فالجزائر فالقيروان التي دخلت تحت سيطرة الشيعة وهناك عرف بمناهضته لهم، ثمّ انتقل إلى

تونس والتقى بالولي الصالح محرز بن خلف، وسلك سبيل الصوفية إلى أن بلغ درجة القطابة في ليلة الجمعة من شهر رجب سنة 392 هـ، ورابط بجبل المنار لحماية الثغر، ثم انتقل إلى الدخلة (الوطن القبلي) وانقطع إلى التعبّد بجبل الزاوية مرابطا لحراسة البحر. وفي الآخر استقر به المقام قرب قصر شعبان مشماش، فالتفّ حوله الطلبة يأخذون عنه، وذاع صيته وظهر فضله، وهو رجل أعزب غريب فخيف منه وعليه، وفكّر صُولة ابن شعبان في تزويجه، فاقترح الموضوع على أبيه فلمّا لم يجدوا التّي يتزوّجها وترضى به على غربته، فكّر صُولة في تزويجه أخته خديجة فاستشار أباه فوافقه وزوّجوه إياها، فأقطعه شعبان نصف المنطقة الجنوبي من الزاوية إلى البحر، واستأثر شعبان بالشمال من القصر إلى الجبل. وبقي الشيخ يُدَرّس العلومَ حتّى أصبحت المنطقة تزخر بالعلماء والعارفين، وتُوفّي الشيخ سنة 396 هـ ودفن بالتربة المعروفة بمقامه الحالي. وعلى هذه المصاهرة بنيت العلاقة بين الفهري وشعبان وأحفادهما، فنشأت بلدة عرفت بزاوية الفهري جنوب قصر شعبان كما نشأت حول القصر بلدة باسم دار شعبان. وإثر التخلّص من الاستعمار الفرنسي توحّد الاسمان لتسمية البلدة المندمجة بهذا الاسم المزدوج.

طريقة العمل : طريقة العمل عندهم فيها كثير من التّداخل مع العيساوية سواء في المدحات والألحان أوالآلات، فهم يستعملون الزّكرة والنغّارات والبنادر. ولهم خرجتان مشهورتان في السنة: **الأولى**: رابع عيد الفطر، فيقومون بحضرة وجولة في المدينة ويختمونها بمقام أحمد الفهري. **والثانية**: خامس عيد الأضحى.

وتخرج مع هاتين الخرجتين قصعة من الكسكس واللحم ومختلف الخضراوات وهي مغطّاة بسنجق أحمد الفهري سبيلا للجائعين، ويُسمّى هذا الاحتفال (حضرة الفهري).

ويقومون بمبيتة (أي سهرة) فيها عدّة نوبات وأمداح، وفي آخرالسهرة تختم بأغان فولكلورية تونسية، ويعملون مثل ذلك في المناسبات الدينية والوطنية والخاصّة سواء بالزواج أوالختان أو خروج الحاج أورجوعه.

وأغلب مدحاتهم نقل عن العيساوية مع بعض التطويع لموافقة ذكر الشيخ أحمد الفهري، أو النسج على منوالهم. كما تشتمل مدحاتهم على شيء من المالوف الأندلسي. فمن أمثلة التطويع:نجد في العيساوية :

بِيكِ الْغَرَامْ دْعَـــانِي   يَا كَاحِلِ التَّـنْـعِيـسَه

حُبِّكْ سَكَنْ فِي كْنَانِي   يَا شَيْـخِي يَا بِنْ عِيسى

ويقول وجق الفهري : بِيكِ الْغَرَامْ دْعَــانِي   يَا شَيْـخِي يَا الأَنْصَارْ

حُبِّكْ سَكَنْ فِي كْنَانِي   شَعَّلْ فِيَّ النَّـــارْ

و من عملهم المعروف "فاح السرّ فاح" في محير العراق :

فَــاحَ السِّــر فَـاحْ   وَغَرَامِي دِيمَـا مُجَـدَّدْ

بِالْفِهْرِي الأَنْصَارِي   حُبّه فِي قَلْـبِي مُؤَبَّـدْ

كُلَّ مَسَاء وِصْبَــاحْ   نَارُه فِي مَكْنُونِي تُوقِدْ

وِتْهِـبِّ الأَرْيَــاحْ   وَ يجِينَـا بَـابَـا أَحْمَدْ

يِسْقِيـنَـا أَقْدَاحْ   وِتْعُودِ الْحَضْرَة تُرَعِّدْ

بِـبْنَـادِرِ اصْحَــاحْ   وِ بْرَاوِلْ بَعْـد مجَرَّدْ

يَـا مِتْعَرِّضْ حَـاحْ   وَسَّـعْ لِلْفُقْـرَا وَبَعِّدْ

تْهَـيَّاتِ الأَرْبَــاحْ   خَلِّيــنِي بِهُمْ نِسْعِدْ

مكب : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَدَيْنَا   بِسْـمِ الله مِفْتَــاحِي

زِيـدُوا الصَّـــلاَةْ عَلَى نَبِينَـــا   ذِكْــرُهُ مِصْبَــاحِي

يَا رَسُــولَ اللهِ يَـــا خَيْـرَ الْبَشَرْ   أَنَا خَـاطْرِي حَيْـرَانِي

كَيْفَ حَالِي حِين دْخُـولِي لِلْقَــبَرْ   وَجَاوْنِي الْمَلَكَــــانِ

يَسْـــأَلاَنِ هَكَــذَا صَحَّ الْخَبَرْ   عَنْكَ يَــا سُلْــطَانِي

يَا خَالِقِي اَحْفَظْ لِسَانِي مِنْ كُلْ شَرْ   وَانطِقْـهُ بِالْبَــيَانِ

يَشْـدْ بِـأَنَّ اللهَ بَـــاقِي مُسْتَمِرْ   وَكُلَّ شَــيْءٍ فَــانِي

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ خَيْرُ الْبَشَرْ أَرْسَلَهُ الْوَحْدَاني

صَادَقْ مُصَدَّقْ بِالدَّلِيلِ مُشْتَهِرْ دَلِيلُهُ قُرْآني[1]

تبديل أوّل :

يَا مُحَمَّدْ، فِي حُرْمْتِكْ، يَا مُحَمَّدْ يَا مُحَمَّدْ، وِنْطُوفْ بِالْبَيْتِ وْنِسْعِدْ

صَلُّوا عَلِيهْ وَانَا قَلْبِي شَايِشْ لِيهْ

نُطْلُبْ رَبِّي انْ شَاالله مِ الْحَوْضْ نِرْوِي

صَلُّوا يَا نَاسْ عْلَى النَّبِي طَيِّبْ الأَنْفَاسْ

يَسْقِينَا الْكَاسْ وَالصَّلاَةْ عْلَى الْهَادِي

سِيدْ أَسْيَادِي مُنْيَتِي، يَارَبِّي الْهَادِي

طَالِبْ زَادِي وَالصَّلاَةُ عْلَى الْهَادِي

سِيدِ السَّادَاتْ عْلَى النَّبِي زَيْنِ الصِّفَاتْ

كَامِلِ الذَّاتْ وَالصَّلاَةُ عْلَى الْهَادِي

اسْمُه مُحَمَّدْ خَلْقُه رَبِّي مُمَجَّدْ

مَنْ زَارُه يِسْعِدْ وَالصَّلاَةُ عْلَى الْهَادِي

بِاسْمِ السَّتَّارْ نُطْلِبْ مِنْ عَالِي الأَقْدَارْ

لَيْلاً وِنْهَارْ وَالصَّلاَةُ عْلَى الْهَادِي

نِرْحَلْ بِالزَّادْ وَنِرْكِبْ مِنْ حَلْقِ الْوَادْ

مَجْمَعْ الأَسْيَادْ وَالصَّلاَةُ عْلَى الْهَادِي

تبديل ثان :

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِي الْهَادِي الْمُخْتَارْ الله يِرْحَمْ شَيْخَنَا الْفِهْرِي الأَنْصَارْ

---

1 سبق أن رأينا هذا البحر من تأليف الشيخ عبدذ السلام الأسمر، راجع سفينة البحور السلامية.

لاَ إِلَـــــــــهَ إِلاَّ اللهْ، اللهْ، اللهْ   مُحَمَّـــــدٌ رَسُـــــولُ اللهْ، اللهْ، اللهْ

بروول :   باسْمِ اللهِ الْعَـظِيـمْ   الرَّحْمَانِ الرَّحِـــيمْ

لَيْسَ هَادِي إِلاَّ هُوَ   لَيْسَ هَادِي إِلاَّ هُوَ

ومن الأزجال الّتي يتغنّون بها، زجل (دمعي جرى على صحن خدّي كالمطر) ووزنه بطايحي على غرار أوزان العيساوية.

طالع : دَمْعِي جَرَى عْلَى صَحْنِ خَدِّي كَالْمَطَرْ   وَالرُّوحُ مِنْ فَرْطِ الْهَوَى فِي هَاوِيَـة

لَمَّا رَأَيْـتُ الْغِيـدَ مَا بَيْنِ الشَّـجَرْ   عَقْلِي مَضَى وَالرُّوحُ مِـنِّـي فَانِيَة

بيت : غَنَّوْا فِي بُسْتَانْ وَرَفَـعُوا أَصْـوَاتْهُمْ   وَأَنَا نُعَـايِنْ مَا شَفِيتْ مِنْهُمْ غَلِيلْ

رِكْزُوا الشَّمَعْ وَالْكَاسْ يَدُورُ بَيْنَاتْهُمْ   وَأَنَا شَرَبْتُ الْحُبْ وَالصَّـبْرُ جَمِيـلْ

هَبَّ النَّسِيمِ تَخَبَّـلَتْ رَشْـقَـــاتْهُمْ   وَأَنَا مَعَ الاَغْصَانْ أَيْنَ مَـالُوا أَمِيلْ

وهذا الزجل يوجد لدى نساء حضاري سوسة يدرّجون به العروس بعد لبسها ثياب الجلوة الثانية في بيت والدها لتخرج أمام الحاضرات من النسوة، ويُتَغَنَّى في طبع الحسين وإيقاع دخول براول كما في وجق دار شعبان، ويتغنّى أيضا في القطر الليبي بنفس اللحن مع تغيير بسيط من منطقة إلى أخرى.

وقد يخلطون في النوبة الواحدة بين الطبوع المتقاربة، فمن نماذج عملهم :

يستفتحون بمثل هذا النظم الجميل على ما به من تضمين واقتباس من القرآن الكريم :

اللهُ اللهُ رَبُّـنَــــــــا   اللهُ اللهُ حَسْبُـنَـــــــا

إِنْ يُصِبْنِي الدَّهْرُ يَوْمًا بِكَمَدْ   فَاعْتِمَادِي " قُلْ هُوَاللهُ أَحَـدْ"

وَإِذَا مَا حَـادِثٌ يَـطْـرُقُـــنِي   أَرْتَجِي فِي دَفْعِهِ " اللهُ الصَّمَـدْ"

وَأُنَادِي بِانْكِـــسَارٍ فِي الدُّجَى   يَا عَلِيَّ الشَّأْنِ يَامَنْ " لَمْ يَلِـدْ"

وَهْوَ لَمْ يُولَدْ وَ لاَ وُلْـــــدَ لَهُ   مَا لَهُ فِي خَلْقِهِ كُـفْـــؤٌ أَحَدْ

اِكْفِــنِي يَا ذَا الْعُلاَ مَا هَمَّنِي   مِنْ عَدُوٍّ وَ حَسُودٍ مُذْ حَـسَدْ

أَنْتَ كَهْفِي وَ مَلاَذِي سَـيِّدِي   لَيْسَ لِي إِلاَّ عَلَيْكَ الْمُعْــتَمَدْ

(ثم على طريقة العيساوية) :

يَا رَسُولَ اللهِ غَوْثًا وَمَدَدْ   يَا رَسُولَ اللهِ أَنْتَ الْمُعْتَمَدْ

يَا رَسُولَ اللهِ فَرِّجْ كَرْبَنَا   مَا رَآكَ الْكَرْبُ إِلاَّ وَشَــرَدْ

بروِل (في طبع الحسين) مَاصِبْتْ لِلْـوَصْلِ حِيلَة   شِيلُونِي يَا اهْلَ الْفَضِيلَة

قَصْدِي لُوَيْلَــة بِلَــيْلَى   تَفُـوزْ عَـلَى كُلِّ حِيــلَة

بروِل (في طبع العراق) : يَا عَاشِقِينْ! بُعْدُ الْحَبِيــبْ   قَدْ زَادَنِي عِشْـقَــا

وَاعْمَلْ عَلَى غَيْظِ الرَّقِيبْ   فِــعْـلُه مَعِي يَبْقى

بروِل (في طبع الحسين) : نَوَّارِاللَّــوْزِ فَـتَّـاحْ   وَجَبَ الْعِشْقُ عَلَيَّ

أَدِرْهَا رَاحًــا بِرَاحْ   يَاسَاقِي اِمْهِـلْ عَلَيَّ

وكذلك فعلهم في نوبة الإصبعين :

مِنْ عِنْد سِيدْنَا * جِينَاكُمْ زِيَّارْ * يَا اهْلِ الطَّرِيقَة الزِّينَة

مِنْ عَنْد سِيـدْنَا جِينَاكُمْ   وَالْقَلْب وَالضَّــمِيرِ مْعَاكُمْ

يَا لَوْ نْمُـوتْ مَا نِنْسَـاكُمْ   أَنْتُمْ سَادَاتْنَا يَامَجْمَعِ الأَخْيَارْ

ثم (طالع) : بِحُــرْمَـتِكْ يَا مُحَمَّدْ   نَطُوفْ بالبَيْتْ وْنِسْعِدْ

ثم (بروِل مالوف) : دَخِيلَ اللهْ انْـظُرْ   مَــا تَصْـنَعِ الْعُشَّـاقْ

وَاحِدْ فِي تَقْلِيــقْ   وَالآخُرْ مِسْكِينْ يَعْشَقْ

...إلخ.. ثم (ختم) يَا سَاقِي الْحُمَيَّا.......

كما أخذوا عن العوامرية بعض المدحات منها في نوبة الحسين :

كُلُّ مَنْ يَهْوَى وَلاَ يَهْوَى الرَّسُولْ   كَيْفَ يَهْوَاهْ يَـا عِـبَادَ اللَّهِ؟

هُوَ بَابُ اللَّهْ مَـا فَمَّة دُخُـولْ   إِلاَّ مِنْ بَـابِهِ... يَـا أَللَّهْ

حُبُّـهُ فَـرْضٌ عَلَيْنَـا لاَيَحُولْ   اللهُـمَّ صَـلِّ عَلَيْـه يَـا أَللَّه

اِسْقِنِي بِاللَّه كُـوَيِّسْ يَـا مُحَمَّدْ   نُشْرُبْ مِنْهُ عَلَى غَيْظِ الرَّقِيبْ...

ونجد في العوامرية : على قول إحدى الفرق :

كُلُّ مَنْ يَهْـوَى وَلاَ يَهْـوَى الرَّسُـولْ   كَيْفَ يُعْبَا بِهِ كَـيْفَ يُعْبَا بِهِ

هُوَ بَـابُ اللَّهْ مَـا ثَمَّة دُخُـولْ   إِلاَّ مِنْ بَـابِهِ ... إِلاَّ مِنْ بَـابِهِ

حُـبُّـهُ فَـرْضٌ عَلَيْنَـا لاَ يَـزْولْ   اللَّهُ أَوْصَـى بِهْ اللَّهُ أَوْصَى بِهِ

اِسْقِنِي شَرْبَة آتِنِي كَاسْ بِاللَّه يَا حَبِيبِي   نِشْرَبْ مِنْهُ عَلَى غَيْـظِ الرَّقِيبِ

وهنالك فرقة أخرى تقوله أقرب إلى العوامرية.

ويقول الشيخ الطيب محفوظ في حديث معه وجماعته: وتختم السهرة بإنشاد في مقام المزموم :

دُمْ يَا زَمَـانَ الْمُـنَى   فَـالْعَنَـا قَدْ رَحَـلْ

وَالسُّـرُورُ قَدْ بَدَا لَنَـا   وَالْهَـنَـاءُ حَـلْ

فِي ظِلِّنَـا لِلسَّـلاَمْ   هُنَا الْـهُمَـامُ ذُوالْكَـرَمْ

مَنْ بِهِ ازْدَهَى قَدْرُنَـا   وَحَـدا اَ إِلَى الرَّشَـدْ

خُذْ بِهِ يَا صَـابِرْ مِـنْ   حَـاسِدٍ إِذَا حَسَـدْ

سَـادَتِي لَمَّـا أَتَيْـتُمْ   وَنَـظَـرْنَـا لِبَهَاكُـمْ

وَسَأَلْنَا اللُّطْفَ مِنْكُمْ   وَاقْتَبَسْنَا مِنَ احْيَاكُمْ

قُولُوا قَوْلاً بِاخْتِصَـارْ   أَسْعَـدَ اللَّهُ مَسَـاكُمْ

وفي آخرالسهرة يقولون ثلاث مرات (خِتْمِتْ بِالصَّلاَةْ عَلَى النَّبِي). ومن أعمالهم

كبقية الطرق الأخرى :

دورة المطهر والعريس والحاج : نوبة خاصّة في الطريق يمشون بها (ولكلّ فرقة نوبتهاالخاصة) فيقومون بها أثناء ذهاب أو رجوع :

مِنْ عِنْدِ سِيدْنَا * جِينَاكُمْ زِيَّارْ * يَا اهْلِ الطَّرِيقَةالزِّينَة

وإذا ما زالت الطريق طويلة يضيفون نوبة المزموم :

لِيكِ الْغَــــرَامْ دْعَـانِي　　يَا شَيْخِي يَا الاَنْصَارْ

حُبَّكْ سَكَنْ فِي كْنَانِي　　سَامُـورْ شَعَّلْ نَـــارْ

وهم نوبة يسمونها نوبة **الدرج** في مقام الحسين منها :

إِذَا هَــــاجَ غَـرَامِي　　مَزَّقْ مَـــا كَـانْ عَلَيَّ

قُـولُـــــوا لِي هَنِيـــًّا　　رَايْتُ الْحْبِيبْ بْعَيْنَيَّ

بِيـــعُــونِي بِيــعُــونِي　　وآشْ قِيمْتِي؟ بِيعُونِي

وَانَا مَا يِشْرِينِي إِلاَّ بَابَا　　الْفِهْـرِي الاَنْصَـــارْ

برول، ثم : دَمْعِي جَرَى عَلَى صَحْنِ خَدِّي كَالْمَطَرْ　　وَالرُّوحُ مِنْ فَرْطِ الْهَوَى فِي هَاوِيَة

برول، ثم :　بَحْرُ سِرِّكْ مَاخَفَى　　مِنْ نُورِالسِّرِّ الْعَجِيبْ

برول، ثم :　يَا رَبِّ نَرْجُوكْ يَاكَرِيمْ　　وَاجْلِ عَنَّا كُلَّ غَيْمْ

ثمّ :　مُحَمَّدْ مَوْلَى الشَّفَاعَة　　نِتْـوَسَّـلْ بِبَيَـــانِـهْ

فهي نوبة مطرزة بإيقاع البطايحي، والبرول يعاد، فالدرج هو وزن البطايحي .

الدخول إلى الدار : يدخلون بالعادة في نوبة المحير سيكاه مطلعها :

يَا رَسُولَ اللهِ يَتا خَـــيْرِ الْبَشَرْ　　أنا خَـاطْرِي حَيْــرَانِي

كَيْفَ حَالِي حِينْ دْخُولِي لِلْقَبَرْ　　وَيْجِيــوْنِي الْمَلَـكَـانِ

ثمّ برول :   يَا مَـنْ يُرِيدُ مَسَرَّة   وَالْقَلْـــبُ يِبْــرَى

يُدْخُلْ وِسْطِ الْحَضْرَة * يَـــــا بَــابَــا * يَــا بَــابَــا

وِيزُورْ شَيْـخِ الْفُقْرَا   يَاشَيْخِـي نُصْـرَة

الْفَهْرِي شَايِشْ خَبْرَه * يَـــــا بَــابَــا * يَــا بَــابَــا

يَا مَــوْلَى غِيثْـــنِي * طَالِبْ مِنْكَ احْسَانْ * يَا بَابَا الأنْصَارِ

ومن المدحات العيساوية :

هَيَّا نْزُورُو شَيْخْـــنَا يَا فُقْـرَا   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

بَابَا الأنْصَـــارِ نْشُوفُـه نِبْرى   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

هَيَّا نْزُورُو شَيْـخْنَـا جُمْلِيّـــة   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

يــاَ شُوَّاشْ لِمُّــوا الأَزْرَجِيَّـــة   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

وَالْمَلْقَى فِي الزَّاوْيَـة الْفَهْــرِيّة   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

هَيَّا نْزُورْ شَيْـخْنَــا وَارْكَانَـــه   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

بَابَا الأَنْصَار(ي)يْكُونْ مْعَانَا   آه آه يَابَابَا يَابَابَا

اِسْقِيُـــــونِي يَــاسَـــادَتِي   اِسْقِيُونِي يَا عُمْدَتِي

اِسْقِيُونِي وَانَا عَطْشَانْ * يَـابَـابَـا * أَنَا سَقَانِي الأنْصَارِي

اِسْقِيُـونِي وانَــا عَطْشَـــانْ   يَـــابَـــابَـــا

ثمّ يجلسون ويقرؤون الفاتحة.

ثمّ يقومون بنوبة الاستفتاح : بطايحي ودخول وبرول فيبدؤون مثلا في طبع الحسين بـ :

اللهُ حَسْبُـنَــاَ   الله رَبُّــنَا

لَيْسَ غَيْرَ اللهِ   شَيْءٌ أَبَدَا

ثم استفتاح ثان في مقام المزموم (يَاكُلّ عَاشِقْ) وربما أنهوه بـ(أَلِفْ يَا سُلْطَانِي) وبراول من المالوف التونسي. ثم استفتاح ثالث في مقام العراق التونسي:)قَصْدِي أَنْظُرْ إِلَيْكْ)، ثم نوبات: الحسين والسيكاه .. وغيرها. ثم يأتي دور المدحات الخاصة بأحمد الفهري حتّى يصلون إلى الخمرة. ولهم نوبة خماري (في وزن المربع التونسي) :

خَمَّــرْ يَــا خَمَّارْ   خَمْرَة شَــاذْلِيَّة

وَالْفَهْرِي الأنْصَار   مَا اعــزُّه عَلَيَّ

خَمَّرْ يَـــا خَمَّــارْ   خَمْرَةِ الصُّبْحِيَّة

وَالْفَهْرِي الأنْصَار   مَا اعــزُّه عَلَيَّ

ثم : اِرْفَــعْ رَاسِكْ   لاَ يْقُولُوا غَابْ

يَـــا فِهْـرِي   يَـا حَطَّــابْ

ثم : لُو كانْ يِقْـبِلْ لِينَا   وِيجِي عْـلَى مُكْنَـاسْ

بَابَا احْمِدِ يَا فِهْرِي   يَامْخَلْص وحَلِ النَّاسْ

ثم : اللَّـــهُـــمَّ صَــلِّ   عَلَى النَّبِي الْمُخْتَـارْ

اللهْ يِرْحَمْ شِيـخْنَا   الْفَـهْرِي الأنْـصَارْ

برول :

شَوْقِي دَعَانِي * يَاأَهْــلَ الله * وَ هِمْتُ يَـا فُقْـرَا

دِيرُو الأوَانِي * يَاأَهْــلَ الله * اِسْقُـونِي خَمْــرَة

خَمْرَةْ غَـزَالِي * يَاأَهْــلَ الله * مْكَحّلِ الشَّـفْـرَة

يَاهُوَ يَــا هُوَ * يَاأَهْــلَ الله * مَا فَمَّة احَدْ غَيْرَه

رَبِّي تَـعَــالَى * يَاأَهْــلَ الله * فِي قَلْبِي سُكْـنَـاهْ

حَاشَا وكَـلاّ * الله يَاأَهْلَ الله * عُبَيْـدُه يِنْـسَـــاهْ

نِمْدَحْ نَبِينَـا * يَاأَهْلَ الله * أَحْمَدْ رَسُـولَ الله

مَوْلَى الْمَدْينَة * يَاأَهْلَ الله * وَالتَّاجِ وَ الحُـلَّة

يَا حَاضْـرِينْ * يَاأهْلَ الله * صَلُّوا عَلَيْهِ جُمْلَة

بَرول آخر : لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ اللهْ   أَحْسَنْ مَـا يُذْكَارْ

صَلُّـــوا عَـلَى مُحَمَّدْ   شَـــارِقِ الأَنْـوَارْ

إِذَا نْدِهْتْ لِكْ تَحْضَرْ   يَا شَيْخْ يَا صَـدَّادْ

بَابَا أَحْـمَدْ يَا فَهْـرِي   يَا صَاحِبِ الْمِيعَادْ

نوبة راست الذيل : شَعْرُكْ مِنْ جنَاحِ الْغُرَابْ   وَخَـــدَّكْ يَـــاقُـــوتْ

ثم : الْهَوَى قَدْ مَلَكْ فُؤَادِي   بِاللهِ فِي الْهَجْـرِلاَ تَزِيدْ

ثم : يَا عَاذِلِي بِالله   دَعْنِي أَزِدْ عِشْقًا

ثم : هَبَّ النَّسِيمْ * خَلْخَلَ الشُّمَيْعَة * لَمَّا بَدَا الصُّبْحُ وَظَـهَرْ

ثم : يَا مَنْ هُوَ   عَنِّي نَفَرْ

والملاحظ في عمل هذه العادة تزاوج الطرق ببعضها مثل العيساوية والعوامرية والسلامية وحتّى العادة الحطّابية والمالوف التونسي.



عادة السيدة عائشة المنوبية

هي عائشة بنت الشيخ أبي موسى عمران بن الحاج سليمان المنوبي، وأمّها فاطمة بنت عبد السميع، ومولدها [في حدود سنة 589هـ] بمنوبة غربي مدينة تونس. نشأت رضي الله عنها في حجر أبيها وقد اعتنى بتربيتها، فعلّمها القرآن الكريم حتّى أحسنت حفظه، ثمّ لاحت عليها علائم الزّهد والصّلاح، ويروى أنها كانت مجذوبة (والجذب في عرف الصوفية هو تفضّل الله تعالى بالولاية للشخص من غير أن يجشّمه أتعاب السلوك) [وكانت السيدة عائشة جميلةَ الذّات حتّى قيل عنها أنّها كانت أجمل عباد الله، وأن النظر إليها فتنة.][1] فأراد أبوها تزويجها من أحد أقاربها فلم تقبل وبقيت على عزوبتها، وقيل إنها تزوجت ثمّ ارتحلت إلى سكنى الحاضرة بقصد الانقطاع للتبتّل، فقطنت منزلا خارج ربط (رياض مسعود) وهو المعروف عندنا اليوم بالمركاض حيث المقام المشتهر الآن باسمها.

وكان شأنها العبادة وغزل الصّوف، وهو مورد حياتها، حُكِيَ في مناقبها أنها ختمت القرآن الشّريف في حياتها ألفا وخمسمائة وعشرين مرّة.[كانت كثيرة التردد على جامع الصفصافة وجبل الزلاّج ومقبرة بني خراسان (بالقرب من باب المنارة) ومغارة الشاذلي،

1 محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 252.

وتجتمع بأصحاب الشاذلي أو غيرهم من الصّالحين وكان محمد بن محمد الأربصي من خدّامها، وكان من أصحابها في الصلاح سيدي عثمان الحداد بو قبرين وهي تُلازمه في التّلاوة والذّكر.][1]. وكانت رضي الله عنها تبرّ بالفقراء والمساكين وتكرم المحتاجين، فما تحصّل عليه من عمل يدها تصرفه في سبيل الله. يُروى أنّها إذا بات في جيبها درهم ولم تتصدّق به تقول: "الليلة عبادتي ناقصة". وهذا ما يدلّ على خيرها وحنانها. وكانت ربّما تنقطع أيّامًا عن الذّكر، وعندما تُسأل عن ذلك تُجيب: " لاخير في ذكر اللسان مالم يكن القلب حاضرًا ". وأخذت السيّدة عائشة علوم اليقين عن الصالح الجليل وحبر الصوفية الكبير الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، ولها مع شيخها أخبار مذكورة وأحاديث مشهورة يرويها محبّوها خلفا عن سلف. [قالت : أنا رأيت أبا الحسن الشاذلي وأعطاني خاتمه من إصبعه وقال لي: أنا أوليتك طريقتي. وقالت: رأيت الشاذلي مرّة أخرى وأعطاني علمه وصبره.]

وشاع خبر صلاحها بتونس وقطرها فلم تزل معظّمة مكرمة إلى أن أجابت دعوة ربّها ضحوة يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب سنة 665 هـ على عهد السلطان المستنصر بن أبي زكرياء الحفصي، وحضر جنازتها غالب علماء تونس في ذلك العصر، وآخر كلام سمع منها عند احتضارها:{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}. توفّيت رضي الله عنها في سنّ عالية في السادسة والسبعين من عمرها ولم تُدفن بمنزلها بل دُفنت بروضة القرجاني خارج شرف المركاض كما في التصريف القديم. فما أشبه حياتها وخلالها بالسيدة رابعة العدوية العابدة الشهيرة وما أحقّها بقوله تعالى:{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي }[1].

طريقة العمل : يقول الشيخ علي بوقرّة: ميعاد السيدة يوم الاثنين، ومن كانت على ميلاد (أي مخاض) أو وعدة (نذر) أوتريد الترويح على النفس، يكتري لها زوجها كروسة (عربة مجرورة بجواد) وتأخذ معها سماطا (أكلا) وبخورا وشمعا، وتجد هناك الربايبية (أي عازفة الرباب) ومعها بندير ودربوكة، وعوّضت الكمنجة الرباب وتسمّى العازفة: الجراينية (من الجرانة أي الكمنجة)، فتغنّي هؤلاء النسوة أغاني ومدحات

1 حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، طبعة ثانية، مكتبة المنار، تونس، ص: 117.

السيدة المنوبية. ثمّ اضمحلّت هذه الفرق النسائية وتلقف اليهود هذا اللون من الفنّ، ومكثوا يغنونه في منازلهم وسهراتهم الخاصّة. ويقول الشيخ علي بوڨرة: أنّه اشتغل معهم عوّادًا وعازف بنذير، فيغنّون نفس الغناء غير أنّ الكلام يتغيّر، فمثلا (عدّالة يا عدّالة) لعبد السلام الأسمر لاتُنشد هكذا إلاّ في دار المسلمين أوفي مقام السيدة المنوبية، أمّا في دور اليهود فتعوّض بـ"هجّالة يا هجّالة" مثل عيساوية البلّوط[1] اليوم. ويقول الشيخ علي بوڨرّة أن هذا النوع اضمحلّ من تونس وقال أنّه في عهد المرحوم قدّور الصرار في أراد تسجيله في الإذاعة لكنّ المنيّة عاجلت المرحوم قبل ذلك وعندما فقد سي ڨدّور فقدت معه الربايبية.

وفي استجواب للدكتور صالح المهدي[2] قال: إن العمل في الزاوية المنوبية وزاوية سيدي علي الحطاب، صاحب الإمام أبي الحسن الشاذلي هو نفسه. فيقع عمل بالزاوية المنوبية يوم الاثنين تقوم به الفرق النسائية، وآخر حضرة كانت للسيدة بيّة الحولة وكانت ممثلة وتعزف على آلة الكمنجة.

أما في ليلة الجمعة فالعمل للرجال فيقومون في قهوة الخميس بالطريقة الشاذلية مثل قهوة السبت. وكل جماعة لهم طريقتهم في تقديم العادة، فيدخلون بها وتكمل بطريقة الكانون (CANON) فيفترقون إلى حلقتين واحدة من هنا تقول، والأخرى من هناك ترجع. والذي كان يسيّر الجماعة هو الشيخ الشاذلي خْلاص الذي كان قائما بجميع الطرق الموجودة بتونس حتّى بالطرق الزنجية.

والحطابية والمنوبية نفس اللحن ونفس الكلمات مع تأثيرات بسيطة وتغيير جزئي، فجماعة الحطابية ينسبونها إليهم وجماعة المنوبية كذلك.

زياراتها : وذكر الصادق الرزقي في الصفحة 90 من(الأغاني التونسية) أن خلوة السيدة المنوبية خارج باب القرجاني (بالعاصمة)، فيتشارك في زيارتها النساء والرجال، وفي ليلة الجمعة من كل أسبوع تأتي طائفة من جماعة الطريقة الشاذلية فيذكرون شيئا

1 انظر فصل حزب البلوط في آخر كتابنا هذا .
2 استجواب قام به الأستاذ حسين الحاج يوسف يوم الإثنين 17 فيفري 2003 بنادي زرياب بنهج فلسطين بتونس العاصمة.

من الإسم ويمدحون بنغمات بسيطة خفيفة لا تمجّها الأذواق بعض المدائح منها هذه المدحة وتؤدّى على إيقاع المجرّد 5 من 8 مثل العيساوية تماما :

ردة: نِسْــتَفْـتَحْ بِاسْمِ اللهْ يَامَا احْلَى ذِكْرِ الْجَـلاَلَة

مُحَمَّــدْ رَسُــولِ الله هُــوَ ضَــامِنِ الْغَزَالَـة

بيت : يَا لَـلاَّ يَا نُــورِ الْعِينْ خَبْرِكْ شَايْدْ فِي الْوَطْنِينْ

مِيعَادِكْ جِمْـعَة وَاثْنِينْ مَا هُو يْسَمُّــوكِ الْعَدَّالَة

بيت : يَـالَلاَّ نَـا جِيتِـكْ شَــاكِي مُضَامْ ومَهْمُــومْ وبَــاكِي

دَبَّرْ كِيفِ يْكُونِ سْلاَكِي مَا هُو يْسَمُّــوكِ الْعَـدَّالَـة

بيت : يَالَلاَّ يَا مَا احْلَى مْقَـامِـكْ فِي تُونِسْ مَشْهُورَةاعْلاَمِكْ

أَنْتِ بَـيَّة تَحْمِي خُدَّامِـكْ دَارِكْ تَغْـلِي بِالـرَّجَّـالَـة

بيت : عِنْـدِ الْخَصَّـة دَار الدُّورْ وِمْقَامِـكْ بَاهِي مَشْـكُورْ

يَابَـيَّـة وَعْلِيــكِ النُّـورْ مَـا هُـمِ يقُـولُوا الْعَـدَّالَـة

بيت: يَالَلاَّ نَـا جِيتِــكْ نِشْكِي مَدْرُوكْ وْ مَهْـمُومْ ونِبْـكِي

قَعَّدْ لِي حِمْـلِي مِتِّــكِّي يَا فَايْـزَة فِي كُـلِّ عْمَـالَة

ومثل ذلك يفعلون في عشية كلّ أحد وليلة كلّ إثنين، فيذهبون إلى مدينة منّوبة ويذكرون الاسم ويمدحون. ومن العادة المنّوبية :

جِيــنَاكْ يَـا كُونِيَّة بِصِــدْقٍ وَ نِيَّــة

جْينَاكْ يَا عَــدَّالَة نِبْـغُوا مِنْــكِ دَالَـة

وَاللِّي تْضِيقْ احْــوَالَه يْنَادِي عْلَى الشَّرْعِيّة

جِينَاكْ يَا مَحْبُوبَــة نِبْـغُوا مِنّك نُوبَــة

حَجَّة ومْعَـاهَا تُـوبَة وْزَوْرَة لْسِيــدْ رْقَيَّة

جِينَاكْ تحِنَّ عْلِينَـا ... بَالِك تْفَرَّطْ فِينَا
يَاسَيِّدَة واسْقِيـنَا ... خَمْـرَة رَبَّـانِـيَّة
جِينَاكْ نِبْغُوا اسْـرَارِكْ ... حِنِّي عْلَى زِيَـارِكْ
مَعْلُومْ تَحْمِي جَـارِكْ ... وَالْحَاجَـة مُقْضِيَّة
جِينَاكْ يَا مَشْـهُـورَة ... يَا فَايْـزَة بِالصُّـورَة
مْقَامِكْ مْشَعْشَعْ نُورَه ... يِضْـوِي مِثْلِ ثْرَيَّا

ومنها : يَا زِيَـارِ الْمَنُّوبِيَّة ... زُرْهَا وَالْحَاجَة مُقْضِيَّة

زُرْهَا رَاهِي مُسْرَارَة، مَحْبُوبَة عَنْدِ الذَّكَّارَة، وَاللِّي يْغِيبْ تْجِيهِ لْدَارَه، وِتْجِيبْ عْلَى كُلِّ ثْنِيَّة
زُرْهَا رَاهِي نَفَّاعَة، مَنْ جَاها يِشْكِي باوْجَاعَه، يِتْضَرَّعْ كْثِيرْ فِي سَاعَة، هَلُمّوا يَا اهْلِ النِّـيَّة
زُرْهَا رَاهِي مَحْبُوبَة، وِالْخِدْمَة فِيهَا مَطْـلُوبَة، حَضْرِتْهَا لَلاَّ مَنْصُوبَة، نِعْمَ الْحَضْـرَة الشَّاذلِيَّة
يَادَاخِلْ فِي هَاالْحَضْرَة، تِسْعِدْ فِي الدِّنْيَا وْالأُخْرَة، يِحْضَرْلِكْ وَقْتِ الْغَسْرَة، الْغُوثِ امَامِ الصُّوفِيّة
الشَّاذْلِي مُولَى الْعَنَـايه، لاَ تُحْصَى لِيهِ مْزَايَا، يِكْفِـيهْ فَخْرِ الُولاَيَة، جَـدُّه خَيْرِ الْبَرِيَّة
يَارَبِّ صَلِّ وْ بَـارِكْ، عَلَى الْمُصْطَـفَى الْمُبَارَكْ، وْعَلَى الآلِ كْذَلِكْ، وِالصَّحَابَة وِ الذُّرِّيَّة
وَالأَزْوَاجِ الطَّاهِـرِينَ، اَهْلِ الْبَيْتِ أَجْمَـعِينَ، وَ جمِيـعِ التَّابِعِينَ، لِلشَّـرِيعَة الاِسْلاَمِيَّة

ولها عدّة مدائح أخرى سواء منفردة أومع أولياء آخرين كأبي الحسن الشاذلي والشيخ علي الحطّاب، أوغيرهما.



العادة الحطابية

نسبة إلى سيدي علي الحطاب من أصحاب الإمام الشاذلي توفي سنة 671 هـ ودفن بزاويته المعروفة قرب المرناقية وهي في المكان المسمّى سابقا "شاذلة" حيث نزل أبو الحسن الشاذلي عند قدومه من المغرب وإليها نسب[1]، والشيخ الحطاب هو أوّل من تعرّف بأبي الحسن حين قدومه حين كان يبيع حملا من الحطب فلقي الشيخ أبا الحسن فصحبه إلى شاذلة ومن هناك لازمه. وذكر من ضمن أصحابه وهو الرقم 35 في الصفحة 345 من مختصر الإمام الأمجد لأحمد بن المهدي الغزال، إذن، فهو من معارف السيدة المنوبية أيضا ومن نفس المدرسة.

يقول السيد محمد الكحلاوي الصحفي أستاذ تاريخ المسرح بالمعهد الأعلى للموسيقى بسوسة أنّ هنالك مهرجانا باسم "مهرجان سيدي علي الحطّاب" يقام في الأسبوع الأخير من شهر ماي، فيشارك الزوّار من الفرق الصوفية في الأيام الأولى بما لديهم، وفي اليوم الأخير يقع تقديم أمداح "سيدي علي الحطاب" ويختم الكلّ بعمل الشاذلية وقراءة أحزابها. وبعد أسبوع من اختتام المهرجان ينطلق العمل الشاذلي كلّ مساء خميس بعد صلاة العصرحتّى الفجر. ويتوزّع هذا العمل على المقام الشاذلي ومقام سيدي ماضي بن

1 الصادق الرزقي، الأغاني التونسية، ص 89.

سلطان الذي هو نموذج مصغّر من المقام الشاذلي بالإضافة إلى العمل الشاذلي الذي يقع طيلة السنة صباح كلّ سبت.

والحطابية والمنوبية نفس اللحن ونفس الكلمات مع تأثيرات بسيطة وتغيير جزئي، فجماعة الحطابية ينسبونها إليهم وجماعة المنوبية كذلك. وهناك جماعة من الشاذلية تذهب في ليلة كلّ جمعة إلى سيدي علي الحطّاب فيذكرون الاسم ويمدحون أيضا، ومن مدحاتهم في الشيخ علي الحطّاب :

حَطّابْ يَا ابِّيْ عْلِيكِ الْعَدَادْ طَوَّلْتِ الْغِيبَة وْزَادِتْ الاَبْعَادْ

صِيدِ الْبْحِيـرَة شَعْشَعْ نُورِكْ بْحَبِيـبه رَبِّي سَـاكْنَة الِبْـلاَدْ

حَطَّـابْ بَابَايَ نَايَا وْلِيـدَه مُحَالْ يَغْضَبْ وْيَعْمَلْ تَنْكِيـدَه

ارْفَعْ بِالـرَّاسْ وَخُذْ بِيـدَه نَا خْدِيمِـكْ يَا سَيِّدْ الاَسْيَـادْ

مدحة أخرى : اِرْفَعْ رَاسِـكْ لاَيْقُـولُـوا غَابْ يَـا عْلِي يَـا حَطَّـابْ

طِيرْ وَاعِـرْ فِي السمَـا جَـلاَّبْ يَـا عْلِي يَـا حَطَّـابْ

طَلِّيـتْ مْنِ الْهَنْـشِيــرْ رِيتِ الْقُبَّة مْبَيّضَة بِالجِيرْ

بَـالِكْ يقُـولُـوا الصِّيـدْ عَنِّي غَـابْ يَا عْلِي يَاحَـطَّابْ

طَلِّيـتْ مِن الزَّهْـرُونِي قُبَّةْ سِيدِي مْقَابْلَة عْيُونِي

اللِّي قَصْـدِكْ لاَ يُغْـلاَبْ يَـا عْلِي يَـا حَطَّـابْ

اِيجَـانِي كِيـفِ الْبَـيّ وَعْسَـاكِرْ تِـدْوِي دَيْ

دْخِيـلِكْ بِالله اِفْتَحْ لِي الاَبْوَابْ يَـا عْلِي يَـا حَطَّـابْ

وللحطّابية خرجة يقولون فيها :

بِـاسْمِ الله وبِـالله وبِجَـاهِ رَسُـولِ الله

بِالسّادَة أَوْلِيَاء الله فَضْلِكْ يَانِعْمَ الْمَوْلى

بِاسْمِ اللهِ سَمِّينَـــا   بِاسْمِ الْعَظِيمِ بَدَيْنَا

بَعْدَ الْحَمْدِ صَلَّيْنَا   صَلاَةٍ تْبَلَّـــغْنَا لله

ومن مدحات سيدي علي الحطاب :

الله الله   الله الله

اَلْحَطَّابْ زَيْـــنِ اللِّثَـامْ   مِنْ أَجَــاوِيدِ الْخِيَـــامْ

اَلْحَطَّابْ مِنْ فَضْـلِ رَبِّي   شُوفُوا فَضْلُه يـاكِــرَامْ

فْصَلِّ الْقُــــدُوم عَلَيْـه   جُزْتُ مِنْ بَابِ السَّـلاَمْ

نُـورُهُ يَلُــــوحْ عَلَيْــه   وَسْطَ الْحَـرَمْ وَ الْمَقَـامْ

اِرْضَ يَـــا رَبِّ عَــلَيْه   صَلِّ عْلَـى بَدْرِالتَّـمَـامْ

لَيْلَة جَمْعَ الْمَفَــاخِــرْ   هِيَ ذُخْرِي وَاسْتِـنَـادِي

بِمَــقَـــامٍ قَدْ تَسَـــامَى   بِالْـوَلِي قُـطْـبِ الْبِلاَدِ

صَاحِبِ الْفَخْرِ الْمُعَـلَّى   فِي رِضَـــا رَبِّ الْعِبَــادِ

يَا شَيْخِي عِنْدَ اعْتِمَادِي   أَنْتَ يَاحَطَّابُ ذُخْــرِي

وِالْجَالِي بِكُمْ يُنَــادِي

أَقْبَـلَ الْبَـــدْرُ عَلَـيْنَـا   مِنْ ثَنِيَّـــاتِ الْــوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْـنَــا   مَـــا دَعَــــا للهِ دَاعِ

أَيُّهَـا الْمَبْعُــوثُ فِيـنَـا   جِئْتَ بالأَمْــرِ الْمُطَاعِ

صَلِّ يَــا رَبِّ عَلَـيْـــهِ   مَـــا دَعَــــا للهِ دَاعِ

أَقْبَلَ الْبَـدْرُ عَلَـــيْنَـا   وَاخْتَــفَتْ مِنْهُ الْبُدُورْ

مِثْلَ وَجْهِكْ مَا رَأَيْـــنَا   قَطُّ يَـا وَجْهَ السُّــرُورْ

أَنْتَ شَمْسٌ أَنْتَ بَدْرٌ أَنْتَ نُورٌ فَوْقَ نُورْ

أَنْتَ، وَاللهْ، يَا مُحَمَّدْ أَنْتَ مِفْتَاحُ الصُّدُورْ

يَا إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ يَا شَفِيعَ الْمُذْنِبِينَ

أَرْسَلَكْ مَوْلَى الْمَوَالِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

وَأَتَانَا بِكَ غَيْثٌ حَلَّ فِي كُلِّ الْبِقَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا للهِ دَاعِ

زُخْرِفَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

قَالَ رَبِّي فَادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ

مَرْحَبًا أَهْلاً وَسَهْلاً بِكَ يَا بَدْرًا تَجَلى

أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْمَعَالِي مُذْ بَدَا وَجْهُكَ يَجْلى

يَنْجَلِي بِكَ الظَّلاَمُ مِنْ سَنَا حَرَمِكْ وَوَجْهِكْ

يَا إِلَهِي بِالْمُشَفَّعْ صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمُرَفَّعْ

لاَ تُخَيِّبْ يَا إِلَهِي كُلَّ مَنْ حَضَرْ وَيَسْمَعْ

صَلِّ صَلِّ صَلَوَاتُ الله عَلَى الْمُصْطَفى

صَلِّ صَلِّ صَلَوَاتُ الله عَلَى مَنْ قَدْرُه عَلاَ

صَلِّ صَلِّ صَلَوَاتُ الله عَلَى مَنْ حَوَى

صَلِّ صَلِّ صَلَوَاتُ الله عَلَى الْمُصْطَفى

لاَ تُخَيِّبْ يَا إِلَهِي كُلَّ مَنْ حَضَرْ وَيَسْمَعْ

نوبات الأولياء الصالحين من غير أصحاب الطرق

لا شك أننا لم نقف على جميع ما وجد فلا بدّ أن يكون قد غاب عنّا ما لم نعثر عليه أو لم يصل إلى علمنا عنه شيء، ولكن لا يمكن أن نمرّ دون لفت النظر إلى أنّ العديد من البلدان والقرى تنسج للولي الموجود بجهتها أو ما يسمونه الأب الروحي بعض النوبات والمدحات التي لا تصل إلى الشهرة حدّ الانتشار، أسوق من ذلك بعض ما يوجد بالمنستير من تغنّ بأولياء الجهة كمدائح للسيدة أمّ ملال ذات الرباط القريب من رباطي هرثمة وسيدي ذويب :

يَـــا سَيِّـــدَة يَـــا نَغَّـارَة　　رُدِّي الِـغْـــرَيِّبِ لأَوْكَارَه

يَـــــا غَـرْبِـيّـــــة　　لاَ تَقَـــصَّرْ جَـاهِـكْ عَلَيَّ

إِنْتِ وَلَلاَّ الخِـلْـوِيَّـــة　　دَبَّـــــرْ عَـلَيَّ يَا جَـــارَة

نُــــورِكْ يِعْجِـــبْ　　يَا لاَبِـــسَة كِسْوَة مْذَهَّــبْ

وَالنُّور عَلَى أُمْتِي يِعَجِبْ　　وْهِيَ عُرُوسَة حَضَّـــــارَة

جِيـــــتْ نْــــزُورِكْ　　جِبْتْ شَمْــعِكْ وِبْخُــورِكْ

يَا لَلاَّ وِ يشَعْــشَعْ نُــورِك جِبْتِ الـــدَّوَاء مْنِ المُحّـَارَة

مولاة الْبِـــــيـــرْ مُولاَة السَّنْـــجَقْ وِالْبَنْدِيـــرْ

يَا أُمّي جِيتْ عْلِيكْ دْخِيلْ دَبَّرْ عَلَيَّ بِـــدْبَـــارَة

سَـــاكِنْــةِ السُّــورْ يَا لاَبْسَة الحَــرَامِ الْمُــورْ

وَيجْعَل حَـالْنَـــا مَسْتُــورْ وْهِيَ عُـرُوسَـة حَضَّـــارَة

غَطّـــنِـي بْكُـمِّــكْ سِيدِي ذْوِيب وَخَيِّكْ مِنْ أُمّكْ

يَـــا سَيِّـــدَة حِلِّي فُمُّـكْ دَبَّــرْ عَـلَيَّ يَـــا جَـــارَة

جِيتِـــكْ نِـجْـرِي جِبْتْ بْخُــورِي فِي حِجْــرِي

يَـــا أُمِّي أُطْلُـــبْ لِي رَبِّي جِبْت الـدّواء في المغَّـــارة

أو نوبة المازري التي منها :

يَا مَازِرِي حِلّ الْبِيبَـان وَاعْرُضْنِي وَافْرَحْ بِـيَه

أو سيدي منصور بيزيد :

عَنْدْ ابَيْ مَنَصُورْ خَلِّيتْ عَـقْلِي

وِاذَا رَادَ اللـــــه غُـدْوَة نْــوَلِي

أو سيدي أبي بكر الحنفي :

بُوبْـــكِرْ يَـــا بُو بْـــكِرْ يَا حَرْبِي يَا كَامْلِ السِّرْ

بُوبَكَّـرْ وَلَلاَّ عَـافْيَة مْـــوَالِي النِّيَّة الصَّافِيَة

لاَ تْخَفَاهُمْ خَــــافِيَة يَقْـضِي الأَشْـوَارِ الْكُلْ

أو سيدي سالم التباسي :

سَالِـمْ هَا يَـا تَبَّـاسِي بَابَا يَا عْصَـابِةْ رَاسِي

وِيَـــا بَابَا قَلْـبِي مَغْرُومْ   لاَ نُرْقُدْ لاَ يْجِينِي نُومْ

يَا تَبَّاسِي وَعْلِيكِ اللُّومْ   آه يَـا بَابَا وَ احْضَرْ لي

أو سيدي فرج وسيدي جابر (بالمهدية) :

بَابَا فْــرَجْ وَبَابَا جَــابِرْ   وْهُونِيَة نَصْبُوا الدِّيوَانْ

مْعَاهُمْ الاَسْمَرْ وِلْدِ سْلُومَة   وْمْعَاهُمْ عَشْرَة فُرْسَــانْ

أو :

بَـابَـا جَابِــرْ يَــا أَبِّيَّ   يَا عِـــزِّ الـــزِّيَّـــارْ

بَـابَـا جَـابِرْ فِي الْمَـهْدِيَّة   يَــا شِيخْ يَــا فْحْـــتَارْ

بَـابَـا جَـابِـرْ هَا يَا تُـرْكِي   يَا بَاشَا مْصَدَّرْ عَ الْكُرْسي

يَامَنْ هُو مُضَـــامْ يِشْكِي   يَقْضِـــي لِي الاَشْـــوَارْ

بَابَا جَابِرْ مَــاكِ حْنِيــنِي   يَــا بَاشَا يَــا قُرّة عِيـــنِي

مِيعَادِكْ مَـــاذَا يْحَـمِينِي   آقِـــفْ عَلَيَّ جْـــــهَارْ

بَابَا جَــابِرْ مُـولَى الْمَاجِلْ   يَـــا طِيرِ مْهَوِّدْ بْجْـلاَجِلْ

طِيرِ الْبُرْنِي عُرْضْنِي عَاجِلْ   مْـــرُوَّحْ عَ الاَفْـــــجَارْ

بَابَا جَـــابِرْ يَا مَشْـهُور   يَا حُوتَة فِي سَبْـعَة بْحُـــورْ

مَدْفَعِكْ يَضْـرَبْ بِالْـكُورْ   يَضْـرَبْ خَافِي وِجْـــهَارْ

بَابَا جَابِرْ فِي الْمَهْـدِيَّـــة   يَـــا حُـوتَة فِي وُسْـــطْ مَيَّة

وِينُـه بَعْـــلِي هُـــوَ لَيَّ   يِبْعِـدْ عَنِّي الِـــغْيَـــارْ

أو سيدي شبيل :

يَا وِلْدْ شْبِيـــلْ اعْطِيــنِي دالَة   وايجَا فِي اللِيلْ يَا غْلِي يَابَابَا

زِينِ الْبَرْنُوصْ وَاعْرُضْنِي عْلَيّة   كايِنُّه عْرُوسْ يَا عْلِي يَا بَابَا

أو سيدي المديوني :

يَـــا مَدْيُـونِي يَا سُلْـطَانْ   بَاباَ تَاخُـــذ بِـــدَيَّ

خَبْرُه شَـايِدْ فِي الأَوْطَـانْ   قُـبَّـة بِيضا مِـبْـنِيَّة

مَدْيُونِي يَـا مُولَى الْـخِيـرْ   مُـولَى السَنْجَقْ وَ الْبَنْـدِيرْ

وَانَا جِيتْ عْلِيـكْ دْخِيـلْ   بَابَا رايِـسِ الْبَـحْـرِيَّـة

مَدْيُونِي مُـولَى الاَبْحَـارْ   وِ يعُومُـوا فِيـه الصِّـغَارْ

الله لا يْـوَرِّكْ غْـيَـارْ   بَابَا مَـا يْخَـلِّي بِيَّـا

يَا بَابَـا مُـولَى الِقْـدَرْ   سَـاكِنْ عَلَى شُـط الِبْحَرْ

مَـا يْخَلِّـي لِي فُـمِّـي مُـرْ   بَابَا وِينُـوبْ عْلـيَّـا

مَدْيُـونِي يَا مُـولَى الْهِيبَة   سَـاكِنْ على شطّ القصيبة

رَانِي عَطْشَانَ اعْطِينِي شْرِيبَّة   صَـافِيَـة وَ زُلاَلِـيّة

مَدْيُـونِي مُولَى التَّـابُوتْ   يْنَحِّـي فِيـهِ الْبُـونَاغُوتْ

يْنَـحِّي فِيـهِ الْبُـونَاغُوتْ   بَاباَ يَـاخُـذ بِـدَيَّ

مَدْيُـونِي عَلَى الْكَيَّـاسْ   ومَـا تْشَمَّتْشِي فِيَّ النَّـاسْ

وإِنْ شَـاء الله نْـرَوَّحْ   لاَ بَاسْ بَاباَ يَاخُـذ بِـدَيَّ

بَـابَـا مُـولَى الْحَضْـرَة   يَا لَبَّـاسِ الْكَشْـطَة الْخَضْرَا

يَا سِيـدِي دَاوِيـنِي نِبـْرَى   بَابَا مَـا يْخَـلِّي بِيَّـا

أو سيدي الناصر :

يَـا حِمْـرِي الْعِيـنْ   يَـا بَـابَـا النَّـاصِـرْ

يَـا حِمْـرِي الْعِينْ   وَانَـا النَّـادِي

انَــا نْنَــادِي وانْـتَ — وِيــنْ يَــا بَابَا النَّــاصِــرْ
يا قحتار والفقراجاته — على بـــــاب الـــــدار
أحكـم خـافي وجهار — احكم يا سيدي حكم سلاطين
زيـــن البـرنوس — داخـــــــل للحـــضــرة
كـــأنـــه عـــروس — شـــــوشــة على اكتــافه
منـحّي الكـبّـوس — واعـــــدل يـــا بــابا
جكم ســلاطيــن — يـــا بــابــا النــاصر
زيـــن المنـــتــان — داخـــــــــل للحضــرة
كـانـــته سلـطـان — شوشـــة على اكتـــافــه
مثـــل الرمـــان — احكم يـــا سيـــدي
وكــــون فطيــن — يـــا بــابــا النــاصر
وعليـــه الوهـــرة — يـــا مـــا احلى النــاصــر
دايـــــر في الــوزرة — وافـــــزع لـــــي نغــرة
رانـي مضـــامـــة — وحمــلي علـــيّ ثـقـــيــل

أو أم دلال :

يَـالَــلاَّ يَــا أُمِّ دْلاَلْ — شَرْعَ الله تَعْفُـو بِالحَْــالْ

***

لَلاَّ يَــا جَــارِتْـنَا — اللِّيــلَة اعْطِينَــا بَرْهَتْنَـا
تَعْلَى وَ عْلَى عَــدُوّتْنَا — إن شا الله نباتوا عالكمال

***

للاَّ يَا سَاكِنْةِ السّـُورْ — اللِّيلَة جِيــتِــكْ نْــزُورِ

أَعْطِيـنِي الْوَهْرَة وَ النُّورْ   إن شا الله نباتوا عالكمال

***

للاَّ يَا سَـــاكِنْـةِ الْبَـــرْ   يَـا لاَبِـسْةِ حْـرَامْ قْـمَرْ

مَا تَخَــلِّي لِي فُمِّـي مُــرْ   إن شا الله نباتوا عالكمال

***

للاَّ يَا صَـافِيــــةِ النِّيَّـة   سَاكْنَه حُومْةِ طْـرَابِلْسِيَّة

وْخَيّهَا مُحمد بـن قَرْوِيَّـة   جَـارْهَا عْـمُـرِ الْقَـــلاَّلْ

***

لَلاَّ يَا مُـــولاَةِ الْبِيـــرْ   مولاَة الْحَضْرَة وَ الْبَنْدِيـرْ

وَانَا جِيتْ عْلِيكْ دْخِيلْ   تْجِيكِ الوِعْدَة بِالِكْمَـــالْ

***

لَلاَّ يَا سَـــاكِنْـــةِ الْمَـــرْ   يَا لاَبْسَة الْحَـــرَامْ أَحْمَـرْ

مَا تَخَّـــلِّي لِي افَيْـمِي مُـرْ   تْجِيكِ الوِعْدَة بِالِكْمَـــالْ

أو سيدي عمر مخلوف، أو أبي الفضل الغدامسي، وبلغ بعضها انتشارا كبيرا كنوبة أم الزين الجمالية التي نجد العديد من الطرق لا تغفل عن التغنّي بنوبتها، لذلك رأينا أن نفرد لها فصلا خاصا للثراء التي تماز به من طريقة إلى طريقة.

وهكذا اكتفينا بما نجده بالمنستير، والأكيد أن كل قرية وكل مدينة وكل جهة لها أولياؤها، ولهم نوبات مثل النوبات التي ذكرناها، وإن تمكنّا يوما من جمعها سوف نقوم بذلك ولكننا نهيب بأبناء كل جهة أن يجمعوا ما لديهم فهو مجد وفخر لجهتهم ومدينتهم وقريتهم، ونعتقد جازمين أنه لا تخلو بقعة من الجمهورية التونسية تخلو من مثل هذه النوبات.

أم الزين الجمالية

"هي الجليلة الصالحة السيدة أم الزين بنت سعيّد بن محمد بن صالح بن إسماعيل بن عثمان ابن علي بن تليل، فهي حفيدة سيدي إسماعيل[1] الولي الصالح نزيل زرمدين بالساحل الذي له ضريح يزار هناك"[2] يمكن تحزير ميلادها سنة 1734 تقريبا حيث إنها في ثورة جمّال على الرشيد باي كان لها من العمر 25 سنة، وقد وقعت الثورة سنة 1759، فيكون ميلادها في السنة المذكورة. تُوُفّي والدها وترك معها أخوين أحمد وسالما، فماتا وتركا عقبًا. أمّا هي فماتت عن غير عقب، وقد عاشت في القرن الثالث عشر في عصر الباي حمودة باشا أي حوالي 1280 هـ وقبلها أي أوائل القرن ولها زاوية بجمال[3].

وقيل إنها من نجع سعيّد، عاشت بين 1736 و1799م، كانت من المجاذيب جاء أهلها من فريانة من سلالة سيدي (تليل) الذي جاء مع الدولة الحفصية حوالي 1433م، من جبال أوراس بالجزائر فترك عائلته بفريانة، ورجع إلى أوراس بعد أن تحصل على مرسوم سلطاني بتبجيله حيث إنّه يرجع بالنسب إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان، "وفي

---

1 هو اسماعيل بن الشيخ محمد صاحب زاوية قصر زرمدين كان حيّا سنة 1003 هـ وقد حبّس أملاكه على أولاده محمد وأحمد وعلي وعمر وأبي بكر وعلى أعقابهم وذريتهم وهي أغلب سكان زرمدين. عن النيال، الحقيقة التاريخية، ص 319.

2 محمد الطاهر اللطيفي، أعلام ومناقب سيدي تليل وأبناؤه، مطبعة اليحياوي، القصرين، ماي 2006، ص 53.

3 النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص317.

القرن السابع عشر الميلادي استقرّت عائلات منهم (أي أولاد تليل) ببلدة فريانة وسكنتها حيث كان جامع سيدي عباس بن عبد اللطيف أوّل بناية شيّدت بفريانة الحديثة، ثم بنى أولاد تليل بفريانة - في فترات لاحقة- الزاوية ودورا لهم ومتاجر"[1] تروي الذاكرة الشعبية على لسان السيد رئيس جمعية صيانة مدينة جمال: أنّ نجع (تليل) خرج من فريانة في طلب الرزق حتّى وصل إلى المهدية فاستقرّ بها، وتوفّي ميلاد سعيّد أبو السيدة أمّ الزين بجهة السبالة بالمهدية، كما توفّي أخوها علي بن ميلاد تليل بنفس المكان ثم نقلوه إلى القصرين بمعتمدية العيون. فلما أتت سنون عجاف خرجت مع أخيها أحمد وبقية النجع من المهدية إلى جمّال، ونزلوا في حمى زاوية سيدي فرج الأنصاري بزاوية قنطش. وصادف أن أشارت على مربّي الإبل بكيّ جمالهم، فضحكوا منها إلاّ واحدا كوى جماله حسب إشارتها، وجاء وباء فأخذ الإبل ولم ينج منها إلا جمال الّذي كوى، فأصبح الاعتقاد في (أم الزين) راسخا.

ودخل أخوها في التجارة بالجمال وضربت قوافله إلى نفطة، فلمّا عزم على السفر حبسها، فقالت له: إذا أتاك همٌّ فصلّ ركعتين وقل: يا أمّ الزين. فضحك من قولها وخرج. فلمّا بلغ مزّونة (وهي معتمدية تابعة لولاية سيدي بوزيد تقع بينها وبين مدينة صفاقس.) كُسِرَ بعيره، فتركته القافلة هناك وسارت، ولما ابتعدت تذكّر قول أخته، فقام فصلّى ركعتين ثم نادى باسمها فإذا ببعيره واقف صحيحا، ولحق القافلة، وسبقها في الرجوع إلى جمّال، فما أن حلّ ركبها حتّى ذهب بعض رجالها إلى منزل أحمد بن ميلاد أخ السيدة لإعلام أهله بعطبه فإذا به هو الّذي يفتح لهم الباب.

كان علي باشا وأخوه محمد الرشيد ابني حسين بن علي يحبّان المتصوّفة وأهل الفن، ويكرمان أولاد (تليل). وعندما ثارت جمّال على محمد الرشيد باي المتوفى سنة 1759 نقلوا أم الزين إلى سوسة لأنها من عائلة شريفة، فأبت أن تركب إلاّ حمارا عوضا عن الفرس وعمرها إذ ذاك خمس وعشرون سنة. ثمّ نقلوها إلى الحاضرة فأنزلوها في زنزانة صحبة أسدين، فلمّا أصبحوا وجدوا الأسدين واضعين رأسيهما على ركبتيها وهي تعبث بشعرهما، فاعتقدوا فيها، وأمر الأمير علي بن حسين بن علي باشا[2] ببناء الزاوية الحالية

1 محمد الطاهر اللطيفي، أعلام ومناقب سيدي تليل وأبناؤه، مطبعة اليحياوي، القصرين، ماي 2006، ص 05.
2 بويع محمد الرشيد بن حسين بن علي بايًا، ثمّ خلفه شقيقه علي باي، وفي عهد هذا الأخير حاول اسماعيل

لها وجعل لهاجراية شهرية. وبالطبع فإنّ هذه الرواية هي رواية الذاكرة الشعبية.

في سنة 1759م احتمى الناس بزاويتها أثناء الحملة الباشية على جمال، وقامت بالشفاعة لدى الباي في القائد جعفر بن خضر المتواطئ مع الثائرين وقالت: (يا باي العسكر اشفع في جعفر) وقدكان متصرفا عامّا في الولايات وعاملا على المنطقة. ومن أجلها شفع في كلّ الجمّاليين وأرجع إليهم أراضيهم وأموالهم، وكرّم أمّ الزين.

لم تتزوج أم الزين، وعندما تسأل عن عدم زواجها تقول بأنها متزوجة بسيدي عامر المزوغي وهو طبعا من الخيال. وعاشت مبجّلة، وقد أهدى إليها المشير أحمد باشا باي مصحفًا ما زال إلى الآن بمتحف مدينة جمّال. وتوفيت سنة 1799م، ومنذ وفاتها وضع لزاويتها شيخ يسمّى بأمر عليّ من الباي نفسه وحذفت الآن هذه الوظيفة وأصبح مكانه حفيظ.

بنيت الزاوية، إذن، بأمر من علي بن حسين بن علي باشا الحسيني في أواسط القرن الثامن عشر، ورممت سنة 1962، ثم سنة 2001 - 2002 والناس الّذين يريدون أن يتبرّكوا بأم الزين يأتونها للزاوية. وكان الاعتقاد في التّراث الشعبي للاستشفاء بها والاستغاثة.

زياراتها : كلّ يوم خميس، وحدد هذا الموعد لأن جيش علي باشا دخلها يوم الخميس وشفعت لديه يوم الخميس فبجّلها الأعيان، وأصبحت الزيارة كل يوم خميس، فتأتي من قصر هلال والمهدية وصفاقس وهناك فرق نسائية تقوم بورد أم الزين فتذبح الذبائح وتقام الأختان (الطهورات) وبالزاوية مسكن للمرضى ليوم أو يومين للاستطباب، إذ يعتقدون أنّها طبيبة وينادونها بهذا اللقب في بعض مدائحهم. وتقع حضرة نسائية تنشد فيها أمداح أمّ الزين. وأحيانا تزور الزاوية فرق نسائية من المهدية، ورجالية من ماجل بن عباس وفرقة مدنية النساء بالمنستير وعائلات من زغوان والكل ينشد مدائح أم الزين. وكان الشيخ بودية يقوم بزيارات من صفاقس ويعمل فيها عملا بالزّكرة، هذا مع

بن يونس باشا افتكاك السلطة فتسلل في 19 أوت 1756 إلى مدينة جمال التي آوته ونصرته، فبعث إليه علي باي جيشا بقيادة الحاج علي بن عبد العزيز العوادي، فنزلت المحلّة بالساحلين قرب قرية معتمر وجلبت المدافع من سوسة، وانهزم الجمّاليون وخربت بلدتهم. وأما اسماعيل ففرّ إلى جبل وسلات فلما حاصر علي باي الجبل فرّ الثائر هاربا إلى تركيا سنة 1762. وتم في ذلك التاريخ إخلاء جبل وسلات من ساكنيه نهائيا، وتفرق الوسلاتية في كافة مناطق البلاد (محمد الصغير بن يوسف الباجي، المشرع المالكي في سلطة أولاد علي تركي، ترجمه إلى الفرنسية فكتور سرّاس ومحمد الأصرم تونس 1900.)

التذكير بأنّ أحزاب صفاقس بعد زيارتها كلّ سنة لمقام سيدي عامر المزوغي لا بدّ أن تعرّج في طريق الرجوع على مقام السيدة أمّ الزين.

ولأمّ الزين الآن لجنة تضامن تقوم بما يقرب عن 50 عائلة بإعانات مستمرة. دون الإعانات العارضة، ونظّم لأم الزين مهرجان يقام بمدينة جمّال باسمها.

نوباتها : لأم الزين عدّة نوبات تتّحد وتختلف في الكلمات وحتّى في الألحان من فرقة إلى أخرى ومن طريقة صوفية إلى أخرى، وقد تنشد القطعة الواحدة على طبوع مختلفة باختلاف الفرق المادحة. ويُقال إن لها أكثر من ثلاثين مدحة من بنزرت حتى صفاقس الكل يتغنى بأم الزين. ومن مدحاتها المشهورة: تنطلق بعروبي في (العرضاوي) حسب فرقة زهرة الكافية النسائية (وزهرة الكافية هذه بلغت التسعين سنة الآن من العمر(2004م)، وهي ما زالت تغنّي وتقود فرقتها القديمة، (والآن 2012) توفيت وورثها ابنتها) :

يَاسَيِّدة حَرْمِكْ مْنَوَّر بِالذِّكْر وْحُسْنِ المْعَانِي
يَـاسَيِّدَة قَلْـبِي مْغَيَّرْ نَحِّي الَعْدُو مِنْ قُـدَّامي

ثم ينطلق الانشاد في المدحة الأولى في العرضاوي :

يَالَلاَّ مْرِيـــضْ عْلِيــــلْ اِنَّادِي عْلَى امِّ الزِّيـــنْ
يَالَلاَّ مْرِيض عْلِيكِ انَّـادِي حَرَّمْتْ نُومِي رْقَـادِي
يَا طْبِيبة سْالْتِكْ بِالبَغْدَادِي يَا امّ ذْرَاعْ طْـوِيـــلْ
يَالَلاَّ[1] مْرِيـض عْلِيكِ اللُّـومْ يَا زِينَةِ الخَرْطُـــــومْ
يَا طْبِيبة رَانِي مَـضْـيُـــومْ نْغَـاغِي نْهَـار ولِيـــلْ
يَالَلاَّ مْرِيض عْلِيكِ انَّـادِي حَـرَّمْتْ نُومِي رْقَادِي
يَاطْبِيبة سْالْتِكْ بِالبَغْـدَادِي وجَدِّ الحَسَنْ وَحْسِـينْ

ثمّ يقع تطريز في(الصالحي) :

يَالَلاَّ جِيـــنَاكِ اللِّيـــلَة فِي لَيْلِةْ جِمْعَة وِفْضِيلَة

1 لَلاَّ: ياسيِّدتي أو يا مولاتي بالعامية التونسية، وأصل الكلمة تركي.

يَاامِّ الزّينَ عْلِيكِ الْحِيلَة   وَاحْضَرْ يَابْنَـيِّةْ جَمَّـالْ

ويرجع : يَا لَلاَّ يَا زِينْـةِ الشِّـبَّـــاكْ   وْيَـــا سَعْـدِ اللِّي رَاكْ

يَا طْبِيبَة خُذْالحَدِيثِ مْعَاكْ   يَا سْعَيْـدِيَّة بُومِنْدِيـلْ

يَا لِلاّ يَـــا زِينْةِ الخِلْوِيَّــة   يَا نَدْهَة كُلّ وْلِـــيَّة

يَاطْبِيبَة اَعْطفْ وْرُوف عْلَيَّ   يَا امّ ذْرَاعْ طْـوِيــلْ

يَالَلاَّ يَازِينْةِ التَّـــابُــوتْ   يَا اللِّي خَبْرِكْ مَنْعُـوتْ

يَامْسَـــيِّبْةِ الْمَرْبُــــوطْ   فِي حْـدِيدْ وِسْكَاكِيـنْ

يَا لَلاَّ زِينْةِ الجْـبَّـــالَــة   يَا بَيَّـة فِي كُلِّ عْمَالَـة

مَعَ الشَّيْــخْ بُــودِرْبَــالَة   وْجَدِّ الْحَسَنْ وَالْحُسَيْنْ

وكذلك من مدحاتها :

مَاذَا عْطَـاكِ الْعَـــالِي * يَا لَلاَّ * قُطْبَـــجِيَّة وْسِـرُّهَا رَبَّـــانِي

مَاذَا عْطَـــاكْ وْ زَادِكْ * يَا لَلاَّ * حَصَّنْ عْلَى حَرْمِكْ وْشَالْ اوْلاَدِكْ

اللِّي قْصَـدْ مِيـــعَادِكْ * يَا لَلاَّ * وِبْخُورْهَا عَنْبَرْ وْعُـــودْ قْمَــارِي

مَاذَا عْطَاكِ الْـــوَهْرَة * يَا لَلاَّ * وِبْنَيِّة أُمِّ الزِّيــــنْ بْجِبَّة خَضْـرَا

اللِّي وِقْفِتْ فِي الْحَضْرَة * يَا لَلاَّ * وِبْخُورْهَا عَنْــبَرْ وْعُـودْ قْمَـارِي

مَاذَاعْطَــــاكِ النُّـورْ * يَا لَلاَّ * يَا حْلِيمَة يَا زِينَةِ الْمَضْــــفُــورْ

رَوَّحْتْ عْلِيـكِ نْـدُورْ * يَا لَلاَّ * فِي مَكَّة رَاوُوكْ مَــعَ الجِيـــلاَنِي

مَاذَا عْطَـــاكِ الْهِيبَة * يَا لَلاَّ * حَصَّنْ عْلَى حَرْمِــكْ وَدَارِ زْرِيبَة

مِنْ بْحَرِكْ نَاخذ شْرِيبَة * يَا لَلاَّ * وَاسْقِينِي مِنْ كَاسِــــكِ الرَّبَّانِي

ومن مدحاتها أيضا (في امتزاج بين العرضاوي والصالحي):

قُولُوا لأمّ الزِّينْ حَالِي فَانِي يَــا خَمْرَة مِنْهَــــا قَوِيَّـــة

دَبَّرْ وَاشْ يِصِيرْ فِي بَرْيَـانِي يَــا طْبِيــبَـة فَـــرِّجْ عْلَيَّ

يَالَلاَّ سْــأَلْـــتِكْ بْــرَبِّي بْمُحَمَّدْ عْـــزَيِّزْ قَلْـــبِي

يَاطْبِيبَة يْخَلِّفْ عَلْ صَبْرِي (هَا يَا بَيّة) سَافِرْ مْعَـانَا وَخُذْ ثْنِيَّة

يَالَلاَّ سْأَلْتِــكْ بِالْعِـــشْرَة مُحَمَّدْ يَــا سِمْحِ الْبَشْــرَة

يَاطْبِيبَة دَاوِينـــِي نِبْرَى (هَا يَا بَية) وَمَا تِرْخِيشِي عِينِكْ فِيَّ

يَالَــلاَّ حُبَّــكْ يْـــدَرْبِي سَاكِنْ فِي جَاشِي وَقَلْبِي

يَاطْبِيبَة يْخَلِّفْ عَلْ صَبْرِي (هَا يَا بَيّة) سَــافِرْ مْعَانَا وَخُذْ ثْنِيَّة

وَالْبَيَّـــة مَا احْـلَى قَعْدِتْهَا وِالْكْـتَـاب عْلَى رُكْبِتْـــهَا

وَالْبَيَّـة مَا اعْـلَى قِيمِتْهَا(هَا يَا بَيّة) سَافِـرْمْعَانَا و خُذْ ثْنِيَّة

يَا لَلاَّ مَا جِيتْ فِي خْلاَعَة زَايِدْ فِي قَلْـبِي وَلاَّعَــــة

وَاللهِ مَا غَابُـــوا ارْبَاعَه(هَا يَا بَيَّة) سَافْـرِ مْعَانَا وَخُذْ ثْنِيَّة

يَالَلاَّ يَــا بِنْـــتِ بْلاَدِي يَا مُـولاَةِ الْمَدْفَـعْ صَادِي

يَالَلاَّ بَلِّـــغْ مُـرَادِي(هَا يَا بَيّة) وَمَا تِرْخِيشِي عِينِكْ فِيَّ

ومما تغنّت به الفنانة حبيبة مسيكة لأم الزين في النوع الثاني من راست الذيل :

قُدَّامْ دَارِكْ نَصْبُوا الْمْحَلَّة طَبَّالْ يَضْرَبْ زُكْرَة وَرَنَّة

عْلَى امِّ الزِّينْ مَعْـرُوفِـكْ لله يَا سَـــــاحْلِيّـــــة

عْلَى بَيَّـــــةِ الْوَصْــلْ يَـــا جَمَّـــالِيّــــة

يَا لَلاَّ قَـدِّكْ عْجِيـــــبْ أَحْلَى مِنْ سُكَّرْ و حْلِيبْ

اللِّي يُطْلُبْ رَبِّي مَا يْخِيـبْ يَـــا جَمَّـــالِيّــــة

طْـبَــــلْ يَضْـــــرَبْ فِي كُـــلِّ عْشِـــيَّـــة

طريقة أولاد العشّان

نسبة إلى سيدي العشّاني ضريحه بقرية منزل عبد الرحمان بالشمال الشرقي من شاطئ بحيرة بنزرت

أصول الطريقة: أتباع هذه الطريقة بالحاضرة[1] من سفلة الدخلاء ومن هم في خدمة الأغنياء أو خدمة الوقد بالحمامات "الفرانقية"[2]. وتعدّ هذه الحرفة عندهم صناعة معتبرة، حتّى أنّ المرأة الورڤلية إذا أرقصت صغيرها تغنّت له بهذا الصوت :

تِكْبِرْ مِمِّي وِتْوَلِّي قَرْقُـوشْ (قرقوش)   تِكْبِرْ يَا مْعَمِّي وْتِحْمِسِ الْمَحْمُوسْ (المحموش)

تِكْبِرْيَا مِشْكِي يَاشِيدِ(سيد) الرِّيَاسْ   وِتْحَمَّرْ الشَّاوِي(الجاوي) فِي مْنَاخِرْ الأَكْبَـاسْ

وليس لهم وظيفة ولا أذكار خاصّة ولهم مديح مضطرب ويستخدمون الدف والزكرة والطبلة وليس لهم زوايا خاصة. وهكذا لا يظهر أن لهم شيخا مؤسسا وإنما ألقوا بأحمالهم على أحد الأولياء حتّى يكون لهم احترام كبقية الطرق الأخرى.

طريقة العمل: وظائفهم مختلطة نساء ورجالا، ويسمّون شيخهم "المقدم" وشيختهم "المقدمة" وهما عندهم باعتبار واحد، وعملهم مختلط بين النساء والرجال يمدحون معا ويتراقصون معا ولا يبيحون لأجنبي عنهم الحضور معهم إلا إذا انتسب إليهم، أو كان عملهم خاليا من النساء.

1 الصادق الرزڤي، الأغاني التونسية، ص: 155.

2 الفرانقية نسبة إلى الفرناق، وهم من يوقدون النار فيه وهو المحل المعد للوقد خلف كل حمّام لتسخين الماء.

الخرجة : ولهم خرجات تمشي فيها النسوة ملتحفات وراء حلقة المديح وليست بكبيرة النظام. ولهم آراء في مسألة الجانّ والصالحين، فهم يعتقدون أن الجانّ الذي في رؤوسهم من الجنس الأسود فيسمّونهم السُّمران. ومن معتقداتهم أن كل حمّام يسكنه أولاد الحشّان والسُّمران من الجن، وأن كل حشانية برأسها واحد منهم، كما أن كل حشاني برأسه واحدة منهنّ، وربما لبست المرأة الراقصة لباس رجل بدعوى أن الساكن برأسها هو الذي فعل ذلك رغما عنها. ولهم عدّة خرافات أخرى. وهناك من أهل الذّكر من يعتبرونها لاشيء. أوكما يقولون: (هدرة فارغة) والظاهر أنهم يقصدون الموسيقى .

الطرق الزنجية

لم يُفرد الصادق الرزقي فصلا للطرق الزنجية بكتابه (الأغاني) ولكنه ذيّل فصل (أولاد الحشان) بفقرات عن أعمال السودانيين في المزارات بدءا من الصفحة 156، فذكر أنّ عددهم قليل وكلهم من سلالة الأرقاء الذين جُلبوا من (عفنو) و(برنو) [وهي مقاطعة غربي التشاد كانت دولة في العهد الحفصي وعاصمتها كوكة] و(بزيزقا)، وأخذوا بعد تحرير العبيد في إظهار عوائدهم شيئا فشيئا مستترين في القيام بها تحت اسم سيدي سعد الشوشان، وفي هذه العوائد كثير من الوثنية والتوحش. ويبرز فيها اعتقادهم في تقمّص بعض الصالحين والجان في رؤوس الآدميين وبعض الحيوانات، ويذكرون لهم أسماء مثل: بَابَا يَارِيمَا، بَابَا سِرْكِي، بَابَا جَاطُو، أُمِّي يِنَّة. وهم يقرّبون لهم القرابين وينسبون لهم التأثيرات وجميع العوارض الإنسانية. وهكذا جعلوا لهؤلاء الجنّ مقامات يزورونها ويقدمون لها النّذور ويسمّون كل مقام منها(داركوفا)، وتمتاز بقبّة صغيرة وقصيرة يقيمونها وسط الدار ويحفرون أرضها قرابة المتر ويقولون أنّ ديوان الجنّ لا يجتمع إلا هناك فهم يهرقون فيها دماء قرابينهم من التّيوس أو الدّجاج.

وهم مواكب أسبوعية وسنويّة، فينصبون أمام هذا الحفير صورة من أقمشة مزدانة بالودع (قواقع حلازين بحرية) والعقيق والأحجار الملوّنة. ويذبحون في بعض هذه

الاحتفالات التّيوس وفي بعضها الآخر الدجاج، ولا يذكرون اسم الله في جميع أعمالهم ولا على ذبائحهم لزعمهم أنّ الجانّ تفرّ بذكره، وهكذا فهم من مردة الشياطين، وتكون الطريقة شيطانية وثنية.

وتكون داركوفا تحت نظر امرأة يسمونها (العريفة) وهي محل احترام وتقدير. هذا، ولا ترتقي السودانية إلى رتبة (عريفة) إلاّ بإجراء عمليات عديدة منها أكل (الجنقلا) أياما عديدة وهو أن يضعوا اللحم في آنية محكمة السدّ، ويتركوها أيّاما إلى تحقّق تعفّنها ونتونتها وتكوّن الدود فيها، فإذا تأكّدوا من ذلك أخرجوه وطبخوه فتأكل منه المرشّحة لهذه الرتبة، ومن ذلك أن يضعوا شيئا من نبات سوداني يسمّى (القورو) في أحناكهم يمتصّونه مدّة إجراء أعمالهم.

ويستعملون من الآلات (القندفة) و(الدندفة) وهما طبلتان متفاوتتا الحجم كالطبل المستعمل في أفراح البادية إلاّ أن هاتان تستعملان عند السودانيين، و(الشقاشق) وهي صنوج تمسك بالزوجين واحد في الإبهام والآخر في بقية الأصابع و(القمبري) وهو جنس آلة وترية ذات وترين و(القصعة) وهي قصعة كبيرة يقلبونها ويضربون على ظهرها، ورقصهم هو الصطمبالي.

وتتميّز أعمالهم بالضجيج المزعج في بعض الأحيان مع مديح قليل جدّا بلغتهم، لكنهم إذا طرق ذلك العزف مسامعهم تأخذهم نوبات من الجنون فيتراقصون رقصا فادحا، ويعطون الكلام (أي يتكلمون بالضمائر)، ويسجدون للعريفة ولتلك الصورة التي اصطنعوها، وإذ ذاك يُذبح التّيس فيشربون من دمه ويشوون لحمه.

[وفي حديث مع الدكتور صالح المهدي ذكر لنا أنّ الطرق الزنجية طرق وثنية، مثلا يقصدون وادي مليان ويذبحون تيسًا وَيَشربون من دمه ويصبّون بعضه في الوادي، فتخرج الضفادع، فيقولون: (الجنون جات) أي جاءت الجانّ. ومن هذه الطرق: **سيدي منصور** في صفاقس و**أولاد مرزوق** في نفطة وكذلك **أولاد قناوى** بجهة مطماطة من ولاية قابس. وهناك **سيدي سعد** في مرناق: له خرجة كبيرة كباقي الطرق، ويقيمون زردة[1] كبيرة بعد الحصاد تدوم ثلاثة أيام. فعلاوة على احتفالاتهم بالحاضرة فإنهم يذهبون في كلّ عام

1 زردة: (وليمة) بالعامية التونسية، وأصل الكلمة تركي.

مرّة أو مرّتين لزاوية سيدي سعد الشوشان بمرناق كما مرّ، ولزاوية سيدي فرج بسُكّرة. وهذه الخرجات غير منتظمة وتختلط النساء فيها بالرجال ويصطحبون فيها تيسا يزينونه بالملابس والحلي. وطبعا سيذبحونه كما ذكرنا آنفا. وذلك مما رواه الدكتور صالح المهدي].

وروى لنا بعض شيوخ من المنستير: أنّ لسيدي سعد هذا قبّة صغيرة بجزيرة قوريا، وقد يذبح بعضهم بها جديا كوِعْدَةٍ أو مجرّد تقليد عادة. وروت لنا إحدى النساء عن فرقة اصطمبالي (سيدي سعد) بسوسة: أنّ بعض المريضات تأتي، وقد أخذ منها الجنون مأخذا عظيما، فينحر التيس وتتمرّغ المريضة في دمه وتنهض للشطح حتّى تنقطع، فتبرأ من الصرع الّذي أصابها والغريب أنها شبهته لنا بما يقع في العوامرية.

وبسوسة نجد بنقة سيدي السوداني، ويظهر أنه كان سوداني الأصل جاء أبوه إلى تونس في أوائل القرن العشرين واستقرّ بسوسة وسكن في زاوية سيدي سعد في الباب الغربي، أمّا أم الشيخ السوداني فيظهر أنها بيضاء تونسية من جهة بنزرت كانت هي نفسها مغرمة بالبنقة وعُرف باسم "بنقة فوفو". أما الشيخ سعد فهو أسود كان يعمل أجيرا في مرناق يعمل في الفلاحة وذا يومَ رآه أحدهم نائما الدواب تجر المحراث وحدها فعجب من ذلك وأخبر مِجره الذي أراحه من العمل وخصص له مكانا في منزله للعبادة وعندما كبرت به السن وحضر أجله ركب حصانا وأمر أن يدفنوه حيث يقف الجواد فكان في منطقة مرناق قريبا من شاطئ وادي مليان.

كانت فرقته (أي فرقة الشيخ السوداني) تعزف على القمبري وآلات إيقاعية منها الطبل النقارات ويسمونها "الكوركوتو" والشقاشق وهي الصنوج السودانية. ويعالجون المصروعين ومن ركبتهم الجنون كما روت لنا المرأة الآنفة الذكر فأصبحت عندهم كالعيادة النفسية. ومن أغانيهم :

سيدي منصور

هاالله الله يا بابا

وسلام عليك يا بابا

سيدي منصور يابابا

ونجيـــك نزور يابابا

ولد النخلات يا بابا

ونجي ونبـــات يابابا

ولد العجميـــة يا بابا

ويعـــــــز علي يابابا

ولد العكروتة يا بابا

في بحره حوتة يا بابا

بو عكروشة

هيـــا ولي الله سيـــــد سعـد ولي الله

هيـــا ولي الله سيد سعد حج بيت الله

هيـــا ولي الله سعد بـــو عكـــــروشة

بوسعدية

هـــا الله الله بوسعــــــدية

هـــا الله الله بوسعــــــدية

هـــا الله الله للآ البيــــــة

هـــا الله الله ولد قنــــاوة

هـــا الله الله جلدد نمـورة

هـــا الله الله ولد قنــــاوة

هـــا الله الله يسلم سيدي

هـــا الله الله يرحم جـدّي

هـــا الله الله ولد غـــزالة

هـــا الله الله جلود صيودة

هـــا الله الله بـــوسـعدية

وبالقيروان نجد فرقة "البنقة" وهي من موسيقى الزنوج بقيادة الشيخ حسونة الشهيبي وهي تستعمل من جملة استعمالاتها في العلاج النفسي أي لطرد الجنّ من الأجساد وهي موسيقى راقصة يرجعونها إلى الولي الصالح سيدي سعد، وفي غمرة الرقص قد يتخمّر البعض ويأكل النار، وقد يدق مشط الصوف أوالسّدّاية في بطنه دون أن يخرج منه دم. ولهم كل سنة " وِعْدَة"[1] لسيدي سعد، فتنتظم سهرة يقع إحياؤهابـ" البنقة"، وتقدّم أثناءها القرابين من بين ديكة وجداء.

وهكذا فلا غرابة أن نرى هذه الطرق تنقرض شيئا فشيئا من جهتين من جهة عدم تلاؤمها مع العقيدة الإسلامية، ومن جهة أخرى لهمجيتها وبعدها عن التمدّن، فلم يبق منها إلا الصطمبالي كرقصة تقليدية فولكلورية انتشرت في أغلب أماكن الجمهورية من الجنوب إلى الشمال بهذه الصفة.

1 الوعدة: النذر.



أحزاب الفكاهة

لكي نصنع عالَمًا نحتاج إلى كلّ شيء. وهكذا فوجود المتناقضات وجود لازم لإقامة دعائم هذا العالم، وإنّما تُعرف الأشياء بأضدادها.

قدكنّا رأينا في أعطاف ما مرّ من دراساتنا انقسام المالوف، إلى مالوف جدّ ومالوف طرب ولكنّ الطرب نفسه في واقع الأمر، هو اهتزاز النفس لسماع شيء أو تذكّره، وينصرف إلى كلّ ما يهزّ الكيان سواء للفرح أو للحزن، للانشراح أو للشجن، فكلّ ذلك يسمّى في تدقيق اللغة طربا وشجًى، فهنالك كما نلاحظ غناء للأفراح، وغناء للأحزان، وغناء للحماسة، وغناء لكلّ ما يطرأ على الإنسان من طوارئ. فالطرب، إذن، فيه من الجدّ نصيب وافر ما دام يلبس لباس الوقار ويعالج فعلا مواضيع شائكة في حياة الناس، هي أقلّ جدّية وصرامة من الحياة الروحية الصوفية، ولكنّها تتخذ من العواطف السامية كالحبّ والرضا والهجر والقلى ما تتخذه الحياة الصوفية نفسها مع الفارق في المحبوب، كما نجد بعض الأغاني تعالج مواضيع اجتماعية وسياسية واقتصادية أحيانا.

ويبقى هنالك جانب آخر من الحياة، هو مَنْشَطٌ للرّوح، وراحة للنفس، واسترخاء للجسد، ولا بدّ له هو الآخر من البروز على الساحة، وهو من شأنه أن يضفي بعض الانشراح والنشاط بما يُحدثه من اللهو والمجون الخفيف والضحك والسرورعلى نفس

الإنسان فيخفّف عنها ثقل الجدّية التي تواجهها مع مصاعب الحياة ماديّا وروحيا وعاطفيا وتصادمها بالأوامر والكوابت والحدود، هو الدعابة والفكاهة.

أقول، إنّ الحاجة تأكّدت في عصرنا الحاضر في بداية القرن الخامس عشر الهجري الواحد والعشرين الميلادي إلى الفكاهة، فقد أضفت قتامة الحياة على نفوس الناس مسحة داكنة من الكآبة والقلق والسأم من كلّ شيء حتّى أصبحت بحاجة ماسّة إلى الضحك ... الضحك الصرف لنفسه لا ليكون مركبا لإلقاء المواعظ والدّروس، كما صرّح الفنّان الظريف سمير غانم مرّة في أحد الأحاديث التلفزية، وفي هذا الصدد بدأت تنتشر في فرنسا نوادٍ لا مهمة لها ولااختصاص لنشاطها سوى الضحك للضحك بأي صورة كانت وفي أي صيغة كانت مادامت لا تجرح شعور أحد.

أمّا شعوبنا المغربية أو العربية فإنّها عاشت هذا الضيق الحضاري منذ ما لا يقلّ عن ثلاثة قرون من الزّمن، وكان لزاما عليها أن تجد متنفّسا لها في ممارسة من الممارسات التي تخرجها من هذا الضيق الخانق والضغط الأليم، فكثر الالتفاف حول الطرق الصوفية التي أدخل فيها الطرب بصفة غريبة ومتزايدة حتّى بدأت تخرج عن أصلها الديني إلى ممارسة موسيقية وفرجوية متنوّعة المظاهر والألوان، وأصبحت تستغلّ في المواكب والأفراح، غير أنّ جدّية التصوّف خيّمت حتّى على هذه المظاهر الفرجوية، فبرز نوع من التناقض بين المظهرين لنفس الممارسة: المظهر الجدّي لكونه تصوّفا، والمظهر الماجن من كونه طربا. وبدأت فكرة الفولكلور تطفو على الساحة حتّى أصبحت هذه الفرق الصوفية تستدعى للمواكب الاحتفالية بصفتها فلكلورا فرجويّا أكثر منها ممارسة ونشاطا دينيا وعقائديا.

وهكذا، إلى جانب جدّية هذه الطرق الصوفية بغثّها وسمينها، وأساليب الغناء مطربها وشجيّها، وجدت طرق فكاهية فرجوية فرصة الظهور فاتخذت الشكل الفنّي للطرق الصوفية، ولكنها استعملت كلاما مضحكا ونقدا مسلّيا في نفس الوقت، دون تحميل نفسها مهمّة الوعظ والإرشاد، ولكن الجمهور يجد فيها متنفسا لكوابته، ولعلّ طريقة (بوسعدية) من هذا القبيل، إلّا أنّه برز حزبان لهما جميع ما للطرق الصوفية الجدّية من الهيئة والخرجات، وحتى اللون الموسيقي: من ذلك :

حزب الفليون

الفليون نسبة إلى محمد بن محمد الشادلي، كان يدعى (القبروص) وكذلك (الفليون) وهو الذي أسس هذه الطريقة الفكاهية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالمنستير ومن المرجح أنه توفي سنة 1919، ولعلّه عن غير عقب إذ لا نعرف له نسلا، ومن نعرفهم من قرابتهم هم أبناء أخيه الصادق.

وطبقا لرواية أوردها المرحوم الشيخ عبد السلام عقير فإنهم كانوا يسمّونها أيضا بحزب سيدي شيحة، وهم لا يقصدون بـ"شيحة" شيخ العيساوية المعروفة زاويته بتونس، وإنّما نبتة الشيح البرّية، وهذا الحزب يظهر على شكل العيساوية والعوامرية به أشخاص معروفون منهم: أحمد بشير وعلي شقير وشقيقه محمد يوقّعون على البنادر، ومحمد بو جبّة يدعى فطيس ومحمد بن محمّد العتيل يدعى البرْكِس على آلة الدربوكة.

و يقدّمون ألعابهم أثناء رواح العريس مثلا: منها لعبة الجمل وهي أن الفليون يشكّلون له جملا بالحطب والقماش ويحشونه بالنخالة فيرقص به ويخيف الحاضرين كأنه سيعضهم، فيخافون لأوّل وهلة، ثمّ يكشف لهم السرّ فيضحكون، أوغير ذلك من الألعاب، ويرقص أمامه رجل عاري الصدر والظهر إلا من السراويل ويمثّل هذا الدور في ذلك الزمان المرحوم علي جهر.

أمّا الخرجة فكان لهم سفينة (بابور) تُحمل على شريط يجره حيوان، وتُحفظ بمقر لهم بالربط (أحد أحياء المنستير القديمة) ومعدّات بحرية، وهي قارب حقيقي بمدخنة(شاروق) فيتصاعد الدخان منه، وبه سحّابة (طري) لجرّ الشباك والأثقال وكل لوازم الصيد، ويقوم الميكانيكي بإيقاد النار لدفع المركب البخاري فيتلطخ وجهه بالسواد والدخان، فيظهر في مظهر يثير الضحك، وكان يمثّل هذا الدور (المرحوم محمود التومي والد المرحوم الهادي النكس).

ويروي الحاج المختار سلامة الذي كان زكّارا بالفرقة القومية للفنون الشعبية أنه كان لهذا الحزب خرجة سنوية لسيدي الفضلين بطبلبة، وكان مسلكه على الشاطئ، فيصل إلى خنيس ثمّ قصيبة المديوني ثمّ صيادة ثمّ السُّكرين ثمّ طبلبة، وقد يزور القيروان في بعض المرّات إن وقعت دعوته. ويقول الشيخ عبد السلام عقير أنّه أثناء الخرجة يقوم أحمد بشير الملقب بطماطم بغناء أغنية "الهندي" والحاضرون يردّون عليه: يا الْهِنْدِي .....

ومن أغانيهم الفكاهية أغنية طويلة يذكرون فيها كل أنواع السمك على هذا النحو:

قَرْنِيطْ[1] يَــا بُوصْـوِيـبَعْ　　يَا سَـــاكِنِ الْحَجْرِيّة

يِتْلَمُّوا لِيكْ جْـــمَاعَة　　يِمْشِيـوْا لِيـكْ بَكْرِيَّة

بُوقْرِيرَة وْسِيدِي الأَعْوَرْ　　وَفْـرَجْ وِلْـدِ الْعَرْبِيَّـة

كُلْ وَاحِدْ فِي يدُه قِصْبَـة　　تِلْـقَاهُمْ فِي سُـــورِيّة[2]

ويقوم السيد سعيد الزدّام ضابط الدربوكة بإنشاد عروبي بكلمات مضحكة مثل :

سِي الْهِنْدِي[3] حَازْ الِبْيَايَة[4] عَلَى كُرْسِي زْمُرْدْ يِفَصَّلْ فِي الاَحْكَامْ

اللِّي يَضْرَبْ[5] مِنُّه مِايَة هاكَة حَد النِهَايَة بِاذْنِ اللهْ يِتْسَدْ سَـدَّانْ

---

1 قرنيط: هو حيوان الأخطبوط.
2 سورية: القميص بالعاميّة التونسية.
3 الهندي: التين الشوكي.
4 البياية : منصب الباي أي الملك .
5 يضرب : يأكل .

يِبْدَا يِتْشَفَّعْ وِينَادِي بِالْوَلاَيَا   لاَ يِنْفَـعُه لاَ وْزِيرْ وَلاَ سُلْطَانْ

ثم يشرع في غناء الأغنية :

اَلْهِنْدِي يَاالْهِنْدِي يَاالْهِنْـدِي   وِاللِّي عْصُـمِ[1] التُّرُمْبَة[2] عَنْـدِي

***

هِنْـــدِي فِي رَفْـــرَافْ   الْكَعْبَة[3] قَدِّ الْغَــــرَّافْ[4]

عَبِّي جِلْدِكْ لاَ تْـخَـــافْ   وِايـذَا عْصُمـتْ نَـادِي بْجَدِّي

***

هِنْـدِي فِي مِكْنَـــاسْ   الْكَعْبَـة قَدِّ الْكِسْـــكَاسْ

عَبِّي جِلْدِكْ يَـــانَسْنَـــاسْ   وايذَا عْصُمْتْ نَادِي بْجَدِّي إلخ...

ولهم بالإضافة إلى ذلك شعر العكس.

ومن بعض أغانيهم في مقام السيكاه مثلا :

الشَمْبَـــانيـا وِالْكِيـــفْ[5]   يَـارَبِّ جِيبِ الصِّـيفْ

وِفْلُوكَة بْلاَشِي رِيحْ (يا عذابي)   وِبْحَرْ صَـافِي نْظِـيفْ

طِلِعْنَـــا عَـلَى فْلُـــوكَـة   نِصْطَـادُوا اللَّمْبُـوكَة[6]

وْطَـارْ ودَرْبُـوكَة (يـا عذابي)   بِهُـمْ عْمَـلْنَـا كِيفْ

***

طِلِعْـــنَـا لِلْبَـيَّـــاضَـة[7]   عْمَلْنَا فِيهَا رِيَاضَـة

---

1 عصم : انسد مخرجه ببزور الهندي .

2 الترمبة : المنفاخ الذي بواسطته يزال الانسداد .

3 الكعبة : الحبّة.

4 الغرّاف: المغرفة الكبيرة التي يغرف بها الطعام من القدر .

5 الشمبانيا نوع من الخمر الرفيعة تنسب إلى ولاية شمبانيا بفرنسا. والكيف هو الحشيش من المخدرات .

6 اللمبوكة: جنس سمك أزرق مفلطح، موسمه آخر الصيف وبداية الخريف، يتنوّع المنستيريّون في طبخه.

7 البياضة: هي القزعة في قاع البحر ليس فيها نبات وقاعها رمال بيضاء.

وِحْكَايَة فَضْفَاضَة (يا عذابي) مِنْ بَحَّارْ وْصِيفْ

***

وَلِقُوريَا[1] مْشِينَا نِصْطَادُوا فِي السَّرْدِينَة
الرِّيحْ تْقَوَّى عْلِينَا (يا عذابي) وِرْجِعْنَا بِالسِّيفْ[2]

وكذلك في وزن بورجيلة مثنى في لهجة حسين :

يَارَايِسْ فْلُوكِتْنَا تْعُومْ
اِرْمِ الْمُخْطَافْ[3] فْلُوكِتْنَا تْعُومْ
شِدِّ الدِّمَانْ[4] فْلُوكِتْنَا تْعُومْ

***

زِينِكْ مَا صَارْ فِي تُونِسْ عَنْدِ التُّجَّارْ
خُلْخَالِكْ عَلى الْكَعْبَة دَارْ وِمْقَامِكْ غَالِي فِي السُّومْ

***

مَهْرِكْ يَازِينَة فْلُوكَة لَمْبُوكَة وْسَرِدِينَة
يَا بْنيَّة يا عْزيزة عْلِينَا وِيْعَيَّشْ بُوكِ الدَّمْدُومْ[5]

***

زِينِكْ خَبِّيهْ حَتَّى لأَحَدْ مَا تَعْطِيه
لِلِيلَة عِرْسِكْ تُدْخُلْ بِيهْ وِتْبَعِّدْ عَلِينَا اللُّومْ

1 قوريا: جزيرة تبعد شرقا عن شاطئ المنستير أحد عشر كيلو مترا.
2 بالسيف: بالكاد، أي كدنا لا نرجع .
3 المخطاف: المرساة.
4 الدمان: الدقّة، مقود السفينة.
5 الدمدوم: الكريم وصاحب الفضل.

أو :

يَا سْلاَمْ يَا سْلاَمْ يَا سْلاَمْ   بَحْرِيَّة وْخِـدْمَة وْنِظَامْ

جِبْـنَاهَا وْجِيـنَا (يَاسْلاَمْ)   سْـكُمْرِي وْسَرْدِيـنَــة

سْكُـــمْـرِي وْسَرْدِيـنَــة   يا ربّ تْحَسَّـنْ الاَسْوَامْ

أو :

عَنْدِكْ بَحْرِيَّة * يَا رَايِسْ * وِالْمُوجَة قْوِيَّة

اَلْمُوجْ جْبَـال * يَا رَايِسْ * قَطَّعْ الاَحْبَـالْ

أو :

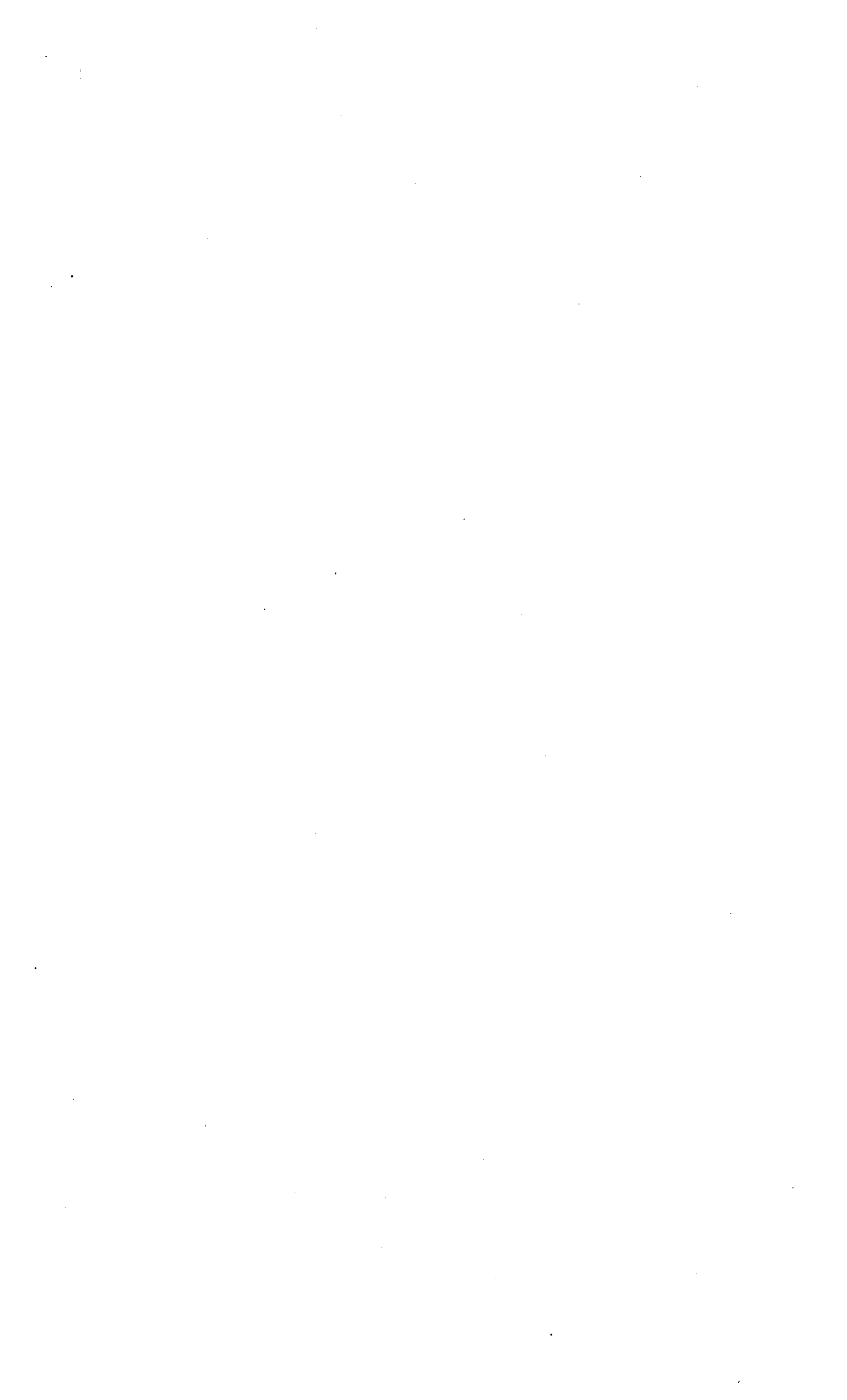
شُوفْ آشْ عَمْلِتْ هَا السَّرْدِينَة   فِي هَــا المَــاكِينَـاتْ

رَاجِلْ قَــاعِـدْ فِي تَرْكِيـــنَة   تِـخْــدِمْ كَانِ البْـنَاتْ

فِي مَـــاكِينِةْ سِي الدَّرْمُــونِي   شَيْ دُونِي رَاتَه عْيُــونِي

فَمّة اللِّي تِلْبِـس بِالسُّــــورِي   جِيـبْ مْعِ سُـوكَــاتْ

وْفَمَّة اللِّي تِلْـبِسْ خَـلاَّلَـــة   تِـرْعَـى بِـالْمِعْــزَاتْ



حزب البلّوط

يقول الأستاذ الحبيب شيبوب أنه يصعب تحديد تاريخ لبداية حزب البلّوط[1]، وذكرأنه لايسمّى حزبا بل (مبيتة البلّوط) أسسه بيرم الميلي أصيل مدينة جمّال من ولاية المنستير، كان يقطن بحي باب الجزيرة بالعاصمة، وكانت لهم دار يسهرون بها ويغنّون الأغاني الفكاهية التي قد تصل إلى الفاحش من القول خصوصا في سهرة توديع العزوبة بالنسبة إلى العريس.

وفي حديث أجري مع السيد محمد الرصايصي[2] صرّح أنّه أدرك الشيخ بيرم الميلي الجمالي وأن هذا الحزب أسس سنة 1919 لظروف استعمارية وهي معارضة بعض مشايخ الطرق الّذين اختلفوا في استقبال رئيس فرنسا بالميناء، فكان ذلك كالمقاومة السلمية.

ويروي الدكتور صالح المهدي أن هذا الحزب تكوّن سنة 1931 بالعاصمة، وسمّي (حزب البلّوط) أي الكذب فهو ليس حزبا بالمفهوم الطرقي، وإنّما سمى نفسه بذلك كي يسخر من أحزاب الطرق الصوفية ويقلل من احترامها لدى الناس. والسبب في تكوينه، أنه في سنة 1931 تقرر أن يُقام الاحتفال بمرورخمسين سنة على احتلال

1 البلوط، لا علاقة له البتّة بشجر البلّوط أو ثمره إنما هو (الكذب) في العامّية التونسية.
2 محمد الرصايصي من مواليد 1926 اتبع هذه الطريقة بعد أن كان سلاميا آخذا عن المشايخ الأجلاء الشاذلي خلاص والعروسي بن خميس وحمادي التميمي وعزوز بن محمود وابنه حمادي مشايخ السلامية.

فرنسا للإيالة التونسية، فخرجت جميع الطرق والأحزاب من الزوايا في استعراض كبير لاستقبال رئيس فرنسا الّذي زار تونس بالمناسبة، وكان شيخ زاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي يتقدم هذه الوفود، فغضب الشباب وفعلوا شيئا ضدّ ما كان يُسمع، فأخذوا كلمات من العيساوية وركبوا على غرارها كلاما عن المآكل والمشارب والملاهي عبثا بمشايخ هذه الطرق. وسموها (عيساوية البلوط) سخرية بأصحاب الطرق الذين خرجوا لاستقبال رئيس فرنسا. وكان شيخ العمل بها البشير بن صابر وعمل بها دور عكاشة الأستاذ حسن الزمرلي، أما شيخ الحزّابة فكان المرحوم عثمان الكعّاك.

يقول الرصايصي: هناك ألحان في شكل صنايع على مدحات السلامية والعيساوية تركّب على كلام قريب في جرسه مختلف في معناه بنفس اللحن الذي تغنّى به الأغنية الأصلية، وهناك أغان من إنتاج الفرقة الخاص منها :

يَـا شِيــخْ يَـا مَرْنِيخْ خَلِّي الاَوْلاَدِ تْشِــيخْ[1]

***

الشِّيــخْ يِحِـبِّ فْطُورْ قَصْعَة وَعْلِيهَـا ثُـورْ

الدّلاَّعْ بَــانِي سُــورْ وَمْدَافِـــعُه بَطِّيخْ

***

الشِّيخْ مَـايِ قْـدِرْشِي مْرَيِّضْ مَـايَاكِلْشِـي

جِيبُواله جْمَيِّلْ مِحْشِـي وِيفَضّحُه تَفْضِــيخْ

***

الشِّيخْ شَاهِي حَـاجَـة قُلَّة سْمَـنْ مِنْ بَاجَة

قَازَانْ بَالْـفِ دْجَـاجَة بَعْدِ الْعَشَا تَحْـرِيشْ

***

1 تْشيخ: فعل (شاخ) في اللسان العامّي التونسي معناه (تمتّع)، فهو يدعو الشيخ لترك الأولاد يتمتعون.

الشِّيــخْ يِحِــبِّ يِمَمْ عِشْرِينْ حَارَة عْظَمْ
الشِّيــخْ عَنْــدُه الدَّمْ مَاتْغَضّبُوشِي الشِّيخْ

ثم عروبي (في محيّر عراق):

تَعَدِّيتْ عْلَى سِيدِي غْلَبْ وَانَا قَاصِــدِ الْمَـدِينَــــة
عْرُضْنِي الشِّيخ الْبَلُّــوطْ مْرِيضْ فَــانِي بِالْغْبِيــنَة
حْلِفْ عُمْره لاَ يْـصُــــومْ حَتَّى يْرَى السُّفْرَة بْعِـينَه

وقلّدوا الخطب المنبرية مثل:

الحمد لله الّذي كما أمر، بأكل الرفيسة والمسفوف بالتمر، وبُرْجٍ من الدّلاَّعِ الأحمر، وقليلٍ من مقروضِ القراوة، مجمع البنّة واللذّة والحلاوة.

أيهاالناس ! قال الشيخ ابن عصبانة: روى عن جدّه ابن الدوّارة أنه سمع بُريك الحليبي يقول: (من تصدّق على بطنه بشقالة من المحلّبية كتب من الشبعانين القانعين، ومن نهى نفسه عنها، أيها السادة، كتب من الجائعين المحرومين الّذين لا حظّ لهم فيها، اللّهُمَّ أطعمنا وإياكم من هذه الخيرات والمأكولات واحرم الشيخ البلّوط من هذه المأكولات والمشروبات.

وتعاد الخطبة الكثير من المرات، ثم يأتي دور:

هِيَ هِيَ الْبَقْلاَوَة بَقْلَة بَقْلَة بَقْلاَوَة

ثم يأتي عروبي:

بِالله يــا فُقْرَةِ الْبَلُّــوطْ جِيبُوا لِي صِينِيَّةِ الْبَقْلاَوَة
مَضْلُوعَة ابْـرَاجْ ابْرَاجْ مَصْنُــوعَة ابْـرَاجْ ابْرَاجْ

ثمّ ينطلق في الأغنية (في محير عراق):

يَا جِيعَانْ وَاشْ جَابِـكْ لِيَّا بَرَّا عْلِــيَّا مِنْ هُنِيَّا

***

قُولِ لْهُمْ شَاهِيهُمْ يَـاسِـرْ رِشْتَة وَحْلاَلِمْ وِنْـوَاصِرْ

وِالشُّرْبَة بِالْقَـارِصْ يَـاسِرْ يَامَا الْقَاهُمْ عَ الصُّبْحِيَّة

***

قُولِ لْهُمْ شَاهِي الْمَقْـرُونَة اللِّي بِالـسِّمَـنْ مَدْهُـونَة

جِيبُوا لِي مِـنْهَا فَـاقُـونَة بْسَـرْدَاوِي نْخَلَّـلْ سِنَّيَّـا

***

قُولِ لْهُمْ نَا شَـاهِي الْحُوتْ عْلِيهْ نِفْنَى عْلِـيهِ نْمُوتْ

جِيبُوا لِي مِنْ كُلِّ شْطُـوطْ سَبْعَة مْرَاكِبْ مِتْعِبِّـيَّة

***

قُولِ لْهُمْ شَاهِي الْمَحْكُوكَة اللِّي بِالسِّمَنْ مَدْلُـوكَـة

جِيبُوالِي مِـنْهَـا فِلُـوكَة بْسَـرْدَاوِي نْخَلَّلْ سِنَّيَّـا

***

قُولِ لْهُمْ شَـاهِي الـدِّلاَّعْ اللِّي بُـرْجُه قَـدْ ذْرَاعْ

يَعْطِي سَخْـطَة لِلْبَيَّـاعْ كِيفْ يْبِـيعْ بِالْهَمَجِيَّة

ثم مجرّد مركب على العيساوية :

مَاكِ الشِّيخِ الْـهَـامِلْ يِـهِـزِّكِ الْـوَادِ الْـحَامِلْ

إِنْـتَ الشِّيخِ الْقَـلاَّبْ وَاطِي، وِسْفِـيهْ وكَذَّابْ

يَا شِيخْ زْمِـيمِ السُّـرَّاقْ يَاللِّي مَا تْحِبْ كَانِ الْعِيَّاقْ

يَا شَيْخْـنَا رَانَا نْعِزُّوكْ فِي قَاعِ الْبِيرْ نْحِبُّو نَرْمُوكْ

يَا شَيْخْـــنَا نْحِبُّو نْـــوِدُّوكْ   فِي بُودَفَّـة نْحِبّـُو نْـــزُورُوكْ

فِي بُـــودَقّة نْحِبُّـوكِ تْبَـاتْ   بِالصَّحَّة لِيكْ تَاكِلْ وَحْـدَاتْ

تَاكِلْ وَحْدَاتْ بِالصَّحَّة لِيكْ   نْوِدِّكْ دِيمَـــا وَ لاَ نْشَهِّيــكْ

لاَشِ تْلُومُوا قَلْبِ الْكَوَّاشْ   حُبِّ الْخُبْزَة مَـــا يِـــدَّاوَاشْ

حُبِّ الْخُبْزَة يِسْـبِي الَعْقُـولْ   يَعْطِيكْ صَحْفَة قَارِصْ وفُولْ

هَا يَا شْمِنْكَـة فِي حِـمَـــاكْ   يِعْجِبْنِي زِيـنِـكْ وِبْـهَـــــاكْ

ومن الصنايع مثلا : نجد لدى العيساوية هذه المدحة على إيقاع المجرّد :

الكَاس يدُورِ الْكَاسِ يدُور   الْخَمْرَة لَأهْـــلِ الْحَقِيقَة

يَـا خَـمّـَار وْ يَـا عَـــمَّارْ   اِسْقِـــنَا خَمْرَة شَـــرِيقَـة

يَـا سَتَّـــار وْ يَـا جَبَّـــارْ   اِجْعَلْنَا مْنَ اهْلِ الْحَقِيقَة

فجعلوها على نفس اللحن :

الْكَبْشِ يدُورِالْكَبْشِ يدُور   وِقْـــرُونـه نَطَّــاحَـة

يَـــا جَزّارْ وْ يَـــا عَمَّـــارْ   اِذْبْـــحُه بِالـــرَّاحَـــة

خاتمة

انتهينا من النظر في الطرق الصوفية إلى كونها فقدت فيضها الروحي العقائدي ولم يبق منها إلّا هذا التراث الموسيقي والذي لا يزال حاضرا بقوّة ومؤثرا في الحياة المعاصرة بشكل لافت تتعاطاه شرائح مختلفة مهما تباينت درجات الثقافة لديهم ولا أدلّ على ذلك من تواصل الحضرة الصوفية وقد أضحت بعد فقدان فيضها الديني إنشادا ورقصا في نوبات تستهوي الناس من غير أهل الطريقة أو أتباع التصوف والرياضة الروحية.

كما انتهينا إلى أن الجانب الرئيسي المؤثر هو الإيقاع في كامل هذه الطرق، فلم يكن الكلام دائما موزونا على الطريقة العروضية أو حتّى موازين الشعر الشعبي رغم لطائف معانيه وعمق مراميه.

وقد ينسج الراوي على منوال شيخه الأبيات التي ينسجها أو يخترع أبياتا تتماشى مع الحال على نفس المنوال، ويمكن توارث الألحان والطبوع والنوبات لما لها من التأثير في النفس وذلك لأن الإيقاع هو روح الأشياء وقوة تأخذك عن طريق الحواس إلى جذور الوجود. إن الإيقاع هو هذه الذبذبة تقع في الحواس موقعا سحريا يقودها إلى أعماق النفس الإنسانية...فتتأهب للإنسجام مع الوحدة الوزنية بالإهتزاز الرفيق ثم يدخل الإنسان في حالة من الإنتشاء.

إن الإيقاع لغة كونية إذ يتفاعل الإنسان مع رقصات الصينيين والهنود وهو لا يتقن لغتهم ولا يفهم كلامهم ...لأن الضابط الإيقاعي يسمو بالوجدان والروح وقد انسلخا عن المادة.

فلماذا بلغ هذا التراث الموسيقي للطرق الصوفية هذه الأهمية وكانت له هذه الجاذبيّة؟ وهل لذلك علاقة بالتداوي بالموسيقى؟

إن هذا ليس غريبا في الثقافة التونسية حيث قامت الأميرة "عزيزة عثمانة" بالإنفاق على المطربين الذين كانوا يعزفون بمارستانات تونس، وكانت "دار الدراويش" مارستانا أحدثتهبحومة العزافين بتونس العاصمة. ويقوم فيه العزافون كل صباح بعزف نوبة من الموسيقى المألوفة مدة ساعتين ترويضا لأولائك المصابين وتهدئة لأعصابهم.

لقد أثبت الطب الحديث أن أنجع الطرق لمعالجة المصابين بأعصابهم هي الألحان الموسيقية، يقول الأخصائي الأستاذ بيرند:ط من الممكن معالجة كل خلل عضوي بواسطة الموسيقى إذا كان هذا الخلل صادرا عن الجهاز العصبي."

أما الدكتور أحمد مبارك من أندونيسيا فيقول:"من خصائص أعمال أصحاب الطرق الصوفية السعي في مصالح الناس وخاصة خدمتهم في علاج النفس ومن بينهم شيخ من شيوخ الطريقة النّقشبندية في أندونيسيا اكتشف كيفية العلاج النفسي باستعمال طريقة الذكر في علاج مدمني الأدوية الممنوعة، وللطريقة النقشبندية عيادات لعلاج مدمني المخدرات ...في مدينة (مكلين) شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية طوّر كيفية علاج النفس باستعمال الأوراد وله عيادة تسمى عيادة التوكل".

ويؤكد العياشي في كتابه"نظريّة إقاع الشعر العربي" أن للإيقاع تأثيرا ومفعولا في ميدان التطبيب والتمريض وأن معالجة الأمراض بالإيقاع أمر قديم عمدت إليه الشعوب البدائية وأحرزت فيه نتائج باهرة. ويضيف أن "بعض الأقوام تعمل به إلى اليوم كالشامان المقيمين في بعض مناطق سيبيريا والذين هم قوم من السّحرة يعالجون الأمراض بالإيقاع ويحقّقون في ذلك من النتائج ما يبعث على التّعجّب والإندهاش."

فكيف يؤثر الإيقاع في النّفس حتى يحصل شفاؤها وتتمتع بالعاقية؟

تشير دراسات عديدة إلى أن الإيقاع هو روح الأشياء، ذلك أن الصورة الشعرية "لا تحرّك إحساسنا ولا تزعزع كياننا إن لم تكن موزونة فالإيقاع هو تلك الرجة المتواترة، تلك القوة التي تأخذك عن طريق الحواسّ إلى جذور الوجود."

إن الإيقاع نظام ذبذبات يرسلها للآخرين هي التعبير الصافي لقوة الحياة...وعماد الموسيقى ذلك الضابط الإيقاعي الذي يسمو بالوجدان والروح إلى أعلى درجات السمّو والانسلاخ عن المادة حتّى لكأنّ الإيقاع أصبح خدّرا للأعصاب فتصبح طيّعة في كفّ الروح وتنسجم الأشياء مع بعضها البعض وينهار سلّم المفاضللات المادية في الحياة العادية فلا نعجب من شيخ قد أثقلته السّنون وضعفت حركته كيف يتجاوز ضعفه ذاك وتأتيه قوّة من حيث لا ندري فإذا به يخف طربا ويقوم للرقص كأنه شاب في ريعان شبابه.

فما الذي يجر العاطفة إلى التّسامي والوجد والذوبان في نشوة الروح؟

يتدرج العازفون في الطرق الصوفية من الأوزان الثقيلة إلى الأوزان الخفيفة كما يتدرج شيخ الإنشاد من مقام إلى آخر في الإرتفاع حتّى يصل بالمنشدين إلى طبقة حادّة فتنجر العاطفة إلى أسمى درجات النّشوة.

يكون ذلك عندما يقع الانسجام الناتج عن تكرر الوحدات الزمنية مختلفة الطّول والامتداد موقع القبول في الأذن فيحرك الجسم للرقص ويسرّح الخيال من ربقة المنطق والواقع إلى دنيا الخيال والأحلام ويدخل المرء في مرحلة الجذب فينطلق أولا بالبهت ونوع من الذهول ثم يرتقي إلى الإنفعال وتوتر الأعصاب ثم التّشنج والتّأهب إلى الانسجام مع الوحدة الوزنية بالاهتزاز الرفيق ثم يدخل الإنسان في حالة الانتشاء ثم ينتقل إلى الغيبوبة الذهنية والاندماج الكامل في مختلف مكوّنات الكون فينصهر انصهارا في المسيرة الوجوديّة بعد أن كان يراقبها بالعقل. وقد ورد عن الغوث عبد السّلام السمر أنه كانت تأخذه عاطفة جيّاشة عند سماع هذه الأنغام ويصبح في فتنة وجذب صوفي لا يوصف.

هذه النشوة تبرز كوامن الطاقة المخزونة في الجسم لوقت الحاجة لذلك فإنّ المصاب بانكماش العضلات أو تقلّص الأعصاب عندما يشل عن الحركة مثلا ثم تهيج منه الكوامن بواسطة الإيقاع فيسري تيّار ذلك في الأعضاء المرتخية أو العضلات المنكمشة

فيطلقها فيقوم ذلك الأشلّ وينطلق كأنه صحيح معافى، أو أن يصيب الإنسان انقباض نفسيّ وكبت للعواطف فتطفو على الكيان حالة مرضية فإذا حضر بعض هذه الحضرات ينطلق ذلك الإنقباض إلى انشراح يذهب همّه وينشرح عندما يغيب عن الوجود "كيف يغيب يتسرّح" على حدّ عبارة يرددها البوعليّة.

ومن المثلة على ذلك ما أورده "راجي عنايت" في كتابه معجزات العلاج متحدثا عن الشامان(قوم من السحرة في سيبيريا يعالجون الأمراض بالإيقاع)، يقول: "كان الشامان في أساسه عرافا تكشف له بصيرته التشخيص السليم للمرضى كانت هذه المواهب تأتيه في بعض الأحيان عفويا...وفي أحيان أخرى كان يحتاج إلى التركيز حتّى يصل إلى حالة الغيبوبة أو التجلي حيث يستطيع أن يرى ويسمع الإجابات عن أسئلته. وكان أيضا يسعى في بعض الأحيان إلى دفع المريض هو الآخر إلى حالة التّجلي هذه حتّى يطلق غرائزه من عقالها، وكان الشامان يحقق هذه الأهداف بالموسيقى والرقص والعقاقير التي تأخذ المرضى خارج نفوسهم...كان الأثر يختلف من شخص إلى آخر إلّا أنّ النّمط العام كان دائما واحدا: التّشنج وفقدان التحكم في الأعصاب ثم حدوث الإنفصال عن الجسد والتحدث بأصوات غير الأصوات الطبيعيّة ثم السقوط في غيبوبة يصبح كل من الجسم والعقل بعدها في حالة تجدد ونشاط."

وقصارى القول أن الطرق الصوفية مازالت تعبّر عن رأي إجتماعي وفلسفة حياة أثّرت وتؤثر في المجتمع التّونسي ولا يمكن للدّراسات الأنثروبولوجية أن تنكر أن للطرق الصوفية من التأثير الواضح في حياة الناس وطرق تفكيرهم ما هو واضح منذ حياة الآباء والجداد...إنه مظهر ثقافيّ مميّز يمكن استغلاله وتطويره لحياتنا المعاصرة وتهذيب ما يجب تهذيبه لتوظيفه كمنتوج ثقافيّ في التّنشيط السياحي عبر تنظيم الملابس والرّقصات والكورغرافيا طما ورد في "الحضرة" أخيرا بقيادة "سمير العقربي" الذي أخذ شذرات من أغلب الطرق ونظمها تنظيما كورغرافيا ووزّعها توزيعا موسيقيا وأدخل فيها العديد من الآلات غير التقليدية فأصبح للحضرة مظهر فرجوي يتمثل في الألبسة والعرض والتنظيم الموسيقي.

وكذلك أصبحت "الزرد" مهرجانات مقنّنة ومنظمة وفي ذلك كله نوع من التّأصيل للميراث التونسي ضمن التراث العالمي وثقافاته.

قائمة المراجع والمصادر

«رتبت ألف بائيا دون اعتبار ابن وأبو»

- لطيفة **الأخضر**، الإسلام الطرقي دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، سراس للنشر، تونس أفريل 1993.

- طارق **حسون فريد**، التراث الموسيقي والموروث الموسيقي، مقال صفحة 51 مجلة المؤثورات الشعبية السنة الأولى العدد الرابع أكتوبر1986 الصادرة عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج : الدوحة .قطر.

- علي **الحشيشة**؛ السماع عند الصوفية والحياة الموسيقية بصفاقس، مطبعة سوجيك صفاقس 2000.

- سعاد **الحكيم**، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى1401 هـ/1981م.

- محمد درويش **الحوت البيروتي**، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، صفر سنة 1346 هـ.

- خالد محمد **خالد**، رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ

- حسين **الخطيب**، الدرّ اللطيف، حمص 1342هـ

- ابن **الخطيب**، أوضح التفاسير، الطبعة 7، المطبعة المصرية.

- فصل ابن **الخطيب**، بعنوان: روضة التعريف بالحب الشريف، من تحقيق الكتاني، الدار البيضاء، الجزء الأول.

- أحمد عز الدين عبدالله **خلف الله**، السيد إبراهيم الدسوقي، القاهرة: 1419/1998، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جمهورية مصر العربية.

- محمد **بن الخوجة**، الرحلة الفليارية بالمملكة التونسية، طبع المطبعة الرسمية العربية 1330هـ/1912م. تونس.

- أحمد **أمين**، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة.

- محمد **بن الخوجة**، الرزنامة التونسية، السنة 17، مطبعة الرائد الرسمي بحاضرة تونس سنة 1335هـ/1917م.

- **الدباغ** وابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان .طبعة تونس، فيفري 1978.

- محمد أحمد **درنيقة**، الطريقة النقشبندية وأعلامها، سلسلة التصوف الإسلامي جروس برس، طرابلس. بدون تاريخ.

- **ابن أبي دينار**، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة الأولى، مطبعة الدولة التونسية سنة 1286هـ
- الصادق **الرزقي**، الأغاني التونسية، الدار التونسية للنشر، 1967، تونس.
- أحمد **الرفاعي**، حالة أهل الحقيقة مع الله، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2000.
- أحمد **الرفاعي**، البرهان المؤيد، المكتبة الأدبية، حلب، سوريا، بتاريخ 15/8/2001.
-خير الدين **الزركلي**، الأعلام، المطبعة العربية بمصر، 1345هـ/1927م.
- الشيخ أحمد **زرّوق**، قواعد التصوّف، تحقيق الشيخ عثمان الحويمدي، المطابع الموحّدة شارع عبد الرحمن عزّام، تونس، الطبعة الأولى 1407/1987.
- الشيخ أحمد **زرّوق**، كتاب مختصر النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة 1348هـ
- محمد الصغير بن يوسف **الباجي**، المشرع المالكي في سلطة أولاد علي تركي، ترجمه إلى الفرنسية
- فتحي **زغندة**، الطريقة السلامية في تونس (أشعارها وألحانها)، نشر المؤسسة الوطنية بيت الحكمة بتونس سنة 1991 م.
- عبد الله **الزناد**، المنستير عبر العصور، مطبعة لابراس تونس 1987.
- يوسف محمد طه **زيدان**، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، طبعة دار الجيل بيروت.
- طه عبد الرؤوف **سعد**، 300 قصة وقصة من قصص الصالحين والصالحات، مكتبة الصفا، القاهرة، 1420 هـ/2000م.
- تاج الدين أحمد ابن عطاء الله **السكندري**، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
- محمد **سليمان**، الحديقة الندية في آداب النقشبندية، القاهرة 1313هـ
- أحمد **شاه ولي الله**، القول الجميل في بيان سواء السبيل .1290 هـ دون ذكرمكان الطبع.
- أبو الحسن **الششتري**، ديوان أبي الحسن الششتري، تحقيق الدكتور علي سامي النشار الطبعة الأولى منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960.
- أحمد بن **أبي الضياف**، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963.
- أبو نصر عبد الله بن السرّاج **الطوسي**، اللمع في تاريخ التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- عبد السلام **بخوش الغوثي**، نفحات صوفية، المطبعة الجديدة بالساحل قصر هلال، بدون تاريخ.
- محمد الحبيب **عباس**، كتاباتي، مؤسسة سعيدان للنشر، سوسة، تونس، 2006.
- عبد العزيز **بن عبد الجليل**، الموسيقى الأندلسية المغربية (فنون الأداء) سلسلة عالم المعرفة عدد 129 الكويت.
- الحاج حمودة بن محمد **بن عبدالعزيز**، الكتاب الباشي، تحقيق الشيخ محمد ماضور طبع الشركة التونسية للنشر 1970.
- حسن حسني **عبد الوهاب**، الإمام المازري، طبع دار الكتب الشرقية بتونس.

- حسن حسني **عبد الوهاب**، شهيرات التونسيات، الطبعة الثانية، مكتبة المنار، تونس.

- حسن حسني **عبد الوهاب**، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، الناشر مكتبة المنار بتونس 1966، القسم الثاني.

- الشيخ إبراهيم [بن] الشيخ محمد عثمان **عبده البرهاني**، أنوار الأمين في شرح الأوراد عن سيّدي فخر الدين، بدون تاريخ ولا مكان الطبع.

- الشيخ محمد عثمان **عبده البرهاني**، السيرة الذاتية للإمام فخر الدين .مخطوط.

- محي الدين **بن عربي**، تفسير القرآن الكريم، دار الأندلس بيروت، 1401 هـ/1981م .

- لطفي **عزيز**، الساحلين، نقوش عربية، الطبعة الأولى 1998.

- عبد الرحمن **بدوي**، شطحات الصوفية، سلسلة دراسات إسلامية، نشر وكالة المطبوعات 27 شارع فهد السالم، الكويت، توزيع دار القلم بيروت لبنان.

- أحمدبن مصطفى **العلاوي** المستغانمي، ديوان أحمدبن مصطفى **العلاوي** المستغانمي، مطبعة الشحمي، تونس، 1986م/1407هـ

- راجي **عنايت**، معجزات العلاج، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة 1413هـ/ 1993م.

- أبو زيد **العياشي**، الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية، المطبوع في ذيل (تنقيح روضة الأزهار). نشر مكتبة النجاح، طرابلس-ليبيا.

- الحاج أحمد بن الحاج **العياشي سكيرج**، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأحباب، المكتبة الشعبية _لبنان .

- محمد **العياشي**؛ نظرية إيقاع الشعر العربي، 1976. المطبعة العصرية، تونس.

- أحمد بن المهدي **الغزال**، مختصر الإمام الأمجد، الطبعة الثانية سنة 1349 هـ بتونس.

- أبو حامد **الغزالي**، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1402 هـ/1982م.

- الشيخ محمد **الغمري**، قواعد الصوفية، تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي 2003، دارالصفوة للطباعة، القاهرة.

- حنّا **الفاخوري** وجليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1963.

- أبو نصر **الفارابي**، الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة محمد أحمد الحنفي، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. د.ت.

- إشراق **بوتوتة**، فرقة الحوامد الصوفية بمنطقة المنشية (ولاية قبلي)، رسالة لختم الدروس الجامعية بالمعهد العالي للوسيقى بجامعة سوسة السنة الجامعبة 2005 - 2006.

- هنري جورج **فارمر**، تاريخ الموسيقى العربية، تعريب جرجيس فتح الله المحامي، منشورات دارمكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

- إسماعيل سعيد **القادري**، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، طبعة المكتبة الشعبية بيروت.

- السفينة القادرية، طبع ونشر مكتبة المنار -تونس.

- عدنان محمد **القبّاني**، النفحات الحقانية في مناقب أجلاء السلسلة الذهبية للطريقة النقشبندية العلية، بدون تاريخ ولا مكان طبع.

- محمد العربي **القباني**، جامع النفحات القدسية في الأناشيد الدينية والقصائد العرفانية والموشحات الأندلسية، دارالخير، الطبعة الثانية 1419 هـ/1998م بيروت).

- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن **القشيري**، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. سنة 2001

- محمود **قطاط**، التراث الموسيقي الجزائري، مقال بمجلة الحياة الثقافية عدد خاص بالجزائر عدد 23/1984.

- محمد بن يوسف **الكافي** التونسي، الشذرات الذهبية على النصيحة الزروقية، الطبعة الأولى 1354هـ/1935م، مطبعة حجازي بالقاهرة .

- محمد السيد بن عبدالكريم **الكسنزاني**، الأنوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية، مكتبة مدبولي القاهرة، 1990.

- الهادي **بوكمشة الغوثي**، كتاب الدليل لسالك السبيل، طبع المطبعة العصرية، تونس.

- عبد الله بن عمر **البيضاوي**، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، طبع المطبعة العثمانية سنة 1329هـ.

- جلّول **للّس** مدير المعهد الوطني للموسيقى بالجزائر والحفناوي **أمقران** المستشار الثقافي للمعهد الوطني للموسيقى، الموشحات والأزجال الجزائرية، الجزء الأول، نشر وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر.

- محمد الطاهر **اللطيفي**، أعلام ومناقب(سيدي تليل وأبناؤه) مطبعة اليحياوي، القصرين، تونس.ماي 2006.

- محمد الطاهر **اللطيفي**، الشعر الشعبي التونسي، شعر وشعراء، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس 2004،

-إبراهيم **المارغني**، بغية المريد لجوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني، الطبعة الثانية سنة 1938 بتونس.

- أبو عبد الله **المالكي**، رياض النفوس، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.

- زكي **مبارك**، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، طبعة بيروت-لبنان.

- عبدالعزيز **المجدوب**، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر. 1395/1975 تونس .

- الحارث **المحاسبي**، الوصايا، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى:1406هـ/1986م.

- عبد الحليم **محمود**، قضية التصوف (المدرسة الشاذلية) دار المعارف بمصر سنة 1988.

- محمد بن محمد **مخلوف**، مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم (تنقيح روضة الأزهار لكريم الدين البرموني) نشر مكتبة النجاح، طرابلس - ليبيا.

- أبو الفرج عبد الرحمن **بن الجوزي**، تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1422هـ/2002م.

- محمد بن محمد **مخلوف**، شجرة النور الزكية، في الطبقات المالكية، نشر دار الكتاب العربي بيروت -

- الشيخ محمد **المدني**، ديوان أنيس المريد في التصوف والتوحيد. مطبعة الهلال. أفريل 2002، تونس.

- الشيخ محمد **المدني**، المعرفة الواضحة في تفسير سورة الفاتحة، الطبعة الأولى 2002م 1423هـ.

- ڤويدو مدينة، المنستير أرض من تونس، تعريب محمد الصالح مزالي ومحمد البدوي، طبعة دار المعارف بسوسة، تونس، سنة 1999.
- لطفي المرايحي، إنشاد الديني في العالم الإسلامي، طبع أضواء للإشهار، تونس.
- محمّد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، سنة 1967.
- أحمد فريد المزيدي، الإمام الجنيد سيد الطائفتين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 2006 .
- صالح المهدي، الموسيقى العربية تاريخها وأدبها، نشر الدار التونسية للنشر وديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، الطبعة الثانية، نوفمبر 1986 .
- صالح المهدي، التراث الموسيقي التونسي، السفران الثالث والتاسع، نشر وزارة الشؤون الثقافية،
- محمد الحبيب نويرة، وثائق حول مدينة المنستير، مطبعة فرشيو المنستير، 14 أفريل 2011 .
- أحمد العلاوي بن عليوة، المنح القدسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطريق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت 2009.
- محمد البهلي النيّال، الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي، نشر مكتبة النجاح تونس 1965م.
- إسماعيل الهادفي، ديوان معالم معارف الله اللدنية وعوارفه الربانية للسير إلى الحضرة العلية. مخطوط.
- ملتقى خميس الترنان، الإنتاج الموسيقي العربي قديما وحديثا، نوفمبر1978، الدار التونسية للنشر.
- جامعة الدول العربية، الموسيقى العربية، مجلة تعنى بالموسيقى العدد 5 أكتوبر /تشرين الأول 1985.
- جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، أعمال ملتقى التصوّف الإسلامي العالمي للفترة بين 16 - 18سبتمبر 1995، إصدار جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية.
- منظمة المدن العربية، كنوز القدس، طبع بإيطاليا في مطابع (SAGDOS ,Brugherio (Milano في إدارة الموسيقى والفنون الشعبية، مطبعة الدار التونسية للنشر سنة 1979.
- فكتور سرّاس ومحمد الأصرم تونس 1900. لبنان (طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى سنة 1349 هـ بالمطبعة السلفية ومكتبتها بمصر). نوفمبر 1983.

المصادر غير العربية

- Octave DEPONT & Xavier COPPOLANI, les confréries religieuses musulmanes, Algérie :1897. .
- 1997 Encyclopédia Universalis France:
  A - Maraboutisme, ARNALDEZ Roger .
  B - Soufisme, CHABBI Jacqueline.
  C - Confréries musulmanes, AGERON Charles-Robert
- AFRIQUE AFRICAINE de Michel HUET ; édit : Suisse
- Comprendre l'Islam . FRITHJOF Schuon
- TOUMA (Habib Hassan),La Musique arabe,éd. Buchet/Chastel,Paris1977
- MEDINA (Guido), Monastir Terre de Tunisie, éd.Bouslama. Tunis
- INTERNET ; La voie du Coeur de l'Islam

حسين الحاج يوسف

من مواليد 10 جوان 1946 بالمنستير، تعلّم الموسيقى العربية على يد صالح المهدي، وآلة العود على يد الهادي الجويني قبل أن يختصّ في آلة الكلارينات.

أسّس المعهد الجهوي للموسيقى بالمنستير سنة 1983 وكان أوّل مدير له، كما أسّس وأطّر عديد الفرق الموسيقيّة الوطنيّة والجهويّة.

عمل كأستاذ بالمعهد العالي للموسيقى بسوسة (تونس) وبالمعهد التكنولوجي للموسيقى بباتنة (الجزائر).

أنتج عدّة برامج بإذاعة المنستير مثل «من تراثنا الشعبي» و«نماذج حيّة من الفنون الشعبيّة» وأعدّ برنامج «رحلة مع التراث» على التلفزة الوطنية التونسيّة وعديد البرامج بالإذاعات الوطنية بصفاقس والكاف وقفصة.

ملحّن وشاعر ومؤطّر بيداغوجي، تُعتَبر أعماله التوثيقيّة مصدرا هامّا لجلّ الباحثين في الموسيقى التونسية.

عضو لجنة التحكيم بالمهرجان الوطني للطرق الصوفية بقابس والمهرجان الوطني للشعر الشعبي بدوز والمهرجان الوطني للمالوف بتستور وشهادة الموسيقى العربية بتونس.

عبد الوهاب بوزقرو

من مواليد 31 مارس 1946 بالمنستير، توفي في 25 جويلية 2013. زاول تعليمه الابتدائي بالمدرسة القرآنية بالمنستير ودراسته الثانوية بالمعهد الثانوي للذكور بالمنستير ومنه تخرج سنة 1966. بديبلوم ترشيح المعلمين.

قضى تربصا بيداغوجيا بدار المعلمين بتونس سنة 1966 و 1967.

درّس الفرنسية والعربية ببعض مدن ولاية المنستير.

انقطع عن التعليم سنة 1970 وكوّن لنفسه مشروع المكتبة العربية.

التحق سنة 1975 بإدارة بلدية المنستير حتى خرج منها على التقاعد سنة 2006.

وهو من أول أصحاب البرامج بإذاعة المنستير.

له عدة مؤلفات مثل «روسبينا الملاحم» (قصيدة شعرية من بحر البسيط تعد 1600 بيت تروي تاريخ مدينة المنستير) و«هيام» (ديوان شعر) و«البذور والجليلة» (مسرحيتان تعالجان مشكلة الحرب) و«الرحلة الكبرى» وعدة مؤلفات أخرى مخطوطة.



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

23، نهج المطلزين - المنطقة الصناعية الشرقية - أريانة - تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ - الفاكس : 975 838 70 216+



هذا الكتاب

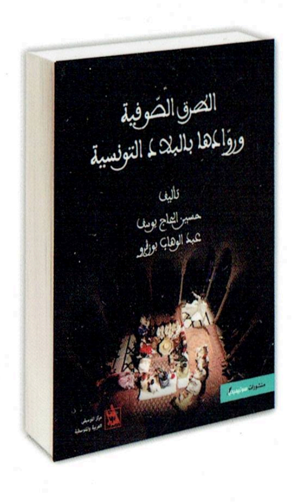
تحمل كلمة التصوف بين طيّاتها عالما فريدا من الرّؤى النّورانية الشفّافة، كما تتفرّد عن غيرها بما اعتبره البعض تجربة دينية شعورية وجدانية صرفة، كما اعتبره آخرون «الإسلام بالذوق» ، وهي خاصية استحوذ عليها التصوف.

وكلمة الذّوق هنا تحملنا إلى معان أخرى، فلا يمكننا الحديث عن الذّوق دون التطرق إلى الفنّ، وهذا ما أدركه مشائخ الصوفية، فالجمال المودع في الفنّ ورحلة الفنّان التي تمثل كذلك رحلة وتجربة تأملية مطردة ومتكررة قد تتطابق في بنية هيكلها التفكيري ورؤية الصوفي أو المتصوف للكون والوجود التي يتخذها مطية وسلما قصد الاتصال بالعالم العلوي الروحاني المنشود.

ومظاهر استعمال وإقحام الفنون داخل الزوايا عديدة قصد إضافة مسحة جمال تساعد مرتاديها على الترقّي في تهذيب الذّوق، فنجد تنظما في الإجتماعات، ووحدة في اللّباس، ورقصا جماعيا منظّما، وموسيقى وألحان شجيّة تُوقض الوجدان وتهيج الجنان وتهزّ الأركان طربا وانتشاء وشوقا ونداء وهياما ورجاء .

وفي هذا الإطار يتنزل بحثنا هذا، فالزوايا الصوفية في تونس أثّرت وتأثّرت بشكل جلي في تراثنا الموسيقي كما سنراه في طيات هذا الكتاب، وساهمت مساهمة لا لبس فيها في كتابة سطور تاريخ موسيقانا المحلية بما تحمله من خصوصية هوياتية تونسية صرفة تستحق منا عناء البحث والسفر والتنقل لعين المكان في شتى أنحاء الجمهورية لتسليط الضوء على تنوع الطرق الموسيقية الصوفية في تونس.

حسين الحاج يوسف
عبد الوهاب بوزقرو



الطرق الصّوفية وروّادها بالبلاد التونسية

الثمن: 45 د.ت


ISBN 978-9938-61-065-9


مركز الموسيقى العربية والمتوسطية

منشورات سوتيميديا